كتاب الحياة الرهبانيّة

منشورات "أوراق رهبانيّة" (١٩)

كتاب الحياة الرهبانيّة

(١)

أ. جوزف قزّي

الكسليك-لبنان

٢٠٠٨

مقدمة الكتاب

ما من حياةٍ جِدّيّةٍ، تستحقّ التوقّف عندها والتأمّل فيها، مثل الحياة الرّهبانيّة. فهي حياةٌ، في تحديدِها وتعريفها وتأسيسِها وقيَمِها، تضع في أهدافها الأولى وبرامجها الأساسيّة السير نحو الاتّحاد ب الله والوحدة معه ومشاركته في ألوهيّته.

في جوهر الحياة الرهبانيّة، أنّها حياة تتطلّب ممّن اعتنقها ألاّ يقف عند حدّ، أو ألاّ يكتفي بشيء، لئلاّ يكفّ عن السعي الدؤوب نحو الله. ففي عالم الروح، لا اكتفاء بشيء، ولا وقوف عند أي شيء. الكلُّ يسير، وإلى الأمام يسير، والكلّ يعمل على الاقتداء والتشبّه بالربّ والاتّحادِ به إتّحاداً كاملاً ونهائيّاً.

وفي جوهر الحياة الرهبانيّة، أيضاً، أنّها حياة تتخطّى أمور الأرض، وتنظر دائماً إلى أمور السماء. إنّها تطمع دائماً إلى ما لم تحصل عليه؛ وتعمل على تخطّي ما هي فيه؛ وترغب في الحصول على ما هو أكمل وأسمى. حدودها ما خلقَ الله في الإنسان من شوقٍ إلى مَن هو الكمال بعينه.

وفي جوهرها، كذلك، أنّها تتحدّى ذاتَها. ولا ترتاح إطلاقاً إلى ما هو عادي ومألوف. فهي تهوى المفاجآت، وتخشى التقاليد، وتروم

الصعاب، وتدقّ أبواب المستحيل، وترتاح إلى كلّ ما هو أبديّ ومطلق؛ ولا ترتضي بما هو نسبيّ، أو بما هي فيه من سخيفٍ وزائل.

وفي جوهرها، أخيراً، إنّها تتحدّى الله نفَسه، فتريده هو نفسه، تريد الامتلاءَ منه، والفناءَ فيه، والسعادةَ معه، ومشاركتَه في ألوهيّتِه، والاتّحادَ الكامل به. إنّها لا تخشى الشِّرْك، ولا الحلوليّة، ولا الاتِّحاد، ولا وحدة الوجود.. تلك نظريّات أفسدتْ غايتَها في غير المسيحيّة.

***

بغير هذه كلّها، تفقد الحياةُ الرهبانيّةُ ذاتَها، وتتنكّر لهويَّتِها، وتتنافى مع ما تقوم عليه من قِيمٍ، وأخلاقٍ، ومصداقيّة، ورؤى. وبكلمة نقول : إنّ الحياة الرهبانيّة تبغي الحياةَ في الله، أي تطمح إلى أن تصير مثل الله، وتتّحدَ به، وتشاركَه في سعادته وحياته الإلهيّة.

لكن، وبسبب هذا الطموح اللاّمحدود نفسِه، تتعرّض الحياةُ الرهبانيّة للفشل والسقوط؛ بل ما من حياةٍ تتعرّضُ للفشل والسقوط مثلما تتعرّض له الحياةُ الرهبانيّة. إنّها سريعةُ العطب؛ وتسقط سقوطاً عظيماً بسبب شموخها؛ وقد ينحطّ معتنقوها انحطاطاً مشيناً وينكسرون، ويُفسدون العالم.

لهذا بات من أوجب الواجبات على معتنقي الحياة الرهبانيّة أن يساندوا بعضهم بعضاً، وأن يشجّع الأقوياء فيها الضعفاء، وأن يُقيم

الواقفون المتعثّرين، وأن يَشهدوا لما به يؤمنون شهادةً حقيقيّة في عالمٍ مالَ عن الحقّ والاتّحاد ب الله. وعلى العالَم أن يصلّي لهؤلاء لكي يبقوا منائر.

وبالمقابل، بمقدار ما يميل هذا العالم عن "الطريق والحقّ والحياة "، بمقدار ما على معتنقي الحياة الرّهبانيّة أن يتشدّدوا في محاربة الشرِّ الذي فيهم، ويعملوا على تقديس أنفسهم، ويجاهدوا في إظهار قِيم الإنجيل، ويساعدوا الكنيسة في رسالتها ونشر تعاليمها. ونحن، بالرغم من هذا الضعف الذي فينا، نبغي الشهادةَ لهذه الحياة.

***

نجمع في هذا الكتاب ما كتبناه خلال عشرات السنين، في مجلاّت عديدة، مثل : أوراق رهبانيّة، والمنارة، والرعيّة، وبيبليا، وغيرها... نجمعه ونضبطه في أبواب محدّدة، فصّلناها بحسب وحدة موضوعاتها. وكتبناها بأسلوبٍ حديث، فيه بعض الطرافة، وبطريقة غير مألوفة، وخارجة عن المعتاد.

وقد يجد فيها الرهبان والراهبات موضوعات للتأمّل في الحياة الرهبانيّة وقيمها؛ وكذلك قد يجد العلمانيّون ما يجب أن يعرفوه عن الحياة الرهبانيّة وعن نشأتها وأصولها وقيمها وقوانينها.. وهذا واجب عليّ كما على كلّ مَن اعتنق هذه الحياة أن يعرّف الآخرين بهذه الحياة

التي يجهلها كثيرون، أو لهم عنها أفكار غير صحيحة، أو كوّنوا عنها ما يشاؤون هم.

وإذا ما نظر القارئ مليّاً في فهرس الكتاب، فلا يجد موضوعاً واحداً متماسكاً من البداية حتّى النهاية؛ إنّما قد يجد نظرةً شخصيّةً إلى الحياة الرهبانيّة.

كما يجد خبرتي لهذه الحياة إنطلاقاً من الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، واستناداً إلى قوانينها وفرائضها وتقاليدها؛ واعتماداً على معاناتها الكبيرة في هذا المجتمع اللبناني التعيس؛ ذاك لأنّ الحياة الرهبانيّة، مهما كانت سامية و "ليست هي من هذا العالم"؛ فإنّها "تعيش في هذا العالم "، وتتعامل معه كما هو وحيث هو.

وفي مختلف الموضوعات التي أتطرّق إليها، قد عالجتها، ليس بسبب معاناتي الشخصيّة معها وفيها؛ بل أيضاً بسبب ما أرى في المجتمعات الرهبانيّة كافّةً، المعاناة نفسها. وآمل أن أعرضها، وأعالجها، بصدقٍ وصراحةٍ وإخلاص، وأصل إلى حلٍّ يُرضي الضمير والحالةَ إيّاها.

ويبقى لديّ أمنيّة كبيرة، هي أن يساعدني إخوتي، معتنقو هذه الحياة، في الكشف عن سرّها، عن غناها، وقيمها، لنقدّمها للعالم نموذجاً عن الحياة المسيحيّة الحقّة؛ إذ ليست الحياة الرهبانيّة غير الحياة المسيحيّة إلاّ بمقدار ما تطمح إلى عيش الأصوليّة الإنجيليّة الصادقة.

عندئذٍ يتوجّب علينا أن نسير على خطى القديسين الرهبان الذين هم من جبلتنا: شربل ورفقا ونعمة الله وإسطفان وغيرهم..

وأرجو، في الختام، أن أقدّم لإخوتي الذين يشاركوني في هذه الحياة رؤيتي ومحبّتي لها، ومعاناتي الصادقة في تجاريبها.. إنّها، حقّاً، حياة غير حياة البشر. وكلّ شيء فيها يكاد يكون جنوناً عند أناس هم في قمّة التعقّل.

الفصل الأوّل

تعريف بالحياة الرهبانية

١ . قانون ٤١٠
٢ . "تقدّمْ إلى العباب"
٣ . "الحاجة إلى واحد"
٤ . ظاهرة الحياة الرهبانيّة
٥ . معرفة الحياة الرهبانيّة

١

قانون ٤١٠

جاء في تعريف الحياة الرهبانيّة ما يلي : " الحالة الرهبانيّة هي طريقةٌ ثابتةٌ للحياة المشتركة، في إحدى المؤسّسات التي ثَبَّتَتْها الكنيسة. فيها يتّبعُ المؤمنونَ المسيحَ، بفعل الروح القدس، اتّباعاً أشدَّ التزاماً، فيتّخذونَه معلِّماً ومثالَ قداسة؛ ويكرِّسونَ ذواتِهم على نحوٍ جديدٍ وخاصّ، بنذرهم نذراً عموميًّا الطاعةَ والعفّةَ والفقرَ، وممارستِها بحسبِ الفرائضِ تحتَ قيادة رئيسٍ شرعيّ، مُتخلِّينَ عن العالَم، وعاكفينَ كلِّيًّا على اكتسابِ كمالِ المحبّة في خدمة ملكوت الله، لأجل بناء الكنيسة وخلاص العالم، كعلاماتٍ تنبئُ مسبَّقاً بالمجد السماوي"[1].

هذا تعريف شامل كامل، يتناول نقاطاً جوهريّة وأساسيّة. منها :

١ . إنّ الحياة الرهبانيّة هي حالةٌ ثابتة، تقوم، أساساً، على الحياة المشتركة، في مؤسّسة رهبانيّة، مؤلّفة من أفرادٍ عديدين، تعترف بها الكنيسة. ويعيشون، كعيلةٍ واحدة، تعاليمَ الإنجيل، بمحبّة فائقة ومجرّدة.

1 مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة (**م ق ك ش**)، الباب الثاني عشر، في المتوحّدين وباقي الرهبان، وفي أعضاء مؤسَّسات أخرى للحياة المكرّسة؛ الفصل الأوّل، في المتوحّدين وباقي الرهبان؛ القسم الأوّل، قوانين عامّة، ص ٢٤٨.

٢ . هدف الرهبان وغايتهم في هذه المؤسّسة هو اتّباع المسيح، متّكلين على نعمةِ الروح القدس وعملِه فيهم، فيكون المسيح لهم معلِّماً ومثالاً وقدوةً . إنّه هدفهم الأوّل والأخير. وهو الضروريّ الأوحد في حياتهم.

٣ . وهذا لا يكون لهم إلاّ بالتزامٍ شديد، وتكريسٍ مطلق، وبشكلٍ كاملٍ ونهائيّ؛ كالتزام المعموديّة وتكريسها وثباتها واستمراريّتها. ولكنّه هو أمر خاصّ لبعض المدعوِّين، وليس لكل المؤمنين؛ ممّا يحمّلهم مسؤوليّةً أكبر.

٤ . وذلك يكون بواسطة نذور ثلاثة : الطاعة والعفّة والفقر، بموجب ما تفرضه القوانين، وتوجيهات الرؤساء، ومتطلّبات الحياة المشتركة، وتقاليد المؤسّسة التي فيها يعيشون، ويعملون، ويقدِّسون بعضهم بعضاً.

٥ . ولكي تكون هذه الحياة كاملةً، ومنسجمةً مع متطلّبات النذور والحياة المشتركة، لا بدَّ من خلقِ أجواء ملائمة لعيشها. وأهمّها التخلّي عن العالم وخيوره، بالرغم من أنّها هي أيضاً وسيلةٌ للملكوت.

٦ . غير أنّ خدمةَ الملكوت، إنّما تكون في الحياة الرهبانيّة، أكثر فاعليّةً في بناء كنيسة المسيح على الأرض، وأكثر إسهاماً في خلاص العالم، وتوجيهه نحو الملكوت. وكلّ ذلك علامات سابقة للمجد السماويّ.

نستطيع أن نختصر عناصر هذا القانون بما يلي :

١) التكرّس المطلق والنهائي لله؛
٢) اتّباع المسيح والاقتداء به؛
٣) الانتماء إلى الكنيسة والعمل بتوجيهاتها؛
٤) الحياة الجماعيَّة المشتَرَكة في الدير؛
٥) الثَّبات في نَمَطِ حياةٍ رُهبانيّة معيَّنة؛
٦) أداء نذور الطاعة والعفّة والفقر؛
٧) حفظ القوانين والفرائض والتقاليد؛
٨) الخضوع للرؤساء الشرعيّين؛
٩) موافَقة السُّلُطات الكَنَسيّة، وإقرارها لهذه الحالة.

هذه أهمّ ما في تعريف الكنيسة للحالة الرهبانيّة، في مختلف أنواعها وأشكالها. وهذا الكتاب ما هو إلاّ تفصيل وتوضيح لعناصر هذا القانون العامّ، وذلك في معالجة موضوعات أساسيّة لمقوّمات الحياة الرهبانيّة، أكانت هذه الموضوعات تتناول الراهبَ كفردٍ، أم موضوعات تتناول الجماعة كمؤسّسة تعمل من أجل ملء قامة المسيح في الكون.

قد يكشف هذا البحث عن بعض الجرأة في معالجة أمورٍ عميقة

الجذور في النفس البشريّة، وعن صراحة كبيرة في التدليل على صعوبات هذه الحياة، وعن رفع الستار عن أسرارٍ قد لا نجدها عند الإنسان العاديّ، وعن الكلام على غنى هذه الحياة في مختلف تجاريبها واختباراتها.

الهدفُ من كلّ هذا، معروف وواضح. وقد يتّضح ويُعرف أكثر إذا ما رجعنا إلى غنى تاريخ الحياة الرهبانيّة في الكنيسة، في الشرق أو في الغرب، وإلى سِيَر الرهبان والراهبات وأقوالهم ومعاناتهم مع الله؛ ولكن من دون أن يدفعنا ذلك إلى البحث التاريخي والغوص في التاريخ الرهبانيّ الذي يتطلّب بحثاً آخر.

وسوف يتّضح المطلوب، من خلال ذلك، وهو، في الحقيقة، أمرٌ غير مألوف عند الناس العاديّين، الذين لا يتحمّلون، ربّما، مثل هذه الأبحاث غير المألوفة في نمط تفكيرهم ومنهج حياتهم. هذا الأمر الطريف يختصره قولُنا : إنّ "الرّاهب عاقل.. جُنَّ جُنونه".

بالإضافة إلى ذلك، لا بدّ من تفصيل مقوّمات الحالة الرهبانيّة، وطرق عيشها، وأنواعها، وأشكالها، وقوانينها الأساسيّة، وأهدافها، ومفهوم الكنيسة لها.

٢

"تَقَدَّمْ إلى العُباب"

(لوقا ٥ / ٤)

جاء كلامُ يسوع هذا إلى سمعان بطرس، عندما "ازدَحمَ الجمعُ على يسوع يُصغي إلى كلمة الله. وكان يسوع واقفاً على شاطئِ بُحيرة جِنِّيسَرة. فرأى قارِبَينِ راسِيينِ عند شاطئها.. وكان أحدُ القاربَين لسِمعانَ، فصعِدَ يسوعُ إليه، وسأل سمعانَ أن يتباعدَ به قليلاً عن البَرّ.. ولمّا فرغ من الكلام، قال لسمعان: تقدَّمْ إلى العُباب، وأَلقُوا شباكَكم للصَّيد. قال سمعان: يا معلِّم! عَنِينا الليلَ كلَّه، وما أَصَبْنا شيئاً. ولكنَّكَ قلتَ، فأنا أُلقي الشِّباك. وفعل الصيّادون، وأصابوا سَمكاً كثيراً جدّاً، وأخذَتْ شباكُهم تتمزَّق.. ورأى ذلك سمعانُ بطرس، فأكبَّ على رُكبَتَي يسوع، وقال: ابتَعِدْ عنّي. يا ربّ، فإنّي رجلٌ خاطئ.. وقال يسوع لسمعان: "لا تخفْ. فمنذ الآنَ تصطادُ بَشراً.. وعادَ الصيَّادون بالقارِبَينِ إلى البَرّ، وتركوا كلَّ شيء، وتَبِعوا يسوع" (لوقا ٥ / ١-١١؛ رَ: متى ٤ / ١٨-٢٢؛ مر ١ / ١٦-٢٠؛ يو ٢١ / ١-١١).

يعلِّق شرّاحٌ على الجملة الأخيرة، "وتَبِعوا يسوع"، وقالوا: ".. يشدّد لوقا على ترك التابعِ كلَّ شيء" (٥ / ٢٨؛ ١٨ / ٢٢؛ ١٢ / ٣٣؛ ١٤ /٣٣).

على المسيحيّين، في أيِّ مكانٍ وزمان، أن يعيشوا إيمانَهم. غير أنّ هموم الأرض، وسرّ الشرّ الطاغي في العالم، وتأخّر مجيء الملكوت، كانتْ سبباً لدعوةِ أناسٍ إلى اعتناق الحياة الرّهبانيّة التي، فيها، قرّروا، بنعمةٍ خاصّة، أن يبتعدوا عن الشاطئ، وعن ازدحام الجمع، وينحازوا إلى العمق، ويُلقوا الشِّباك، ليحظوا بالصيد العجيب (لو ٥ /١-١١).

ليس الرّهبان من ذاك "الجمع المزدحم على يسوع عندما كان واقفاً على شاطئ البحيرة". الواقفون على الشاطئ هم، عادةً، سطحيّون، يسمعون كلمة الله من دون دويٍّ لها أو انفعال. لهذا قرّر يسوع ترْكَهم، والذّهاب عنهم بعيداً، إلى عمقِ البحيرة، برفقة الذين يعرفون الإصغاء إلى الكلمة، ويهمّهم اكتشاف ضعفهم ومعرفة سرّ الملكوت.

الابتعاد عن الشاطئ، وعن ازدحام الجمْع، واتّباع يسوع إلى الأعماق، شروط لا بدّ منها ولا بديل عنها. هذه تسَمَّى، في الحياة الرهبانيّة، التبتعاد عن العالم، والعيش في الدير بتوبة وهدوء وسكينةٍ، بعيداً عن هموم النّاس وانشغالاتهم، لكي لا يكون لهم شغلٌ إلاّ مع الرّب، حيث هو في عمق أعماقنا.

"التقدّم إلى العُباب"، أو "النزوح إلى العمق" (٥ /٤) يعني، في القاموس الرهباني، اتّباع الرّب، والاقتداء به، والتنصّت إلى همساته، والغوص في معاني كلماته، واقتناص تعاليمه، والعمل على اكتشاف

سرّه، والبحث عنه في العمق، والحياة معه، والاتّحاد به وحده على أنّه الضروري الأوحد.

المتقدِّمون إلى العُباب، والنازحون إلى الأعماق هم من طينة أولئك الرسل المختارين، الذين صعدوا إلى القارب برفقة المعلّم. وهم اليوم هؤلاء الرهبان المتقدِّمون في الصفوف الأماميّة، المتميِّزون عن سائر المؤمنين، الذين زادوا على التزامهم المسيحيّ العاديّ إلتزاماتٍ أخرى أكثر عمقاً وأشدّ صلابةً.

و "إلقاء الشباك" من دون حساب، أو تفكير، أو تردّد، أو شكوك، إنْ كانوا سيصيبون صيداً أو لا. إنّه نتيجة إيمان عميقٍ، واستسلامٍ مطلق لكلمة المعلّم (٥ /٥)، وطاعةٍ لمشيئته. ولكن لم يكن هذا الاستسلام المطلق لمشيئة الرّب إلاّ بعد اختبارِ الاتّكال على الذات، بأنّه فاشلٌ، لا يفيد شيئاً، ولا يوصل إلى نتيجة.

فبعد "عناء اللّيل كلّه" (٥ /٥)، وإيمانٍ بكلمة الرّبّ، أُلْقِيتِ الشباك : "أنتَ قلتَ. فَأنا أُلقِي الشِّباك" (٥ /٥). هكذا أعلن سمعان بطرس. وعلى خطاه بالتمام، يُعلن الرّهبان، اليوم، عند دخولهم الدّير، بأنّهم سيسيرون بموجب مشيئة المعلّم وتعاليمه، وسيسلكون بموجب النعمة التي وهبَها لهم، وساندهم بها.

وكان "الصَّيدُ" بالرغم من قلّة السَّمك في تلك البحيرة وفي تلك الليلة عجيباً : لقد قال الربُّ كلمتَه، فألقى الصيّادون شباكَهم، "وأَصَابوا سَمَكاً كَثيراً جدّاً. وأخذتْ شباكُهم تتمزّق". إنّ النتيجة أكيدة، بسبب كلمة

الربّ وإيمان الصيّادين. يجب أن تكون المعادلة واضحة حتّى يكون الجواب واضحاً : الربّ يتكلّم. والإنسانُ يلبّي. فلا الربّ وحدَه يعمل من دوننا؛ ولا نحن ننال شيئاً من دونه.

وثمّة نتيجة أخرى، هي، أيضاً، أكيدة : عندما قام بطرس و"انْكَبَّ على ركبتَي يسوع"، وطلب منه : "إبْتَعِدْ عَنِّي يَا ربُّ! فَإنِّي رَجُلٌ خَاطِئ". إعلان صادق من بطرس : إنّ الابتعاد عن الشاطئ، وعن ازدحام النّاس، والتقدّم إلى العُباب، والصيد العجيب... كلّها كشفتْ عن ضعفِ الإنسان وخطيئتِه.

بطرس، رئيسُ الكنيسة العتيد، وليس غيره، أعلنَ، قبلَ غيره، أنّه رجلٌ خاطئ. أعلنَ ذلك من دون أن يُقرَّ بالتفصيل عن خطاياه التي ارتكبَها. يكفيه، على ما يبدو، أن يعرف حالتَه أمام هذا الحدث العجيب. إقرار بطرس بضعفه وخطيئته، بعد اضطرابه الصادق، وإيمانه المطلق، ومعرفته نعمة الرّب، وعرفانه الجميل لها وبما أصاب من الصيد. كلّها كانت دافعاً للربّ، ليذهبَ بعيداً مع بطرس الصادق الغيور المتحمّس والمعترف بنقائصه، ويقول له : "لا تَخَفْ! فمنذ الآن تصطاد بشَراً" (٥ /١٠).

لا نسبة بين "اصطياد البشر"، واعتراف بطرس بخطيئته. أن يكون بطرس رسولاً للربّ يوقع البشر في شباكه، كما وقعَ السمك في تلك اللّيلة في شباك الصيد، يعني أنّ دورَ بطرس وأمثاله، الذين تركوا الشاطئ ونزحوا إلى الأعماق، وغاصوا في العباب، لهو دورٌ كبيرٌ جدّاً

في اعتقالِ الناس إلى يسوع، كما عبّر عن ذلك رسولٌ آخر لم يكن همُّه إلاّ اعتقال العقول إلى يسوع.

وكان، بعد الذي صار، تلك اللّيلةَ، أن عاد بطرس ومَن معه إلى البرّ، إلى الشاطئ، من دون خوفٍ ممّا في البرّ من عوائق وشوائب. وقرّر، ومَن معه، أن "يَتركُوا كلَّ شَيءٍ وَيَتْبَعُوا يَسوع" (٥ /١١). إنّه قرارٌ حاسم، لا يقبل تسويفاً ولا تفكيراً ولا مماطلة، ولا أخذاَ وردّاً، ثمّة فعلٌ وردّ فعل. بطرس، المعروف بحماسه، قرّر للحال. فمتى وُجدَ السببُ واضحاً فالنتيجة أيضاً يجب أن تكون واضحة. صيدٌ عجيب نتيجته تركُ كلِّ شيء واتّباع يسوع.

هكذا يكون مَن له صفة الرئاسة والقيادة. يقرِّر فيسير. ثمّ يطلب من رفاقه أن يلحقوه. ولحاقهم به ليس لحاقاً أعمى. فهم رأوا أيضاً ما رأى بطرس. ولكن يلزمهم، لكي يسيروا، قائد متحمِّس مقدام يسير فتسير القافلة معه.

إنّي لا أجد الراهبَ، في بعده وعمقه وهويّته، غير هذا : إبتعادٌ عن العالم، إنفصال عن الناس، صعودٌ مع يسوع، نزوح إلى الأعماق، تقدّمٌ إلى الأمام، سماعُ كلمة الربّ. ثمّ صيدٌ عجيب، ثمّ اكتشاف ضعفه وخطيئته. وبعد ذلك، تنكشف للحال حاجتُه إلى النعمة، ويرى المسافة بينه وبين الربّ، لهذا يطلب من الربِّ أن يبتعد عنه.

هذه المسافة بين البارّ والخاطئ تربك المعادلة بين الطرفَين. فلا بدّ من تدخّل من قِبَلِ الربّ من جديد، ليقرِّبَ المسافة. فكان ذلك عندما

كمّل الربّ سعيَه فقال لبطرس ومن معه: منذ الآن تبتدئ تصطاد البشر.

وثمّة جوابٌ آخر للتلاميذ كان لا بدّ منه، وهو، ومن دون أيّ تردّد : إتّباع يسوع بشخصه، لا من أجل تعاليمه فحسب. الآن، على ما يبدو، لا يهمّهم ما يعلّم يسوع، ولا ما يعمل، ولا ما يقرِّر، ولا ما يصنع من عجائب.. بل يهمّهم أن يتبعوه شخصيّاً، ولو أودى بهم ذلك إلى العذاب والألم والصليب والموت.

إنَّ ترْكَ كلِّ شيء واتّباع يسوع هو "عمق" الرّاهب في ديره، حيث يحظى بالصيد العجيب. من هذا "العمق"، أي من الدير، ينطلق في اصطياد البشر. ثمّ يعود إلى الدير ليتقدّم إلى العمق مجدَّداً، ويكتشف ضعفَه ووهنَه. وحينئذٍ تفيض نعم الربّ عليه فيُصبح كأولئك القدِّيسين الذين ابتعدوا عن الشاطئ ونزحوا إلى العمق.

٣

"الحَاجَةُ إلى وَاحِد"

(لو ١٠ / ٤١)

وفي كلامٍ تأسيسيٍّ آخر ليسوع نجد أسسَ الحياة الرهبانيّة التي تسعى نحو غاية واحدة، هي القداسة. ومَن يضع لها غيرَ هذه الغاية يضلّ ضلالاً بعيداً، ويأثم إثماً عظيماً. ومَن يعتنق الحياةَ الرهبانيّة من أجل أيِّ هدفٍ آخر غير تقديس نفسه، فهو يتيه كثيراً، ويرتكب معصيةً جسيمة.

لا يُقبَل امرؤٌ في سلك الحياة الرهبانيّة إنْ لمْ يكنْ واضحاً لديه، منذ البداية، الهدفُ الذي من أجله اعتنق هذه الحياة. ولا يحقُّ لإنسانٍ أن يبقى لحظةً واحدة في الحياة الرهبانيّة إنْ غيَّر هدفَه الذي من أجله أصبح راهباً.

إنّ كلّ ما في الحياة الرهبانيّة من مشاريع، وطموحات، وأعمال، يجب ألاّ يغري أحداً إنْ فاتَه الهدف. فكلّ ما يقوم به الراهبُ من أنشطةٍ، فكريّة، أو عمرانيّة، أو إداريّة، أو أيّ شيء آخر، لا نفع له إنْ لم يكن المطلوبُ مطلوبَ مريم لا مطلوب مرتا :

"مَرتا، مَرتا، إنَّكِ تَهْتَمِّينَ بأمُورٍ كَثِيرةٍ، وَتَضْطَرِبِين، وَالحَاجَةُ إلَى وَاحِد. فمريمُ اختارَتْ خيرَ نصيب، وَلَن يُنزَعَ منها" (لو ١٠ / ٤١-٤٢)، وهو حبُّها ليسوع وخدمته، ولو على حساب كلِّ شيء.

همٌّ مريم واحد، ومطلوبها واحد، وحاجتها أيضاً واحدة؛ ونصيبها خير نصيب. وهي لا تبغي سواه. أمَّا هموم مرتا فكثيرة؛ ولذلك فهي في حالة ارتباكٍ واضطراب؛ فلا بدَّ، والحال هذه، من أن تتكاثر عندها الحاجات، فتضيّع الطريقَ والهدف.

لم يرفض يسوع خِدمةَ مرتا؛ فهو، أيضاً، جاء "ليَخدُم". ولم يرفض اهتمامَها به؛ فهو "ضيفٌ" في بيتها، مكرَّم بحسب عادات أهل ذاك الزمان. إلاّ أنّ كثرة انشغالها وحركتها دليل على كثرة محبّتها له. وهو يعرف ذلك.

هذا هو شأن النّاس عامَّة مع ضيوفهم. وهو لا يُلام عليه إنسان؛ بل هو دليل محبّة وتكريم. فمرتا، بما تعمل، تمثّل الحياة المسيحيّة عامَّة. أمّا مريم، بما وجدتْ من حاجة إلى يسوع، فتمثّل الحياةَ الرهبانيّة بنوع خاصّ.

لقد اختبرتْ مريم محبّةَ يسوع لها، إذ غفرَ لها ذنوبَها، وسامحها؛ فلا يُطلب منها شيء إلاّ أن تبادلَه الإصغاءَ إليه، والتحدّث معه من القلب إلى القلب، وتنظر إليه، وتتأمّل فيه، وتحبّه حتّى العشق.

مريم تُريدُ المزيدَ من ضيفِها، عكس مرتا التي تريد أن تكرّم ضيفها بحسب المألوف. مريم تريد أن تأخذ من ضيفها، أمّا مرتا فتريد

أن تعطيه ممّا عندها. وهي تعلم، أو لا تعلم، أنّ ما عندها هو منه. هذا شأن أهل الدنيا الذين يردّون إلى الله ما يظنّونه أنّه لهم. أمّا شأن مريم مع الربّ فهو أن تشاركه، تبادله، تحاوره، تسايره، تُصغي إليه، تسمع منه، وتذوب في محبّته.

في تصرُّف مرتا مع يسوع يبدو الوجهُ العالمي؛ أمّا في تصرّف مريم فيبدو الوجه الإلهيّ. ونحن، في حقيقة وجودنا، نحتاج إلى اللهّ حاجتنا إلى واحد فقط. به نكتفي عمّن سواه. وهذا أمرٌ طبيعيّ. لهذا يُخشى، في كثرة الحركة أن تتكاثر همومنا وارتباكاتنا ومهامّنا وأعمالنا ومشاريعنا وخدماتنا الإنسانيّة والاجتماعيّة التي معها قد يضيع الهدف.

شأن مرتا مع يسوع شأن عامّةِ الناس الذين كانوا يسمعون له وهو يخاطبهم من على شاطئ البحر؛ أمّا شأن مريم فشأن التلاميذ الذين طلبَ يسوعُ منهم أن ينزحوا إلى العمق، حيث يريد منهم ألاّ تكون حاجتهم إلى سواه (رَ: لو ٥ / ١-١١).

مع شغف مريم بيسوع، كما مع الرسل النازحين إلى العمق، نشأت الحياةُ الرهبانيّة وتأسّست. مع "الحاجة إلى واحد"، وهو الذي اختارتْه مريم، تأسّستِ الحياة الرهبانيّة في الكنيسة وانطلقتْ.

والنذور الرهبانيّة لا تعني غيرَ ذلك : فنذر الفقر يعني الانقطاعَ عن كلِّ خيرات الأرض وهمومها؛ وكذلك نذر العفّة يعني الاهتمام بما هو للملكوت وحسب؛ وكذلك أيضاً نذر الطاعة يعني التخلّي عن الإرادة

الذاتيّة والحرّيّة الشخصيّة، والالتزام الكلِّي بما يشاءه الله، كما علّمنا : "لِتَكُنْ مَشِيْئَتُكَ".

لا تخدعنا كثرة المهمّات والخدمات، حتّى ولو كانت جليلة وعظيمة. إنّ القداسة هي الغاية الوحيدة للحياة الرهبانيّة. كم كان جوابنا ساذجاً عندما كنّا نُسأَل في بدء اعتناقنا الحياة الرهبانيّة : "لماذا جئتَ تترهّب؟ - الجواب : لأخلِّص نفسي". ما أصعب السؤال، وما أبسط الجواب.

ولكنّ الحقيقة تكمن في تلك الصعوبة السهلة، وفي هذه البساطة المعقّدة : بساطة الحياة الرهبانيّة لا تماثلها في الأرض صعوبة؛ وصعوبة الغاية لا ينالها إنسانٌ بسيط. لهذا نقول ونردّد بأنّ "الراهب عاقلٌ.. جُنَّ جُنونُه". أي ما من إنسانٍ، إنْ لم يكن في غاية الوعي والتعقل، يستطيع اعتناق الحياة الرهبانيّة. وكذلك، ما من إنسانٍ يعتنق الحياة الرهبانيّة إلاّ وهو حقًّا في ذروة الجنون : مجنون بما يدفعه إليها؛ ومجنون بالغاية التي يتوخّاها منها؛ ومجنون بمسيرته الصعبة في كلّ شيء. فالتخلّي عن كلِّ شيء، ونحن في هذا الجسد المتطلّب كلّ شيء، هو جنون الحياة الرهبانيّة.

٤
ظاهرة الحياة الرهبانيّة

١ . لم تكنِ الحياةُ الرهبانيّة يوماً حكراً على شعبٍ، أو دِين. إنّها ظاهرةٌ شاملةٌ الشعوبَ والبلدانَ والعصورَ والأديانَ كلَّها. حتّى الإسلام، الذي تنكّر لها، وعُرِف عنه قولُ نبيِّه بأنْ "لا رهبانيّةَ في الإسلام"، كثُرَ المتصوِّفون فيه، وكان بعضهم أكثر تشدّداً في إماتة أنفسهم وقهر أجسادهم من الرهبان المسيحيّين وزّهادهم.

٢ . ظاهرةُ الحياة الرهبانيّة هذه بدتْ، عَبرَ التّاريخ، وكأنّها بُعدٌ إنسانيٌّ عميقٌ في النفس البشريّة. إنّها نزعة صادقةٌ صريحةٌ نحو الأفضل والأكمل والأمثل. اعتنقها أشخاصٌ نشدوا المُثُلَ العليا، وطمعوا في الشراكة مع الله، فابتعدوا عمّا هو نسبيٌّ وزائل؛ واتّجهوا صوب المطلق والكامل.

٣ . ليست الحالة الرهبانيّة أمراً عاديّاً ومألوفاً في العالم؛ ولكنّها أيضاً ليستْ غريبةً عنه، ولا ضدّه : في الإنسان ميلٌ إلى الزهد والنسك والتبتّل والإماتة، كما فيه ميلٌ إلى حياة اللهو واللّذة والشهوة والترَف. طبيعة الإنسان غنيّة بالمتناقضات. كلّها موجودة فيه. إنّه لا ملاك ولا شيطان. وقد يكون الاثنَين معاً. إن شاء كان قدّيساً، وإن شاء كان إبليساً.

٤ . حياة الإنسان، بما فيها من زهد ونسك وتبتّل، تستهوي أناساً؛ وبما فيها من ملذّات وشهوات وأهواء، تستهوي آخرين. وعلى كلّ إنسان أن يختار ما يشاء : إن شاء الشهوات صدّ عنه النعمة؛ وإن شاء التزهّد ساعدتْه النعمة. هذا يعني أنّ اعتناق الحالة الرهبانيّة شأن الإنسان الحرّ، لا شأن الله الذي خلق الإنسان حرّاً.

٥ . يميل الإنسان إلى حيث رَبَّى نفسه أن يميل : يُربّي نفسَه على الزهد ومجاهدةِ الغرائز، فيميل إليها؛ ويُربّي نفسَه على الأهواء والشهوات، فيميل إليها. لقد دعا الله كلَّ إنسانٍ إلى الخير، وفي حرّيّة كلّ إنسانٍ أن يلبّي دعوةَ الله، أو أن لا يلبّيها. كلّ الحالات مفتوحة أمامه، ومنها الحالة الرهبانيّة.

***

٦ . ابتدأتِ الحياةُ الرهبانيّة، في الكنيسة، مع أنطونيوس الكبير، الملقّب بأبي الرّهبان (٢٥١-٣٥٦)، الذي قرّر حياة التوحّد والترهّب، وكان عمره حوالى ٢٠ سنة، وذلك في صعيد مصر. وتبعه العديدُ من رفاقه، فتمرّسوا معاً على الزهد والنسك والتبتّل والابتعاد عن العالم.

٧ . وبعدَ مضيِّ أقلّ من خمسين سنة، قرّر القديسُ باخوميوس (ت ٣٤٦)، سنة ٣٢٣ إنشاء نمطٍ آخر من الحياة الرهبانيّة، بدل طريقة أنطونيوس التوحّديّة، هي الطريقة الجماعيّة، التي تقوم على عيش جماعةٍ من الرهبان بعضهم مع بعض، ضمن إطار حياةٍ جماعيّة مشتركة تعيش في دير واحد.

٨ . ثمّ انتشرتْ هذه الظاهرة، في بُعدَيها التوحّدي والجَماعي، في بلاد السريان. وكان من أعلامها القدّيس مارون (ت ٤١٠) وتلاميذُه. تميّزت سيرتهم بالتقشّف الصارم، مثل النسك في العراء، أو فوق عامود، أو في المُغُر وشقوق الأرض، أو في جوف الأشجار؛ كما تميّزت بأكل الحبوب والأعشاب.

٩ . ثمّ انتشرتْ أيضاً في أنحاء الأمبراطوريّة الرومانيّة : في الكابادوك، مع القديس باسيليوس الكبير (ت ٣٧٩)؛ وفي روما، مع القديسين إيرونيمُس (ت ٤٢٠)، وكسيانس (ت ٤٣٥)، وبنديكتس (ت ٥٤٧)؛ وفي فلسطين مع القديس سابا (ت ٥٣٢).

١٠ . ثمّ توالتِ المؤسّساتُ الرهبانيّة في الكنيسة. ولا تزال تتوالى وتتكاثر، شرقاً وغرباً، رجالاً ونساءً، حتّى يومنا هذا. منها مَن اقتصر على الرسالة والتبشير والاهتمام بشؤون الناس والمجتمع؛ ومنها مَن شدّد على العيش في الأديار بالصلاة والتأمل والابتعاد عن العالم؛ ومنها مَن مارسَ الطريقتَين معاً. وكان لكلِّ شكل ميزتُه ورسالته ودوره وطريقة شهادته.

٥

معرفة الحياة الرّهبانيّة

الحياة الرّهبانيّة حالةٌ من حالات شعب الله الثلاث : الحالة الإكليريكيّة والحالة العلمانيّة والحالة الرّهبانيّة.

وهي واقعٌ حاصلٌ في الكنيسة وفي العالم: الأديار والمنظّمات الرّهبانيّة والجمعيّات والمؤسّسات، النسكيّة والرسوليّة، على مختلف أنواعها وألوانها، تملأ المسكونة. الرّهبان والرّاهبات تجدهم في كلّ مكان وفي أي ميدان. نشاطهم غير مخفيّ على أحد :

منهم من يعمل في الحياة العامّة، في الجامعات والمدارس، في المستشفيات والمياتم والمآوي؛

ومنهم من يعمل في حقول التأليف والفن؛

ومنهم من يخوض غمار السياسة والحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتربويّة؛

ومنهم من يخدم في المجتمع وفي الأعمال الخيريّة؛

ومنهم من يقوم بالرسالات والخدمات الرعويّة...

وإذا كان بعضهم تظهر صورتهم على شاشات التلفاز، ومن على صفحات الصحف والمجلاّت، فإنّ بعضهم الآخر يعتزل في ديرٍ ناءٍ للصلاة والتأمّل والنسك وعيش الزهد وممارسة الأعمال الزراعيّة والخدمات الوضيعة.

وإذا كان بعضهم يحلّق في مجالات القداسة، فإنّ بعضهم الآخر يتعثّر ويسقط ويسبّب عثاراً للآخرين مريباً.

الحياة الرّهبانيّة واقعٌ يفرض في المجتمع المدني نفسَه. والرّهبان والرّاهبات موجودون، معروفون، يعملون في مجالات اختصاصهم المتنوّعة...

أفيجوز، والحال هذه، ألاّ يكون للمسيحي العلماني فكرة واضحة، دقيقة وصائبة عن الحالة الرّهبانيّة؟

***

من المؤكّد أنّ للنّاس، حيال الحياة الرّهبانيّة، مواقف:

بعضهم يجهلها جهلاً تامًّا؛

وبعضهم له عنها أفكار خاطئة ومغلوطة؛

وبعضهم يعرف عنها أموراً سطحيّة لا منفعة فيها؛

وبعضهم يقرّ لها بأهمّيتها وضرورتها في المجتمع؛

وبعضهم ينكر أن يكون لها في المجتمع أيّ دور فعّال، إذ هي في رأيهم، لا تعاش إلاّ منعزلةً في الدّير؛

وبعضهم يحاربها لأنّها لا تعمل إلاّ في ما هو لها؛

وبعضهم يتجنّبها لأنّها تخلق تعبَ ضمير له، إذ لا يمكنه أن يكون بمستواها.

وبعضهم لا يقرّ بأمانة أصحابها لمبادئها...

ولا عجب في هذه المواقف المتناقضة كلّها؛ لأنّ الحياة الرّهبانيّة هي، من جهة، غريبة عجيبة مختلفة بعيدة كلّ البعد عن حياتهم العاديّة وعن مفاهيمهم العقليّة؛ ومن جهة ثانية، هي حياة يعيشها أناسٌ عاديّون، لا ملائكة؛ وبالتالي، حياة معرّضة لكلِّ ضعفٍ، ولكلِّ زلّة.

إنّ السيرة الرّهبانيّة حياة. والحياة غنيّة في كلّ شيء. فهي لا تتوقّف لتُحدَّد. إنّها روح لا حرف، وعيش لا ركود، وسعي لا جمود، وحرّيّة لا خنوع، وبحث لا سكون، وقلق لا طمأنينة، وحركة لا هدوء. وعمل لا راحة، واستمرار لا استكانة، وانشغال لا استرخاء، وتفتيش عن الكمال لا امتلاك له، واقتداء بحياة الربّ وعمل بتعاليمه لا إعجاب به واندهاش وحسب.

من هذه الحركيّة تأتي صعوبة الكلام على الحياة الرهبانيّة، وصعوبة تحديدِها. مثلها مثل الحياة والحرّيّة والحركة. هذه لا تُحَدَّد. ومتى حُدِّدتْ بطلتْ أن تكون حياةً أو حرّيّةً أو حركة. وهذا هو سبب كلِّ خلافٍ فيها، وكلّ موقف مناوئ لها. فهل لنا أن نكشفَ عمّا يجب أن نعرف عنها؟

في سبيل التوضيح والتصحيح، إنّنا نهدف، في بحثنا هذا، إلى

تعريف كلِّ علمانيٍّ، مسيحيًّا كان أو مسلماً، مؤمناً كان أو غير مؤمن، بالحياة الرهبانيّة؛ لا من خلال قدّيسيها، ولا من خلال شياطينها؛ بل من خلال ماهيّتها وهدفها وتعاليمها وعملها وقوانينها وكتبها.

إنّ الرّاهبَ وحدَه يستطيع أن يعرّف بنفسه عن نفسه، ويتكلّم على حياته، ويصف أحواله، ويحدّد رسالته. فالحياة الرّهبانيّة حالة خاصّة جدّاً، حالة مستترة، بعيدة عن الأضواء، لا يدركها بتمامها إلاّ أصحابها الذين يختبرونها. هذه حقيقة.

غير أنّ الرّاهبَ اليومَ يعيشُ مع النّاس وبينهم، يعيش في المجتمع ويختلط بهم. لقد أصبح مراقَباً، مكشوفاً، يعرفه الجميع. هوّيّتُه أمستْ مدرَكة، ورسالتُه واضحة. سرُّه معلن، ديره مشرَّع الأبواب والنوافذ. حسناته وسيّئاته ملموسة مرئيّة ومكشوفة أمام أعين الجميع.

كلّ علمانيٍّ، مسيحيًّا كان أو غير مسيحيّ، يستطيع اليوم أن يبدي رأيه في الرّاهب. وعلى كلّ راهب أن يسمع ما يُقال عنه، ويقرأ ما يُكتب فيه. وعليه، بالتّالي، أن يتحمّل حكم الناس عليه؛ وذلك نتيجة انفتاحه عليهم، وتشريع أبواب ديره، واختلاطه في أحوال المجتمع، وسكنه في المدينة... إنّه هو المسؤول، أوّلاً وآخراً، عمّا يُقال فيه.

وليتكلّمِ العلمانيّون على الرّاهب والحياة الرهبانيّة ما يشاءون... فهم، في كلامهم، يحكمون بحسب ما يشاهدون ويلمسون. وقد يكون التجرّؤ على الدخول في سرّ الرّاهب إحدى مزايا الجريئين من أبناء هذا الدهر.

وما يدفعهم إلى الكلام أسباب، تعود في معظمها إلى الرّاهب نفسه : فهو الذي خرج من ديره، وظهر للناس، وشاركهم في حياتهم. وهو الذي سلّط الأضواء عليه وظهر من على شاشات التلفاز. وهو الذي اندفع إلى العمل في المجتمع، في الجامعات والمدارس والمستشفيات والمآوي والمياتم.

يُضاف إلى هذه اقتناع العلمانيّين أنفسهم بأنّ مهمّة الرّاهب إنّما تكون اليوم في المجتمع؛ لأنّ للرّاهبِ، في نظرهم، دوراً فيه ورسالة. فعليه إذاً واجب خدمة مجتمعه بحسب مؤهلاته وحاجات مجتمعه. وحجّتهم في ذلك هي في اختلاط الحكم الديني بالحكم المدني في هذا الشرق.

ونقول أخيراً: إنّ النّاسَ يطمئنّون إلى عمل الراهب ومواقفه. فهي صريحة واضحة، بمقابل دَهاء السياسيّين وعملهم لمصلحتهم الخاصّة على حساب المصلحة العامّة. فـ "الشأن العام" مقولة لم يسمع بها زعماء الشرق. فإذا ما انتُخب أحدهم ليتولّى منصباً التصق بكرسيّه هو وأبناؤه وأحفاده.

الفصل الثاني

مقوّمات الحياة الرهبانيّة

٦ . الحياة المشتركة

٧ . رهبانيّتي كنيستي

٨ . الحياة الديريّة

٩ . الدير حصن الحياة الرهبانيّة

١٠ . الثبات والاستقرار في الدير

١١ . النسك في الحياة الرهبانيّة

١٢ . المحبسة في الحياة الرهبانيّة

١٣ . الإفخارستيّا والحياة الرهبانيّة

١٤ . القراءة البيبليّة والحياة الرهبانيّة

١٥ . التربية في الحياة الرهبانيّة

١٦ . القداسة في الحياة الرهبانيّة

١٧ . الصفح والغفران في الحياة الرهبانيّة

١٨ . التجديد والتغيير في الحياة الرهبانيّة

١٩ . الخلق والخلاص والحياة الرهبانيّة

٢٠ . العمل في الحياة الرهبانيّة

٢١ . الحياء والحياة الرهبانيّة

٦
الحياة المشتركة

أولى مقوّمات الحياة الرهبانيّة، الحياة المشتركة. وهذه لا تكون من دون مبادئ لاهوتيّة ثابتة تتأسّس عليها[2].

المبدأ الأوّل محبّة الله للبشر : يؤلّف البشر، بالنسبة إلى الله خالقِهم، عيلةً واحدة. وهم، بعضُهم مع بعض، يتعاملون كإخوة. ولا أخوّة إلاّ ومصدرها أبوّة. لهذا، فإنّ البشر صادرون عن ذات أبٍ واحد. فلو لم يكن اللهُ أباً لما كان للبشر علاقة به ولا بعضهم مع بعض. ولو لم يكن الله واحداً لما كان البشرُ أيضاً موحَّدِين في شيء. ولو لم يكن الله محبّة لما كان بين البشر تحابٌّ في ما بينهم.

---

2 أنظر:كتاب **"تكرّس في صميم العالم. ألحياة الرهبانيّة في الدستور المجمعي "ألكنيسة في العالم"**، تعريب الأباتي يوسف طربيه، الرّاهب اللّبناني، وهو ترجمة لكتاب عنوانه الأصلي بالفرنسيّة *Consécration au Coeur du Monde, Gaudium et Spes et la Vie Consacrée*, par J.Galot s.j. Ed.J.Duculot; S.A.-Gembloux. P.Lethielleux, Editeur, S.A.-Paris, 1968، منشورات "أوراق رهبانيّة"، ٤،الكسليك، لبنان، ١٩٧٠، ٢٤٠ صفحة.

المبدأ الثاني البشر هم أبناء الله : إنّ اللهَ، بواسطة ابنه يسوع المسيح، رفع البشر إلى مقام البنوّة الإلهيّة، أي إلى أن يكونوا هم أيضاً أبناء لله. وفي ذلك دافعٌ آخَر يوجب عليهم أن يتعاملوا بعضهم مع بعضٍ كإخوة. فلو لم يكن لله ابنٌ بمستواه، لما كان لأحدٍ من البشر أن يتجرّأ وينتسب إلى الله، الذي يفوق البشر في كلّ شيء. على بنوّة يسوع المسيح لله الآب بُنيتْ بنوّتنا نحن. لهذا فيسوع نفسه عرّفنا على أنّ اللهَ، قبل أن يكون متميِّزاً بأيّة صفةٍ، هو أبٌ؛ وقد علّمنا أن نصلّي له، وأن نتوجّه إليه، بكونه "أَبَانَا". ويجب ألاّ نبحث عنه بغير هذه الصفة.

المبدأ الثالث يستند إلى سرّ الثالوث الإلهي. لقد صلّى يسوع إلى أبيه : "لِيَكونَ الجَميعُ واحداً كما نحنُ وَاحد" (يو ١٧ / ٢١)، فأوحى لنا، بهذا الكلام، أنّ هناك شَبَهاً بين اتّحاد الأقانيم الإلهيّة واتّحاد البشر. وإذا كان البشر يؤلّفون جماعةً واحدة، فذلك لأنّهم خُلقوا على صورة إلهٍ جَماعيّ. وعليهم أن يكونوا جماعةً واحدة، ليس كالآب والابن فحسب، بل أيضاً فيهما : "بما أنّك أنتَ، أيّها الآب، فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا" (يو ١٧ / ١١). فالاقتداء بالله ليس نسخة خارجيّة، بل ولوج مستمرّ إلى داخل الله. وبهذا، نفهم أنّ الإنسان مرتبط بالآخرين، ولا يسعه أن **يجد** نفسَه إلاّ ببذلها من أجل الآخرين؛ مثاله في ذلك حياة الأقانيم الإلهيّة.

إذا كان الشخص البشري بحاجة جوهريّة إلى الحياة الاجتماعيّة، فذلك لأنّه خُلق على صورة الأقانيم الإلهيّة، المترابطة جوهريّاً في ما بينها، والتي لا وجود لها إلاّ في جماعة. ليست الأقانيم

الإلهيّة كائنات مستقلّة ألّفت جماعةً فيما بعد. إنّها، كأشخاص، موجودة إجتماعيًّا بقوّة علاقاتها المتبادلة؛ أو، بعبارة أخرى، إنّها تتّخذ من علاقاتها كاملَ هويِّتِها الإلهيّة. وليست حاجة كلّ شخص بشري إلى النموّ الاجتماعي سوى انعكاس لموقف الأقانيم في الله. لهذا، فإنّ النّعمة التي يهبها الله لكل شخصٍ تفيض حتماً على الآخرين.

المبدأ الرابع في حاجة الشخص الفرد إلى الحياة الاجتماعيّة : لا يسع إنساناً أن يتقدّم في إنسانيّته ولا في شخصيّته إنْ لم يكن منتمياً إلى عيلةٍ أو إلى جماعةٍ، أو مرتبطاً بمجتمعٍ بشريّ. فالجماعة هي التي تنمي الإنسانَ وترقّيه. وهو بحاجةٍ ماسّة إليها. " فالحياة الاجتماعيّة ليست للإنسان شيئاً إضافيًّا: فبالتبادل والحوار مع إخوانه، وبالخدمات التي يؤدّيها الواحد للآخر، ينمو الإنسانُ وفقاً لكلّ طاقاته، ويستطيع أن يجيب على دعوته "[3].

والمبدأ الخامس هو في العمل معاً على تعزيز "الخير العام" : على الجميع أن يشتركوا فيه؛ إذ هو خير البشريّة جمعاء. والخير العام " أخذ اليوم ينتشر ويتّسع أكثر فأكثر. ومن ثمّ فإنّه يحوي ضمن طيّاته حقوقاً وواجبات تتعلّق بالجنس البشري بأسره. وعلى كلّ جماعة أن تحسب حساباً لحاجات الجماعات الأخرى، كما أنّ عليها أن تحسب حساباً للخير العام الذي يشمل العائلة البشريّة بكاملها "[4]. والعمل من

---

3 دستور "الكنيسة في العالم"، ٢٥ /١.

4 المرجع نفسه، ٢٦ /١.

أجل "الخير العام" دليلٌ على أنّ البشر يسيرون نحو الأفضل. إنّه كالبشارة الإنجيليّة التي، عندما تعمّ العالم، يكون الكمال، ويتمّ القضاء، ويعود الربّ إلينا مرّة جديدة؛ ويردُّنا إلى مَعاده.

و**المبدأ السادس** يكمن في أنّ الخلاصَ نفسه له أيضاً طابع جماعي. فكما أنّ اللهَ خلق البشر في جماعة، كذلك سينالون الخلاص في جماعة. لذلك اختار الله له أناساً كأعضاء في جماعة، ودعاهم "شعبَه"، وقَطع معهم عهداً[5]، وبذَلَ ذاته عنهم جميعاً حتّى الموت[6]، وأسّس لهم "كنيسةً" ليتعاونوا فيها على الحياة والخلاص، كتعاون الأعضاء في الجسد الواحد. " ويجب أن ينمو هذا التضامن باطّراد حتّى يبلغ كمالَه يوماً "[7].

***

ولكن، وبالرّغم من أهمّيّة الحياة الجماعيّة المشتركة، قد يضيع الفردُ في الجماعة : فهو في الجماعة الواحدة قريبٌ من الآخرين جدًّا، إلى درجة أنْ يُصبحَ كلٌّ واحدٍ مثلَ كلِّ واحد. فهم يعيشون بعضهم إلى جنب بعض. يعرفون بعضَهم بعضاً. وتتداخل شؤون بعضهم في بعض. لا سرّ عند أحدٍ يَستتر على أحد.

الحدود كلُّها مشرعةٌ في الحياة الجماعيّة العائليّة المشتركة. كلُّ

---

5 المرجع نفسه، ٣٢ /٢.

6 المرجع نفسه، ٣٢ / ٣.

7 المرجع نفسه، ٣٢ /٤ و٥.

حَدٍّ فيها، مهما كان مَنيعاً، محطَّم. الكلّ ينظر إلى الكلّ. يراقب الكلّ. يطالب الكلّ. مكشوفٌ للكلّ. إلى درجة أنّ المبادرات الفرديّة تُمسي قليلةً جدّاً. وحتّى الخصوصيّات تُصبحُ ملكاً عامًّا.

صحيح أنّ لكلّ فردٍ جسدَه الخاصّ به. ولكنّه، وكأنّ هذا الجسد، في الحياة الجماعيّة، يخصّ الجميع : في أكله وشربه ولبْسه، في مظهره وسلوكه، في راحته وعمله، في أمياله ونزواته، في أفعاله وانفعالاته. يَفقد الإنسانُ، في الجماعة، مميّزاته الخاصّة. ويبدو وكأنّ بُعدَه الجَماعي أصبح هو الغالب.

حتّى الحياة العاطفيّة والجنسيّة تُضحي في الحياة الجماعيّة عرضةً لحكم الجماعة، وخاضعةً لها، لا لصاحبها. ولئن كان لكلِّ فردٍ من العيلة الواحدة غرفتُه، وكتبه، وعمله، وخلوته، واختصاصه، ومنزلته، لا يشاركه فيها أحد. إلاّ أنّ هذه كلّها لا قفْلَ لها. وإن كان ثمّة قفْلٌ فلكلِّ قفلٍ مفاتيح بديلة، هي ملك الجماعة، وبتصرّفها، تستعملها ساعةَ تشاء.

ولئن كان لكلّ إنسانٍ مجالاتُه الحميمة في حبِّه وبغضِه؛ فإنّه أكثر الأحيان مفروض عليه أن يُحبَّ ما تحبّ الجماعة، وأن يبغض ما تبغضه. فهو صديق أصدقائها، وخصم خصومها. وعليه أن يتخلّى عن حكمِه الشخصي على الأشياء، إذا ما شاء أن يعيشَ بسلام وأمان مع جماعته.

ولئن كان لكلّ إنسانٍ مجالاتٌ واسعةٌ لخياله وأحلامه، فإنّه في الجماعة يفقد الكثير الكثير من خياله وأحلامه. حتّى المستقبل لم يعد ملكَه، بل ملك الجماعة. وكذلك التاريخ لم يعدْ ملك ذاكرته؛ فهو لا يستطيع أن يعود إلى نبش ما يطيب له منه؛ بل تاريخُ جماعته تاريخه؛ وذاكرتها ذاكرته.

هذه بعض آفات الحياة الجماعيّة العائليّة المشتركة.

***

ولكنّ التوازن الحقيقي في الإنسان هو في أن يعطي لبُعدِه الجماعي نصيباً، ولبعده الشخصي نصيباً آخر. لهذا، عليه أن يعمل على تخطّي انتماءاته العائليّة، أو القبليّة، ليحقّق ذاتَه. فالإنسان يبدأ في عيلة، تحت حماية والدَيه ومربّيه ووصايتهم. ولكنّه، عندما يكبر وينمو، يتحرّر ويستقلّ، لا محالة... بدايةُ كلّ إنسانٍ إنّما تكون في العيلة؛ ولكنّه، لا بدّ له يوماً من أن يستقلّ عنها، وعن كلّ جماعة تشبه العيلة. وما الموتُ الحقيقيّ، في نهاية الأمر، إلاّ دخولاًعظيمً في الوَحدة مع الواحد الأوحد.

البدايةُ في الحياة العائليّة الجماعيّة ضروريّة، ولا بدّ منها، لنموّ شخصيّة الإنسان القاصرة طبعاً؛ إلاّ أنّ النهاية يجب أن تكون في نموّ آخر، من نوع آخر، وبشروط ومقوّمات أخرى.

***

في هذا التدرّج من الحياة الجماعيّة إلى حياة التوحّد، يكمن سرُّ الحياة الرّهبانيّة في الكنيسة. هذه الحياة تخضع، بالتمام، إلى مثل هاتَين البداية والنهاية. البدايةُ في الدير، والنهاية في المحبسة. وكلاهما يكمّل بعضه بعضاً.

لا يصدِّق معظمُ المأخوذين بأعمال الرسالة أنّ الطريقَ الصحيح إلى القداسة تبدأ في الحياة الديريّة العائليّة الجماعيّة المشتركة؛ ثمّ تنتهي بحياة الوحدة مع الله والابتعاد عن العالم والزهد بكلّ شيء.

لا شيء بمستوى الله، فلماذا لا يكون وحدَه، في نهاية الأمر، هو الذي يحتلُّ سرَّ الإنسانِ الساعي إلى اكتشاف الحقيقة؟!

القداسةُ تُنشَد عادةً في الابتعاد عن الحياة العاديّة التي يعيشها الناسُ العاديّون، أي في المحبسة، في الخلوة، في الهذيذ الرّوحي الشخصيّ العميق، في العلاقة الحميمة مع الربّ. واختيار المحبسة وحياة التوحّد عمل بطوليّ، ليس من شأن الناس العاديّين.

لهذا، فإنّنا حقًّا أمام أزمة رهبانيّة، تطال الرّهبانيّات كلّها، نسكيّة كانت أو رسوليّة أم الاثنتين معاً. كلُّ نوعٍ من أنواع الحياة الرهبانيّة يقتضي له حياة جماعيّة مشتركة؛ كما يقتضي له حياة توحّديّة صارمة. بتلك يبتدئ، وبهذه ينتهي.

الديرُ يفرض الحياةَ المشتركة؛ والنذور الرهبانيّة لا تُعاش إلاّ في الدير وضمن الحياة المشتركة؛ ولكنّ النذورَ، في جوهرها، زهدٌ وتقشّفٌ وتخلٍّ عن كلِّ شيء. صحيح أنّ الدير ركنُ الحياة الرهبانيّة

وبيتها. وصحيح أيضاً أنّ التخلّي الذي توجبه النذور ركنٌ آخر من أركان الحياة الرهبانيّة الأساسيّة. إلاّ أنّ الاثنين واجبان وضروريّان لقيام هذه الحياة.

لا ينخدعنّ أحدٌ في أنّ الحياةَ الرهبانيّة تستطيع الوصول إلى القداسة من دون البدء بالحياة الجماعيّة العائليّة الديريّة المشتركة؛ ومن دون الخلوة والمحبسة والانصراف الكلّيّ إلى الذات وإلى الله. هذا ما قاله الربّ في ساعةٍ من ساعاتِ مجده : "إِنِّي أُقَدِّسُ نَفسِي مِنْ أَجْلِهِم" (يو ١٧ /١٩).

٧

رهبانيّتي كنيستي

اخترتُ الحالةَ الرهبانيّة، وما زلتُ أختارُها وأتعلّق بها، لأنّ رهبانيّتي هي كنيستي. فأنا خارجَ الكنيسةِ لا مسيحَ لي، ولا خلاص، ولا قداسة، ولا باستطاعتي أن أَعرفَ الله. فكما أنَّ الكنيسة هي موضوعٌ من موضوعات الإيمان الأساسيّة -كما نعلن في قانون الإيمان: "نؤمنُ بإلهٍ واحدٍ، آبٍ.. وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح.. وبالروح القدس.. وبكنيسة واحدة جامعة.. "، حيث إنّ إيماني بالكنيسة يكمّل إيماني بالثالوث. أو لكأنّي أؤمن برابوع لا بثالوث فحسب- .

هكذا هي رهبانيّتي التي اخترتُها، وانتميتُ إليها، وعشتُ فيها. حتّى إنّه بات من المستحيل عليّ أن أكون مسيحيًّا حقيقيًّا من دونها وخارجاً عنها. وكذلك أصبح من المستحيل عليّ أن أجد خلاصي، وقداستي في غيرها؛ أو أيضاً أن أعرف المسيحَ والإنجيلَ معرفةً حقيقيّة؛ أو كذلك أيضاً أن أعرف شيئاً عن الله من دونها.

رهبانيّتي هي كنيستي. هذه أوّل قناعة كوّنتُها طوال خبرتي في حياتي، وما زلتُ عليها، وأنمّيها فيّ، وأعمل لها.

ويتعلّق بهذه القناعة قناعة أخرى، وهي أنّ رهبانيّتي هي أيضاً عيلتي التي اخترتُها. وانتمائي إليها كانتماءِ أيِّ إنسانٍ إلى عيلته التي أنشأها، ويعيش فيها، ويُحبُّها، ويعمل لها، ويرتاح فيها، ويبقى حتّى آخر العمر.

وانطلاقاً من قناعتي بأنّ رهبانيّتي هي كنيستي، وهي عيلتي، وجدتُ، ولا أزال أجد، أنّ موضوع "الحياة الديريّة الجماعيّة المشتركة"، كان ولا يزال الأوّل والأساس في الحياة الرهبانيّة. وهو كذلك على كلِّ صعيد : إنسانيّ، ومسيحيّ، وروحيّ، واجتماعيّ، وتربويّ... حتّى إنّني أستطيع أن أقول بأنّني خارجَ "الحياة الديريّة الجماعيّة المشتركة"، لا حياة رهبانيّة لي، تماماً كقولي بأنّني خارج الكنيسة لا خلاص لي ولا قداسة؛ بل أنا إنسانٌ ناقصٌ في كلِّ شيء.

إنّ موضوع "رهبانيّتي هي كنيستي" يُقنعني بجدوى الحياة الرهبانيّة أكثرَ من أيّ موضوع آخر؛ بل أكثر من موضوعات الطاعة والعفّة والفقر والصلاة والرسالة... وقد لا أجدُ ذاتي في غيره كما أجدها فيه. بل لا يهمّني سواه كما هو يهمّني.

٨
الحياة الديريّة

أوّلاً - الموضوع الأساس

١ . "الحياة الديريّة المشتركة"، هي نفسها المسمّاة "الحياة العائليّة"، و"الحياة الديريّة"، و"الحياة الجَماعيّة"، أو أيضاً، بكلمة واحدة تختصرها جميعها كلمة "الدير". فالدير هو بيت الراهب. والراهب لا يكون إلاّ في الدير. والدير لا يسكنه راهبٌ واحد، بل جماعة رهبان، ولديه كلّ مقوِّمات الحياة، من إدارة، وأعمال، ورسالة، ومكانة في المجتمع.

٢ . الحياة الديريّة هي حياة عائليّة، تتميّز بتضامن أفرادها، وتعاونهم، ومحبّتهم بعضاً لبعض، وعيشِهم معاً، وثباتهم، إلى درجة أنّهم لا ينفصلون إلاّ لتأسيس عيلةٍ جديدة في بيتٍ جديد. هذه قاعدة أساسيّة في الحياة الطبيعيّة. وهو ما يجب أن يكون أيضاً في الحياة الرهبانيّة.

٣ . مبدأ "الحياة الديريّة المشتركة" يقوم على أنّ الإنسانَ كائنٌ إجتماعيّ. وشخصيّتُه، التي تتكوّن من مميّزات خاصّة يتفرّدُ بها، تتكوّن أيضاً من علاقاتها الاجتماعيّة. وإنْ لم يكن للإنسانِ هذه العلاقات

الاجتماعيّة، فهو ينقصه شيء أساسيّ وجوهريّ، إلى درجة أنّنا نستطيع القول : إنّ إنساناً منفرداً ومنعزلاً هو إنسانٌ ناقصٌ في إنسانيّته، إذ ينقصُه الحبُّ، والحوار، والانفتاح، وتبادل الخبرات مع الآخرين.

٤ . قد ينقطع إنسانٌ إلى الله؛ ولكن ليس ليحلّ الله محلَّ إنسانٍ آخرَ من طينته وجبلته، يتبادلان معاً اختبارَهما لله، ويُغنيان بعضهما بعضاً بما يكتشفان في تأمّلِهما من أسرار الله. الاثنان يفيدان بعضهما بعضاً؛ وليس من الضروري أبداً أن يكونا منسجمَين ومتشابهَين.

٥ . والرّاهبُ الحبيسُ نفسُه، كما توجب قوانينُ الاستحباس القديمة، يجب ألاّ يكونَ منفرداً؛ بل أنْ يكون له رفيقٌ أو رفيقان، يتبادلان اختبارَهما الروحي، فيصعد الواحد إلى الله بواسطة الآخر. وكم كان الأبُ الحبيسُ يوحنّا الخوند على حقٍّ، عندما طلبتْ منه اللَّجنةُ القانونيّةُ إعادةَ النظر في قانون الحبساء، فكتب : " يجب أن يوافقَ مجمعُ الرئاسةِ العامّة على ألا يكونَ في المحبسة أقلّ من حبيسَين، ولا أكثر من ثلاثة "... ولكنّ اللجنة، في ما وضعتْ من قوانين، لم تعرْ لاقتراح الحبيس بالاً.

٦ . إنّ موضوع "الحياة الديريّة المشتركة"، بكونه أساسيًّا في الحياة الرهبانيّة، وبكونه أصلاً وسواه من الفروع، أدرج، في القوانين الجديدة، قبلَ موضوع "النذور". وفي هذا دليلٌ واضح على أنّ الحياةَ الرهبانيّة، قبل أن تكون، طاعةً وعفّةً وفقراً، وصلاةً، ورسالةً... هي

حياةٌ عائليّةٌ مبنيّةٌ على وصيّة العهد الجديد : المحبّة. واللجنة أيضاً لم تعر لهذه الأولويّة بالاً.

ثانياً - "الحياة المشتركة" في ورشة تجديد

٧ . منذ العدد الأوّل (١٩٦٦) من مجلّة "**أوراق رهبانيّة**"، قيل : " إنّ الحياة الرهبانيّة، بقوّة تنظيمها الجماعي، هي مؤسّسة خصّيصاً لتبرهن، بطريقة لا تقبل الجدل، أنّ الكنيسة هي جماعة، قلبُها الله وحده وأخوّةٌ مشرّعة الأبواب أمام كلّ إنسان " (ص ١٧-١٨)؛ يعني أنّ الحياة الرهبانيّة تشهد وتبرهن، بكونها جماعة عائليّة، على أنّ الكنيسة هي جماعة.

٨ . وكذلك جاء في عدد ٨ (١٩٦٨) : " تُعتبر الحياة المشتركة، مع نذور العفّة والطاعة والفقر، في وثيقة المجمع المسكوني "المحبّة الكاملة"، عنصراً أساسيًّا من عناصر الحياة الرهبانيّة. ويلحّ المجمع على أهمّيّة هذا النوع من الحياة تجاه الذين يَعتبرون الحياةَ الرهبانيّة قائمة على النذور الثلاثة وحسب. فالحياة المشتركة، في تعاليمه، ركنٌ أساسيٌّ ودعامةٌ أُولَى في المؤسّسات الرهبانيّة ".

" فالرهبان مدعوّون إلى طلب المحبّة الكاملة، وبالتالي، ملتزمون بتنمية المحبّة الأخويّة في مجتمعهم. ولذا تبرز الحياةُ المشتركة كأفضل وسيلة تحقّق وصيّة المسيح الجديدة: "أَحِبُّوا بَعضُكم بعضاً كما أنا أحببتُكم"(يو ١٣ /٣٤؛ ١٥ /١٢).

" المحبة المشتركة، وما تتطلّبه من تضحيات، ربّما تفوقُ غيرَها انسلاخاً، نظراً إلى الاحتكاك اليومي المستمرّ مع الإخوة في جوٍّ واحدٍ، وإطارٍ لا يتبدّل. إنّها محبّة تفرض نسياناً للذات عميقاً، وقمعاً للأنانيّة شاقًّا، واستعداداً للبشاشة مستمرًّا، وتنازلاً عن حبِّ الذات صادقاً. إنّها كالطاعة وأكثر، تُلزم الراهبَ بحياةٍ فداءٍ دائمة "وبذل الحياة في سبيل الآخرين" (يو ١٥ /١٣) ".

" فلا تتعجبنّ إذاً، والحال هذه، من المقام الأوّل الذي يجب أن تحتلّه الحياةُ الديريّة في الحياة الرهبانيّة. فإذا كانتِ الحياةُ الرهبانيّة تعمّقاً للحياة المسيحيّة، فهي إذاً تعمّقٌ في محبّة القريب. وإنْ كانتْ تطوّعاً أفعل في عمل الخلاص، فعليها أن تتّسم بطابع المحبّة التي دفعتْ بالمسيح إلى ذبيحة الفداء.

" ألا يقتضي، عند ذاك، أن يُعَبَّرَ، يومَ إبراز النذور، عن هذا التطوّع في المحبّة الأخويّة المشتركة، فيُعلَن، مثلاً، نذراً صريحاً يوازي سائر النذور، لا بل يفترضها؟ فتبان الحياة المشتركة هكذا، بطريقة أوضح، متّسعاً أساسيًّا في الحياة المكرّسة لله " (ص ٢٥٣-٢٥٤). إنّه اقتراح جديرٌ بالتوقّف عنده. وقد تختصر "الحياة المشتركة" سائر النذور وتتضمّنها.

٩ . ونقرأ أيضاً في العددين ١٥-١٦ (١٩٧٠) : إنّ "أبرز النقاط التي استوقفتْ آباء المجمع وتصدّى لها المناقشون هي الحياة المشتركة : كيف يجب أن نفهمها؟ هل هي رباط روحي أم علاقات

حياتيّة وسكنيّة؟.. وكيف يجب أن نحميها بنظام يومي متحرّك؟ بلقاءات عائليّة منفتحة؟ بمشاركة في الاضطلاع بمسؤوليّات يلتزم بها الدير نظراً لواقع الحال والزمان والبيئة؟." (ص ١٣٦).

ثالثاً - "الحياة المشتركة" في قوانين ١٩٧٤

١٠ . ما بالغت القوانين الجديدة في شيءٍ مثلما بالغتْ في الكلام على "الحياة الديريّة المشتركة". هكذا ابتدأت، فقالت : إنّ الحياة الرهبانيّة " قد اتّخذت مثالاً لها حياة الكنيسة الأولى : "وكان جميع المؤمنين مؤتلفين، يجعلون كلّ ما لديهم مشتركاً بينهم"[8] " (قانون ٦).

واعتبرتِ الحياةَ المشتركة " تعبيراً حيًّا لاشتراكنا في حياة الثالوث الأقدس ينبوع المحبّة " (قانون ٢١). كما اعتبرتْ أيضاً " المحبّة الأخويّة النابعة من محبّة الله هي شرعة الحياة المشتركة الأولى. إنّها وصيّة العهد الجديد... إنّها علامة الملكوت الآتي. نعيشها في إطار الحياة الديريّة " (ق ٢٢).

١١ . والحياة الرهبانيّة لا تكون رهبانيّة إنْ لم تكن "حياةً ديريّة مشتركة"، إذ إنّ هذه الحياة " هي الجوّ الملائم الذي يتمرّس فيه الراهب مع إخوته على خدمة الله وأعمال العبادة والنسك، وهي الإطارُ المناسب الذي يُتيح للراهب اكتساب روحٍ رسوليٍّ أصيل" (ق ١٢).

---

8 رسل ٢ / ٤٤-٤٧؛ رَ: ٤ /٣٢؛ **المحبّة الكاملة**، ١ / ١٥.

١٢ . وتُقرُّ القوانين إقراراً عظيماً عندما تقول بأنّ الراهب يبتدئ في الدير، ويتدرّج منه إلى المحبسة، أي يبتدئ في حياة عائليّة جماعيّة مشتركة، وينتهي في حياة النسك والوَحدة مع الله الضروريّ الأوحد (ق ١٦).

وتردِّد القول بأنّ مَن سما في محبّة الإخوة في الدّير يستطيع أن يعتنق حياةَ الوحدة (ق ١٣). أمّا مَن لم ينجح في حياته الديريّة مع إخوته فلا يُسمح له بالاستحباس. لهذا، فإنّ الحياة الديريّة هي الميزان الصحيح لنجاح الحياة الرهبانيّة والروحيّة والعقليّة. الحياة المشتركة تولي الراهبَ اتزاناً رائعاً، وتساعده على التدرّج في كمال الحياة الرهبانيّة، وترقّيه في أعلى مراقيها.

فعلى الراهب الحقّ، والحالُ هذه، أن يكتشف تجلّي الله في وجه أخيه، أن يحبَّه ويجتمع به، عملاً بوصيّة الربّ : "فما اجتمع اثنانِ أو ثلاثةٌ باسمي إلاّ وكنتُ هنالكَ بينهم" (متى ١٨ / ٢٠). هنا يتجلّى الله، في وجه البشر، لا في أيِّ مكانٍ آخر.

١٣ . وعلى الرّاهب، أيضاً، لكي ينجح في تنمية هذا السرّ، أن "يعمل على توثيق عرى الإلفة والمحبّة مع إخوته، مسالماً الجميع[9]، متنكّراً للأنانيّة، لئلاّ يتداخلَه الحسدُ المبيد الحبّ، كما جاء في القوانين الأولى للرهبانيّة اللبنانيّة، سنة[10] ١٧٣٢.

9 **قوانيننا ١٧٣٢**، الباب الخامس، في المحبّة، أوّلاً.
10 المرجع نفسه، رابعاً.

لذلك على كلّ منّا "أن يحترم أخاه، باطناً وظاهراً، مبتعدين عن الرياء[11] والدينونة الباطلة، وعن كلّ كلمة تسبّب الحزن[12]، متبادِلِين النّصح بإخلاص، متقاسِمِين الأفراح والأحزان بروحٍ مسيحيٍّ صادق" (ق ٢٧).

١٤ . وليس علينا أن ننصرف كثيراً إلى المهامّ الزمنيّة والإداريّة على حساب انصرافِ بعضنا إلى بعض. فالنجاح مع الإخوة أفضل ألفَ ألفَ مرّة من النجاح في الأعمال والمهام الدنيويّة. لهذا تقول القوانين : يجب ألاّ " ندع مهامّنا الإداريّة والزمنيّة تعوقنا عن الحياة المشتركة " (ق ٢٩).

١٥ . إنّها لنصيحة مثلى تتطلّب منّا التخلّي عن كلِّ ربُطِنا مع الخارج لكي نقضي الوقتَ معاً : نعمل معاً. نسهر معاً. نتحاور، ونتناقش، ونعالج موضوعاتٍ مشتركة. ننفتح بعضنا على بعض. نتلاقى. نُغني بعضنا بعضاً. بهذا، وبهذا فقط تنجح حياتُنا الرهبانيّة. وبغير هذا فشل.

١٦ . وتتطلّب القوانين من رئيس الجماعة أن يسهر سهراً متواصلاً ويقظاً على الحياة العائليّة بين الإخوة؛ بل عليه أن يضعها نصبَ أهدافه ومهامّه الرئاسيّة، ويتقنها أحسن إتقان.

---

11 المصباح الرهباني، الباب الخامس، في المحبّة الأخويّة، ط ١٩٥٦؛ ص ١٣٤.

12 **قوانينا ١٧٣٢**، الباب الخامس، في المحبّة، ثالثاً.

وتذهب القوانين بعيداً في الكلام على كيفيّة الحفاظ على الحياة المشتركة. فتنصح السلطاتِ العامّة بأن تحرص عليها حرصها على المقدّسات. فـ " حفاظاً على الحياة المشتركة تحرص السلطة الرهبانيّة، إذا طُلِبَ إليها خدمة رعويّة، مثلاً، أن تُسندها إلى راهبٍ.. إنطلاقاً من الدير وعوداً إليه " (ق ٧٥).

وكذلك، إذا ما قام راهبٌ بمهامٍّ تربويّة في المدارس، على السلطات الرهبانيّة المسؤولة، أن تصونَ " الحياة الرهبانيّة في جميع هذه المدارس بأن يُضمن لها عددٌ كافٍ من الرهبان "، حفاظاً على الحياة المشتركة، ونجاحاً للعمل التربويّ أيضاً (قانون ٧٨).

وإذا ما شاءت الرهبانيّة أن تهتمّ بالمسيحيّين اللبنانيّين الموارنة في بلاد الانتشار، عليها، أيضاً " حرصاً على الحياة الديريّة المشتركة"، أن تعيّن السلطات رهباناً لهذا العمل، شرط "أن يقيموا في دير قانونيّ يُنشأ لهذه الغاية " (قانون ٨٢). وإلاّ يجب أن تتخلّى الرهبانيّة عن الانتشار

وعلى المبتدئ في الحياة الرهبانيّة، إذا ما شاء أن يتبيّن حقيقة الحياة التي يعتنقها، أن "يتمرّس بالمشاركة في حياة الجماعة التي سينضمّ إليها" (قانون ٩٥). وإلاّ فإنّ دعوته الرهبانيّة في اختبارٍ قاسٍ وامتحانٍ عسير.

١٧ . وأكثر ما توضح القوانين بأنّ العفّة قد لا تُصان في غيرِ جوٍّ عائليّ. قالت : " يؤتي الجوُّ العائلي في الحياة المشتركة الجوَّ

الملائم للعفّة. ويكون صونُها أسهل متى سادت المحبّةُ الصادقة بين الإخوة[13]. فيُسهم الجميع في الدير الواحد، لا سيّما الرؤساء، في خلق هذا الجوّ الذي يوحي بالتفاهم والفرح والسلام والثقة المتبادلة " (ق ٢١).

رابعاً ـ توصيات ١٩٩٤

١٨ . قبل الشروع في إعداد قوانين جديدة، على أساس ما اختُبر منها طوال عشرين سنة، عُولجت موضوعات حسّاسة، كان أهمّها موضوع "الحياة المشتركة".

والاختلاف ناجم، في فترة الاختبار هذه، عن مشاكل وصعوبات عمليّة واجهت الرهبانيّة : فهل يكون الرهبان رهباناً، وهم يعيشون أفراداً؟ وهل يبقى ديرٌ يتألّف جمهوره من راهبٍ أو اثنين؟ وأيّ عدد هو الأنسب لحياةٍ رهبانيّة مقبولة؟ التقليد يفرض أقلّه، ستّة رهبان في الدير الواحد؛ أمّا قلّة الدعوات، وكثرة الخدمات والأنشطة تقتضي توزيع الرهبان بنسبة هذه الخدمات وهذه الأنشطة.

فلا بدّ، إذاً، قبل صياغة القوانين، من البحث والعمل الجدّي للخروج بنتيجة حاسمة، يتلاءم مع مفهوم الحياة الرهبانيّة، من دون أن تصاب رسالات الرهبانيّة ومهامّها بأيّ خلل. لهذا كانت الأبحاث كثيرة ومتعدّدة.

---

13 **المحبّة الكاملة**، ١٣.

١٩ . فجاءت التوصية الأولى صريحةً واضحةً حاسمة : " لا يقيم الراهب إلاّ في ديرٍ تتكوّن فيه جماعة الإخوة -أقلّه- من ستة رهبان. فكلّ دير، أو مركز، لا تتأمّن فيه هذه الجماعة الديريّة يُلحَق إداريًّا بديرٍ آخر، مع الأخذ بعين الاعتبار المسافات الجغرافيّة والخير العامّ ".

وتوالت التوصيات الإحدى والثلاثون، وكأنّها ترتكز على التوصية الأولى هذه. وكلّها تؤكّد بأنّ الحياة الرهبانيّة الحقّ، والنذور، والقوانين، لا تُحفظ من دون "الحياة الجماعيّة" :

تقول التوصية ١٢: " إنّ الغاية الأولى لرهبانيّتنا إنّما هي الحياة الديريّة... لذلك، تحرص جماهير أديارنا على أن تصان فيها الحياة الديريّة، فلا يؤدّي التزام كلّ جمهور بنشاطٍ رسوليٍّ معيّن، إلى الانتقاص من هذه الحياة، بمقتضياتها المشتركة بين الأديار ".

وتقول التوصية ٢٣ بوضوح كبير، وبتشديد عظيم على الجماعة الثابتة: " من عوامل النجاح والاستمراريّة، وتقليل أسباب التشتّت والفشل في أديارنا، وجود جماعة ديريّة ثابتة ".

أمّا التوصية ٢٧ فتعالج مشكلة الرسالات التي لا يمكن أن تكون إنْ لمْ تتأمّنْ فيها الحياة الديريّة المشتركة. تقول : "للاحتفاظ بالرسالات التي تقوم بها رهبانيّتنا في خارج لبنان، ولإنشاء رسالات جديدة، تؤخذ بعين الاعتبار الحياة الديريّة بالمعنى الوارد في هذه التوصيات ".

على أساس هذه التوصيات، جهد المجتهدون في صوغ قوانين وفرائض جديدة، سنة ١٩٩٦؛ أرسلتْ لتصديقها. وعادتْ لتُختبر من جديد.

خامساً - قوانين وفرائض ١٩٩٦

٢٠ . تبتدئ هذه القوانين، وفيّةً للتوصيات، وللحقّ العام، بقانون الحياة المشتركة، كما يلي : " تتركّز حياتنا المكرّسة على العناصر الأساسيّة التي كرّسها التقليد الرهباني في الكنيسة، والتي حدّدها القانون الشرقي الجديد. وهي : الحياة المشتركة" (ق ٤).

و"القانون الشرقي الجديد" كما رأينا سابقاً، حدّد، في أوّل قانون له، أي في قانون ٤١٠، فقال بأنّ الحياة الرّهبانيّة هي "طريقة حياة مشتركة ثابتة"[14].

٢١ . وتعود قوانيننا، سنة ١٩٩٦، لتقول بأنّ هويّة رهبانيّتَنا "تأمُّليَّة-رسولية : فهي تأمُّليَّةٌ من جهة التشديد على الحياة الجماعيّة المشتَرَكَة، وعلى صلاة الفَرْضِ الإلهيّ الجَماعي، وعلى الحِصْنِ الدَّيريّ، وعلى الثَّباتِ في الدَّير، وعلى الصَّمت والسكينة؛ وهي أَيضاً رسوليّة من جهة وَضْعِ ذاتها في خدمة شعب الله انطلاقاً من الدّير وعَوداً إليه، لتتعاطى الخِدْمَةَ الرسوليّة الرَّعائيَّة، والنشاطاتِ التَّربَوِيَّة، إلى جانب الخِدْماتِ الاجتماعيّة المُتعَدِّدة" (ق١٦).

---

14 **مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة** (م. ق. ك. ش.)، القانون ٤١٠.

ففي الحالتَين، إذاً، في الحالة التأمّليّة وفي الحالة الرسوليّة، لا بدّ من العيش في الدير، في عيلة واحدة، ولا بدّ من الانطلاق من الدير والعودة إليه. وإلاّ لا تصحّ حياة رهبانيّة. وسواء كانت المهمّات في الرهبانيّة رسوليّةً أو تأمّليّة، "فالأولويّة كانت للحياة الرُّهبانيّة الأخوية المشتركة.. لذلك، تَحرَصُ جماهيرُ أديارِنا ومراكزِنا على أَن تُصان فيها الحياةُ الرُّهبانيّةُ الأخويَّةُ المشتركة، فلا يؤدّي التزامُ أيِّ جمهور أو أيِّ فرد من الجمهور بنشاط رسولي مُعيَّن، إلى الانتقاص من تلك الحياة، بمقتضياتها المُشتَرَكة" (ق ١٨).

٢٢ . ثمّ يحدّد القانون ٥٦ الحياةَ المشتركة، فيقول : "الحياةُ المُشتَرَكةُ تَعاطُفٌ مُستمرّ بين الفَرْد والجماعة، ينشأُ عنها كيانٌ أَخَويّ مُتماسِكٌ وثابت، فتنمو فيه شخصيّة الفَرْد داخلَ الجماعة وترقى الجماعة بفضل نُمُوّ أفرادها".

هذا القانون هو قمّةٌ في الكلام على الحياة المشتركة وأهمّيتها ودورها في نموّ الحياة الرهبانيّة، وفي تحديد هويّتها الحقيقيّة.

٢٣ . ثمّ تذهب قوانين ١٩٩٦ بعيداً في الكلام على أهمّيّة الحياة المشتركة في الرهبانيّة وفي الأديار، فتخصّص فصلاً رائعاً تحت عنوان "حياتُنا الديريّةُ المشتَرَكة"، من قانون ٥٣ حتّى ٦٢؛ وكذلك الفرائض تشدّد على ذلك، وتولي أهمّيّة بالغة لهذا المبدأ الأساس.

٢٤ . وتميل قوانين ١٩٩٦ إلى إنشاء أديرة ثابتة بجماهيرها، وذلك بغية أن تتأمّن فيها "الصلاة الخورسية، والحياة المشتَرَكة، والعمل اليدوي والفكري. ويُحتَرَم الحِصنُ وتُصان السكينة.. إلخ." (ق ٢٣)[15]... غير أنّ تطبيق هذا القانون لم يدم طويلاً، لا لأنّه غير صحيح، بل لأنَّه يشكلّ اعتراضاً على حياة أديار كثيرة تعيش الحياة المشتركة.

سادساً - قوانين ٢٠٠٣

ممّا يؤسف له أن هذه القوانين تبتدئ بما يجب أن يكون في آخرها، أي هي تتكلّم، في الفصل الأوّل، عن "هويّة حياتنا الرهبانيّة وأهدافها" (مادّة ١-٣). وهذا أمرٌ جيّد. ولكنّها تنتقل مباشرة إلى الفصل الثاني حيث تتكلّم على "ارتباط الرهبانيّة بالسلطات الكنسيّة : الخضوع للحبر الأعظم (مادّة ٤-٥)؛ و"ارتباط الرهبانيّة بالسيّد البطريرك والأساقفة" (مادّة ٦-٧)؛ و"قرار إنشاء دير أو إلغاؤه" (مادّة ٨-١١).. ثمّ تنتقل إلى الفصل الثالث حيث الكلام على "هيكليّة الرهبانيّة" (مادّة ١٢-١٥).. هذه الموضوعات يجب أن ترحّل إلى آخر القوانين.

وبعد ٦ صفحات تبتدئ القوانين بالكلام على "الحياة المشتركة" (ما ١٦-٢٤)، ثمّ "الحياة الديريّة" (ما ٢٥-٣٥)؛ ثمّ على "النذور الرهبانيّة" الثلاثة، الطاعة، والعفّة والفقر (ما ٣٦-٦٧)... ولا

15 هذا الإنشاء لم يكن عمليًّا. فهو يطعن ضمناً في عيش الرهبان في سائر الأديار، ويعتبر أنَّ الذين انفصلوا في دير معيّن هم خير من إخوتهم.

أدري هنا أيضاً كيف دخل موضوعا "العلاقة مع الرهبانيّات" (ما ١٠٢) و"العلاقة مع راهبات "الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة" (ما ١٠٣)، في فصل "سيرتنا الرهبانيّة"؟

أرجو بإلحاح أن يُعاد النظر، في ما لنا من مدّة باقية للاختبار، في هيكليّة القوانين الجديدة، وفي أولويّات الحياة الرهبانيّة ومقوّماتها. فيُبتدأ بها لا بما لا شأن له بها، إلاّ كملحق لها، أو كإضافاتٍ غير ملزمة لحياة الراهب الفرد.

سابعاً - أقوال بعض آباء الرهبانيّة في الحياة الديريّة

٢٥ . يقول **الأباتي بطرس قزّي** في الحياة الديريّة: إنّها "الإطار الأفضل الذي تنمو فيه كلّ القيم. أديار تدخلها، تشعر حالاً بالجوّ الهادئ والمحبّة المتبادلة والتفاهم الأخوي؛ وأديار أخرى تدخلها، تشعر بانزعاج مع أفرادها وتفكّك يجعلك تعتقد أنّ الحياة الرهبانيّة أمرٌ وهميٌّ صعبُ التحقيق. إذا نحن عجزنا عن إحياء الحياة المشتركة، نعجز حتماً عن تحقيق التجديد الرهباني المنشود "[16].

٢٦ . ويقول **الأب توما مهنّا** في تحديد التركيب الاجتماعي للرهبانيّة : "يشدّد المشروعُ الجديد على كلّ ما من شأنه أن يحيي الدير والجماعة الديريّة على حساب المركز والاستقلال الفردي.. يعتبر المشروع الجديد الديرَ الخليّةَ الأساسيّةَ للجماعة الرهبانيّة، والمحيط

16 مجلّة أوراق رهبانيّة (أ.ر.)، عيد العنصرة ١٩٧٣، ع ٢٠؛ ص ٢٦ و ٢٨.

الوحيد الذي يوفّر للراهب وللفرد الظروف المؤاتية لتحقيق دعوته الرهبانيّة وعيشها.

لذلك يقضي المشروع بتأمين جماعة كافية لكلّ دير، وفي حال تعذّر ذلك، لقلّة الأشخاص، تُضمّ الأديار والمراكز بعضها إلى بعض؛ ويقضي بإحياء كلّ ما يعزّز الحياة الديريّة (كالمجمع الديري والالتقاء للاحتفالات الدينيّة وللراحة والتسلية)"[17].

٢٧ . ويقول **الأب أوغسطين مهنّا**، في النظام الديري : "... لا وجود لدير، ولا مبرّر له، بدون حياة ديريّة جماعيّة. وإلاّ، فأيّ معنى للنظام اليومي، للصمت والحصن؟ ماذا بالإمكان أن يُطلب، على صعيد إنساني ورهباني وروحي، من راهب يعيش منفرداً في دير؟ فهل اختار هذا الراهب الحياةَ الرهبانيّة ليعيش وحيداً منفرداً؟ أَوَلا يتنافى هذا الواقع مع شريعة الوجود نفسها؟ أوَليس في هذا الواقع قتْل للأشخاص، وهدْر لطاقات؟"[18].

٢٨ . ويقول **الأب يوسف محفوظ** (مطران البرازيل فيما بعد) في مقال: "الحياة الرهبانيّة في الكنيسة : جوهرها. أصولها. قيمها" عن الحياة الديريّة: "لا حياة رهبانيّة بدون حياة عائليّة ديريّة صحيحة"[19].

17 أ.ر.، عيد الفصح ١٩٧٤، ع ٢٢، ص ٢٢.
18 أ.ر.، ع ٣٣ (١٩٨٨)، ص ٣٦.
19 أ.ر.، ع ٣٥-٣٦ (١٩٨٨)؛ ص ١٢.

٢٩ . ويقول **الأب لويس الخوند** في مقال: "الحياة المشتركة": "خليّة المجتمع الأولى هي العائلة. الحياة المشتركة من مقوّمات العائلة. العائلة.. تقوم على التعاون بين أفرادها، تسودهم الإلفة، وتوحّد قلوبَهم المحبّة، ويحافظون بإخلاص على سمعة الأسرة التي ينتمون إليها..."[20].

٣٠ . ويقول **الأب الياس خليفه** في تقديم نصّ "السيرة الرّهبانيّة" : " النص يعطي الصدارة للحياة المشتركة، لأنّها الإطار الحقيقي لكلّ حياة رهبانيّة. لا حياة رهبانيّة جديرة بهذا الاسم إنْ لمْ تحتلّ الحياةُ المشتركة قلبَها. الرّاهب هو مَن اعتنق النذورَ ومارسها مع إخوته في الدّير "[21].

٣١ . ويقول **الأب أمبروسيوس الحاج** : "إنّ جوهر الحياة الرّهبانيّة الحياة المشتركة؛ أمّا النذور فوسائل. لا يمكن للراهب إطلاقاً أن يحفظ عفّته (مثلاً)، من دون إطار الحياة المشتركة، أللهمّ إلاّ إذا كان ملاكاً أو حبيساً... إنّ العفّة لا تُحفظ بسهولة خارج نطاق الإخوة"[22].

٣٢ . وجاء في **محضر المجمع العام الخاصّ بتجديد القوانين** عن اللجنة التحضيريّة، في غاية الرهبانيّة: "إنّ من واجبنا الرّجوع إلى غاية رهبانيّتنا الأساسيّة التي تقوم أوّلاً على الحياة الدّيريّة، ثمّ على

20 أ.ر.، ع ٣٥-٣٦ (١٩٨٨)؛ ص ١٨.

21 تجديد قوانين ورسوم الرهبانيّة؛ ص ١٨١.

22 تجديد قوانين ورسوم الرهبانيّة؛ ص ٢١٥-٢١٧.

عمل الرسالة، مع السعي إلى تطوير الغايتَين حسب مقتضيات العصر"[23].

٣٣ . وجاء في **الأسئلة الخاصّة في غاية الرّهبانيّة :** "بما أنّه قد ثبت أنّ غاية رهبانيّتنا الأولى هي الحياة الديريّة مع كل ما تقتضيه من مقوّمات، وقد عاشتها الرهبانيّة مئتَي سنة ونيّف. فما هي الوسائل الفعّالة، في نظرك، للمحافظة عليها وإنمائها؟"[24].

٣٤ . في **الجلسة الثانية (١ / ٩ /١٩٦٩)**، وفي "عرض شامل لأعمال اللّجان التحضيريّة"، قدّمت **أمانة سرّ المجمع**، خلاصة الدراسات التي قامت بها اللّجان الفرعيّة المنبثقة عن اللّجنة التحضيريّة، في موضوع غاية الرهبانيّة. قالت: "غاية رهبانيّتنا الأساسيّة هي الحياة الديريّة. والغاية الثانية هي عمل الرّسالة. وجوب السعي إلى تطوير الغايتَين حسب مقتضيات العصر". "واستخلصت بأنّ رهبانيّتنا كانت منذ تأسيسها تتعاطى رسالة الوعظ والتبشير، مع أنّ الغاية الأولى كانت الحياة الديريّة والزهد والاختلاء"[25].

---

23 تجديد قوانين ورسوم الرهبانيّة؛ ص ٥٨.

24 تجديد قوانين ورسوم الرهبانيّة؛ ص ٥٩.

25 تجديد قوانين ورسوم الرهبانيّة؛ ص١٠٦.

٩

الدير حصن الحياة الرهبانية

١ . للحياة الرهبانيّة حصون، من دونها لا تكون ولا تنمو ولا تستمرّ. هذه الحصون تضمن وجودَها وثباتَها؛ إنِ انهارتْ هذه الحصون انهارتِ الحياةُ كلُّها. والحصن الأوّل والأهمّ هو "الدير". في الدير تكون؛ وخارجه لا تكون؛ بحيث إنّ حياةً رهبانيّة من دون دير قد تكون كلَّ شيءٍ ما عدا أن تكون حياةً رهبانيّة. في الدّير، وليس في سواه، تعاش الحياةُ الرهبانيّة. وفي الدّير وحده، تستحقّ اسمَها.

الدّير هو "العنصر" الأساسي المكوِّن للحياة الرهبانيّة. إنّه المكان الذي تعيش فيه وتحيا وتنمو وتتطوّر. وخارج الدير،لا حياة رهبانيّة. والقِيمُ الرهبانيّة كلُّها لا تُصان إلاّ في الدير. راهبٌ خارج الدير راهبٌ من دون قانون. منقوص الحقوق. لا يُطلب منه واجب.. يكون الراهبُ راهباً حقًّا عندما ينتمي إلى ديرٍ يعيش فيه، ثابتًا، مستقرًّا، عاملاً، ينطلق منه ويعود إليه. والنذور الرهبانيّة جوّها وإطارها هو الدير؛ وقد لا تُحفظ خارجه إلاّ بنعمةٍ خاصّة.

٢ . حياةٌ رهبانيّة جوّالة، سائحة، تهتمّ بأعمال البرِّ والإحسان، وتقوم على أعمال الكرازة والرسالة، وتغار على خراف الله ورعاياه، وتعتني بشؤون المجتمع والعالم، وتجهد في خلاص النفوس... هذه الحياة هي كلُّ شيء ما عدا أنْ تكون حياة رهبانيّة.

حياةٌ رهبانيّة تعمل في فتح المدارس والجامعات، وتهتمّ ببناء المستشفيات والمستوصفات، وتسهر على المياتم ومآوي العجزة، وتشيد البنايات للإيجار والتجارة، وتلعب بالمال والفائدة، وتهتمّ بسياسات المجتمع، وتسجّل أبناءها في صناديق العجز والضمان الصحيّ والإنعاش والتعليم... هذه الحياة هي كلُّ شيء ما عدا أن تكون حياةً رهبانيّة.

٣ . حياةٌ رهبانيّة لا يميّزها العيشُ مع الإخوة، والحياةُ المشتركة، والمحبّةُ الأخويّة المتبادلة، والأعمالُ الديريّة الوضيعة، والمشاركةُ في الرؤية، والتطلّعُ إلى مصير واحد... هي حياة غير رهبانيّة، ينقصها ما يجب أن تقوم عليه. والدّير وحده، ضمانة لما يجب أن تقوم عليه.

٤ . حياةُ الراهب الحقيقيّة هي أن يكون في ديره، يعيش فيه ويعمل، ينطلق منه ويعود إليه.. وكلُّ رسالة له خارج الدير هي رسالة تفيده هو، ولا تفيد مَن لأجله يبشِّر.. غير ذلك هي رسالة الراهب في

ديره. رسالةٌ تُعمل باسم الدير أجدى من تلك التي تُعمل باسم صاحبها؛ إذ يكفي أن يفتخر الإنسان بمَا يعمل حتى يخسر أجَر ما يعمل.

٥ . كان الدّير قديماً يُبنى في البريّة، أو على قِمم الجبال، أو في بطونِ الوديان، بعيدًا عن المدينة وتجمّعات البشر. وإذا ما اضطّرته الظروف لأن يكون قريباً من المدينة، كان شكله الهندسي يعزله عن العالم تماماً، أو كانت حصونُه عاليةً شائِكةً صخمةً تبعده عن ضجيج الناس وضوضاء المدينة؛ أو أيضاً كانت ممتلكاته الشاسعة تقيم حاجزاً بينه وبين العالم.

لقد كان الدّير شبيهاً بمدينة مستقلّة قائمة بذاتها. فيه معظم أنواع الحِرف والصناعات، بنوع أنّه لا يحتاج المدينةَ إلاّ في الضروريّاتِ القصوى. لقد كان مملكةً نشيطةً في الخدمات التي تقوم عليها حياته الاقتصاديّة والمادّية. يؤمُّه الناس ليجدوا لهم فيه عملاً ورزقاً. ويخرج الرهبان منه ليقدّموا للناس ما يُنتجون. هكذا كانت الصلة بين الدّير والمدينة.

٦ . أمّا اليوم فقد زحف الدّير باتّجاه المدينة، شرّع أبوابَه، ودكّ حصونه، وهدّم سياجاته، وانكشف ما في داخله على أعين الجميع. وأصبح السرُّ المكنون فيه منذ وجوده، معلَناً مكشوفاً من دون حرمة. ثمّ خرج الرهبان من قلاليهم وصمتهم وأعمالهم الوضيعة، وبرزوا تحت

نور الشمس. وقصد الدَّيرَ مَن قصده للتسلية، والمحادثات التي لا فائدة فيها.

٧ . هندسة الدّير أيضاً تغيّرت عمّا كانت عليه في البدء. في البدء كانت هندسة الأديار تأخذ بعين الاعتبار الفصلَ بين غرف الاستقبال، وغرف سكَنِ الرهبان: عادةً ما كانت الطبقة العليا لسَكَنِ الرهبان، لا يدخلها أحدٌ من أهل العالم، لا رجال ولا نساء. والطبقة الوسطى، فيها كان المنزول وغرف الضيافة والاستقبال. وفيها أيضاً مدخل الدّير الأساسي، والبوابّة الكبيرة، والخوخة في دفّةٍ منها. ثمّ الطبقة الأرضيّة، التي تتضمّن أقبيةً للمونة والمواشي والعلف وما إلى ذلك...

٨ . أمّا اليوم فقد اختلطتْ الطبقات بعضها ببعض: فأصبح المدخل الرئيسي للدّير في الطبقة العليا، يؤدّي بك مباشرة إلى أمكنة الرهبان وقلاليهم. وكذلك صعدت غرف الضيافة والاستقبال وغرف الانتظار والاستعلامات ومكاتب العمل.. من الطبقة الوسطى إلى طبقة غرف المنامة. وراح الناس، يسرحون ويتنزهون ويرتاحون ويتبخترون بين قلاّية وأخرى، يفسدون على الراهب خلوته وصمته وراحته وهدوءَه، ويتشاوفون على أنهم دخلوا غرفة الراهب الفلاني ورأوا فيها ما رأوا من غنى يحسدونه عليه، أو من فقر يهينونه بسببه.

٩ . لقد انتهت مهمّة الدير الرسوليّة بانكشاف سرّه. وفي طريقة الحياة الرهبانيّة الحاضرة انتفتْ الرسالة تماماً. والرسالة، إذا بطلت من الدير، بطلت، لا محالة، من الراهب نفسه. ديرٌ بلا رسالة يؤدّي حتماً إلى راهبٍ بلا رسالة. ونقول أيضاً : ديرٌ بلا حياة رهبانيّة يعني حتماً راهباً بلا حياة رهبانيّة. فالراهبُ لا يستطيع أن يعيشَ حياته الرّهبانيّة في ديرٍ غيرِ محصّن؟ يخطئ من يظنّ غير ذلك.

١٠ . دليلُنا على ما نقول ما يلي: يوم بطل الدير أن يكون مركزًا للحياة الرهبانيّة، قامت ِ الجمعيات الرهبانيّة، في شكل "مؤسسة"، و"منظمة"، لتعوّض عمّا فقده الدّير. فشلُ الدير قد أدّى، سنة ١٦٩٥، في لبنان، إلى استبداله بمجموعة أديار، انتظمت في قانونٍ واحد، تحت فرائض واحدة، وبأمرة سلطةٍ عامّة واحدة... وذلك لتعوّض عن الحياة الديريّة المفقودة.

١١ . الرّهبانيّة المنظَّمة Ordre في شكلها الحالي هي البديل عن الدير، وهي في الوقت نفسه دليل على انهيار الحياة الرّهبانيّة نفسها؛ بل هي تكريس لهذا الانهيار. ونقول الشيء نفسَه عن سلطة الرئيس العام والمدبِّرين العامِّين. هذه السلطة هي دليل على انحطاط سلطة الرئيس في الدير، وبالتالي على ما تقوم عليه الحياة الرّهبانيّة نفسها. ونقول الشيء نفسَه عن تنقّل الرهبان من دير إلى دير. هذا التنقّل هو برهان على فشل الحياة الرهبانيّة في كلّ دير.

١٢ . باختصار نقول : إنّ فشلَ الحياة الرهبانيّة في الدير أوجدَ القوانين والفرائض، وأقام الجمعيّات والمؤسسات والمنظَّمات، وخلقَ السلطات المركزيّة العامّة، وشتّتَ الرّهبان من ديرٍ إلى دير، فأصبحوا في حال حلٍّ وترحال، أي في حياةٍ غير مستقرّة. والرئيس العام، في هذه الحال، أخذ مكان رئيس الدّير، وراح يتدخّل، لا من أجل نجاح الرهبان في حياتهم الرهبانيّة؛ بل من أجل نجاح المؤسّسة التي يتولّى إدارتَها. أمّا الدّير القائم، إذا كان ثمّة من ديرٍ بعدُ قائماً، فهو ذاك الدير الذي لا يزال يعاند ويقاوم تدخّلَ السلطة العامّة.

١٣ . ولنا على هذا "العناد" دليلان : واحد قانوني وهو أنّ الكرسي الرسولي لا يسمح بإنشاء دير إنْ لمْ يكنْ له كيانٌ مستقلٌّ قائمٌ بذاته. والثاني هو استقلاليّةُ الدّير بممتلكاته وأرزاقه، بنوع أنّ السلطة العامّة، التي تبدِّل الرهبانَ وتغيّرهم وتنقلَهم من ديرٍ إلى دير، كما تشاء وساعة تشاء، لا تستطيع أن تُنقل قطعة أرض صغيرة من دير إلى آخَر من دون معاملاتٍ قانونيّة إداريّة واجبة، يوافق عليها القيّمون على الدّير. هؤلاء القيّمون قد يقفون بوجه السلطة العامّة في ما يخصّ عقار، لكنّهم، فيمَا يخصّهم هم، فإنّهم في مهبٍّ الرّيح. لنتأمّلنَّ هذا الخلْفَ الرهيبَ في مجريات الأمور !

١٤. لقد نشأتِ "المنظَّمات الرهبانيّة"، إذاً، لا عن صحّةٍ بل عن مرض. وتوحّدت الأديار وانضمّ بعضها إلى بعض، لا بسبب حياة

رهبانيّة أفضل، بل تحاشياً لفسادٍ جاءَها من تدخّل السلطة العامّة. ثمّ توحّدت السلطة في رئيسٍ عامٍّ واحد، لا لتنشيط الحياة الرهبانيّة؛ بل لضبط الرؤساء الفاشلين.. هذان "التنظيم" و"التوحيد" كانا، إذاً، علامة مرضٍ وانحطاط في عيش الحياة الرهبانيّة.

١٥ . وعلينا أن نستنتج ونقول: إذا استمرّت "المؤسسة الرهبانيّة المنظّمة" قائمةً على حساب الدير، تفقد الحياةُ الرهبانيّة رونقَها، ومثاليَّتَها، وعالمَها، وقيمَها، وروحانيَّتها، وقداستَها، وخلوتَها، وميزتَها.. في تنقّل الرهبان من ديرٍ إلى ديرٍ خطرٌ على الراهب وعلى الحياة الرهبانيّة وعلى الدير . هذا النوع من الحياة الجوّالة لا يقدِّس أحداً، ولا يَنجحُ فيها أحد. قد تنجح "المؤسّسة"، ولكنّ الرّاهب لن ينجح. والهدف من الحياة الرّهبانيّة هو نجاح الراهب لا نجاح المؤسّسة.

١٦ . إذا كان هدفُ الحياة الرهبانيّة الناجحة هو القداسة، فإنه يخشى مع "المؤسسات الرهبانيّة المنظّمة"، أن نفتقد كلَّ قداسة. وإذا عدنا إلى الدير، الخليّةِ الأساسيّةِ للحياة الرهبانيّة، نعود إلى طريق القداسة. بسلامة الدير قد يسلم أوّلُ "حصن" منيع للحياة الرهبانيّة في لبنان؛ وبفقدانه تسير الحياة الرهبانيّة إلى الاضمحلال المحتّم. في الدير تتجدّد الحياةُ الرهبانيّة، وتتعصرن، وتترقّى، وتتطوّر. وعلى نوره تُدرَك، وتُعاش، وتنمو، وتتطوّر.

١٠

الثبات والاستقرار في الدير

الحياة الرّهبانيّة الحقّ هي تلك التي تعاش في الدّير، **باستقرارٍ وثبات**، مع جمهور إخوةٍ، لا يتبدّل أفرادُه لأيِّ سبب؛ ولا يتطايرون كلَّ ثلاث سنين؛ ولا يُسحَبُ منهم راهبٌ بحسب رغبات ذوي السلطان، أو عند كلِّ حاجة، أو لدى كلّ وظيفة تشغر هنا أو هناك.

الحياة الجوّالة النقّالة لا تُجدي نفعاً : لا تفيد راهباً، ولا تنفع ديراً، ولا تُنمي حياةً رهبانيّة سليمة. راهبٌ جوّال إنّما هو يتسلّى ليس إلاّ. أمّا الحياة الثابتة المستقرّة ففيها يجد الرّاهبُ قداستَه، وحمايتَه، واتّزانَه، واستقرارَه، وهدوءَه، وسكنَه، وسلامَه، واستقلالَه، واطمئنان قلبه.

من أجل هذا نقول: إنّ الحياةَ الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة المستقرّة، تستطيع أن تحمي نفسَها وتحمي أفرادَها من **آفاتٍ كثيرة**، إكتسبَتْها عَبر مسيرتها وهي خارج الدّير. هذه الآفات أخّرتْ مسيرةَ القداسة في الحياة الرّهبانيّة.

١ . أولى هذه الآفات نستوحيها من رسالة القدّيس **شَهْدُونَا** الرّوحاني، النّاسك النسطوري، عنوانها: "فِي فَوَائد الاستِقْرار في الدَّير ومضارّ تبديل الأماكن"[26]. وكأنّ ما جاء فيها ينطبق على وضع الحياة الرّهبانيّة اليوم. قال :

"لا الأماكن ولا تبديل المواضع هو ما يؤمّن التخشّع للقلب" (عد ٥).

"يدفع الشيطانُ الإخوةَ عادةً للذهاب من مكان ما لسببَين، هما : الفتور والكبرياء" (عد ١١)."ومتى أراد (الشيطان) أن يحرِّكَ أحدَ الإخوه من مكانٍ ما بسببِ فتور الهمّة، يَصبُّ عليه السأمَ وثقلَ الجسد وغفوَ الذِّهن.. بل يضع فكرَه في التيهان، ويذهب به في كلّ مكان، ويحرّكه لكي يتركَ مكانه حين يوحي إليه بأنّه وصل إلى هذه الحالة بسبب المكان الذي هو فيه، لا بسبب صنيع الشيطان" (عد ١٢).

---

26 رسالة روحيّة للقديس شهدونا الناسك الروحاني السرياني النسطوري، من ما بين النّهرَين، في أواخر القرن السابع. ترجمة وتقديم الأب سليم دكّاش اليسوعي، "المنارة"، سنة ٣٣؛ عدد ٣؛ سنة ١٩٩٢؛ ص ٢٧-٤٠.

"وبعد أن يُبعِدَ (الرّاهبُ) عنه الكسلَ بالثباتِ والصبر.. يَدفعُه الشيطان لكي يتركَ معتركَ البقاء في قلاّيته كالمغلوب. (ويقول له): "في مكان آخر تستطيع بسهولة أن تخدم الله، وتحسن أمامه"" (عد ١٣).

"وبعد أن يكون قد أبعدَه عن موضعه.. يرميه إذّاكَ في القنوط، (ويقول له): "لا تستطيع أبداً أن ترضي الله في الوَحدة"" (عد ١٤).

"وحين يسعى الشيطان إلى أن يحرّك أخاً من موضعه.. فإنّه يحثُّه على كلّ أعمال الفضيلة. (ويقول له): "إنّه لا يليق بك أن تقوم بالأعمال اليدويّة (في الدّير)، وأن تُهمل خدمة َ البشر (في الرّسالة)"" (عد ١٥).

"ثمّ يجعلُه يحتقر إخوتَه الّذين يسكن معهم ويزدريهم" (عد ١٦). (ويقول له): ""ولماذا تكون حجر عثرة للآخرين؟". فإنّك تسبِّب (وأنتَ في الدّير) الضررَ لهم جميعاً"" (عد ١٧).

"وبعد أن يكونَ الشيطان أكملَ سعيه في تشتيت المتوحِّدين الدّيريّين، يُكمل تضليلَه ويدفعهم من ديرٍ إلى ديرٍ مثلَ الدّولاب ومثلَ القشّة في الهواء، على مثال ما طلبَ النّبيُّ من الله لأعدائه: "جعلهم كالزّوبعة وكالقشّ في مهبِّ الرّيح" (مز ٨٣)" (عد ٢٠).

"وهكذا يعامل الشيطانُ هذا الأخَ، بنوعٍ أنّه لن توجدَ ثمارٌ في نصبته. فقبل ما أن تثبت جذورُه وتتشدّد، يذهبُ إلى مكان آخر.. والتّيهان يدفعُه إلى تيهانٍ آخر" (عد ٢١).

"وبعد التيهان يصل إلى حدّ الانتحار" (عد ٢٢).

"الشرّير يعرف أنّه لا يُعطِّلُ عملَ المتوحِّد الرّوحي مثلُ الانتقال من مكان إلى آخر. لذلك فهو يجتهد لترتيب هذه الحرب علينا أكثر من أيّ حرب أخرى" (عد ٢٤).

"تأمّل في هذا، يا أخي! ولا تتركْ جماعتَك. ولا تتخلَّ عنها بسهولة. بل كنْ على وفاق مع إخوتك بالمحبّة" (عد ٣١). انتهى.

نختصر ما جاء في رسالة شَهْدونا. يقول: إنّ أوّل آفةٍ تتلاشى في حياة راهبٍ ثابتٍ مستقرٍّ في ديره وجماعته، هي: الضجر والسأم، وما يتبع ذلك من "فتور وكبرياء"، وكسلٍ وادّعاءِ خدمةِ النّاس، والتيهان الذي قد "يصل إلى حدّ الانتحار"، واحتقار إخوته.

٢ . إنّ الحياةَ الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة والمستقرّة في ديرٍ واحد وجماعةٍ معيّنة، قد تحمي الرّاهب من تكديس المال؛ لأنّ الحياةَ المتّصفة بعدم الاستقرار والثبات، تعرِّض الرّاهبَ حتماً إلى أنْ يجمعَ جهدَه، ويكدِّسَ أموالَه، لينقلَها معه إلى حيث يذهب، ويتنقّل، وإلى

حيث يمرض ويشيخ ويقضي أيّامه الأخيرة. إنّه لأمرٌ طبيعيّ، وذلك حتّى لا يكون هذا الرّاهب العاجز والمريض عبئاً على ديرٍ لم يعملْ فيه، وجماعةٍ لم يشارِكْها في شيء.

هذا الأمر الطبيعي يؤدّي إلى مفهومٍ غير مقبولٍ لنذر الفقر. ونحن نعلم أنّ كلَّ تراخٍ في الحياة الرّهبانيّة يبتدئ عادةً بنذر الفقر، وما ينتج عنه من استقلاليّة، وفردانيّة، وتحرّر، وحرّيّة تصرّف، وعدم الشعور بالحاجة إلى أحد.

في الدّير، وليس في سواه، تزول الحسابات المصرفيّة، وتعود الحياة الرّهبانيّة إلى استقامتها، وتتلاشى الآفةُ الثانية.

٣ . إنّ الحياةَ الرّهبانيّة الدّيريّة، المستقرّة الثابتة، تحمي الرّاهب من أميال الطبيعة ورغائبها غير المنتظمة. إنّ العيش في الدّير يساعد الرّاهب على الانتصار على فردانيّته وعزلته، ويملأ وقتَه وحياتَه، ويخلّصه من أميال قلبه. بل إنّ راهباً يعيش بعيداً عن أجواء الدّير والحياة المشتركة هو راهبٌ منقوص، يعيش في الوقت نفسه، بعيداً عن أجواء الحياة الرّهبانيّة وقِيَمِها.

في الدّير، وفي الدّير وحدَه، حيث جماعة الإخوة تحمي الرّاهبَ من عزلته وهموم قلبه وغمومه. هذه أخطار تخفّ جدًّا في الدّير حيث يجد الرّاهب مَن يساعده على محاربتها. هذه العزلة هي الآفة الثالثة

التي تتلاشى من حياة الرّاهب المستقرّ في ديره، والثابت في جماعة إخوتِه، والمستمرّ في عمله.

٤ . إنّ الحياةَ الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، المستقرّة الثابتة، تحمي الرّاهبَ أيضاً من آفةِ البطالة القاتلة. هذه البطالة وما يتبعها من سأمٍ وضجرٍ واسترخاءٍ وضياع وقتٌ وهدر طاقة، خافها الآباء النسّاك جدًّا. ونحن اليوم لسنا أكثر أماناً واطمئناناً من آبائنا هؤلاء، ولسنا محميّين من شرّها مثلهم.

الدّير وحدَه يؤمّن العمل، والعملَ الجدّيّ، المثمر، والمتواصل، مع جمهور الإخوة، يساعدنا على إنجاز أعمالنا، وإتقانها، والاستمرار فيها، وفرح الالتجاء إلى أيدي الآخرين للعون والتشجيع، وفرح مقاتلة "شياطين الظهيرة" ومكافحة تجاريبهم.

البطالة تلازم الرّاهب المنعزل. إنّ اللهَ نفسه، عندما أراد أن "يصنع الإنسان"، قال بصيغة الجمع : "لِنَصْنَعِ الإنسانَ" (تك ١ / ٢٦). لكأنّ "العمل"، في طبيعته، لا يكون إلاّ بتداولٍ بين الله وبلاطه السماوي[27].. لكأنّ هذا "الجمع" يعني أيضاً أنّ "العمل" لا يكون ناجزاً إلاّ في "جماعة". وهذه "الجماعة" لا تتأمّن في الحياة الرّهبانيّة إلاّ في الدّير. ففي الدّير وحدَه تتلاشى آفةٌ رابعة هي آفة البطالة وضياع الوقت.

---

27 راجع : تكوين ٣ /٥ و٢٢.

٥ . إنّ الحياةَ الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة والمستقرّة، تحمي الرّاهب والرّهبانيّة من قبول "طالبي الترهّب" بطريقة إعتباطيّة، غير مختبَرَة. فحالنا اليوم هي هذه : يُقبَل "طالبُ الترهّب" في الرّهبانيّة، ولا يُعرَف مَن "يقبله"؛ ويقضي سنتَي إبتداء، ولا يُعرَف لأيِّ نوع من الحياة "يبتدئ"، ولا لأيِّ ديرٍ "يترهّب"، ولا أيَّ عملٍ "يعمل"، ولا مع أيّ إخوةٍ "يعيش".. إنّه راهبٌ لأيّ مكان، ولأّية حاجة يسدّ فيها فراغًا.

الرّاهبُ الصالح لكلِّ ديرٍ، ولكلِّ عملٍ، ولكلِّ جمهورٍ، ولكلِّ نوعٍ من أنواع الحياة، هو راهب قد لا يكون صالحاً لشيء. القداسة نفسها يلزمها بعض الاستقرار والثبات. لهذا اقتضى أن يقومَ كلُّ ديرٍ بقبول "الدّعوات"، وعلى اختبارهم وتمرينهم بحسب متطلِّبات الخدمة والرّسالة فيه. قد تكون سنة الابتداء الثانية مشتركة بين مختلف الأديار، والمدرسة اللاّهوتيّة أيضاً.. إنّما يعود كلّ راهب، بعد ذلك، إلى ديره وجماعته وعمله.

بهذا تسلم الحياة الرّهبانيّة، ويسعى رهبانُها إلى قداسة نفوسهم. وتتّضح معالم الحياة كلّها أمام كلِّ طالبِ ترهّب. وبهذا تتلاشى آفة خامسة في الحياة الرّهبانيّة القائمة اليوم، آفة الضياع والدوران من ديرٍ إلى دير، ومن جماعة إلى جماعة، ومن عملٍ إلى عمل.

٦ . إنّ الحياة الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة والمستقرّة، تحمي الرّاهبَ من تصرّفات السلطة في "استعماله" في كلّ وظيفة، أو في "تعيينه" في أيّ مكان، أو في اعتباره "حلاًّ" لكلّ مشكلة تعترض السلطة العامّة.

رغبة الرئيس العام، المتصرّف بالرهبان كما يشاء وكيفما يشاء، والقائل لهذا "تِ" فيأتي، ولذاك "اذْهَبْ" فيذهب. مع هذه الرّغبة المستبدّة، أيّة حياة رهبانيّة؟ وأيّ عملٍ جدّيّ؟ أو طمأنينة لمستقبل، أو استقرارٍ نفسي؟!

في الدّير، وفي الدّير تتلاشى آفة سادسة للحياة الرّهبانيّة، ألا وهي تبعيّة الرّاهب لأهواء سلطانيّة مستبدّة.

٧ . إنّ الحياة الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة والمستقرّة، تعفي الرهبانيّة من عشوائيّة "السلطة العامّة".. كلّ شيء في الرّهبانيّة اليوم، وكلّ نظام ديريّ، وكلّ راهب، وكلّ نموّ وتطوّر، وكلّ قطعة أرض أو رأس ماعز، وكلّ تصليح شبّاك، أو غرس نصبة، وكلّ رفع مدماك أو حفر جبٍّ.. متعلّق بهذه السلطة المركزيّة التي تحكم غيابيًّا؛ بل بجهلٍ مطبق، على كلّ شيء وفي كلّ شيء. كلّ مشروع يتعلّق تصميمه وتنفيذه وتمويله بسلطة الرئاسة العامّة.

إنّه لمن المؤكّد بأنّ تأخّر الأديار كان بسبب هذه "المركزيّة"، لأنّ كلّ شيء أمسى مرتبطاً بها. بل إذا ما وُجد راهب عامل نشيط في ديرٍ ما، يُنقل إلى ديرٍ آخر ليَفيد. وفي مثل هذا "النقل" كم من جهد يضيع! ومن وقتٍ يُهدر! ومن تغيير وتبديل ليسا في وارد الإنتاج والإصلاح!

إنّ وجود "سلطة مركزيّة" في الرهبانيّة آفةٌ سابعة للحياة الرّهبانيّة. وقد تسقط هذه الآفة وتتلاشى أمام قيام "الدّير". ويقوم الدّير، إذا ما سقطت "السلطة المركزيّة" التي قد لا يعنيها هذا الدّير أو ذاك، بقدْر ما يعنيها نجاح عهدها، ولو على حساب هذا الدّير أو ذاك، أو حساب هذا الرّاهب أو ذاك.

٨ . إنّ الحياة الرّهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة والمستقرّة، تحمي الرّاهبَ والرّهبانيّة من "تكتّلاتٍ وتحزّبات"، لا فائدة فيها. بل تخلّص الراهب والرهبانيّة من مفاسد تلازم كلّ عمل سياسي، كما تلازم كلّ عمليّة انتخاب، فيها تمييزٌ بين راهبٍ وراهب، واختيارٌ لهذا الراهب دون ذاك. كلّ عمليّة انتخاب يلازمها حتماً تحزّبٌ وتكتّلٌ؛ كما يلازمها نجاح وفشل، ومواقف غير منسجمة مع الحياة الرّهبانيّة الحقّة.

هذه الحياة، وما به تقوم من تجرّد وتواضع وبُعد عن الجاه والكبرياء وشهوة السلطة والتسلّط، هي اليوم، وفي حالتنا القائمة، في

خطر. ولا يسع صيغة عيشٍ جديدة تخلّصنا من هذا الخطر إلاّ الدّير، بيتُ طمأنينة الجميع. وفي أسوأ الأحوال يضمن الدّير للذين لا يودّون دخولَ ملاعبِ السياسة استقلاليّتَهم ونزاهتَهم. أمّا في الوضع الذي نحن فيه فالكلّ يدفع بالكلِّ لخوضِ معارك السياسة والتكتّلات. وحدَه الدّير يفكّ الارتباطَ بين الرّاهب وكلِّ تكتّلٍ وتحزّبٍ وتفريقٍ وانقسام بين الإخوة.

هذه الآفة الثامنة لحياتنا الرّهبانيّة التي نعاني منها، لا يقضي عليها إلاّ الدير.

٩ . إنّ الحياة الرهبانيّة الدّيريّة المشتركة، الثابتة والمستقرّة، تحمي الرّاهبَ والرّهبانيّة من "حكم المقاطعة"، هذا الواقع التقسيمي الذي لم يقمْ في جسم الرّهبانيّة إلاّ عندما طار الدير وتشتّت رهبانه. عندها قامت "المقاطعة" وترسّختْ، واستمرّت. ولا شيء يعطّل وجودَها إلاّ العودة إلى الدير.

بالعودة إلى الدير يطير "حكم المقاطعة" حتماً؛ ومن دون جهد جهيد، أو سعيٍ كبيرٍ في إقناع القائلين بها بعدم جدواها، أو في مساعدة رافضيها على إلغائها. بالرّجوع إلى الدّير تُلغى هذه الحال التقسيميّة. ولا يعود يختصم في شأنها محبّذوها ورافضوها.

وها هي آفة تاسعة للرّهبانيّة تتلاشى مع الدّير .

هذه كانت آفات الحياة الرّهبانيّة والرّوحيّة والاجتماعيّة. عليها يسجّل الدّير انتصاراته. وكم غيرها يتلاشى إذا ما استقّرت الحياةُ في الدّير : فلا نذور تُحفظ إلاّ في الدّير. لا محبّة تُمَارس، ولا صلاة تقوم، ولا عمل جدّيّ، إلاّ في حمى الدّير. لا طمأنينة بال، ولا رؤيا سليمة لمستقبل زاهٍ، إلاّ في الحياة في الدير.. فما بالنا نرى الانتصارات في غير موقعها الصحيح؟!

ونقول أخيراً : إنّ بيت الحياة الرّهبانيّة يسمّى الدّير. وعيلة الرّاهب تعيش في بيتها. وفي بيتها تنشأ، وتنمو، وتتربّى، وتربّي، وتستقرّ، وتتطوّر، وتترقّى، وتتباهى فخورةً باستقرارها ووحدَتها وتماسكها.

وفي كلّ الذي قلناه لم نصل بعدُ إلى ما قاله القدّيس شَهْدُونَا بأنّ كلّ راهبٍ جوّال نقّال قد يصل به التيهان إلى الانتحار. وإنْ لم يكن انتحاراً جسديًّا، فهو بالتأكيد انتحار للحياة الرّهبانيّة وقضاء عليها.

١١

النسك في الحياة الرهبانيّة

مقدّمة

للحياة النسكيّة في الحالة الرّهبانيّة حقّ الأولويّة. وللحالة الرّهبانيّة مع الحياة النسكيّة تاريخ: في البرّية نشأتْ. وفي البرّيّة نمتْ. وردحاً طويلاً من العمر فيها استقرّتْ. وإنِ انفصلتِ اليوم عنها، فحنينها إليها مستمرٌّ أبداً.

لقد كانت البداية في مصر مع رهبانِ صحاري الصعيد. نشأتْ على يد أنطونيوس أبي الرّهبان، ومع سائر آباء البرّيّة والنّسّاك الذين سبقوه والذين تبعوه. ثمّ ظهرت في صحراء سيناء، وسهول فلسطين وسوريا، وجبال لبنان ووديانه.

لفظ "البرّيّة"، في قاموس الحياة الرّهبانيّة، لفظٌ مألوف. أمّا في لبنان، حيث لا برّيّة، فقد استبدل بألفاظ من الطبيعة اللبنانيّة، مثل "محبسة الرّاهب"، و"مغارة الرّاهب"، و"تلّة الرّاهب"، و"كهف الرّاهب"، و"دير الرّاهب"...

و"الدّير" هو اللّفظ الأكثر استعمالاً. إنّه المكان المحصَّن المعزول، الملائم لحياة الترهّب في لبنان؛ أكان موقعُه في مدينة أم على رأس جبل أم في قعر وادٍ. إنّه "البريّة" إيّاها. ولئن استبدلنا "برّيّة الرّاهب" بـ "دير الرّاهب"، فالمقصود يبقى إيّاه؛ أي : الابتعاد عن العالم، وعيش حياة الزّهد والنسك، وممارسة التقشّف وقهر النفس في خلوةٍ هادئة، واتّحاد تامّ بالله.

إنّ "اختبار البرّيّة"، يعني العودة إلى الذّات والابتعاد عن العالم، هذا الاختبار هو "بعدٌ آخَر" لأيِّ إنسان، يريد أن يقوم بعمل ذي شأن. فمن دون هذا الاختبار، لا يسعُ أحداً أن يحقّق ذاتَه، أو أن يأتي بمأثرة، أو يقوم بمشروع.

مَن يروم أن يفوزَ فوزاً كبيراً، عليه أن يُوجِدَ لنفسه "زاويةً" خاصّةً به. فيها يعتزل العالم، ويختلي، ويتزهّد، ويقسو على أميال الطبيعة، ويمارس أعمالَ النّسك، ويتعبّد اللّيالي الطوال، ويملأ قلبَه بمَن يُحبّ ويعبد... عندئذٍ يُعطي لحياته معنىً، ويأتي بمعجزات. هكذا صنع العباقرة والأبطال والقدّيسون.

فـ "البرّيّة"، إذاً، محطّة لا بدّ منها. بُعْدٌ إنسانيٌّ بعيد الجذور في الطبيعة البشريّة. نزعةٌ أصيلةٌ في النّفس. حنينٌ دفين إلى زمن البدايات. عودة إلى الحرّيّة، أي إلى حالةِ ما قبل الشريعة والناموس... إنّها اختبار شخصيّ لا يفرضه نظامٌ، ولا يُوجبه قانون، ولا تقيّده فرائض، ولا تحتّمه نذور.

ولكن، لا بدّ، قبل الشروع في الموضوع، من **ملاحظتَين :**

الأولى : ليستِ "البرّيّةُ" المقصودةُ هنا مَكاناً جغرافيًّا فحسب؛ بل هي حالةٌ روحيّة وفكريّة يخلقها الإنسانُ نفسُه لنفسِه. إنّها، كالعبادةِ الحقيقيّة لله، لا تكون في هذا المكان أو ذاك؛ بل تكونُ بالرّوح والحقِّ وفي كلّ مكان (رَ: يو ٤ /٢٣).

و**الثانية** : إنّ غنى "اختبارِ البرّيّة" لا يعود إلى أيّ نظامٍ مفروضٍ، ولا إلى أيّة مؤسّسة رهبانيّة منتظمة، بقدرِ ما يعود إلى المختبِرِينَ أنفسِهم، الذين يعيشون اختبارَهم الشخصيَّ بجدّيةٍ وعمقٍ وثباتٍ واستمراريّة.

جاء في قوانين الرّهبانيّة ما يلي : " قامتِ السيرةُ الرّهبانيّة على الشهادة للإنجيل، بممارسة النّسك والتأمّل... فبلغتْ بواسطتها كمالَ المحبّة لله وللقريب "[28]. وجاء أيضاً : "الحياة الدّيريّة هي الجوُّ الملائم الذي يتمرّس فيه الرّاهب مع إخوته بخدمة الله وأعمال العبادة والنّسك، والإطار المناسب الذي يُتيح للرّاهب اكتسابَ روحٍ رسوليٍّ أصيل "[29].

هذا يعني أنّ "البرّيّة"، المعبَّر عنها هنا، "بممارسة النّسك والتأمّل والحياة الديريّة"، هي الأساس في الحياة الرّهبانيّة. ففيها كمال المحبّة والعلاقة الحميمة بالله. ومنها منطلق الحياة الرسوليّة، بنوعٍ أنّه

28 قوانين سنة ١٩٧٤ (ر.ل.م.)، قانون ١٥.

29 المرجع السابق نفسه، قانون ١٢.

مِن دون حياة نسكيّة لا حياة رهبانيّة؛ كما لن تكونَ حياةٌ رسوليّة على حساب الحياة النسكيّة؛ فيما يمكن للحياة النسكيّة أن تكون على حساب الحياة الرّسوليّة؛ لأنّ النسكيّة تتضمّن الرسوليّة[30].

والآن ماذا في برّيّة الرّاهب؟ ما هي؟ كيف هي؟ وعلامَ تقوم؟

البرّيّة هي، أوّلاً، المكان المناسب للقاء الإنسان بالله؛ وثانياً، لمقاومة الشيطان في عقر داره. وهي ثالثاً، الابتعادُ عن الناس واعتزال العالم، وفي الوقت ذاته، ألعمل من أجلهم. وهي رابعاً، رحيلٌ، وتنقّلٌ؛ وأخيراً، هي عامل استقرار وثبات.

نعالجُ هذه الموضوعات، بالاستناد إلى اختباراتِ شعب الله في العهد القديم، وإلى اختبار يسوع ورسلِه في العهد الجديد، ثمّ إلى اختبار المسيحيّين الأوّلين ومؤسِّسي الحياة الرّهبانيّة.

أوّلاً - في البرّيّة لقاء مع الله

---

30 أشير، بالمناسبة، إلى **ثلاثة كتب** عن موضوع البرّيّة والاستحباس في لبنان: ألأوّل : **كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء**، للأب ليباوس داغر، كاتب أسرار الرئاسة العامّة اللّبناني، طبعة أولى ١٩٢٣ بيروت؛ طبعة ثانية ١٩٨٨ الكسليك، تحقيق الأب جوزف قزّي،١٥٠ ص. ألثاني: Paul SFEIR, **Les Ermites dans l'Eglise Maronite**, **Histoire et Spiritualité**, Bibliothèque de l'Université Saint-Esprit; Kaslik, 1985; XL-256 pages.. ألثالث : **معنى البرّيّة لزماننا الحاضر**، ألأب فاضل سيداروس، سلسلة الحياة الرّوحيّة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٧، ١٣٢ ص.

بادئ ذي بدءٍ نقول : لقد نشأت العلاقة الحقيقيّة بين الله وشعبه في البرّيّة، برّيّة سيناء، حيث نزلت ألواح النّاموس، وتمّت المعجزات الإلهيّة، فنزل المنّ من السماء مأكلاً، وتفجّر الصخر بالماء مشرباً، وانفلق البحر ممرّاً، وانتصب عمودٌ من الغمام هادياً، واعتنى الله بشعبه عناية فائقة.

فلكأنّ برّيّة سيناء كانت المكان الأنسب للقاء الإنسان بالله، ولتأسيس مملكة تدوم، وانفتاح أبواب السماء لمعرفة مشيئة الله ووحيه وتدابيره الإلهيّة، ومحاربة الشرّ والشياطين في عقر دارهم.

ليس من لقاء حميم بين الله والإنسان إلاّ في خلوةٍ هادئة، وتأمّلٍ عميق، وسكونٍ وصمتٍ وعزلة. فيسوع نفسُه، لمّا علم أنّهم يريدون أن ينادوا به مَلِكاً، "ذهب يعتزلُ في الجبل وحدَه" (يو ٦ / ١٥)؛ وكان دائماً يترك الجموع ويذهب وحدَه ليصلّي على انفراد (مر ١ /٢-٣). هذا اللّقاء مع الله في العزلة، عبّر عنه الكتاب المقدّس في عهدَيه القديم والجديد :

١ . فـ **موسى** كان له أوّلُ لقاء مع الله في البرّيّة وفي الجبل (خر ٣ /١-١٥). في هذا اللّقاء، كشف اللهُ له عن ذاتِه، وأعلنَ عن اسمه، وعبّر له عن اهتمامه بشعبه، ودعاه إلى أن يذهب ويقول لفرعون : "كذا قال الربُّ إلهُ إسرائيل: أَطلقْ شعبي لكي يُعيِّدَ لي في

البرّيّة"[31]؛ أو "يعبدني في البرّيّة" (خر ٧ / ١٦)؛ أو "يذبح للرّبّ في البرّيّة" (خر ٨ /٤)... لكأنّ البرّيّة هي المكان الأنسب لعبادة الله وإقامة الأعياد والذبائح. وكم في الكتاب المقدّس من إشارة إلى أنّ "يهوى كلّمَ موسى في برّيّة سِيناء"[32].

٢ . وفي البرّيّة أيضاً كانت نشأة **الشعبِ العبراني**، حيث تمّ اختيار الله له، وأبرمَ عهدَه معه، وحقّق وعودَه، وأنزل عليه ألواح الوصايا، وتجلّى أمام عينيه وسط الغمام، وحرّره من أرض العبوديّة، ووجَّهه نحو أرض الميعاد، أرضِ اللّبن والعسل، وسكنَ معه في خيام الصحراء، حيث وفّر له الطعام والماء، والعناية : "فهذه أربعون سنة (في البرّيّة) والرّبُّ إلهُك معك ولم يُعوزك شيء" (تث ٢ /٧).

وما امتحانُ اللهِ لشعبه في البرّيّة إلاّ لكي يجعلَه مستحقًّا أرضَ الميعاد، "مخافةَ أنّكَ، إذا أكلتَ وشبعتَ وبنيتَ بيوتاً جميلةً وسكنتَها، وكثُرَ بقرُك وغنمُك وفضّتُك وذهبُك، يشمخ قلبُك فتنسى الرّبَّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من دار العبوديّة، والذي سيّرك في البرّيّة العظيمة الرّهيبة، حيث الحيّاتُ اللاّدغة والعقارب والعطش" (تث ٨ / ١-٢٠).

---

31 خروج ١٥ /١؛ أنظر أيضاً: خروج ٧ / ٢٦؛ ٨ / ١٦و٢٦؛ ٩ /١و١٣؛ ١٠ /٣ و٢٤ حيث تتكرّر عبادة الله في البرّيّة.

32 أنظر سفر العدد ١ /١؛ ٣ / ١٤؛ ٩ / ١.

٣ . وكان أيضاً لقاء بين الله و**إيليّا النّبي** في البرّيّة حيث هربَ إيليّا من اضطهاد الملكة إيزابَل (١ مل ١٩). وفي هربه راح الله يهتمّ به، ويوفّر له المأكل والمشرب، ويتراءى له في صوت النسيم اللّطيف.

٤ . وعن اهتمام الله بالإنسان الخاطئ، صوّر **هُوشعُ** اللهَ يجلب الإنسان إلى البرّيّة، حيث يغويه، ويخاطب قلبَه، ويحوّل حياتَه، فتصبح كحياةِ الزوجة مع زوجها. قال: "هاءنذا أَستغويها. وآتي بها إلى البرّيّة. وأخاطب قلبَها.. وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم، مع وحوش البرّيّة وطيور السماء والحيوانات، التي تدبّ على الأرض. وأخطبكِ إلى الأبد" (هو ٢ /١٦-٢٥).

٥ . ومن أجمل ما في الحبّ، واللّقاء بين المحبِّين، ما أنشدَ الحبيبُ لحبيبته، في إطار البرّيّة: "مَن هذه الطّالعة مِن البرّيّة، المستندةُ إلى حبيبها؟" (نش ٣ /٦). والحبيبة تفتخر "أنا سوداء.. كخيام قيدار... جعلوني ناطورةً للكروم.. تائهةً في إثْرِ قطعان الغنم، راعية للجداء عند مساكن الرّعاة" (نش ١ / ٥-٨).

٦ . و**أشعيا** غنّى البرّيّةَ، وأظهر فرحَها وابتهاجَها، وصوّرها وكأنّها تحوّلتْ، بفضل معجزات الله، إلى جنّة زاهية، مليئة بالأزهار والأشجار المثمرة. قال: "لِتفرَحِ البرّيّةُ والقفرُ. وَلتبتَهجِ الباديةُ، وتُزهر كالنَّرجس. وتُزهرُ أزهاراً، وتبتهج ابتهاجاً مع هُتاف... قد أُوتيتْ مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون... فقد انفجرتِ المياه في البرّيّة والأنهار

في البادية. الأرضُ الحامية تنقلب غديراً، والمعطشةُ ينابيعَ مياه"[33].

٧ . أمّا **يوحنّا المعمدان** فقد كانت البريّة المنطلق لبدء العهد الجديد. فيها كان يعيش، ويؤدّي رسالة التعميد، ويتعبّد لله بالنّسك، ويُعدّ لمجيء الملكوت. فهو "صوت صارخ: في البرّيّة أَعدّوا طريق الرّبّ" (مر ١ / ٢-٣).

٨ . ومع **يسوع**، كانتِ البدايةُ في البرّيّة: فيها صام أربعين يوماً وليلة، وصلّى لأبيه، واختلى بنفسه، واعتزل النّاس، وانتصر على تجاريب إبليس. ومنها انطلق إلى البشارة. وخلال كرازته، كان دائماً يعتزل الناس، ويخرج إلى مكان قفر، ويصلّي هناك (رَ: مر ١ / ٣٥).

٩ . وكذلك **القديس بولس**، بعد اهتدائه، انطلق إلى الصحراء العربيّة، يعمل في صنع الخيام والبُسط من وبر الجمال، ليعتاشَ من عمل يديه، وينصرف إلى التأمّل والهدوء، ليبدأ بالرسالة-العاصفة التي زعزعتْ ناموسَ الديانة اليهوديّة، وأركان الدولة الرومانيّة. ثمّ بعد ثلاثِ سنوات صعد إلى أورشليم (رَ: غل ١ / ١٧-١٨)، واتّصل بكِيفا وبالتلاميذ، وكانوا لا يصدِّقون أنّه تلميذ (رَ: رسل ٩ / ٢٦).

١٠ . وكان على **آباء البرّيّة**، وعلى رأسهم القديس **أنطونيوس**، أبي الرّهبان، الذي سُمِّي بحقٍّ "كوكب البرّيّة"، أن يقتدوا بمعلّمهم، ويسيروا بحسب تعاليمِه، فتركوا العالَم، والثروة، والأقرباء

---

33 راجع آشعيا، فصول: ٣٥ و٤١ و٥٥.

والأصدقاء، وذهبوا إلى البرّيّة، وتوغّلوا فيها، حتّى نفذوا من طرفها الآخر، ليعودوا إلى العالَم الذي تركوه، مملوئين قداسةً وشهادةً وغيرةً رسوليّة. ولم تكن كواكب رهبان البرّيّة، عَبر تاريخ المسيحيّة، لتُحصَى عدداً. ففي البرّيّة وُلدتِ الحياة الرّهبانيّة، وترعرعتْ، ونمتْ، وشبّتْ، واشتدّتْ... ولئن خرجتِ اليومَ منها، فإنّ فيها ميلاً يدفعها للعودة إليها.

ثانياً - في البرّيّة صراع مع الشرّ

ليست البرّيّة موضعَ لقاء الله والتعبّد له فحسب، بل هي أيضاً موضع مواجهة الشيطان ومقاومة تجاريبه... يتخيّل للإنسان أنّ الشياطين والأرواح الشرّيرة تسكن في البرّيّة، وتتكاثر. فيها تعملُ، وترتاح، وتمارس نشاطاتها، وفيها تمتحن الإنسانَ بكلّ أنواع التجارب.

ففي البرّيّة، تذمّر الشعب العبراني على الله. وعاد إلى عبادة الأصنام. وعاوده الحنين إلى أرضِ العبوديّة. ثمّ تمرّد على الله، واتّبع غوايات إبليس. وعندما كان يترك الله كان يولي وجهَه شطرَ الآلهة الأخرى[34]، أي شطر الشياطين (تث ٣٢ /١٧)، متمادياً في ذلك لدرجة تقديم الذبائح البشريّة لهم (مز ١٠٦ / ٣٧). وكان يمارس الفجور باتّباعه الشياطين (أح ١٧ / ٧).

وجاء في سفر الخروج أيضاً وصفاً كاملاً لحال هذا الشعب المتمرّد. قالوا لموسى وهارون : " ليتنا مُتْنا في أرضِ مصر حيث كنّا

---

34 راجع : تثنية الاشتراع ١٣ / ٣ و٧ و١٤.

نجلس عند قِدْر اللّحم ونأكل من الطعام شِبَعَنا. في حين أنّكما أخرجتُمانا إلى هذه البرّيّة لتُميتَا هذا الجمهور كلَّه بالجوع " (خر ١٦ / ٣).

"... وعاد بنو إسرائيل إلى البكاء وقالوا: مَن يُطعمُنا لحماً؟ فإنّنا نذكر السّمكَ الذي كنّا نأكله في مصر مجّاناً، والقِثَّاء، والبطّيخ، والكُرّاث، والبصل، والثّوم. والآن فأحلاقُنا جافّة. ولا شيء أمام عيوننا غير المنّ " (خر ١١ /٤-٦). ثمّ تذمّروا في البرّيّة ضد الله لأنّهم لم يجدوا مياهاً لشربها. ولمّا وجدوا المياه كانت مرّة (رَ: خر ١٥ / ٢٢). ثمّ تمرّدوا بسبب ما عانوا من حروب فقالوا : " يا ليتَنا مُتْنا في أرض مصر! يا ليتَنا مُتْنا في هذه البرّيّة! لماذا أتى الرّبُّ بنا إلى هذه الأرض حتّى نَسقطَ تحتَ السّيف وتصيرَ نساؤنا وأطفالُنا غنيمة؟ أليسَ خيراً لنا أن نعودَ إلى مصر؟ " (عد ١٤ / ١-٤).

فبنو إسرائيل، منذ وجودهم في البرّيّة، أصبحوا شعباً عنيداً. يرفضون إحسانات ِ الله. ينساقون لتجارب الشيطان، ويتذمّرون، ويشكّون في المواعيد... إنّها تجاريب إبليس . ويسوع نفسُه لم يسلَمْ منها. في البرّيّة يختلج الإنسانَ شعورٌ بأنّه أمام نفسه، وحدَه، يقاوم الشرّ. ويخضّه الشيطانُ خضًّا. وتتكاثر التجارب عليه من كلّ نوع. وأهمّ هذه التجارب ثلاث :

١ . **الكبرياء :** في البرّيّة، يظنّ الأنسانُ، في أبسط عملٍ تقويٍّ يؤدّيه، أنّه أصبح له مع الله حسابٌ كبير. وعلى الله أن يُلبّي طلَبَه، ويجري على يديه المعجزات... كثيرون من آباء البرّيّة ضربَهم العُجبُ

بالنفس، فتحدَّوا اللهَ، وامتحنوه، فرمى بعضُهم بأنفسهم من أمكنة شاهقة؛ فهوَوا وتحطّموا، و"رفعهم الله إلى أسفل"، على ما يقول فيهم قولٌ ساخر.

من هذا حذّر آباء البرّيّة، فألحُّوا على أنْ يكون لكلّ راهبٍ مرشِدٌ، أو أبٌ روحيّ. وقد عبّر عن ذلك ابنُ عربي، أحد مشاهير المتصوّفين المسلمين، عندما قال: "مَن لا أستاذ له فالشيطانُ أستاذه". حتّى إنّ الشيوخَ الكبار كانوا يستمعون إلى المبتدئين، تواضُعاً منهم. وقد كتب أثناسيوس عن أنطونيوس أنّه "كان يطرح باستمرار الأسئلة، ويرجو أن يسمع آراء الإخوة"[35].

٢ . **الجنس :** يدورُ إنسانُ البرّيّة حول ذاته. يصوّر أفكارَه وتخيّلاته الجنسيّة وكأنّها وقائع. بل التخيّلات هذه قد تكون، عنده، أغنى من الوقائع... تجاريب العفّة تكاد تكون، في إنسان البرّيّة، متلاحقة. إنّها مكمن الضعف فيه، حيث تطفو الغريزة وتشتدّ، وتتحكّم الأهواء والشهوات. ويهتزّ حبُّ الله فيه، حتّى تكاد العلاقة الودّيّة بينه وبين الله تنقطع وتُفسَد من أساسها.

٣ . **الأنانيّة :** هذه تجربة أخرى جسيمة. فيها يتصوّر إنسانُ البرّيّة وكأنّه أصبح محورَ العالم، ونقطةَ ارتكاز الكون. ويُخيّل له أنّه، لولاه، لانفسدتِ الأرض وهوَت في الكون. لا يجد أحداً، في البرّيّة،

35 حياة القديس أنطونيوس، عدد ٦٧.

سواه، ليتميّز عنه. فلكأنّه وحدَه يكفي نفسَه بنفسه، ولا يتّكل إلاّ عليها، وفي كلّ شيء. يظنّ نفسَه، وهو بمواجهة البرّيّة اللاّمحدودة والسماء اللاّمتناهية، أنّه أصبحَ بمستوى اللاّمحدود واللاّمتناهي، أي بمستوى المطلق نفسه. وكم من ناسك تجرّأ على الله، ورأى نفسه كالله. وقد عبّر عن هذا صوفيّون مسلمون، فقالوا : "أنا في الله والله فيّ"، أو "أنا الله والله أنا"، أو "ليس في الجبّة إلاّ الله"، أو أيضاً "سبحاني ما أعظم شاني"... كلّ هذا من نتاج البرّيّة.

هذه التجارب لم ينجُ منها يسوع نفسه. لقد شاء أنْ يدخل في اختبار البرّيّة، فكان له ما هو لكلِّ إنسان. "ويأبى استخدامَ قدرته الإلهيّة لغاياتٍ بشريّة مادّيّة. ويأبى أنْ يخلّصَه الله بنوعٍ سحريٍّ. ويأبى أنْ يسجد للشيطان لكي يملِك على العالم... وسيمتحنُ اليهودُ يسوعَ امتحانَ الشيطان له، فينتصر عليهم"[36].

ثالثاً - في البرّيّة اعتزال للعالم

١ . إنّ اعتزال العالم، والابتعاد عنه، والانفصال عن النّاس، والخلوة والصمت والانقطاع عن هموم المجتمع، من مُقوّمات الحياة في البرّيّة ومميّزاتها. وبالتالي من مقوّمات الحياة الرّهبانيّة ومميّزاتها. وقد مارستْ رهبانّياتٌ عديدة هذه المميزات، بشكل من الأشكال، وبطريقة من الطرق :

---

36 تفسير أونجليون على تجارب يسوع في متّى.

فهناك رهبانيّاتٌ مارستِ الانفصالَ الكامل أو شبه الكامل ضمن دير محصّن؛ وهناك النذور أيضاً تعبير آخر عن انفصال تامّ شامل للرّاهب عن العالم؛ وهناك الخلوات والرياضات الشهريّة أو السنويّة شكلٌ آخر من أشكال الانفصال؛ وهناك الصمتُ كذلك إنفصالٌ آخر، ألحّتِ الحياة الرهبانيّة على ممارسته؛ والزِّي،ّ أيضاً، علامة انفصال الرّاهب عن العالم.

٢ . هذا الانفصال يعني أنّ الحياة الرّهبانيّة، كما الحياة المسيحيّة بشكل عامّ، ليست "من العالم"، وإن كانت "في العالم"؛ أي ليست من العالم في مسلكها؛ ولكنّها تعيش في العالم وتعمل فيه. شأنها شأن كلّ عيلة جديدة لا تقوم إلاّ على انفصال الزّوجَين عن أهليهما. وشأن الولد الذي لا يصبحُ رجلاً حرّاً مستقلاًّ مسؤولاً إلاّ إذا انفصل عن والديه. فظاهرة الانفصال هذه، لئن كانت عامّة وشاملة، إلاّ أنّها خاصّة بالرّاهب الذي لا يمكن أن يكون راهباً، وهو متعلّق بالعالَم.

٣ . عن هذا الانفصال وأهمّيّته في الحياة الرّهبانيّة، أخبر أثناسيوس عن أنطونيوس : " أقنع أنطونيوس زائراً أتاه. فقال له: "إذا بقي الرهبان معكم طويلاً يُصابون بالتراخي. فكما يكون نزولُ السمكة إلى البحر ضروريًّا، هكذا يكون الإسراع إلى الجبل ضروريًّا لنا "[37]. فالابتعاد عن العالم، إذاً، هو الوسيلة الفاعلة لتحرّرِ الرّاهب من علائقه البشريّة وارتباطاته الاجتماعيّة، تحرّراً روحيًّا يسمَح له، فيما بعد، وفي

37 حياة القديس أنطونيوس، عدد ٨٤.

مرحلة تالية، أن يحضر للبشر ويخدمهم، ويشهد لأيمانه بينهم.

٤ . ولكن، يجب ألاّ يفهم الرّاهبُ بأنّ الابتعاد عن العالم يعني أن العالم شرّ، أو أنّ مَن فيه أشرار. هذا غير صحيح : " إنّ الله أحبَّ العالم حتّى إنّه جاد بابنه الوحيد" (يو ٣ / ١٦). هذا العالم هو عالم البشر موضوع محبّة الله. وإذا اعتزل الرّاهبُ العالم فلأنّ البشر الذين يعيشون فيه يستخدمونه خطأ. وما انفصال الرّاهب عنه سوى علامة لهذا التحرّر الذي يدفعه إلى البحث عن المطلق، في سبيل خدمة العالم وتقديسه.

٥ . "لا يترك الرّاهبُ العالمَ، بل يجذبُ الرّاهبُ العالمَ إلى الله. ففي خروجه من العالم، لا يعتزل العالم، بل يعتزل نفسَه حتّى يستطيع أن يحمل العالمَ إلى الله"[38]. هذا يعني أنّ الشرّ يكمن في النّفس التي تعيش من أجل هذا العالم، فيما كان عليها أن تعيش من أجل الملكوت فترفع العالمَ الذي تعيش فيه إلى الملكوت الذي تعمل له. على الرّاهب أن يقدِّسَ نفسَه، إذاً، فيقدِّسَ العالمَ في الوقت نفسه.

٦ . لقد عبّر القديس بطرس في حادثة التّجلّي عندما انجذب بشخصِ يسوع، إذ قال: "حسَنٌ لنا يا ربّ أن نكون ههنا" (متى ١٦ / ٤). وكذلك يسوع عبّر عن ضرورة ترْك العالم ليستطيع أن يرسل لنا الرّوح، فقال: "خيرٌ لكم أن أذهب. فإنْ لمْ أذهبْ لا يأتِكم المؤيِّد. وأمّا إذا

38 من أقوال متّى المسكين.

ذهبتُ فأُرسله إليكم" (يو ١٦ /٧). لكنّ يسوعَ وبطرسَ والتلميذَين الآخرَين، في نهاية الأمر، نزلوا من الجبل، واستقبلهم جمعٌ كثير (لو ٩ / ٣٧). ويسوع، بعد قيامته، ذهب وأرسلَ لنا الرّوح. ممّا يعني أنّ كلّ شيء كان من أجل أن يرتفع العالَم ممّا هو عليه إلى حال تجلٍّ وعنصرة.

٧ . ولئلاّ يكونَ انفصالُ الرّاهب عن العالم هروباً ووقوعاً في الأنانيّة، لا بدّ من أن يكون اعتدالٌ في ما بين الانفصال والحضور. إنّ الحياة المسيحيّة، وبالتالي الحياة الرّهبانيّة، هي مزيجٌ من الحضور ("في العالم") ومن الانفصال ("عن العالم"): أنتم في العالم، ولكن لستم من العالم. ألرّاهب يلتزم قضايا العالم، ولكنّه، في الوقت نفسه، حرٌّ منها. إلتزام وحرّيّة عنوان الحياة الرّهبانيّة في هويّتها ورسالتها.

٨ . يسوع وتلاميذه "هبطوا من الجبل، جبلِ التّجلّي، واستقبلهم جمعٌ كثير" (لو ٩ / ٣٧). وهو، بعد اختباره البرّيّة وعيشِه فيها، عاد إلى العالم. والشعب العبراني، وصل، بعد امتحانٍ عسيرٍ، إلى أرض الميعاد. وأنطونيوس أيضاً، بعد توغّله في البرّيّة، أطلّ على النّاس، من طرفها الآخر، ليشهد لهم، ويؤدّي رسالته نحوهم. عن ذلك قال أثناسيوس عن أنطونيوس: "أمّا معجزة أنطونيوس، وهو مقيم في الجبل، فهي أنّه كان الله يُظهر له ما يحدث للناس بعيداً عنهم"[39]. وعن

39 حياة القديس أنطونيوس، عدد ٥٩.

أوريجانس قوله: "يسأل الرّاهب مرشدَه: "ما يجب أن أفعله لأخلص"؟ يجيب المرشد: "المساهمة في خلاص العالم"".

٩ . لقد أصبح الرّجوعُ إلى العالم، إذاً، بعد البرّيّة، أمراً ضروريًّا؛ لأنّ العالَم لم يعدْ، بعد الآن، حاجزاً بين الرّاهب والله... فالرّاهب الذي يتمكّن من انفصاله عن العالم، يُصبح مع العالم في علاقة جديدة لم تعد تُعرقل علاقتَه مع الله... وحضوره فيه لم يعد يمنعه عن لقاء الله... بل لقد كان العالم حاضراً فيما كان الرّاهبُ يُصلّي في خلوته، ويعمل على تقديس نفسه.

١٠ . بل قد يقدِّس الرّاهبُ نفسَه ويخلّصها، فيما هو يعمل في تقديس العالم وخلاصه؛ إذ لا يُعقل، في منطق الرّوح، ألاّ يَخلص ذاك الذي يُخلِّص.

رابعاً - في البرّيّة رحيل وترحال

١ . ثمّة صفة رابعة تتميّز بها برّيّة الرّاهب، هي الرّحيل الدائم، وعدم الاستقرار، والتنقل من مكان إلى آخر، حتّى لا يتعلّق قلبُ الرّاهب بشيء، لا بإنسانٍ، ولا بعملٍ، ولا بمكانٍ، ولا بمناخٍ، ولا بأيّ شيء آخر. مثالُه في ذلك إبراهيم، الذي كان في رحيلٍ دائم. لقد عناه يشوع بن نون في قوله : " إنّ أبِي كان أرَامِيًّا تائهًا " (تث ٢٦ / ٥). لقد تاه في البرّيّة، ورحل رحيلاً متوالياً. وكان ينتقل وأهل بيته من

مكان إلى آخر، إلى أن استقرّ في أرض كنعان، من أجل مشروعٍ كبيرٍ أعدّه اللهُ له ولذرّيّته.

٢ . وقبل إبراهيم، كانت اللّعنةُ على قايين أن يكون "تَائِهاً شَارِداً فِي الأرض" (رَ: تك ٤ /١٢). وعرف قايين شدّةَ اللّعنة عليه، وما استطاعَ النجاةَ منها. وقال : " عقَابِي أشدُّ مِن أنْ يُطاق... أكونُ تائِهاً شَارِداً في الأرض " (تك ٤ / ١٣).

٣ . والشعب العبراني، بكلّيته، ما كان يصل إلى مكانٍ حتى يرحل إلى مكانٍ آخر. يُخيّم هنا، ثمّ يرحل. ويخيّم في مكان آخر ثمّ يرحل... وكانت ولادته الحقيقيّة، كشعبٍ موضوعِ مخطّط الله، في ذلك الرّحيل الدائم، في البرّيّة، لدى خروجه من مصر أرض العبوديّة. وما تسمية بني إسرائيل بالشعب العبراني إلاّ اشتقاقاً من هذا "العبور". فهو شعب في حلّ وترحال، في تيه وتشرّد، في حالة "فصح"، أي عبور. و"الفصح" عيدُه الأكبر.

٤ . وما "الرِّيكابيّون" إلاّ فئة من العبرانيّين الذين فضّلوا العيشَ في الخيام على العيش داخل البيوت. وقد عناهم النّبي إرميا في نقله عنهم : " لا نَبني بُيوتاً لِنسكنَها، ولا يكونُ لنا كرْمٌ ولا حَقْلٌ ولا زرْعٌ. وسَكَنَّا في الخِيام " (إر ٣٥ /٩).

٥ . إذا كان "الفصح" أكبر أعياد العبرانيّين فـ "الجلاء" أيضاً،

أو السبي، ليس، هو أيضاً، إلاّ وجهاً من وجوه الرّحيل والترحال والنزوح والشرود.

٦ . ويسوع نفسُه كان في رحيل وترحال: لقد وُلد في مدينة غير مدينتِه. ثمّ هرب إلى مصر. وعاد. ووصف نفسَه بأنّه لم يكن لديه ما يُسند إليه رأسه (رَ: متى ٨ / ٢٠). ثمّ كان يجول المدن والقرى، الساحل والجبل، في فلسطين والجليل وصور وصيدون.. وماتَ أخيراً، وقُبر في قبْرٍ ليس له ولا لأهل بيته.

٧ . والمسيحيّون الأوّلون كانوا "غرباء نزلاء في الأرض"[40]. بل هم "الغرباء المختارون" (١ بط ١ /١). وهم على الأرض "في زمن الغربة" (٢ قور ٥ /٦)، يسيرون نحو وطنهم السماوي الثابت[41]. "ليس لنا هنا مدينة باقية، وإنّما نسعى إلى مدينة المستقبل" (عب ١٣ / ١٤).

٨ . والحياة الرّهبانيّة نموذج لهذا الرّحيل المستمرّ: أنطونيوس، أبو الرهبان، مثالُهم، وقدوتهم، كان في رحيل دائم. وبداية حياته الرّهبانيّة كانت من سماعه كلمة الإنجيل: "إذهب... وبع... وتعالَ اتبعني". فتركَ أختَه، وأهلَه، وقريتَه، وثروتَه، وأملاكَه، وكلّ شيء، وذهب... فسكنَ القبورَ أوّلاً، ثم توغّل في البرّيّة في ما وراء الجبال، إلى أن اختفى في أدغالها وفيافيها.

40 عبرانيّين ١١ /١٣؛ ١ بطرس ٢ / ١١.
41 فيلبي ٣ / ٢٠؛ قولوسّي ٣ / ١-٤.

٩ . فصفة الرحيل هذه، التي يعرفها الرّاهب من خلال تاريخ الخلاص، تُكسبُه تحرّراً من كلّ شيء، تحرّراً من الأهل والممتلكات والمشاريع التي تأسر قلبَه. هو التّجرّد من كلّ شيء. والتخلّي عن كلّ شيء. وربّما كان عليه ألاّ يُعلِّقَ قلبَه بشيء. وهو قمّة الفضائل الرّهبانيّة. فالراهب الذي يبقى أسيرَ أعماله ومشاريعه وديره هو إنسانٌ مرتهنٌ ليس حرّاً.

١٠ . غير أنّ هذه الفضيلة لم تكن من دون صعوبات وتجارب جمّة. أقلّها : **الضجر**. فكثيراً ما يتعرّض الرّاهب للضجر بسبب رتابة الحياة في البرّيّة، والتكرار في الصلوات والأعمال اليوميّة... ضجرٌ تفرضه الحياة الروتينيّة في البرّيّة، حيث كلّ شيء مثل كلّ شيء. ضجرٌ يوّلد خمولاً. وأشدّ ساعاته تكون عند حمي الشمس، عند الظهيرة. ولذلك كان الاسم الآخر للضجر، عند آباء البرّيّة، والذي أخذوه من سفر المزامير: " شيطان الظهيرة " (رَ: مز ٩١ /٦).

خامساً - في البرّيّة استقرار وثبات

١ . لقد عمدتْ رهبانيّاتٌ إلى إضافة نذرٍ رابع في قوانينها، هو نذر الثبات والاستقرار في ديرٍ ينتمي الرّاهب إليه طوال حياته. لا يخرج منه إلاّ لأسبابٍ قاهرة. ولا يعمل إلاّ فيه. ولا يعرف غير الإخوة الذين يعيشون معه مدى العمر.

٢ . وهناك أيضاً قوانين في رهبانيّاتٍ عديدة ترغب إلى الرّاهب ألاّ يخرج من قلاّيته إلاّ لحاجةٍ ماسّة؛ لأنّ الخلوة بالنّفس، في نظرها، هي أجدى وسيلةٍ للخلاص. لقد قال أحد آباء البرّيّة لراهب أتى يسترشده : " إذهبْ وامكثْ في قلاّيتك. وستعلِّمكَ قلاّيتُك كلَّ شيء ".

٣ . وقد تكون الصلاة في القلاّية أعمق علاقة بين الله والإنسان . عنها قال يسوع : " إنْ صَلّيتَ فادخلْ مخدَعَكَ. وأوصدْ بابَك. وصلِّ لأبيكَ في الخفاء. وأبوك الذي يُبصرُ ما في الخفاء يجازيك " (متى ٦ /٦). ألقلاّية، عند الرّاهب، رمز الاستقرار الداخلي. ومكانٌ حميمٌ لذاك السرّ العميق الذي بين الرّاهب وربّه.

٤ . والدّير أيضاً هو مكان آخر لسرٍّ آخر يدور بين الرّاهب وربّه. فيه يتحصّن، ويعمل، ويصلّي، وينقطع عن العالم، ويحارب أميالَه، ويضبط أهواءه، وينظّم حياتَه، ويعيش قناعاته، وينمو في روحانيّته وقداسته، ويكتسب فضائل ومزايا، ويمارس محبّةَ إخوته، وينخرط معهم في حياة مشتركة، ويواظب على أعمال الرّوح، ويعيش بهدوء وسكينة، ويعمل بجدّيّة ومجّانيّة، ويتقن ما يعمل، ويتفاني في ما يعمل، ويضحّي في خدمة الذين يعمل لهم.

٥ . وبكلمة، إنّ الاستقرار في مكانٍ ما، والثباتَ في عملٍ معيّن، هما، اليومَ، الوجه الآخر لبرّيّة الرّاهب : لقد كان التنقّل، في ما مضى، صفةً ملائمةً للحياة الرّهبانيّة. وكان الرّاهب ينتقل من دير إلى دير، ومن عمل إلى عمل، بارتياح وهدوء ومن دون انزعاج نفسيّ.

وكان هذا وضعاً موافقاً لحياة الرّاهب الذي كان يجد عملاً له في كلّ دير...

أمّا اليوم فالتنقّل أصبحَ على الرّاهب بليّةً كبيرة : لكلّ راهبٍ، تقريباً، اختصاص ما، وقد لا يجد مجالاً لاختصاصه في كلِّ دير. لهذا يقتضي له أن يستقرّ ويثبت في ديرٍ يناسب اختصاصَه وعملَه؛ لأنّ الحياة الناجحة لا تكون إلاّ في العمل، والعمل الجدّي المنتج. وهذا لا يكون، عادةً، إلاّ في حالة الاستقرار والثبات والهدوء.

٦ . حالةُ الاستقرار والثبات تحدّ، على ما يبدو، من تصرّفاتِ السلطة وحرّيتها في المعاطاة مع الأشخاص. فلا يعود لها الحقّ، والحال هذه، في إصدار الأوامر اعتباطاً وجزافاً. بل عليها أن تراعي اختصاصَ كلّ راهب، وتضعَه في المكان المناسب، وتكلّفَه بعملٍ بحسب اختصاصِه، وبعملٍ ينمّي فيه شخصيّتَه. ويكون عليها أن تطلب من كلِّ راهبٍ أن يستمرّ في عمله ومكانه ما أمكن ليعطي ثمارَه ويحقّق نجاح حياته. ولحالة الاستقرار والثبات هذه أهمّيّةٌ توازي أهمّيّة التخلّي والتجرّد وعدم تعلّق القلب بشيء من أمور الدنيا.

٧ . هذا يعني أنّ مفهوم "البريّة" في الحياة الرّهبانيّة، اليومَ، بات أمراً شائكاً : فلا هو يأخذ بعين الاعتبار الابتعاد عن العالم والانفصال عن الناس، ولا هو أيضاً يصحّ في الانخراط التامّ في المجتمع. ولا هو كذلك يعني التنقل والرّحيل وعدم الاستقرار والثبات،

كما لا يعني أيضاً الاستقرار والثبات حتّى يتعلّق القلب بخيور هذا العالم...

وفي الختام نقول : ليست الحياة الرّهبانيّة، اليوم، إلاّ اتزاناً دقيقاً بين متناقضات الحياة. وأحسن موقعٍ لهذا الاتزان هو، في الرّهبانيّات اللّبنانيّة المارونيّة، "الدير"، الذي يعني ، في حقيقته، بيتاً لسكن الرّاهب وعملِه، ونشاطه، وصلواته، ورسالته التعليميّة والرعائيّة وسواها. في الدير يعيش الرّاهب ويصلّي ويعمل ويختلي بربّه؛ ومن الدير ينطلق للخدمة والرّسالة، وإليه يعود ليجد هدوءه ونشاطه وصلتَه بربّه.

١٢

المحبسة في الحياة الرهبانيّة

"أريد أن أعرف منكم أمراً واحداً فقط": أبأعمال الرسالة والبشارة والتعليم، وفتح المدارس والجامعات، وإنشاء المستوصفات والمستشفيات، وخدمة الرعايا وكثرة المواعظ، وأعمال التجارة وعمار أبنية للإيجار... أنتم رهبان! أم أنتم رهبان بمزاولة الحياة الديريّة، والنسكيّة، واعتزال العالم، والابتعاد عن مباهجه وإغراءاته، والتعامل مع الأرض، والعمل فيها، واستخراج خيراتها! أم أيضاً أنتم رهبان بالحالتَين معاً؟!

في آخر نصّ عن تعريف الحياة الرهبانيّة في قوانين الكنائس الشرقيّة ما يلي: " الحالة الرهبانيّة هي طريقةٌ ثابتةٌ للحياة المشتركة، في إحدى المؤسّسات التي ثَبَّتَتْها الكنيسة. فيها يتّبعُ المؤمنونَ المسيحَ... مُتخلِّينَ عن العالَم، وعاكفينَ كلِّيًّا على اكتسابِ كمالِ المحبّة في خدمة ملكوت الله..."[42].

وفي آخر نصٍّ لـ "قوانين الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة"، سنة

---

42 مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة، القانون ٤١٠، ص ٢٤٨.

٢٠٠٣، الباب الأوّل: "الحياة المكرّسة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة"، الفصل الأوّل: "هويّة حياتنا الرهبانيّة وأهدافها"، نقرأ أولويّة الحياة النسكيّة على الحياة الرسوليّة، مع الإقرار بهما معاً. ولكن، لن تكون الرسوليّة على حساب النسكيّة، فيما يمكن للنسكيّة أن تكون على حساب الرسوليّة، لأنّ النسكيّة تتضمّن الرسوليّة، وتتقدّم عليها، وبها تكون الحياة الرهبانيّة رهبانيّة.

تقول المادّة ٣ : " تعتمد رهبانيّتنا في تنظيمها الحياةَ المشتركة وحياةَ الصلاة والصمت والسكينة والأعمالِ النسكيّة. كما أنّها تلتزم الأعمال الرسوليّة، إنطلاقاً من الدير وعوداً إليه، تماشياً مع تاريخها وتلبيةً لحاجة الكنيسة"[43]. "الحياة المشتركة" هي الأولى إذاً؛ "والأعمال النسكيّة" هي الأساس. وإن شاءت القيام بـ"الأعمال الرسوليّة" فيكون لها ذلك "إنطلاقاً من الدير وعوداً إليه"؛ أي إنّ "الحياة الديريّة"، كما رأينا، هي المنطلق نحو الحياة النسكيّة ونحو الحياة الرسوليّة معاً.

هذا يعني أنّ باستطاعة الرهبان اللبنانيّين أن يتخلّوا عن أعمال الرسالة، ويبقوا رهباناً؛ ولكنّهم لن يكونوا رهباناً إذا هم تخلّوا عن الحياة الديريّة المتدرّجة في "حياة النسك والتأمّل". غير أنّ هذا التخلّي عن الحياة المشتركة قد يجيزه القانون فقط لمن يريد التقدّم في ممارسة الأعمال النسكيّة. وعلى الراهب الرسول، مهما كانت غيرته الرسوليّة

---

43 رَ: المجمع الفاتيكاني الثاني، قرار في تجديد الحياة الرهبانيّة وملائمتها، ٩.

متّقدة، أن يفضّل الحياةَ الديريّة الأخويّة المشتركة على الرسالة خارج الدير.

باختصار الكلام، إنّ الحياة الرهبانيّة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، مع أنّها تقوم على " الجمع بين الحياة الرسوليّة وصلاة الفرض الجماعيّة والممارسات النسكيّة "[44]، تبقى القمّة فيها "المحبسة". هذا ما جاء في قانون **١٣** (قوانين ١٩٧٤) الذي يكوّن الذروة في إدراك هويّة الرهبانيّة اللبنانيّة ومعرفة وجهة سيرها. يقول القانون: " **أمّا العزلة إلى الله في المحبسة فعنصر مميّز لرهبانيّتنا،** يعتنقها مَن يلهمه الروح القدس، بعد التمرّن على خدمة المحبّة في الدير، كما فعل العديد من أبنائها، فأضحوا علامة حيّة، وشهادة لشعب الله ".

***

المحبسة إذاً، في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، هي العنصر المميّز لها. هي امتداد طبيعي للدير. هي البديل الطبيعي للحياة الديريّة الأخويّة المشتركة. وهي أيضاً الامتداد الطبيعي لشخصيّة الراهب الحقيقي التي تتكوّن في الدير وتتربّى فيه، وتنمو، وتزدهر، وتسير صوب كمالها على قمة جبلٍ أو في قعر وادٍ..

المحبسة هي كمال الحياة الرهبانيّة، وذروة المحبّة الأخويّة، هي

---

44 قانون **١١** من قوانين ١٩٧٤.

قمّة الصلاة الجماعيّة، والعمل المجانيّ، والمشاركة مع الربّ في فداء العالم وخلاصه. المحبسة، بالنسبة إلى الرهبان اللبنانيّين، هي برّيّة رهبان الصعيد، وكولوزيه الشهداء المسيحيّين الأوّلين في روما.

المحبسة هي البعد الوجودي للإنسان المدنيّ في الراهب. هي المدى الشاسع لطموحاته، المجال الخصب لتأمّلاته، الأفق البعيد لتطلّعاته، الكون الفسيح المحصور بين جدران قلاّية صامتة باردة، تعدّ لتلك الخلوة الأبديّة لجسمٍ عانى ما عانى من ثقلِ المادّة عليه.

في غير هذه الرؤيا للحياة الرهبانيّة قد لا تصحّ حياة رهبانيّة. من دون المحبسة قد ينقص الراهبَ شيء. المحبسة ملازمة للمسيرة الرهبانيّة. فلا نحاول التمويه والهروب. في كلّ راهب يربض حبيس. في صدر كلّ راهب لبنانيّ حنين دفين إلى العزلة والاستحباس. المحبسة هي قمّة حضارة الراهب اللبنانيّ العامل على تقديس نفسه والغيور على خلاص النفوس.

***

نريد أن نقول لأولئك الذين لا يزالون يجوبون المدن للوعظ والإرشاد، إنّهم لا يعرفون من جدّيّة الحياة الرهبانيّة شيئاً. هؤلاء لا يعيشون حياتهم التي كرّسوا نفوسهم من أجلها. وحدهم السالكون طريق المحبسة، المتّجهون صوب البرّيّة، هؤلاء هم الذين يلتهبون شوقاً في محبّة الله والبشر ونشدان قداستهم وخلاصهم وقداسة العالم وخلاصه.

مَن لا يسلك هذه الطريق قد لا ينجح بشيء : حياة المحبسة طبيعيّة في المبدعين عند ذروة إبداعهم، وفي الفنّانين عند روعة فنّهم، وفي العلماء عند اكتشافاتهم العظيمة، وفي الباحثين عن الحقيقة الصعبة، وفي المتفوّقين عقلاً وعملاً، وفي الذين أبدعوا في مجالات الخدمة، والذين مارسوا المحبّة في عمقها، وتفانوا في سبيل الآخرين، وأعطوا مجّاناً، وسلكوا طريق القداسة، وسمّروا عيونهم باتّجاه المطلق.

المحبسة هي المكان الأنسب لإتيان أعمال البطولة الخارقة. هذه البطولة تظهر في ذروتها عند الذين قرّروا محاربة الشرّ حيث يتأكّدون وجودَه، أي في نفوسهم، وفي نفوسهم فقط. في المحبسة وحدها يُتّخذ هذا القرار، قرار الانتصار على الشرّ حيث هو، أي في نفسِ الراهب لا في سواه.

في المحبسة جدّيّة في كلّ شيء. لا مجال فيها للهو والمزح والاسترخاء : جدّيّة في الحبّ بين قلبَين لا يشتّتهما أحدٌ خارج عنهما، جدّيّة في اللقاء الحميم بين قلبٍ زاهدٍ في كلّ شيء يبحث عن قلبٍ واحد يجد فيه كلَّ شيء.

***

كم من راهبٍ جدَّ السير نحو المحبسة لملاقاة ربّه، وكان الربّ منه قريباً حاضراً يكلّمه، ويهمس في أذنه، ويُسمعه صوتَه، يفيض عليه روحَه، يرعاه بعنايته، يُعينه على محاربة أعدائه، يصنع له المعجزات، يطعمه طعاماً سماويّاً، يُسقيه ماءً من صخرٍ متفجّر، يهديه

ليلاً ونهاراً بجبلٍ من غمام، يدرّبه، يربّيه، يعقد معه العهود، يوحي إليه مشيئتَه... ولئن طالت أيّام المحبسة فلكي يستسلم العاشق بين يدي معشوقه، كما استسلم الإسرائيليّون بين يدي الربّ في برّيّة سيناء.

في المحبسة، كما في برّيّة سيناء، يقدّم الربّ للراهب، كما قدّم قديماً لبني إسرائيل، وسائل خلاصيّة غير متوقّعة : في البرّيّة، كم تحمّل الله من تمرّدٍ وكفرٍ وعصيان! غير ذلك كان الأمر في الفردوس، حيث خطئ الإنسان، فطرده الله منه لتوّه. في الفردوس تراجع الله وندم على ما صنع، وكاد أن يعيد كلَّ شيء إلى العدم؛ أمّا في البرّيّة فقد سار الله أمام شعبه الخائن، وهداه، وأطعمه، وكأنّه هو الذي يحتاج إلى أن يتحرّر من عبوديّة مصر. في الفردوس ادّعى الإنسانُ المعرفة، وتطاول بادّعائه على الله؛ أمّا في البرّيّة فقد أبرم الله مع شعبه عهداً مؤبّداً، وعرّفه على اسمه الحقيقيّ، وتولّى تدريبَه وتربيتَه وتعريفَه أمورَ السماء والأرض.

***

في المحبسة يكتشف الإنسان عجزه، ويتأكّد من ضعفه، ويرى نفسه صغيراً أمام هذا الكون العظيم. كلّ شيء، في المحبسة، يدعوه إلى التأمّل بما هو عليه أمام "المطلق" الذي، وحده، يملأ عقلَه وقلبه وشعورَه وكيانَه كلّه. هو، فيها، إمّا أمام هذا "المطلق" الذي يجذبه إليه، وإمّا في فراغ مخيف وضياع رهيب. والصراع، في المحبسة، بين "المطلق" و"الفراغ" مميت.

في الصراع الوجوديّ هذا، لا مجال للصغائر والتلهّي. في المحبسة سعيٌ دائم، جهادٌ متواصل، عملٌ مستمرّ، حياةُ حركة وهموم ورحيل واستباق للزمن. في المحبسة أنتَ بإزاء نفسك، وأمام "المطلق". لا يمكنك ضياع الوقت. لا تستطيع الاستسلام، أو اللهو، أو الاسترخاء، أو البطالة، أو أيضاً الراحة والهدوء وطمأنينة العقل والقلب.

في المحبسة سفر من الخارج إلى الداخل، من المادّة إلى الروح، من الآخرين إلى الذات، من النسبيّ إلى المطلق، من الجزئيّ إلى الكلّيّ، من الصلاة إلى التأمّل، من المخلوق إلى الخالق، من محاربة الأعداء الظاهريّين إلى محاربة الأهواء والأميال، من الانتصار على الكبائر إلى تذليل الصغائر، من إعطاء الجسد حقّه من القوت إلى تجويعه وحرمانه، من الأصوام المتواصلة إلى صوم واحد مستمرّ مدى العمر، من إماتة الشهوات اللاّمشروعة إلى ترويض الأميال المشروعة...

كلّ وقفةٍ في هذا الصراع تقهقرٌ وتراجعٌ في مسيرة القداسة وكشف الحقيقة. وعلى الحبيس ألاّ يقف برهة. الوقوف يأس قتّال، ولفظة "كفى" لا وجود لها في قاموس الحبساء والقدّيسين. "شيطان الضجر" وراء الباب ناطر، يريد من الراهب أن يرتاحَ ويطمئنّ. وهو، بالتحديد، يحارب هذا الشيطان. فلكأنّ الحياة، في المحبسة، تجربة متواصلة ومعجزة مستمرّة.

في المحبسة تظهر الخطيئة بعريها، ينكشف ثقل شرّها؛ ولهذا تكون التوبة عليها بالبكاء والدموع. وكلّما توغّل الحبيس في زوايا نفسه وخباياها يجد في العمق شيئاً ينخسه. وكلّما دقّق في التفتيش تراه يُكثر من أعمال التوبة. وحدَه الحبيس يعرف مدى شرّ الخطيئة في تاريخ الخلاص. وفي رَأيه أنّ الذين يعملون لخلاص العالم هم الذين اكتشفوا الشرّ في نفوسهم وحاربوه فيها.

***

أمام الحبيس المتمرّس على التهجّد والهذيذ الروحيّ المتواصل، لا تستطيع إلاّ أن تنحني إجلالاً، وتطلب منه ألاّ يكشف سرّك على الملأ. صفاء وجه الحبيس يُخجل الناظرين إليه. فلا تتفرّس فيه لئلاّ يصعقك. هذا الذي اعتاد مناجاة "المطلق" قد يحطّم، في طريقه، كلّ سخافات البشر في تعاملهم مع "النسبيّ". هذا الذي جاء ينازل الشيطانَ في عقر داره، ويحاصره في الزوايا كلّها، أتراه يتلكّأ عن تحطيم كلِّ ما يفسد عليه لقاءه الحميم مع ربّه؟!

إنتبهْ! إن أنتَ قصدتَ محبسةً فيها راهبٌ عابدٌ ناسك يصلّي، لا تقتربْ منه، قبل أن تخلع نعليك من رجليك، أي قبل أن تتخشّع وتنسحق وتُطأطئ الرأس معفّراً الجبين بالتراب. لا تقترب من دون عزمٍ على التوبة، وندامةٍ على خطاياك التي ستُكشف لك، ومقاصدَ صادقةٍ لتغيير مسيرة حياتك.

في المحبسة عاشقٌ صامت يناجي ربَّه. لا تزعجه. إحترمْ

عشقَه. تسمّعْ على مناجاته وأنينِ صدره. وحدها النجوم يحقّ لها مراقبة الحبيس لأنّه بمستواها. وحدها الشمس تطلّ عليه من كوّة قلاّيته الصغيرة المظلمة؛ وهو بمستواها. وحدها نُسيمات الفجر الناعمة تلامس، ببرودتها، ما تبقّى على جسمه من جلْدٍ وعظْم؛ يحقّ لها ذلك، لأنّها تنعشه في مناجاته الطويلة.

أمّا الإنسان، قريباً كان أو بعيداً، فيزعجه جدّاً. ويا لَلعجب! إنّ الحبيس الذي قصد المحبسة من أجل محبّة كلِّ إنسان يحاصر الآنَ نفسَه ويضيّق عليها، ويتعامل مع المخلوقات كلّها، ما عدا الإنسان! هذه ميزة كلِّ حبيس يختفي في محبسته عن أعين البشر، وذلك من أجل محبّة البشر. يختفي عن أهله وأحبّائه وأصدقائه؛ ولكن، محبّةً بهم. فهو، في خلوته، يراهم في ملء غيرته عليهم، لا في عين الجسد والعاطفة والشعور الزائل.

ساكن المحبسة تظنّه بسيطاً، ساذجاً، لا يُحسن الكلام، ولا يعرف كيف يتعامل مع الناس. تظنّه معقّداً، مريضاً، خجولاً من التطلّع في أعين الناظرين إليه. قد تهزأ به، بتصرّفاته، بلباسه، بصمته، بضعفه، بصوته الخافت... وهو، إن عرفك تَهزأ به لسذاجته، يزيدك منها لكي تهزأ به أكثر، وذلك لكي يربح، بواسطتك، أجراً أكبر. أمّا أنت، إن عرفت مسلكه معك، فإمّا أن ترتدع وتتوب، وإمّا أن تعود خائباً مهزوماً. وجلّ ما تصنعه له هو أنّك تُكسبه جزاء على جزاء.

المحبسة للراهب هي كالصليب للمسيح؛ بل هي صليبه الدائم

الذي به يتخلّى عن كلّ شيء. هو في محبسته صارخ أبداً، كصراخ الربّ على الصليب: "إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟!"، وكالقديس أنطونيوس، بعد أن برّحته التجارب، ينظر إلى الربّ مناجياً: "يا ربّ! أينَ كنتَ؟!". إلاّ أنّ الربَّ كان حاضراً، ينظر نهاية المأساة، ليقيم ابنه قيامة تصعق له الدنيا، وينتظر أنطونيوس ليُقيمه ويقول له : "أنا هنا. أَنظرُ إلى جهادك".

***

تجارب المحبسة لا تُعدّ. لا تهدأ : قلق واضطراب وشكوك.. لكأنّ الربّ فيها غائب. يغيب لأجل امتحان حبّ الحبيس. يغيب ليعرف الحبيس ويتأكّد بأنّ كلّ جهاده لا معنى له إن لم يكن الربّ حاضراً... في المحبسة يترك الربّ عاشقَه، ولكن، لا كما ترك آدم، فأخرجه من الفردوس، والسيف مصلت على رأسه؛ بل يتركه في سبيل اختبارٍ أقسى لينيلَه أجراً أعظم.

أبغض شيء على الله أن يرى الحبيسَ مرتاحاً مطمئنّاً. لهذا فهو يغيب ويغيب. يتركه يصارع وحده. يتجرّب. يتعثّر. يخطأ. يشكّ. يفقد صوابه... كلّ ذلك هو من أجل أن يعبِّئ قواه لاقتحام أعتاب الحقيقة الإلهيّة، ومواجهة المطلق الذي لا يناله إلاّ المجاهدون. والله لا يحضر أمام عيني حبيسه إلاّ عندما تسقط الأشياء كلّها. وهل هذه تسقط كلّها إلاّ في المحبسة؟!

راهب المحبسة مستتر، خفيّ. مجهول. أراد ذلك لكي تسهل عليه عمليّة الكشف والمعرفة. وهو يعرف أنّه، إذا ما ابتغى معرفة سرّ الله، عليه أن يصبح مستتراً مجهولاً. هو كيوحنا المعمدان، الذي لم يكن النور، بل جاء ليعرّف بالنور. وعندما اعتلن النور، كان على يوحنّا أن يرحل. هو كالقديس يوسف الذي كان يعرف أن لا قيمة إلاّ للصمت أمام مَن هو الكلمة ذاتها. هو كالعذراء مريم التي رافقت سرّ الخلاص صامتة خاشعة، لأنّها كانت مسحورة بما تعرف من سحر ابنها.

ضمانة خلاص العالم حبيس مخفيّ في محبسة، منسيّ من الجميع. ولن يكون لأحد خلاص، إن رحل الحبساء عن الأرض. استتر الربُّ، في سبيل خلاص العالم، ثلاثين سنة، وعلّم وبشّر ثلاث سنين فقط؛ فكم على سواه أن يستتر إذاً! عندما تعصف الرياح بالأشجار، الجذور المستترة تحت الأرض هي التي تقاوم وتخلّص الأغصان الشامخة. وخلاص هذه منوط باختفاء تلك. هذا هو دور ذاك الحبيس المخفي من أجل العالم.

***

ليست المحبسة هرباً من الناس، بمقدار ما هي ابتعاد عنهم، ولكن من أجلهم. والحبيس يجدّ في اكتشاف نفسه ليسهل عليه اكتشاف الآخرين. إنّه، بمعنى، الأنانيّ الذي لا يفكّر إلاّ بالآخرين كثيرون يظنّون بأنّ الحبيس اختار حياة المحبسة ليرتاح من الناس. هذا ليس من المحبسة بشيء. الحبيس، بانفصاله عن الناس وابتعاده عنهم، يسعى إلى

لقائهم في صميم وجودهم، في سرّ كيانهم، وعلى موعد معهم عند المصير النهائيّ.

يبتعد الحبيس عن الناس، ولكنّه، في خلوته، يسمع صراخ البشريّة كلّها بطريقة أفضل. إنّه كذاك الإنسان المتأمّل في ظلمة الليالي وهدأتها ليهدي الذين يضيّعهم نور الشمس.

المحبسة والبرّيّة والبحر والليل والصمت هي أوطان الأقوياء. المدينة وطن الضعفاء. في تلك تتّكل على نفسك وتجابه الشرّ الذي فيك؛ وفي هذه تتّكل على سواك وتستسلم للشرّ الذي يأتيك من كلّ نافذة ومن كلّ شارع.

ليست مفاتن المدينة وحدها هي التي تجرّب الحبيس؛ بل يجرّبه أيضاً حنينه إلى القيم حتّى ولو كانت إنجيليّة مسيحيّة سامية. تلك القيم التي تُمارس في المجتمع، مثل الخدمة، والشهادة، والوعظ، والكرازة، والتسامح، والغفران، وعرفان الجميل، وغسل الأرجل.. هذه أيضاً، بما فيها من تواضع ومحبّة مجّانيّة، تخفي، في تواضعها، كبرياء مرذولة، يمقتها الله.

على الحبيس أن يكتب على مداخل محبسته، وفوق أعمدة السياجات، وعلى الطرقات التي تؤدّي إليه، هذه العبارة : أيّها الزائرون! لقد أحببتُكم إلى درجة أنّني تخلّيت عن اللقاء بكم، وعن الحديث معكم. لقد تخلّيت عن الكلام، وعن المبادلات، والمراسيل،

والحوارات، والمكالمات الهاتفيّة، والسلامات التقليديّة الفاترة، والسؤال عن صحّتكم وأعمالكم وأهلكم وأصحابكم...

إسمحوا لي أن إجيبكم بالصمت. فهو أجدى. الصمت يحمي لقاءاتنا. القليل الذي أعرف لا أريد أن أعبّر عنه بألفاظ مبتورة. الصمتُ أبلغ. الصمت هو فخّ فعّال لاصطياد كلمة الله.

***

الراهب الذي لا يزال خارج المحبسة مدعوّ باستمرار إلى أن يعمل في خلق محبسة له في عمق نفسه، في حياته الخاصّة، في اختيار عمله، في نوعيّة تصرّفاته، في علاقاته الاجتماعيّة والأخويّة، في الدير وفي خارجه.

الدير، القوانين، النظام اليومي، الصلوات الطقسيّة المنتظمة، التأمّل والهذيذ الروحيّ، القراءات الروحيّة، الصمت والهدوء، الأعمال اليدويّة الوضيعة، الشغل في الحقل، الالتزام الدائم، الممارسات النسكيّة، الإماتات الصغيرة، النذور الثلاثة... كلّها، من شأنها، أن تخلق في حياة الراهب محبسةً حقيقيّة... وإذا ما اعتنى الراهب بحفظها، وأتقنها، قد يستغني عن العزلة في المحبسة، وعن الرحيل إلى البرّيّة، وينال الجزاءَ نفسَه من الربّ.

"راهبُ المحبسة" لن يبقى بعد رحيله عن هذه الدّنيا رهينَ محبسته. إنّه يصبح الساكنَ الأكبر في هذا العالم.عرف هذه الحقيقة البابا بولس السادس، يوم أعلن، في ختام المجمع المسكوني، أمام العالم

أجمع : "اليومَ تتدفّق البهجة في السماء وعلى الأرض، إحتفالاً بتطويب شربل مخلوف الراهب والحبيس في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. ويفيض فرحُ الشرق والغرب لأجل ابن لبنان البار، زهرة القداسة العجيبة" (خطاب التطويب في روما في ٥ /١٢ / ١٩٦٥).

وتتوالى الأيام، ويعودُ البابا نفسُه ليعلن شربلَ قدّيساً للمسكونة كلّها، فيقول: "إنّ الكنيسة جمعاء، شرقاً وغرباً، مدعوّة اليوم إلى فرح عظيم.. شربل مخلوف، إبنٌ فريد، صانعٌ للسلام غير مألوف، لأنّه بحث عنه في عزلةٍ، في الله وحده، الذي به عاش كسكران... نقدّمُ للعالم بأسره مثالاً هذا الرّاهبَ الرّفيعَ القدْر، مجدَ الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، وممثّلاً لكنائس الشرق وتقليدها الرهباني العريق" (خطاب التقديس في روما في ٩ /١٠ / ١٩٧٧).

١٣

الإفخارستيا والحياة الرهبانيّة

١ . نعتقد اعتقاداً صريحاً، لا لبْس فيه، أنّ الإفخارستيّا هي ركن إيماننا، وينبوع حياتنا الروحيّة، وسرّ "مشاركتنا" مع الله مشاركة في الكيان والطبيعة والصفات. بها لا يخاف اللهُ من أن ننالَ من ألوهيّته، ولا نحن نستطيع أن نتخلّى عن بشريّتنا... إنّما نحن بشر تخطّينا الحدود بنعمةٍ من الله نفسه. والله شاءَ أن يخلصَنا، ويتّحد بنا، حتّى أصبح اسمه "الله-معنا"

٢ . في الساعات الأخيرة من حياته، قبَيل آلامه، وعشيّة موته على الصليب، في عشاءٍ حميم، جمع يسوعُ تلاميذه، وكشف لهم سرًّا من أسرار الملكوت : " وبَينا هُم يأكلون، أخذ خبزاً. وباركَ. وكسرَ. وأعطاهُ التلاميذَ وقال: خُذوا وكُلُوا. هذا جسَدي. ثمّ أخذَ كأساً. وشكرَ. وأعطاها التلاميذَ وقال: اشْرَبُوا منها جميعاً. فهذا دمُ العهد، دمي المسفوكُ عن ناسٍ كثيرٍ لغفرانِ الخطايا "[45].

وبعد ذلك، حثّهم على أنْ يصنعوا مثله، وعلى أنْ يذكروا بذلك حياتَه وتعاليمَه وموتَه وقيامَتَه التي أنبأهم عنها مراراً. قال لهم : " هذا

45 متى ٢٦ /٢٦-٢٨؛ مر ١٤ / ٢٢-٢٤؛ لو ٢٢ /١٩-٢٠؛ ١قور ١١ /٢٣-٢٥

هو جسدي من أجلكم. إصنَعوا هذا لذكري... وكلّما شربتم اصنَعُوا هذا لذكري. فكلّما أكلتم هذا الخبز، وشربتم هذه الكأس، تبشِّرون بموتِ الربّ حتّى مجيئه "[46].

٣ . وتسلّم المسيحيّون من التلاميذ ما تسلمّوه من معلّمهم. وها هم، في أنحاء المسكونة، وفي أقطار العالم، وعلى مدى الدهر، وإلى الأبد، يصنعون ما صنع الربّ من أجلهم، وسمعوا قوله: "إصنعوا هذا لذكري"... وتمّت "الشركة الإلهيّة-الإنسانيّة"، شركةٌ أنزلتِ اللهَ ورفعتِ الإنسانَ. بل بها أعطى اللهُ ما به يستطيع الإنسانُ أن يصبح إلهاً..

٤ . وهكذا، ومن أجل هذا، تأسّست رهبانيّات وجمعيّات متميّزةً ومتخصّصة بعبادة الإفخارستيّا ليلَ نهار. وأيضاً، أصبح كلُّ عملٍ ذو شأن، دينيًّا كان أو دنيويًّا، يتمّ في إطار الاحتفال بالإفخارستيّا، حيث إنّه لا يكون "عيد" بين المسيحيّين إلاّ وله علاقة مباشرة بالإفخارستيّا، التي هي، في حقيقة الأمر، عيد الأعياد.

هذا العيد أصبحَ، لأهمّيّته، احتفالاً دائماً، ومشاركة فعليّة لكلِّ مؤمن بالمسيح. وقد لا تخلو كنيسةٌ في رعيّة، أو معبدٌ في دير، أو مصلّى في محبسة، من وجود القربان فيه. وقد لا يكون كاهن من دون أن يبدأ نهارَه بإقامة القدّاس. ولا راهب، أو راهبة، يتخلّف عن المشاركة الفعليّة واليوميّة بجسد الرب ودمه.

---

46 ١ قور ١١ /٢٣-٢٦.

٥ . الإفخارستيّا هي حقًّا وليمة الولائم. بها ختم يسوع حياتَه؛ وبها نحن نبدأ حياتَنا معه، آملين أن نسمعه يقول لنا، كما قال بعدَ ذاك العشاء الأخير: " سوف أشرب عصيرَ الكرمة هذا معكم رحيقاً جديداً في ملكوت أبي "[47]. ولا أمل لنا، بعد حياتنا هذه على الأرض، إلاّ أن نكون معه يوماً في ذاك الملكوت، في وليمة عرس دائمة، وفي فرحٍ أبدي.

٦ . ما دعانا إلى قول ما نقوله عن الإفخارستيّا، هو أنّنا كنّا دائماً نسائل أنفسَنا : إذا كانت الإفخارستيّا سرَّ كلِّ قداسةٍ في الكنيسة، وإذا كان لا يوجد قدّيس، أو قدّيسة، في الأرض، أو في السماء، إلاّ وله مشاركة حميمة فعّالة متواترة ملازمة في الإفخارستيّا، فلا بدّ، إذاً، من أن تكون قوانين وفرائض وتقاليد وممارسات وكتابات وتآليف عديدة تشير إلى هذه الأهمّيّة في حياة كلّ راهبٍ وراهبة في كلّ رهبانيّةٍ في الكنيسة.

٧ . هذا، وفي اعتقادنا، أنّ سرّ الحياة الرهبانيّة يكمن هنا في سرّ الإفخارستيّا.. فلا طريق آمنة لراهبٍ، أو راهبة، إنْ لم يذهب بعيداً في "شراكته" مع الربّ، بواسطة الإفخارستيّا. هذا ما تسلّمناه من الآباء والأجداد. ولا بدّ من أن نقتنع اقتناعاً لا يحتمل شكًّا، بأنّ جوهر الجوهر هو تلك المشاركة بين الله والإنسان في هذا السرّ العظيم.

***

47 متى ٢٦ / ٢٩؛ مر ١٤ / ٢٥؛ لو ٢٢ / ١٨.

٨ . يقولون، وحقًّا يقولون : إنّ اللهَ لا يُدرَك ولا يُستقصى. "ليس كمثله شيء". إنّه واحدٌ أحد، فردٌ صمد. لا والد ولا ولد. لا أب ولا إبن. لا ندّ له ولا ضدّ. لا صاحبة عنده ولا شريك.. أي ليس أحدٌ من مخلوقاته يشاركه في الألوهة؛ ولا هو يُشارِكُ أحداً من مخلوقاته في طبيعتهم وصفاتهم.

هذا يعني أن ليس بمقدور الله أن يتخلّى عن ألوهيّته لأحد؛ ولا من طبيعته أن ينحدر إلى البشر حيث هم، ويصير مثلهم، ويتشبّه بهم. إنْ صنع تُفسد ألوهيّتُه وتتلاشى . وأيضاً ليس في استطاعة أيّ إنسانٍ أن يتعالى ويتشامخ ليصل إلى الله ويشاركه في ألوهيّته. فهذا يجعله يفقد هوّيته وجوهره.

إنّ الله، عندما يصبح شريكاً مع أحد، يبطل أن يكون إلهاً. فـ "الشِّرْك" أي القول بتعدّد الآلهة، مرفوض قطعاً. بل هو طعن بالألوهة طعناً... والإنسان، عندما يظنّ نفسَه مشاركاً اللهَ في ألوهيّته، هو إنسانٌ مخبولٌ ومجنونٌ حقّاً؛ ذاك لأنّ بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان فروقات جوهريّة، إنْ أُلغيتْ أُلغي واحدٌ من الاثنين : إمّا الله، فنقع في "الدهريّة" والإلحاد؛ وإمّا الإنسان، فنقع في التوتاليتاريّة والهيمنة الإلهيّة المطلقة التي تقضي على حرّيّة الإنسان قضاءً مبرماً .

والفروقات الجوهريّة هي : أنّ الله روح محض، فيما الإنسان مادّة. الله كائن مطلق، والإنسان كائن نسبي. الله خارج الزمان والمكان، والإنسان رهين الزمان والمكان؛ الله كلّي الخير والكمال، والإنسان

جبلة نقصٍ وخطايا. الله لا يدخل في عداد الجنس والعدد والشكل والنوع، أمّا الإنسان فلا يكون إلاّ في جنس وعدد وشكل ونوع .

لا شيء في ما تقوم به الطبيعة الإلهيّة والطبيعة الإنسانيّة يسمح لنا بالقول بأنّ بين الله والإنسان مقولةً من مقولات الشراكة، والتفاعل، والتقارب، والمحبّة، والتعاون، أو أيّ شبه بين الواحد والآخر. كلّ قول بالشَّبَه بين الله والإنسان طعنٌ في صميم الله، وجهل لحقيقة الإنسان .

الله، باختصار، هو "الآخَر".

٩ . وحدَها المسيحيّة قلبتْ هذا المنطق : فيها صار اللهُ إنساناً حقّاً؛ وأصبح الإنسانُ إلهاً حقّاً. إنّه لَقول يجعل عقولَنا في حال خَبلٍ وجنون، ويعرّض طبائعَ الأشياء إلى خللٍ عجيب . ولئنْ صحّت هذه المقولة، كما هو الحال في المسيحيّة، فإنّنا حقّاً نُصادم سرًّا لا يناله عقل؛ بل نحن، معها، أمام أسرارٍ لا بداية لها ولا نهاية : سرّ إلهٍ واحدٍ وثالوث معاً؛ سرّ إلهٍ بعيدٍ وقريبٍ معاً؛ سرّ إلهٍ لا يموت ويموت معاً؛ سرّ إلهٍ يعطينا جسدَه مأكلاً ودمَه مشرباً؛ سرّ إله يُحبّ الخطأة ويتعامل معهم ليفتديهم ويخلّصهم بمحبّته لهم وبموته عنهم.

في هذه المقولة المسيحيّة، أي: "المشاركة بين الله والإنسان"، يختلط علينا جوهرُ الله والإنسان معاً : فلا الله يتمتّع بالألوهة وحدَه؛ ولا الإنسان بقي في حيّز الكائن المخلوق . ثمّة "مشاركة" حقيقيّة بين الاثنَين. ولقد شهد يسوع نفسه على ذلك عندما استشهد بالمزامير وقال:

"أمَا كُتِبَ في تَورَاتِكم: أنَا قلتُ إنَّكم آلهة؟!" (يو ١٠ / ٣٤ = مز ٨٢ / ٦).

١٠ . على القول بأنّ الله صار إنساناً حقّاً، لنا من الإنجيل وتعاليم الكنيسة والآباء، ما يكفي للدلالة القاطعة على أنّ يسوع المسيح "إله وإنسان في أقنومٍ واحد". وهو ما يُسمّيه اللاّهوتيّون "سرّ التجسّد"، الذي يعني أنّ الله تركَ عرشَه، و"تخلّى" عن ألوهيّته، وصار إنساناً خاضعاً للضعف والألم والموت مثلنا : مثلنا وُلد تحت الخطيئة، في طبيعة ناقصة. ومثلَنا عاش : أكل وشرب، نام وتعب، حزن وتجرّب، تألّم وصُلب، مات ودفن ...

وعلى القول بأنّ الإنسانَ أصبح إلهاً حقّاً، لنا من تعاليم يسوع، ومن محبّته اللاّمحدودة للإنسان، ومن إشراكِ البشر في أكل جسده وشرب دمه، ممّا سمّته الكنيسة بـ "سرّ الإفخارستيّا"، وسرّ المشاركة" Communion، ما يكفي للدلالة القاطعة على أنّ الإنسانَ بات في استطاعته أن يُشاركَ اللهَ حقّاً في ألوهيّته .

١١ . ذروة المشاركة هذه تتمّ في "سرّ الإفخارستيّا" . إنّه سرّ قداسة القدّيسين، وبرارة الأبرار. إنّه حقّاً الأعجوبة الإلهيّة المستمرّة مدى الدهور، لا من حيث محبّة الله للبشر فحسب؛ بل في مجال إعطاء البشرالإمكانيّةَ الحقّة في أن يُشاركوا اللهَ في ألوهيّته، ويصيروا آلهةً حقّاً.

في هذه الحال، أي في "سرّ الشركة" بيننا وبين الله، تزول

الفروقات كلّها، حتّى بتنا، في المسيحيّة، لا نخاف من القول بـ "الشِّرْك" الذي يُشكّك العقل، ويُعدم المنطق، ويَفتح المجالَ واسعاً أمام الكفر والإلحاد.

ولا بديل في المسيحيّة، لكي تكون مسيحيّة حقّاً، من أنْ تقوم على مقولة "الشركة بين الله والإنسان" عبر سرّ الإفخارستيّا، الذي هو سرّ المسيحيّة، من ألِفِها إلى يائها. إنّها "العيد"، بل عيد الأعياد. ولولاها لما كان في المسيحيّة عيد.

١٢ . إنّنا نفهم هذه "الشركة الإلهيّة-الإنسانيّة" فهماً حقيقيًّا، إنطلاقاً من معطياتٍ أربعة : التجسّد، الكنيسة، أولويّة الإنسان، وسرّ المائدة . لقد استعانَ يسوع ليقرِّبَ اللهَ منّا بهذه الأربعة، ليؤكّد لنا هذه الشراكة بيننا وبينه :

١٣ . لقد تنازل اللهُ وتخلّى عن ألوهيّته، والتزم طبيعةَ الإنسان وحياتَه بكلّ ما فيها. واسم هذا التخلّي **سرّ التجسّد**، أي إنّ الله صار إنساناً؛ وإنّه أصبح "عمّانوئيل"، أي "الله-معنا". به ساوى نفسَه بنا، وشاء أن يكون مثلنا، ويسكن معنا، ويحلّ بيننا، ويتّحد بنا، ونتّحد به.

١٤. ثمّ لقد احتاج اللهُ، ليتقرَّبَ منّا، إلى جماعة من البشر، إسمها **الكنيسة**، طلب مساعدتَها ومشاركتَها في خلاص البشر . لقد كان باستطاعة يسوع، بكونه ابن الله، كما في إيمان المسيحيّين، أن يُتمّ عمَلَه بنفسه؛ ولكنّه لم يفعلْ؛ بل كلّف أوّلاً جماعةَ الرسل ليكمّلوا سرَّه؛ ثمّ كلّف الكنيسة لتكمّل عملَ الرسل.

إنّ الخلاص، الذي جاء به يسوع، رهن باستمراريّة الكنيسة. الكنيسة مستمرّة والخلاص أيضاً. يعلن قانونُ الإيمانِ دورَ الكنيسة وأهمّيته، وكأنّها رابوعُ أربعة، فقال: "نؤمن بآب ضابط الكلّ.. وبربّ واحد يسوع المسيح.. وبروح القدس الربّ المحيي.. وبكنيسة واحدة جامعة..".

١٥ . لقد عمل يسوع، في كلِّ ما عمل، **من أجل الإنسان** وتحريره حتّى من الناموس الذي فُرض عليه باسم الله نفسه. فيسوع أعلن هدفَه منذ اللّحظة الأولى عندما قال : " أرسلتُ لأبشّر المساكين، وأحرّر المأسورين ". هؤلاء المقهورون والمظلومون جاء المسيح من أجلهم. وجاء ليقول للعالم بأنّ اللهَ "أب"، و"محبّة"، وليس مشترِعاً، أو قاضياً، أو ديّاناً. لقد خلق اللهُ الإنسانَ حرًّا من البدء، ويجب أن يبقى الإنسانُ حرًّا إلى الأبد .

لقد فضّل يسوع الاهتمامَ بالإنسان ولو على حساب الناموس. ورُفض بسبب ذلك. عمل على استعادة حرّيّة كلِّ إنسان مظلوم، كما عمل على رفع شأن كلّ إنسانٍ نبذه المجتمع، فجلب على نفسه غضب القيّمين على الله والناموس، وحكموا عليه بالموت على الصليب.

١٦ . لقد شاء يسوع، أخيراً، أن يقدِّسَنا بإشراكنا **في جسده ودمه بالأكل والشرب**. فحوّل الخبز إلى جسده، والخمر إلى دمه . وبهما صرنا مشاركِين اللهَ في ألوهيّته، بطريقة ممتازة، تماماً كما كان أكلُ الثمرة في الفردوس سبباً لابتعاد الله عن الإنسان الأوّل. هذا ممّا

يعني أنّنا، بالأكل في الإفخارستيّا، نستطيع أن نكونَ والله واحداً ، في طبيعتَين مختلفتَين ومشتركتَين معاً : يشاركنا اللهُ في إنسانيّتنا ونشاركه نحن في ألوهيّته. يتّحد بنا فنتّحد به. يقدِّسنا فنبادله : "ليتقدَّس اسمك".

في "الإفخارستيّا"، "سرّ المائدة"، وليمة الأكل والشرب، مشاركةٌ حميمةٌ وعميقةٌ بين الله والإنسان. فيها يصير الإنسانُ من طبيعة الله؛ كما صار اللهُ، مع المسيح، بالتجسّد، من طبيعة الإنسان. بهذا التبادل، لا الله أصبحَ إنساناً من دون إلوهيّته؛ ولا الإنسان صار إلهاً بقدراته الذاتيّة. بل هي مشاركة حقّة وبامتياز

وأخيراً، إنّنا لا نستطيعُ تمجيدَ الله وتقديسَه من دون هذه المشاركة، أي من دون مساعدة الله نفسه لنا. والفضل، كلّ الفضل، يعود إليه لا إلينا. إنّها نعمةٌ منه لا قوّة فينا. إنّها مبادرة منه لا منّا. الله هو الذي انحدر إلى الإنسان، لا الإنسان هو الذي صعد إلى الله.

١٧ . هذه المحطّات الأربع كلّها سرٌّ واحد، ذروتها "سرّ المائدة"، المستمرّ أبداً. فيه تتحوّل الطبيعتان، الإلهيّة والإنسانيّة، الواحدة إلى الأخرى، فيصير اللهُ حقًّا إنساناً؛ ويصير الإنسانُ حقًّا إلهاً.. مع ما تتحمّل هذه الألفاظ من معانٍ أشار إليها يسوع قبل أوانها : لقد طلب منّا أن نكون كاملين كالله، وأن نتشبّه به، ونتبعه. وعندما قام أرسل روحَه القدوس ليقدِّسنا، ويبقى معنا، ويصيّرنا خالدين مثله.

هذا حقّاً، في منطق البشر، كفرٌ، لا بعده كفر. ولكنّ اللهَ ذاتَه شاءَ هذا الكفر.

١٨ . في إيمان المسيحيّين، وفي عبادتهم اليوميّة والحياتيّة، في السرّ وفي العلن، تحتلّ الإفخارستيّا موقع الصدارة . لا يعلوها شيء. ولا شيء يتقدّس من دونها. بل ليس من مسيحيٍّ واحد يمكنه أن يحصل على القداسة من دونها.

هذه الإفخارستيّا دُعيتْ ، كما في صلاة مألوفة ومتوارثة : "خبز الحياة، وقوت الأرواح، وعربون النعيم... سرّ الأسرار، برّ الأبرار، قدس التقديس، عين الخيرات، مبدا وغاية... سرٌّ عجيب، سرُّ الله الرهيب، يُحقُّ أن يُعبَد".

وهي حقًّا كذلك في إيمان المسيحيّين وعبادتهم المتواترة؛ لأنّ الاحتفال بها يتمّ يوميًّا، وفي بدء كلّ نهار، قبل أيِّ عملٍ دنيوي. وتحتلّ المرتبة الأولى في كلّ احتفالٍ بعيدٍ، أو إقامة ذكرى، أو في أيِّ عملٍ تقويّ...

لكأنّ أعمالَ الإنسان لا تستمدّ قيمَتَها الرّوحيّة إلاّ من الإفخارستيّا. ولكأنّ الإفخارستيّا **تحوِّلُ** الإنسانَ في جوهره إلى غير ما هو عليه : فيسوع نفسه، في بدء حياته العلنيّة، بدأ بتحويل طبائع الأشياء : لقد حوّل الماء إلى خمر في قانا الجليل، وحوّل العمى إلى نور، والموت إلى قيامة، والمرض إلى شفاء..وها هو، في أواخر أيّامه، يحوّل الخبز إلى لحمه، والخمر إلى دمه...

وها هو اليوم أيضاً، وفي كلّ يومٍ، يحوّلُ حياتَنا وأعمالَنا، بواسطة "سرّ المشاركة" هذه، من حياةٍ بشريّة عاديّة، وأعمالٍ ضعيفة

زائلة، إلى حياةٍ إلهيّة وأعمالٍ مقدَّسة ذاتِ قيمة خلاصيّة.

من دون نعمة "التحوّل" هذه، لا قيمة لحياتنا ولا لأفعالنا كلّها. من دونها، لا عمل نقومُ به نستحقّ عليه أجراً . ولولاها لا نفهم من الله شيئاً، ولا نعرف كيف علاقتنا به. وأيضاً لا ندركُ محبّة الله لنا . من دونها، يبقى اللهُ سرًّا مغلَقاً، كائناً بعيداً، صمداً، لا فائدة لنا فيه، ولا صلة بيننا وبينه.

١٩ . الإفخارستيّا، أخيراً، هي بذرة الخلود فينا. هي "الزرع الإلهي" . هي اللهُ فينا. بها، وليس بغيرها، نخلد. وهل يخلد كائنٌ ليس فيه زرعٌ إلهيّ؟!

لأجسادنا، بالإفخارستيّا، نصيبٌ في الحياة الأبديّة. يقول إيريناوس أسقف ليون (ت ٢٠٠) **:** "كيف يمكنهم أن يقولوا إنّ الجسد يذهب إلى الفساد، وليس له نصيب في الحياة، في حين أنّه قد اغتذى بجسد الربّ ودمه؟"[48].

بالإفخارستيّا نحن نقدّم لله ما هو له، وما وهبنا هو إيّاه . وهذه قمّة ما يرجوه المؤمن من الله، وهو أن يخلد بخلوده، ويعيش معه حياةً أبديّة، سعيدة . ولا حياة خالدة، أو سعادة أبديّة، من دون الاعتماد على "سرّ المشاركة" في الإفخارستيّا .

قال آباؤنا إنّ الإفخارستيّا هي "عربون الحياة"، "الزاد الأخير" الذي نأخذه معنا من هذه الدنيا الفانية، ويؤهّلنا لدخول سعادة الله. لهذا

48 ضد الهرطقات، ٨ /٥.

فإنّنا وكأنّنا، مع الإفخارستيّا، نحمل في أجسادنا بذورَ الحياة الأبديّة.

٢٠ . بعد هذا الذي أوجزنا الكلامَ فيه نسأل أنفسَنا في أمور ثلاثة :

ألأمر الأوّل : ما العبرة من الاحتفال بالإفخارستيّا أمام غير المؤمنين؟! والتقليد الليتورجي يمنع حتّى الموعوظين من سماع كلام التقدّيس؛ ويقول أيضاً بأنّ "الأقداس تُعطى للقدِّيسين"!!!

والأمر الثاني : ما حجّة أولئك المسيحيّين المتراخين، غير المقتنعين بجدوى المشاركة المتواترة في سرّ الإفخارستيّا؟! والتقليد الكنسي والرهباني، بنوع خاصّ، كان يشدّد على أهمّيّة هذه المشاركة، وعلى نقاء ضمير كلِّ مشتركٍ من كلّ هفوة؟!

والأمر الثالث : إذا كان الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله، فهو لا يمكنه أن يبقى على هذه الصورة وهذا المثال إلاّ بالإفخارستيّا.. بالإفخارستيّا، وليس إلاّ بها، نعود إلى هذه الصورة وهذا المثال.

***

الإفخارستيّا في وثائق المجمع الفاتيكاني الثاني

١ . "إنّ المظهر الأساسي للكنيسة يقوم في الاشتراك الكامل والفعّال لكلِّ شعب الله المقدّس في ذات الاحتفالات الطقسيّة، لا سيّما في الإفخارستيّا الواحدة، في صلاة واحدة حول المذبح الواحد، حيث

يترأس الأسقف محاطاً بمجلسه الأبرشي وبخدمته"[49].

٢ . "فالقربان المقدّس يحوي كلَّ خير الكنيسة الروحي، أي المسيح فصحنا والخبز الحيّ الذي يعطي الحياة للبشر بجسده الحيّ والمحيي بالروح القدس. بهذا يدعون كلّهم ويقادون إلى تقدمة أنفسهم وأعمالهم وكلّ الخليقة مع المسيح. ولذلك فإنّ القربان يبدو كينبوع التبشير كلّه وقمّته، إذ الموعوظون يقادون شيئاً فشيئاً إلى شركة القربان، والمؤمنون الموسومون بسرَّي العماد والتثبيت يندمجون بقبولهم القربان اندماجاً كلّيًّا في جسد المسيح"[50].

٣ . "لا تبنى جماعة مسيحيّة إلَّم تتأصّل في الاحتفال بالقربان المقدّس ويكون محور حياتها، إذ من القربان مبدأ تربية الروح الجماعيّة. وليكون الاحتفال بالقربان صادقاً وكاملاً، يجب أن يحمل المؤمنين على أعمال المحبّة المختلفة، على المساعدة المتبادلة، على العمل الرسولي وعلى الشهادة المسيحيّة المتعدّدة الأوجه" (ح ك خ، ٦).

٤ . "... ألإفخارستيّا هي معين حياة للكنيسة وعربون المجد السماوي"[51].

٥ . "(والمؤمنون)، باشتراكهم بذبيحة الإفخارستيّا، ينبوع

49 دستور في الليتورجيّا المقدّسة (ل)، عدد ٤١.

50 قرار في خدمة الكهنة وحياتهم (ح ك خ)، عدد ٥.

51 قرار مجمعي في الحركة المسكونيّة (ح م)، عدد ١٥.

وقمّة كلّ حياة مسيحيّة، يقدّمون لله الذبيح الإلهي، ويقدّمون ذواتهم معه.. وبالنتيجة يتجدّدون بجسد المسيح، بالمائدة المقدّسة، ويُظهرون، بشكلٍ حبّي، وحدة شعب الله التي يعنيها ويحقّقها تماماً، وبنوع عجيب، هذا السرّ العظيم"[52].

٦ . "في سرّ الذبيحة الإفخارستيّا، الذي فيه يتمّمون مهمّتهم العليا، يُتمّ عمل خلاصنا باستمرار" (ح ك خ، ١٣).

٧ . "ولذا فيُوصي المجمع المقدّس بقوّةٍ أن يُحتفلَ بالذبيحة كلَّ يوم، إذ هي عملُ المسيح والكنيسة، وإن لم يكن باستطاعة المؤمنين أن يحضروها" (ح ك خ، ١٣).

٨ . "الاحتفال بذبيحة الافخارستيا هو الوسيلة الأوثق لاتّحادنا بعبادة كنيسة السماء" (ك، ٥٠).

٩ . "في تتميم عمل التقديس، فليحرص الخوارنة أن يكون الاحتفال بذبيحة الإفخارستيّا محور كلّ حياة الجماعة المسيحيّة وقمّتها. وليجتهدوا أيضاً في أن يعطوا مؤمنيهم الغذاء الروحي حاملين إيّاهم في أن يقبلوا الأسرار بتواتر وتقوى، وأن يشتركوا في الطقسيّات بنوعٍ واعٍ وفعّال"[53].

١٠ . "قد تخطّت رمزيّة "عشاء الرب" الفصحَ اليهوديّ في كلّ شيء: فالفصح اليهودي كان مرّة في السنة، أمّا الإفخارستيّا فقد

52 دستور عقائدي في الكنيسة (ك)، عدد ١١.

53 قرار في مهمّة الأساقفة الراعويّة (م ا ر)، عدد٣٠.

أصبحت تقام أسبوعيًّا (رسل ٢٠ / ٧ و ١١)، وذلك إحياءً، لا لذكرى العبور اليهودي، بل احتفاءً بقيامة الربّ من بين الأموات يومَ الأحد. وقد أصبح كلُّ يوم أحد من الآحاد فصحاً، أي رمزاً لعبور الربّ من الموت إلى الحياة.

إنّ يسوع، ليلةَ آلامه، "إذ يعطي الخبز والخمر معناهما الجديد، لا يُضفي عليهما تفسيراً، وإنّما يقوم بتحويلهما، بسلطانه الأعظم. إنّه لا يؤوّل تأويلاً، ولكنّه يقرّر، ويقطع، ويأمر: "هذا هو جسدي"، أي يصير ما يقول فوراً منذ الآن"[54].

***

الإفخارستيّا في أقوال آباء الكنيسة

إيريناوس أسقف ليون (ت ٢٠٠) **:** ينبغي أن يكون لأجسادنا نصيب في الحياة الأبديّة: "كيف يمكنهم أن يقولوا إنّ الجسد يذهب إلى الفساد، وليس له نصيب في الحياة، في حين أنّه قد اغتذى بجسد الربّ ودمه؟"[55].

بالنسبة إلى **أثناسيوس الإسكندري** (ت٣٧٣): هناك موازاة بين التجسّد والإفخارستيّا : في كلتا الحالتَين نرى أنّ الخبز، أو الجسد، يتلقّيان كلمة الله.

54 رَ: مادّة "الإفخارستيّا" في معجم اللاّهوت الكتابي.

55 ضد الهرطقات،؛ ٨ /٥.

قورلّس الأورشليمي (ت ٣٨٧): إنّ يسوع، "بمحض إرادته، حوّل الماء إلى خمر في قانا الجليل. فلماذا لا يكون جديراً بالتصديق حين حوّل الخمر إلى دم؟".

تيودوريتس، أسقف قورش (ت ٤٦٠): "التحوّل يتمّ بفعل النعمة. فهو حين سمّى جسده الطبيعي "حنطة" و"خبزاً"، كما سمّى ذاته "كرمة"، فهو إنّما كرّم الرموز التي ترى، إذ سمّاها "جسداً" و"دماً". وهذا لا يعني أنّه غيّر طبيعتَهما، وإنّما أضاف النعمة إلى الطبيعة".

***

النشيد الإفخارستي الماروني : يا خبز الحياة

للأب عبدالله قراعلي

١

يا خبزَ الحياة، وقوتَ الأرواح، وعربونَ النعيم،

أنتَ ابنُ البشر، أنتَ ابنُ الإله، والإلهُ الرحيم،

ألملائكة قيام، بالخجل والوجل، من بهاكَ العظيم،

ونحنُ المساكين، كيفَ نَقبلُكَ بفمنا ذا الأثيم .

٢

سرُّ الأسرار، برُّ الأبرار، قدسُ التقديس،

عينُ الخيرات، مبدا وغاية، كلِّ فضلٍ نفيس.
عزُّ الكنائس، مُذلُّ الأراطقة، وكلِّ الأراسيس،
وكلُّ مَن يُنكر حقَّ لاهوتكَ، هو اللّعينُ التعيس.

٣

في العشا السرّي، فاض بحرُ الجود، وكان هو الجوّاد،
وَهَبَنَا ذاتَه، خبزاً وخمراً، وهُوَ أشرفُ زاد
يُقبَلُ حسًّا، ويُفيدُ نفساً، بأفضلِ إمداد،
يا لَسرٍّ عجيب، سرِّ الله الرّهيب، يُحَقُّ أن يُعبَد .

٤

أيّها التائبون، هلُمّوا باحترام، واقتبلوا الإله،
هو الذي يُعطَى، هو الذي يُعطي، رحمةً وحياه،
إلهي رجائي، نعيمي نعمتي، لذّتي المبتغاه،
أنعمْ لنقبَلَك، بالحبّ والشوق، عربونَ النجاه.

٥

لا تَحرقني، بدنوّي منكَ، يا ناراً ونور،
لا مثلَ يوداس، بل مثلَ بطرس، كنْ لي يا غفور،
أنا لستُ أهلاً، بل أنا تائبٌ، بل أنا مأمور،

يا خبزَ السما، كنْ لي قوتاً، إلى دهر الدهور.

***

الإفخارستيّا في الأدب الرهباني

للأب مبارك تابت

١ . **الأقداس للقدّيسين لا للأثمة :** جاء في فصلِ "**أدب الأسرار المقدّسة**" (١ / ١١٩-٢٢٨)، من **كتاب الأدب الرهباني**، للأب مبارك تابت (ر.ل.م.)، تشدّده على مَن يتناول جسدَ الربِّ ودمَه من غير استحقاق، فقال ما يلي :

يا ويلَكَ إنْ حملتْكَ الجرأةُ على أن تمسَّ جسدَ الربِّ بيدَين مخضّبتَين بالإثم، فإنّ الربَّ يقول بلسان أشعيا النبيّ: "تطهَّروا يا حاملي آنية الربّ" (أش ٥٢ /١١). وأنتَ إذا قدّستَ، أو تناولتَ، فلا تحمل آنيةَ الربّ فقط، بل الربَّ نفسَه. فتطهّرْ أو يَصُبُّ الربُّ عليكَ من سخطِه ما لا تُطيق...

إنّ "الأقداس للقدِّيسين" لا للأثمة...

"لا تستطيعونَ أن تشربوا كأسَ الربِّ وكأسَ الشياطين، ولا أن تشتركوا في مائدة الربّ ومائدة الشياطين" (١ قور ١٠ /٢٠). فإذا أقدمتَ على هذا المنكَر، كنتَ كيهوذا الخادع، وشرًّا من اليهود الذين قتلوا المسيح، وأخبث من شياطين الجحيم؛ واستوجبتَ ذينك التوبيخ والقضاء اللّذَين أُوقعا بمن أتى إلى العرس في ثيابٍ لا تليق به. إذ يقول

لك الربُّ : "يا صاح! كيف دخلتَ إلى ههنا وليسَ عليكَ حلّة العرس؟ أَوثِقوا يدَيه ورجلَيه، واطرحوه في الظلمة البرّانيّة" (متى ٢٢ /١٢).

إنّ التناول على خلاف الاستحقاق دخولٌ في المؤامرة على يسوع مع الأبالس. فإنْ جَرُؤْتَ على هذه الشنيعة، كنتَ كرؤساء الكهنة وشيوخ الشعب الذين "تشاوروا أن يمسكوا يسوعَ بمكرٍ ويقتلوه" (متى ٢٦ /٤).

معاذَ اللهِ أنْ تفعلَ هذا وتزدري النعمة التي يشتهيها الملائكة، ولا تحصل لهم... فبأيٍّ طهارة ضمير ينبغي لك أن تدنو من هذه المائدة التي يشتهيها الملائكة على ما لهم من سموٍّ الطهارة والسعادة التي لا تدركها العقول!

لا تقدِّسْ مرّةً، أو تتناول الطعامَ الملائكي، إلاّ وأنتَ متأهِّبٌ لذلك، بالندامة على خطاياك، وتنقية ضميرك من وصمة الإثم حتّى العرَضي، وإثارة عواطف الحبّ والشكر للربّ إلهك في قلبك الذي تجعله هيكلاً له، لائقاً بجلاله الرهيب، وبالصلاة، والتماسِ النّعمة قبل القدّاس والتناول، وبعدهما.

ولا تأذنْ لنفسك أن تعدل عن هذا التأهّب، ولا مرّة.

ولا تقبل لها في عدولها عنه عذراً".

٢ . لا شيء أقوى على فتْح أبواب السماء من ذبيحة القدّاس.

كتب الأب مبارك تابت، في عطاءات الإفخارستيّا ما يلي :

أنتَ تقدِّسُ كلَّ يوم، أو تتناولُ كلَّ يوم، فإنْ كنتَ لا تشعرُ باللّذة السماويّة التي تخلب اللّبَّ وتسحر القلب، فما ذلك إلاّ لنقصِ إيمانك، أو تبدّد روحك، أو قلّة مبالاتك بتطهير ضميرك. فابدرْ إلى هذه الموانع وأزلْها، تجد من السعادة ما لم يكن يخطر لك في بال.

قدِّسْ باحترامٍ وإيمانٍ وعبادة، كمن يقرّب إلى اللهِ الآب ذبيحة ابنه الحبيب.

واسمعِ القدّاسَ كذلك، كما لو كنتَ شاهداً ذبيحةَ الصليب.

واعلمْ أنّكَ، إذ تقدِّس، أو تتناول جسد الربّ، فكلّ ما تسأل اللهَ باسم يسوع المسيح في ذلك الحين، تأخذه.

فاسألِ الله ما شئتَ من نعمةٍ لنفسك، أو لغيرك. فإنّ أذنيه منصتتان إلى صوت تضرّعك. ولسانه يكرّر على مسمعيك هذا التحريض: "أطلب تجد. إقرع يُفتح لك"؛ لأنّه لا شيء أقوى على فتْح أبواب السماء من ذبيحة القدّاس...

فلا يثقل عليك أن تقدّس باحترامٍ وانتباهٍ وتقوى وعبادةٍ ولفظٍ كاملٍ وصريح،

ولا أن تسمع في اليوم أكثر من قدّاس، إذا استطعتَ،

ولا أن تملَّ مناجاةَ يسوع في سرّ القربان الأقدس،

ولا تستضيع الزمان الذي تنفقه في تأمّلِ ما قاساه من آلام الموت من أجلك، وما بذله من دمه الثمين ليفتديك،

ولا تقصّر في التماس نعمةٍ لكَ، وللكنيسة المقدّسة، وللرهبانيّة العزيزة، وسائر الناس، ولا سيّما مَن يعنيك أمرُهم...

١٤

القراءة البيبليّة والحياة الرهبانيّة

تقوم القراءة البيبليّة، أي "القراءة الإلهيّة" Lectio divina على قراءة الكتب المقدّسة ودرسها وتفاسيرها والتأمّل فيها، كما تقوم أيضاً على الأبحاث اللاّهوتيّة، ومعرفة تاريخ الله مع البشر

منذ أن ولج الراهبُ بابَ الدير، وأبدى رغبته في اعتناق الحياة الرهبانيّة، ليقدِّس ذاتَه في تكرّسه التامّ للمسيح، يجد نفسه داخلاً في حياةٍ مغمورةٍ بكلمة الله، وكتابات الآباء، وتعاليم الكنيسة، وتوجيهات الأحبار، والكتب اللاّهوتيّة والروحيّة..

لقد أصبح الكتابُ المقدّس، منذ اللّحظة الأولى، صديقَ الراهب الأوّل والأساسيّ : يقرأه. يسمعه. يتأمّل فيه. يدرسه. يرتّله. يعيش أحداثه. يضع تعاليمَه نبراساً لحياته، وكلامَه مصباحاً مضيئًا لمسيرته.

فبمقدار ما يحيا الراهب في الله، ويتّحد به، بمقدار ذلك يغوص في كلامه. هذه الثقافة الكتابيّة هي الطريق القويم إلى معرفة الله، ومحبّته، وقداسة الذات. وذلك بدءًا بتطهير العقل من شوارده، وانتهاءً بتنقية الضمير من شوائبه.

فبواسطة الثقافة الكتابيّة، يكتشف الرّاهب أنَّ حياتَه أصبحتْ،

هي، كلمةَ اللَّه؛ أي هي الإنجيل المعاش. ولا ريب في ذلك، لأنَّ المسيحيّ الذي يعيش "كلمَةَ الله المكتوبة"، يتّحد بـ "كلمة الله المتجسّد"، أي المسيح. وبالتالي، يُصبح الراهبُ من طبيعة الله، متّحداً به اتّحاداً جوهريًّا.

البيبليا هي سجلّ أعمال اللهِ في التاريخ. وهي مقدَّسة، لا لأنّها تحوي كلامَ الله كالقرآن، كما يقول المسلمون؛ بل لأنّها تتكلَّم على الله، وتسجِّل مسيرتَه مع شعبه. وعندما تصبح "كلمةً واحدة، حيّة، متجسِّدة في ابنه الوحيد يسوع المسيح"، تُصبح عندئذٍ مقدَّسةً وموحاة معاً. ويُصبح على الراهب الاتّحاد بهذه "الكلمة المتجسّد".

من هنا، يتحتّم على كلّ راهب، لكي يكون راهباً حقيقيّاً، أن يتّحد بالله بواسطة "كلمته" يسوع المسيح، الذي هو الكلمة الحقّ. وقد يتخلّى، بعدئذٍ عن كلِّ ما سواه. أي، عندما يُصبح متَّحِداً بـ "الكلمة المتجسّد" يبتدئ بمسيرته الحقيقيّة نحو الآب.

فالتعامل مع كلمة الله، إذاً، هو بداية الطريق. لهذا وضع الآباء الرهبان "القراءة الإلهيّة" في أسس الحياة الرهبانيّة. وحسناً ما تقوم به رهبانيّات اليوم في فرض القراءة اليوميّة للكتاب المقدّس، وتفاسيره، وكتابات آباء الكنيسة، ثمّ دفْع أبنائها للتخصّص بشتّى أنواع العلوم اللاّهوتيّة.

***

إنّ كلمة الله، في حقيقتها، كلمة **فاعلة**، **حيّة**، تشبه رسولاً لا يعود إلاّ بعد القيام برسالته. إنّها تجسيد سابق ليسوع المسيح "كلمة الله". جاء في أشعيا: "فكذلك تكونُ كلمتِي التي تخرجُ من فمِي: لا تَرجِعُ إليَّ فارغةً؛ بل تُتِمُّ ما شئتُ وتنجَحُ في ما أرسَلْتُها له" (أش ٥٥ / ١١).

كلمة الربّ **عنيفة**، **قديرة**، تهجم على العقل كالمقاتل، وعلى القلب كالسيف. وتملأ الأرض موتاً إذا ما لم يُعمل بها. تقول الحكمة : " وبينما كان صمتٌ هادئٌ يُخَيِّمُ على كلِّ شيء... هَجَمَت كلمتُكَ القديرةُ من السماء... كالمُحارب العنيف... كانت تحملُ قضاءَك المحتوم كسيفٍ مُرهَف. فوقَفَتْ وملأتْ كلَّ مكانٍ موتاً. وكان رأسُها في السماء وقدماها على الأرض " (حك ١٨ /١٤-١٦).

وكذلك أيضاً جاءَ في سفر المزامير : إنّ اللهَ يُرسل كلمتَه فتظهر بمظهر **رسولٍ سريعٍ** منه إلى الأرض. قال : " يُرسلُ إلى الأرض كلمَتَه فيُسرعُ قولُه في عَدْوِهِ " (مز ١٤٧ / ١٥). وهي تشفي من كلّ مرض، وتنقذ من الموت: " أرسَلَ كلمتَه فَشَفاهم، وَمِنَ الهوَّةِ أنقذَ حياتَهم " (مز ١٠٧ /٢٠).

واللهُ يجعل في قلوب البشر **عطشاً وجوعاً** إلى كلمته أشدّ من العطش إلى الماء والجوع إلى الخبز. وإذا ما لم يسمع الناسُ كلمةَ الله فإنّه سوف يصمت، وسوف لن يبعث أنبياء يتكلّمون باسمه. قال عاموس : " ها إنّها ستأتي أيّامٌ، يقول السيّد الرب : أُرسِلُ فيها الجوعَ

على الأرض، لا الجوعَ إلى الخبز، ولا العطشَ إلى الماء، بل إلى استماعِ كلمةِ الربِّ، فيَمضونَ مترَنِّحين من بحرٍ إلى بحر، ومن الشمالِ إلى المَشرق، ويَطوفونَ في طلَبِ كلمةِ الربِّ فلا يجدونها " (عا ٨ / ١١-١٢).

***

هذه كانت مقدِّمات لكلمة الله الحقيقيّة، الذي هو يسوع المسيح، ابن الله المتجسّد. هكذا كتب يوحنّا في بداية إنجيله : "في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت واللهَ، وكانت الكلمةُ اللَّهَ. في البدء كانتِ الكلمةُ هذه واللَّهَ. كلُّ شيء بها صار، وبغيرها ما صارَ أيُّ شيء. حياةً كانَ ما بها قد صار" (يو ١ /١-٤).

هذه الكلمة، كما يقول شرّاح إوَنْجليون: "هي اسم يسوع المسيح، تعبير عن دوره التاريخي الخلاصي الفريد (يو ١ / ١٨)، واسم مألوف في الجماعة المسيحيّة الأولى، ولا سيّما اليوحنّويّة منها[56]، حيث لا تعني "الكلمة" بشارة يسوع، أو التبشير به، بل تعنيه هو نفسه.

"وقد أعدّ الوحي القديم لهذه التسمية بما يقوله عن كلمة الله وحكمته الأزليّة، وصلتهما الوثيقة بالله، ودورهما الفريد في خلق الكون، ورسالتهما إلى البشر[57]. ولكنّ الإنجيلي يوحنّا قد أدرك سرَّ

---

56 رَ : ايو ١ /١؛ رؤ ١٩ /١٣؛ لو ١ / ٢؛ رسل ٦ / ٢-٤.
57 رَ : مثل ٨ / ٢٢-٣٦؛ حك ٧ /٢٢-٣٠؛ سي٢٤ /٣-٣٢؛ أش ٥٥ / ١٠-١١.

شخصانيّة الكلمة على ضوء سرّ التجسّد الإلهيّ، ووحي يسوع المسيح"[58].

لقد "كانت الخطيئة الكبرى، في العهد القديم، رفض الإنسان معرفة كلمة الله[59]؛ أمّا في العهد الجديد فهي رفض الإنسان معرفة يسوع المسيح والإيمان به. وفي معرفة يسوع الحياة الأبديّة.

قال يوحنّا : " في العالَم كانتِ الكلمة، والعالم بها صار، والعالم ما عرفها. أتت الكلمةُ خاصَّتها، وخواصُّها ما قبِلُوها. أمّا كلُّ الذينَ قَبِلوا فَآتَتْهُم سلطاناً يصيرونَ به أولادَ الله، أَوْلَتْهُ المؤمنينَ باسمِها. هيَ التي ما وَلَدها دمٌ، ولا مشيئةُ لحم، ولا مشيئةُ رجل، بل اللهُ وَلَد. والكلمةُ لحماً صارتْ. وبيننا سَكنتْ. ورأينا مجدَها. مجدَ ابنٍ أحد، آتٍ من الآب، ملآنَ نعمةً وحقًّا " (يو ١ / ١٠-١٤؛ رَ: ١٧ / ٣).

أوّلاً - سحر الكلمة

للكلمة في هذا الشرق سحرها. والدليل على ذلك ممّا يلي:

١ . إنّ أهمّيّة "الكلمة اللّغوية" لا تقلّ أهمّية عن "الكلمة الموحاة"، بدليلِ أنّ الشيءَ الذي تَعنيه يُصبحُ، بمجرّد لفظِه، حاضراً، ذا تأثير فعّال. فإذا لفظنا، مثلاً، كلمة "الله"، يُصبحُ الله حاضراً... لهذا، كان من عادة الشرقيّين استتباع كلمة "الله" بألفاظ التقديس والتعظيم.

58 حاشية إونجليون على ١ /١.

59 رَ : با ٣ /١٠-١٤ و٢٣ و٣١؛ مثل ١ / ٢؛ ٤ / ١؛ ٩ / ١٠؛ ٣٠ / ٣؛ سي ٦ / ٢٧؛ ١٨ /٢٨.

وكذلك أيضاً، مَن ذا الذي يتجرّأ على أن يلفظ كلمة"شيطان"، ولا يستتبعها بألفاظ الطعن واللّعن والشتم والرّجم؟! هذا يعني أنّ الكلمةَ لا تدلُّ على الشيء فحسب، بل هي الشيء نفسه. لهذا كان للكلمة قدسيّةٌ وفاعليّة. حتّى إنّ بعضَ الذين يملكون قدرةَ السحرِ والتأثير على الآخرين لا يصنعون أكثر من أن يجعلوهم يرون الكلماتِ أشياء.

٢ . على قدسيّة الكلمة دليلٌ يأتينا من أولئكَ الذين يؤمنون بالتنزيل الحرفي. هؤلاء نجدهم في كلّ دين. وهم اليهود، والمسلمون، وبعض النّصارى. عند هؤلاء جميعهم، الكلمةُ هي الله : المسيح، عند المسيحيّين، هو "كلمة الله"، والقرآن، عند المسلمين، هو "كلام الله" المنزل، وهو معجزة في لغته، وتعبيره، ولفظه، وأسلوبه، وحروفه، وصُوَره... وتوراة موسى، عند اليهود، هي أيضاً، موحاة، بحرفيّتها. والعهد الجديد، أيضاً، عند النصارى وبعض المسيحيّين، موحىً به حرفاً حرفاً.

٣ . والدليل الثالث نأخذه من قدسيّة لغات الوحي والطقوس : العبرانيّة، والآراميّة، واليونانيّة القديمة، واللاّتينيّة، والعربيّة بالنسبة إلى المسلمين... هذه اللّغات مقدّسة، لانّها تحملُ، في كلماتها، حضوراً مقدَّساً، ورموزاً سرّيّة فاعلة... هذه القدسيّة كانت السببَ الرئيسي، قديماً وحديثاً، لانقسام الكنيسة، وتعدّد الشيع في المسيحيّة، وفي الإسلام أكثر... وهذا دليل على أنّ الإنسان يتعامل مع الكلمات وكأنّها مقدّسات ساحرة..

٤ . والدليل الرّابع على قدسيّة الكلمة نستلهمه ممّا يُسمّى، في اللّغات الساميّة، بـ "حساب الجمّل"، حيث لمجموع حروف الكلمة مدلول سحري : فالمسلمون، يستدلّون، مَثلاً، على أنّ محمّداً هو نفسُه إيلياء العهد القديم الذي جاء خاتماً لجميع الأنبياء، لأنّ محمداً (أي أحمد) يساوي مجموع حروفه ما يساويه مجموع حروف إيلياء : **أحمد** : أ=١، ح=٨، م=٤٠، د=٤؛ مجموعه:٥٣؛ و **إيلياء** : إ=١، ي=١٠، ل=٣٠، ي=١٠، ا=١، ء=١؛ مجموعه أيضاً : ٥٣... ومثل هذا الحساب كثير، ويُعتمَدُ عليه في الأديان السرّيّة وغير السرّيّة أيضاً.

٥ . فبسبب ما للكلمة، إذاً، من قدسيّة، كان على مؤلّفي الصلوات اللّيتورجيّة أن ينتقوا كلماتِهم، وتعابيرَهم، وأسلوبَهم : فالكلمة، في الاحتفالات الليتورجيّة، أداة تعبير، تماماً كالحركةِ، مثل الانحناءِ، والسجودِ، والركوعِ، وبسطِ اليدَين، ورفعِهما، وطأطأةِ الرأس، وتعفيرِ الجبين، وتقبيلِ الأرض، وتلمّسِ البركة بالماء، أو الزيت، أو أيِّ شيء آخر... وتماماً كالزَّيّ والألحان وحتّى الطّعام الذي اعتادَ الناسُ اختيارَه في مناسبات الأعياد.

٦ . هذا، علماً بأنْ ليس كلُّ كلمةٍ، ولو كان مدلولُها صحيحاً، تستحقّ أن تكون كلمةً ليتورجيّة. فلا نقول عن المسيح، مثلاً، بأنّه "خروف الله"، بدل "حَمَل الله"؛ مع أنّ الكلمتَين سواء. ولا نقول عن القدّاس، الذي هو "ذبيحة"، بأنّه "مدبحة"، أو "ملحمة"، أو "مجزرة". ولا نقول لمقدّم الذبيحة، أو للكاهن "لحّاماً"، أو "جزّاراً"... فقدسيّة الكلمة تأبى تغييرها واستبدالها بكلمات أخرى، ولو كانت بمعناها !..

هذه الخواطر نبديها هنا لنقول بأنّ الكلمة تَبقى في مقدّمة المقدَّسات. بل هي أفضل ما تعبّر عن العقيدة الصحيحة والإيمان المستقيم. وما اختلاف المذاهب والشيع في الأديان والأوطان إلاّ دليل واضح على أهمّيّة الكلمة، وضرورة ضبطها، وتحديدها، والتعريف بها تعريفاً دقيقاً.

هذا، وكم من كلماتٍ ليتورجيّة مألوفة، باتتْ لا تعني لنا اليومَ شيئاً.

ثانياً - رسالة الكتاب

كلمةُ الله، في مختلف معانيها، دُوِّنتْ في كتاب؛ لأنَّ الإنسانَ ينسى. لهذا يتحتّم عليه أن يدوِّن أعمالَه وأقوالَه في كتاب. أمّا اللَّهُ فلا ينسى، وبالتالي، فلا يحتاج إلى كتاب. ومع هذا، فهو أوَّل مَن سجّل مسيرته مع البشر في كتاب؛ وكان أوّل مَن كان له كتاب؛ وأوّل مَن قدَّس الكتاب؛ وأوّل مَن بلّغنا مشيئته في كتاب؛ وطلب منّا أن نتعرّف عليه من خلال الكتاب؛ وعلَّمنا كيف السبيل إليه في كتاب...

ومع هذا، فنحن لا نجيد قراءةَ كتابِ الله هذا من دون استلهام روح الله الذي هو الشارح الحقيقي له. وإذا ما شئنا أن نستفيد حقًّا من كتاب الله، أو من أيِّ كتاب آخر، علينا أن ننسحب من صخب المجتمع، ونغيب عمّا هو حاضر أمام حسِّنا، لنستطيع أن نجمعَ عقلَنا وانتباهَنا لما يقول الروح لنا.

ثمّ إنَّنا، عندما لا نَعي أنَّنا نقرأ، نقرأ أحسن. وعندما نقرأ أحسن

ننسى، لا ما يحيط بنا فحسب؛ بل ننسى أنفسَنا أيضاً. وهذه ذروة ما نبغي الوصول إليه.

ثمّ إنَّنا لا نكون أغنياء إلاّ عندما نكون مع آخرين؛ لأنّ الإنسان كائنٌ إجتماعيّ. أمّا عندما نكتفي بأنفسنا وبما عندنا فنحن فقراء. لهذا، علينا أن ننفتح على سوانا، نحاورَهم، نحبّهم، نقرأ في ما كتبوه لنا من مآثر وتعاليم في كتاب.

في هدأة اللّيل وسكون كلّ حركة يُصبح القارئُ والكتابُ كلاهما في انسجام تامٍّ؛ بل يصبح القارئُ والكتابُ متّحدَين متفاعلَين متناغمَين. بهذا تنتقل الحروفُ الجامدة من على صفحاتِ كتابٍ جامد إلى روحِ القارئ حيث تصبح حركةً وحياة. وبهذا أيضاً يصبح الكتابُ والقارئ رسولَين متكاملَين.

الكتاب الذي نقتنيه في مكتبتنا الخاصّة هو صديقنا الوفيّ. نتعامل معه بمحبّة وإجلال. نجد في صفحاته عبقريّةَ مؤلِّفه. نستحضره. نحترمه. نقدِّسه. نسأله. نستلهمه. إنَّه لا يزعجنا كسائر الأصدقاء. إذ هو لا يريد منّا سوى انتباهنا. وحبُّنا له إنّما يكون في وعينا لحضورِه معنا.

صحيح أنَّ ما في الكتابِ كلامٌ بارد، ساكن، ميت في ورقٍ أصفر مهترئ. ولكن في وسْع الكتاب استنهاض همّتنا وحثّ انتباهنا بما نوليه من حضورٍ واهتمام. وفي وسعه أيضاً أن يُصبح فاعِلاً بما نعطيه من نور أعيننا. وبمقدار ما تهدأ أجسادنا، ونحن نقلِّب صفحاته بأيدينا، بمقدار ذلك يتّقد ذهننا، ويفور دمنا، وتُستنفر قوانا كلّها، لنكون كلُّنا معه.

مع الكتاب، نستطيع إحياء الموتى. نستحضرهم. نكلّمهم. نحاورهم. نضع حياتَنا بين أيديهم. مع الكتاب، يحضر غائبون، ويغيب حاضرون. معه، يغيب عنَّا كلُّ مَا هو حولنا. حتَّى ذاتنا تغيب عنّا، ولن تعود ملكَنا؛ وحتّى هويّتنا تُصبح ملك آخرين. مع الكتاب يُصبح الغائبُ أكثرَ حضوراً من الحاضرِ نفسه.

مع الكتاب، نحن نختار مَن نريد. ولا يستطيع أحدٌ أن يَفرض علينا ما يُريد. نحن نحاور مَن نريد إنطلاقاً ممّا نريد. فلكأنَّ الكتاب مرآة تعكس لنا حقيقة كلِّ شيء من دون غشٍّ أو رياء. لهذا، فالكتاب مشروع حوارٍ مع التاريخ، مع البشر في جميع مستوياتهم. إنّه حديثنا مع مَن نختار مِن بين ألوف.

في الكتاب الذي نختار، نقرأُ ما نتمنَّى أن نكون عليه؛ ولا نعود نقرأ ما نحن عليه. لقد أصبح الكتاب ذاتَنا الأخرى. السَفَر عبر الكتاب الذي نقرأ، هو الطريق الأصوب والأدقّ للعودة إلى الذات؛ بل هو معرفة أنفسنا واكتشافها، إذ كانت لا تزال مستورة ومغمورة فينا بألف ألف ستار وحجاب.

يكشف الكتابُ شخصيَّتَنا أحسن ممّا نكتشفها نحن بذاتنا. أو هو يسمح لنا باكتشاف أسرارٍ لم نكن نعرفها فينا بقدراتنا الخاصّة. لهذا، حتّى نعرف ذاتَنا نحتاجُ حتماً إلى آخرين. إنَّ الاكتفاء بما عندنا، والاستغناء عن الآخرين، هما، في الحقيقة، إفقار للذات. لهذا، مع الكتاب، تتسع آفاقُنا من دون قياس.

ثالثاً - المسيح هو الكلمة والكتاب

لقد تطوّر تعاملُ اللهِ معنا جدًّا، فأصبح، "في ملء الأزمنة"، لا يكلّمنا بكلامٍ في كتاب، بل كلّمنا بابنه يسوع المسيح، الذي أصبح هو كتابنا. وكلّ ما لدينا من كتب دليل عليه، أو يجب أن تكون دليلاً عليه. ولا تجوز العودةُ إلى الله بعد يسوع المسيح إلاّ بيسوع المسيح نفسه. فالكتاب أمسى حرفاً يَقتل. ومع هذا، فلا بدّ منه في بداية الطريق لتدريبنا وتعليمنا.

كلّ يوم نسمع، بل علينا أن نسمع، صوتَ الذي قال : "أنا الطريقُ، والحقُّ، والحياة" (يو ١٤ / ٦). هذا هو كتابُنا الذي فيه نقرأ من الآن فصاعداً. يسوع المسيح هو "كلمة الله". هو الإنجيل. هو الكتاب المقدّس. هو الحاضر بيننا. الحالّ فينا. المتّحد بنا. المشارك لنا في طبيعتنا. والذي جعلنا نشاركه في طبيعته.

يسوع المسيح هو الكتاب الذي فيه نجد ذواتنا، تماماً كما كان يقول لإسرائيل: "إسمعْ يا إسرائيل" (تث ٦ / ٤-٩). وعندما دعا الربُّ صموئيل أصغى صموئيل وقال: "تكلَّمْ يا ربْ، فإنَّ عبدكَ يسمع" (١ صم ٣ /١٠). وإرميا يعترف للربّ: "حينَ كانتْ كلماتُك تبلُغُ إليَّ كُنتُ ألتهِمُها فكانت لي كلمتُكَ سروراً وفَرحاً في قلبي، لأنّي باسمِكَ دُعيتُ أيُّها الربّ" (إر ١٥ / ١٦).

ولكن، بعد أن "كلّمَ اللهُ الآباءَ في الأنبياء، وفي آخِر هذه الأيَّامِ، كلَّمَنا في ابنٍ جعلَه وارِثاً لكلِّ شيء، وبه أنشأ الدهور" (عبر ١ /١-٢).

بعد صعود يسوع المسيح، فإنّ قصّته لم تكتمل. كان لديه أمور كثيرة يقولها لنا (رَ: يو ١٦ / ١٢). قصّته يفهمها مَن يرغب تتابعها وتكملتها (رَ: ٢ قور ٣ / ١٦)؛ يدرك المسيحَ حقّاً مَن يُدرك ما صنعه فيه. يرى نورَه مَن يريدونه حقًّا. لم يعد مفيداً البقاء في أجواء الكتاب، إذ إنّ " الحرف يقتل"، بل أصبح المسيح "كلمة الله" وحدَه ينفع ويفيد.

رابعاً - القراءة البيبليّة قراءة الراهب

يعرف الراهب أنّ الإنسان لا يحيا بالخبز وحده؛ بل من كلّ كلمة تخرج من فم الله (تث ٦ / ٣ ومتى ٤ /٤). لهذا، فإنّ كلمة الله لا تقدِّس فحسب، بل تؤلِّه.

لقد غابت القراءة في الكتب المقدّسة بسبب المماحكات والمناقشات والمجادلات اللاّهوتيّة والعواطف التقويّة والتأمّلات الروحيّة والتفاسير العلميّة... إلى أن عادت مع دعوة المجمع الفاتيكاني الثاني، في قوله :" إنّه لمن الضرورة بمكان المحافظة على الصلة الشخصيّة مع الكتاب المقدّس بواسطة القراءة الإلهيّة، والتأمّل الواعي لها. وعلى الرعاة أن يتذكّروا أنّ القراءة يجب أن تصحبها صلاة. فهو الروح القدس الذي يشاء، حقًّا، بأنّ الإصغاء إلى البيبليا والصلاة، أن لا يضيعا عبر العصور"[60].

يجب البحث عن مكانٍ للخلوة والصمت حيث تستطيع أن تصلّي إلى الله في الخفية. الغرفة (متى ٦ / ٥-٦) هي المكان المناسب لتذوّق

60 دستور الوحي الإلهي، عدد ٢٥.

حضور الله. لا تنسَ ذلك. البريّة، حيث صلّى يسوع وجُرِّب (مر ١ / ٢١ / /) هي المكان الذي يجذبك الله إليه ليتكلّم إلى قلبك، ويُفعمه نعماً، بتحويله الهوّات والوديان إلى أبواب رجاء (رَ: هو ٢ /١٦-١٧). في مكانٍ خالٍ، يتجدّد شبابُك الروحيّ، تستطيع أن ترنّم للرب، وتشعر بأنّك له وحده، وأنّك في سلام معه ومع جميع البشر، وجميع الخلائق، الحيّة وغير الحيّة (رَ: هو ٢ / ١٨-٢٥).

فلتكن غرفتك معبداً لك حيث يُمتحنك الله بواسطة كلمته، وبذلك يربّيك، ويغذّيك. سوف تشعر حتماً بعدوٍّ يدعوك إلى الهرب، ويُظهر لك الخلوةَ ثقيلةً، ويُلهيك بهموم الحياة، ويغريك بأفكارٍ عالميّة. لا تيأس. قاوم في هذه المعركة، لأنّ الربّ ليس ببعيدٍ عنك. فالرب لا ينظر إليك تحارب فحسب، بل هو يحارب معك. تسلّح، إنْ شئت، بأيقونة، بسراجٍ مضاء، بصليب، بحصيرٍ صغير حيث تركع للصلاة. لا تخشَ من استعمال هذه الوسائل. فهي تساعدك لتتذكّر بأنّك أنت هنا، لا لدرس الكتب المقدّسة ومطالعتها، فحسب؛ بل إنّك أمام الله، تصغي إليه.

خامساً - وقت الصمت، الله يتكلّم

"المعلّم هناك وهو يدعوك" (يو ١١ /٣٨)، ولكي تسمع صوته عليك أن تُسكت الأصوات الأخرى. ولكي تسمع كلامه عليك خفْض صوتك. وثمّة أوقات مناسبة للسماع : في قلب الليل، في الصباح الباكر، في أواخر المساء... ليس حسناً أن تذهب إلى الصلاة، عندما تجد وقتاً لذلك. ولا تقل أبداً: "لا وقت عندي"؛ فأنتَ تعلن عن نفسك

بأنّك عابد صنم: إنّ الوقت في خدمتك، وليس أنت عبداً للوقت.

أنت تعرف أنّه يجب أن تصلّي من دون ملل[61]، وتعرف أيضاً أنّه يلزم أن يكون وقت محدّد للصلاة. كن "عاشقاً" للرب، أو حاول أن تكون كذلك، عندئذ لا تخشَ من أن تكرّس له وقتاً أنت تكرّسه عادةً لأصدقائك، لأعمالك الخاصّة...

تعرف أنّ قلب الإنسان يمكن أن يكون غير مختون (رو ٢ / ٢٩)؛ وأن يكون من حجر (حز ١١ / ١٩)، منقسماً (مز ١١٨ / ١١٣)، أعمى (مر ٣ / ٦٥). ويمكن أيضاً أن يكون شارداً، سكران، مهتمًّا بشؤون الحياة (لو ٢١ /٣٤)، وأن يكون قاسياً، مغلقاً، لا يعي كلام الرب (مر ٦ / ٥٢؛ ٨ / ١٧)؛ وأن يكون غير مستقرّ، مضطرباً، ينسى، يحرّف معنى الكلام (رَ : ٢ بط ٣ / ١٦). وحده قلب الطفل يمكنه أن يتقبّل عطايا الله (مر ١٠ / ١٥).

سادساً - قراءة بالروح القدس

الروح القدس هو الذي يلهم الكلامَ. وهوالذي يجعله مفهوماً[62]. الروح هو الذي يحيي فيما الحرف يقتل. هذا الروح الذي حلّ في مريم لتلد الكلمة المتجسّد (لو ١ / ٣٤). الروح هو الذي نزل على الرسل ليُفهمهم الحقيقة كاملة (يو ١٦ / ١٣)، هو يصنع فيك ما يشاء. القراءة الروحيّة تعنى "قراءة في الروح القدس ومع الروح القدس" لأشياء أوحاها الروح القدس.

61 رَ : لو ١٨ / ١-٨؛ ١ تس ٥ / ١٧.

62 رَ: دستور الوحي الإلهي، عدد ١٢.

انتظره، حتّى ولو تأخّر سوف يأتي (حبقوق ٢ /٣). كن متأكِّداً من كلام يسوع: "إن كنتم أنتم الأشرار تعطون بنيكم الأشياء الصالحة، فكم بالحري أبوكم السماوي يعطي روحه القدوس لمن يطلبه" (لو ١١ /١٣).

سوف تسمع كلامه: "إفَّتَحْ" (مر ٧ /٣٤). وأنت كالحبشي الذي يقرأ ولا يفهم إلاّ عندما جاءه فيلبّوس وفتح له الكتاب وغيّر له قلبه (رسل ٨ /٢٦-٣٨)، وكتلميذَي عمّاوس عندما فتح الرب أذهانهما ليفهما الكتب (لو ٢٤ / ٤٥).

سابعاً - تعلّم كيف تقرأ

إفتح البيبليا واقرأ النصّ. ليس أي نصٍّ كان تختاره صدفة. بل النصّ الذي اختارته لك الكنيسة بحسب دورتها الطقسيّة. أو إقرأ سفراً من أوّله إلى آخره. إقرأ بحسب ما يُعطى لك، لا بحسب مزاجك، أو حاجتك.. لا تُكثر النصوص. مقطعاً، قصّة، بعض الآيات قد تكون أكثر من كافية.

إقرأ النصَّ أكثر من مرّة، وبصوتٍ عالٍ. وإنْ كنتَ تعرف النص غيباً، وتُجرِّب بقراءته سريعاً، لا تخف من كتابته لئلاّ تُسرع بقرائته، أو تقرأه سطحيًّا وبخفّة. لا تقرأ بعينيك فقط بل بقلبك. إطبعه في قلبك. إقرأ النصوص المقابلة، إقرأ الحواشي، وبخاصّة حواشي إوَنْجليون الغنيّة الشاملة الرائعة. توسّع في المقطع. إقرأ غيره له به علاقة. هكذا فإنّ الكتاب يفسّر نفسه.

لتكن قراءتك سماعاً (audire) وسماعك انصياعاً (oboedire). لا تعجل. يجب أن تكون القراءة "برخاء"، لأنّ القراءة إنّما تكون بالسماع. الكلمة تُسمَع أكثر ممّا تُقرأ. في البدء كان الكلمة، لا الكتاب كما هو الحال في الإسلام. الله هو الذي يتكلّم والقراءة وسيلة للسماع. "إسمع يا إسرائيل"، هي دائماً دعوة الله لنا جميعاً.

لا تظنّ بأنّك، عندما تقرأ، ستجد ما تعرف؛ فهذا عجب واعتداد، أو ستجد ما أنت بحاجة إليه؛ فهذا استهلاك واستنفاد، أو ستجد ما يرضيك ويسرّك؛ فهذا استغراق في الذاتيّة والأنانيّة. فالنصّ ليس دائماً مفهوماً بكامله، ولتوّه. كن متواضعاً في إقرارك بأنّك لم تفهم شيئاً، أو فهمتَ قليلاً من كثير. قد تفهمه بعد حين. فهذا أيضاً طاعة لمشيئة الرب. وإن كنت تحتاج إلى اللّبن أيضاً، فإنّك لا تستطيع قبول الغذاء الدسم[63].

عندما تقرأ تكلّم مع الله. جاوبْه. ردَّ على دعواته، ونداءاته، وإلهاماته، وعطاياه، ورسائله التي يوجّهها إليك من خلال كلامه المفهوم في الروح القدس..

غاية التأمّل الصلاة. ووقت الصلاة توقّف عن الفهم. لا تثرثر. تكلّم بثقة وأمانة، ومن دون خوف، بعيداً عن النظر إلى ذاتك. استسلم لشعورك، وعاطفتك، وابتهالك. إنّنا لا نستطيع أن نصف حالات الإنسان المصلّي، المنسحق أمام ربِّه. لا نستطيع أن نقول كلمة عن

63 رَ: ١ قور ٣ /٢؛ عب ٥ / ١٢.

النّار عندما نكون في قلبها؟ عند الصلاة نكون كتلك العلّيقة المشتعلة حيث النار ملتهبة.

لا تظنّن أنّ هذه الطريق سهلة، ونستطيع الذهاب بها حتّى النهاية! وحده الذي يلازم قراءة كلمة الله يعرف أنّ الله أمين صادق يتكلّم إلى القلب ويُظهر لنا ذاتَه. يعرف أنّ وقتاً ما سنسمع كلمة الله (رَ: ١ صم ٣ /١)، وتتجلّى أمام أعيننا. وما هذه الصعوبات، والملل، والفتور الروحي إلاّ نعمة تذكّرنا كم هي بعيدة أيضاً معرفتنا التامّة لله.

ثامناً - الوحي عبر التاريخ

إنّ الوحي أُعطي لنا عبر التاريخ. فهو يحتوي رسالةً ناتجة عن أحداث سياسيّة، إقتصاديّة، شخصيّة، ولا يهمّه إعطاؤنا حقائق عقائديّة، بل الكشف عن عمل الله، الشهادة لعلاماته التي هي لخيرنا.

هذا الوحي هو قراءة حدث تاريخي (رَ : خر ١٤ / ٩؛ لو ٢٤ / ٢) . وهذا ما يفرّق الوحي المسيحي عن "التنزيل" الإسلاميّ. ذاك تاريخيّ، يستند إلى حضور الله في التاريخ وعمله فيه. وهذا أزليّ أبديّ جامد لا يتغيّر ولا يتفاعل مع الإنسان في أحداث التاريخ

كلمة الله فاعلة، قديرة، ليست ضد الفعل. بل هي تحتوي الفعل كعنصر من جوهرها. لهذا، فنحن لا نجد في البيبليا كلاماً عن الأشياء، عن الإنسان، وعن التاريخ، بل نجد كلاماً عن فعل الله في هذه الحقائق، وعن قدرة الله الفاعلة والساكنة في هذه الحقائق.

كلمة الله ليست كتاباً، أو مجموعة أسفار؛ بل هي "زرع" (متى ١٣ /١٩)، أي تحتوي الحياةَ في ذاتها (تث ٣٢ / ٤٧). إنّها تنمو في التاريخ كما في حياة كلّ إنسان. إنّها تكبر، وتملأ مَن يقبلها بحضورٍ جديد. إنّها تقدّس لأنّها تغذّي قابلَها. إنّها تنير (مز ١١٨ /١٠٥) لأنّها تكشف عن سرّ الأشياء، وتدفعها إلى كمالها[64].

بالكلمة خلقَ اللهُ كلَّ شيء. وكلمته كانت قبل الخلق بقربه؛ وفي الخلق كانت معه كمعلّم عامل (مثل ٨ / ٣٠)، تضع قوّتها في الكائنات المدعوّة إلى الوجود وتمهرها بخاتمها. إنّها آلة بين يدي الله: تركض، مسرعة، وتحوّل التاريخ البشري إلى تاريخ خلاص (رَ: أش ٩ /٧). لهذا فإنّ كلمة الله تملأ الكون.

لهذا، على الراهب أن يملأ بها قلبَه.

---

64 رَ : يو ١٧ / ١٧؛ رسل ١٩ / ٢٠؛ عب ١ / ١٢؛ ١ بط ١ /٢٣؛ لو ٨ /١١؛ مر ٤ /٣ و٢٦ و٣٠.

١٥
التربية في الحياة الرهبانيّة

تُعالجُ التربية الرهبانيّة في مستويات أربعة: **١.** إكتشاف الدعوات؛ **٢.** مكان التربية؛ **٣.** المربّين؛ **٤.** البرامج التربويّة.

إنّ استمرار الرّهبانيّة وازدهارَها منوطان بتربية نشئِها تربية صالحة وملائمة. لهذا يجب تفعيل إمكانيّاتها الإنسانيّة والروحيّة والماديّة في سبيل تحقيق مثل هذه التربيةٍ. ثمّ إنّ الحياة الرهبانيّة الناجحة لا تكون من دون تربية مناسبة، لهذا وضعنا موضوع التربية في صميم "مقوّمات الحياة الرهبانيّة". هذه الحياة لا يعتنقها إنسانٌ، ولا يمكنه أن يعيشَ متطلّباتها من دون إعدادٍ واختبارٍ متواصلَين. وربّما تستمرّ هذه التربية مدى العمر.

أوّلاً - إكتشاف الدعوات الرّهبانيّة

١ . إنّ التفتيش عن الدّعوات واجتذابها إلى الرّهبانيّة هما من واجبات كلِّ راهب. أمّا الاهتمام بتربية هذه الدعوات فمن واجبات مجمع الرئاسة العامّة ومَن يختاره لهذه المهمّة الخطيرة.

٢ . يعيّن مجمع الرئاسة العامّة راهباً في كلِّ منطقة من لبنان، وكلّ بلدٍ توجد فيه رسالة للرهبانيّة، مسؤولاً عن اكتشاف الدّعوات في المدارس والرعايا، وفي إقامة مخيّمات للشباب. وذلك بالتنسيق التامّ في ما بين المربِّين والمسؤولين عن مراحل التنشئة.

٣ . يتمّ قبول الطلبة بطرق علميّة للتعرّفِ إليهم من النواحي العائليّة والاجتماعيّة والنفسيّة والأخلاقيّة والعلميّة والصحّيّة. كما يراعَى في قَبولهم العمر والمستوى العلميّ.

ثانياً - مكان التربية

٤ . تكون التربية الرّهبانيّة صحيحة وسليمة إذا قامتِ الرّهبانيّة على جمْع ناشئتها في ديرٍ تربويٍّ واحِد، في مختلف مراحلها، ما عدا مرحلة الابتداء؛ وذلك في بناياتٍ متاخمة جغرافيّاً، ولكنّها منفصلة هندسيّاً.

٥ . والأسباب الموجبة لذلك :

أوّلاً - توحيد التوجيه، والتعليم الرّوحيّ والرّهبانيّ..

ثانياً - التكاملُ في هذا التوجيه في مختلف المراحل..

ثالثاً - الوحدة بين المسؤولين التربويّين..

رابعاً - تدريب الإخوة اللاّهوتيِّين على تحمّل المسؤوليّة في إلزامِ كلِّ واحدٍ منهم بساعتَين أسبوعيّاً، في التعليم أو الإدارة.

ثالثاً - المربّون

٦ . على مجمع الرئاسة العامّة أن ينتقي رهباناً كهنةً مميَّزِين بروحانيّتهم وثقافتهم، ويوكل إليهم مهامّ التنشئة الرّهبانيّة.

٧ . على الرهبانيّة أن تَشعر بأنّها مدينة لفئةِ المربّين فيها؛ فتعتني بهم؛ وتوفّر لهم الفرص لاكتساب كلِّ جديد في مجالات التربية؛ وتبذل من أجلهم كلَّ غالٍ ونفيس؛ وتحتضنهم.

٨ . يكون رئيسُ "الدّير التربويّ الواحد"، و "معلّمُ الابتداء" راهبَين مميّزَين، لهما حقوقٌ رهبانيّة واسعة، وترسم مهمّاتهما قوانينُ واضحة. ولهما الحقّ في حضور مجالس الرئاسة العامة المخصّصة لمعالجة أمور تربويّة رهبانيّة، التي يجب أن تكون مألوفة.

٩ . هؤلاء المربّون قد يتمتّعون ببعض الثبات والاستقرار في مهمتهم التربويّة هذه. فلا يَخضعون لتغيّرات السلطات، ولا لحدود المقاطعات، ولا لحاجات الرّهبانيّة الآنيّة.

١٠ . إجتماعات المربّين أسبوعيّة، واجبة قانوناً. يَدعو إليها رئيسُ "الدّير التربويّ الواحد"، وتدوَّن محاضرُه، وتُرفع إلى مجمع الرئاسة العامّة، ويَسهر على تنفيذها الرئيسُ العام نفسه،

١١ . على كلِّ مَن يتولّى شؤونَ التربية في الرّهبانيّة أن يتدرّب، قبل أيِّ مسؤوليّة، على يد راهبٍ خبيرٍ. ولا يجوز لمجمع الرئاسة العامّة أن يعيّن راهباً مسؤولاً دون تدريبٍ وخبرة.

١٢ . على المربّين أن يتعرّفوا جيّدًا على مربوبيهم، ويكتشفوا فيهم مميّزاتهم، ويوجّهوهم.

١٣ . يؤلّف المسؤولون عن التربيّة الرّهبانيّة، في مختلف مراحلها، لجنةً تربويّةً واحدة، تجتمع دوريًّا للتباحث في أفضل سبل التربية، وتدارس المشاكل الطارئة.

رابعاً - البرامج التربويّة

١٤. إنّ وَحدة التربية وتكاملها هما الأساس. لهذا يتحتّم على المسؤولين في الرّهبانيّة أن يكون مشروع التربية مشروعاً متواصلاً، مستمرًّا، ومتكاملاً لهذا يجب على المربّين أن يضعوا في اجتماعاتهم الإسبوعيّة القانونيّة، برامجَ لكلِّ مرحلةٍ، بل لكلِّ سنةٍ من سني مراحل التنشئة، برامج روحيّة ورهبانيّة محدَّدة. تتطوّر هذه البرامج وفق تطوّر العلوم التربويّة في العالم.

١٦ . يكون لكلّ طالبٍ ملفٌّ كامل يلاحقه في مختلف مراحل التنشئة. ثمّ يُحفظ في خزائن الرّهبانيّة حفظاً كاملاً. في هذا الملفّ تسجَّل شؤون الطالب كلّها : الصحّيّة والتربويّة والخلقية والعلميّة وما إلى ذلك.

١٧ . إنّ الاختصاص في الرّهبانيّة يقوم على تطوير مهاراتٍ عمليّة وعلميّة يتميّز بها بعض الرّهبان، لكي يوظّفوها في خدمة الرّهبانيّة بطريقة أفضل. إنّ الاختصاص يحدّد وجهةَ حياة الرّاهب وعملَه في الرّهبانيّة، بحيث يتكرّس لخدمتها ضمن اختصاصه.

وفي الختام، نأملُ أن تُحقّق الرّهبانيّة أمنياتنا هذه في معالجة موضوعٍ لا يتحمّل تسويفاً أو مماطلة. فهو موضوع الرّهبانيّة الأساس؛ وعلى صحّة التربية تقوم حياةٌ رهبانيّة صحيحة. وقد لا تكون نذورٌ صحيحة من دون الاستناد إلى تربية صحيحة.

١٦
القداسة والحياة الرهبانيّة

مقدّمة

١ . عندما يعتنق إنسانٌ الحياةَ المسيحيّة، يكون في خلفيّة اعتناقه هذا رغبةٌ في تقديس نفسه، ومنها، يسعى إلى تقديس العالم، ويعمل على ازدياد الخير فيه، ويوجّهه صوب خلاصه. من دون هذه الرغبة لا معنىً للحياة المسيحيّة. ولا أحد مجبور على التزام مسيرتِها الصعبة، ولا على الأخذ بمعتقداتها العصيّة على العقل. والقداسةُ، في كلِّ حالٍ، دعوة كلِّ مسيحيٍّ مؤمن ملتزم، ولو كان إنساناً عاديًّا.

٢ . هذه الدّعوة، بالرّغم من كونها عامّة، لا يبلغها إلاّ الذين وضعوا الله نصب أعينهم، وقصدوه كغاية قصوى لهم في حياتهم. فالله هو الهدف الوحيد، والمبتغَى الأخير، والقمّة التي يسعى إليها كلّ إنسانٍ سعياً حثيثاً. ولئن كان في الحياة العاديّة من عوائق للقداسة، فلا شيء، مع عملِ الرّوح القدس، يحول دونها، أو يقف في وجهها، أو يُعيقها عمّا تصبو إليه.

٣ . لقد باتتِ القداسة، مع قدّيسي الكنيسة الذين نعرف سيرتهم، في متناول يدنا وعقلنا وقلبنا وأحاسيسنا. بتنا نرغبها، نتوق إليها، نعمل لها، ونتجرّأ على الغوص في سرّها. وبتنا، في الحقيقة، نعرف ماذا تعني لنا بعضُ تعاليم المسيحيّة والإنجيل، ونعرف ما معنى التشبّه بالمسيح، والاقتداء به، واتّباعه، والحياة معه وفيه، والاتّحاد به، والموت من أجله.

٤ . أصبحنا نعرف مقصودَ الكتب المقدّسة في وصف الله بالقدّوس، ونعرف أيضاً معنى تلك الصلاة التي عَلَّمَناها يسوع : "ليتقدَّسِ اسمُكَ" (متى ٦ /٩)، ومعنى "الرّوح القدس"، الذي "مِنْ دُونِهِ لا قَدَاسَة"[65]، و تسمية المسيحيّين الأوّلين بـ "القدّيسين" (١قور ١ /٢)، وإعلان الكنيسة قداسة بعض أبنائها.

٥ . هذه "القداسة لن يُعاينَ الربَّ أحدٌ بدونِها" (عب ١٢ / ١٤). إنّها مشيئة الله الذي "ما دعانا إلى نجاسة، بل إلى قداسة" (٢ تس ٤ /٣-٧)؛ لهذا صلّى يسوع إلى أبيه ليقدّسَ الذين جاء من أجلهم: "قدِّسْهم في الحقّ.. إنّي أتقدَّسُ مِن أجْلِهم لكي يتقَدَّسوا هم أيضاً في الحقِّ" (يو ١٧ /١٧-١٩)؛ وقال الربّ: "قدّوسٌ أنا الربُّ مُقَدِّسُكُم"[66]؛ وأكدّ ذلك بولس بقوله: "لكنّكم قُدِّسْتُم" (١قور ٦ /١١).

---

65 رو ١٥ /١٦؛ ٢ تس ٢ / ١٣.
66 أحبار ٢١ / ٨ و١٥ و٢٣؛ ٢٢ /٩ و٣٢.

٦ . ومع هذا، نسأل؟ هل يكون بوسع مسيحيٍّ أن يتقدّس حيث هو؟ في عمله اليوميّ؟ في وظيفته العاديّة؟ في عيلته؟ وحياته الزوجيّة؟ هل بوسعهِ أن يتقدّسَ وهو في خضمّ هذا العالم؟ في معترك الحياة؟ في الحروب وميادين القتال؟ في معاطاة السياسة والتحزّبات؟ في أعمال التجارة والمال؟ هل من قداسةٍ خارج المحبسة؟ أو الدير؟ أو الحياة الرّهبانيّة؟

٧ . هذه القداسة، على اختلاف طرقها، تكون في الكنيسة، من دون شكّ؛ ولكن، أيّ كنيسة؟ الكاثوليكيّة؟ أم الأورثوذكسيّة؟ أم البروتستانتيّة؟ وهل من قداسةٍ خارج الكنيسة؟ أقَداسةٌ في اليهوديّة؟ والإسلام؟ والدرزيّة؟ والنّصَيريّة؟ والبوذيّة؟.. وهل من أناسٍ غير مسيحيّين ظهرتْ عليهم سمات القداسة؟

٨ . هل من "نصوصٍ مقدّسة" في غير المسيحيّة؟ هل من "قرابين مقدّسة"؟ و"ذبائح مقدّسة"؟ و"أحجار مقدّسة"؟ و"أمكنة مقدّسة"؟.. أهي "مقدّسة" لأنّها تقدِّس؟ أم لأنّها تتقدَّس بقداسةٍ مَن يقدِّسها؟

٩ . هذه أسئلةٌ شائكةٌ ومهمّةٌ، وجدنا البحثَ فيها ضرورةً ملحّة. والبحث فيها يطال الإنسانَ في أعمق أعماق حياتِه وأعماله وسلوكه وأخلاقه. فيها يكاد يلامس اللهَ في أجمل صفاته وأكملها؛ وبها يدقُّ على الوترِ الحسّاس في كلِّ دِين ومذهب.

١٠ . إنّ غايةَ الإنسان وكمالَه أن يُصبح مع مَن يحبُّه كائنًا واحداً. والله هو غاية الإنسان وكماله. يعمل على أنْ يكونَ الإنسانُ، كلُّ إنسانٍ، معه، متّحِداً به إتّحاداً كلّيًّا وتامًّا. والإنسان، لا يحقّق ذلك إلاّ عندما يعمل على تقديس نفسه؛ لأنّ القداسة، في جوهرها، هي أن تجعل من الله والإنسان كياناً واحداً. فلكأنّ القداسة هي الوسيلة إلى تحقيق الإنسان غايتَه، وكمالَه، واتّحاده الكلّيّ والتّامّ بالله.

١١ . هذا ما تعلِّمه المسيحيّة بوضوح، ويعرفه المسيحيّ معرفةً جيِّدة، وقد لا يعرفه غير المسيحيّ؛ لأنّ المسيحيّ، وحدَه، يعرف معنى الشراكة مع الله، ومعنى الاتّحاد به، والحياة فيه، والموت من أجله... لهذا، كان على القداسة، لكي تتحقّق، أن تنطلق من منطلقات واضحة، وأن تتميّز بمميّزاتٍ صريحة.

أوّلاً - منطلقات القداسة

١٢ . على المسيحي، وهو في هذا العالَم، عالَمِ النسبيّات، أن يتعاملَ مع المطلق مباشرة. فلا يرتاح إلى أن يسلِّم نفسَه لأيِّ مخلوقٍ، نبيّاً كان أو رسولاً، أو ملاكاً، أو قدّيسًا، أو قائداً، أو زعيماً، أو شبه إله! وحدَه الله هو ذاك المطلق الذي يصبو إليه الإنسان. غير اللهِ، ممّا هو في الأرض أو فوق الأرض، لا يُشبع عقلَه النافذَ أبداً باتّجاه المطلق. هذا يعني أنّ المسيحيّ، في تحديده، تأليهيّ، ولا يريد غيرَ الله ليحبَّه ويتعامل معه.

١٣ . وتعامل المسيحي مع النسبيّ ليس إلاّ في رفع النسبيّات

إلى مستوى المطلق. والمسيحيّ، بتعامله مع المطلق، يرفع النسبيِّات كلَّها إليه؛ وهكذا يسعه، والحال هذه، أن يروحن المادّة، وأن يمدّ بالزمن نحو الأبديّة، ويرفع كلَّ ما تلمسُ يداه، ويقدِّسَ الخبزَ والخمر، ويباركَ الماءَ والزّيت، ويكرّسَ الأرضَ لله، ويعمّد الإنسانَ، وينذره للربّ نذراً مؤبَّداً. فالمسيحيّ الذي يعيش في الزمان والمكان، بتعامله مع المطلق، يتخطّى الزمان والمكان.

١٤ . على المسيحي، وهو يرفع النسبيَّ إلى مستوى المطلق، ألاّ يعتبرَ النسبيَّ مطلقاً، ويحلَّه محلّ المطلق. إنّها خطورة وقع فيها أنبياء ومؤسِّسو أديان. فالإنسان، في أي موقعٍ كان، هو أعظم من كلّ نسبيّ. إنّه أعظم مِن كلِّ ما سواه. إنّه القيمة-الأهمّ. لا يسعه أن يسلِّم زمامَ أمرِه إلى أيّةِ شريعة سماويّة، أو إلى أيّ كتابٍ مُنزل، أو أيِّ ملاكٍ أو نبيٍّ أو زعيم... وحدَه المسيحيّ، بتعامله مع المطلق، هو مرجعيّة نفسه. ومَن يودّ الرجوع إلى دينٍ أو شريعةٍ أو نبوّة... يتخلّى عن ذاته.

١٥ . هذا المطلق، إنِ استمرّ في أبراجه العليّة، وبقي "بعيداً"، "متعالياً"، "صَمداً"... لا يمكن للإنسان أن يتعاملَ معه... فلا بدّ لهذا المطلق أن يَسقط قليلاً من عليائه، أن "يتلاشى"، و"يتخلّى" و"يمّحي"؛ وبتعبير آخر: أن "يموت". أجل، يموت. فالمطلق الذي لا يموت يبقى بعيداً، غريباً، لا يشارك ولا يُحِبّ. لا يطيق أحداً. يخافُ من كلّ أحد من أن ينالَ منه شيئاً. وبهذا فهو لا يتمتّع بصفات المطلق.

١٦ . الأشياء النسبيّة كلّها، في تعاملها مع المسيحيّة، يشعّ فيها نورٌ من المطلق : التراب، الماء، الزيت، الصّورة، الأشخاص... كلّها تكرّسها المسيحيّة، وتباركها، وتقدّسها، وترفعها، وتجعلها أيقونات مقدّسة : التراب الذي داسه القديس شربل، والشجرة التي استظلّها، والكرم الذي اشتغله... والثيات التي لبسها... كلها أصبحتْ معه وتحت يديه، مقدَّسةً، تقدِّس مَن يستخدمها بإيمانٍ وحبّ.

١٧ . الإنسان، في المسيحيّة، أعظم ما في عالَم النسبيّات، من دون شكّ. إنِ انفتحتَ عليه، وحاورتَه، وأحببتَه، تكون قد ابتدأتَ تنفتح على المطلق وتسلك إليه؛ ذاك لأنّ المحبّةَ والانفتاحَ والحوارَ طرُقٌ أكيدةٌ إلى المطلق. بسببها، أشرق اللهُ على العالم وتجلّى فيه. لهذا، ليس في المسيحيّة إلاّ شريعة واحدة: المحبّة. محبّةِ الإنسان الذي نراه، أبدى من محبّة الله الذي لا نراه.

١٨ . أيُّ إنسان كان، خصماً أو صديقاً، شرّيراً أو خيّراً، مؤمناً أو كافراً، هو للمسيحيّ أخٌ، يستحقٌّ محبّتَه. يستحقّ أن يصلّي له، ويشركَه في خيراته الزمنيّة والرّوحيّة. وهو، عنده، أولَى من القربان والمذبح، وحقُّه عليه أعظم من حقِّ الله نفسه. ألم يقل يسوع: إنّ الإنسان أعظم من السبت؟! تخرقُ المسيحيّةُ جدرانَ الشريعة الإلهيّة المنزلة خرقاً متواصلاً، إذا ما كان الإنسان هو المقصود والهدف.

١٩ . المسيح لم يأتِ ليُعيدَ للناموس مكانَه، فللناموسِ موساهُ وأنبياؤه. إنّما جاء ليعيد للإنسان، المسحوقِ بالناموس، مكانَه. لقد صلبَ يسوعُ الناموسَ معه، وأراحَنا منه. لهذا كان القيّمون على النّاموس حرباً ضارية على يسوع. لقد تعقّبوه حتى الموت؛ لأنّهم كانوا يؤثرون الناموسَ والحرفَ والسبتَ والختانَ على الإنسان. لقد جاء يسوع، حقّاً، من أجل أن يُحرِّرَ الإنسانَ، لا من خطيئة آدم المسكين، بل من النّاموس وزبانيته المدّعين.

٢٠ . ومن أغرب الأمور وأعجبها أن يكون الإنسانُ الضعيف، المريض، المرذول، المسكين، الفقير، اليتيم، المُضطَهَد، محطَّ حنان الله وشفقته.. لكأنّ يسوع لم يقرأ من العهد القديم إلاّ قول آشعيا: "روحُ الربِّ عليَّ، فقد مَسَحَني لأُبَشِّرَ المسَاكين، وأُطلقَ الأسْرَى. وأحرِّرَ المقهورين" (لو ٤ /١٨). فلكأنّ الله لا يشعّ إلاّ في وجوه الضعفاء والمقهورين، ولا يُعرَف إلاّ بهم. وليس من مدعوٍّ إلى مائدته إلاّ هم. ألم يقل : "كلّ ما فعلتموه بهؤلاء المساكين فبي فعلتموه"؟! (متى ٢٥ / ٤٥).

٢١ . بعض الأديان تحصر تعاملها مع المطلق في جماعاتها الخاصّة. إنّها، في الحقيقة، شرّيرة بحقِّ اللهِ والإنسان والحقيقة. هذه الأديان تقول بأنّ جماعتها "شعبٌ مختار"، أو "جماعة سرّيّة لا خلاص إلاّ فيها"، أو "خير أمّة أُخرجت للناس". كيف تكون هذه الأديان على علاقةٍ مع المطلق، وهي ترفض الانفتاحَ والمحبّة

والحوار؛ وتصنّف البشر إلى مؤمنين وكافرين وملحدين؛ فيما اللهُ نفسُه "يُشرق شمسَه على الأخيار والأشرار، ويهمي بغيثِه على الأبرار والفجّار"؟! (متى ٥ / ٤٥).

٢٢ . الانغلاق على المطلق هو الخطيئة؛ والانفتاح عليه هو القداسة. الخطيئة، في حقيقتها، عملٌ محصورٌ في النّسبيّ، حالةُ اكتفاء به، لا يطلّ من خلاله على شيء. و بسبب انحصارِها واكتفائها هذا، تحمل، في طبيعتها، خجَلاً وحياءً؛ وتعمل في السرّ والانغلاق؛ وتعيش في "تقيّة"، و"باطنيّة"، وتفعل فعلَها في الظلمة، بعيدةً عن النور والوضوح. لا يعرف صاحبُها الصدق والصراحة. أمّا القداسة فعلى السطوح تكون، تعمل في الشمس ومن أجل خير العالم كلّه.

٢٣ . إنّ تعاملَ المسيحيّة مع المطلق هو الذي يوضح صورةَ الخطيئة، وانفتاحَ المطلقِ على النسبيّ يظهر أيضاً جسامةَ الخطيئة؛ إذ "حيث تكثر الخطيئة تفيض النّعمة". على نور المطلق تُعرف ظلمة النسبيّ. وبالنسبة إلى المطلق تُعرَف الخطيئة: "لو لمْ آتِ وأكلّمهم لما كانت عليهم خطيئة.. ولو لمْ آتِ فيهم أعمالاً لمْ يأتِ مثلَها أحدٌ سواي، لما كان عليهم خطيئة" (يو ١٥ /٢٢-٢٤). فالخطيئة، إذاً، هي رفض كلام يسوع وعمله الخلاصي.

٢٤ . تجلّي المطلق في المسيحيّة كان في يسوع، الإله-الإنسان. إنّه "صورة الله غير المنظورة"؛ لكأنّ مَن لا يسوع له، لا صورة عنده لله. لا عجب، فصورة الله عند غير المسيحيّين محرَّمة، بل هي امتهانٌ

لله. هكذا هو حال اليهوديّة، حيث "لا إله غيري. ومَن مِثلي؟" (أش ٤٤ / ٦-٧)، وهكذا هو حال الإسلام، حيث اللهُ "ليس كمثله شيء"[67]. للمسيحيّة عن الله صورةٌ، لم تعرفْها إلاّ في يسوع حيث يلتقي المطلق والنسبي؛ وحيث يسوع هو الوسيط الوحيد بين الله والإنسان.

٢٥ . مبدأ القداسة في المسيحيّة، أن يكون يسوع كلَّ شيء. هذا يعني أنْ لا قداسةَ إنْ لمْ يتّحدِ الإنسانُ بيسوع، ويشترك معه، ويحيا فيه، ويقتدي به، ويسير على خطاه، ويثبت فيه، ويتّكل عليه، ويموت من أجله. فلو انّ القديسَ شربل، مثلاً، عاش دهراً يصوم ويصلّي ويتقشّف، ولم يكن يسوعُ نصبَ عينَيه، لما حظي ببصيص نورٍ من أنوار القداسة. هذا يعني أيضاً: أنّ القداسة لن تكون من دون المرور بيسوع، الصورة المنظورة لصورةِ الله غير المنظورة.

٢٦ . إلاّ أنّ هذا الاتّحاد بين الانسان ويسوع لا يُؤَمَّنُ إطلاقاً خارج نطاق "الجماعة"، أي "الكنيسة"، التي لها القدرة والسلطة على تصويب خطوات الإنسان الفرد. فلكأنّ الكنيسة هي مكان القداسة، ومقامها، وميدانها؛ لأنّها هي الوحيدة المكلّفة في فتح حوار مباشر مع المطلق. فلو انّ القديس شربل، مثلاً، مع صومه وصلاته وتقشّفه ومحبّته ليسوع، لم ينتمِ إلى الكنيسة التي لها أن تضبط الشطحات الفرديّة، لما رأى من نور القداسة بصيصاً واحداً.

67 القرآن، سورة الشّورى ٤٢ / ١١.

٢٧ . ثمّ إنّ الاتّحاد بالمسيح، والانتماء إلى الكنيسة، قد لا يفعلان فعلَهما إنْ لم يكن هناك عاملٌ آخر يقدِّس ويروحن ويسمو بالإنسان وأعماله الخيّرة إلى فوق. هذا العامل الفعّال هو "الرّوح القدس"، ينبوع كلّ قداسة وحركة وحياة. لولا هذا "الرّوح" لاعتدّ الإنسان ببرارته، وَلَسقط بالتالي في مهاوي الجحيم. كلّ قداسةٍ هي من الروح القدس، لا من الأعمال مهما سمتْ. هذه من دون الروح، سببٌ لكلِّ كبرياء، وقد تؤدّي إلى الهلاك. إلاّ أنّ الروح يحتاج إليها لكي يقدِّسَ صاحبَها.

ثانياً - مميّزات القداسة

٢٨ . لا بدّ لطالب القداسة من أن يتعالَى على النسبي، ويتبع المطلق، ويتفرّغ له ليتّحد به اتّحاداً كاملاً ونهائيّاً. ولا قداسة إنْ بقي همّ الأرضيّات والنسبيّات موجوداً. ولا قداسة أيضاً إن بقي الإنسانُ يتلهّى برغائب نفسه وجسده وغرائزه الطبيعيّة، حتّى وإنْ كانتْ خيّرة وجائزة وضروريّة. كلّ ذلك في سبيل ألاّ يبقى نصب عينيه إلاّ "الضروريّ الأوحد".

٢٩ . إلاّ أنّ ابتعادَ الإنسان عن النسبي لا يعني هرباً منه أو كرهاً له. بل هو، في الحقيقة، حبٌّ له وعملٌ لخلاصه وقداسته. معنى ذلك، أنّ القديس لا يهرب من الناس كرهاً لهم، بل من أجلهم، أي من أجل أن يرفعهم معه نحو المطلق، وإنْ هو بقي حيث هم لا يستطيع أن

ينتشلهم من حيث هم إلى حيث هو. فالغريقُ لا يخلّص غريقاً، ولا الأعمى يقود أعمى.

٣٠ . ثمّ إن القديس، إن بقي يعيش بين النّاس العاديّين فهو، لا يفيدهم؛ بل يُزعجهم، ويُتعبهم، ويُربك ضمائرهم، ويؤنّب سلوكهم بمجرّد حضوره فيهم. وهذا نقصٌ كبيرٌ في محبّته لهم. لهذا فهو يبتعد عنهم، محبّةً بهم، وراحةً لضميرهم. للقداسة هالة روحيّة لا يسع العاديّين تحمّلها. إنّها كالنور الباهر تُعمي البصائر الضعيفة.

٣١ . القديسُ لا يترك الناسَ ليتقدَّس أكثر، أو ليُؤثرَ نفسَه عليهم. بل يرحل عنهم لكي يحبّهم أكثر، ويعمل لخلاصهم، ويساعدهم على أن يتقدّسوا. إنّهم في قلبه ووجدانه وصلاته وتضرّعاته اليوميّة. فالابتعاد عن الناس محبّة بهم هي القاعدة الأساسيّة لكلِّ طالب قداسة. إنّه يُزعجهم، حقًّا، إنْ بقي بين ظهرانيهم؛ وهم يؤخّرون قداسَتَه إنْ بقي بينهم.

٣٢ . من مميّزات القدّيسين أنّهم يعملون على محاصرة الشرِّ، ويلاحقونه حيث يتأكَّدون وجودَه. والمكان الذي يتأكّدون فيه وجودَه هو في نفوسهم. لهذا، فالقدّيس هو مَن يهتمّ، أوَّلاً وآخِراً، في محاربة الشرّ الذي فيه. وكلّ طالبِ قداسة يترك العالَم ليبتعد عن الشرّ الذي يظنّه فيه، لن ينالَ القداسة ولن يذوقَ طعمَها، ولن يكونَ اللهُ نصيبَه.

٣٣ . عندما يتقدّس طالبُ القداسة، يتأكّد أنّه إنّما غلبَ الشرَّ في مكان ما من العالم، وانتصرَ عليه؛ وبالتالي، يتأكّد أنّه زاد الخيرَ

والقداسةَ في العالم. وهذا يكفي. ويكفي أيضاً البرهان على أنّ القدّيس هو خير مَن يُساهم في إطفاء نار الحروب من العالم، وفي جلب السلام إلى الأمم، وفي التفتيش والبحث عن الله، وفي إحلال الملكوت السماوي في الأرض.

٣٤ . عندما يتقدّس إنسانٌ يُقدّس معه الخليقةَ كلَّها : يقدّس الأرض التي حرثها، والثياب التي لبسها، والأشجار التي استظلّها، والأغراض التي استعملها، والأحجار التي حملها ونقلها... كلّها أصبحت مقدّسةً، مكرّسةً. وأمستْ وسائلَ قداسةٍ لكلِّ مَن يستخدمها... فالقداسة تتخطّى الحدودَ بين المادّة والرّوح، بين النسبي والمطلق، بين الأرض والسماء...

٣٥ . القداسة عملٌ شخصيٌّ، باطنيٌّ، صادقٌ، صريحٌ، متواصل. لا يكون قدّيسٌ مَن يُعطي اليومَ حصّةً لنفسه، وغداً حصّةً لله. "مَن ليس معي فهو ضدّي". على طالب القداسة أن يكون في كلّ وقتٍ لله ومع الله، وأن يكون صادقاً أميناً إلى آخر حدود الصدق والأمانة. وقد يكون القديسُ الوحيدَ على هذه الأرض لا يعرف الغشَّ والخداع. حياتُه صفحة ناصعة البياض، نقيّة طاهرة تَظهر عليها كلّ شائبة.

٣٦ . في القداسة لا حدود يضعها الإنسانُ أمامَه ليصل إليها. لا وقوف في سلوك طريقها. لا اكتفاء. لا راحة. لا استرخاء. لا هدنة. لا تعب. وحتّى الموت، ذاك الحاجز العظيم، يتخطّاه القدّيسون، إذ غالباً ما تبقى أجسامُهم عصيّةً عليه، وكأنّهم ما عرفوا فيه حدوداً فاصلةً بين

حياتهم هنا وحياتهم هناك. القداسةُ طريقٌ ملتهبة لا وقوف فيها. إنّها عابرة الوجود إلى اللاّمتناهي، شاخصة إلى اللاّمحدود.

٣٧ . ليس كالقداسة ما يميّز إنساناً عن آخر. بل هي تنمّي هذه الفرادة، وتظهرها. لسنا نجدُ قدّيساً مثلَ آخر. لكلٍّ واحدٍ من طلاّب القداسة فرادتُه. كلّ واحد يتعامل مع المطلق بحسب شخصيّته المميّزة. وإذا شاء أحدُنا أن يكونَ فريداً مميَّزاً في العالم وعن سائر البشر، عليه أن يسلك طريقَ القداسة. هذه، وحدَها، تقفز فوقَ الموت قفزاً وتتحدّاه.

٣٨ . لا تحديد للقداسة، لأنّها حرّيّة. والحرّيّة لا تُحَدَّد. ومتى حُدِّدتْ، فقدتْ معناها، وبطلتْ أن تكون حرّيّة. هكذا هي القداسة، حرّيّة إلى أقصى الحدود؛ محبّةٌ خارقةٌ كلّ الوجود؛ تتشوّق إلى المطلق، فتنسف الحواجز والسدود؛ ترغب التأمّل في ما لا يُحدّ أو في ما لا ينالُه أيّ إنسانٍ عاديّ. وهل مع اللاّمتناهي حدود؟! وحدَه المطلق تقف عنده.

٣٩ . تبقى القداسة واحدةً، مهما تنوّعتْ وتعدّدتْ طرق الوصول إليها. وذلك بسبب وَحدة الغاية. والغاية هي الاتّحاد الكامل بالمطلق. وهذا لا يكون إلاّ عن طريق يسوع المسيح، والاقتداء به، والحياة فيه، ومن أجله، والاشتراك الكلّي والفعلي بحياته، والتشبّه به، والتخلّق بأخلاقه، والموت معه في حمل صليبه وآلامه مساهمةً معه في افتداء العالم وخلاصه.

٤٠ . والاتّحاد بيسوع المسيح لن يكون خارج الكنيسة التي هي المكان الوحيد الذي تحصل فيه القداسة. خارج الكنيسة لا قداسة. من

دون الكنيسة لا قداسة. الكنيسة هي البعد الجماعي للإنسان الفرد. والإنسان، لوحده، لا يسعه أن يعرف مِن يسوع شيئًا. أو هو يصنع من يسوع شخصاً يناسبه هو، وليس هو ذاك الربّ الذي تجسّد ومات وقام من أجل البشر.

٤١ . يبقى اتّحاد آخر بيسوع، لولاه لن تكون قداسة، وهو الاتّحاد بواسطة المشاركة في جسده ودمه، من خلال سرّ الخبز والخمر، في الإفخارستيّا، مائدة الشكران. هذا السرّ العظيم، لولاه، لما كانت قداسة، ولا كان ليسوع حضورٌ فاعلٌ في العمق فينا. الإشتراك بهذا السرّ يصيّرنا مع يسوع واحداً. وهذه هي القداسة في جوهرها، في منطلقها ومبتغاها.

٤٢ . أمّا الفاعلُ الذي يصيّر كلَّ شيء مُقدَّساً فهو روح القدس. هذا الروح هو الذي يصيّرنا قدّيسين. به نصبح مسيحيّين. به نتعمّد. به ننال الغفران والمصالحة. به نعرف الله. به نبلغ الكمال... لولا روح القدس، لما كانت أعمالنا تفيدُ شيئاً. فلكأنّ القداسة هي عمل الرّوح فينا، وليست نتيجة أعمالِ بِرٍّ نقوم بها. روح القدس هو الذي يقدّس أعمالَنا لتصير مقدّسة، وهو الذي يمنحنا طاقةَ الخلود.

٤٣ . "أسرارُ" المسيحيّة التي تؤهّلنا إلى القداسة هي "مقدَّسات" و"مقدِّسات"؛ وليستْ أسراراً بالمعنى اللّغويّ. إنّها تؤهِّلنا للاتّحاد في سرِّ الابن المتجسِّد في الكون. إنّها تولينا نعمةً فوق نعمة.

وتُعدّنا لتوبةٍ صادقة. ولمصالحة حقيقيّة مع الله والكون حيث فاقتْ خطيئتُنا مقدرتَنا في التكفير عنها. لهذا كان تجسّد الله. وكلّ نبوّة أوحيّ خارجٍ عن يسوع، بات بلا فائدة.

***

٤٤ . من خلال ما تقدّم، نتجرّأ على القول بأنّ لا قداسة إلاّ في المسيحيّة، ولا مسيحيّة من دون كنيسة، ولا كنيسة من دون إفخارستيّا، ولا إفخارستيّا من دون عمل روح القدس، وروح القدس لا يعمل من دوننا، ونحن مهما عملنا نبقى دون الشرّ الطاغي في عالمٍ ينحدر باستمرارٍ بسبب خياره الحرّ. وجاء يسوع، لا ليقضي على حرّيتِنا، بل ليساعدَها على القيام من منحدَرٍ خطير، وضعَتْنا فيه أديانُ الأرض والسماء، والشرائع المنزلَة علينا من فوق.

فلكأنّ القداسة هي عمليّة تحريرٍ كاملٍ شاملٍ من الناموس والأنبياء والعهد القديم والأديان والشرائع والكهنة ورؤساء الكهنة والفرّيسيّين ورجالِ كلِّ دينٍ ومذهب، ممّن يرومون قداسة السبت على حساب قداسة الإنسان.

القداسة حرّيّة مطلقة: هزيلةٌ جدًّا خطيئة أبوَينا الأوّلَين، بمقابل قهرِ الناموس لنا ودفاعه المستميت عن الله. إنّ بوادر خلاصنا ابتدأتْ، عندما أخذ يسوع من العهد القديم وقرأ: جِئتُ "لأبَشِّرَ المَساكين، وَأُنادي بإطلاقِ الأسرى، وأُحرِّرَ المَقهُورِين.." (لو ٤ / ١٨)؛ وعندما قرّر

المواجهة التي عبّر عنها بقوله: "سَمعتم ما قِيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم"[68].

وإذا كان "جبلُ سيناء" جبلَ الشريعة القديمة؛ فإنّ ثمّة ثلاثة جبالٍ أطلق منها يسوع شرعةَ الملكوت الجديد : جبل "الطوبَيات الثماني" (رَ: متى ٥ / ٣-١٢)، وجبل التجلّي (رَ: متى ١٧ /١)، والجبل الذي أرسل منه تلاميذه لكي يتلمذوا جميع الأمم (رَ: متى ٨ / ١٦-٢٠). والجبال الثلاثة هذه هي نقيض جبل سيناء. هذا كان للعبوديّة، وتلك كانت للحرّيّة.

68 متّى ٥ / ٢١-٢٢؛ ٢٧-٢٨؛ ٣١-٣٢؛ ٣٣-٣٤؛ ٣٨-٣٩؛ ٤٣-٤٤

١٧
الصفح والغفران في الحياة الرهبانيّة

مقدمة

ما حدانا إلى الكتابة عن الصفح والغفران والمصالحة والتسامح والتوبة هو التالي :

أوّلاً - أهمّيّة هذه الموضوعات في العقيدة المسيحيّة، وفي حياة المسيحيّين وسلوكهم. إنّها في صميم الإنجيل، والأولى في تعاليم يسوع، والأكثر تردداً في كلامه. قال لبطرس عندما سأله: "كم مرّةً يَخطأ إليَّ أخي، يا ربُّ، وأظلَّ أَغفِرُ له؟ أَسَبْعَ مرَّات؟ قال يسوع: لا أقولُ لكَ سبعَ مرّات، بل سبعينَ مرّةً سَبْع مرّات" (١٨ / ٢١-٢٢). وقال أيضاً : " بَادِرْ فصالِحْ أوَّلاً أخاكَ، ثمّ عُدْ، وقرِّب القربان. بَادِرْ وصالِحْ خصمَك..." (متى ٥ /٢٣-٢٥).

ثانياً - احتلالها لقلب الصلاة الربيّة التي علّمناها يسوع: "إغفِرْ لنا ذنوبَنا كما نحن نَغفِر لمن خَطِئ إلينا"؛ ويكمّل : "إنْ تَغفِروا للنّاسِ زلاَّتِهم يَغفِرْ لكم أبوكُمُ السماويّ، وإنْ لمْ تَغفِرُوا للنّاسِ فأَبُوكم لن يَغفِرَ لكم" (٦ /١٢ و١٤-١٥). وبما أنّ المبادرة تأتي هذه المرّة، وهذه المرّة فقط، من الإنسان لا من الله، آثرنا، مع شرّاح "إوَنْجِلْيُونْ"

ترجمتَهم التي تضع غفرانَنا لمن خطئ إلينا قبل غفران الله لنا، فقالوا : " عَفَونَا فَاعْفُ عنَّا ".

ثالثاً - قيام الكنيسة الكاثوليكيّة، بلسان أحبارها، بالصفح. قال البابا بولس السادس : " إنّنا نطلب الصفحَ من الله ومن الإخوة الذين يَعتقدونَ أنّنا أسأنا إليهم". وقال أيضاً : "إنْ كان من الممكن أن يبلغَ إليكم صوتُنا، أيّها الإخوة الأباعد، فأوّل ما يجب أن يحمله إليكم هو طلب الصفح. نعم يجب أن نطلبه منكم قبل أن نطلبه من الله ". أمّا البابا يوحنّا بولس الثاني فقد قام بزيارات رسوليّة عديدة في العالم، تحمل كلُّها رسالةَ " الصفح عن أخطاء ارتكبها أبناءُ الكنيسة عبر التاريخ".

رابعاً - تشديد الحياة الرهبانيّة في قوانينها وتقاليدها على طلب الإخوة الصفحَ بعضهم من بعض، ومغفرة بعضهم لبعض، واستغفار كلّ أخٍ عن كلّ هفوة تمسّ العلاقات الأخويّة. هذا من التقليد الرهبانيّ. جاء في أحد القوانين: " ويَصفحُ الإخوةُ بعضهم عن بعضٍ بروح المحبّة، ذاكرين جواب السيّد لبطرس: "لا أقول لكم سبع مرّاتٍ، بل سبعين مرّة سبع مرّات ".

ثمّ إنّ موضوع الصفح والغفران لا يمكن أن يكون منعزلاً، أو منفصلاً، عن المحبّة الأخويّة، وعن تبادل السلام، والعيش بأمان، والانخراط التامّ في الحياة الديريّة المشتركة. فعلى الرّاهب أن يعيش مع إخوته " بروح التّسامح والمصالحة والغفران والمحبّة ".

كلّ هذا في سبيل حياة توبة صادقة مع الله. فنحن خطأة.

والقدّيسون يشعرون بخطيئتهم أكثر. فلهاذا هم في حال توبة مستمرّة، وصفح ومصالحة تامّة معهم ومع العالم. ومهما صغرتْ هفواتهم، فهم في بكاء مرير عليها. غير أنّ الله "كثير الرحمة.. ويحتمل الإثمَ والمعصيةَ والخطيئة" (خر ٣٤ /٦).

هذه القيم المسيحيّة، من صفحٍ وغفرانٍ ومصالحة وتوبة ومحبّة... ما أقربها إلى الحضارة الإنسانيّة وشرعة حقوق الإنسان، وما أبعدها عن حياة الثأر والانتقام وشريعة السنّ بالسنّ والعين بالعين. هذه من مخلّفات البداوة، ومن غير قاموس المسيحيّة. أمّا تلك فمن صميم الإنجيل والحضارة الإنسانيّة.

١

الصفح والمصالحة والغفران والمسامحة... كلمات بيبليّة تتكرّر في العهدَين القديم والجديد. فمنذ أن خلق الله الإنسانَ وعصى الإنسانُ ربَّه، راح الله، بمحبّة فائقة، يصفح عن هذا الإنسان، ويغفر له، ويُعدّه لمصالحة تامّة مع ذاته؛ لأنّه، كما أعلن دائماً عن نفسه، "إله رحيم ورؤوف، طويل الأناة، كثيرُ الرحمة والوفاء، يحفظ الرحمة لألوف، ويحتمل الإثمَ والمعصيةَ والخطيئة" (خر ٣٤ /٦). "لا على الدّوام يُخاصم، ولا للأبد يَحقِد. لا على حسبِ خطايانا عامَلَنا، ولا على حسب آثامِنا كافَأَنا" (مز ١٠٣ /١٠)[69].

ولمّا نقض إسرائيل بخطاياه العهدَ مع الله، قطع الله معه عهداً

---

69 راجع : مزمور ٨٦ /١٥؛ ومز ١٤٥ /٨.

جديداً أبديًّا[70]... ولمّا جاء يسوع المسيح، أتمّ الله، بواسطته، المصالحة الكاملة والنهائيّة بينه وبين البشر: "فواحدٌ هو الله. وواحدٌ هو الوسيط بين الله والناس، هو الإنسانُ المسيحُ يسوع، الذي وهب نفسَه فديةً عن الجميع" (١ طيم ٢ / ٥-٦).

فلكأنّ مسيرة الله مع البشر هي مسيرة صفح ومصالحة مستمرّة، متجدِّدة ومتكرّرة. ولكأنّ الإنسانَ باتَ لا يعرف من الله سوى أنّه إله رحمة ورأفة وحنان ومحبّة لجميع البشر، إذ "هو مخلِّصُ النّاس أجمعين" (١طيم ٤ / ١٠)، "الذي يريد أن يخلّص النّاسَ جميعهم، ويُقبلوا إلى معرفة الحقّ" (١ طيم ٢ / ٤).

وظلَّ الله، من جهته، أميناً إلى آخر حدود الأمانة. أمانة ثابتة، لا تتغيّر، فيما الإنسانُ ظلَّ، من جهته أيضاً، يقابل الله بآثامه ومعاصيه المتكرّرة وخياناته المتواصلة. وتجلّتْ أمانةُ الله هذه، بأقصى حدودها، في المسيح، "العبد الأمين"، الذي فيه تمّتْ أمانة الله بكمالها: "إنّ مَن دعاكُم لأَمِينٌ، فَسَيَفْعَل" (١ تس ٥ /٢٤)؛ وسيظلّ أميناً حتّى ولو كنّا نحن معه خائنين : "إنْ نَخُنْه يَظَلَّ أميناً؛ لأنّه لا يَسعُه أن يُنْكِرَ نفسَه" (٢ طيم ٢ / ١٣).

إنّ المصالحة بين الله والبشر هي مبادرة من الله، لأنّ الإنسان، بذاته، يعجز عن مصالحة نفسه مع الله: "الكلُّ مِنَ الله، الذي صالحنا مع نفسه بالمسيح" (٢قور ٥ / ١٨). وسرُّ مصالحتنا متّصل بسرِّ الصليب،

70 راجع : إرميا ٣١ / ٣١-٣٣؛ حزقيال ٣٦ / ٢٤-٣٠.

"قاتلاً به العداوة" (أف ٢ / ١٦)، وبسرِّ "محبّته العظمى التي أحبّنا" بها (أف ٢ / ٤)؛ وأُبرمتْ عهداً بيننا وبينه.

ومع هذا فإنّنا نتساءل دائماً عمّا إذا كان الله لا يملّ من أخطائنا المتكرّرة، ومن توبتنا المستمرّة، ومن ابتعادنا عنه ورجوعنا إليه، ومن التماس صفحه ومغفرته. غير أنّ النّبيّ ميخا الذي غاص في سرّ الله، أعلمنا بأنّ الله "لا يُشَدِّدُ غضَبَهُ للأبَدِ، لأنّه يُحِبُّ الرَّحْمَةَ، سَيَعودُ فيرأفُ بنا، ويدوسُ آثامَنا، ويَطرَحُ في أعماقِ البحرِ جميعَ خَطَايَانَا" (ميخا ٧ / ١٨-١٩).

إنّ الله يعرف أنّنا خطأة، ونخطأ دائماً، ومع هذا فهو يصفح، و"لا يجهده الصفح؛ بل على خلاف ذلك، يسعده"[71]؛ ذاك لأنّ الصفح هو كمال محبّة الله لنا. وإذا كانت المحبّة هي هويّة الله بحسب ما جاء عند يوحنّا، وقد تجلّتْ هذه المحبّة بصفحه عنّا، بات علينا أن نقول: "لندع الله أن يكون إلهاً"[72]؛ "ولأنّ الله هو حبّ في جوهره، يجوز لنا القول: إنّ كيانه يتجلّى تمامُه في الصفح"[73].

ونتيجةُ هذه المصالحة، أنّ الله لا يعود يحسب علينا زلاّتنا (٢قور ٥ / ١٩)، وأنّنا بها أصبحنا خلقاً جديداً : "فمَن هو في المسيح هو خلقٌ جديد" (آية ١٧). وبعدما كنّا أعداء، أصبحنا بموت المسيح

---

71 المطران ميشال حكيم، إصفح واطلب الصفح، منشورات طريق المحبّة، ٢٠٠١، ط ١، (١٤*٢٢،٥)، ١٥٤ صفحة؛ أنظر : صفحة ٦.

72 المرجع نفسه، ص ٦.

73 المرجع نفسه، ص ٨.

الذي به صَالَحَنا مع ذاته، أحبّاء: "فإنْ كنّا، ونحن أعداء، قد صَالَحَنا الله بموتِ ابنِه، فكم بالأحرى، ونحن مُصَالَحون، نَخلُصُ بحياته" (رو ٥ / ٩-١٠)، وبعدما كنّا خطأة عاصين، وأثمة مذنبين، أصبحنا، بصفحه عنّا، قدّيسين، بلا عيب ومن دون شاكين علينا : "قد صالحكم الآنَ في جسده البشريّ بموته، ليُقيمَكم في حضرته قدِّيسين، لا عيب فيكم، ولا شكوى عليكم" (قول ١ /٢٢).

وعلى المؤمنين بالمسيح أن يأخذوا على عاتقهم ما صنعه الله بالمسيح من أجلهم، فيصنعوا بالآخرين ما صنعه معهم. وعليهم، بالتالي، القيام بمهمّةٍ تكاد تكون سرًّا من أسرار الخلاص، ألا وهي "خدمة المصالحة" (٢ قور ٥ /١٨)؛ لأنَّ الله نفسَه "جعل فينا كلمة المصالحة" (آ ١٩)، وحمّلنا رسالة المصالحة،حتّى أصبحنا له بها "سفراء المسيح" (آ٢٠).

ويبقى علينا أن نسمع نداء الله، ونلبّي مبادرته، ونتجاوب معه، ونسمع الرسول يحثّنا قائلاً: "نناشدكم بالمسيح، تصالحوا مع الله" (آ٢٠).

وثمّة مصالحة أخرى، أبرمها المسيح بدمه، هي مصالحة الخليقة بعضها مع بعض، هي "مصالحة للعالم"[74]؛ بل مصالحة عامّة تشمل الكون كلّه، الأرض والسماء، وجميع الخلائق، الملائكة والنّاس. إنّها مصالحة كونيّة شاملة، "كلّ شيء... ما على الأرضِ كان أم في السموات" (قول ١ / ٢٠).

74 ٢ قور ٥ / ١٩؛ رو ١١ /١٥.

وثمّة أيضاً مصالحة بين اليهود والوثنيّين، فيصبح العالم كلّه، بجميع فئاته، شعباً واحداً، وعلى قدم المساواة. لقد أنهى المسيح، بدمه، عهد البغض، وأصبح الكلّ فيه وبه جسداً واحداً : "هو جعل الإثنَين واحداً... ليخلق الإثنين فيه إنساناً واحداً جديداً، مُنشئاً بينهما سلاماً. ويُصالح مع الله كليهما في جسدٍ واحد بالصليب، قاتلاً به العداوة" (أف ٢ /١١-٢٢). هذه المصالحة تمّت حقًّا في جسد المسيح (قول ١ / ٢٢).

٢

إذا كان "الصفح" هو الموقف الحقيقي لله من الإنسان، فإنّ التوبة هي أيضاً الموقف الحقيقي لكلّ مَن يخطأ ضدّ مشيئةِ الله الخلاصيّة التي ظهرتْ وتمّتْ في المسيح. وإذا كانت الخطيئة، في معناها الحقيقي، تقوم ضدّ خلاص الآخرين، فـ "التّوبة" الحقيقيّة إنّما تكون أيضاً من أجل خلاص الآخرين. إنسانٌ لا يتوب إلى الله عن خطيئته، هو إنسان لا يعرف الله. وإنسان لا يصالح أخاه هو إنسانٌ لا يُحبُّ أبداً. ومَن لا يُحبُّ أخاه لا يُحبُّ الله حتماً. وليس من حياة مسيحيّة حقّ إنْ لمْ تقمْ على المحبّة، أي على التوبة والمصالحة والصفح. هذا هو سرّ المسيحيّة بتمامه :

لقد كانت صلوات المسيحيّين قديماً، والصلوات الرهبانيّة، بنوع خاصّ، تتمحور حول التوبة وطلب الصفح والغفران عن الآثام. أمّا اليوم فقد أصبحتْ أناشيدَ وترانيمَ وتراتيلَ وأشعاراً تعبّر عن حالاتِ وجْدٍ نفسانيّة، أكثر منها عن حالاتِ إنسانٍ خاطئٍ يطلب من الله الرحمة

والصفح والغفران.

لقد كانت التوبةُ البابَ الأمين لدخولنا في علاقةٍ حميمة مع الله. وكنّا نقدِّم لله، من أجل ذلك، القرابين والابتهالات ليمحو آثامَنا، ويرحمَنا، ويقويّ ضعفنا، ويشفي جراحنا. ولم يكن لدينا متعيِّداتٌ تميِّز قدِّيساً عن آخر، ولا صلواتٌ تُتلى بحسب دورات السنة الطقسيّة، ولا مدائح، ولا أمجاد... لقد كانتِ التوبةُ بابَنا إلى القداسة، وطلبُ الصفح والغفران من أوليات حالاتنا الروحيّة.

تكاد صلواتُنا اليوم تخلو من أيّةِ إشارةٍ إلى التَّوبة؛ وكأنّنا أصبحنا كلّنا وبكلّيتنا أطهاراً أبراراً. نقف أمام الله وقوف النّدّ للندّ؛ ونتقدّم من تناول جسدِ الربِّ ودمِه، من دون "أن نُحَاسِبَ أنفسَنا" (١ قور ١١ / ٣١)؛ وكأنّنا أصبحنا من دون خطيئة؛ ومن دون حاجة إلى توبة، أو إلى صفحٍ وغفران. وفاتنا أنّ: "مَنْ يأكُلُ خبزَ الربِّ ويشرَبُ كأسَه، وهُوَ غيرُ أهْلٍ، يُذْنِبُ إلى جسدِ الربِّ ودمِه... مَنْ يأكلُ ويشرَب، وهُوَ غيرُ ممَيِّزٍ جسدَ الربِّ، يأكلُ ويشربُ دينونَةً لنفسِه" (آية ٢٧ و٢٩).

٣

إنّ صفْحَ الله عنّا لا يستند إلى ما نقوم به من أفعالِ توبة، وإنّ الله لا يمنح الصفح بسببِ أنّنا غيّرنا رأينا، وتبنا، وبكينا، ورجعنا إليه... لسنا نحن الذين نغيّر في طبيعة الله، أو في علاقته بنا. ألله هو الذي يغيّر موقفَه منّا، بحسب كثرة رحمته، لا بحسب بكائنا وارتباك ضميرنا. وحده يسوع المسيح، ابنُ الله، "الوسيط الوحيد" بيننا وبين الله، الذي

بادرَنا بمحبّته. وغيّر مواقفَ الله منّا.

إنّ الإنسان، إذا ما تُرك إلى ذاته، لا يسعه أن يغيّر في طبيعة الله. ألإنسانُ، بحسب طبيعته، ذاهبٌ حتماً إلى الفناء... وإذا ما كان له أملٌ في بقاء أو خلاص، فهذا الأمل لن يكون من ذات طبعه؛ بل من دفْعٍ خارجيٍّ، أي من الله ذاته. سيكون له ذلك تحوّلٌ حاسمٌ، يعود الفضل فيه إلى يسوع المسيح، الذي يعطي لأعمالِ الإنسانِ التكفيريّة قيمةً خلاصيّة.

إنّ الله لا يغيّر في مواقفه إلاّ بفضل عمل يسوع المسيح الخلاصيّ. لهذا، ما من خاطئٍ يسعه الحصول على الصفح الإلهي إلاّ باتّحاده بيسوع المسيح. لقد أعلنَ الله عن محبّتِه لنا، فأوحى عن ذاته في يسوع المسيح، وأحبَّنا حبًّا مجّانيًّا من دون شروط فرضها علينا مسبقاً. فلكأنّ الله، منذ الأزل، وبطريقة دائمة ومستمرّة، يُحبّنا، يصفح عنّا، ويصالحنا مع ذاته.

٤

لقد علّمنا يسوع أن نصلّي هكذا: "إغفرْ لنَا ذنوبَنا كمَا نَحنُ نَغفرُ لمَن خَطِئَ إلينَا". حركتان متكاملتان متساويتان. فلكأنّنا بهذا، أي بالصفح عن سوانا، نتساوى مع الله، بل لكأنّ الله، في صفحنا عن سوانا، طوعُ مشيئتنا، لا نحن رهْنُ مشيئته: إنْ نحنُ غفرْنا يغفر هو. وإنْ نحنُ لمْ نغفرْ لا يغفر هو. ألمبادرة، هذه المرّة، وهذه المرّة فقط، هي منّا لا من الله.

هذا يعني أنّ صفْحَ بعضنا عن بعض هو الوسيلة إلى الله. والوسيلة هي الأولى في الترتيب الزمني؛ فيما الغاية تأتي في النهاية. أي: ألإنسانُ قبل الله، والله بعد الإنسان. هكذا شاء الله عندما "تخلّى" عن ألوهيّته من أجل الإنسان، في تجسّده، وموته. فلِمَ نحن حريصون على الله أكثر من حرصنا على الإنسان؟!

ألم يعلّم يسوع أنّ المصالحة مع الإنسان أَولى من القرابين والذبائح ومن الله نفسه؟ ألم يقلْ: "إنْ جِئتَ تُقرِّبُ على المذبَحِ قربانَكَ، وذَكَرتَ لإخيكَ شيئاً عليكَ، فَدَعْ هنالِكَ قربانَكَ، وبَادِرْ فَصَالِحْ **أوّلاً** أخاكَ، ثمَّ عُدْ، وقَرِّبِ القربانَ" (متى ٥ / ٢٣-٢٤)... صحيح أنّ الله هو الذي يبادر فيعطينا الإيمانَ والخلاصَ والمحبّةَ والغفران... ولكنّنا نحن نبادر بمحبّة إخوتنا ليعطينا الله ما يُعطينا من إيمان وخلاص ومحبّة وغفران.

إذا كان الصفحُ من بقايا الله فينا، فإنّ دخولَنا ملكوت الله لن يكون من دون صفحنا عن إخوتنا. لهذا نقول: لا يسعنا دخول ملكوت الله من دون أن يكون فينا شيء من الله. ألفاني لا يرث غير الفاني؛ وإذا كان الفناء من جبلتنا وكينونتنا، فكيف نخلد إذاً؟! ألصفْح عن إخوتنا هو باب خلودنا.

لقد أشرَكَنا يسوع بطبيعة الله، وترك لنا روحَه وروحَ أبيه، ليُبقي فينا شيئاً من الألوهة، فـ "الرّوح القدس" هو الذي يتولّى تقديسَنا،

وخلاصنا، وقيامتنا، وسعادتنا، وخلودنا. من دونه لا قداسة، ولا خلاص، ولا قيامة، ولا خلود، ولا ملكوت... والرّوح القدس هو هو روح الحقّ والصفح والمصالحة.

ألله أحبَّنا جميعَنا، فخلقنا، وخلّصنا، وأشركنا بذاته؛ وأعطانا، لكي نشاركَه بطبيعته، أن نحبَّ بعضنا بعضاً، كما هو أحبّنا. فالمحبّة واحدة، هي الله، هي مشاركة الجميع في طبيعة الله. من هنا يشاء الله خلاصَ جميع الناس. "بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي إذا كنتم تحبّون بعضكم بعضاً" (يو ١٣ /٣٥).

فنحن مسيحيّون، لا لأنّنا ننتسب إلى المسيح فحسب؛ بل لأنّنا، به، أصبحنا مثله. فإذا كنّا نحيا في المسيح، ومن أجله، فهذا يعني أنّه هو ونحن أصبحنا واحداً. ألم يشر بولس إلى هذه الوحدة الكيانيّة بيننا وبين المسيح، عندما قال بأنّنا بالمسيح نعتمد، وبه نموت، وبه نحيا. كيانٌ واحد بيننا وبينه؛ وبين بعضنا بعضاً. بهذا يصبح الله كلاًّ في الكلّ. ولا شيء يبقى خارجاً عنه.

٥

هذه المصالحة، التي بادرها الله بذاته، وتجاوب الإنسان معها، تقوم بها الكنيسة نفسها؛ إنّها تسهم مع الله، وتساعد الإنسان.. فتقدّم باسم الله الوسائل الروحيّة الفاعلة لهذه المصالحة؛ وترفع الإنسانَ من خطيئته، وتهبه سبل الخلاص والسعادة. وقد تكون مهمّتها المزدوجة هذه مهمّتَها الفريدة.

تفعل الكنيسةُ ما تفعل بكونها أمّ، ومعلّمة، وشاهدة، ومربّية : فهي تُقيم الصلوات من أجل ذلك، وتقدّم القرابين، وتسترحم الله، وترسم الأسرار، وتعمل على ازدياد الخير والقداسة في العالم، وتعمل على خلاص البشر أجمعين. وقد أولاها مؤسّسُها مفاتيح الملكوت لتُدخل فيه أبناء الإيمان.

ميزة الكنيسة الأساسيّة أن تكون أمينةً على "خدمة المصالحة"، مصالحة الإنسان مع الله، ومصالحة الإنسان مع أخيه الإنسان. في الكنيسة يجتمع البشر، بمختلف ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم. فيها يجد الخاطئون ملاذَهم. وفيها ينال الذين يشاءون القداسةَ قداسةً.

والكنيسة تضع يدَها على الخطيئة، وتحدّد كيفيّة التوبة عنها، وكيفيّة القصاص ونوعيّته؛ لأنّها، هي أيضاً، أُصيبتْ بالخطيئة ونال الشرُّ من قداستها. لهذا تفرض على الخاطئ الإقرار بخطيئته، والكفّارة عنها ليتصالح معها ومع الله على السواء.

جاء في قانون الكنيسة العامّ : "بالاعتراف الفرديّ الكامل، والحلِّ وحدَهما تقوم الطريقةُ العاديّةُ التي يستطيع بها المؤمن الذي يعي أنّ على ضميره خطيئةً ثقيلةً أن يتصالحَ مع الله والكنيسة"[75].

---

75 مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة (م.ق.ك.ش.)، قانون ٧٢٠، البند ١.

وجاء في تعاليم الكنيسة أنّ صورةَ الله إنّما نراها، على حقيقتها، في الإنسان الآخر، وأنّ الإنسانَ إذا ما خدم قريبَه فإنّما يخدم يسوع المسيح نفسه.

يقول المجمع الفاتيكاني الثاني : "ولكي تعلو ممارسةُ المحبّة على كلّ نقدٍ، وتظهر على حقيقتها، يجب أن نرى في القريب صورةَ الله التي خُلق على مثالها... وصيّة المحبّة هذه نحو القريب جعلها المسيح وصيّتَه الخاصّة، وأغناها بمعنى جديد، إذ أراد أنْ يكونَ هو وإخوته معاً موضوع المحبّة، فقال: "كلّما فعلتم لأحد إخوتي هؤلاء الصغار فلي فعلتموه" (متى ٢٥ /٤٠)[76].

لهذا، تعلّم الكنيسة أنّه "من واجب الأهل أن يهيّئوا أبناءهم في العيلة، ومنذ نعومة أظفارهم، لأنْ يعرفوا أنّ الله أحبّ النّاس بأسرهم، ويعلّموهم شيئاً فشيئاً، ولا سيّما بمثلهم، أن يهتمّوا لحاجات القريب، المادّيّة منها والرّوحيّة"[77]...

ويشدّد المجمع على أنّ "حضور المسيحيّين في الجماعات الإنسانيّة يجب أن يكون منفوحاً بتلك المحبّة التي أحبّنا بها الله الذي يريد أن نحبّ بعضنا بعضاً بالمحبّة ذاتها (رَ : ١ يو ٤ /١١). فالمحبّة

76 قرار مجمعي في رسالة العلمانيّين، عدد ٨.

77 المرجع نفسه، عدد ٣٠.

المسيحيّة تمتدّ حقًّا إلى الجميع دونما تمييز في العرق والوضع الاجتماعي، أو الديني، كما أنّها لا تنتظر أيّ مكسب أو عرفان بالجميل. فكما أحبّنا الله حبًّا مجّانيًّا، كذلك فليوجّه المؤمنون اهتمامهم إلى الإنسان بحدِّ ذاته، إذ يحبّونه بالدافع نفسه الذي حدا الله إلى أن يبحث عن الإنسان"[78].

وحتّى الإنسان التائب يقبل الصفح من الله، لا عمّا أساءَ إليه فحسب؛ بل عمّا أساءَ إلى الكنيسة والجماعة وكلّ فردٍ فيها : "وأولئك الذين يتقدّمون من سرّ التوبة يتقبّلون فيه من رحمة الله غفراناً عن الإساءة التي ألحقوها به، ويتصالحون، في الوقت عينه، مع الكنيسة التي جرحوها بخطيئتهم، والتي تدأب على توبتهم بالمحبّة، والمَثل، والصلاة"[79].

٦

هذان التوبة والصفح لن يكونا للمسيحيّ من دون نعمةٍ خاصّةٍ يعطيها الله له مجّاناً. يقول المجمع: "**فما من أحد يُعتق من الخطيئة بنفسه وبقواه الذاتيّة**، ويُرفع إلى فوق ما هو عليه. ما من أحدٍ يتحرّر تحرّراً كاملاً من وضعه، أو عزلته، أو استعباده. بل جميعهم بحاجة إلى

---

78 قرار مجمعي في نشاط الكنيسة الرسولي، عدد ١٢.

79 دستور عقائدي في الكنيسة، عدد ١١.

المسيح المثال والمعلّم والمحرِّر والمخلِّص والمحيي"[80].

والمبدأ هو " أنّ الحرّيّة الإنسانيّة التي جرحتْها الخطيئة لا تستطيع أن تسير نحو الله كلّيًّا وبطريقة فعليّة **إلاّ بمعونة النعمة الإلهيّة"**[81]. وقال أيضاً: "وحيث دبّ الفساد في نظام الأشياء نتيجة للخطيئة، يشعر الإنسان الذي يميل إلى الشرّ منذ ولادته بدافع جديد يدفعه إلى الخطيئة : ولن يتمكّن من التغلّب على ذلك إنْ لمْ يبذلْ جهوداً جبّارةً، **وإنْ لمْ تساندْه النعمة"**[82].

والحقّ يُقال، لولا يسوع المسيح لما كان الإنسان يعرف أنّ الله محبّة. لهذا يرفض الإسلام تعريفَ الله بالمحبّة، أو بالأبوّة. ولهذا يشدّد المجمع فيقول: إنّ كلمة الله، يسوعَ المسيح، " هو الذي كشف لنا أنّ "الله محبّة" (١ يو ٤ /٨)؛ هو الذي علّمنا بالوقت نفسه، أنّ الشريعة الأساسيّة للكمال الإنساني ولتحويل العالم هي وصيّة الحبّ الجديدة"[83].

ويعلّم أيضاً "أنّ السلام الأرضي الذي ينبع من حبّ القريب هو نفسه صورة ونتيجة لسلام المسيح الذي يأتي من الله الآب. فالابن المتجسّد ذاته، أمير السلام، صالح بصليبه الناس جميعهم مع الله، وأعاد

---

80 قرار مجمعي في نشاط الكنيسة الإرسالي، عدد ٨.

81 دستور راعوي في الكنيسة وعالم اليوم، عدد ١٧.

82 المرجع السابق نفسه، عدد ٢٥.

83 المرجع السابق نفسه، عدد ٣٨.

الوحدة بين الجميع في شعب واحد، وجسدٍ واحد، وقتل البغض بجسده، وأفاض روح المحبّة في قلب البشر بعد قيامته الظافرة"[84].

٧

إستناداً إلى هذه التعاليم، ابتدأت الكنيسة، بكونها تكمّل مسيرة المسيح، تمارس الصفح، وتطلب الصفح ممّن أساءتْ إليهم. وكان **البابا يوحنا الثالث والعشرون**، قبيل موته، يقول: "علينا أن لا نسأل مَن هو على حقّ، ولا مَن هو على ضلال. بل فلنتصالح". بهذا الكلام، فتحَ البابا البابَ واسعاً أمام خلفائه.

فجاء **بولس السادس** يقول: "إنْ كان هناك خطأ يعود إلينا في بدء الانفصال، **فإنّنا نطلب الصفح من الله، بكلّ تواضع، ومن الإخوة** الذين يعتقدون أنّنا أسأنا إليهم. أمّا من جهتنا، **فإنّنا مستعدّون لأن نصفح** عن كلّ الإهانات التي وجّهت إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، وأن ننسى الآلام التي عانتْها من النزاعات والانفصالات". وقال أيضاً : "إنْ كان من الممكن أن يبلغ إليكم صوتنا أيّها الإخوة الأباعد، فأوّل ما يجب أن يحمله إليكم **هو طلب الصفح. نعم يجب أن نطلبه منكم قبل أن نطلبه من الله"**.

84 المرجع السابق نفسه، عدد ٧٨.

أمّا **البابا يوحنّا بولس الثاني،** الذي يُعدّ بحقٍّ بطل الصفح في تاريخ الكنيسة، فيعبّر، منذ بدء ولايته ويقول : "إنّي، بصفتي خليفة للقديس بطرس، **أسأل الكنيسة خلال سنة الرحمة هذه أن تركع على قدمَيها أمام الله، تعضدها القداسة التي تنالها منه، سائلة إيّاه الصفح عن أخطاء ارتكبها أبناؤها عبر التاريخ**".

ويكمّل كلامه للإخوة المنفصلين فيقول: "إنْ كنّا لم نفهمْكم، أو كنّا رفضناكم بدون اكتراث، وإنْ لمْ نعبأْ بكم، ولم نكن معلّمين للروح واعين، وأطبّاء للنفوس، ولا قادرين على أن نتكلّم إليكم عن الله، كما ينبغي، أو عاملناكم بهزء وسخريّة، أو لجأنا إلى الجدل العقيم، **فإنّنا نطلب منكم الصفح**".

وفي رسالته، "إطلالة الألف الثالث" يقول : "**من العدل أن تتحمّل الكنيسة، بضمير واعٍ، في نهاية الألف الثاني، المسؤوليّة عن خطيئة أبنائها**، متذكّرة كلّ الظروف التي ابتعدوا فيها، في مجرى التاريخ، عن روح المسيح وإنجيله... وقد أحدثت شكًّا في العالم"[85].

85 إطلالة الألف الثالث، عدد ٣٣.

٨

أمّا الصفح في الحياة الرهبانيّة، في القوانين والتقاليد، فهو من أسسها ومن أوليات سيرة أبنائها. صحيح أنّه لا يوجد فصلٌ مستقلٌّ في القوانين الجديدة للرهبانيّة، يعالج وجوبَ الصفح، ولا أي قانون يعالجُ أمرَ راهبٍ لا يصفح ولا يرتدع عن إعلان غضبه، أو عن عدم رضاه عن مسؤولٍ في الرّهبانيّة، أو عن أخٍ له في الدَّير لا تنسجم طباعه مع طباعه.. ولكنْ، ثمّة نصائح تشير إلى أن "يعمل كلُّ راهبٍ على توثيقِ عُرى الإلفة والمحبّة مع إخوته... **وَيصفَحُ الإخوةُ بعضُهم عن بعضٍ بروحِ المحبّة**، ذاكرين جواب السيِّد لبطرس: "لا أقولُ لكَ سبعَ مرّات، بل سبعين مرّة سبع مرّات" (متى ١٨ / ٢٢)، وكلمة الرّسول: "لا تغرُبِ الشمسُ على غضبكم" (أف ٤ /٢٦)"[86].

هذا كلام رائع في ذروة الحياة الرهبانيّة والرّوحيّة والاجتماعيّة؛ ولكنّه كلامٌ لا يردع أحداً، ولا يُعاقِبُ مُزِلاًّ، ولا يحرم راهباً يقوم بنشرات مغفّلة، أو يتكلّم بحقِّ أحدِ إخوته، يسلب صيتَه أمام الناس، ويتلفّظ بكلامٍ غير لائق. ولا توجد أيضاً قوانين تلزم المسؤولَ

86 قوانين الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة (ق.ر.ل.م.)، سنة ٢٠٠٣؛ مادّة ٢١؛ راجع أيضاً : مادّة ٥٢ : يؤَمِّنُ المناخُ العائليّ في الحياة الديريّة المشتركة جوًّا ملائماً لِحفظِ العفّة. ويكونُ صونُها أسهلَ متى سادتِ المحبّةُ الصادقةُ بين الإخوة. فعلى الجميع في الدَّير الواحد، ولا سيّما الرئيس، أن يُسهموا في خلْق هذا الجوِّ، بإشاعة التفاهم والفرح والسّلام والثقة المتبادلة".

أخْذَ إجراءات كفيلة بردع كلِّ سالب صيت، أو قصاصات صارمةً بمن لا يمارس الصفحَ والغفران.

إنّ ما يقوم به راهبٌ لا يصفح يدخل في باب إحداث الشكوك والزَّلاَّت. والإنجيل واضحٌ في حقِّ مُحدث الشكوك ومسبِّبِ الزَّلاَّت: "ألويلُ لمن تأتي الشكوكُ على يده. خيرٌ له أن يُطَوَّقَ عُنُقُهُ برَحَى الحمارِ، ويُطرَحَ في البحر، من أنْ يُشكِّكَ واحداً من هؤلاءِ الصِّغار. فكونوا علَى حَذَر! إنْ خطِئَ إليكَ أخوكَ فأنِّبْه. وإنْ تابَ فاغفرْ له" (لوقا ١٧ / ١-٣).

وتذهب القوانين الجديدة أيضاً إلى "تذكير" الراهب بأنّ عليه أن يتوب كلَّ يومٍ إلى الله، ويعيش مع إخوته " **بروحِ التَّسامحِ والمصالحةِ والغفرانِ والمحبّة** ". تقول : "نتذكّرُ دائماً أنّ الرَّاهب يتوبُ كلَّ يومٍ إلى الله عن نفسه وعن النّاس. لذلك، نحتفل معاً بسرِّ التَّوبةِ، ونتجدّد بالرّوح القدس، ونعملُ على العيشِ معاً بروحِ التَّسامحِ والمصالحةِ والغفران والمحبّة"[87].

ولكنّ هذه المادّة تذكِّر ولا تفرض؛ تنصح ولا توجب؛ تعمِّم ولا تخصِّص؛ تشير ولا تأمر... ونحن، على ما يبدو، نحتاج إلى قوانين

87 رَاجع : م.ق.ك.ش. ٥٣٨ /٣؛ مادّة ٧٥.

رادعة بحقّ مَن يُفسد المحبّةَ الأخويّة والحياةَ المشتركة، ولا يعمل، بالكلام والفعل، "بروحِ التّسامح والمصالحة والغفران والمحبّة".

هذا، وإنّ القوانين تضرب صفحاً، في موادِّها الـ ٣٤٦، عن أيِّ ذكْرٍ لـ "سرِّ التوبة" ولا تفرض على راهبٍ ما تفرضه عليه من النذور والممارسات الدينيّة الأخرى؛ وكأنَّ هذه أولى من تلك؛ فيما نحن نرى بأنّ التّوبةَ كانتْ في صلواتنا الرهبانيّة، كما مرّ معنا، شغلنا الشاغل مع الله الذي نستغفره ليلَ نهار عن زلاّتِنا، ومع الإخوة الذين كنّا نركع أمامهم، كلّ مساء، إذا ما أخطأنا إليهم خلال النّهار.

ولكي نكون منصفين قليلاً في حكمنا، نشير إلى ما جاء في قوانيننا الجديدة حيث تقول :

"يحرصُ الرؤساءُ على تأمينِ المرشدينَ الرّوحيّين والمعرِّفين المؤهَّلين لجماعاتهم"[88]. وكذلك جاء في مادّة أخرى : "... على الرّئيس أن يُعيِّنَ معلِّمَ اعترافٍ للحبيس، ليُسعفَه في ترقّيه الرّوحي"[89].

نقول: إنّ المادّة الأولى هي أيضاً نصائح عامّة؛ والمادّة الثانية تلزم الحبيس فقط. ولا شيء عن التوبة كفضيلةِ الرّاهب الدائمة، ولا عن ممارستها في إطار سرّ الاعتراف، كما تعلّم ذلك مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة، في فصل خاصٍّ يتألّف من ١٩ قانون (٧١٨-٧٣٦)،

88 رَاجع : م.ق.ك.ش. ٥٣٩ /١؛ مادّة ٧٧.

89 ق.ر.ل.م.، مادّة ١١٤.

مع بنودٍ وتفاصيلَ عديدة[90]؛ وكذلك كما يعلِّم التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، في أمكنة مختلفة، وبنوع خاص في صفحاته ٤٢٩-٤٤٨، مع تفاصيل عديدة[91].

وما كنّا لنشدِّد على وجوبِ إدراجِ ما يتعلّق بالصفح والمصالحة، ويعود إلى سرّ التوبة والاعتراف، في قوانينا الجديدة، لولا حاجتنا الماسّة إليها، وضرورتها البالغة، بعدما وجدنا كثيرين من مسبِّبي الزَّلاَّت ومحدِثي الشكوك يسرحون ويمرحون بين الناس بألسنتهم السليطة ونشراتهم المغفّلة، وكلامهم البذيء بحقّ الآخرين، من دون رادع ولا حسيب.

" إنّ الحياة لا تروق لإنسان ينهش قلبَه بغضٌ وحقد... إنّ الحياة حبّ، والسّعادة تنبع من الحبّ، والصفح هو قمّة الحبّ"[92].

هذا وإنّ الصفحَ ليس ممّا يهون على طباع النّاس، مثله مثل محبّة الأعداء. كلاهما صعب؛ ولكنّ الله يمارسهما معنا من دون ملل. إنّه يصفح عنّا بالرغم من إهانتنا المتكرّرة له. فهو يصفح عنّا بعد كلّ

---

90 م.ق.ك.ش.، باب العبادة الإلهيّة، فصل ٤، في سرّ التوبة، ص ٤٠٢-٤١٢.

91 التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، راجع فهرس المواضيع، ص ٩١٠-٩١١ مادّة: توبة ومصالحة.

92 المطران ميشال حكيم، المرجع المذكور آنفًا، ص ٨.

إهانة له؛ ذاك لأنّه "ما من صفح إلاّ وتسبقه إهانة"[93].

93 المرجع السابق نفسه، ص ٦٧.

١٨

التجديد والتغيير في الحياة الرّهبانيّة

مقدّمة

١ . كلّ مرّة تُقدم مؤسّساتٌ دينيّة أو مدنيّة على عمليّة إنتخاب في إداراتها ومراكز المسؤوليّة فيها، فإنّها تُقدم، في الوقت نفسه، على عمليّة تجديد وتغيير وتطوير. صحيح أنّ الانتخاب يقع على الأشخاص، لا على الدساتير والقوانين والأنظمة الأساسيّة، إلاّ أنّ روح التجديد، التي يضعها هؤلاء الأشخاص في حكمهم وإدارتهم، قد تتخطّى ما ترسمه هذه الدساتير والقوانين والأنظمة.

٢ . ولولا التجديد هذا، الذي نتوخّاه في كلّ عمليّة إنتخابيّة، لما كان من تغيير الأشخاص فائدة. بل قد يكون الأفضلُ الإبقاءَ على أشخاصٍ اكتسبوا خبرةً وتجربةً ومهارةً في حكْمهم وإدارتهم. وأيّ مبرِّرٍ لدول العالم ومؤسّساته وأحزابه وجمعيّاته ونقاباته -مهما كانت هذه الدول متخلِّفة وبعيدة عن الديموقراطيّة- في أن تتكلّف مالاً وتهدر وقتاً، وتبدّل أناساً ذوي خبرة ومعرفة بأناس لا خبرة لهم ولا معرفة! لو لم يكن روح التجديد والتغيير والتطوير هو الهدف!

أوّلاً - التجديد والتغيير والتطوير حالة رهبانيّة

٣ . لقد مارستِ الرّهبانيّة عمليّة التغيير -أكان انتخاباً أم تعييناً- بطريقةٍ مألوفة ومنتظمة، منذ نشأتها. وكانتْ تغيِّر في الإدارات والمسؤوليّات العامّة والمحليّة؛ حتّى إنّ الفترةَ الزمنيّة لهذه الإدارات والمسؤوليّات كانت تُطبع بطابع المسؤول الأوّل فيها. فكان يُسمّى مثلاً عهد فلان أو فلان... وذلك للدلالة على أنّ الحياةَ والروح والأعمال والطابع المميّز لهذه الفترة من الزمن، كان يقوم بها فلان وفلان، لا القوانين والفرائض..

٤ . بهذا، كانت الرهبانيّة، خلال حياتها في الثلاثمائة سنة ونيّف، مثالاً لكلّ مؤسّسات الكنيسة والمجتمع، في التزام التغيير والتجديد والتطوير. وهذه كانتْ، في حقيقتها، صنيعَ الرهبان. بل كان الرهبان أهمَّ فاعلٍ في مجتمع خامل، وأكثرَ الناس عملاً ونشاطاً في عالم جامد لا يتغيّر بسهولة، ولا يتجدّد إلاّ بثوراتٍ وحركات إنقلابيّة، ولا يتطوّر إلاّ قسراً... ففي الرهبانيّات وحدَها تحدث ثوراتٌ بيضاء، بطريقة مألوفة. وهذا هو التجديد بكلّ معانيه.

٥ . في الرهبانيّة، يَعرف العارفون تمامَ المعرفة معنى التجديد والتغيير والتطوير. ففيها يرتقي أشخاصٌ، وينزل آخَرون. لا أحد ثابت في مُقامه ومكانته. ومراكز المسؤوليّة، أو الإدارة، لا يرتاح فيها أحد، ولا يُطمأَنّ إليها كثيراً. تزول سريعاً. ويزول معها كلُّ جاهٍ وسلطةٍ ومكتسباتٍ وألقاب. فقط في عالَمٍ يهوى العيشَ في الماضي

تستمرُّ الألقابُ بعد زوال المسؤوليّات. وبهذا، أصبح شأن بعض مؤسّسات الكنيسة، ويا للأسف، شأن أبناء هذا الدهر، يهوون الألقاب، ولو بعد زوال المسؤوليّات. فإذا كانتِ الحياةُ الرّهبانيّة تقوم أساساً على التخلّي والتجرّد، فما الحكمة، عند بعض أبنائها، بالاحتفاظ بما يميّزهم من ألقابٍ تشير إلى استمراريّتهم في أيّام غابرة يعيشون في حسرتها!!!

٦ . إنّ سنّة التجديد والتغيير هي من سنّة الموت والحياة. ولهذه السنّة، في المسيحيّة، أبعادها. تعاش في الرهبانيّة بكلّ معانيها. وكم كانت عظيمةً وفاعلةً هذه السنّة في الحياة الرهبانيّة عندما كانت "الولاية" ثلاث سنين، قابلة التجديد إذا ما كان "خادمُها" متجرِّداً وموضعَ ثقةٍ وذا ضعة، وذا عقلٍ خلاّق، وتعمر قلبَه محبّةٌ شاملة. ففي هذه الشمائل ما يبرهن على روح التجدّد والتغيير والتطوير.

٧ . تقدِّس الحياةُ الرهبانيّة مبدأ التجديد والتغيير والتطوير هذا. بل يعمل الرهبانُ له ما بوسعهم، وبكل طاقاتهم. ويرفضون، بشدّةٍ، كلّ مَن يقف بوجه حقّهم المقدّس هذا. وكم وقفوا، عبر تاريخهم، بوجه مَن يحاول سلب حقّهم في التجديد والتغيير والتطوير. أكان ذلك انتخاباً منهم، أم تعييناً عليهم. فلا بأس في الاحتمالَين، لأنّ الأهم في قاعدة سلوكهم هو التجديد والتغيير والتطوير.

ثانياً - عبرة من التاريخ

٨ . لسنا نبغي، من كلامنا هذا، النيلَ من مقاماتٍ كنسيّة تتدخّل فتعيِّن مَن تعيِّن، ويَقبل الرّهبانُ، عادةً، نتائج هذا التدخّل غيرِ المبرّر

أحياناً كثيرة. ولكنّهم، بصمتهم هذا ورضوخهم للأمر الواقع، يبقى مبدأ التجديد والتغيير والتطوير سالماً. أي إنّ مبدأ التغيير والتجديد كان مصاناً؛ بالرغم من تدخّلاتٍ سافرة وتعيين غير مبرّر.

التاريخ، الذي لا يَرحم، لم يسجّل مرّة تراجعاً عن هذا المبدأ، حتّى ولو أدّت سلامتُه إلى انتفاضاتٍ، وانقساماتٍ، ومجامعَ صاخبة وحادّة... لقد آثر الرهبان، عَبر تاريخهم، قسمةَ الرهبانيّة مراراً على أن يضحّوا بمبدإ التجديد والتغيير هذا.

٩ . ما جرى في تاريخ الرّهبانيّة من تدخّلات سافرة من قِبل سلطاتٍ كنسيّة، محلّيّةٍ أو رومانيّة، يفرض علينا تقويمه، والسكوت عنه بدعة، وعدم تقويمه بميزان التاريخ الرهباني بدعةٌ أعظم. لا يمكننا القول بأنّ كلَّ ما جرى كان على ما يرام. فبعضه كان سيِّئاً، وبعضه الآخر جيِّداً. السيِّئ أسلوبٌ إنتخابيّ، أو تعيينٌ فُرض علينا؛ والجيّد مبدأ التجديد والتغيير الذي استمرّ مصاناً.

ثالثاً - الجديد في الأشخاص

١٠ . يكون العهد الجديد جديداً، لا بتغيير أشخاص بأشخاص، بل بتطلّعاتٍ جديدة، وأسلوبٍ جديد، ورؤى مستقبليّةٍ واضحة، ومواكبةِ كلّ مستجدّ ومستحدث في العالم، واقتناصِ الغيب، ومعرفةِ أسرار الكون، وإرساءِ قواعدَ ونظمٍ متطوّرة، ورقيٍّ مضطرد، وغوص في العمق، عملاً بقول الربّ: "إنزحوا إلى الأعماق"، حيث الدرر والصيد العجيب.

١١ . يكون العهد الجديد جديداً إن كان مستقلاًّ حرّاً. له رأيُه وموقفه وشخصيّته المميّزة. فهو متبوع لا تابع. يملي مواقفه على الغير، ولا يحقّ لغيره أن يملي عليه رأياً. ليسَ محكوماً بمديح أحد، إنْ لم يشأ الوقوف بوجه أحد. له من تاريخ رهبانيّته ما يكفيه ليُلقي على الكبير والصغير دروساً في الوطنيّة والسياسة واللاّهوت والاجتماع والتربية وغير ذلك. في هذه كلّها له الأمر، وعلى سواه طلب مشورته.

١٢ . يكون العهد الجديد جديداً إن كان له اهتمامٌ بالغ وعنايةٌ فائقة بإعادة النظر في القوانين والفرائض، بطريقة دائمة... مصلحةٌ الرهبانيّة الكبرى أن يكون لها قوانين وفرائض جديدة، حديثة، رائدة، في كتاب. بموجبه تسير الرّهبانيّة، رؤساء ومرؤوسون. به يتقدّسون. وبه يفتخرون. وإليه يرجعون. ومنه ينهلون. وعليه يترهّب طالبو الحياة الرّهبانيّة.. وثمّة كتاب آخر في تاريخ الرهبانيّة وتقاليدها. فالكتابُ وسيلةٌ للمعرفة، ونهجٌ لمن يبتغي المسيرةَ بوضوح.

١٣ . يكون العهد الجديد جديداً إنْ كان همّه وشغله الشاغل ناشئة الرهبانيّة، في مراحلها جميعها. وعلى كلّ عهدٍ جديدٍ في الرّهبانيّة أن يعيد النّظر في برامج التربية كلّها. كثيرون منّا باتوا يخشون من المستقبل، لأنّ العِيالَ المارونيّة، التي هي مصدر الدّعوات الرّهبانيّة، أصبحت مقتصرةً على ولد أو اثنين فقط. هذا الاقتصار ينعكس سلباً، ليس على الرهبانيّة فحسب، بل على الكنيسة والوجود المسيحي في لبنان وفي الشرق.

١٤ . يكون العهد الجديد جديداً إنْ غيّرَ كلماتٍ أرْكائيّة، غير مسيحيّة ولا رهبانيّة، ووضع مكانها كلماتٍ أكثر مناسبة. ثمّة كلماتٌ دخلت في قاموسنا الرّهبانيّ، بلا وعيٍ منّا. لا يستسيغها ذوقُ مؤمن، مثل: سلطة! ورئيس! ومدبّر، ورسوم (المقصود بها الفرائض)، وغيرها... وكلمات أخرى أساسيّة بات ملحّاً علينا تحديدها مجدَّداً، مثل: الفقر، والطاعة، والعفّة، والدّير، والرسالة، والإماتة، والصلوات الفرضيّة، والمحبّة الأخويّة، والحصن، وغيرها... وألقاب يحتفظ بها مَن انتهى من خدمته، مثل: الأبّاتي، والمحترم، وما إلى ذلك... تحديد بعض هذه الكلمات، وإلغاء بعضها، وإحداث أخرى، هو من مبادئ التجديد والتغيير. إنّ إطلالة الألف الثالث، و"نظام العالم الجديد"، و"العولمة"، واستكشاف الكواكب والمجرّات، وكشف أسرار البشر مِن على شاشات الكمبيوتر والأنترنيت... كلّها يجب أن تنسجم مع مبدإ التجديد والتغيير والتطوير.

١٥ . على العهد الجديد أن يُقنع المشكِّكين وعميان البصيرة بأنّ في الرهبانيّة قداسة واضحة، وروحانيّة عميقة، وسلاماً ووئاماً، واتّفاقاً ومحبّة.. لا يوجد في الرهبانيّة "معارضة"، ولا "خطر الانقسام"، كما أوحت بذلك بعض كلماتٍ من مسؤولين. نعم قد يوجد "معارضة" بمعنى التنافس والغيرة على مصلحة الرهبانيّة. أمّا معارضة بمعنى "مقاطعة العهد"، والعمل على إزاحته، كما هو معناها في العالم، فهذا لا مكان له في الرّهبانيّة.. وفي كلّ حال، لا ينتظر مَن هم في مراكز المسؤوليّة أن تكال لهم المدائح والمباخر.

١٦ . إنّ الرهبانيّةَ لا تنظر إلى العهود المتتالية نظرةَ تبديلِ أشخاصٍ بأشخاص، بقدر ما تنظر إلى التجديد والتغيير والتطوير في كلّ شيء. فالزمان يسير، والحياة تتقدّم، والتغيير سنّة الحياة، والعلم ساحبٌ بالإنسان نحو عوالم جديدة، والقداسة ليست على نمطٍ واحد، والقوانين ليست كتاباً مُنزَلاً، والفرائض تتغيّر بتغيّر الأعمال والمهمّات، والكلمات تَكتسِب، مع تطوّر الحياة، معانيَ جديدة مغايرة متطوّرة، وحتّى النذور باتتْ خاضعة لمفاهيم جديدة...

١٧ . فهل يُشعرنا العهد الجديد، بأنّ الأرض تهتزّ من تحتنا، والسماء تتكشّف باستمرارٍ عن نجوم ومجرّات جديدة! والكنيسة أسّسها ربّنا لتواكب العلم والإنسان، والرهبانيّة تتخطّى العالم والأنظمة الجامدة بمسؤولين هم خدّام لا رؤساء!.. لا تكونُ رهبانيّةٌ، في عالَم اليوم، إنِ استمرّت في حنينٍ إلى البدايات. رهبانيّة اليوم تطلّعٌ وارتقاءٌ وتجدّدٌ وتطوّر ورقيٌّ دائم.

رابعاً - التقليد والتجديد في الرّهبانيّة

١٨ . التقليد هو ذاك التراث الثقافي والروحي المتراكم، منذ أجيال، في إرثِ الكنيسة والمجتمع. إنّه الحاوي على الكنوز الفكريّة والروحيّة والاجتماعيّة لكلِّ مؤسّسة من مؤسّسات الكنيسة والعالم؛ والمستمرّ في وجدان أبنائها؛ والفاعل في وعيهم وفي لاوعيهم؛ والجاعل لها موقعَها ومكانتَها في العالم.

هذا التراث هو من مكتسبات المؤسّسات عبر الدهور، ومن اختبارها الغنيّ المتواصل. هو روحها، وثقافتها، وقدس أقداسها، وحياتها في العالم، ومكانتها بين الشعوب. لولاه لكانت هذه المؤسّسات فقيرة، بائسة، من دون كنوز، أو مخزوناتٍ، ووثائق، وآثار من الآباء والأجداد، بل من دون فكر يُسيّرها.

وبوسعنا القول إنّ التقاليد المعاشة هي التاريخ المستمرّ، بل هي المؤسّسة حيّة في مؤسّسيها وأجدادها وآبائها وأبنائها. هو هذا الذي يضفي عليها غنى وقداسة وفكراً ومكانةً في العالم.

١٩ . في كلّ مؤسّسة "عهد قديم" و"عهد جديد" تماماً كما هو شأن كلام الله مع البشر. إنّه في عهدَين متكاملَين، ولو مجموعَين في "كتاب" واحد. غير أنّ القديم قديمٌ، والجديد جديد. والأخذ بالقديم على حساب الجديد جمود؛ والأخذ بالجديد من دون القديم انقطاع وضياع. إلاّ أنّ في الجديد جديداً، وفي القديم ما ييجب ألاّ يبقى، وإلاّ لما نفعنا جديدُ الجديد شيئاً.

هذه هي حياة كلّ مؤسّسة. وعبقريّتها تكمن في أن تأخذ بالجديد من دون التخلّي عن القديم؛ أن تتطوّر بالجديد من دون أن تطمئنّ إلى القديم؛ أن تتحرّر بالجديد من دون أن يثقلَها عبءُ القديم؛ أن تتقدّس بالجديد من دون أن تلغي القديم.. الاثنان: "القديم" و"الجديد" في الكنيسة في "كتاب مقدّس" واحد. ولهذا قال يسوع: "ما جئتُ لأُلغي بل لأكمّل" (متى ٥ / ١٧).

ولكنّ القديم، مهما كانت قدسيّته، يبقى قديماً؛ والجديد هو المعوَّل عليه، وهو الذي يتضمّن عوامل القداسة والكمال. وإذا كان للقديم من قدسيّة، أو من كمال، فبسبب الجديد، ذاك لأنَّه يضع الجديدَ في أطره التاريخيّة والجغرافيّة والأدبيّة والعلميّة والحضاريّة والثقافيّة. ولولا هذه الأطر لما فُهم من عمل الله الخلاصي في المسيح شيء.

مشروع الله للبشريّة هو إرسال ابنه لخلاصها. هذا هو جديده المتجدّد دائماً. والقديم كان إعداداً وتهيئة ومقدِّمات للمشروع الذي تمّ واكتمل بالمسيح. فالقديم، على ما يقول القديس بولس، أوصلنا إلى المسيح، ثمّ انتهى دوره. والمسيح أتى. وعلى القديم أن يزول، أو أن يلزم حدَّه، لأنّه بلغ أهدافَه.

وبتعبير آخر: مَن امتلكَ الجديد يمكنه التخلّي عن القديم؛ لأنّ الجديدَ يتضمّن القديم. ويكفي وحده. إستمرار القديم قد يشكّل عبئاً، ويعرقل المسيرة، وقد يضع على القديم برقعاً فلا نعود نرى من خلاله ما جاءَ لأجله. الباحِثون والمنقِّبون يَرجعون إلى القديم . أمّا طالبو الحياة والتطوّر والتغيير، فلا يستفيدون من القديم إلاّ معلومات.

المسيح، الذي جاء منذ أكثر من ألفَي سنة، كاد أن يكون من القديم لولا هذه الحقيقة القاطعة، ألا وهي أنّ المسيح حاضرٌ، حيٌّ، مستمرٌّ إلى مدى الدهور. فهو يتجسّد دائماً، وفي نزاع دائم، وموت دائم، وقيامة دائمة. إنّه حيّ حاضر موجود، بلحمه ودمه، بفعلِ روحه. ومَن يقول بأنّ المسيح كان منذ ألفَي سنة كافرٌ هو. فالمسيح حاضر حيّ

فاعلٌ مستمرٌّ في وجوده وحضوره وفعله في العالم وفي البشر.

القديم، في المسيحيّة، أصبح، مع المسيح، متداخلاً في الجديد، وموجوداً في كلِّ تطوّرٍ للإنسان. المسيح هو هو، اليوم، وأمس، وغداً. ولكأنّنا بهذا نقول : إنّنا مع المسيح أصبحنا أحياء، متجدِّدين، والسماء والأرض أيضاً به تتجدّد. ولا شيء يفنى بسبب المسيح الحيّ المنتصر على الموت، وهو على هذه الأرض. وبسبب المسيح أيضاً، لا يجوز لنا أن نبقى في القديم أبداً. والويل لمن يستمرّ يتحمّل أوزار أبيه آدم وأمِّه حوّاء. حسبنا المسيح.

٢٠ . إنّ الطقوس الليتورجيّة، والصلوات المكتوبة، والاحتفالات المنظّمة، والموسيقى الرتيبة، والألبسة الدهريّة، وأنماط الحركات من جلوس وركوع وقعود.. كلّ هذه تخلق، من دون شكّ، ترتيباً وتنظيماً رائعَين؛ ولكنّها، من دون شكٍّ أيضاً، لا تخلق روحانيّةً، ولا تساهم في قداسة أحد. إنّها تقليد، لا بمعناه التراثي، بل بمعناه الرتيب. إنّه حالٌ يكتسبها الإنسان ويعتادها. فهو، بالتالي، حالُ إفقار، وضجر، وبلادة، وجمود.

ترى الذين يواظبون على الصلوات الليتورجيّة المنظّمة، في الصباح، قبل أيّة حركة أو رياضة، وفي المساء، بعد نهارٍ صاخبٍ ولقاءات واستقبالات، يمارسون واجباتهم برتابة وضجر وتعب، حتّى لتكاد تحكم بموت الإيمان فيهم. قلّة تعي ما تقوم به، ونسبة ضئيلة جدّاً تجاهد لاستعادة وعيها وانتباهها ويقظتها.

إنّي أتأمّل في حبساء الرهبانيّة الذين أمّوا المحابس للابتعاد عن الحياة العاديّة في الدير، فأجد عندهم انتفاضةً على الحياة الرتيبة، والتقليد المتحكّم بإخوتهم. لقد ألّف هؤلاء الحبساء الصلوات والتأمّلات، ومارسوا العبادات أحراراً من كلّ تقليد. كان لا يهمّهم ممارسة الاحتفالات التقليديّة المرتّبة والرتيبة، لأنّها تفقرهم وتعرقل مساعيهم نحو الهدف المنشود.

وكم من الصوفيّين في الإسلام تحرّروا حتّى من الشرائع المفروضة، لاعتبارهم أنّ في الشريعة باطناً وظاهراً : الباطن يخصّهم، والظاهر يخصّ العامّة. وهو دليل آخر نأخذه من اختبارات الشعوب، للقول بأنّ الظاهر، والشريعة، والتقاليد هي لعامّة النّاس؛ فيما المبتكرات والمستحدثات للخاصّة منهم. الصلوات المكتوبة، والاحتفالات المنظّمة، والفرائض الواجبة هي للعامّة لا للخاصّة. الخاصّة تقدّموا في اختبارهم الروحي، وتخطّوا شؤون العامّة، وغاصوا بعيداً في أسرار الله والأمور السماويّة؛ فيما العامّة لا يزالون في العموميّات وبسائط الأمور.

لقد قال الربُّ يوماً لرسله : أتركوا الجموع على شاطئ البحيرة؛ وانزحوا أنتم معي إلى العمق، حيث الدرر والصيد العجيب، وحيث تستطيعون أن تعرفوا حقيقتكم، وتكشفوا خطيئتكم، فتنالوا عليها الغفران. الأعماق هي للخاصّة، أمّا الشواطئ فهي للعامّة. والذين

يستحقّون اتّباع الربّ عليهم النزوح إلى العمق. الأمور التقليديّة والعاديّة هي للجموع؛ أمّا الأسرار العميقة فهي لمن نزح وغاص واكتشف أسرار أعماق الله.

١٩
ألخلق والخلاص والحياة الرّهبانيّة

١. ألله هو الخالق على الإطلاق. لا خالق سواه. خالق كلّ شيء، ما يُرى وما لا يُرى. لا شيء كان قبله. خالق الكون كلّه من لا شيء. ولا شيء يستمرّ في الوجود من دونه. ألخلقُ صفة الله الأولى.

٢. صفة الخلق هذه، قال بها كلُّ مؤمنٍ بوجود إله. وقالت بها أديان الناس كلّها. وما سواها من صفات اختلف فيها المؤمنون: فالمؤمنون ليسوا كلّهم يؤمن بعناية الله بمخلوقاته، أو بإمكانيّة محبّته إيّاها، أو بأبوّته الإلهيّة لها.. وليسوا كلّهم يؤمن بإلهٍ مخلّص، أو بإله يعاقب المخالِفين بنارٍ أبديّة، أو بإله أوجد الشرّ والخطيئة والألم والمرض.. وليسوا كلّهم يؤمن بالوحي والنبوّة، وبإرساله رسلاً وأنبياء، وبإنزاله كتباً من السماء.. وليسوا كلّهم يؤمن بأنّ الله بوسعه الدخول في تاريخ البشر، والتزامه حالَ الإنسان، وعيشه على الأرض مثل شخصٍ عادي، ثمّ يتألّم ويتعذّب ويُصلب ويموت..

٣. ومع اتّفاق الجميع على صفة الخلق هذه، وعلى أنّها صفة الله الأولى والأساسيّة، والخاصّة المميّزة له.. نراه يعطي مخلوقاته كلّها، من نباتٍ وحيوان وإنسان، أن تشاركَه في ما هو له وحدَه. وإذا ما

لم تكن المشاركةُ هذه خَلقاً من العدم، كما هو حال الله، لكنّها، في كلّ حال، دفعُ كائنٍ إلى الوجود لم يكنْ من قَبْلُ موجوداً.

٤. لقد شاء الله، لكي يكونَ إلهاً خالِقاً ممجَّداً معبوداً، أن يعطي لمخلوقاتِه كلّها إمكانيّة الاستمرار في الوجود من ذاتها وفي ذاتها. ولكأنّ الله شاء، بمنحِ مخلوقاته أهمَّ صفاته، أن يبتعد عنهم ويتعالى إلى ما فوق السموات والأرض. وكأنّه، بالتالي، شاء أن يغيبَ عنهم، وأن يكون، بالنسبة إليهم، "الآخَر" على الإطلاق. ولكأنّه، أخيراً، شاء أن يتركَ الإنسانَ وشأنَه، حرًّا منه ومِن مشيئتِه.

٥. وليس من صفة إلهيّة يشارك الإنسانُ بها الله أعظم من إمكانيّة مشاركته في عمليّة الخلق. وبالتالي، ليس من خطيئة ضدّ الله والإنسان والوجود والخَلق والمخلوقات أعظم من انقطاع الخَلق. هذه خطيئة ضد الوجود؛ فيما سواها من مخالفاتٍ هو خطيئة ضد فاعِلِها. تلك خطيئة ضد الكيان؛ وهذه خطيئة ضد السلوك.

***

٦. من هذا الباب الكبير الواسع ندخل إلى الحياة الرّهبانيّة، فنراها ترتكب خطيئةً جسيمة ضد الوجود والكيان، إذ تحجم عن مشاركة الله في أسمى صفاته وكمالاته، أي الخلق. وبهذا تمسّ المسيحيّةَ، في جوهرها، أي مشاركة الله للإنسان في ما هو للإنسان.

٧. فالمسيحيّة، في هذا المعنى، وكما يبدو، تتناقض والحياة الرّهبانيّة: ألمسيحيّة حياةٌ لبشرٍ يعيشون على الأرض بأجسادٍ ترابيّة

حسّيّة، لا حياةُ ملائكةٍ يَحيون خارج الأرض بأرواحٍ غير مدرَكة لا بعقلٍ ولا بحسّ. وما شاركَ الإنسانُ به الله في خلقه، لم يُعطَ للملائكة. فإمكانيّة الخلق، إذاً، أعطاها الله لمن يحمل جسداً، من لحمٍ ودم، ويحسّ برغائبَ وأميالٍ، من أجل إعطاء ذاته لغيره من ذات طبيعته.

٨. والكنيسة، أيضاً، تتألّف من بشرٍ ضعفاء، خاطئين، معرَّضين لأنواع الرغائب والأميال. أسّسها المسيحُ من بشرٍ، لا من ملائكةٍ؛ بشرٍ يعملون في عالم الكون والفساد؛ ويعيشون حالات البؤس والخطيئة؛ ويلبسون أجساداً ترابيّة مشحونة بالشهوات.. ومع هذا فهي مقدّسة معصومة، أعطي لها أن تُبقي سرّ الله مستمرّاً في الخلق، وأن تكمّل سرَّ المسيح فاعلاً في خلاص العالم.

٩. وإكمال سرّ الخلاص هذا، في الحقيقة، هو أعظم ما ترك الله للكنيسة من مهمّات. هذا الإكمال لا يمكن أن يكون إنْ لم تكن الكنيسة استمراراً للخَلق، صفةِ الله الأولى والأساسيّة. فالخلق والخلاص في المسيحيّة صنوان. لكأنّ الله لم يخلقْ إلاّ من أجل الخلاص. فهو الذي يخلق، وهو الذي يخلّص. "والذي خلقَكَ بدونك لا يخلِّصك بدونك"، على ما قال أغوسطينوس. فالخلاص مشروعُ خلقٍ آخر. والخلق الآخَر هذا هو الآن عملُ الله لا الإنسان.

١٠. ثمّة أمرٌ آخر، وهو أنّ الله الذي أشرك الإنسان والكائنات كلّها في عمليّة الخلق، أعطاها أيضاً أن تشاركه في عمليّة الخلاص: ألله يخلق ويُعطي غيرَه أن يشاركَه. وهو يخلّص ويعطي أيضاً غيره أن

يشاركه. ألخلقُ والخلاص، إذاً، منه. ألكائنات كلّها تساهم في خلاص بعضها بعضاً، كما تساهم في خلق بعضها بعضاً.

١١. ألله يخلِّص أولاً، ويمنح الإنسانَ أن يخلِّص بدوره هو أيضاً. ألخلاص سرٌّ إلهي يكتمل بمشاركة الإنسان. لهذا كانت المسيحيّة تدعو دائماً إلى تخليص الإنسان نفسَه والآخرين، إلى تقديس نفسه والآخرين. وليس من خلاصٍ فرديّ. أي لا إنسان يخلص وهو يتمنّى هلاكَ إنسانٍ آخر.

١٢. فلكأنّ الخلق والخلاص، في المسيحيّة، عملان إلهيّان غيرُ منجَزَين. لقد ترك الله للإنسان إنجازَهما. وهذا أبدع ما أبدع الله في الإنسان وللإنسان. فهل تكون الحياة الرّهبانيّة، والحال هذه، إنسجاماً مع مشروع الله في الخلق والخلاص، أم انسحاباً منه؟!

***

١٣. ألحياةُ الرّهبانيّة، في جوهرها، تقوم على "حمل الصليب" مع الرّبّ ومن أجله. ومن مظاهر هذا الصليب: الزّهْد والنسْك والانقطاع عن العالم، قهرُ الذات، إحتمالُ الآلام والعذابات بصبرٍ ورجاء، محاربةُ رغائب النّفس والجسد، إماتةُ أميال الطبيعة وشهواتها، عيشُ الفقر والعوز، إخضاعُ الإرادة وإذلالُ عنفوانها... إلى ما هنالك من مظاهر الحرمان الاختياري.

١٤. بيد أنّ هذه كلّها وسيلةٌ طارئة، ونهجٌ عابر، وسلوكٌ خاصّ، وسيرة من سير الإنسان المتنوّعة، وطريقٌ من طرقه التي يختارها للتعبير عن "حمل الصليب" مع الربّ. والصليب، كما نعلم، مغروس في عمق الكون. وليس من ناحيةٍ في الإنسان إلاّ وللصليب مكان مغروز فيه:

١٥. فإذا كان "الفقر" صليباً، ففي العمل على مساعدة الفقراء بالمال صليبٌ أعظم. وإذا كانت "الطاعة" والخضوع لإرادة الرؤساء صليباً، ففي العمل على تحقيق الحرّيّة الشخصيّة وأخذِ المبادرات والقيامِ بمشاريعَ نهضويّة صليبٌ أكبر. وإذا كانت "البتوليّة" والامتناع عن النساء والأولاد صليباً، ففي تحمّل المسؤوليّات، وإعطاء الذات للآخرين ببذلٍ وسخاء، وتربية أجيالٍ صالحة للحياة، والعمل المتواصل من أجل الآخرين، والخروج من الأنانيّة والفرديّة، والالتزام اليومي والدائم بواجبات العيلة صليب أكبر...

١٦. يومَ كان المالُ والبتوليّة وقهر الإرادة وسائلَ للرّاهب لأن يتفرّغ إلى عبادة ربّه، من دون عائق.. كانت نظرة العالم إلى المادّة عنصراً للشرّ، وإلى المال على أنّه ربٌّ ثانٍ، وإلى الحرّيّة كونها استعلاء شخصي وانتفاضة على إرادة السلطة، وكانت السلطة يومَها من الله... غير أنّ الوسائل هذه التي كانت تحدّيات للشخص البشري، باتتِ اليوم تحدّيات للإنسانيّة والمسيحيّة سواء. وإذا جاز للإنسان أن

يتحدّى ذاتَه؛ فمِن غير الجائز إطلاقاً أن يتحدّى الله والخَلق والخلاصَ والمصير.

١٧. إنّ الخلاص بالصليب لا ريب فيه. غير أنّ وجوه الصليب تتبدّل من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن إنسان إلى إنسان. ما كان بالأمسِ صليباً للخلاص، استُبدل اليوم بصليبٍ من نوعٍ آخر، قد يكون عكسَ صليب الأمس. وذلك لأنَّ القِيمَ في عالم الكون والفساد تتبدّل وتتطوّر.

١٨. أمسِ كان الإنسانُ يمارس الفقرَ، ويعيش البتوليّةَ، ويقهر إرادتَه، كصليبٍ يحمله من أجل الربّ، وكوسائل يتوسّلها لخلاص نفسه والعالم. أمّا اليوم فقد أصبح استعمالُ المال، ومسؤوليّة العيلة، والمبادرات الشخصيّة الحرّة، هي الصليب الذي يحمله الإنسان من أجل الربّ، والوسائل التي يتوسّلها لخلاص نفسه والعالم.

***

١٩. ولكن، قد يُنظر إلى الحياة الرّهبانيّة من منطلقٍ آخر، وهو اعتبار الحياة الرّهبانيّة "مشروعاً مَلكوتيًّا"، يعمل على حصْر الشرّ في العالم للقضاء عليه. والشرّ الأعظم هو الموت وما يؤدّي إليه. والحياةُ، في طبيعتها وصيرورتها، تؤدّي إلى الموت حتماً، ومن دون أيِّ شكٍّ. فالحياة الرّهبانيّة، والحال هذه، تعمل على حصْر الحياةِ التي

يعمل الشرُّ فيها؛ هذه الحياة تؤدّي إلى الشرّ الأعظم الذي هو الموت. والموت، بحسب القديس بولس، آخر عدوٍّ يتلاشى.

٢٠. حصْر الحياة هذا هو مضمون الصلاة التي علّمناها الربّ: "ليأتِ ملكوتك"؛ ودعانا مراراً إلى أنْ نعمل، ونحنُ على هذه الأرض، من أجل هذا الملكوت؛ وقال فيما قال: "أطلبوا أوّلاً ملكوتَ الله، وما سواه يُزاد لكم".

٢١. والإسراع في مجيء ملكوت الله يحصل: إمّا في العمل الجدّي المتواصل على تقديس نفوسنا، في أي موقعٍ كنّا، وفي كلّ حالٍ وشأنٍ من أحوال الحياة وشؤونها؛ وإمّا في التبتّل الذي نفرضه على نفوسنا في منع انتشار الموت والشرّ في حيواتٍ بشريّة تضاف على هذه الأرض بسببنا.

٢٢. ليس علينا أن نخاف على الجنس البشري من أن ينقطع. فمسؤوليّة بقاء الحياة على الأرض ليست إلاّ مسؤوليّة الله. إنّها مشيئته في الخلق. ولا شأن لنا بها، إذا كنّا نعمل ما نعمل من أجل مجيء ملكوتِه. فالله لا يعجزه أن يخلق أولاداً لإبراهيم من هذه الحجارة. والحياة، في حقيقتها، عطيّة من الله، فهي له، ومنه، وفيه، ومن أجله.

٢٣. وهذا ما يبرّر الحياةَ الرّهبانيّة التي يسلكها بعض النّاس. فهؤلاء يعملون من أجل الملكوت؛ ويعملون على حصر الشرّ؛ ويُعيدون

إلى الله صفتَه الأولى والأساسيّة، التي هي الخلْق؛ ويكمّلون معه سرَّ خلاص العالم في عمليّة "حمل الصليب"، طريق المجد والقيامة، والوسيلة القويمة للحياة الحقّة والسعادة الأبدية.

٢٠

العمل في الحياة الرهبانيّة

أوّلاً - العمل سنّة الوضع البشري

١ . سنّة العمل هي سنّة الوضع البشري؛ لم تدوَّن في كتاب؛ لم تُنزَّل في مجموعة شرائع؛ لم تُكتب في ألواح الناموس. لقد دوّنها الله في كفَّي كلِّ إنسان، وكتبها على جبينه، وجبلها بدمه وعرقه، وحفرها في لحمه وعظمه، وفرضها عليه أينما وُجد، وكيفما كانت أحواله وشؤونه.

٢ . سنّة العمل لم تكن نتيجة خطيئة، كما هي حال الألم والمرض والموت والتعب والعذاب؛ بل كانت قبل الخطيئة، أي يوم خلقَ الله الإنسانَ ووضعَه في الجنّة، بين الأشجار؛ يحرثها، ويسقيها، ويتدبّرها ويعتني بها. يومها سلّطه على كلِّ ما خلق، وباركه في كلّ ما خلق، وأشركه في ما خلق.

٣ . خطيئة الإنسان الأوّل، على ما بيّنها الكتابُ المقدّس، لم تكن نتيجة شرٍّ في طبيعته؛ بل كانت نتيجة استمتاعه بثمرةٍ لم تكن من عمله وتعبه : يوم راحتْ حوّاءُ تنظر إلى ثمر الأشجار، حيث رأتِ الحيّةَ وسمعتْ لها. عندها خطئتْ، وأشركتْ آدمَ بخطيئتها. وكانتْ

الخطيئة بسبب أكلِ ثمرةٍ لم يعملا في نموّها، ولم يتعبا في حراثة أرضها.

٤ . شيطانُ الشرِّ والخطيئة، إذاً، رابضٌ على الأغصان، بين الأوراق، عند الثمر؛ حيث لا عمل ولا تعب. لم يجد الإنسانُ الأوّل الشيطانَ يتنزّه في الأرض، أو يعمل فيها. لا شيطان، على ما يبدو، يستطيع أن ينالَ من إنسانٍ يعمل في الأرض، حيث يتعب ويجهد؛ بل حظّ الشياطين يكون دائماً مع الذين لا يعملون.

٥ . الشيطان موجود في إنسانٍ لا يعمل : وما أساطير الجنّ والأرواح الشرّيرة والأبالسة إلاّ من أجل سدّ ثغرةٍ موفّقةٍ في حياة الخمولين البطّالين. ولم يكن الاعتقادُ يوماً بهذه القوى إلاّ يوم كان الإنسان خمولاً كسولاً عاطلاً عن كلّ عمل. تكثر الشياطين وتترنّح في عملها حيث لا يكون للإنسان عمل.

٦ . ولك أن تعتقد وتتأكّد أنّ الشيطانَ موجودٌ حيث البطالةُ موجودة. والأقدمون عرفوا جيّداً أنّ مساكن الأبالسة والشياطين المفضّلة كانت في الأمكنة المقفرة، والمقابر المرعبة، والمواضع المظلمة، والمناطق الخاوية، والأجواء العالية، وأعماق الأرض[94]، وأيضاً في الرؤوس الفارغة، عند أناسٍ بطّالين.

---

94 أنظر: أحبار ١٦ /٨ و٢٢؛ ١٧ /٧؛ أشعيا ١٣ /٢١؛ ٣٤ /١٤؛ باروك ٤ /٣٥؛ متى ١٢ /٤٣؛ مرقس ٥ /١٠؛ لوقا ٨ /٣١؛ يوحنا ١٢ /٣١؛ ٢ قورنتس ٤ /٤؛ غلاطية ٤ /٣؛ فيلبي ٢ /١٠؛ أفسس ٢ /٢؛ ٦ /١٢؛ ١ /٢٠؛ ٣ /١٠؛ رؤيا ١٨ /٢؛ ١٩ /١ و٢ و١١؛ ١١ /٧؛ ١٧ /٨؛ ٢٠ /١ و٢.

٧ . العامل الذي يحرّك المادّة ويلّينها لا يترك للشيطان مكاناً؛ بل قلّما يكترث لوجوده. ونكاد نقول : إنّ وجود الشيطان منوط بالذين لا يعملون. إنّ العمل في المادّة لا يترك لك مجالاً للهو؛ لأنّ المادّة لا تُعالَج باستخفاف. لا خداع في الذين يعملون فيها. مع العمل، لا مجال للشكّ؛ لأنّ الشكوك إنّما تكون في رؤوسٍ بطّالة؛ ولا مجال للشرّ لأنّ البطالة هي أمّ الشرور.

٨ . العملُ، في تحديده، هو حيلة العقل على المادّة. عملُ الإنسان فيها خلاّق، منتج. هو يرتّبها. يصوغها. يزيّنها. يعيّن شكلَها. يرسم صورَتَها. يحتال عليها ليكوّن منها هندسةً تليق بمقاصد الخالق، وبتطوّر التاريخ والعلم. والعاملون فيها هم "الجاهدون في تنويع الأشكال. وهمّهم في تمثيل الصورة بأصلها" (سي ٣٨ /٢٨).

٩ . العاملون في المادّة "لا يأوون المدن، ولا يدخلون الجماعة، ولا يجلسون على منبر القاضي، ولا يفقهون فنون الدّعاوى، ولا يبرعون بالثقافة والقضاء، ولا نجدهم بين ضاربي الأمثال والحكم. ولكنّهم يُصلحون الأشياء الدّهريّة" (سي ٣٨ /٣٧-٣٩). هؤلاء "بدونهم لا تعمّر مدينة" (سي ٣٨ /٣٦). هذا كلام رائع في شأن الذين يعملون في الأرض، يستثمرونها.

١٠ . هذا يعني أنّ العاملين في الأرض لا يخادعون كالذين يعملون في الفكر والقضاء والدّعاوى والفقه والتعليم... هؤلاء يغشّون. وغشّهم يمرّ على المغشوشين بسهولة. أمّا أولئك العاملون في صوغ

المادّة فلا يسعهم الغشّ؛ لأنّ المادّة تفضح نيّاتهم، وتبيّن خللهم، وتُظهر شرَّهم بسهولة.

***

١١ . وقت العمل يمضي بسرعة وبسلام. لا ضجر ولا ملل. ينقضي من دون مشاكل مع أحد. بالعمل يتلهّى الإنسان عن أميال قلبه، ونزوات طبعه، ومطامع عقله، ورغائب نفسه. الإنسان البطّال قد يفتك بكلِّ شيء: بنفسه، بأهل بيته، بأخيه، بالتاريخ، وبالله ذاته.

١٢ . البطّال يتأكّل الضجرُ أيّامَ حياته. إنّه آفة كاملة على المجمتع. إنّه قاتل الوقت. ويعوزه كلّ شيء. يتقلّب على فراشه مهموماً مرتبكاً. لا يملأ فراغَه شيء. ولكنّ كلَّ شيءٍ يُتعبُه ويكدّس على صدره الهموم. وقد يموت بأوهامه وهمومه التي تمنع عنه كلّ طعمٍ للفرح والسلام والسعادة.

١٣ . لقد خلط النّاسُ بين "يوم الربّ" و"يوم البطالة" شرَّ خلطة : "السبت" يوم راحة لا يوم بطالة. "العيد" ليس يوم خمول. "يوم الأحد" ليس "عطلة". والعطلة ليست التسمية المناسبة للرّاحة. إنسان بطّال، أو عاطل، ليس إنساناً سليماً... إنّ يوم الربّ هو يومٌ يتحرّر فيه الإنسان ممّا يستعبده. يستريح من دوّامة الحياة الرتيبة. ولئن نصّت الوصايا العشر على يومٍ للرّاحة، فلأنّ هذا اليوم يأتي بعد ستّة أيّام عمل.

١٤ . يوم الربّ في المسيحيّة يومٌ مقدَّس، ليس لكونه يومَ عطلةٍ وبطالة؛ بل لكونه يوم ذكرى قيامة الربّ من سكون الموت وظلمة القبر. والمطلوب في يوم الربّ لا الرّاحة من أيِّ عمل؛ بل إراحةِ الإنسانِ والأرضِ من الاستخدام والاستعباد.

١٥ . عندما كان سليمان يعمل في بناء الهيكل، كان إيمانُه قويًّا، وأخلاقُه سليمة، وحكمتُه سديدة، وحياتُه منيعة، وأعماله ناجحة، وعلائقه مميّزة، وسياسته حكيمة... ولمّا انتهى من عمله واستراح، سقط في شهوات قلبه حتّى أنّه لم تكفِه ألفُ امرأة؛ وتخلّى عن الله حتّى عبد الأوثان.

وسأل القاضي رجلاً بلغ مرحلةَ التقاعد : لماذا قتلتَ امرأتَكَ؟! فأجاب الرجل : إنّه لم يعد عندي أيُّ عمل. وقد سئمتُ من أيّامي، وتعبتُ من أيّام راحتي.

١٦ . البطّالون تفتك بهم أمراضٌ عدّة. يعيشون مقهورين مهمومين. يشيخون قبل أوانهم. يموتون قبل شيخوختهم. يتعرّضون للكآبة والحزن والحالات النفسيّة السوداويّة. أعصابهم مشنّجة. يظنّون السوء. يُبطنون الشرّ. يندبون حظّهم في كلِّ حين، يخطّطون لارتكاب كلِّ رذيلة.

١٧ . الأرض لا تعطي ثمارَها قبل أن تشرب منّا الدم والعرق. خلق الله لنا الماءَ، ولكنّه لم يوجد لنا الجرَّةَ والإبريقَ والكأس. خلقَ الأرض، ولكنّه لم يوجدْها مفلوحةً مزروعةً محصودةً.. لقد ترك

كلّ ذلك ليد الإنسان. وكم استلزم الخبزُ، من عاملٍ وزارعٍ وحاصدٍ وطاحنٍ وخابزٍ، ليصلَ إلى فمِنا لقمة سائغة؟! وحدَه الهواء أُعطي لنا مجّاناً من دون جهد وعناء. أمّا الماء والخبز والنجاح والسعادة وسائر عطايا الأرض والسماء فلن تكون لنا من دون جِدٍّ وكَدٍّ وشقاء.

١٨ . إنّ الله، من بعد أن خلق الأرضَ ونظّمها، سلّمها إلى الإنسان، وسلّطه عليها ليشتغلها ويسخّرها (رَ: خر ١ /٢٨). وأمستِ الأرضُ لا تُعطي ثمارها قبل أن ترتوي بدم العاملين؛ ولا تفيض من خيراتها قبل أن تأكلَ أيدي الكادحين، وتشرب عرق الجبين؛ ولا تكشف عن مكنوناتها من دون اكتشاف العاقلين.

١٩ . أفضل ما وهب الله الإنسانَ مشاركته في الخلق. إنّها لنعمة عظيمةٌ، ليس في هندسة المادّة وتزيينها فحسب؛ بل في إنجابِ الحياة ذاتها. وليس أيضاً في تحويل الطبيعة وتجميلها فحسب؛ بل في روحنتها وأنسنتها. وأسمى ما يسعُ الإنسانَ أن يعمل في حياته، هو في رفع صورة المادّة والكون كلّه إلى الصورة المثلى وإلى المثال الإلهي.

***

٢٠ . الإنسان العامل وسيطٌ بين الله والكون. يربط المخلوقات بخالقها. يصعّدها قرابينَ مقدَّسة. يُنتج منها البركة. يُنجب منها الحياة. وهي، بدورها، تعدّه لسعادة يستحقّها بسببها. العالَم من دون عملٍ هو مادّة بلا صورة، فوضى بلا نظام. شكلٌ بلا حياة. ظلمة بلا نور.. إنّه خامةٌ تنتظر فنّاناً.

٢١ . وحده العمل يُشعر الإنسانَ بمسؤوليّاته. يعلّمه الصبر والأناة. يدرّبه على البذل والعطاء، ويدفعه إلى أعمال البرّ المجانيّة، ويوسِع آفاق المحبّة في قلبه، ويروّض نفسه الجامحة، ويُبعد عنه التجارب، ويخفّف ثقلَ الخطيئة، ويُعدّه لاقتحام المصاعب، ويُبعده عن أنانيّته وكبريائه، ويُدخله في حوارٍ بنّاءٍ مع أخيه الإنسان، وينمي فيه روحَ الإلفة والصداقة الحقّ، يخلّد ذكرَه بعد الموت، ويعطي لحياته معنًى وأيَّ معنى.

٢٢ . بالعمل يتحرّر الإنسان من ديونِ الماضي؛ لأنّه، في حاضره، يعيش من أتعاب الغابرين، ولا يوفيهم حقَّهم إلاّ بعمله من أجل الآتين. وبحقٍّ قيل : إنّ مخترعي المحراث يحرثون إلى جنب كلِّ حارث. وكم في الحياة من ديونٍ تسحق الإنسانَ إنْ لمْ يديِّنْ بدوره مَن سيأتي بعدَه، فيعمل لهم!

٢٣ . السعادة المرجوّة ثمرةُ عملٍ متواصلٍ وجهدٍ دائمٍ مستمرّ. وكذلك السعادة الدنيا. الإنسان النبيل لا يسعد بمال الوراثة بقدر ما يسعد بما جنتْ يداه. قد لا يستطيبُ لقمةً حصلَ عليها بغير كدِّه وجهده. وقد لا تهمّه كرامةٌ لم يهرق دمَه في سبيلها. وقد لا يدخل في حياة الله إنْ لم يعمل لها كلَّ حياته.

***

٢٤ . العمل فداء. فيه كفّارةٌ حقيقيّة وتوبةٌ كاملة عن الخطايا والذنوب. كفّارة وتوبة يؤدّيهما الإنسانُ العامل بعمله، أكان عملُه

صغيراً أم كبيراً، منتجاً أم غير منتج. فالعملُ بحدِّ ذاته فداءٌ وكفّارةٌ وتوبة. وحدَه العمل يكفي لكي يؤدّي غايتَه، لأنّ غايتَه تكمن في ذاته. بذلك هو كالـ "سرّ"، الذي يمنح النعمة بقطع النظر عن كفاءةِ مانحه. لذلك فهو ينبوع قداسة.

٢٥ . أوّل انتصارٍ للموت علينا هو في قضائه على مقدرتنا العاملة. فلكأنّ الموتَ لا يكون إلاّ بإيقافنا عن العمل. فالموت، بالتالي، ليس، كما يبدو لنا، انفصالَ النفس عن الجسد، ولا رحيلاً من الدنيا إلى عالَمٍ آخَر، ولا أجَلاً جاءَ بسببِ وَهَنِ الإنسان وشيخوخته، ولا وَفاة استكمل فيها الإنسانُ سعيَه، ولا حيناً من الزمن ليس بعده حين... الموت وقفةٌ صمّاء، وبطالة خامدة أمام ضجيج الحياة الكامن في العمل.

٢٦ . العمل مشاركة للربّ في الخلاص. ومن دون هذه المشاركة لا خلاص للإنسان. لا يسع إنساناً أن يكون مسيحيّاً مؤمناً ملتزماً إنْ لمْ يعطِ العملَ بُعْدَه الخلاصيّ، الذي به يكون العملُ دلالةً أرضيّةً على الحضور البشريّ في قلب الله. فلكأنّ الإنسانَ يُصبح، بعمله، حاضراً في الله، وحيّاً بحياته. وهل من ذبيحةِ شكْرٍ تُقدَّم لله من دون عملِ الإنسان؟! هل من إفخارستيّا تتمّ من دون إعداد عنصرَيها: الخبز والخمر، نتيجةَ جهد الإنسان وعمله؟! بهذه الإفخارستيّا يُصبح الإنسانُ العامل مشاركاً في تقدمةِ ذاته قرباناً مقدَّساً على "مائدة الشكران" المقدَّسة.

٢٧ . العمل "سرّ" يهب النعمة بمجرّد حدوثه. إذا كانت

الأسرار، بمفهومها المسيحيّ، تقدِّسُنا بذاتِ حدوثها؛ فالعمل هو كذلك. به نتقدّس. ومن دونه لا. به نخلص. ومن دونه لا. العملُ صلاتنا وبخورنا وترانيمنا. وهذه، من دونه، لا تكون. المصلّون هم العاملون. وليس لدينا، في لاهوتنا، فئتان : فئة مصلّيّة وفئة عاملة. كلّنا في عملنا نصلّي، وفي صلاتنا نعمل. وعلى هذا نُحاسَب.

٢٨ . أعدى أعداء المسيحيّة تلك المذاهب التي تدعو إلى الترفّع عن المادّة. هذه لم تدخل بعد في سرّ التجسّد الإلهيّ. ولم تتشرّف بالانتماء إلى الكنيسة الأرضيّة. المسيحيّة تعملُ في المادّة لتروحنها. وهي لا تريد تأليه الإنسان على حساب إنسانيّته، أو على حساب التراب الذي منه جُبِل.

٢٩ . وفي الختام نقول : إنّ العمل هو فضيلة الإنسان الذي يسير في طريق القداسة، والذي يريد الخلاص له ولجميع البشر، والذي يشارك الله في نموّ الكون وتطويره. والإنسان الذي لا يعمل هو في حال خطيئة تطال محبّةَ الله وخلاصَ الإنسان وقداسةَ الحياة. يكمن الشرّ في رأس كائنٍ بطّال، كسول، خامل. لا يفيد البشريّة بشيء. لا يفي ديونَه لدائنيه. ولا يُحبّ أحداً، لا ماضياً ولا حاضراً. ولا يريد للعالم أن يترقّى.

ثانياً - مفهوم العمل في الكتاب المقدّس

١ . الله نفسه، ومنذ البدء، وصف نفسه بالعمل، وعلى أنّه عمل ويعمل دائماً، وعلى أنّه "رأى جميعَ ما عمله فإذا هو حسنٌ جدّاً" (تك

١ /٣١)[95]، وعلى أنّه، لمّا انتهى في اليوم السابع من عمله الذي عمله، استراح من كلِّ عملِه الذي عملَه" (تك ٢ /٢-٣). وما الخلق إلاّ نتيجة عملٍ عمله الله ويعمله باستمرار. فهو الخالق والصانع والعامل.

ثمّ دعا الله الإنسانَ، منذ البدء، إلى العمل. وعندما شاء أن يباركه، قال له : "إنْموا واكثُروا، واملأوا الأرضَ، وأَخضِعوها، وتسلَّطوا على أسماك البحر وطيور السماء وكلِّ حيوانٍ يدِبُّ على الأرض" (تك ١ /٢٨). فلكأنّ الله أشركَ الإنسانَ بعمليّة الخلق التي هي من خصائصه وحده.

وبعد خلق الله الأرضَ، سلّمها للإنسان، وسلّطَه عليها وعلى الشغل فيها (تك ١ /٢٨)، إلى درجة أنّ الإنسانَ، إذا لم يعمل فيها لا يحقّ له أن يأكل منها.. ثمّ يتشدّد الكتابُ المقدّس ضدَّ البطالة باسم العمل : فالكسول ليس له ما يأكله (مثل ١٣ /٤)، و"رغبته تقتله لأنّ يديه تأبيان العمل" (مثل٢١ /٢٥).

٢ . عبّر عن ذلك القديسُ بولس في وصيّته لأهل تسالونيكي، وأظهر ضلالَ الذين يرفضون العمل: "نوصيكم: إذا كان أحدٌ لا يريدُ أن يعمل، فليس له أن يأكلْ!" (٢ تسا ٣ /١٠). وأمستْ هذه الوصيّة مبدأ، إذ راح بولس "يكرّرها مراراً، ويفاخر بأنّه يرفض قطعاً ودوماً أن يكون مَديناً بشيء ماديّ لأحدٍ من المؤمنين في جميع الكنائس التي

95 رَاجع تك ١ /٤ و١٠ و١٢ و١٨ و٢١ و٢٥.

أسّسها"[96]. فهو يحرّض المؤمنين ويطلب منهم ويوصيهم: "نطلب إليكم.. أن تَعمَلوا بأيديكم.. ولا يكونَ بكم حاجةٌ إلى أحد" (١ تسا ٤ / ١٠-١٢)[97].

ثمّ يشدّد بولس، وبنوع خاصّ، على العمل اليدويّ، كردّة فعلٍ على مفهوم الوثنيّين للعمل، الذي هو، بنظرهم، للعبيد لا للأحرار. لذا، كان يدعو المسيحيّين إلى أن يقتدوا به : "تعلمون كيف ينبغي أن تقتدوا بنا: لا أكلْنا خبزاً مجّاناً من أحد؛ بل كنّا نعملُ بتعبٍ وكَدٍّ، ليلَ نهار، كي لا نكون عبئاً على أحدٍ منكم" (٢ تسا ٣ /٦-١٥).

ويردّد بولس بأنّه كان يعمل ويكدّ ويتعب، لئلاً يكون عبئاً على أحد، أو لئلاّ يُثقّل على أحد. فبعد اهتدائه، "أتى قورِنْتس، حيث لقي أَكِيلا وامرأتَه بِرِسْقِلَّة.. وأقام يَعملُ عندهما. فقد كانا يعملان مِثْلَه في صِناعة الخِيام" (أع ١٨ /١-٣). وكان يقول: "ونتعبُ عامِلينَ بأيدينا" (١ قور ٤ /١٢)؛ ويقول: "أنتم تعلمونَ أنَّ يديَّ هاتَينِ قد كَفتاني حاجاتي، وحاجاتِ مَن معي" (أع ٢٠ /٣٤)[98]. ويوصي أيضاً بالابتعاد "عن كلّ أخ يسير سيرة البطالة"، بحجّة قرب عودة المسيح (٢ تسا ٣ /٦).

---

96 تفسير إونجليون على ٢ تسا ٣ /١٠.

97 رَ:٢ تسا ٣ /٧-١٠؛ ١ قور ٤ /١٢؛ ٢ قور ١١ /٧-١٠؛ ١٢ /١٣-١٨؛ أع٢٠ / ٣٣-٣٥.

98 رَ: ١ تسا ٢ /٩؛ ٢ تسا ٣ /٨؛ ١ قور ٩ /١٤-١٥،

٣ . لقد عرف مواطنو يسوع أنّ يسوع أيضاً كان يعمل، منذ صغره. لقد كان نجّاراً (مر ٦ /٣) وابنَ نجّار (متى١٣ /٥٥). وهو عرّف عن نفسه وعن أبيه السماوي بأنّهما يعملان دائماً : " أبي لا ينفكُّ يعمَل، وأنا أيضاً أعمل " (يو ٥ /١٧). وهو يعتبر شذوذاً عن المألوف أن تُترك الوزنة مدفونة دون أن تُستَثمر (متى ٢٥ /١٤-٣٠).

٤ . ونحن أيضاً مدعوّون، بحسب الكتاب المقدّس، إلى العمل الدائم ليستمرَّ الله يخلق بواسطتنا، وليبقى يرى ما خلقَه حسَناً. بل إنّ للعمل الذي نقوم به قيمةً فدائيّة، إذ هو يؤسّس الملكوت الذي ليس من هذا العالم.

ثالثاً - العمل في عقيدة الكنيسة

٥ . "لم تخرج الخليقة من يدَي الخالق كاملةَ الكمال"[99]. إنّها ناقصة، ولكنّ الله أعطاها أن تسير نحو كمالها؛ أو إنّه كلّف الإنسان في تتبّع مسيرتها ليكمّلها؛ لأنّ الله "يعطي الكائنات البشريّة أن تشترك في تصاميمه"[100]. والإنسان، بكونه حرّاً، يستطيع أن يفعل بالخليقة ما يشاء. يستطيع أن يُهملَها، أو أن يدمِّرها، أو أن يحدَّ من نقصِها، أو أن يكمّلها.

---

99 التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة (ت.م.ك.ك.)، رقم ٣٠٢

100 ت.م.ك.ك.، رقم ٣٢٣.

ثمّ إنّ غاية العمل الذي كلّف الله به الإنسان "هي أن تدخل الخلائق كلُّها في وحدة الثالوث الكاملة". وهدف القدّيسين، هو في أن يُقيموا في الثالوث في سكون وهدوء[101].

٦ . من هنا نقول بأنّ عمل الإنسان في الخليقة يتوخّى الكمال، كمال الإنسان وكمال الكائنات لتدخل في كمال الله. ولهذا نقول أيضاً : بالعمل نقيس نجاح حياة كلّ إنسان. وبالعمل نعتبر هذه المؤسّسة، ناجحة أو فاشلة. وبالعمل تتميّز جماعة عن أخرى، ويتفوّق بلدٌ على بلد، ويتميّز إنسانٌ عن إنسان. ونستطيع أن نقول أيضاً، مع التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، "إنّ الله يكشف بأعماله عن ذاته، ويبثّ حياته" (عد ٢٣٦).

الناس "بأعمالهم وصلواتهم، ثمّ بآلامهم أيضاً (رَ: قول ١ /٢٤) يصبحون كلّيّاً "عاملين مع الله" (١ قول ٣ /٩؛ ١ تسا ٣ /٢).. وليس شيء أعظم من أن يشارك الإ نسانُ الله في عمله في الخليقة. ولن ينال الإنسانُ أجرَه إلاّ إذا كان مشاركاً لله في عمله في الكائنات كلّها (رَ: عد ٣٠٧).

٧ . وتروح الكنيسة في تعاليمها عن قيمة الأشياء المادّية إلى أبعد من ذلك. فالأشياء المادّيّة يمكن أن تصبح أداةً للتعبير عن عمل الله الذي يقدّس البشر وأعمال البشر: فالماء والغسل، والزيت والمسح، وكسر الخبز، وتقاسم الكأس.. كلّها تعبّر عن حضور الله المقدِّس..

101 ت.م.ك.ك.، رقم ٢٦٠.

فلكأنّ الله يريد أن يقدّس الخليقة بواسطة عناصرها الطبيعيّة التي استعملها كرموز وعلامات لعمله في تقديس الكائنات جميعها (رَ: عد ١١٤٨).

غاية الله في خلقه أنّه "أراد أن يُشرك الخلائقَ في كينونته وحكمته وجودته" (عد ٢٩٥). لهذا "كانت علامة أُلفةِ الإنسان مع الله أن جعلَه الله في الجنّة (رَ: تك ٢ /٨)؛ فعاش فيها "يحرثُ الأرضَ ويحرسُها" (تك ٢ /١٥). فليس العمل إذاً مشقّة (رَ: تك ٣ /١٧-١٩)؛ ولكنّه إسهام مع الله في إكمال الخليقة (عد ٣٧٨).

وذروة المعنى المسيحي للعمل أنّ البشر في "جميع نشاطاتهم.. ومشاريعهم.. وحياتهم الزوجيّة والعيليّة، وأعمالهم اليوميّة، وتسلياتهم العقليّة والجسديّة، إذا هم عاشوها بروح الله؛ بل حتّى مِحَن الحياة، إذا تحمّلوها بطول أناة، كلّ هذا يستحيل "قرابين روحيّة مُرْضيّة لله بيسوع المسيح" (١ بط ٢ /٥).. على هذا النحو يكرّس المسيحيّون لله العالمَ بالذات، مؤدّين له، بقداسة سيرتهم، فعلَ عبادة" (عد ٩٠١).

ثمّ إنّ "العمل يمكن أن يكون فدائيّاً؛ إذ إنّ الإنسان، باحتماله عناء العمل، يتّحد مع يسوع، عاملِ الناصرة والمصلوبِ على الجلجلة، ويساهم، معه، بوجهٍ من الوجوه، في عمله الفدائيّ؛ ويكون تلميذاً للمسيح في حمل صليبه، كلّ يوم، في النشاط الذي دُعي إلى القيام به. بهذا "يكون العملُ وسيلةً للقداسة، وإنعاشاً للأمور الأرضيّة في روح المسيح" (عد ٢٤٢٧).

رابعاً - العمل في توجيهات الكنيسة الاجتماعيّة

هذا في عقيدة الكنيسة؛ أمّا في توجيهاتها الاجتماعيّة، فالكنيسة كانت رائدة في نظرتها إلى العمل والعمّال وأرباب العمل. تقول: "إنّه لظلم وقساوة أن يتمّ ترتيب النشاط البشريّ وتنظيمه على حساب أيّ عامل كان؛ ذلك لأنّ هذا النشاط هو ثمرة عمل الناس المشترك". من هنا فهي ترى أنّ كثيراً من العمّال اليوم أصبحوا "مستعبَدِين نوعاً ما لأعمالهم ذاتها".

والقاعدة الأولى عندها هي أن "يتناسب سيرُ العمل المنتج وحاجات الشخص وطرق حياته" ووضعِه الإنسانيّ، رجلاً كان أو امرأةً، صاحب اختصاص أو عاملاً بسيطاً، مسنّاً أو فتًى، امرأةً أو فتاة..

والقاعدة الثانية : "يجب أن تتوفّر للعمّال إمكانيّة إنماء مواهبهم وشخصيّتهم فيما يمارسون عملهم نفسه". وتتوفّر لهم أيضاً الأوقات الكافية للراحة، والترفيه، والعناية بحياتهم العائليّة والاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة"[102].

والقاعدة الثالثة : إنّ من حقّ العمّال أن يؤسّسوا الجمعيّات التي يشاؤون، والتي تمثّلهم في مهنتهم، وأن يساهموا في تنظيم الحياة الاقتصاديّة، وأن يشتركوا في نشاط هذه الجمعيّات بحرّيّة (ك ٦٨).

102 دستور عقائدي في الكنيسة (ك)، عدد ٦٧.

ومن واجبهم، عندئذٍ، أن "يسهموا في رفْع مستوى الخلق والمجتمع" (ك ٤١)،

والقاعدة الرابعة : "يجب العمل في سبيل إشراك الجميع إشراكاً فعليّاً في إدارة المؤسّسات"، آخذين بعين الاعتبار وظائف بعضهم بعضاً من أرباب عمل وموظّفين ومسؤولين وعمّال، مع المحافظة على ضرورة وحدة الإدارة" (ك ٦٨).

والقاعدة الخامسة : من حقّ العمّال الغرباء، الذين يساهمون هم أيضاً في إنماء البلد الذي يعملون فيه، ألاّ يكون أيّ تمييز بينهم وبين العمّال المواطنين (ك ٦٦).

القاعدة السادسة : إنّ الخيور الناتجة عن العمل البشري، يجب أن تُستثمر لخير كلّ البشر من دون استثناء، وأن توزّع هذه الخيور توزيعاً عادلاً. والسبب هو أنّ القدرة على العمل، وناتج العمل، هو من نِعم الله على البشر، وما اختصّ به أحدهم هو مشترك بينهم جميعاً، لأنّ كلّ شيء عندهم يعود، في أساسه، إلى الله، وإلى نعمة المسيح الذي يرفعها من الداخل (ك ٣٦).

والقاعدة السابعة : إنّ الإنسان، في أتعاب الحياة وضيقاتها، والعمل في مجالات الحياة المتنوّعة، يستطيع إدراك جميع الناس، والعمل على خلاص العالم بأسره[103]. وعلى الإنسان، والحال هذه، أن

---

103 رَ: قرار في رسالة العلمانيّين (رع)، عدد ١٦.

يستخدم كلّ إمكاناته، ويجتهد في "إخضاع الكون بالمعرفة والعمل"[104]. "فالشخص يطبع، نوعاً ما، الطبيعة بطابعه، ويخضعها لتصاميمه... ويستطيع أن يمارس المحبّة الحقيقيّة، مساهماً بإكمال الخلق الإلهيّ" (ك ع ٦٧).

والقاعدة الثامنة :"يجب الاهتمام بتأمين العمل الكافي والمناسب لكلّ فردٍ مع إمكانيّة تدريبه تقنيّاً ومهنيّاً تدريباً موافقاً" (ك ٦٦). و"على المجتمع أن يساعد المواطنين إذ يسمح لهم بالحصول على عملٍ كافٍ" (ك ٦٧)؛ كما يجب أن يؤمّن توظيف الرساميل والمداخيل الكافية" (ك ٧٠).

والقاعدة الذهبيّة : محبّة المحتاجين ومساعدتهم، وفي إيجاد عمل لهم: "أينما وُجد أناس يُعدمون الأكل والشرب والكساء والمسكن، أو يتألّمون من نقص الدواء والعمل والتعليم، ووسائل الحياة الإنسانيّة الحقّ، أو يُعذّبون من جرّاء المحن والأمراض، أو يتحمّلون النفي والسجن. فهناك يجب أن تبحث عنهم المحبّة المسيحيّة، وأن تجدهم، وأن تعزّيهم بعناية نشيطة، وأن تفرّج عنهم بالمساعدات التي تقدّمها لهم. ويقع هذا الواجب بالدرجة الأولى على عاتق الأفراد والشعوب الميسورة" (رع ٨).

---

104 دستور راعوي في الكنيسة وعالم اليوم (ك ع)، عدد ٥٣.

وتعتبر الكنيسة أنّ أعمال المحبّة واجب يتحتّم عليها القيام به، لا تستطيع التخلّي عنه. ولهذا فهي تقدّر الرحمة تجاه الفقراء والمرضى حقَّ قدرِها، وكذلك ما يدعى بالأعمال الخيريّة وأعمال التعاون المتبادل لتلطيف حاجات البشر على أنواعها..." (رع ٨).

ثمّ "إنّ لبعض الأعمال ما يؤهّلها بطبيعتها أن تصير التعبير الحيّ لتلك المحبّة : والسيّد المسيح أرادها أن تكون علامة رسالته الماسويّة" (رع ٨).

"ولمّا كانت أعمال الخير والرحمة تشهد للحياة المسيحيّة شهادةً لا تجارى، فإنّ على التربية الرسوليّة أن تحمل العلمانيّين على ممارستها أيضاً لكي يعلم المسيحيّون، منذ نعومة أظفارهم، أن يشاطروا إخوتهم في الآلام، وأن يساعدوا المحتاجين بينهم بسخاء" (رع ٣١).

وأعمال المحبّة هذه، بحسب توجيهات الكنيسة، لا تطال المسيحيّين فحسب، بل كلّ فردٍ من البشر : "فلتمتدّ عنايته بالصلاة والتبشير وسائر أعمال المحبّة، لا إلى خاصّته فقط، ولكن أيضاً إلى الذين ليسوا بعد من القطيع الواحد والذين عليه أن يعتبرهم موكلين إليه في الربّ" (ك ٢٧). "لهذا تعلن الكنيسة لغير المؤمنين بشرى الخلاص، لكي يعرف كلّ البشر، الإله الواحد الحقيقي، والذي أرسله، يسوع المسيح، ولكي يغيّروا سلوكهم بما يصنعون من توبة" (ل ٩).

ومن الأعمال السامية، التي تعتني بها الكنيسة، العمل الرسولي الفردي والجماعي، الذي يقع على عاتق "المنظّمات التي.. تسند أعضاءها، وتدرّبهم على الرسالة، وتنظّم عملهم الرسولي، وتديره؛ فيرجى إذ ذاك منه قطف ثمار أغزر ممّا لو كان أفراد يعملون منفردين" (رع ١٨). ويقع، بالتالي، على عاتق الكهنة والأساقفة، أن يستعملوا "الأموال التي يتوصّلون إليها بقيامهم بأعمال وظيفة كنسيّة، أن يستعملوها لمعيشةٍ كريمة لتتميم أعمال وظيفتهم. وما تبقّى فليستعملوه لخير الكنيسة وأعمال الرحمة"[105].

وكذلك، يقوم على عاتق الكنيسة أن تهتمّ بأعمال كثيرة ومتنوّعة، منها الأعمال العيليّة، مثل "تبنّي الأولاد المهملين، واستضافة الغرباء بلطف، ومساعدة المدارس بتوجيهها، وإرشاد المراهقين ومساعدتهم، ومساندة الخطّيبين ليتهيّأوا للزواج بصورة مثلى، والمؤازرة في التعليم الديني، ومعاضدة المتزوّجين والعيل في ضيقاتهم المادّيّة والمعنويّة، والسهر في أن تقدّم للشيوخ لا الضروريّات فحسب بل أن توفّر لهم ثمار التطوير الاقتصادي العادلة" (رع ١١).

و"لكي تستطيع (المؤسّسات الكنسيّة الرسوليّة) أن تبلغ بسهولة أكبر أهدافَ عملِها الرسوليّ، يبدو من المناسب أن تجتمع في رابطات" (رع ١١).

105 قرار في حياة الكهنة وخدمتهم الراعويّة (ح ك خ)، عدد ١٧.

ثمّة "يجب أن نلفت الانتباه إلى واجب المؤمنين في ممارسة الرسالة كلّ حسب وضعه ومؤهّلاته"[106].

وأخيراً، لا بدّ من أجور عادلة تسمح للعامل ولعائلته بحياة لائقة على مختلف مستويات الحياة : "... إعتباراً لمهامّ كلّ فرد ولطاقة إنتاجه، واعتباراً لوضع المؤسّسة والخير العام، يجب أن تضمن أجور العمل للإنسان الموارد التي تسمح له ولعائلته بحياة لائقة على المستوى المادّي والاجتماعيّ والثقافي والروحيّ" (ك ٦٧).

خامساً - العمل في الحياة الرهبانيّة

تختصر الحياةَ الرهبانيّةَ كلمتَان شهيرتَان للقدّيس مبارك : Ora et labora ، أي : الصلاة والعمل. وينقسم يوم الراهب، عنده، إلى محطّاتٍ ثلاث : العمل والصلاة والقراءة الإلهيّة، أي قراءة البيبليا وتفاسيرها.

وتتوجّه الكنيسة إلى الرهبان، لتذكّرهم بشريعة العمل العامّة. تقول : "ليشعر كلّ راهبٍ في وظيفته أنّه ملزم بشريعة العمل المشتركة. ولكن، وفيما هم يحصّلون ما هو ضروريّ لإعالتهم ولأعمالهم، فليطرحوا عنهم كلَّ اهتمام مفرط بأمور الدنيا، ويتّكلوا على عناية الآب السماويّ"[107].

وبحسب المفهوم الرهبانيّ، والقوانين الرهبانيّة، "إنّ العمل

---

106 قرار في مهمّة الأساقفة الراعويّة (م ا ر)، عدد ١٧.

107 قرار في التجديد الملائم للحياة الرهبانيّة (ت ح ر)، عدد ١٣.

اليوميّ، أيًّا يكن، بما يتطلّب من تقشّف وسيطرة على النّفس، هو عنصر فعّال للتدرُّج في السِيرة الرُّهبانيّة ولبلوغ أعلى درجات الاتّحاد بالله، فيكون طريقاً أميناً إلى الله ومشاركةً للقريب في مواصلة الخلق الالهيّ"[108].

فلكأنّ العمل، في مفهومه الرهبانيّ، هو مشاركة الله في مواصلة عمل الخلق، وانتصار على الذات، ومدعاة للتوبة والفداء، وتحقيق للشخصيّة، وحفظ للإنسان من شرّ البطالة، واكتسابٌ للضروريّ في الحياة، واستخدام واعٍ للزمن الذي أعطاناه الله. به نوفّر ما نمدّ به المحتاج، ونشارك به سائر البشر. ثمّ تعتبر القوانين "العملَ عنصراً مكوِّناً لسيرتنا الرهبانيّة" (مادّة ٧٨).

ومجالات العمل في الرهبانيّة متنوّعة. وعلى كلّ راهبٍ "أن يملأ وقتَه دائماً بعملٍ مفيد، يدويٍّ أو فكريّ أو رسوليّ، متجنّباً بذلك البطالة" (مادّة ٨٠). وعليه أن يجدَ عملاً يتلاءم مع شخصيّته وإمكانيّاته، وأن يؤدّي عملَه بروح خدمةٍ ومحبّة، وينفّذ ما يوكل إليه بفرح.

وانطلاقاً من مبدأ الحياة الديريّة المشتركة، "لا يَقبل راهبٌ عملاً خارجَ الرّهبانيّة إلاّ بموافقة مجمع الدير المنتسب إليه، وإذنٍ خطّي من الأب العام، ولمدّة محدودة. وما يتقاضاه من عمله يعود إلى الدير حكماً".

108 قوانين الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، غزير ٢٠٠٣، مادّة ٧٩.

غير "أنّ المبادَراتِ الفرديّةَ المأذونَ بها شَرْعاً، والتي تحوّلت إلى مؤسَّسات، تتحمَّلُ الرَّهبانيّةُ مسؤوليَّتها، على أن يوضَعَ لها نظام ْداخليّ خاصّ يُقرِّه مجمع الرئاسة العامّة" (مادّة ٨١)؛ .تساعده إن احتاج، وتأخذ منه ما يفيض عنه

غير أنّ قوانين الراهبات اللبنانيّات لا تميّز بين العمل والصلاة. فالصلاة والعمل، كلاهما ضروريّ للقيام بما تطلّبه الحياة الرهبانيّة من واجبات. تقول: "عملُنا صلاة. وصلاتنا عمل. والأولويّة لما يكون أوانُه.. فلا يستأثر العمل بكلّ أوقاتنا؛ ولا الصلاة من شأنها أن توفّر لنا القوتَ والكسوة. من هنا كان لكلمة الرسول موقعُها: "إنْ كانَ أحدٌ لا يُريدُ أنْ يَعْمَلَ فلا يَعُد يأكُل" (٢ تسا ٣ / ١٠)[109].

ثمّ إنّ العمل ليس ميزةً إنسانيّة فحسب؛ بل إنّه يعطي الراهبَ المعنى الحقيقيّ لوجوده، ويُكسبه قداسةً وبرّاً، بالرغم من كونه يعمل في الأمور المادّيّة وحالات الضعف البشريّ. لهذا، لئن اعتنقنا الحياةَ الرهبانيّة من أجل هدفٍ روحيّ أسمى، فإنّنا لا نزال خاضعين لشريعة العمل المادّيّ مهما كان وضيعاً.

ثمّ إنَّ العمل يساهم أيضاً في تحديد شخصيّة الجماعة الرهبانيّة، ونموّها، وتميّزها عن سائر الرهبانيّات؛ كما يساهم في بناء شخصيّة

---

109 قوانين وفرائض الراهبات اللبنانيّات المارونيّات، جعيتا ٢٠٠٤، قانون ٩١.

كلّ فرد فيها، ويميّزه عن أخيه، ويُشعره بأنّه ليس فرداً عابراً في الجماعة؛ إنّما له مكانته وفرادته. وكذلك يعبّر عن الاتّحاد بين الإخوة، وعن تضامنهم مع كلّ عمّال العالم.

ثمّ إنّ تنوّع المهامّ وكثرة الأعمال في الحياة يجب ألاّ ينسينا بأنّ العمل في الحياة الرهبانيّة إنّما هو لتمجيد الله، الله الذي يجب أن نمجِّدَه في الصلاة والعمل، في الجماعة والوحدة، في الصحّة والمرض، وفي كلّ شيء. ومبدأ "الصلاة والعمل" في الحياة الرهبانيّة، هو وحدة متكاملة غير منقسمة.

لهذا، فإنّ القوانين الرهبانيّة القديمة، لا الجديدة، وَضعتْ في صميم نصوصها قوانين خاصّة بكلّ عمل، أو خدمة، أو ظيفة: فكان للضيافة باب، وللنجارة باب، وللكلار باب، وللمائدة باب، وللجنائن باب، وللزيارة باب، وللخياطة باب، وللاهتمام بالمرضى والعجزة باب[110]...

هذا التنوّع في العمل في الحياة الرهبانيّة دليل على أنّ البحث عن الله إنّما يكون في كلّ مجال من مجالات الحياة، وفي كلّ حدث من أحداث التاريخ، صغيراً كان أو كبيراً. وهذا ما نقصد بقولنا: إنّ الله حاضرٌ في كلّ حدث، وداخلٌ في كلّ شخص، وفاعل في كلّ جماعة، وموجود في كلّ مكان.

110 أنظر القانون الأسود، وهو الأوّل في الرهبانيّات المارونيّة.

ومشكلة الحياة الرهبانيّة اليوم تتأتّى من كون عدد الرهبان يتناقص، والأعمال تتزايد. الكلّ يعمل ويعمل كثيراً، حتّى أصبح التوازن مفقوداً بين الفرد والجماعة، بين الحياة المشتركة والحياة الخاصّة، بين "العمل والصلاة". لهذا دخل العمّال العلمانيّون أبوابَ الدير، وشاركوا الرهبانَ في حياتهم الخاصّة لمساعدتهم.

وأخيراً، علينا أن نسأل: ما هو العمل الذي يساعد الراهب على الصعود نحو الله، وعلى التدرّج للاتّحاد به؟ ما هو العمل الذي يُكسب الإنسانَ أجراً؟.. نجيب بأنّه، في البداية، ليس العمل، بحدّ ذاته؛ بل الهدف الذي نبتغيه من العمل، والكيفيّة التي بها نحقّق العمل.

يدلّ على ذلك قصّةُ راهبٍ يسكن في البرّيّة على بعد اثني عشر ميلاً من الماء. وفي يوم من الأيام، عندما ذهب ليستقي، خار في الطريق، ولم يعد يقوى على المسير، فقال لنفسه: لماذا أتحمّل هذه المشقّة؟ يجب أن أذهب وأسكن بالقرب من الماء. وما أن التفت إلى الوراء، حتّى رأى واحداً يتبعه ويعدّ خطواته. فسأله: مَن أنت؟ فأجابه: أنا ملاك الربّ، أرسلتُ لأعدّ خطواتك وأكافئك عليها". عندئذٍ، تشجّع الراهب، وتنشّط، وراح يسكن بعيداً عن الماء خمسة أميال إضافيّة.

كلّ هذا يدفعنا إلى أن نفكّر في أهمّيّة العمل في الحياة الرهبانيّة. لقد قال الله: "تحبّ الربَّ إلهَك من كلِّ قلبك، ومن كلّ نفسك ومن كلّ كيانك". فلكي نحبّ الله من كلّ كياننا، يجب أن نحبّه أيضاً بجسدنا،

وأيدينا، وعقلنا، وقلبنا، فيحوّل الحبُّ كلَّ شيءٍ إلى خليقة جديدة.

٢١
الحياء والحياة الرهبانيّة

مقدّمة

الحياء فضيلة إنسانيّة، دينيّة ومدنيّة، فرديّة واجتماعيّة معاً. تشير إلى جمال الإنسان بأجمل ممّا يشير إليه الفحش. إنّها تُخفي الجمالَ لتُبرزه بطريقة أفضل. لهذا، ما كانتْ نساءٌ لترضى بالحجاب إلاّ لتُبرز ما فيهنّ من جمالٍ إبرازاً نافراً. ولهذا أيضاً يتفنّن أصحابُ الموضة المعاصرون في إلباس النساء ليُظهروا جمالَ أجسادهنّ إظهاراً كاملاً.

الحياء، بحسب علم اللّغة، مشتقّ من الحياة. ويكون الإنسان حيًّا حقًّا إذا كان لا يزال فيه بعض الحياء. فالميت لا حياء له كما لا حياة فيه. وحدَه الجسد الحَيّ حَيِيّ، والجسد الحَيِيّ حَيّ. لهذا قيل: الحياء من الحياة، وبحسب حياة القلب يكون فيه حياء؛ فيما قلّة الحياء من موت القلب.

الحياء فضيلة دينيّة إسلاميّة بامتياز. بل هو فضيلة المسلم الملتزم، عبّر عنها النبيّ محمّد في أحاديث عدّة. فقال : "إنّ الحياءَ خيرٌ كلُّه"[111] "إنّ لكلّ دِين خلُقاً، وخلُق الإسلام الحياء"[112]، وقال أيضاً :

---

111 صحيح مسلم، باب الإيمان، ٦١؛ مسند ابن حنبل، ٤/ ٤٢٦...

"الحياء شُعبة من الإيمان"[113]، وقال : "ما كان الفحش في شيء إلاَّ شَانَهُ؛ وما كان الحياء في شيء إلاَّ زَانَهُ"[114]، وقال: "إنّ فيك خَصلتَين يُحبّهما الله: الحلم والحياء"[115]وقال : "الحياء لا يأتي إلاَّ بخير". و"إذا أراد أن يُهلِكَ عبداً نزعَ منه الحياء"[116]و"كان النبيّ ﷺ؛ بل "كان أشدّ حياءً من العَذراء في خدرها"[117]... والله نفسه يوصف بالحياء. يقول النبيّ: "إنّ الله حَيِيٌ ستّير يُحبّ الحياء"[118]...

والمسيحيّة تعلّم أيضاً بأنّ الحياء الحقيقي يقوم على العفَّة الكاملة، عفّة النفس والجسد والفكر واللّسان، والعفّة عن المال والسلطة والشهوة؛ وكذلك يقوم على الحفاظ على عفّة الآخرين وصونها؛ حتّى إنّه لا قداسة من دون حياء مميّز وعفّة كاملة. هذان الحياء والعفّة يجعلان المسيحيَّ حاضراً دائماً أمام الله، يتصرّف تحت عينَيه، إذ يراه في سرّه وعلنه.

ويحدّد التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكي الحياء أو الحشمة بما يلي : "النقاوة تقتضي الحشمة. وهذه جزءٌ متمِّمٌ للقناعة. والحشمة

---

112 سنن ابن ماجه، باب الزهد ١٧..

113 صحيح بخاري، باب الإيمان ١٦ /٣؛.

114 سنن الترمذي، باب البرّ ٤٧؛ سنن ابن ماجه، باب الزهد ١٧.

115 سنن ابن ماجه، الزهد ١٨؛ مسند ابن حنبل ٤/ ٢٠٦.

116 سنن ابن ماجه، باب الفتن ٢٧..

117صحيح البخاري، باب الأدب ٧٢، ٧٧؛ إبن ماجه، الزهد ١٧...

118 سنن ابن داود، الحمّام ١؛ سنن النسائي، باب الغسل،٧...

تحافظ على ما في الشخص من شأنٍ حميم. وهي تعني رفض الكشف عمّا يجب أن يبقى خافياً. وهي موجّهة نحو الطهارة إذ تؤكّد رهافتها. وهي تُرشد الأنظار والحركات المتوافقة َمع كرامة الأشخاص واتّحادهم" (عد ٢٥٢١).

ويقول : "الحشمة تصون سرّ الأشخاص ومحبّتهم. وهي تدعو إلى الصبر والاعتدال في علاقة الحبّ... وهناك حشمة في العواطف كما في الجسد.." (عد ٢٥٢٢-٢٣).

والحياء، في نهاية الأمر، وفي كلِّ معانيه واتّجاهاته، هو عفّة الإنسان في تشوّقه إلى الجمال الحقيقي. فالجمال، وحدَه، يجعلنا نقبل كلَّ تفلّتٍ من كلِّ نظام، ويحثُّنا على التخلّي عن كلِّ شيء من أجل الحصول عليه، فنرضى بكلِّ ما يكشف عنه؛ حتّى إنّنا نغدو، بزِيٍّ أو بدون زِيٍّ، منجذبين إليه. هذا الجمال هو في أساس كلِّ حبّ. والحياء الحقيقي هو تعرّينا من كلّ جمال زائل.

ونخشى أن يرحل الحياء من القلب ليستقرّ على الشفاه. فيما الحياء الحقيقي هو فضيلة الكلام الذي لم نقلْه، والصمت الذي يعبّر أكثر من الكلام. لهذا، فإنّ الحياءَ ضائع بين قول كلِّ شيء والسكوت عن كلّ شيء. هذا يعني أنّه بمقدار ما تكون الأخلاق متفلّتة، يكون التعبير عنها مدروساً . ونعتقد، في هذه الحال، بأنّنا أصبحنا، في ممارسةالحياء، في حالٍ أخطر من الفحش والعري والاباحيّة وقلّة الحشمة والحياء.

من هنا خطورة معالجة موضوع الحياء. فنحن هنا نكتب عن

الحياء، وفي خلفيّة ذهننا نكتب عن كلِّ ما هو ضدّ الحياء. فالموضوع شائك وصعب، ولكنّه من موضوعات عصرنا الملحّة.

وهو خطير لأنّنا نكتفي من الحياء بمحاربة العري الجسدي والإعلانات الإباحيّة، فيما هو عفّة عن المال والسلطة والشهوة؛ أي عفّة عن فساد المسؤولين الذين يُعرّون الإنسانَ من حقوقه الإنسانيّة والمدنيّة، ويُبيحون البلدَ وكلَّ ما فيه، ويحوّلونه إلى مزرعةٍ تخصّهم، وإلى بقرة حلوب تدرّ عليهم وعلى أزلامهم الخيرات بفَيض.

حياء الراهب

الحياء عند الراهب فضيلته المعاصرة؛ فضيلته الشخصيّة القائمة على احترامٍ عميقٍ لنفسه وجسده وأخلاقه وفكره والقيم التي يؤمن بها؛ وفضيلته الاجتماعيّة التي تشهد له أمام الناس بعفّة لسانه عن الكلام البذيء، وعفّة جسده بطهارة حركاته ونظافته وملبسه، وعفّة فكره بما يقرأ من كتبٍ ومجلاّت، وعفّة نظره بما يرى ويشاهد...

وما قوانين الرَّهبانيّة، وفرائضها، وأنظمتها، وزيُّها، وحصنُها الديريّ.. وعزلة الراهب، وبُعده عن العالم والأهل والحياة العامة... سوى وسائل تهدف إلى تحصين فضيلة الحياء وحمايتها :

١ . الحياة الديريّة المشتركة، المعاشة في الدير، وسيلة فعّالة وشرطٌ أساسي للحفاظ على قداسة الحياة وصونها من كلّ فحش وصفاقة. وما من إنسانٍ في العالم، رجلاً كان أو امرأة، يستطيع أن يحفظ حياتَه وأخلاقَه من دون حمايةٍ من عيلته ومجتمعه. وكذلك ما من

راهب، أو راهبة، يستطيع أن يحفظ حياتَه وقِيَمَه وفضائلَه ورقيَّه في تقديس ذاتِه إنْ لم تضمنه الحياة العائليّة، حيث يصونها الحياء ويضمن مسيرتَها.

٢ . القوانين الرهبانيّة وفرائضها هي أيضاً عامل أساسي لقداسة الراهب وتدرّجه في سلّم الكمال. وهي تحفظ الراهب من كلّ تطرّف. تحميه من السقوط كما تحميه من الكبرياء والاعتداد بالنّفس. إنّها، بكلمة، موضع قداسة الرّاهب. والراهب الذي لا يسير بموجب قوانينه وفرائضه ينقصه الحياء. بل قد لا يستحي من أحد، حتّى من الله. الحياء يسيّره في طريق احترام ذاته والآخرين، ويكسبه قداسة نفسه بأقوم سبيل.

٣ . الحصن الديري، الذي تتكلّم عليه القوانين والفرائض كلّها، القديمة منها والحديثة، في مختلف صيغها وأساليبها، هو المكان الأمثل لصون الحياء وعيشه. فراهبٌ خارج الأسوار والحصون معرَّض دائماً للقيل والقال، ولغمزات الناس ولمزاتهم. يُباح لهم النيل من شرفه وكرامته وحيائه، فتنكشف لهم ذاته، وتطاله أحكامهم القاسية... فعلى الراهب أن يتحصّن في ديره ليبقى سرُّه مستوراً، وحياته كريمة، وحياؤه مصوناً.

٤ . الزِّيُّ الرهبانيّ، الذي يتميّز به الراهب، لم يكن، يوماً، إلاّ من أجل الحفاظ على الحياء الرهباني. ولا معنى له سوى بالنسبة إلى هذا الحياء. وما من تكرّس لراهبٍ أو راهبة إلاّ ويُعبّر عنه بزيٍّ خاصّ

مميَّز لكلّ شكلٍ من أشكال الحياة الرهبانيّة. وتشدّد الكنيسة، في قوانينها العامّة، على أن يتميّز الرهبان والراهبات بزيٍّ خاصّ يميّزهم عن عامّة النّاس. فالزِّيُّ، في رأيها، يحمي حياءَ الراهب، ويضمن سلوكه ومسيرته في العالم.

٥ . قلاّية الراهب، أي غرفته، ليست كمكتبه، ولا يجب أن تكون حيث يكون عمله. إنّها مكان نجواه، ونسكه، وعشقه للربّ، وممارساته لفضائل لا تمارس أمام عيون الآخرين. وكم بكى فيها رهبان، وركعوا، وعفّروا الأرض بجبينهم، ولبسوا المسح، وناجوا الصليبَ، وتضرّعوا إلى الله باكين على خطاياهم ونواقصهم... هذه كلّها تكون في قلاّية خاصّة حميمة لا يخرق حرمَتها أحد، ولا يكشف خفَرَها وحياءَها إنسان.

٦ . وثمّة أيضاً تمييز في الدير بين أمكنة عامّة وأمكنة خاصّة. هذه تكاد تصبح اليومَ مفقودة. ويكاد الدير يصبح دائرةً كالدوائر الحكوميّة لتصريف الأعمال وإنجاز الطلبات. إنها أمكنة للتسلية وهدر الوقت من دون فائدة. هذا الخلط بين ما يجب أن يكون خاصًّا وما يجب أن يكون عامًّا، جعل الحياةَ الرهبانيّة معرَّضةً مكشوفة، لا سرّيّة لها، ولا حياء فيها. ولسنا نعرفُ عيلةً محترمةً لا تترك مساحةً لحياتها الخاصّة الحميمة.

٧ . معظم الأديار فتحت أبوابها أمام الجميع، النساء والرجال والأولاد، وكذلك لحفلات الأعراس والمحادثات السياسيّة والاجتماعيّة.

وهي، بسبب هندستها، لا تميّز بين ما هو للرجال وبين ما هو للنساء. فدورات المياه مثلاً هي نفسها للجنسَين، في حين أنّ العالم كلّه، مع تحرّره، يحافظ على الفصل بينها... فإذا كنّا نريد فتْحَ أديارِنا، علينا أن نجعلها مناسبة لهذا الفتْح؛ فلا نكون بالتالي أكثر تحرّراً من المتحرّرين، ولا أكثر صفاقةً من المتفلّتين.

٨ . هذا وإنّنا لا نريد أن نعدِّد ونفصّل دقائق الحياة الرهبانيّة، لأنّ كلّ شيء فيها أصبح عرضة للعيون والألسنة وأصبح الراهب يقرأ ويشاهد كسائر الناس؛ ويسهر ويتسلّى مثلهم، ويتلفّظ بكلام شنيع بذيء؛ ويتعطّر بأحسن العطور، ويزرع الشعر المستعار، ويتفنّن في هندسة لحيته؛ يلبّي الدعوات إلى الأعراس والاحتفالات على أنواعها. لقد أصبح للحياء عنده معنى يختلف تماماً عن معناه المألوف؛ وأصبح بعضُ الناس يمدحونه بسبب ما عنده من روح العصر.

الفصل الثالث

النذور الرهبانيّة

٢٢

نذر طاعة أم فعل أمر

يبدو، للوهلة الأولى، أنّ الأزمة هي أزمةُ طاعةٍ ومرؤوسين، فيما هي، في الحقيقة، أزمة أوامر ومسؤولين، ورغبات سلطويّة، وإرادة شاهانيّة من رؤساء منتشين .

يبدو، من خلال القوانين والفرائض، أنّ الرؤساء غيرُ معنيّين بنذر الطاعة؛ وكأنّهم نَذروا أنْ يُطاعوا لا أن يُطِيعوا. وبعضهم لم يَعرفوا، حياتَهم، الطاعة لأحد. فمنذ أن سيموا كهنةً، كُلِّفوا بالرِّئاسة، أي، بتصدير الأوامر، وبالعيش بحرّيّةٍ كاملة.

وتسأل : هل يعرف هؤلاء الرهبان الذين قضوا حياتهم في إصدار الأوامر، وفي الرئاسات، ما هو نذر الطاعة؟ ونعرف أنّ الرهبانَ كلّهم سائرون نحو الرئاسات، وبالتالي نحو "فعل الأمر". ولن يبقى خاضعاً للطاعة، في نهاية المطاف، إلاّ الرّهبان المساكين، والقدّيسون، والإخوة العملة والدارسون وحدَهم.

إذا أردنا تحليلَ نصوصِ كتابَي القانون (قوانين ٤٦-٥٢) والرسوم (الأصحّ: الفرائض) (موادّ ٢٢-٢٨)، لسنة ١٩٧٤، نرى

الكلامَ على نذرِالطاعة، في القوانين، مثاليًّا جدًّا. فيما هو في كتاب الرسوم، بدائيٌّ جدّاً، ويُستحى منه.

في القانون ثلاث :

١ . كلامٌ على الطاعة بحدّ ذاتها : إنّها كطاعة المسيح، و"اقتداء بها". إنّها "تكريس كامل"، و"انسجام تامّ"، و"اتّحاد كلّيّ بإرادة الله"، و"انصياع لإرشادات الرّوح"، و"خدمة"، و"ذبيحة"، و"بذل نفس في سبيل خدمة الإخوة والرهبانيّة والكنيسة الى أن نبلغ الكمال والتمام". رائعٌ جدّاً هذا الكلام .

٢ . وكلامٌ على طاعة المرؤوس الذي عليه أنْ "يتبيّن إرادةَ الله من خلالِ إرادة رئيسه". هذا كلّ ما في القانون عن المرؤوس (قانون ٤٨ في أوّله). رائع أيضاً هذا الكلام.

٣ . وكلام على الرئيس الذي عليه أن "يفتّش بتواضعٍ وتجرّدٍ عن إرادة الله ليبديها لإخوته، بأمانةٍ، متتبّعاً عملَ الروح القدس في حياةِ كلٍّ منهم" (قا ٤٩). ثمّ عليه أن "يستجلي إرادة الله من خلال الحوار مع إخوته، مبتعداً عن التفرّد بالرأي" (قا ٥٠)، معتمداً على "المحبّة المتبادلة بينه وبين إخوته" (قا ٥١)، "معتبراً نفسه خادماً لهم بالمحبّة" (قا ٥١) معامِلاً لهم "باحترام لائق" (قا ٥٢). رائع كذلك هذا الكلام.

إنّ المفهوم الحقيقي للطاعة الرهبانيّة، بحدّ ذاتها، ولموقف المرؤوسين والرؤساء منها مثاليٌّ روحانيٌّ رفيع. بهذا المفهوم العظيم،

يكون الراهبُ، في الحقيقة، هو المخدوم والرئيسُ هو الخادم. هذا هو الإنجيلُ بعينه، مِن أَلِفه إلى يائِه.

في الرّسوم (أي: الفرائض) :

وتأتي الرسوم في سبع موادّ (٢٢-٢٨)، بدائيّة، متخلّفة، تافهة. تروح باتّجاه معاكس تماماً لنصوص القوانين. لنبدأ بالبداية :

تقول المادّة ٢٣ : "بنذر الطاعة يُلزم الرهبانُ أنفسَهم إتمامَ أوامرِ الرؤساء". ما هذا الكلام؟ كيف هبطتِ الطاعةُ الى هذا المستوى عمّا كانت عليه في نصّ القوانين؟ ما هذا المعنى البدائي القَبَلي لها؟ وحدَه شيخ القبيلة يطالب بأن تكونَ العشيرةُ كلُّها خاضعةً له وحدَه، وعاملةً على "إتمام أوامره".

و نسأل : أهو، عند المرؤوس، نذر طاعة بمستوى طاعة الابن لمشيئة الآب الخلاصيّة، أم نذرُ "إتمام أوامر"؟! أو هو، عند الرئيس، نذر طاعة، أم "فعْل أمر"؟! أيكون المقصود في الطاعة خنوع المرؤوس، أم المقصود إبداء إرادة الرئيس؟! لا يجوز أن تُحدّد الطاعةُ الرهبانيّة، كما هي في المادّة ٢٣ من الرسوم.

أمّا المادّة ٢٤ فتقول : "إذا تمرَّد الراهبُ على أمر رئيسه". إنّها شرٌّ أكبر. إنّها من باب الافتراض والتَرَف العقلي. كأن تقول مثلاً: اذا راهبٌ رَكِبَ سفينةَ الفضاءِ أبّولّو وتوجّه إلى القمر من دون إرادة رئيسِه، لأَمْنَعَنَّهُ عن القدسيّات، ولأربِطَنَّهُ ربطاً، وأحرمنَّه من شركة الإخوة... نسأل : لماذا هذا الافتراض؟ ولماذا استعمال هذا الفعل :

"تمرّد"؟ وهل "أمر الرئيس" هو مشيئة الرهبانيّة؟ وهل في أمر الرئيس سعيٌ نحو القداسة؟ وهل هو المشيئة الإلهيّة؟ والحياة الأبديّة؟ والسعادة التي لا تزول؟!

تكمّل المادّة : إذا تمرّد الراهب على الأمر الأوّل، فعلى الرئيس أن يُتْبِعَهُ بأمرٍ ثانٍ يكونُ أكثرَ صراحةً وبطريقةٍ خطيّة، وباسم الطاعة المقدّسة، وأمام شاهدين.

عمليّة إرهابيّة حقّاً. لكأنّ في الأمر ملاحقةَ مجرمين ارتكبوا فظائع، وتعدّوا على حرمات البشر، واستهانوا بالقدسيّات كلِّها، وأفسدوا الأخلاق العامّة، واستخفّوا بكل القيم، واستبدّوا بعباد الله.

أثمَّة مَن يسأل : لماذا هذه المادّة؟ يبدو أنَّ المشترع نفسَه رأى فظاعةَ الكلام وسخافةَ الافتراض. فلجأ حالاً الى هذا الاستدراك : "ولكن، يُنصَحُ الرؤساءُ بألاّ يَلجأوا إلى هذا السلطان.. ولا يأتوا ذلك البتة من دونِ سببٍ خطير".

هذه الملاحقة وهذا الاستدراك يُشبهان هذا القول: إنّ أنتَ خالفتَ أمري وتاجرتَ بالسلاح والمخدّرات، لأسجننّك في قبو الدير سجنًا مؤبّداً. ولكن لن التجئ الى هذا الإجراء الاّ إذا سبّبتَ خطراً على الجنسِ البشري.

لماذا هذا الافتراض؟ ولماذا هذا الاستدراك؟ ولماذا هذا الإجراء؟ إنّنا، في الحقيقة، أمام مَرَضٍ عقليّ لا نعرفُ كيفَ دخلَ جسم الرهبانيّة من باب الطاعة.

المقصود في تعليقنا هذا : ان يُقلِعَ المشترْعُ عن تعقيدِ العِقد ثمّ يتذاكى فيحلّها هو بنفسه. وأن يعرف المشترعُ أنّ المعنّيَّ بنذرِ الطاعة ليس المرؤوس وحدَه بل الرئيس أوّلاً. فالأزمة أزمة رئيسٍ وأمرٍ وارادةٍ سنيّة، لا أزمة راهبٍ أعزلَ يطيعُ أو يخالف. أَعطِنا رئيسًا مجرَّدًا، وخذْ رهباناً نِعاجًا يبذلون النفسَ والمهج.

ونسأل: مَن يطيع منَ؟

لنأخذ مثلاً وعليه نبني الجواب :

راهبٌ أرسلتْه الرهبانيّةُ إلى التخصّص في الخارج. وقَضى في تخصّصه سنوات. ورجع يعمل في الرهبانيّة ضمن اختصاصه. وكان في عمله ناجحاً مُفيداً وجدِّيًّا... فهل يستطيع رئيسٌ ما أن يأمرَ هذا الراهبَ ويحوّلَه إلى عملٍ آخر، واختصاصٍ آخر؟

جوابي واضح : على الرئيس أن يطيعَ هو أوّلاً إرادةَ الرهبانيّة التي وجهّتْ هذا الراهب، وأرسلتْه إلى التخصّص في ما تخَصّص له. وعلى الراهب أن يبقى مطيعًا لإرادة الرهبانيّة. هذا يعني أنّ على الرّاهب أن يرفضَ أمرَ رئيسٍ يخالفُ إرادةَ الرهبانيّة ومصلحتَها. فالرئيس هنا هو المخالِف للطاعة لا الراهب.

وكم على هذا المثَلِ تُقاس أمور!

وثمّةَ مبدأٌ ثانٍ : لنفترض -والافتراض نزعة في مشترعِينا- راهبًا لا يطيع أوامرَ رئيسه. فماذا يعني ذلك؟

نقول: اذا كانتْ مخالفةُ الراهب لإرادة رئيسه تمسّ بكرامة هذا الرئيس، فالأولى لهذا الرئيس ألاّ يعرّض كرامته الى المهانة، فيتحاشى إصدار الأوامر، لأنّ علاقته بالراهب ليستْ علاقةَ كرامةٍ تُفرَض فرضاً؛ بل هي علاقةُ حوارٍ ومحبّةٍ وبحثٍ مشتركٍ عن إرادةِ الله الخلاصيّة.

واذا كانتِ المخالفة تمسّ قانونًا ما، أو كرامةَ الرهبانيّة، أو تنالُ من كرامةِ راهبٍ، فعلى الرئيس ألاّ يعتبرَ المخالفة كأنّها تمسّه شخصيًّا فيتصرّفَ على هذا الأساس؛ بل عليه، إذا كانت الزلّةُ جسيمةً، أن يقضي الأمرَ في محكمةٍ رهبانيّةٍ؛ أو عند ثالثٍ غيرِ معنيٍّ بالمخالفة، إذا كانت زلّةً طفيفةً.

بهذا يظلّ الرئيس حياديًّا يدير الأمور بمحبّةٍ أبويّةٍ، وتجرّد تامّ. فَٱلرَئِيْسُ يُنَفِّذُ أَحْكَامًا، ولا يُصَدِّرُ أَوامِر.

***

هذا هو العمق الحقيقي للطاعة الرهبانيّة. بغيرِ هذا المعنى لا يُطلبُ من أحد أن يُسَلِّمَ زمامَ أمرِه لأحد. ليسَ إنسانٌ معنيّاً بنجاحي وخلاصي أكثرَ منّي. فعلى أصحابِ الإرادةِ السنّيّة أن يعتبروا مراكزَهم لحسنِ سير الإدارة، لا للتسلّط وتتميم "الرغبات".

٢٣

دفتر الفقر

من أكبر مشاكل الحياة الرهبانيّة مشكلة الفقر: إصلاح الرهبانيّة يتمّ بإصلاح مفهوم نذر الفقر، وخرابها يبدأ به. فساد الرهبان يكون بسببه، وخيرهم أيضاً يزداد بسببه. الحياة المشتركة والمحبّة الأخويّة تصانان به، والعدالة والمساواة تتأسّسان عليه. وبمخالفة الفقر تُفقد الحياة الرهبانيّة بتمامها. فروحانيّة الرهبانيّة تقاس بالحفاظ عليه، وهو معيارها الصحيح.

لهذا بات من الملحّ جدًّا الاهتمام الكلّي بهذه القيمة الرهبانيّة، والروحيّة، والمسيحيّة والإنسانيّة.

وبات من الضروري أيضاً، من أجل الحفاظ على المستوى اللاّئق في الرهبانيّة، أن يعمل المسؤولون، بشكلٍ صريح، على راحة ضمير كلِّ راهب، وأن يُعنوا في إيجاد التوازن بين الحفاظ على نذر الفقر وواجب العمل وضرورة الإنتاج.

لهذا، عليهم أن يسهروا ويراقبوا ويحاسبوا ويوجّهوا.

وعلى الجميع، مسؤولين وغير مسؤوليين، أن يعرفوا أنّ الفقر

ليس مقصودًا بذاته، بل هو من أجل غاية، من أجل رسالة، من أجل حياة أكثر قداسة، ومن أجل مساعدة الفقراء، وعمل خير أوسع.

وراحة ضمير الراهب، في موضوع الفقر، لا نراها تكون إلاّ اعتماداً على حججٍ أربع :

الحجّة الأولى : لا نزال، حتى اليوم، نتخبّط في معالجة الفقر، على الصعيد الفردي كما على الصعيد الجماعي. فلا نحن ولا سوانا استطعنا أن نجد قاعدة سليمة، أو وسيلةً نافعة للمحافظة على الفقر، ولمعالجة مزالق الرهبان فيه. ذلك لأنّ مستجدّات هذا العالم، في هذا المجال، تكاد تكون ثوراتٍ وانقلابات :

فالسيّارة، مثلاً، باتت من الضروريّات؛ كذلك المكتبة الخاصّة الغنيّة بالمراجع؛ وكذلك الكمبيوتر، وآلات الطباعة المتطوّرة، والاشتراك بالإنترنيت والبريد الإلكتروني، واستعمال الهاتف المحمول؛ وكذلك السفر في سبيل الاطّلاع؛ وكذلك اللّبس اللائق، وتلبية دعوات العزائم والولائم، والمشاركة في لجانِ درسٍ وبحثٍ... كلّ هذه نسفتْ ذاكَ الفقر التقليدي.

لهذا بات ملحًّا التنبّه إلى هذه المستجدّات؛ كما أصبحتْ معالجتُها واجبة وسريعة بما يريح الضمير، وينظّم أمورَ الرَّهبانيّة. فالرّاهب الذي يريد أن يعمل وينتج، لا بدّ له من التعامل بالمال، وكسب المال، والتصرّف بالمال بطريقة مألوفة.. ومعلوم أنّ التعاملَ بالمال،

في مفهومه الرّهباني التقليدي، عدوٌّ الفقر، ومخالفةٌ للنذر جسيمة... فما العمل، والقوانين لا تزال جازمة حازمة؟

الحلّ عندي هو في أن يتحمّل المسؤولُ تنظيمَ الأمور بدقّة، ويدقّق في حساباتِ كلِّ راهب. وذلك بأن يكون في جيب كلِّ راهب "دفتر فقر" يسجّل فيه مداخيله ومصاريفه، ويُحاسَب عليها.

الحجّة الثانيّة : لا نزال حتى اليوم نعمل، وكلّنا يعمل : من الرئيس العام إلى آخر راهب؛ من الحبيس الورع المتجرّد إلى العامل النشيط في مختلفِ حقول المال والاقتصاد؛ من الشاب المجتهد الى الشيخ الهرم، من الأستاذ الجامعي المتفرّغ الى المزارِع الكادح في الجنائن والحقول...

الكلّ في الرهبانيّة يعمل، ويعمل، لا من أجل "المحافظة على الفقر"، بل من أجل محاربة الفقر، أي من أجل إثراء الأديار، ورفع مستوى الحياة، والعيش الكريم واللاّئق، ومساعدة الفقراء والمحتاجين..

هل علّم الربُّ من أجلِ أن يبقى الفقراءُ في فقرهم، أم مِن أجل مساعدتهم ورفعِ شأنهم وإشراكِهم بخيرات أغنياء العالم؟! وهل علينا نحنُ أن نعود إلى تلمّس الفضيلة في نشدان الفقر؟ أم في محاربة فقر الفقراء؟! وهل أصبح الفقرُ في الرَّهبانيّة غايةً في ذاته؛ أم محاربة الفقر ومساعدة الفقراء هما الغاية؟

ما الأفضل: أن نعمل ونجني المال ونخدم الفقراء والمعوزين؟ أم أن لا نعمل ولا نجني مالاً ولا نخدم أحداً؟

المطلوب : أن نعمل، ونجني الأموال، ونساعد المحتاج، ونعيش بصحّة، وعافية... لا من أجل الفقر، بل من أجل عمل الخير. فعملُ الخير هو غايتنا، لا الفقر. ومساعدة الفقراء هي غايتنا لا إجلال الفقر.

والمطلوب أيضاً أن يكون عملُ الخير هذا بمستوى الجماعة التي ينتمي الراهب إليها. فالجماعة معنيّة بعمل الخير، ومطلوب منها ذلك أكثر من الراهب نفسه. لهذا أقول وأشدّد على أن يؤدّي الراهبُ حساباتِه للجماعة، فالمال مالها، وهي المعنيّة بالرسالة وبكلِّ عملِ خير ومساعدة. ورسالة الراهب، في جوهرها، تكمن في جماعته وتنطلق منها.

إنّ المال الذي يجنيه الراهبُ بجهده وعرق جبينه، إنّما هو مال يخصّ الجماعة التي ينتمي إليها. لهذا، فللجماعة الحقّ في معرفة مصير هذا المال، ولها الحقّ في كيفيّة صرفه والتصرّف به... شرط أن لا تضرّ الجماعة بموارد هذا المال، لئلا ينقطع المالُ عنها وعن الراهب معاً.

لهذا السبب، يتحتّم على الراهب أن يشرِكَ جماعتَه بماله، أنْ يقدّم لها حساباته، ويقرّران معاً حسنَ سيرِ الأمور. وهذا لا يكون من دون "دفتر فقر" خاصٍّ بكلِّ راهبٍ يدوِّن فيه مداخيله ومصاريفه كلّها. دفتر الفقر هذا هو معيار صدقه في انتمائه إلى جماعته.

الحجّة الثالثة : قديماً كان رأسَمالِ الراهب أرزاقُ ديره. فيها كان يعمل، وينتج، وعليها كانت تُجرَى حساباتُه. منها مداخيله ومنها مصاريفه. فمن الطبيعي، إذاً، ألاّ يكون هناك "دفتر حساب" شخصيّ الاّ الدفتر الخاصّ بقيود الدير. أمّا اليوم فقد أصبح لكلِّ راهبٍ، بفضل اختصاصه، واهتماماته، وأنواع عمله، رأسُمالٍ شخصيّ، يعمل فيه، وفي تنميته، وبالتالي، له، منه مداخيل، وعليه مصاريف... فمن الواجب، إذاً، أن يكون لهذا الراهب "دفتر حساب" خاصّ به، -إلى جانب دفتر حساب الدير-، فيه يدوِّن مداخيله ومصاريفه، وعليه يجري حسابه.

وقد تكون اليوم مداخيلُ بعض الرهبان أعظم من مداخيل بعض الأديار؛ لأنّ رأسَمال هذا الراهب قد يكونُ أشملَ وأغنى، ومجالَ عمله أوسع : فالراهب الذي يعلّم، ويتقاضى بدل علمه أجرًا؛ والراهبُ الذي يؤلِّف، وله من تآليفه أرباح؛ والراهب الذي يخدم الرعايا، والرعيّة باب رزق؛ والراهب الذي يقوم برياضات روحيّة، فينال عوض أتعابه نصيباَ؛ والراهب الذي يقدِّس، له على قداديسه حَسَنات... هذا الراهب يجب أن يكون بين يديه "دفتر" يسجّل فيه حساباته..

رأسمال الراهب اليوم قد يكون ضخماً واسعاً متعدّدَ وجوه الدخل، وهو يختلف عن رأسمال الدير، وبالتالي تختلف مداخيله ومصاريفه عن مداخيل الدير ومصاريفه. وبالنتيجة يختلف قيدُ الحساب. فعليه إذًا أن تختلف الدفاتر وتتنوّع باختلاف الرساميل والمداخيل والمصاريف وتنوّعها.

لهذا بات من الضروري أن يكون لكلّ راهبٍ "دفتر فقر" خاصّ شخصيّ، كما للدير دفتر حساب عام مشترك.

الحجّة الرابعة : الدير لا يشرب الوسكي، ولا يدخّن السجائر، بل الراهب هو الذي يشرب ويدخِّن. الدير لا يلبس عباءاتٍ وقمصاناً وطقُماً، ولا يشدّ أحذيةً؛ بل الراهب هو الذي يلبس ثياباً ويتطقّم، وينتعل حذاءً. الدّير لا يتنزّه، ولا يسافر، ولا يتلفن، بل الراهب هو الذي يتنزّه، ويسافر، ويتلفن...

لهذا، إذا شئنا أن يكون لنا حسابات دقيقة، تريح البال والضمير، يتحتّم علينا أن نَفصل بين دفاتر الدّير العامّة ودفاتر الرهبان الخاصّة. تلك يُجرى فيها حسابات الدير والأرزاق والإيجارات والجنائن والكروم، من مداخيل ومصاريف؛ وهذه يُجرى فيها مداخيل الرّاهب ومصاريفه الشخصيّة، وهو ما نسمّيه "دفتر فقر".

المطلوب إذًا أن يكون لكلّ راهبٍ "دفتر فقر"، فيه يقيّد، بدقّة ضميره، ولراحة ضميره، مداخيلَه ومصاريفَه. على هذا الدفتر يسجّل كلَّ شيء، ويؤدّي حساباً دقيقاً عن كلِّ شيء.

***

في نهاية كلّ شهر، يقدّم الرّاهب "دفتر الفقر" الخاصّ لرئيس ديره، وللمجمع الديري، لينظرا فيه بدقّة؛ ويوقّعه الرئيس، بمعرفة الجماعة وملاحظاتها :

إذا كانت مداخيلُ الراهب من أجل نجاح عمله، تُتْرَكُ له. وإذا احتاج من مال الدير لنجاحه، يُعطَى له. وإذا كانت مداخيله تفيض على مصاريفه، يُؤخَذُ منه. وإذا كانت مصاريفه في غير وجهة عمله، يُنبَّه، ويُعاقَب، ويُفرض عليه ما يجب.

ولدى الزيارة القانونيّة، يصطحب الراهبُ معه دفترَه، ويقدّمُه للأب العالم، ليطّلع عليه بدقّة، ويحكم به عليه، ثمّ يوقّعه.

المهمّ في نذر الفقر، لا الخمول والكسل والاتّكال، بل العمل والإنتاج ومحاربة الفقر ومساعدة الفقراء. المهمّ في الفقر أن يكون حافزاً لعمل الخير في هذا العالم الذي يتكاثر فيه عدد الفقراء والمعوزين.

ثمّ إنّ "دفتر الفقر" هذا لا يعني الإقرارَ بملكيّةِ الراهب لمداخيله، كما لا يعني حرّيّتَه في مصاريفه. كلُّ مداخيل الراهب هي ملكُ الجماعة. وكلُّ مصاريفه يأخذها من الجماعة. لَكِنَّ الجَمَاعَةَ لا تَمْلِكُ حَقَّ تَوْقِيْفِ الرَّاهِبِ عَنْ عَمَلِهِ. وَالمَالُ، شِئْنَا أَمْ أَبَيْنا، هُوَ عَامِلٌ مِنْ عَوَامِلِ ازدِيادِ العَمَلِ وَوفْرَةِ الإنْتاجِ وعمل الخير وتوفير المساعدة للفقراء.

فعليه اقتراح القانون التالي : لكلِّ راهب "دفتر فقرٍ". فيه يُسجّل مداخيلَه ومصاريفَه. وعليه يؤدّي حسابًا لجماعتِه الديريّة التي تأخذُ منه ما يفيض عنه، أو تعطيه بما ينقص لأجل إنجاح عمله. يطّلع عليه

المجمع الديري في نهاية كلّ شهر، ويوقّعه الرئيس؛ كما يوقّعه الأب العام عند كلِّ زيارة قانونيّة.

٢٤

المال والحياة الرهبانيّة

مقدّمة

١ . إنّ المسيحيّةَ، بسبب "تجسّد الله من أجلنا نحن البشر"، وبسبب أنّها تحيا في هذا العالم وتعمل فيه، وبسبب أنّها لا تكون إلاّ في مؤسّسة بشريّة اسمُها: الكنيسة، هي "دِينٌ ودنيا"؛ أي يهمّها أن تهتمَّ بأمور الأرض، وشؤون الدنيا، وتساهمَ في تطوّرِ العالَمِ، ورقيِّ الإنسان وتقدّمه.

من هنا نقول : لا مسيحيّة حقيقيّة إنْ لمْ تلتزمْ قضايا العالمِ كلَّها، وإنْ لمْ تعملْ مؤسّساتُها جميعُها في رفع العالم إلى الله، في جميع الحقول السياسيّة والاجتماعيّة والتربويّة والاقتصاديّة، وإنْ لمْ تتعاطَ في شؤون المال والعمل والعمّال والإنتاج والإدارة والقيادة...

وأكاد أقول حتّى الحياة الرهبانيّة تقيس نجاحها بما تملك من خيرات هذه الأرض، وبما تستخدم من هذه الخيرات لرسالتها الإنجيليّة، وعملها المسيحيّ، وأنشطتها الوطنيّة والاجتماعيّة. فلكأنَّ المال هو مقياس النجاح، وهو الوسيلة الفاعلة لخدمة الإنجيل.

٢ . ويسوع نفسه، الذي كان يعلّم خدمةَ الفقراء والمحتاجين، ساعد الفقراء والمحتاجين. وكيف كان يساعدهم لو لم يكن لديه مال . يبدو أنّه كان له ولرسله مالٌ يتصرّفون به. وكان يهوذا مؤتمناً على هذا المال.

والمال، عند يسوع، موضوع دقيق جدًّا؛ لأنّ يسوع، من جهةٍ، حذّر منه؛ ومن جهة، استخدمه لرسالته. لهذا فالمال إمّا يكون عنصراً فاعلاً في خلاص العالم، وإمّا يكون سبباً عاملاً على هلاكه. لهذا، فهو حقّاً "ربّ" يفيد المحتاجين ويخلّصهم؛ وهو أيضاً "ربّ" يُهلك الذين يكدّسونه ليحرموا ذوي الحاجة والفاقة.

٣ . "المال عطيّة الله، وعلينا أن نؤدّي حساباً عنه. والمالُ بابٌ إلى الظلم، فعلينا ألاّ نستعمله لظلم النّاس، بل في أعمال البرّ : نوزّعه على الفقراء فيصبحون لنا أصدقاء، ولدى الله شفعاء"[119]. المال خير، عندما يستعمله صاحبه لأعمال الخير؛ وهو شرّ، عندما يستعمله صاحبه لأعمال الشرّ والظلم.

وعلى قول يسوع: "لا يَسَعُكم خدمَةُ الله والمال" (لو ١٦ /١٣) : يفسّر إونجليون: "عبادة الله تنفي عبادة المال. وما المال سوى عطيّة الله نستعمله في خدمته، وخدمةِ كلِّ إنسانٍ محتاج". هذا يعني أنّ المالَ

119 رَ: ترجمة "إونجليون"، ص ٣٣١؛ حاشية على لو ١٦/ ٩-١٣.

ليسَ، بحدِّ ذاته، شرًّا، بل استخدامه للشرّ شرّ. ويعني أيضاً أنّ كثيرَ المال يُخشى عليه أن لا يهتمّ إلاّ به وبكيفيّة تحصيله وتنميته. وهذا خطر عظيم، يجب الانتصار عليه.

٤ . إذا كان الله لا يخلّصنا من دوننا، على حسب قول القديس أغوسطينوس، فإنّه أيضاً لا يكفينا حاجاتنا من دون جهدنا وعملنا. إنّ وضعنا البشري، ونحن على الأرض، يحتّم علينا أن نعمل في الأرض، وأن نعيشَ من خيراتها. وخيراتها لن نحصل عليها من دون عملٍ وتعب، ومن دون مالٍ وما يثمّن بمال.

أوّلاً - المال في العهد الجديد

١ . يدعونا يسوع، من أوّل الإنجيل إلى آخره، لا إلى عيش الفقر، بل إلى مساعدة الفقراء. فأوّل ما قرأ من العهد القديم، وهو لا يزال في الناصرة طفلاً في الثانية عشرة من عمره، ما جاء في أشعيا: "روحُ الربِّ عليَّ، فقد مَسَحني لأبشِّرَ المساكينَ"[120]؛ "وينطلق يسوع في الناصرة من هذا النصّ ليشرح رسالتَه الخاصّة"[121]. ولا نعرف عن يسوع أنّه قرأ من العهد القديم غير هذا النصّ! أصدفةٌ هي، أم هذا هو خطّ رسالته وبرنامج عمله؟!

120 لو ٤ /١٨ = أش ٦١ /١-٢.
121 شرح أشعيا ٦١/ ٢ في الترجمة اليسوعيّة للكتاب المقدّس.

٢ . من المؤكّد أن رسالة يسوع كلّها كانتْ من أجل الإنسان؛ لا من أجل الناموس، ولا لإعلان نبوءة جديدة؛ ولا لتأسيس دين، أو نشرِ عقيدة، أو تنزيل شريعة سماويّة، أو تحديد الحرام والحلال... كلّ ما جاء به يسوع كان من أجل الإنسان، الإنسان الفقير الذي يميل المجتمع البشريّ إلى نبذه واحتقاره. وهو يدعونا إلى ألاّ نعلّق قلبَنا بالأموال والأملاك حتّى نساعد بها الفقراء، ونتصدّق بها عليهم: "بِيعوا ما تَملِكُون. وتصدَّقوا به" (لو ١٢/ ٣٣). وقال لغنيٍّ: "إنْ شئتَ أن تكونَ كاملاً، فاذهَبْ، وبِعْ ما تَملِك، وهَبْهُ لمساكين"[122].

٣ . ثمّ يدعونا يسوع، لا إلى الافتقار، بل إلى ألاّ نكنز كنوزاً في الأرض. فالكنز الحقّ في ملكوت السماء؛ والويل لذاك الغنيّ الأحمق الذي يدّخر كلّ شيء لحياته هنا، ولا يدّخر شيئاً لحياته هناك: "إصنعوا لكم في السموات أكياساً لا تَبلَى. وادَّخِروا كنزاً لا ينفَد. فثمّة لا يدنو سارق، أو يرعَى سوس. فحيث كنزُكم قلبُكم" (لو ١٢/ ٣٣ـ٣٤)[123].

---

122 متّى ١٩ /٢١؛ مر ١٠/ ٢١.

123 رَ: متى ٦ /٢٠ـ٢١؛ ١٩/ ٢١؛ مر ١٠/٢١؛ لو ١٨ /٢٢.. يقول شرّاح إونجليون: من ميزات إنجيل لوقا التشديد على خطر الغنى، وعلى ضرورة إنفاقه على الفقراء (رَ: لو ٣ /١١؛ ٦/ ٣٠؛ ٧ /٥؛ ١١ /٤١؛ ١٢/ ١٦ـ٢١ و٣٣ـ٣٤؛ ١٤/ ١٤؛ ١٦ / ٩؛ ١٨ /٢٢؛ ١٩ /٨؛ أع ٩/ ٣٦؛ ١٠/ ٢و٤و٣١).

٤ . ثمّ يدعونا يسوع، أيضاً، إلى أن "نُسقي، ولو كأس ماء بارد، أحدَ هؤلاءِ الصِّغار، على أنّه تلميذ. فالحقَّ أقول لكم، إنّه لَن يَخسَرَ أجرَه" (متى ١٠/ ٤٢). فثمن استعمال المال استعمالاً حسناً أجرٌ عظيمٌ في السماء. أمّا مَن لا مالَ يستعمله، فأيُّ أجرٍ له! وهل يدعونا يسوع في ذلك إلى اعتناق الفقر والعمل للفقر، أم إلى خدمة الفقراء ومحاربة الفقر؟!

٥ . ويدعونا يسوع كذلك إلى ألاّ نعلّق قلبَنا بخيرات هذه الأرض. فما هو لنا منها يجب أن نُشركَ به غيرَنا. هذه قصّة يسوع مع الشابّ الغني الذي لم يشأ أن يهبَ ماله لمساكين. "لهذا مضى حزينَ النفس، لأنّه كان كثير الأملاك" (متى ١٩/ ١٦-٣٠)[124]. فمصيبة الشابّ الغنيّ ليست في كثرة ماله؛ بل في تمنّعه عن مساعدة الفقراء.

٦ . واستحقَّ زَكَّا، رئيسُ الجباة، زيارةَ يسوعَ، لأنّه قال: "أنا ، يا ربُّ، أهَبُ للمساكين نصفَ ما أَمْلِك. وإنْ كنتُ غَصَبتُ أحداً شيئاً أُعَوِّضُه عليه أربعةَ أضعاف" (لو ١٩/ ٨). وزكّا هذا كان غنيًّا، يتعاطى في أمور المال، ولم يكن فقيراً. ولكنّه كان يساعد الفقراء والمحتاجين. لهذا استحقّ زيارةَ يسوع.

٧ . وإذا شئنا بسْطَ وليمةٍ فلْندعُ إليها الفقراء، لا الأغنياء. هؤلاء قد يبادلوننا ما صنعنا لهم؛ أمّا أولئك فليس بوسعهم أن يبادلوا

124 رَ: مر ١٠ /١٧-٣١؛ لو ١٨/ ١٨-٣٠؛ ١٣/ ٣٠.

صنيعَنا معهم بشيء. قال يسوع: "إذا أولَمْتَ فادْعُ مساكين، وزَمنى، وعُرجاناً، وعُمياناً. وطوبى لك، إذ لا يَسَعُ هؤلاءِ أن يَرُدُّوا صَنيعَكَ، فيُرَدُّ إليكَ يومَ قيامةِ الأبرار" (لو ١٤/ ١٣-١٤).

فالمجّانيّة في العطاء هي في قمّة تعاليم يسوع: "إنْ تُحسِنُوا إلى المحسِنين إليكم فأيُّ فضلٍ لكم؟ ألخطأة أنفسُهم يفعلون ما تَفعلون. وإنْ تُقْرِضوا مَن تأمَلونَ منهم استيفاءً فأيُّ فضلٍ لكم؟.. ألا أَحسِنوا وأَقرِضوا، واستيفاءً لا تَأْمَلوا، فيَعظُمَ أجرُكم، وتُصبحوا أبناءَ العليِّ" (لو ٦ /٣٣-٣٥).

بهذه المجّانيّة،لا يحقّ لإنسانٍ أن يميِّزَ بين سائلٍ وسائل، ولا حتّى أن يُطالِبَ بما يُسلب منه سلباً: "أَعْطِ كلَّ سائل، والسّالِبَ لا تُطالِبْ" (لو ٦ /٣٠).

٨ . ثمّ يدعونا يسوع إلى فعل الصدقة مع المساكين، والصدقة في الخفاء (متى ٦ /٢-٤). هذه الصدقة يوصي بها العهد القديم[125]. ويأمر بها العهد الجديد[126]. ويعتبرها الإسلام ركناً من أركان الدين الخمسة، وهي "الزَّكاة"[127]. وقد استفاض لوقا في إظهار تعاليم يسوع في وجوب فعل الصدقة مع الجميع. إنّها أداة تنقية وتطهير: "ألا

---

125 رَ: طو ١ /٣؛ ٤/ ١١؛ ١٢ /٩؛ سير ٧/ ١٠؛ دا ٤ /٢٤.

126 رَ: لو ١١ /٤١؛ ١٢/ ٣٣؛ ١٦ /٩؛ ١٨/ ٢٢؛ ٢ قور ٨ /٩؛ روم ١٢ /٨.

127 ومعنى "الزّكاة" التنقية: "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكّى" (سورة الليل ٩٢ /١٨).

تَصَدَّقُوا بما لديكم يُصْبِح كلُّ شيءٍ لكم نقيًّا" (لو ١١/٤١)[128]. وفي لوقا أيضاً، "قالتِ الجموعُ ليوحنَّا: "فما عَلينا أن نعمَل؟". قال: "على مَن له قَميصانِ أن يَقتسِمَهما هو ومَن ليس له، وعلى من لديه طعامٌ أن يعمَلَ كذلك" (لو ٣/١٠-١١).

٩ . وأخيراً، إنّ أعظم ما جاء في تعاليم يسوع، تشبّهُه بالفقراء والمساكين؛ إلى درجة أنّ مَن يخدم هؤلاء فقد خدم يسوعَ نفسَه، ونال ملكوتَ السموات حتماً: "هلمَّ، يا مباركَي أبي، ورِثُوا المَلكوتَ المُعدَّ لكم، لأنّي جُعتُ فأَطْعَمتُموني، وعَطِشتُ فسَقَيتُموني، واغتربتُ فآوَيتُموني، وعَريتُ فكسَوتُموني، ومرِضتُ فعُدتُموني، وسُجِنتُ فزُرتُموني..."[129].

واختصر يوحنّا تعاليمَ يسوع هذه، في نقله عن يسوع قولَه: "يَخرُجُ فاعِلُ الصّالحاتِ إلى قيامة الحياة، وعاملُ السيِّئات إلى قيامة الدِّين" (يو ٥/ ٢٩؛ متى ١٦ /٢٧؛ أع ٢٤/ ١٥).

١٠ . **حياة الرسل والتلاميذ والمسيحيّين الأوّلين** كانت تطبيقاً لتعاليم يسوع. لقد كان المسيحيّون الأوّلون "يبيعونَ أملاكَهم ومُقتَنياتِهم، ويتوزَّعُونها على قدْر حاجةِ كلٍّ منهم" (رسل ٢/ ٤٥)، كما كانوا

128 رَ: لو ١٢/ ٣٣؛ ١٦/ ٩؛ ١٩/ ٨؛ رسل ٩/ ٣٦؛ ١٠/٢؛ ٤؛ ٤١؛ ١١ /٢٩؛ ٢٤/ ١٧؛ لو ٦/ ٣٠؛ ٨/ ٢٢؛ ٢١ /١-٤.

129 رَ: متى ٢٥/ ٣٤-٤٠: في يوم الدِّين، حيث اعتبرَ يسوع الذينَ ساعدوا الفقراء وكأنّهم ساعدوه هو.

يتقاسمون الأملاك فيما بينهم: "وكانت جماعةُ المؤمنين قلباً واحداً، ونفساً واحدة. ولم يكن فيهم مَن يرى، في ما يملِكُ، مُلكاً خَاصًّا به. بل كانوا مُتشَاركين في كلِّ شيء.. ما كان فيهم مُعْوِز، لأنَّ كلَّ مَن مَلَكَ عقَاراً أو بَيتاً، كانَ يَبيعُه ويأتي بثمن المبيعاتِ، ويُلقيه عندَ أقدامِ الرسل، فيُعطى كلُّ مؤمنٍ على قدْر حاجتِه" (رسل ٤ /٣٢-٣٥)..

١١ . **القديس يعقوب** يشدّد على الربط بين الإيمان والأعمال. فالإيمان من دون أعمالٍ ميت، والأعمال من دون إيمان لا قيمة لها. وأهمّ الأعمال الاهتمام بالمحتاجين والمساكين. يقول: "ما النّفعُ، يا إخوتي، إنْ قال أحدٌ إنّ له إيماناً ولا أعمالَ له؟ أفَيَسَعُ الإيمانَ أن يُخلِّصَنا؟ إذا كان أخٌ أو أختٌ عُريانَين، يُعوِزُهما القوتُ اليومي، وواحدٌ منكم قال لهما: اذْهَبا بسلام، واستَدْفِئا واشبَعَا. وأنتم لم تُعطوهما حاجاتِ الجسد، فما النّفْع؟ كذلك الإيمانُ أيضاً، إنْ لمْ يكنْ له أعمال، فهو إيمانٌ مَيتٌ في ذاته" (يع ٢/ ١٤-١٦). وأعظم الإيمان في أحسن الأعمال هو : "افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقهم" (يع ١ /٢٧).

١٢ . والدليل على محبّةِ الإنسانِ لله عند **القدّيس يوحنّا** هو محبّتُه لأخيه المحتاج : "مَن يكونُ له ثروةُ العالَم، ويرى أخاه مُحتاجاً، ويَحبِسُ عنه حنانَه، فكيفَ تَثبُتُ فيه محبّةُ الله؟ أيّها الأولاد! لا نُحِبَّنَّ بالكلام، ولا باللسان، بل بالعمل والحقّ" (١ يو ٣/ ١٧-١٨).

١٣ . أمّا **القدّيس بولس** فكان يحثُّ المسيحيّين على مساعدة الفقراء، مذكّراً إيّاهم بقولٍ للربِّ لا نجده إلاّ هنا. يقول: "أرَيتُكم دائماً كيفَ ينبغي أن نَتعبَ لكي نُسعِفَ الضعفاءَ، ذاكرينَ كلماتٍ قالها الربُّ يسوع: في العطاء ما ليسَ في الأخذ مِن هناء" (رسل ٢٠/ ٣٥).

وقد أدّى نشاطاً كبيراً في مساعدة الكنائس وجمْع التبرّعات. وكان جمْع التبرّعات يتمّ "أوّل يومٍ من الأسبوع" (١ قور ١٦/ ٢)، أي يوم الأحد، أثناء العمل الليتورجي، في الجماعة"، لما لهذا العمل من قدسيّة. فلكأنّ مساعدة المحتاجين والفقراء عملٌ مقدّس، لا يقلّ قدسيّة عن الاحتفال بالإفخارستيّا.

هذا وقد أعطى بولس التبرّع بالمال طابعاً روحيًّا وكنسيًّا كبيراً: ليس التبرّع إحساناً مادِّيًّا صِرْفاً، بل هو نعمة (٢ قور ٨/ ١ و٤ و٦ و٧ و٩ و١٩)، وخدمة (٨ /٤ و١٩-٢٠)، ومحبّة (٨/٨ و٢٤)، ومساواة (٨ /١٣-١٤)، ونعمة (٢ قور ٩ /٨ و١٤)، وعطيّة (٩ /١٥)، وبركة (٩/ ٥)، وبرّاً (٩/٩ و١٠)، ومشاركة (٩/ ١٣)، وفعل عبادة (٩ / ١٢)، وشكراً (٩ /١١ و١٢).. ومبدأ التبرّع يكمن في سرّ المسيح، الذي "هو غنيّ قد افتقر من أجلكم، لتَغتَنوا أنتم بفقره" (٢ قور ٨/ ٩).

ثانياً - المال في الحياة الرهبانيّة

١ . إنّ ما يُسمَّى في الحياة الرهبانيّة "نذر الفقر" ليس هو دعوة إلى أن تكون الرهبانيّة فقيرة من دون مال، وبالتالي من دون

استطاعتها مساعدة الفقراء. فما معنى، والحال هذه، توفير فرص العمل للرهبان؟! وهل تكون مساعدة للفقراء دون مال؟!

لكأنّ الراهب ينذر، لا الفقر، بل العمل للحصول على المزيد من المال. وبقدر ما يعمل يُنتج؛ وبقدر ما يُنتج يزيد ماله؛ وبقدر ما يزيد ماله يُصبح غنيًّا لا فقيراً. وعليه، والحال هذه، أن يبذلَ ماله في سبيل الفقراء. فمساعدة الفقراء هو الهدف، لا "الفقر". وأكاد أجزم بأنّ الراهب ينذر مساعدة الفقراء، لا "الفقر".

٢ . "الفقر" ليس قيمةً ليكونَ موضوعَ نذرٍ للربّ. المال، وما يُثمّن بمال، هو قيمة، لا الفقر. المالُ شيءٌ، والفقرُ لاشيء؛ والراهبُ ينذرُ للربِّ شيئاً، لا لاشيء. المال خيرٌ وقلّة المال شرّ. بالمال نخدم، ونساعد الفقراء، ونقوم بعملٍ ما، وننتج، ونقوم برسالة. به نساهم في رقيِّ الإنسان وتطوّر العالم.

"المال عطيّة الله، وعلينا أن نؤدّي حساباً عنه. والمالُ بابٌ إلى الظلم، فعلينا ألاّ نستعمله لظلم النّاس، بل في أعمال البرّ : نوزّعه على الفقراء فيصبحون لنا أصدقاء، ولدى الله شفعاء"[130].

٣ . تبذل الرهبانيّة كلَّ غالٍ ونفيس لإيجاد عملٍ لكلِّ راهبٍ من رهبانها. فهي ترسل مَن يشاء للتخصّص بعلمٍ من العلوم، أو بمهنة من المهن. وتوفّر له، إذّاك، رأسمالٍ خاصًّا، يعمل فيه، ويُنتج.

130 رَ: ترجمة "إونجليون"، ص ٣٣١؛ حاشية على لو ١٦ /٩-١٣.

وعلى الراهب أن يعمل ضمن تخصّصه.. وإذا ما أهمل العمل في إطار تخصّصه يخطأ. وإذا ما لم يوفّر له المسؤولون في الرهبانيّة فرصَ العمل في إطار تخصّصه يخطأون هم أيضاً. وإذا لم ينتج الراهب في عمله يخطأ. وإذا لم يزد في إنتاجه وينميه يخطأ أيضاً.

وما حسنُ إدارة أملاك الرهبانيّة ومؤسّساتها، من جامعة ومدارس ومستشفيات ومآوٍ... إلاّ عملٌ واستثمار وإنتاج. وهذا ما يزيدُ المالَ مالاً.

العمل والانتاج والنموّ يزيد حتماً في المال. والمال حكماً يزيد المال. فكيف، والحال هذه، يكون الراهبُ فقيراً والمال يزداد بين يدَيه؟

٤ . فإذا كان الفقر يعني مساعدة الفقراء، بحسب مفهوم الإنجيل، فالفقر يعني، إذاً، العمل والإنتاج، ونموّ المال. من هنا نحدّد الفقر الرهباني بأنّه إنّما يكون في كثرة الإنتاج ونموّ المال ورأس المال، والقليل القليل من الاستهلاك. والكلّ في سبيل نموّ الرهبانيّة والكنيسة من أجل مساعدة الفقراء.

إنّ وضعنا البشري، ونحن على الأرض، يحتّم علينا أن نعمل في الأرض، وأن نعيشَ من خيراتها. وخيراتها لن نحصل عليها من دون عملٍ وتعب، ومن دون مالٍ وما يثمّن بمال.

إنّ وضعنا الاجتماعي، ونحن منتمون إلى مجتمع مدني معيّن،

يحتّم علينا أن نشارك في حقوق هذا المجتمع وواجباته. فنحن نملك عقاراتٍ، وندير مشاريع، ونؤسّس مدارس ومستشفيات..، وندفع ضرائب، ونبادل بالخدمات... وكلّها بثمن. فكيف يكون فقرٌ، والمتوجّبات في هذه كلّها كثيرة وكبيرة في المجتمعات المدنيّة المعاصرة؟!.

٥ . في هذا العالم السائر إلى تقنيّة هائلة في العمل، والإنتاج، والإدارة، والمشاركة، والمساهمة، وانفتاح الأسواق العالميّة، والتجارة عبر الحدود، وتنوّع البضائع، وواجب مساعدة المحتاجين، ومحاربة البطالة.. نجد المؤسّسات الرهبانيّة نفسها، بكونها موجودة في هذا العالم وتعمل فيه، مدفوعة دفعاً إلى الاهتمام بالناحية الاقتصاديّة اهتماماً بالغاً، كوسيلة رئيسيّة للاهتمام بالإنسان نفسه.

والاقتصاد السليم في المؤسّسات الرهبانيّة يعتمد، حكماً، لكي يكون رسوليًّا ناجحاً، على الحالة السياسيّة. فلا شيء في عالم اليوم يستطيع أن ينجح وينمو ويتقدّم إنْ لمْ يعرفْ حالات المجتمع وشؤون العالم المتطوّر أبداً.

فإنْ لمْ تراقب المؤسّسات الرهبانيّة تطوّر دول العالم، وعلامات الأزمنة، وأحوال المجتمع البشري، تفقد إمكانيّات نموّها وتطوّرها، وتصبح معزولة، من دون هدفٍ ولا رسالة، ويصير عيشُ الفقر أمراً صعباً، ومساعدة الفقراء عملاً مستحيلاً.

٦ . المؤسّسات الرهبانيّة، في معظمها، ورثت من الآباء والأجداد ما ورثتْ. والرهبانيّة الناجحة هي تلك التي ورثتْ كثيراً، وحافظتْ على ما ورثتْ، وأحسنتِ الإدارة.. فكيف تكون اليوم المحافظة على المال وعلى الرسالة معاً؟ وكيف العمل ليزيد رأسُ المال وتنجح الرسالة أيضاً؟ الميزان الصحيح في هذه الأمور يجب أن يكون همّ المسؤولين الكبير.

وثمّة ميزان آخر يجب أن يكون صحيحاً ودقيقاً هو الميزان بين فقر الراهب الشخصي وغنى الرهبانيّة كمؤسّسة: كلاهما واجب. فلا الراهب يكون راهباً إنْ لم يكن فقيراً في سكنه ولبسه وأكله؛ ولا الرهبانيّة تكون ناجحة وصاحبة رسالة إنْ لم تكن غنيّةً في أملاكها ومشاريعها ومؤسّساتها، لتقوم بموجبات الخدمة والرسالة.

٧ . لهذا نقول: كلّ ما ينتجه الراهب من عمله وجهده، وممّا ورثه من الآباء والأجداد، يخصّ الرهبانيّة جمعاء، ويدخل في حساب الصندوق العام، أي "بنك الرّهبانيّة الخاص". والصندوق العام وحدَه يقوم بالمشاريع في الرهبانيّة. وليس من حقِّ أيِّ مسؤولٍ أن يتصرّف بما وفّره الأفراد، ويتباهى به على أنّه من جهده، ويقوم بمشاريع على حسابه أو حساب ديره.

ولئن كان نذرُ الفقر يتميّز، في ما مضى، بممارسة التقشف والحياة الشظفة، فهو اليوم، يتميّز، أيضاً، وبنوعٍ خاصٍّ، بالتضامن،

والعدالة، والمساواة، والرسالة، والخدمة المجّانيّة. هذا "الفقرُ الاشتراكي"، أو "الفقر التضامني"، تقوم به، حتماً، الرهبانيّة جمعاء، أو الجماعات الديريّة، لا الأفراد.

٨ . لهذا، على المجامع العامّة في الرهبانيّة أن تحدّد كلَّ سنة، الميزانَ الصحيح بين فقر الراهب وغنى الرهبانيّة، بين رأسمالها وخدمتها للفقراء. وعليها، بالتالي، لا أن تحدّد الموازنة التي يعمل المسؤولون ضمنها فحسب؛ بل وأيضاً، أن تحدّد "حقّ الفقراء"، وكمّيّة المال التي تُصرَف لمساعدتهم.

٩ . فوائد المال قد تغني، أحياناً، عن العمل، وعن القيام بمشاريع، وعن كلّ همٍّ معيشي. وهذا يشكّل خطراً مباشراً على الحياة الرهبانيّة التي يُخشى منها أن تعيش، بسبب رأس المال وفوائده، في الاسترخاء والكسل.. فيما عليها ألاّ تعيش من رأسِ المال وفوائده إطلاقاً. بل رأس المال وفوائده إنّما يجب أن تكون لخدمة المحتاجين وتنفيذ مشاريع إنسانيّة.

وفرة المال يودع، عادةً، في المصارف. والمصارف تستفيد منه لأعمالٍ رابحة نجهل هوّيتَها ومخارجها. ولا يحقّ للرهبانيّة أن تُعطي أموالها التي هي ثمرة جهد مقدّس، ليُستثمر في مشاريع تجهلها، وقد تكون غير مقدّسة. فكما لا يحقّ للرهبانيّة، بحسب القوانين الكنسيّة، أن

تُقيم مشاريع لا تناسب رسالتَها؛ هكذا لا يحقّ لها أيضاً أن تودع أموالاً مقدَّسةً في مصارف تجهل وجهة استعمالها.

وليس على المؤسّسات الرهبانيّة، أيضاً، أن تعمل في إثراء المصارف؛ بل عليها أن تُنشئ مصرفاً خاصًّا بها؛ وذلك، لئلاّ تزيد غنى الأغنياء، بدلاً من أن تُزيل فقرَ الفقراء؟! هذا المصرف الرهباني تسمّيه القوانين "الصندوق العام". فليبق على هذا الاسم؛ ولكن لتكن فيه حصّة كبيرة للفقراء.

١٠ . جاء في قراءة يسوع من أشعيا: "وَأُنادِي بسَنَةٍ مَقبولةٍ لدى الربِّ"[131]. وهي سنة اليوبيل الخمسيني التي فيها "يجب على الأرض نفسها أن تحفظ السبت"، أي تستريح من الزرع،[132]. في هذه السنة، يتمّ الإعفاء من الديون (رَ: تث ١٥/١-١١)، وإعتاق العبيد العبرانيّين (رَ: خر ٢١ /٢). أمّا "السنة المقدّسة، أو اليوبيليّة، في الكنيسة هي فرصة يُعفَى المسيحيّون فيها من ديونهم لوجه الله"[133].

١١ . من هنا نستوحي ونقول: لا بدّ للمؤسّسات الرهبانيّة، في كلّ مرحلة من الزمن، من توزيع الخيرات بعدالة ومساواة بين أديار الرهبانيّة الواحدة: قد يكون هناك حروب، وتهجير، وعوامل طبيعيّة،

---

131 لو ٤/ ١٩ = أشعيا ٦١ /١-٢؛ أح ٢٥ /١٠-١٣.
132 رَ: خر ٢٠/ ٨؛ ٢٣/ ١٠-١١؛ أح ٢٥/ ١-٧؛ نح١٠/ ٣٢؛ ١مك ٦/ ٤٩-٥٣.
133 رَ: حاشية عى أح ٢٥ /١، من طبعة اليسوعيّين.

وحالات سياسيّة قاهرة.. تحطّ أدياراً، وترفع أخرى. كما قد تكون أيضاً مناطق جغرافيّة متطوّرة إقتصاديًّا، ومناطق محرومة.

وقد يمنّ الربُّ على أديارٍ بقدِّيسين، يزيدونَ ثروتها من دون جهد ساكنيها.. فعلى المجامع العامّة في الرهبانيّة، والحال هذه، أن تعمل للعدالة والمساواة، بموجب شريعةٍ مادّيّةٍ قديمة وشريعة روحيّة حديثة.

١٢ . ثمّ على المؤسّسات الرهبانيّة أن تضمن أبناءَها المرضى والعجزة، وتوفّر لهم حياةً كريمةً، عادلة، متساوية.. هذه الحالات لا يضمنها ديرٌ أو رئيس؛ بل السلطة المركزيّة.

فكما تضمن الرهبانيّة كلُّها تربيةَ ناشئتها، عليها أيضاً أن تضمن مرضاها وعجزتها. هكذا يصنع أبناء هذا الدهر بالضعفاء منهم. وبهذا تقوم الدول المتحضّرة أيضاً فتضمن مواطنيها في مرضهم وعجزهم؛ وتؤمّن لهم العِلمَ والمسكن والعمل. فكم على السلطات المركزيّة أن تعمل من أجل أبنائها، لتحافظ على رسالتها الحقيقيّة. فالأقربون أولَى بالخدمة.

خاتمة

دول العالم القويّة إنّما هي قويّة بسبب قوّة اقتصادها؛ وبالتالي فإنّ العدالة والمساواة والمساعدات المجّانيّة هي من بحبوحة المال لديها. فالدول الغنيّة تتحكّم بدول العالم الثالث. إنّها هي التي تدير العالم بحسبما تريد.

الرهبانيّات الناجحة في رسالتها الإنجيليّة هي التي تزيد في مالها، لتزيد في خدمة الفقراء، وإنماء المجتمع والكنيسة. قيل:"يكاد الفقر أن يكون كفراً". إنّه، حقًّا، على صعيد المؤسّسة الرهبانيّة، كفر؛ كما الغنى، على صعيد الأفراد، كفر.

العملُ والإنتاج والمال ومساعدة الفقراء وتنمية الرهبانيّة والكنيسة والمجتمع بالمشاريع الإنسانيّة هو الخير الحقّ والرسالة الإنجيليّة المبتغاة؛ إنّما البطالة والكسل والاتكال والاسترخاء هي الشرّ. ومنها كلّ شرّ. وعلى السلطات الرهبانيّة، لكي تكون في طريق القداسة، أن تحافظ على الميزان الحقّ بين "فقر" الأفراد و"غنى" الجماعة. فالمال مع الأفراد مال خيانة، فيما المال مع الجماعة مال مقدّس.

٢٥

"العفّة المكرّسة وتحدّياتها"

جاء في الرسالة البابويّة "الحياة المكرّسة": "أوّل التحدّيات.. تحدّي الجنس والغرائز وما يرافقها من آلام.. جواب الحياة المكرّسة يقوم على ممارسة العفّة الكاملة في الفرح، شهادةً لقدرة محبّة الله في هشاشة وضعنا البشري.. شهادة.. قليلاً ما العالمُ يستوعبها.. ودلالةً على أنّ محبّة الله بوسعها أن تصنع عجائب كبرى، شهادة تلبّي حاجة متنامية إلى الشفافيّة في العلاقات البشريّة. شهادة ً تقضي التحلّي بالتوازن والتماسك والحيويّة والنّضج النّفساني والعاطفي. يشعر بها المكرّس بأهليّة يمارس فيها حبّاً جذريّاً وشاملاً" (عدد ٨٨).

(جاء تفصيل ذلك في فصل ٣٥ تحت عنوان "تحدّيات الحياة الرهبانيّة"، في الإرشاد الرسولي "الحياة المكرّسة"، ص ٣٦٩-٣٧٤ من هذا البحث).

الفصل الرابع

السلطة في الحياة الرهبانيّة

٢٦

القانون في الحياة الرهبانيّة

مقدّمة

١ . شأنُ القانون أن يرسم الحدود بين الإنسان وذاته، وبين الإنسان وأخيه، وبين الإنسانِ وجماعته، وبين جماعة وجماعة، وبين الإنسان وربّه.. وشأن القانون أيضاً أن يضبط سلوك الإنسان في ما يرسمه له، لا في ما يرغبه الرؤساء. فالطاعة هي للقانون لا للرؤساء الذين يأمرون بمعزل عن القانون، والحرّيّة يضبطها القانون لا الرؤساء بحسب رغائبهم، والقانون هو الآمر لا الرؤساء.

٢ . إنسانٌ لم يرسم لرغبات نفسه، ولشوارد فكرِه وقلبه، حدوداً يعمل ضمنها، هو إنسانٌ تائهٌ ضائع لا قرار له ولا استقرار. فأيّ إنسان يستطيع أن ينضبط إنْ لم يقيّد حرّيّةَ تصرّفاتِه بقوانين واضحة، تضبط طبيعتَه في نزعاتها، وغرائزها، وأميالِها، وشهواتِها، ورغباتِها التي لا تُحدّ! كيف يستقيم سلوك إنسانٍ إذا لم

تكن له قوانين وشرائع وقواعد وأنظمة وفرائض تحدّد مسيرته وتوجّهه؟!

أوّلاً - المجتمع والقوانين

٣ . القانون هو الذي يرسم الحدود، ويحدّد وجهةَ السير، ويضبط الطرقات، ويوصل إلى الهدف. مِن علامات المجتمع المتحضّر أن تكون طرقُه مضاءة، منضبطة، مصانة، مؤهّلة، على جنباتها، وعند كلّ منعطف، علامات وإشارات. وعند كلّ حفرة تحذيرات وتنبيهات. ومجتمع متخلّف هو ذاك الذي لا ضوابط له ولا حدود.

٤ . صحيح أنّ القانون يقيّد الحرّيّة، ويضع لها حدوداً، حتّى إنّه يُفقدُها هوّيّتها ومميّزاتها؛ ولكنّه، في الوقت ذاته، يحمي حرّيّاتِ الآخَرين. فالقانون، بهذا المعنى، يضبط سلوكَ الإنسان، ويحمي حرّيَّته من حرّيات الآخرين، بدل أن يقيّدها.

٥ . على نور القانون، يحكم الإنسان على نفسه إنْ كان يسير سيراً مستقيماً، ويحكم على الآخرين إنْ كانوا صادقين فيما يعملون. ولكأنّ القانون هو الذي يحدِّد المعالم، ويكشف عن الزلاّت، ويفرض أعمالَ التوبة والتكفير، ويحمّل الضمائر أثقال كلّ مخالفة.

حتّى الناسك المنفرد، له قانون يحافظ عليه، ويحفظه، وقد لا يحقّ له، أن يمارسَ أعمالَه التقويّة وإماتة شهواته، من دون قوانين محدَّدة وضوابط دقيقة. هذه القوانين تضعها له "جماعة"، ولو كانت تجهل حياة النسك جهلاً كاملاً؛ إنّما هي التي تتولّى ضبط النزوات البشريّة الفالتة، ولو عند حبيس غارق في أعمال الروح وحياة القداسة.

٦ . فالإنسان معرّض للشطط والانحراف؛ وبالتالي، ليس هو مَن يضع لنفسه القوانين. لهذا، يسهر المجتمع المدني على أنظمة مؤسّساته وقوانينها، كما تسهر الكنيسةُ نفسُها على قوانين الرّهبانيّات والجمعيّات والمنظّمات والمؤسّسات والأخويّات والحركات الرسوليّة والنسكيّة كلّها.

ثانياً - الكنيسة والقوانين

٧ . لقد تحاشت الكنيسة، بعد المجمع الفاتيكاني الثاني شططين: شطط قوانين يصنعها أفرادٌ، يفرضونها على جمعيّاتهم، حتّى ولو كان هؤلاء الأفراد قد بلغوا ما بلغوا من العلم والخبرة والقداسة؛ وشطط قوانين تُفرَض على الجمعيّات فَرضاً من الخارج، من دون اعتبار البيئة والمجتمع ومستوى الثقافة والوعي.

٨ . فالكنيسة، بعد المجمع المذكور، ليست مستعدّة على أن تسنّ قوانين لمؤسّساتها. لذا طلبتْ من المسؤولين في الجمعيّات

والمنظّمات الرهبانيّة أن يقوموا هم بتجديد حياتهم وقوانينهم.

لهذا جاء في قرار "قواعد لأجل تنفيذ مرسوم المجمع الفاتيكاني الثاني: المحبة الكاملة": "يعود الدّور الأساسي في تجديد الحياة الرهبانيّة وتكييفها إلى المؤسّسات نفسها، فتحقّقه خاصّة بمجامع عامّة"[134].

وجاء أيضاً: "لهذا المجمع العام سلطانٌ على تحوير بعض مواد الرسوم" (عد ٦).

وقال: "يجب أن يحذَف من قانون المؤسّسات الأساسي كلّ ما أصبح بالياً أو قابلاً التغيّر مع عادات كلّ عصر" (عد ١٤).

ويوجب القرار "في تجديد الحياة الرّهبانية الملائمة عصرنا.. أن يتكيّف نظام الحياة والصلاة والعمل تكييفاً ملائماً لأحوال الرهبان الجسديّة والنفسيّة الحالية، لا سيّما لحاجات العمل الرسولي ومقتضيات الثقافة والظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة حسبما يتطلّبه طابع كلّ مؤسّسة" (عد ٣).

"ووفقاً للمقاييس عينها يجب أن يُعاد النظر أيضاً في نظام المؤسّسات الإداري. وعليه فليُعد النظر، بصورةٍ ملائمة، في الدساتير والطرائق وكتبِ العادات والكتب الطقسيّة وكتب

134 قواعد لأجل تنفيذ مرسوم المحبّة الكاملة، عدد ١.

الصلوات والاحتفالات وما شابهها، فتُلغى منها النصوص البالية، وتجدَّد وفقاً لنصوص المجمع المقدّس" (عد ٣).

٩ . يُشدِّد المجمع على تجديد الحياة الرّهبانيّة، والقوانين والفرائض، وكتب التقليد والصلاة.. ويعترف بأنّ ثمّة أشياء "بالية" يجب أن تزول. ويجب أن تُلاحظ مستويات الثقافة وظروف المجتمع والبيئة.. وعلى كلّ رهبانيّة أن تقوم هي نفسها بذلك.

ثالثاً - وجوب القوانين في الرهبانيّة

بات ملحّاً جدّاً أن يكونَ للرّهبانيّة كتابٌ نهائيٌّ لقوانينها وفرائضها. وإلاّ استمرّ كلُّ شيءٍ ضائعاً، وفي حالٍ من الفوضى. واستمرّت الرّهبانيّة من دون مرجع. والرّهبان من دون حماية. والمسؤولون من دون نَهجٍ واضحٍ يديرون به ويحكمون.

١ . عدم وجود كتاب قانون نهائي، ثابت، صيّر جيلاً كاملاً من الرّهبان غير ملتزم بشيء، يعيش على هواه وطبيعته. وقد يصعب على أيّ سلطةٍ أن تعيد راهباً اعتادَ الحياةَ اللاقانونيّة إلى الالتزام الكامل بمبادئ الحياة الرّهبانيّة. وكلّ مرّة كانت سلطةٌ تطالب راهباً، كان الخوف دائماً من التصادم، أو حتّى من ترك الرّهبانيّة.

٢ . وكذلك أيضاً، وبسبب فقدان القانون، لم يكن للرّهبان حمايةٌ من تسلّط السلطة. وكلّ سلطة، في تحديدها، جائرة بحقّ الأشخاص الذين تتصرّف معهم وكأنّها تمتلكهم. فما استطاعَ راهبٌ أن يطالبَ سلطةً عاجزة، أو أن يقترح عليها مشروعاً، ويجد له عندها أُذُناً صاغية، أو أن يتعاملَ معها بأمانٍ وسلامٍ وتفاهم، أو أن يسألها رؤيةً جديدة لمستقبلٍ آتٍ...

٣ . وكذلك، لم يكن للسلطة قاعدةٌ تحكم بموجبها. ولا مبادئ تعتمد عليها. ولا نهج تسير عليه. إنّها، من دون قانون تستند إليه لتحمي به نفسَها من مطبّات الزمان، ومن تعنّت بعض الرّهبان. وهو ممّا جعلَها عاجزةً عن أن توجّه ملامةً لراهبٍ متقاعس. أو أن تقوم بمشروعٍ دون انتقادٍ قد يشّلها.

٤ . لمَن يسألُنا عن حياتِنا الرّهبانيّة، عن مفهومها، ونهجها، وغايتها، نقدّم له، قبل كلّ شيء، كتاب القانون. نقدّمه لمن يريد الترهّب، أو لمن يسألنا عمّا نحن عليه، وعن مفهوم الحياة الرّهبانيّة التي نعتنقها، وعن القيم التي نعيشها، والمبادئ التي تسيّرنا، والنّهج الذي نسلكه، والغاية التي نسعى إليها. هذا الكتاب نفتقده منذ زمن؛ أو هو دائماً تحت الاختبار الذي امتدّ كثيراً في الزمن.

٢٧

"العصمة القانونيّة"

يجب ألاّ يخطر ببال أحدٍ، من الأساقفة أو من الرّهبان، أنّ المؤسّسات الرّهبانيّة، أو المنظّمات والجمعيّات والأديار، والأشخاص... "يفتحون على حسابهم". إنّهم في الكنيسة، في الأبرشيّة، وفي الرّعيّة، تحت سلطةٍ كنسيّةٍ معيّنة، خاضعون لها في كلّ شيء، ضمن قوانين كنسيّةٍ محدّدة.

للأسقف الحقّ، بحسب القوانين الكنسيّة أنْ يوجّه رسائلَه وإرشاداته، ويصدر أوامرَه على الأديار والرهبان والعلمانيّين في حدود ولايته؛ وعلى الأديار والرهبان والعلمانيّين أن يُطيعوا رئيسَ كنيستهم المحلّيّة، ويخضعوا له، وينصاعوا لأوامره انصياعاً كاملاً. كما للأسقف الحقّ في أن يزورَ أبرشيّتَه حرًّا.

مع الاعتراف الكامل بسلطة قداسة الحبر الأعظم على الكنيسة جمعاء، يجب أن ننتهي جميعُنا، أساقفة ورهبان، من القول بأنّ روما هي "المرجعيّة" لبعضِ المؤسّسات الرّهبانيّة؛ إلاّ بما يتعلّق، بقواعد الإيمان وأسس العقيدة والأخلاق وبالقوانين الكنسيّة العامّة. أمّا أن تكون

"روما" ملاذاً وحمًى لها من السلطات الكنسيّة المحلّيّة، فهذا غير مقبول.

إنّ "العصمة البابويّة"، و"الحقّ الحبري" ليس لهما، اليوم، أيُّ معنىً. ليس بوسع أحد أن يخرج عن سلطة الأسقف المحلّي الذي يتولّى شؤونَ الكنيسة.

***

والذي دفع برهبانيّاتٍ إلى التعلّق بالكرسيّ الرسوليّ مباشرةً، ليس نيّتها في التحرّر من السلطة الكنسيّة المحلّيّة، ولا عشقها للسلطة الرّومانيّة؛ ولا أيضاً صلاح هذه وفساد تلك؛ بل هناك أسبابٌ وجيهة، نذكر منها :

أوّلاً - إنّ سلطاتنا الكنسيّة المحلّيّة، اتّجهت صوب الكرسيّ الرسوليّ قبل الرهبانيّات. وهي "لا تقطع خيطاً" من دون استشارة آخر موظّفٍ في آخِر دائرة من الدوائر الرومانيّة. ولهذا كانتْ سلطاتنا المحلّيّة تعرقل وتماطل في تقرير أيِّ شيء. فارتأت الرّهبانيّات أن تكون هي على علاقة مباشرة مع هذه الدوائر، من دون وسيطٍ مقيّدِ اليدين، بطيء الحركة والقرار.

ثانياً - إنّ جهلَ سلطاتنا الكنسيّة المحلّيّة بشؤون الحياة الرّهبانيّة، والبحثَ عن مصالحهم الخاصّة مع هذا أو ذاك من الرّهبان، وتدخّلهم في كلِّ شاردةٍ وواردةٍ في الأمور الرّهبانيّة الخاصّة، والاعتماد على الأنسباء والأقرباء، والسماع إلى الحكّام العلمانيّين لتلبية

رغائبهم، كما حدث مراراً وتكراراً في التاريخ... هو الذي جعل رهبانيّاتٍ تلجأ إلى الدوائر الرومانيّة، وتلوذ بها وتحتمي بحماها.

ثالثاً - إنّ هذا الاختبار المرير، المشار إليه، الذي عاشتْه رهبانيّاتٌ، عبر التاريخ، مع بطاركةٍ وأساقفة وحكّام، هو الذي جعلها تتمسّك بـ "العصمة البابويّة" وبـ "الحقّ الحبري"، لتحمي نفسَها بالصخرة البطرسيّة، بقوانينَ خاصّة، تتعلّق مباشرة بالكرسي الرّسولي. وهذا لم يكن يوماً تحرّراً في الأمور الكنسيّة التي تحتّمها القوانين؛ بل تحرّراً من تسلّط لا يحكمه قانون.

رابعاً - إنّ شعورَ كلِّ إنسانٍ باستقلاليّة قراره وحرّيّةِ تصرّفه، راهباً كان أو علمانيًّا أو إكليريكيًّا، خاضعاً لقوانين عامّة أو خاصّة، منتسباً إلى أيّ جماعةٍ أو مؤسّسةٍ أو مجتمعٍ أو وطن.. هو حقٌّ إلهيٌّ طبيعيٌّ مقدَّس. فلا قوانين، ولا كنيسة، ولا حَبر، ولا حاكم، يستطيع أن ينالَ من حرّيّته من دون قوانين ترعى مصلحة الأطراف جميعها.. فالرّاهب إنسانٌ حرٌّ. وللرهبانيّات أيضاً حرّيّتها، أكانت بابويّة أم بطريركيّة أم أسقفيّة. ولا أحد يخضع لأحد من دون قوانين يخضع لها كلّ أحد.

***

هذا الحقُّ الإلهيّ الطبيعيّ يرسم حدًّا لكلِّ علاقةٍ بين السلطات الكنسيّة والرهبانيّات. ولا يمكن أن يكون الخلل من طرفٍ واحد. بل

الخلل يتأتّى، عادةً، من الرؤساء لا من المرؤوسين الذين يبحثون عن ملجإٍ خارجيٍّ يعتصمون فيه ويتخلّصون به من ظلم داخليّ.

فالقاعدة، عندنا، لصحّة العلاقة، هي التقيّد بمبدأين: مبدإٍ لاهوتيّ فيه تكون الكنيسةُ المحلّيّة هي المرجعيّة الصالحة، بحسب ما ترسمه القوانين والحقّ العام؛ ومبدإ استقلاليّة كلّ إنسانٍ في قراره وتدبّر مصيره، فهو من الله الذي شاء الإنسانَ حرًّا منذ البدء.

وعليه نقول: إنّ الرهبانيّات خاضعة لقوانين ترعى شؤونها، وتحدّد العلاقة بينها وبين أيّ طرفٍ آخر، أكان رومانيًّا أم محلّيًّا؛ وهو ما نسمّيه، بعد اليوم، "العصمة القانونيّة"، لا الحبريّة ولا البطريركيّة ولا الأسقفيّة.

هذه "العصمة القانونيّة" هي التي ترسم الحدود بين السلطات الكنسيّة والرهبانيّات. وبعد أن وضعتِ الكنيسةُ "مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة"، بات لا معنىً لما كان يُسمَّى قديماً "العصمة البابويّة"، أو "الحقّ الحبري". فالقوانين هي التي ترعى كلَّ حقٍّ، لا الأسقف، ولا البطريرك، ولا البابا، ولا أيّ سلطان. و"العصمة" إنّما هي لهذه القوانين، لا لهؤلاء السادة.

والخللُ الذي يكون من المرؤوسين يُعالَج، عادةً، بسهولة؛ أمّا الخلل الذي يكون من المسؤولين فعلاجه أصعب. والرؤساء أنفسُهم هم الذين يلجأون إلى "العصمة"، لا المرؤوسون. وإذا شئتَ كلاماً دقيقاً

نقول: إنّ "العصمة القانونيّة" هي، اليومَ، ملجأ الرهبان؛ فيما "العصمة البابويّة" أصبحت ملجأ الرؤساء.

وأخيراً، نقول: إنّ "العصمة القانونيّة" هي البديل اليوم عن "العصمة البابويّة". ولكلِّ طرفٍ حدُّه وموقعه وحقوقه وواجباته. ولا أحد يتسلّط على أحد. والربّ قال فيما قال: "تَعلَمُونَ أنَّ رُؤَسَاءَ الأُمَمِ يَسْتَعْبِدُونَها، وأنّ عُظَمَاءَها يَتَسَلَّطُون عليها. أمّا الحَالُ بَينَكُمْ فَآخَر: مَنْ أرَادَ أنْ يَكونَ فِيكُم عَظِيمًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا. وَمَنْ أرَادَ أنْ يَكُونَ فِيكُمْ أوَّلَ فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا. والمِثَالُ ابْنُ الإنسَانِ الّذي مَا جَاءَ لِيُخْدَمَ بل لِيَخْدُمَ. وبِنَفْسِهِ يَفْدِي كَثِيرِين" (متى ٢٠/ ٢٥-٢٨).

٢٨

... رئيساً كبطرس

١ . على القدّيسين بيننا أن يكتشفوا سرَّ النّعمة التي أُعطيتْ لبطرس ليكون "الصخر" الذي عليه بنَى يسوعَ كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وعلى علماء الكتاب المقدّس أن يقولوا لنا شيئاً عن مؤهّلات بطرس وصفاته الرّسوليّة التي من أجلها اختاره يسوع "رئيساً" على كنيسته، وسلّمه "مفاتيح ملكوت السماء"، وحمّله مسؤوليّة "الحلّ والرّبط"...

أمّا نحن الذين نقلّب صفحات الإنجيل بشَغفٍ، ومن دون علم واختصاص، فتستوقفنا شخصيّة بطرس، لنكتشف فيها صفاتٍ بشريّة طريفة وظريفة جدًّا، قد تكون، هي أيضاً، ساهمتْ في اختيار يسوع له تلميذاً، ورسولاً، ثمّ ميّزه على جماعة الرّسل ومسؤولاً عنهم، ورئيساً على كنيسته.

٢ . هذه الصفات، التي أهّلتْ بطرسَ ليكون رئيساً، قليلاً ما نتوقّف عندها في اختيار رؤساء مجتمعاتنا. وقد لا تسترعي انتباهنَا إطلاقاً. وإذا ما وجدناها في أحدِنا نُبعدُه عن كلّ مسؤوليّة ورئاسة.

فما هي هذه الصفات التي دعتْ يسوعَ إلى اختيار بطرسَ رئيساً؛ وما هي الصفات التي نبحث عنها نحن لنُقيم علينا رئيساً؟! لننظر الفرق :

أوّلاً - الرئيس الذي نريده

٣ . نحن، أبناء هذا الدهر، نبحث عن رئسٍ دبلوماسيٍّ محنّك، حَذِق، حَذِر، متبصِّر، صاحب رؤيا ومواقف ثابتة. يزن الأمور. يميّز الأوقات. يعرف المناسبات. يتحيّن الظروف. يختار الكلامَ المنمّق. يتمتّع ببرودة أعصاب. هادئ لا يتهوّر بما يصرّح به. لا يهين كرامة مَن يمثِّل. لا يكشف أوراقَه كلّها. يستعمل الرموز والألغاز في أحاديثه. يراوغ ويداور ويحاور. لا تستطيع أن تسجّل عليه موقفاً يُؤخَذ عليه. ولا يوجد أيّ حدثٍ قاهر يؤثِّر فيه. فهو هو، و"حاله حالٌ في كلّ حال".

٤ . نريد رئيساً لطيفاً، ناعماً، هادئاً، صبوراً، صامتاً، مصغياً. يبتعد عن المنازعات الصغيرة ليبقى كبيراً. يسير بموجب التقاليد المرسومة. يحافظ على الرسوم الموضوعة. يقدّس الكوادر الجاهزة. لا يتخطّى البروتوكول المحدّد... هذه، لولاها، لما كان رئيساً. لهذا فهو لا يمكنه أن يثور عليها، لأنّها هي التي جاءتْ به، فكيف ينقلب عليها؟!

٥ . نريد رئيساً رصيناً. لا يشكّ ولا يقلق. لا يشكّك ولا يثير الفتن. في عَينيه ذكاء. وعلى لسانه الكلمة المناسبة. لا يحبّ المال. ولا يُغريه الجاه. لا يعمل للأهل والخلاّن. لا يُتَّهَم بشائنة. لا يسقط بهفوة. لا يرتبط بكلمة يلزمه تنفيذُها. لا يُعاشر إلاّ كبار القوم. لا يؤاكل غير

أصحاب النفوذ. رئيساً يعرف من أين تُؤكَل الكتف. ويعرف عواقب الأمور قبل وقوعها.

٦ . نريد رئيساً معتدلاً. فضيلته أوسط الأمور. موقفه بين بين. رئيساً يمينيًّا مع اليمين، ويساريًّا مع اليسار. بل رئيساً، لا هو مع اليمين ولا هو مع اليسار. يَقبل فتظنّه يرفض. ويرفض فتظنّه يقبل. بل يقبل ويرفض في آنٍ معاً. رئيساً منفتحاً، محاوراً، داهية، مقداماً؛ ولكن بمرونة وليونة تظنّه معهما في غاية اللطافة والكياسة؛ فيما هو يلاعب ألطف اللّطفاء وأعنف العنفاء على السواء.

٧ . نريد رئيساً يتمتّع بعلمٍ غزير، وثقافة شاملة، ومعرفة موسوعيّة. يتكلّم معظم اللغات الحيّة. يكتب فيها ويخاطب الجماهير. له قبالة كلِّ لوحةٍ فنّيّة دهشة. وله حديثٌ مع المهندسين في الهندسة، ومع الأطباء في الطبّ، ومع الموسيقيّين في الموسيقى، ومع الفلاّحين في الأرض والمواسم.. يتمتّع بحكمة الطبيب، وببراعة الفنّان، ومنطق الفيلسوف، وحيلة المحامي، ودقّة المهندس.

٨ . نريد رئيساً يحدِّث ويبرع في كلّ فنٍّ وعلم ومهنة. رجل صالونات. نجم شاشة. يستقطب، بحسن هندامه، عيونَ المشاهدين. يشنّف آذان المستمعين. نبراته طنّانة. حركاته جذّابة. صوته جهوري. نظراته ثاقبة.. رئيساً كامل الصفات، شامل النعم. لا ضعف فيه إلاّ ويخفيه. ولا نقص إلاّ ويُرينا إيّاه كمالاً. شخصيّة قوّيّة، مرنة، فذّة. هي ضمانة للآئذين إليه.

هذا ما نريده من رؤساء هذا الدّهر.

ثانياً - بطرس الذي أراده يسوع رئيساً

٩ . أمّا بطرس الذي عليه بنى يسوع كنيستَه، واختاره على الرسل رئيساً وراعياً، وسلّمه كلّ سلطان في الأرض والسماء، وأعطاه مفاتيح الملكوت، وجعل بين يديه الحلّ والرّبط، وصيّره صخر الإيمان الذي لا يتزعزع... بطرس هذا لم يتجمّلْ بالصفات التي نبحث عنها في اختيارنا رؤساء هذا الدهر.

١٠ . لم يخترْ يسوعُ بطرسَ رئساً بسبب كثرة علمه وسعة معارفه. بطرس كان رجلاً "أمّيًّا لا ثقَافةَ عندَه" (رسل ٤/ ١٣)، صيّاد سمك[135].. لم يكن من طبقة الوجهاء والمتنفّذين بين اليهود. لم يكن من اللاّويّين، ولا من الفرّيسيّين، ولا من الكتبة، ولا من موظّفي الدولة، ولم يكن كاهناً، ولا رئيس كهنة.. بل كان رجلاً عاديًّا، شريكاً ليعقوب ويوحنّا في الصيّد (لو ٥ /١٠). يتّكل على جهده اليومي ليحصّل لقمة عيشه. ومع هذا دعاه يسوع[136]. وكان أوّل المدعوّين الأربعة مع أخيه أندراوس وشريكَيه يوحنّا ويعقوب ابنَي زبدى.

١١ . لم يخترْ يسوعُ بطرسَ رئيساً لأنّه رجلٌ دبلوماسيّ محنّك. بطرس كان عفويًّا، عاديًّا، بسيطاً، مكشوفَ الباطن، صريح الكلام. سرُّه معلن. قلبه على كفّه. بطرس، الذي قضى عمره على

135 لوقا ٥ /٣؛ متى ٤/ ١٨؛ مرقس ١/ ١٦.
136 متى ٤/ ١٨؛ مرقس ١/ ١٦.

شواطئ البحار، لا يعرف المراوغة والمخادعة. كلّ شيء أمامَ عينَيه مكشوف. آفاق السماء البعيدة تشدّه إليها. أمواج البحر علّمتْه الصراع والمغامرة والحركة. بطرس ابن الفجر. يقوم قبل الشمس. يتنشّق الحرّيّة مع نسيمات الصباح. يعشق الصراحة والعفويّة والمغامرة كصيّادي فينيقيا القدماء. لا يعرف المواربة والغشّ كصيّادي الطيور والوحوش. صيد السمك يعلّم الصدق. رذاذ الموج يحطّم كلّ همّ. وقفة صيّادٍ على شاطئ بحرٍ كوقفة سلطان يريد اقتحامَ روما والمجهول.

١٢ . لم يخترْ يسوعُ بطرسَ رئيساً لأجل مرونته وليونته. هذه صفات كانت بعيدة كلّ البعد عن شخصيّته. لقد كان بطرس مقداماً شجاعاً متحمّساً متهوّراً حتّى التطرّف. لقد كان من رجال المقاومة ضدّ النظام الرّوماني، على قول كُوْلْمَن. ويهوذا الإسخريوطي كان أيضاً من عصابات المقاومة. ويُخشَى أن يكون بطرس هو الذي أشار إلى يسوع ليتّخذَ الإسخريوطي هذا تلميذاً ورسولاً. ولا يُستغرَب ذلك لأنّ فكرة مقاومة الرومان كانت من هموم الرجال اليهود آنذاك. وكان يسوع، على ما يبدو، يُحبّ هؤلاء الرّجال: فقد سلّم يهوذا صندوقَ المال الخاصّ بالتلاميذ. كما كان يتردّد كثيراً إلى بيت بطرس وينزل عليه ضيفاً مدّة غير يسيرة (متى ٨ /١٤). وفي الخلوة الأولى بينهما مرّت قوافل من الرجال كان لبطرس فيها رأي. وليست نسبة بطرس إلى "بَرْيُونَا"، أي إبن الرّعد (متى ١٦ /١٧) لتبعد عن أن تكون نتيجة لحماسه وغيرته الزائدتَين.

١٣ . لم يخترْ يسوعُ بطرسَ رئيساً لأجل اعتداله واتّزانه. بطرس كان لا يتحسّب للمخاطر. لا يزن الأمورَ حقَّ وزنها. بل كان يُثير الفتن. يفتعل المشاكل. يطرح الأسئلة. يتحشّر في أمورٍ لا تعنيه. كان، على ما وصفه البابا بولس السادس، "متحمِّساً كثيرَ الكلام"؛ وكما وصفه الكردينال غارون "رجل مغامرة دائمة ومجازفة". كان يسأل، ولا ينفكّ يسأل: سأل يسوع عن الطاهر والنجس (متى ١٥/١٥)، عن الجزية للهيكل (متى ١٧ /٢٤-٢٧)، عن خراب الهيكل[137]، عن التينة التي يبست (مر ١١/ ٢١)، عن الغفران للقريب (متى ١٨/ ٢١)، عن جزاء الذين يتبعون يسوع[138]، عن المظالّ الثلاث[139]... وتجرّأ يوماً على أن يعاتب يسوع لمّا أنبأ عن موته[140]، وعلى أن يعترض عليه عند غسل قدمَيه (يو ١٣ /٦)، وعلى أن يطلب منه المشيَ على الماء (متى ١٤/ ٢٨-٢٩)... كلّ هذه تدلّ على حماسٍ وتهوّرٍ لا يليقان بأيِّ صاحب مسؤوليّة عند أهل هذا الدهر.

١٤ . بطرس كان متطرِّفاً في كلِّ شيء: في إيمانه يومَ وعدَ يسوعَ بأنّه لم ينكرْه[141] كما في إنكاره[142]، في شجاعته لمّا قطع أذنَ عبد

---

137 متى ٢٤ /١؛ مرقس ١٣ /٣؛ لوقا ٢١ /٧.
138 متى ١٩/ ٢٧؛ مرقس ١٠ /٢٨؛ لوقا ١٨/ ٢٨.
139 متى ١٧/ ٤؛ مرقس ٩ /٥؛ لوقا ٩/ ٣٣.
140 متى ١٩ /٢٢-٢٣؛ مرقس ٨ /٣٢-٣٣.
141 متى ٢٦/ ٣٣ و٣٥؛ مرقس ١٤ /٢٩ و٣١؛ لوقا ٢٢ /٣٣.
142 متى ٢٦/ ٦٩-٧٥؛ مر ١٤/ ٦٦-٧٢؛ لو ٢٢ /٥٥-٦١؛ يو ١٨/ ١٥-٢٦.

رئيس الكهنة[143] كما في جبنه أمام جارية[144]، في محبّته واندفاعه كما في شكوكه وانهزامه... فكما كان بطرس أوّلَ مَن اعترف بألوهيّة يسوع كان أيضاً أوّل مَن أنكره. وكما كان أوّلَ مَن رفض فكرة الآلام عن معلّمه كان أيضاً أوّل مَن خانه بسبب هذه الآلام. وكما كان متحمّساً حتّى رمى بنفسه في البحر كان أيضاً مشكِّكاً حتّى كاد يغرق.

ثالثاً - رئيس ينفعل ويتأثّر ويبكي

١٥ . ... نخطئ إنْ قلنا بأنّ هذه الصفات هي التي جعلتْ يسوعَ يختار بطرسَ رئيساً على كنيسته؛ كما نخطئ إنْ قلنا بأنّ يسوعَ لم تُلفتْ نظرَه هذه الصفات الطريفة التي تحلّت بها شخصيّة بطرس. في كلّ حال، مثلُ هذه الصفات كانت موجودةً فيه. ولأنّها موجودة فيه اختاره يسوعُ رئيساً. أو قد تكون هذه الصفات ساهمت في اختيار يسوع له رئيساً..

١٦ . إلاّ أنّ من يتحلّى بمثل هذه الصفات لا بدّ له من أنْ يتميّز بثلاث : التجرّد، والخدمة، والحبّ الشديد. بطرس كان فقيراً متجرِّداً "لا فضّة عنده ولا ذهب" (رسل ٣ /٦)، كان مندفعاً في خدمة إخوته لا يفكّر بنفسه، ولا يهتمّ إلاّ برعاية القطيع التي طلبها منه المعلّم ثلاثَ مرّات[145]، وكان قديراً على المحبّة فأحبَّ أكثر ممّا كان يفهم؛ بل أحبّ معلّمه قبل أن يفهمه. وربّما أنكره بسبب حبِّه الشديد له. سائر الرسل

143 متى ٢٦ /٥١؛ مر ١٤ /٤٧؛ لو ٢٢ /٥٠؛ يو ١٨/ ١٠.
144 متى ٢٦/ ٦٩-٧٤ وما يقابلها، كما في حاشية رقم (١٨).
145 متى ٤/ ٢٠؛ ٢٩/ ٢٧.

هربوا واختبأوا فلم ينكروه. أمّا بطرس، فبسبب حبّه، غامر وخاطر وعرّض نفسَه.. وأنكر.

١٧ . سقط بطرس بسبب حبِّه لا بسبب فتوره. سقط لأنّه أراد التحدّي لا لأنّه هرب واختبأ. ولو كان هرب واختبأ لما كان أنكر وسقط. حبُّه كان سبباً لخطيئته. وخطيئته نتيجة تهوّره وحماسه الشديدين في المحبّة. مَن يهرب لا يخطأ، لأنّه يتحاشى الخطر. مَن لا يعمل لا يقع في أيِّ نقص، لأنّه يتحاشى الفشل. الرسل هربوا ليتحاشوا الإنكار، أمّا بطرس فخاطر فوقع في الإنكار. بطرس مَثَلُه مَثَل جنديٍّ يقاتل فيسقط في ساحة القتال. إنّه يقتحم، يذهب إلى الجبهات، فيعرّض نفسَه لكلِّ خطر.

١٨ . سقوط بطرس كان سبباً لتواضعه. بسقوطه عرف أنّه ضعيف. ومَن يعرف ضعفَه يعرف أنّ الاتّكالَ على النّفس لا يجدي نفعاً. والضعيف يفهم الآخرين، ويتحمّل ضعف الآخرين. وبسبب ضعفه هذا كان متواضعاً جدًّا. قال بطرس لقائد المئة كرنيليوس الذي انحنى على قدمَيه ساجداً: "قمْ. إنّما أنا بَشَرٌ مثلك" (رسل ١٠/ ٢٦). وسمع من بولس كلاماً لا يتحمّله أحدٌ من رؤساء هذا الدهر. قال بولس: "لمّا قدم بطرس إلى أنطاكية، قاومتُه وجهاً لوجه، لأنّه كان يستحقّ اللّوم"... وقال له أيضاً: "إذا كنتَ أنتَ اليهودي تعيشُ كالوثنيّين لا كاليهود، فكيف تُلزم الوثنيّين أنْ يسيروا سيرة اليهود؟" (غل ٢ / ١١-١٤).

١٩ . فيا أبناءَ هذا الدّهر! إنْ كنتمْ تستطيعون أن تقولوا لرؤساكم، كما قال بولس لبطرس "إنّك لستَ على حقّ"، تيقّنوا أنّ مجتمعاتكم بخير، وأنّ رعيّةَ المسيح تسير صوب القداسة. ويوم تقولون لهم، كما قال يسوع لبطرس: "إرعَ حُملاني. إرعَ نِعاجي. إرعَ كِباشي" فيحزنون ويبكون، كما حزن بطرس وبكى (يو ٢١ /١٥-١٨)، تأكّدوا أنّ رؤساءَكم ينفعلون لكم ويشعرون بكم ويعملون من أجلكم.. وليس لكم أن يهبكم الله من لدنه سوى ذلك.

٢٩

المجمع العـامّ في الرهبانيّة

مقدِّمة

١ . بما أن ""المجمع العامّ هو السلطة الشرعيّة العليا في الرّهبانيّة" (مادّة ١٩١)... فَمن الأفضل أن **يُنتخَب مَع** انتخاب مجمع الرئاسة العامِّة. وأن **يستمرّ باستمرار** ولاية مجمع الرئاسة العامِّة؛ لأنّه هو السلطة الحقيقيّة، وهو الرقيب على كلّ سلطةٍ سواه.

٢ . **مهمّة** المجمع العامّ الأساسيّة **:** بالإضافة إلى ما ورد في المادّتَين (٢١١-٢١٢) وتفاصيلها، على المجمع العامّ أن يراقب مجمع الرئاسة العامِّة، ويحاسبه، ويوجّهه، ويعضده، ويساعده مساعدة كاملة، ويُحمّله مسؤوليّةَ الرهبانيّة كلّها.

٣ . كلمة **"سلطة"** تُطلَق على المجمع العامّ وحدَه. وكلّ سلطة أخرى تُسمَّى "خدمة"، أو "مسؤوليّة"، أو "وظيفة". بيد أنّ كلمة "سلطة" ليست إنجيليّة، ولا مسيحيّة، ولا إنسانيّة، ولا رهبانيّة أيضاً. والعالَم لا يستسيغها... وكذلك كلمة **"رئيس"**، و**"مدبّر"**، والألقاب العالميّة والعلميّة والمحترميّة والسلطويّة جميعها، يجب أن تُلغى من الرهبانيّة.

٤ . كيف **يُنتخب المجمع العامّ**؟ ما صلاحيّاته؟ متى يجتمع؟ مَن يدعو إليه؟ مَن يرئسه؟ مَن يديره؟ ما هو نظامه الداخلي؟ كيف يعمل؟ ما هي **اللّجان التي يتألّف منها**؟ ما هو عملُ كلّ لجنة؟.. بعض هذه التساؤلات يجيب عليها قانون سنة ٢٠٠٣، وبعضها تغيب عنه.

١ - ماهيّة المجمع العامّ **٢ - تأليف المجمع العامّ**

٣ - إنعقاد المجمع العامّ **٤ - رئاسة المجمع وإدارته**

٥ - مهمّات المجمع العامّ **٦ - مدّة المجمع العامّ**

٧ - إلزاميّةُ قَرارات المجمع **٨ - إنتخاب مندوبي المجمع**

٩ - جلسات المجمع العامّ **١٠ - لجان المجمع العامّ**

١ - ماهيّة المجمع العامّ

القانون ١ : المجمع العامّ هيئةٌ تمثيليَّةٌ للرَّهبانيّة بكاملها. إنّه السلطة الشرعيّة العُليا. وعلامةُ الوَحْدةِ في المحبَّة بين أبنائها. يُعبِّرُ تعبيراً صريحاً عن إرادتها، ووحدة هدفها، وعملها من أجل خيرها العامّ وقداسة كلِّ راهب فيها[146].

القانون ٢ : يتألّف المجمع العامّ من أشخاص، يتساوون في الحقوق والواجبات، مساواةً كاملة.

---

146 م.ق.ك.ش. ٥١٢.

القانون ٣ : المجمع العامّ واحد، في طبيعته وهُويَّتِه ومهمّاته، مهما كانَ نوعُه، وفي أيِّ وقت أو مكان التأم، شَرْطَ أن يكونَ ذلك بطريقةٍ شرعيَّةٍ مُطابِقَةٍ للقوانينِ والفرائض.

٢ - تأليف المجمع العامّ

القانون ٤ : يتألَّفُ المجمعُ العامّ من رهبانٍ يدخلُونَه بقوّةِ الحقّ، ومن رهبانٍ يدخُلونه بقُوّةِ الانتخاب.

البند ١ : يُدعى إلى المجمع بقوّة الحقّ: الأبُ العامّ والمدبّرون العامّون.

البند ٢ : يُدعى إلى المجمع العامّ، بقوّة الانتخاب، المندوبون المُنتخَبون من أبناء الرَّهبانيّة الذين لهم حقّ إنتخابيّ، وليس لهم صوتٌ بقُوّةِ الحقّ.

البند ٣ : أصحابُ الحقِّ الانتخابي هم الذين يتمتَّعون بالصوت الفاعليّ والانفعاليّ، وهم ذوو النذر المؤبّد، ما عدا الإخوةَ الدارسين.

القانون ٥ : يتمّ انتخاب المندوبين المجمعيّين، قبل شهرَين من انعقاده، وكما هو مدرجٌ في باب "إنتخاب مندوبي المجمع العامّ".

٣ - إنعقادُ المجمع العامّ

القانون ٦ : ينعقد المجمع العامّ

البند ١ : بطريقة مألوفة كلَّ سَنة؛ بين الخامس عشر من تمّوز والخامس عشر من آب، في الوقت الذي يعيّنه مجمع الرئاسة العامّة.

البند ٢ : وينعقد بطريقة غير مألوفة

أ . عند شُغورِ مَنصِبِ الأب العامّ.

ب . عند وجوب تجديدِ أو تغيير قوانينِ الرَّهبانيّة وفرائضِها.

ج . عند ضَرورةٍ مُلِحَّة وأسبابٍ مُوجِبة يَحتَكِمُ فيها مجمعُ الرئاسة العامّة.

د . عند طلبٍ خطّيّ وموقّع من عشرة أعضاء من أعضاء المجمع أو أكثر.

هـ . وعند طلبٍ خطّيّ وموقّع من ثلث أبناء الرهبانيّة.

القانون ٧ : يكون المجمع العامّ قانونيّاً إذا ما حضره ثلثا أعضائه.

القانون ٨ : قبلَ انعقاد المجمع العامّ، إذا كان انتخابيًّا، يُعلِمُ الأبُ العامّ البطريركَ الماروني، طالباً رضاه وبركته، وإعلاماً له بما سيكون في الرهبانيّة، كمؤسّسة كنسيّة، من جديد.

٤ - رئاسة المجمع العامّ وإدارته

القانون ٩ : يرئس الأبُ العامّ المجمعَ العامّ، ولا يُديره. وفي غيابه، النائبُ العامّ.

القانون ١٠ : يُدير المجمع العامّ، عمليًّا، "مديرُ عام المجمع"، الذي ينتخبه أعضاء المجمع بالأكثريّة المطلقة، وفي الجلسة الأولى لانعقاده. ويستمرّ في وظيفته هذه في دورات المجمع وجلساته جميعها.

القانون ١١ : تتألّف "هيئة المجمع العامّ" من : رئيس هو الأب العامّ؛ و"مدير عام المجمع"، يُنتخب بالأكثريّة المطلقة؛ و"أمين سرّ المجمع" يُنتخب بالأكثريّة النسبيّة؛ وفاحصَي القرعة، الأكبر والأصغر نذراً من أعضاء المجمع.

القانون ١٢ : يتلقّى "مديرُ عام المجمع" موضوعات البحث والمداخلات خطِّيًّا من أعضاء المجمع. ويتدخّل للحدّ من كلِّ جدالٍ غير مفيد.

القانون ١٣ : البند ١ : يقترح مجمع الرئاسة العامّة جدولَ أعمال المجمع، عند تعيين انعقاده. ويعمل على أن يشترك في إعداده لجانٌ مختصّة وخبراء.

البند ٢ : للمجمع الحقّ، بكونه سيّدَ نفسه، أن يعدِّلَ، في جلسته الأولى، جدولَ الأعمال الذي أعدّه مجمع الرئاسة العامّة. ولعشرةٍ متّفقين من أعضائه الحاضرين الحقّ في أن يقترحوا خطّياً موضوعاتٍ جديدة ومفيدة للبحث والمناقشة.

٥ ـ مهمّات المجمع العامّ

القانون ١٤ : يعالج المجمع العامّ الأمور المهمّة والكبرى التي تتعلّق بحياة الرّهبانيّة، أدياراً ورهباناً. منها :

١ . تصويبُ مسيرة الرَّهبانيّة نحو غايتِها كلَّ مرّة يحصل فيها خلل ما.

٢ . الحِفاظُ على عادات الرَّهبانيّة التي تَعود إلى العيشِ الرُّهبانيّ الصحيح

٣ . السعي إلى تطوير الحياة الرُّهبانيّة وتكييفها، لتتلاءَمَ مع نموِّ الكنيسة.

٤ . تحديدُ الطُرائقِ الملائمة والفعَّالة للحِفاظِ على النذور الرهبانيّة ومُمارسَتِها، وتحديد مفاهيمها المتطوّرة لاهوتيًّا.

٥ . تعديلُ القوانين، بأكثريَّةِ أَعضاءِ المجمَع المميَّزة أي ثلثَي الأَعضاءِ الحاضرين، مع موافقة الكرسي الرسولي[147].

٦ . تفسير القوانين والفرائض عند حصول اختلاف في فهمها وتطبيقها.

٧ . وَضْعُ برنامَجِ عَمَلٍ لتعزيز الدَّعواتِ واكتشافها وإِنمائها في جَوّ ملائم.

---

147 م.ق.ك.ش. ٤١٤.

٨ . وَضْعُ برنامَجِ التنشئَة العامّ في الرَّهبانيّة وتعديلُه عند الاقتضاء[148].

٩ . إقامة مدرسة مجّانيّة للمرحلة الإعداديّة : منها المدعوّون إلى الحياة الرّهبانيّة؛ ومنها غير المدعوّين، وهم يؤلّفون قِسماً من "رابطة اللّقاء لقدامَى الرّهبانيّة"[149].

١٠ . إنشاءُ ديرٍ أو مركزٍ أو مؤسّسة جديدة، وإلغاءُ ديرٍ أو مركزٍ أو مؤسّسة قائمة.

١١ . مُعالجَةُ الأُمورِ التنظيميَّة وتحديدُ العُقوباتِ لمن يَخرُقُ القوانينَ والفرائضَ والنُّظُمَ الرُّهبانيّة.

١٢ . مناقشةُ تقارير مجمع الرئاسة العامَّة، ومقترحات أبناء الرّهبانيّة، والنظر في جدوى المشاريع القائمة والمقرّرة.

١٣ . تحديدُ المَبلَغِ الذي يُمكِنُ للأب العامّ وسائر الرؤساء أن يتصرَّفوا به مُنفرِدينَ أو باقتراعٍ تقريريّ لمجامِعِهم.

١٤ . تعيينُ مَقَرِّ الرئاسةِ العامَّة، وأديار النشء الرّهباني، أو نقلها، أو إلغاؤها؛ وتغييرُ غايةِ ديرٍ إلى غاية أخرى.

---

148 م.ق.ك.ش. ٤٧١.

149 هذا هو اسمها الرسمي، بحسبما اعترفتْ به الرهبانيّة، في ٢٩/ ٧ / ١٩٩٤؛ وأجازته وزارة الداخليّة في ٢٤ /٨/ ١٩٩٤؛ وصدر في الجريدة الرسميّة، عدد ٣٥؛ في ١ /٩/ ١٩٩٤.

١٥ . نقلُ أَملاكِ وأموال ديرٍ أو مركز أومؤسّسة رهبانيّة إلى ديرٍ أو مركزٍ أو مؤسّسة أخرى في الرهبانيّة.

١٦ . إنتخاب الأب العامّ، إذا لم يحصل اتّفاقٌ على شخصٍ معيّن من قبل أبناء الرهبانيّة؛ وانتخاب مدبِّرين عامّين.

١٧ . النظر في شكاوى الثلث من أبناء الرّهبانيّة في أيٍّ موضوعٍ يقلقون بسببه على مستقبل الرّهبانيّة. واتّخاذ الإجراءات اللاّزمة، حتّى ولو أدّى ذلك إلى انتخاب مجمع رئاسة عامّة جديد؛ ولكن ليس بأقلّ من ثلثَي أصوات المجمع الحاضرين وبعد موافقة الكرسي الرّسولي.

١٨ . تحديد الإسعافات الروحيّة والتذكارات للموتى من الرهبان وراهبات الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة والحبر الأعظم والبطريرك الماروني والأسقف الأبرشي، والمشتركين مع الرهبانيّة وشركائها.

١٩ . مناقشة الاقتراحات الواردة إليه من أبناء الرهبانيّة.

٢٠ . وضع فرائض جديدة، وإلغاء فرائض قائمة، وإلزام الرهبانيّة بذلك. وعليه، في آخر كلّ عهد، أن ينشر هذه الفرائض في كتابٍ يُعمّم توزيعه على أبناء الرهبانيّة.

٦ - مدّة المجمع العامّ

القانون ١٥ : ليس المجمعُ العامّ أداةَ حُكْمٍ دائمة في الرَّهبانيّة، إنّما هو مؤسَّسةٌ قانونيّة، موجودة دائماً، ولكنّها غير ملتئمة بشكل دائم إلاّ وفقاً للضرورة المذكورة في القوانين (ق ٦-٨). وعندما يلتئِمُ حسَبَ الأُصول، يؤلِّفُ السلطةَ العُليا في الرَّهبانيّة، ويَنعقِدُ وينتهي في مدَّةٍ مُحدَّدةٍ في الزمن.

القانون ١٦ : يعودُ إلى مجمع الرئاسة العامّة تحديدُ مدّة المجمع العامّ. ويستطيعُ هذا المجمعُ، عند التآمه، أن يُقَصِّرَ أو يُمَدِّدَ مُدَّةَ انعقادِه.

القانون ١٧ : لا يستطيعُ مجمعُ الرئاسة العامّة أن يقدّم أو يؤجّل انعقاد المجمع العامّ المقرَّر، إلاّ لأسبابٍ خطيرة، ولشهرَين فقط. وإلاّ، يُرفَع الأَمرُ إلى الكرسيّ الرسوليّ.

٧ - إلزاميّةُ قَرارات المجمع العامّ

القانون ١٨ : قراراتُ المجمع العامّ تُلزمُ كلَّ راهبٍ أَيّا تكن مكانتُه أو مسؤوليَّاتُه، وتُلزِمُ بنوعٍ خاصّ مجمعَ الرئاسة العامّة الذي يجب عليه أن يسهَرَ على تنفيذها. وتبقى هذه القراراتُ مُلزِمَة إلى أن ينقضَها مجمعٌ عام آخر.

القانون ١٩ : يتَّخذُ المجمع العامّ قراراتِه، في اقتراعٍ سرّيّ، أو

بالتصويت العلني، بحسب ما يقرّر ذلك المجمع نفسه. وكلُّ قرارٍ لا يحُوزُ على الموافقة المَطلوبة في دورةٍ واحدةٍ يُعتَبَرُ مرفوضاً. ولا يُمكِنُ إجراءُ دورةِ اقتراعٍ ثانية عليهِ إلاَّ بعد تعديله.

القانون ٢٠ : بعد انتهاءِ المجمَعِ العامّ، يُعلِنُ الأبُ العامّ قراراتِ المجمعِ العامّ على الرَّهبانيّة جَمعاء، ويَحرَصُ، مع مجمع الرئاسة العامَّة، على استعمال كلِّ الطرائق والوسائل لتنفيذها. وإذا تقاعس، فللمجمع العامّ الحقّ عند أوَّلِ انعقاد له، بمطالبته وإلزامِه بتنفيذها.

القانون ٢١ : تَحرَصُ أَمانةُ السرّ العامَّة في الرَّهبانيّة على جَمْعِ قرارات المجامع العامَّة في أَرشيف الرَّهبانيّة ليسَهُلَ الإطّلاعُ عليها كلَّما اقتضَتِ الحاجة.

القانون ٢٢ : إنّ قرارات المجمع تتمتّع، بما فيها نظامه الداخلي، بنفس القوّة التي تتمتّع بها القوانين المثبتة؛ مع الفارق أنّ هذه الأخيرة لا تقبل أيّ تغيير من دون موافقة الكرسي الرسولي، بينما تبقى الأولى خاضعة للتغيير من المجمع العامّ.

تُسمّى قرارات المجمع العامّ "**فرائض**"، وتُنشَر في كرّاس اسمه "**فرائض الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة**"، يوزّع على أبناء الرهبانيّة. ولا يجوز في أيّ حال من الأحوال أن تتناقض هذه الفرائض مع القوانين المثبتة؛ بل تكمّلها، وتوضحها، وتفعّلها، وتجعلها قابلة التطبيق، وممكنة التنفيذ.

٨ - إنتخاب مندوبي المجمع العامّ

القانون ٢٣ : يتمّ انتخاب المندوبين المجمعيّين ونوّابهم على الشكل التالي :

البند ١ : يُرسلُ مجمع الرئاسة العامّة، إلى كلّ راهبٍ ذي حقٍّ انتخابيّ لائحةً بأسماء الرهبان، فيها خمسة أوراق، كلّ ورقة بلون، في كلٍّ منها أسماء رهبان كلِّ مقاطعة، مع سنة ولادتهم وسنة نذرهم الأوّل، ضمن مغلَّفٍ رسميّ، ممهورٍ بختم الرئاسة العامّة.

البند ٢ : يرسلُ الأبُ العامّ رسالةً عامّة يُحدِّد فيها اليوم والساعة اللّذين تتمّ فيهما عمليّة انتخاب المندوبين ونوابِّهم؛ ويحثّ فيها الرهبانَ جميعَهم على واجب الانتخاب، بحسب ضميرهم، ومحبّتهم للرهبانيّة، وبسرّيّة تامّة، حفاظاً على كرامة كلّ شخصٍ فيها.

البند ٣ : كلّ صاحب حقٍّ انتخابيّ ينتخب جميعَ مندوبي المجمع العامّ؛ وذلك بوضع علامة أمام الاسم المرغوب انتدابه، ومن اللاّئحة المرسلة إليه من مجمع الرئاسة العامّة، وعلى أساس سبعة مندوبين من كلّ ورقة.

القانون ٢٤ : البند ١ : عندما تتمّ عمليّة الانتخاب، يُرسِلُ كلٌّ ناخبٍ، مباشرةً، مغلّفَ انتخابه، بأيِّ وسيلةٍ يراها مضمونةً وجديرةً بثقتِه، أو يؤمِّن بذاته وصولَها إلى مجمع الرئاسة العامّة المنعقد

باستمرار حتى وصول الأوراق كلّها. أمّا رهبان الانتشار فيرسلون أوراقهم ببريد مضمون...

البند ٢ : يطلب أمينُ السرِّ العامِّ توقيعَ حاملي الأوراق أسماءَهم على سجلٍّ خاصٍّ؛ كما يكون قد تسلّم، مسبقاً، مغلّفات رهبان الرّسالات خارج لبنان. وحفظها، بإشراف مجمع الرئاسة العامّة، في مكانٍ أمينٍ إلى حين موعد الفرز.

البند ٣ : بعد جمع الأوراق، يفضّ مجمعُ الرئاسة العامّة، أوراق الانتخاب، في يومٍ وساعةٍ محدّدَين، بحضور مَن يشاء من أبناء الرّهبانيّة.

القانون ٢٥ : يُعلن مجمع الرئاسة العامّة سبعةَ مندوبِينَ من كلّ مقاطعة، حازوا على الأكثر عدداً من أصواتِ النّاخبين في الرّهبانيّة. وعند التساوي يُؤخذ بقاعدة الأقدم نذراً؛ فالأكبر سنًّا.

القانون ٢٦ : يكون نوّابَ مندوبين أربعةٌ مِن كلِّ مقاطعة نالوا الأكثر أصواتاً بعد المندوبين. وعند التساوي يُؤخذ بقاعدة الأقدم نذراً؛ فالأكبر سنًّا.

القانون ٢٧ : يوجّه مجمع الرئاسة العامّة رسالةً إلى أبناء الرّهبانيّة يعلمهم فيها أسماء المندوبين ونوّابهم، ويحدّد موعد انعقاد المجمع العامّ، ومكانه وموضوعاته.

٩ - جلسات المجمع العامّ وحلقاته

القانون ٢٨ : تُقسم جلسات المجمع إلى جلسات عامّة وحلقات حواريّة :

١ . في الجلسات العامّة يحقّ لكلّ الأعضاء المداخلة في الموضوع المطروح، شرط أن يطلبوا الكلام مسبقاً، في بداية كلّ جلسة، وأن يقدّموا مداخلاتهم كتابةً. ولا يحقّ لهم الكلام أكثر من سبع دقائق.

٢ . أمّا الحلقات الحواريّة فيتوزّع عليها الأعضاء بنسبة عشرة أعضاء في كلّ حلقة. وتنتخب كلّ حلقة مديراً لها ومقرّراً.

٣ . تُجمع مقرّرات الحلقات الحواريّة، وتُقرأ في جلسة عامّة.

القانون ٢٩ : جدول أعمال المجمع يكون كالآتي :

١ . يحدِّد مجمع الرئاسة العامّة جدول أعمال المجمع، ويكل مواضيعَه إلى لجان يؤلّفها لهذه الغاية، ويعلنها في رسالة إلى الرهبانيّة. ويحقّ لكلّ راهب أن يرسل إقتراحاته حول المواضيع المدرجة في جدول الأعمال إلى هذه اللّجان. يتبنّى مجمع الرئاسة العامّة هذه الاقتراحات بعد دراستها في اللجان، ويرسلها، في جدول أعمال جديد، إلى أعضاء المجمع، خمسة عشر يوماً قبل موعد انعقاد المجمع.

٢ . على رؤساء الأديار أن يعقدوا مجامع ديريّة تتدارس

مواضيع جدول الأعمال، ويقدّموا اقتراحاتهم إلى المجمع، وأن يقترحوا موضوعاً من خارج جدول الأعمال المقدّم من مجمع الرئاسة العامّة، إذا رأوا ذلك مناسباً، وشرط أن يكون معلّلاً، وأن يكون بالأكثريّة المطلقة من أعضاء المجمع الديري.

٣ . على المجمع أن يتقيّد بجدول أعماله بعد أن تتبنّاه الأكثريّة المطلقة. ولا يحقّ لأيٍّ عضوٍ من أعضائه أن يخرج عنه. وإذا فعل فعلى مدير عام المجمع أن يمنعه عن الكلام. ولا يمكن لأحد أن ينتقل من موضوع إلى آخر قبل أن يبتّ الموضوع الأوّل.

١٠ ـ لجانُ المجمع العامّ

١ . تُنتخبُ لجانٌ خمسة: يرئس كلّ واحدة أحد أعضاء الرئاسة العامّة.

٢ . هذه اللّجان هي :

اللّجنة الأولى روحيّة رهبانيّة، يرئسها الأب العامّ؛

اللّجنة الثانية لاكتساب الدّعوات والاهتمام بالنشء الرّهباني، يرئسها المدبّر الأوّل؛ الذي يشرف أيضاً على إدارة المجلّة الرهبانيّة؛

اللّجنة الثالثة تربويّة تهتمّ بالجامعة والمدارس، يرئسها المدبر الثاني؛

اللّجنة الرّابعة رسوليّة راعويّة تهتمّ برعايا الرّهبانيّة ورسالاتها، يرئسها المدبّر الثالث؛ ويهتمّ بشؤون أصدقاء الرهبانيّة في العالم و"رابطة اللقاء لقدامى الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة"، ويعمل مع المسؤولين عنهم، رهباناً وعلمانيّين، ويدعو إلى اجتماعات دوريّة معهم.

اللّجنة الخامسة إقتصاديّة تنمويّة، تصميم وتخطيط، يرئسها المدبّر الرّابع، الذي يُشرفُ على سَيْرِ شؤُون أموال الرَّهبانيّة وأملاكها، وعلى حساباتها. يُجري الإحصاءات اللاّزمة، ويضع مسودّات مشاريع اقتصاديّة، ويسهر بعنايةٍ على حفظ الصكوك، ويعمل على تنظيمها بحسب الطرائق العلميّة الحديثة، ويرئس اجتماعات دوريّة لدوائر الوكالة العامّة، ويجتمع بمحامي الرّهبانيّة والخبراء الاقتصاديِّين لتدارس العقود والدّعاوى.

٣ . تجتمع اللّجانُ مرّةً في الشهر، وكلّما اقتضتْ الحاجة، في دير الرئاسة العامّة، وعليها أن تستشير اخصّائيّين في عملها، رهباناً وعلمانيّين، وترفع تقاريرها إلى المجمع العامّ ومجمع الرئاسة العامّة، للدرس والموافقة والتقرير.

٤ . بعد موافقة المجمع العامّ على هذه التقارير، يلتزم مجمع الرئاسة العامّة بـ "فرْضها" على الرهبانيّة كافّة. وهو ما يسمّى

"**الفرائض**" التي لا يغيّرها إلاّ مجمع عام آخر وبشروط صارمة[150].

خاتمة - بعض مميّزات هذه الصيغة الانتخابيّة :

١ . تتساوى المقاطعات بعدد المندوبين، كما تتساوى بمنصب المدبّرين.

٢ . في هذه الصيغة يتمّ التعامل مع الأوراق والأسماء، لا مع الأشخاص.

٣ . تُحافِظ هذه الصيغة على السرّيّة التّامة المطلوبة من كلّ انتخاب، وعلى حرّيّة كلّ راهب في اختياره مَن يشاء.

150 هذا وإنّ كلمة "فرائض" قد حُذفت من قوانين ٢٠٠٣ من دون مسوّغ.

٣٠

إنتخاب مجمع الرئاسة العامّة

أوّلاً - كيفيّة الانتخاب

لا بدّ من صيغة للانتخابات العامّة في الرّهبانيّة. صيغة واحدة لا صيغتان أو ثلاث. تُختَبر ولو لمرّة واحدة. وليس من الضروري أن تكون هذه الصيغةُ في صلب القوانين والفرائض. فالأفضل أن تكون ملحقاً، لا تخضع لما تتّصف به القوانين والفرائض من ثبات. فالانتخابات حالة طارئة، ولكنّها مهمّة.

١ . يُرسل مجمع الرئاسة العامّة، كما جاء آنفاً، لائحةً بأسماء الرّهبان، أصحاب الصوت الفاعلي والانفعالي، موزّعة بحسب المقاطعات، ويدوّن المنتخِبون مَندوبيهم على هذه اللائحة التي تُعاد إلى الرئاسة العامّة.

٢ . ويُرسل مع اللائحة قسيمةً، يسجّل عليها كلُّ منتخِب إسم الرئيس العامّ الذي يُختار لهذا المركز. وتُختم ضمن ظرف مضمون.

٣ . تُفرز اللّوائح، كما مرّ معنا، وتبقى القسائم.

٤ . لدى انعقاد المجمع العامّ، وبعد خلوة صلاة ودراسات...

تُفَضّ القسائم، فيفوز مَن أجمع الرّهبان عليه بمنصب الرئاسة العامّة. ومَن لم يحصل على الإجماع، يُعوِّض المجمع العامّ عن تقصير إجماع الرهبان، فينتخب واحداً من إثنين نالا أكثر الأصوات.

٥ . ثمّ ينتخب المجمع العامّ المدبّرين بحسب الأصول المتّبعة.

ثانياً - مميّزات هذه الصيغة

١ . تشترك الرّهبانيّة كلّها في انتخاب رئيسها العامّ، كما اشتركت بانتخاب مندوبيها. وهي من علامات الوحدة في الرّهبانيّة التي تؤلّف جماعةً واحدة تعني كلّ فردٍ من أفرادها.

٢ . إذا لم يتمّ إجماعُ الرّهبان على الرئيس العامّ، فالمجمع العامّ **يعوّض** عن هذا التقصير، فينوب عن الرّهبانيّة، ويحلّ محلّها، ويتولّى هو إنتخابَ الرئيس العامّ؛ ثمّ مجمع الرئاسة العامّة، كما يتولّى شؤون الرهبانيّة ومصيرَها.

٣ . لا يتمّ الانتخاب في هذه الصيغة، بجمعِ الرّهبان من أربعة أقطار العالم. فكلٌّ يبقى في مكانه، ويُدلي بصوته حيث هو، وبأيّة واسطة مضمونة.

ثالثاً - تحديد وقتٍ للانتخابات في الرهبانيّة

١ . لا بدّ من تحديد وقت للانتخابات العامّة في مدّة معيّنة تتراوح بين ١٥ و٣١ تمّوز. ولا يتغيّر هذا الوقت المحدّد إلاّ لأسباب

طارئة، غير مألوفة، وغير طبيعيّة. ويُبرّر هذا التغيير بتقديم حيثيّاتٍ قانونيّة، مقبولةٍ في المنطق، ويدعمها أوضاع في البلاد سيّئة. وعندئذٍ يُدعَى المجمعُ العامّ لاتّخاذ قرار في ذلك.

٢ . وإذا ما حدث ما يخالف ذلك، تعتبر كرسيّ الرئاسة العامّة ومجمع المدبّرين التّابع لها شاغراً، بدءاً من منتصف ليل ٣١ تمّوز. ويَحكم الرّهبانيّةَ، عندئذٍ، الرؤساء العامّون السّابقون، برئاسةِ أكبرهم نذراً. هذا التدبير الاستثنائيّ، يزول بدعوةٍ سريعة إلى تأليف مجمعٍ عام، ثمّ إلى انتخاباتٍ عامّة، لا تتعدّى منتصف ليل ٢٠ آب التالي.

٣ . لا يسع الرّهبانيّةَ، بحالٍ من الأحوال، أن تكونَ رهينَةَ مرضى الكراسي، الّذين يستصدرون مراسيم "خارجيّة" لإطالة مدّة ولايتهم، تحت ستار الخدمة والتضحية والحجج الواهية. ما يحدث من تأخيرٍ لم يكن لخيرِ الرّهبانيّة إطلاقاً؛ بل العكس هو الذي يحصل.

٤ . وما يحصل من تأخيرٍ ومن عدم تحديدِ وقتِ الأنتخاب، يسبّبَ للرّهبانيّة أضراراً في كلّ مجال. فالأجواء الانتخابيّة الطويلة، تجمّد الرّهبانيّة، وتجعل الرّهبانَ يعيشون قلقاً وحالةً سياسيّة يجب ألاّ تستمرّ أكثر من بضعة أيّام.

٥ . ويجب أن تُحدّد إدانة مَن يتلكّأون في تحديد وقت الانتخابات في القوانين العامّة بما يشبه ذلك: نزع اللّقب عن المسؤول عن هذا الاستهتار، وحرمانه استعمال الشارات الحبريّة، وعدم

مشاركته الذين تولّوا منصب الرئاسة العامّة، وعدم تنعمّه بأي شيء تشير إليه القوانين والفرائض.

٣١
المحكمة الرهبانيّة

في القوانين الأولى للرهبانيّة، سنة ١٧٣٢، هناك أكثر من أربعين صفحة (ص١٦٠-٢٠٠) من القسم الخامس، حول المحكمة الرهبانيّة، والدّعاوى الشرعيّة، وكيفيّة إصدار الأحكام، وفي الزلاّت والعقوبات، وفي الحرْم، وخسارة الصوت والمكان والإسكيم والإكليل، وفي الربط والعزل عن الوظيفة، وأخيراً في عقوبة الطرد من الرهبنة.

أمّا في "رسوم ١٩٣٨" فهناك فقط سبع مواد (٢٤٨-٢٥٤)، يضاف إليها باب خروج الرّاهب من الرهبانيّة وطرده (١٣٤-١٤٧)...

وفي "رسوم ١٩٦٠" فصلان مهمّان، في عشرين صفحة (١٤٩-١٦٨)، في الموادّ (٢٥٧-٢٧٩). وفيها دقّة وعمق في تحليل وتأليف المحكمة الرهبانيّة.

أمّا في "رسوم ١٩٧٤" فليس إلاّ مادّة واحدة هي مادّة ٢٨٩، صفحة ٦٢.

وكذلك في تعديل ١٩٨٩ لم تكن هذه "المحكمة" بأحسن حال.

أمّا في "قوانين ٢٠٠٣" فثمّة فقرة بعنوان "المحكمة

الرهبانيّة" ، من ٣ موادّ (٣٢٤-٣٢٦)، ص ١٤٢-١٤٤.

نقول :

لسنا اليوم، وبالتأكيد، أكثر قداسة ووعياً للحياة الرهبانيّة من آبائنا الأوّلين حتى نحذف أربعين صفحة لتصير ربع صفحة. وليست مشاكلنا أقلّ من مشاكل آبائنا حتى لا نضع لها حدوداً وضوابط. وليست السلطات أكثر تجرّداً ممّا مضى حتى لا نحاصر فلتانَها بضوابط قانونيّة واضحة، حازمة وجازمة... غياب "المحكمة" في الرهبانيّة حجّة علينا لا معنا. ونحتاج إليها، اليوم، حاجتنا إلى مسؤولين واعين.

يضاف إلى هذه الحجّة التاريخيّة حجّة حضاريّة نأخذها من المجتمعات البشريّة. هذه المجتمعات غنيّة بالقوانين، وأصول المحاكمات، والمقاضاة، والمحاماة، والدراسات الحقوقيّة، وغرف لقبول الشكاوى، والمستنطقين، والمدافعين عن الحقّ العامّ...

وقد تكون سلطة القاضي بعد سلطة الله نفسه، ومنها مباشرة. وليس من مسؤول في الأرض يستطيع الوقوف بوجه سلطان القاضي. سلطته هي السلطة. له الحكم... في بلدان راقية، راتب القاضي غير محدّد لئلاّ تستهويه رغبةٌ ما فيَظلم. ونقابة المحامين أيضاً قد تكون أخطر النقابات في دول العالم المتحضّر وأفعلها.

وكلّما تقدّم المجتمع البشري في الرقيّ، تحدّدت المحاكم، وتنوّعت، وكثرت القوانين، ونشط المحامون، وانشغل القضاة، وتحرّك المجتمع، وسلمت مبادئ العقاب والثواب، ووصل كلُّ ذي حقٍّ إلى

حقّه، وذلك بواسطة الاحتكام الى هذه المحاكم، لا بواسطة السيف والعنف، أو السياسة وبَوس اللّحى.

في المجتمعات البدائيّة وحدها يطالب الإنسان بحقّه بنفسه. أمّا في المجتمعات الراقية والمتمدّنة فهناك من يدافع عنه ومن يطالب له بحقّه كاملاً.

***

فما بال قوانين الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة وفرائضها لا تعمل على أن تكون هذه الرّهبانيّة من المجتمعات الإنسانيّة الراقيّة، فتؤلّف المحاكم، وتقضي بالعدل، وتوزّع المسؤوليّات، وتنزع "حقوق الإنسان" من يد مسؤولٍ قد لا تهمّه، أو ربّما لا يعترف بها؟!

ما بال قوانين الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة تجيز للرئيس العامّ بأن يتصرّف في أمور الرهبانيّة على هواه، وإنطلاقًا من مفاهيمه الخاصّة، واستناداً إلى مزاجه، واستجابة إلى رغباته، وتحقيقاً لمنافعه؟!

انّ ما تبقّى في قوانيننا وفرائضنا من إنشاء "محكمة" يجبر الرئيس العامّ، بُعيد انتخابه، على تأليف محكمة مكوّنة من ثلاثة قضاة وكاتب عدل. فلماذا لا يتحقّق ما نحن بأمسّ الحاجة إليه! هل لأنّه لا مشاكل عندنا ولا عمل للمحكمة، أم لأنّ الرئيس العامّ، لتجرّده، يحكم وحده بالعدل والإنصاف؟!

وإذا كان الرئيس العامّ طرَفاً! فما العمل؟ وإذا تدخّل في شؤون الرهبان عشوائياً، وحكَم ظلماً وتعسّفاً! كيف نردعه؟ وإذا سكت

وأغمض عينَيه عن جرائم! فمن يوقظه؟ وإذا كان هناك سرقات، وسوء تصرّف، وشكوك، كيف نعالج؟ ما العمل إذا كان هناك زلاّت مشينة، ولم نجد من يقضي فيها؟.. أنترك الرهبانيّة تنهار ونحن نتفرّج؟!

لقد بات تأليف محكمة رهبانيّة ووضع قوانين واضحة في صلاحيّاتها، من المسلّمات البديهيّة، ومن علامات المجتمعات والمؤسسات البشريّة الراقية.

فالرجاء من الولاة على الرهبانيّة ومن الناظرين في القوانين أن يأخذوا على عاتقهم، أمرَ إنشاء المحكمة في الرهبانيّة.. فلها اليوم أعمال خطيرة، كثيرة، متراكمة. ولسنا أحياء الى الأبد لننتظر أكثر ممّا انتظرنا هذا النوع من التخلّف.

٣٢

قَسَمُ السلطة الرهبانيّة

فورَ انتخاب الأب العامّ والمدبِّرين الأربعة، وقبل تألّق الصليب المذهّب على الصدر، وارتفاع التّاج المرصّع بحبّات الماس فوق الرأس، وتسلّم عصا الرّعاية والمجد، ومداعبة الخاتم للإصبع...

قبل توافد القريبين والبعيدين للتهاني، وأداء الخضوع البنويّ، والتماس البركات الإلهيّة، وطاعة الأوامر السنيّة، وتقبيل الأنامل الطاهرة، وتبادل عواطف الفوز والانتصار...

قبل أن تغتالَ الصحافةُ أسرَار المجمع، وتنتشلَ من محاضر الاجتماع كلَّ شاردة وواردة، وتعرفَ كلَّ ناخبٍ، رابحاً كان أو خاسراً، وتكشفَ أسبابَ نجاح مَن نجح، وسقوط مَن سقط، وتهتكَ أعراضَ الرهبانيّةِ وكراماتها...

وقبل أن يبادرَ أمينُ سرِّ المجمع إلى إعلام البطريركِ وحاشيتِه، والسفير الفاتيكاني ودوائرِه، وقبل أن تحظى الرهبانيّة على موافقة الكرسي الرسولي على أسماء الأبطال الميامين الجدد...

وقبل أن تُدَوَّنَ أسماءُ الفائزين في سجلاّتِ الرهبانيّة العامّة

والرسميّة، وتُكْتَبَ مجريات الجلسةِ الانتخابيّة بدِقّةٍ وعناية، وتُوَرَّخَ الأحداثُ برصانةٍ وموضوعيّة...

... قبلَ هذه كلِّها، وحالَ إعلانِ الفائزين الخمسة مباشرة، يقفُ أمينُ سرّ المجمع، ويقول:

"الآن يؤدّي "مجمع الرئاسة العامّة" الجديد، الأبُ العامّ فلان، والمدبّرون فلان وفلان، القَسَمَ الرئاسيَّ المعظّم. وها هم يقفون على منصّةٍ عالية، أمام الربّ والكنيسة والرهبانيّة، وأيديهم ضارعة، مرتفعة بمستوى رؤوسهم، ويتلون معاً قائلين:

"نحنُ الآباء فلان وفلان،

أمام ربّ السماوات والأرض وسيّد الجميع،

وأمام الكنيسة، ومن أجل عملها الخلاصي في العالم،

وأمام أمِّنا الرهبانيّة بَهجَةِ مآقِينا وعنوانِ مجدِنا،

وأمام إخوتنا الحاضرين، الذين أيّدونا لهذه المناصب والذين لم يؤيِّدوا،

نُقسمُ بأنّنا غيرُ مستحقّين شرفَ خدمةِ أمّنِا الرهبانيّة،

وغيرُ جديرين بإنعاماتِ نحصل عليها من جرّاء خدمتِها،

وغيرُ طالبين، من خلالِ خدمتِها، أيَّ نفعٍ شخصيّ.

نُقسمُ أمام أمّنا الرهبانيّة المفدّاة وقدّيسيها، بأنّنا، نحن، مجمع

الرئاسة العامّة الجديد، سنعيشُ معًا، بمحبّةٍ أخويّةٍ مثلى، وحياةٍ مشتركة تامّة، وتعاونٍ كلّي، وصلاةٍ دائمة، واتّفاق كامل؛

نعمل، معًا، بإخلاصٍ ومحبّة، من أجلِ أمّنا الرهبانيّة، ولا نعملُ إلاّ لها؛ نعمل من أجلِ كلّ فردٍ فيها، نساعدُه بمحبّةٍ ومسؤوليّة، من أجلِ خيرِه وسعادتِه، ومن أجلِ سعيه الدؤوبِ المستمرِّ في سبيلِ قداسة نفسه.

نُقسمُ أمام أمّنا الرهبانيّة، بأنّنا نعملُ على ازديادِ القداسةِ فيها، بمحاربةِ الشرِّ الذي فينا؛ ونعمل من أجلِ رفعِ اسمها في الكنيسة، في لبنان، وفي كلّ مكانٍ لها فيه موطىءُ قَدَم؛

ونعمل من أجل تجديدِ الحياة فيها، وتطوّرِها، ونموِّها، ورقيِّها، لكي تكونَ حيّةً فاعِلةً، وقدوةً للعالم الذي تحيا فيه وتعمل.

نُقسمُ أمام الرّب وأمامِ أمّنا الرهبانيّة بأنّنا نعمل ونصلّي من أجلِ مؤاساةِ المرضى فيها، ومن أجلِ راحةِ شيوخها وَعَجزَتها، من أجلِ ناشئتِها وشبيبتِها، من أجلِ الضعفاء والمسترخِين، من أجل النسّاكِ والمبشِّرِين، من أجلِ العمّالِ والمعلّمين، من أجلِ أديارِها ومراكزِها، من أجلِ العلمانيين الذين يمدّون إليها يدَ العون.

لقد أولَتْنا الرهبانيّة ثقتَها ومحبَّتَها فلن نبادِلَها إلاّ ما أَوْلَتْنا إيّاه. محبّتنا لرهبانيّتنا هي علينا واجبٌ محتّمٌ حتى الممات. فهي كنيستُنا، ومجالُ عملنا، وهمُّ مسؤوليّاتِنا، ومكانُ خلاصنا.

نلتمسُ من الربّ ضارعين، ومن شفعاءِ الرهبانيّة وقدِّيسيها، بأن لا نعملَ إلاّ بوحيِ ربِّنا وتعالِيم إنجيله، وبرضى رهبانيّتِنا وضميرنا.

فالتمسوا معنا، يا إخوتنا، ليعطَينا الربُّ قدرةً، لكي نقومَ بواجِبنا، تجاهَ ربِّنا، وكنيستِنا، وأمِّنا الرهبانيّة المفدّاة".

***

بعد هذا القسم، يبقى أعضاء السلطة حيث هم، ويتقدّم الأبُ العامّ السابق، ويسلّم الأبَ العامّ الجديد، صليبَ يدٍ من خشب (لا عصا ولا تاجَ ولا خاتَم)، ويُقبّل كلاهما الصليبَ، ويتعانقانِ بسلامٍ رهبانيٍ (مكاتفة)؛ وهكذا يصنع المدبّرون وسائرُ الرهبان (لا ركوع، لا بَوس أيادي، ولا قبلات على الشفاه أو الخدَّين)... وتُتلى، في حفلة التسلّم والتسليم والتهاني، أناشيدُ وتراتيل (لا خطاب للأب العامّ ولا تصاريح صحافيّة).

تترك السلطة الجديدة مع القديمة مكان الاجتماع باتّجاه البطريرك والسفير البابوي. يَعودُون الى تهاني الأصدقاء ليومين فقط. ثم تبتدئُ ورشةُ العمل.

الفصل الخامس

الحياة الرهبانيّة في الوثائق

٣٣

الحياة الرهبانيّة

في المجمع الفاتيكاني الثاني

تناول المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني موضوع الحياة الرهبانيّة في قرارات عدّة من وثائقه المجمعيّة؛ أخصّها "قرار مجمعي في تجديد الحياة الرهبانيّة الملائمة لعصرنا" (**ت ح ر**)، وقد سُمّي أيضاً "المحبّة الكاملة". صدر في ٢٨ /١٠/ ١٩٦٥، بعد أن نال رضى آباء المجمع ٢٣٢١، وعارضه ٤؛ ثمّ وافق عليه البابا بولس السادس، وثبّته وأقرّه بسلطانه.

و"لم يتوقّف المجمع في التكلّم على الرهبان وقيمة الحياة الرهبانيّة الملائمة عصرنا عند هذا القرار الخاصّ؛ ولكنّه تعدّاه إلى غيره من الوثائق المجمعيّة، منها الفصل الذي خصّه بالرهبان في الدستور العقائدي عن الكنيسة، المسمّى "نور الأمم" (**ك**)، والأعداد التي خصّها بهم في القرار عن مهمّة الأساقفة الراعويّة في الكنيسة، المسمّى "المسيح الربّ" (**م ا ر**).

وكذلك ورد أيضاً ذكر الحياة الرهبانيّة والرهبان في

الدساتير والقرارات المجمعيّة التالية : قرار مجمعي في رسالة العلمانيّين، المسمّى أيضاً "نشاط الكنيسة الرسولي"(**رع**)؛ وقرار مجمعي في التنشئة الكهنوتيّة، المسمّى "تجديد الكنيسة" (**ت ك**)؛ وقرار مجمعي في نشاط الكنيسة الإرسالي، المسمّى "إلى الأمم" (**ن ر**)؛ ودستور راعوي في الكنيسة وعالم اليوم، المسمّى "فرح ورجاء" (**ك ع**)؛ وقرار مجمعي في حياة الكهنة وخدمتهم الراعويّة، المسمّى "الدرجة الكهنوتيّة" (**ح ك خ**)؛ ودستور عقائدي في الليتورجيّا المقدّسة، المسمّى "المجمع المقدّس" (**ل**).

***

وكان خلاف طويل وحادّ بين آباء المجمع في مناقشة قرار "المحبّة الكاملة"؛ كما كان نقاش أيضاً بين الرهبان أنفسهم، وفي كلّ رهبانيّة في الكنيسة، بين "تقدّميّين ومحافظين". إنّما هاتان الفئتان لا تختلفان إطلاقاً في الحفاظ على جوهر الحياة الرهبانيّة، بل على السبل التي يجب أن تُسلك للوصول إلى ذلك :

ففئة التقدّميّين مع السهر على الغاية الوحيدة لكلّ حياة روحيّة، أي تتميم إرادة الله في وضع الحياة اليوميّة، ترغب في تجديد أسلوب الحياة وطرق التعبير عنها في عصرنا الراهن.

أمّا المحافظون فإنّهم، للسهر على الغاية نفسها، يخافون من

كلّ تجديد يعرّضها للتغيير وبالتالي للاضمحلال، ويرفضون كلّ ما يحملهم على التخلّي حتّى عن الأمور الثانويّة الطفيفة.

ولكنّ المجمع المقدّس عنى بالتجديد تلك العودة إلى الأصول الأوّليّة، وهي كلام السيّد المسيح في إنجيله، وحياته، وحياة الرسل القدّيسين، وإلى النفحة الصافية التي حملتِ المؤسّسين إلى التفكير بإنشاء رهبانيّة تتجاوب وروح العصر، وتنعشه من الداخل.

ولربّما اعترى الرهبانيّات، عبر العصور، الكثير من التقاليد التي قامت مقام التقليد الأوحد، ذلك الذي تحمله الكنيسة في حياتها وحيوّيتها. وعلى الرهبان اليوم، في عودتهم إلى الأصول، أن لا يرفضوا شيئاً من الأصول الأوّليّة، ولا من روح مؤسّسهم؛ ولكنّهم، بالعكس، يرنون إليها بعطف الابن الذي يفتّش عن تراث الجدود ليحياه بعقليّة جديدة، لا ما ألبستْه إيّاه الأجيال من ثيابٍ تَبلى مع الزمن.

إنّ أوضاع الحياة اليوم تغيّرت وتبدّلت، وهي في تغيير وتبديل متواصلَين. وعلى الحياة، التي هي ولادة فتجدّد، أن تحيي النشاطات المؤاتية في عصرنا الراهن، حسب علامات الزمن. ولذلك فإنّ العودة إلى الجذور تجعل الراهب يفقه ما هو أساسيّ، وما هو عرضيّ، لكي يُخرج الحقيقةَ الصافية من متاحف المومياء، ويعرضها جليّة فتيّة، لا يشيخ منها إلاّ ما تكدّس عليها

على كرّ العصور من الغبار. ولن يخاف على الحقيقة مَن له من الإيمان الكافي في التوصّل إلى تلك الأصول.

وفي العودة إلى الروح الأوّليّة التي منها نبعت حيويّة ونشاطات لا تزال الكنيسة تفخر بها، ليس ممّا يقلق العقل، لأنّها ليست انقلاباً على ما كان أو تنكّراً لهياكل انخرطت فيها الحياة الرهبانيّة. إنّما هي إحياء تلك الهياكل بنور إلهيّ لا يغرب أبداً"[151].

ثمّ إنّ الحياة الرهبانيّة، بحسب قرار المجمع، هي "تجاوبٌ مع الله، أو بالحري، جوابٌ على دعوة ربّانيّة، ليعيش المدعوّ لله وحده دون عودة إلى الوراء... فلذلك، إنّ الراهب... الذي، بحياته، يمتثل لأوامر المسيح، ويتمثّل به، يشابهه حيثما كان. وفي هذا الامتثال وهذا التشابه جوابٌ هو الحياة كلّها تتغيّر، فتفضّل المسيح على كلّ شيء، وتتبعه حيثما شاء حتّى الجلجلة".

"واتّباع المسيح.. يقتضي أن يقتفي الراهب آثار المعلّم الأوحد ويقتدي به.. ومَن أراد أن يلتصق بالمسيح.. عليه أن يزهد بكلّ شيء.. إنّما هذا الزهد ونكران الذات لن يتمّا ما لم يعمر قلب الراهب محبّة وغيرة...

وفي تفصيل ذلك، يعالج "القرار المجمعي في تجديد الحياة الرهبانيّة الملائمة عصرنا" النقاط التالية :

151 رَ: ت ح ر، مراحل تكوين هذا القرار، والأفكار الرئيسيّة، ص ١٢١-١٣٥.

١ . جاء في **مقدّمة** القرار: إنّ المشورات الإنجيليّة هي علامة ساطعة للملكوت السماويّ. ومنذ أجيال الكنيسة الأولى، عزم رجال ونساء على أن يمارسوا هذه المشورات، ويتبعوا المسيح، ويتشبّهوا به، فاعتنقوا الحياة النسكيّة، وأنشأوا الحياة الرهبانيّة التي ارتضتْها الكنيسة، وأقرّتْها بسلطانها. ثمّ نمت هذه الرهبانيّات، وتعدّدت، فساعدت الكنيسة في أن تكون حاضرة في العالم، ومزيّنة بشتى أنواع المواهب.

ولا يتوخّى المجمع من هذا القرار سوى إعطاء المبادئ العامّة لتجديد الحياة الرهبانيّة تجديداً ملائماً لعصرنا.

٢ . وجاء في فقرة **المبادئ العامّة للتجديد الملائم** الاتّزان بين العودة المستمرّة إلى الينابيع والتكييف مع أحوال الزمان في تبدّلاته[152]. وعليه وجب أن يصير هذا التجديد وفقاً للمبادئ التالية :

١ - اتّباع المسيح، وهي القاعدة الأسمى والقانون الأعلى للحياة الرهبانيّة.

٢ - معرفة روح المؤسّسين والحفاظ بأمانة على التراث.

---

152 ت ح ر ٢ : إنّ التجديد الملائم للحياة الرهبانيّة يتناول من جهة العودة المستمرّة إلى ينابيع كلّ حياة مسيحيّة وإلى الإلهام الأوّل الذي انبثقت منه المؤسّسات الرهبانيّة، وفي الآن ذاته يتناول من جهة ثانية تكييف هذه المؤسّسات مع أحوال الزمان في تبدلاته الجذريّة، وعليه وجب أن يصير هذا التجديد بدفع من الروح القدس وبقيادة الكنيسة.

٣ ـ مشاركة كلّ مؤسّسة في حياة الكنيسة وتعاليمها.

٤ ـ معرفة كلّ رهبانيّة حاجات الكنيسة وظروف الإنسان وأحوال العالم.

٥ ـ التجديد الروحانيّ له الدور الأوّل في تعزيز نشاط كلّ مؤسّسة.

٣ . وجاء في فقرة **المقاييس العمليّة للتجديد الملائم** قول المجمع في ضرورة التجديد والتكييف للحياة الرهبانيّة بحسب الظروف والمناسبات. قال : "في كلّ مكان، وخاصّة في مناطق الإرساليّات، يجب أن يتكيّف نظام الحياة و الصلاة والعمل تكييفاً ملائماً لأحوال الرهبان الجسديّة والنفسيّة الحاليّة، لا سيّما لحاجات العمل الرسوليّ، ومقتضيات الثقافة، والظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة، حسبما يتطلّبه طابع كلّ مؤسّسة...

وعليه، فليُعد النظر، بصورة ملائمة، في القوانين، وتفاسيرها، وكتب العادات، والكتب الطقسيّة، وكتب الصلوات، والاحتفالات، وما شابهها، فتُلغى منها النصوص البالية، وتُجدّد وفقاً لنصوص المجمع المقدّس ".

٤ . المسؤولون عن إنجاح هذا التجديد الملائم : يقول المجمع : "يُناط بالسلطة المختصّة فقط، لا سيّما بالمجامع العامّة، أن تسنّ طريق ذلك التكييف والتشريع... بيد أنّه يجب على الجميع

أن يتذكّروا أنَّ أمَلَ التجديد يقوم على حفْظ القانون باجتهاد متزايد أكثر منه على تكاثر الشرائع.

... على الرؤساء أن يستمزجوا، بطريقة مناسبة، رأي الرهبان، وأن يستمعوا إليهم حيال المشاكل التي تتّصل بالمؤسّسة كلّها.

٥ . **العناصر المشتركة لكلّ أنواع الحياة الرهبانيّة :** يقول المجمع: "... يجب على أعضاء كلّ مؤسّسة أن يجمعوا، إذ يفتّشون، قبل كلّ شيء، عن الله وحده، بين التأمّل الذي يوحّدهم به عقلاً وقلباً... والمحبّة الرسوليّة التي بها ينشطون للاشتراك في عمل الفداء، وفي نشر ملكوت الله ".

٦ . ويؤكّد المجمع **أسبقيّة الحياة الروحيّة**، وذلك بالتأمّل، وقراءة الكتاب المقدّس، والاحتفال بسرّ الافخارستيّا، ومحبّة القريب، وإكرام الرعاة، ومحبّتهم، وتحسّسهم قضايا الكنيسة، ونذر نفوسهم لرسالتها... وذلك كلّه، وغيره، في سبيل خلاص العالم، وبنيان الكنيسة، وتعزيز الحياة المستترة مع المسيح.

٧ . ويتناول المجمع وضع **المؤسّسات الموجَّهة بكاملها نحو التأمّل**، فيقول عنها إنّها **:** هي تلك التي يتفرّغ أعضاؤها لله وحده في الخلوة والسكوت في الصلاة المستمرّة، والتوبة الفرحة... فيصبحون شرف الكنيسة وينبوع النعم السماويّة.

٨ . وكذلك يتكلّم على **المؤسّسات التي وقفت ذاتها للحياة الرسوليّة،** فيقول : "إنّ من جوهر الحياة الرهبانيّة، في تلك المؤسّسات، العمل الرسولي والخيري... ولكن، على هذه المؤسّسات أن توفّق بين عاداتها وممارساتها وبين مقتضيات العمل الرسولي.

و "يجب أن تكون حياة الأعضاء الرهبانيّة كلّها مشبعة من الروح الرسولي، وأن يكون عملهم الرسوليّ كلّه منتعشاً بالروح الرهباني".

٩ . ويهمّ آباء المجمع العمل على **صيانة الحياة النسكيّة والديريّة معاً،** فيقول : "إنّ مهمّة الرهبان الأساسيّة هي أن يخدموا العزّة الإلهيّة داخل أسوار الدير بتواضع ونبل، سواء كرّسوا أنفسهم تماماً للعبادة في الحياة المستترة، أم تعاطوا شرعاً بعض الأعمال الرسوليّة أو غيرها من أعمال المحبّة المسيحيّة"...

١٠ . ثمّ يقرّر المجمع نوعاً جديداً من الحياة الرهبانيّة، هي **الحياة الرهبانيّة العلمانيّة.** يقول: يقدّر المجمع تقديراً جليلاً تلك الحياة الجزيلة الفائدة لمهمّة الكنيسة الراعويّة، في مجال تثقيف الشبيبة، أو العناية بالمرضى، أو في سائر الخدمات.

١١ . ويقول أيضاً عن **المؤسّسات العلمانيّة :** "ولتعلم هذه المؤسّسات بوضوح أنّها لن تستطيع تتميم وظيفتها ما لم تسهر على

تثقيف أعضائها في العلوم الدينيّة والإنسانيّة، لكي يكونوا حقّاً تلك الخميرة التي تعمل في العالم على تقوية جسد المسيح وإنمائه...".

***

أمّا عن مقوّمات الحياة الرهبانيّة، أي **النذور الثلاثة،** العفّة والفقر والطاعة، وعن سواها من الحياة المشتركة، والتأمّل، والصلاة، وأعمال المحبّة، وغير ذلك، فيشدّد المجمع على هذه الأمور، ويعتبرها صالحة في كلّ زمان ومكان، وفي أيّ شكل من أشكال الحياة الرهبانيّة في العالم.

١٢ . **العفّة :** يقول المجمع : "ينبغي اعتبار العفّة، تلك التي يعتنقها الرهبان من أجل ملكوت السماوات (رَ: متى ١٩ / ١٢) كموهبة النعمة السامية. فإنّها تحرّر قلب الإنسان بصورة فريدة (رَ: ١قور ٧/ ٣٢-٣٥) ليضطرم بالمحبّة نحو الله ونحو الناس أجمعين".

ويقول أيضاً : إنّ العفّة هي "علامة مميّزة للخيور السماويّة، والوسيلة الأشدّ فعاليّة ليستطيع بها الرهبان أن يكرّسوا أنفسهم، باندفاع، للخدمة الإلهيّة ولأعمال الرسالة... وليتذكّر الجميع، ولا سيّما الرؤساء، أنّ العفّة تكون في مأمن أكبر، عندما تسود بين الأعضاء في حياتهم المشتركة، محبّة أخويّة صادقة"...

ويقول أيضاً : "على الرهبان أن يجدّوا ساهرين بأمانة على

نذورهم وأن يؤمنوا بكلام الله، وإذ يثقون بمعونته تعالى ألاّ يعتدّوا بقواهم الذاتيّة، بل يكبحوا شهواتهم ويُميتوا حواسَّهم".

وبما أنّ المحافظة على العفّة الكاملة تنال في الطبيعة البشريّة أعمق ما فيها من الأميال، فعلى مَن يطلب الدخول في الحياة الرهبانيّة ألاّ يتقدّم وألاّ يُقبل إلى نذر العفّة إلاّ بعد أن يُمتحن امتحاناً كافياً حقّاً، ويَنضج نضوجاً نفسانيّاً وعاطفيّاً واجباً. وليُحذَّروا، ليس فقط من الأخطار التي تعترض العفّة، ولكن، ليُعلَّموا كيف أنّ التبتّل المكرّس لله يؤول أيضاً إلى خير الشخصيّة الكاملة.

١٣ . **الفقر** : الفقر هو علامة السير وراء المسيح... وعلى الرهبان أن يفتقروا روحيّاً وعمليّاً... وليشعر كلّ راهب في وظيفته أنّه ملزم بشريعة الشغل المشتركة... وليطرحوا عنهم كلّ اهتمام مفرط بأمور الدنيا... وليمدّوا الكنيسة في حاجاتها، ويعيلوا الفقراء، ويحبّوهم جميعهم في أحشاء المسيح (رَ: متى ١٩ /٢١؛ ٢٥ / ٣٤ـ٤٦؛ يع ٢/ ١٥ـ١٦؛ ١ يو ٣/ ١٧).

١٤ . **الطاعة** : يقول المجمع : " إنّ الرهبان، بنذرهم الطاعة، يكرّسون لله كاملَ إرادتهم الذاتيّة. وكأنّهم يقدّمون أنفسهم ذبيحة له تعالى... إقتداءً بيسوع الذي أتى ليتمّم إرادة أبيه (رَ: يو ٤/ ٣٤؛ ٥ /٣٠؛ عب ١٠/ ٧؛ مز ٣٩ /٩).. ذلك المسيح، الذي

بطاعته لأبيه، خدم إخوته، وبذل نفسه فداءً عن كثيرين (رَ: متى ٢٠/ ٢٨؛ يو ١٠/ ١٤-١٨)...

" بروح الإيمان... وبروح المحبّة نحو إرادة الله، ليخضع الرهبان لرؤسائهم باحترام وتواضع، حسبما تقتضيه القوانين والدساتير... وليعلموا أنّهم يُساعدون بهذا على بنيان جسد المسيح... فالطاعة الرهبانيّة إذّاك، بدلاً من أن تنقّص من كرامة الشخص البشري، تقودها إلى النضج بإنماء حرّيّة أبناء الله...

" أمّا الرؤساء، وهم المسؤولون عن النفوس التي أوكل إليهم أمرها (رَ: عب ١٣ /١٧)، فعليهم أن ينقادوا لإرادة الله في تتميم وظيفتهم، وأن يستخدموا السلطة بروح الخدمة نحو إخوتهم. بهذا يُظهرون المحبّة التي أحبّهم بها الله. فليرعوا مرؤوسيهم كأبناء لله، ويُراعوا فيهم حرّيّة الشخص البشري، فيغذّوا عندهم طاعةً طوعيّة".

و "على المجالس الرهبانيّة وهيئات الشورى فيها أن تقوم بأمانة بما أوكل إليها من أمر الإدارة، وأن تعبّر، كلّ على طريقته، عن مشاركة الأعضاء واهتمامهم بخير الجماعة الرهبانيّة كلّها".

١٥ . **الحياة المشتركة :** يقول المجمع : "... إنّ وحدة الإخوة تُظهر أنّ المسيح قد أتى (رَ: يو ١٣ /٣٥؛ ١٧/ ٢١). ومنها تنتج فاعليّة رسوليّة كبيرة.

ولكي يتقوّى رباط الأخوّة بين الأعضاء، يجب أن يشترك في حياة الجمهور وأعماله إشتراكاً دقيقاً...

وليبادر الرهبان، أعضاء المسيح، بعضهم بعضاً، بالإكرام في حياتهم الأخويّة (رَ: رو ١٢ /١٠) حاملين بعضهم أثقال بعض (رَ: غل ٦/ ٢).

١٦ . **حصن الراهبات** (وهو من مستلزمات الحياة الرهبانيّة النسائيّة).

١٧ . **الثوب الرهباني :** يقول المجمع : إنّ الثوب الرهباني، وهو علامة التكريس، يجب أن يكون بسيطاً ولائقاً، فقيراً ومحتشماً، وفضلاً على ذلك ملائماً لمقتضييات الصحّة ولظروف المكان والزمان ولحاجات الخدمة. ويجب أن يُستبدل ثوب الرجال والنساء إذا لم يتوافق وهذه المقتضيات.

١٨ . **تنشئة الأعضاء :** يقول المجمع : "يجب أن يعرفوا (أعضاء كلّ مؤسّسة) معرفةً وافية، كلٌّ حسب مؤهّلاته العقليّة وأطباعه الشخصيّة، عادات البيئة الاجتماعيّة التي يعايشونها، وطرق التفكير والقِيم التي تسودها... وعلى الرؤساء أيضاً أن يُحسنوا اختيار المدراء والمرشدين الروحيّين والأساتذة، ويُعنوا بإعدادهم".

١٩ . **إنشاء مؤسّسات جديدة :** يقول المجمع : "عند إنشاء

مؤسّسات جديدة.. وبنوع خاصّ في الكنائس الحديثة العهد، يجب أن تنشأ وتنمو أنماط حياة رهبانيّة تتلاءم وطباع السكّان وأخلاقهم، وظروف الحياة والعادات المحلّيّة ".

٢٠ . البقاء على الأعمال الخاصّة بالمؤسّسة أو تعديلها أو التخلّي عنها : يقول المجمع : " على المؤسّسات أن تحافظ بأمانة على أعمالها المميِّزة.. وأن تكيّفها حسب حاجات الزمان والمكان... باستعمال الوسائل المناسبة والجديدة أيضاً، وبالتخلّي عن الأعمال التي أصبحت اليوم أقلّ تلاؤماً مع روح المؤسّس وطابعها الأصيل.

على المؤسّسات الرهبانيّة أن تصون كلّيّاً الروح الإرساليّة، وأن توافقها وظروف اليوم، كلّ حسب طابعها الخاصّ، فيصبح التبشير بالإنجيل أكثر فعاليّة لدى جميع الشعوب ".

٢١ . المؤسّسات والأديرة التي هي في طريق الانحطاط.. (عليها أن تعالج أمورها بأيّة طريقة، بالإغلاق، أو بتجيير موروثاتها إلى سواها).

٢٢ . اتّحاد المؤسّسات الرهبانيّة : يقول المجمع : " على المؤسّسات والأديرة المستقلّة، إذا كانت تنتمي بنوعٍ ما إلى الأسرة الرهبانيّة عينها، أن تُنشئ في ما بينها تحالفات تناسبها، ويرضى عنها الكرسي الرسولي؛ أو اتّحادات إذا كانت دساتيرها تتشابه،

وكانت لها العادات عينها والروح ذاته، ولا سيّما إذا كانت ضعيفة جدّاً. وعليها أخيراً أن تُنشئ جمعيّات، إذا كانت تتعاطى الأعمال الخارجيّة نفسها أو ما يشابهها ".

٢٣ . **مجالس الرؤساء العامّين :** " يجب أن تعزّز اتّحادات، أو مجالس الرؤساء العامّين، التي أنشأها الكرسي الرسولي. فإنّها ذات فائدة كبرى تصل بها كلّ مؤسّسة بصورة أكمل إلى هدفها، ويتقوّى تكاتف أشدّ فعاليّة لخير الكنيسة، ويتوزّع فعلة الإنجيل في منطقة معيّنة بوجه أكثر عدالة، وتُبحث شؤون الرهبان المشتركة.

ويجب أيضاً أن يقوم تنظيم وتعاون لائقان بين المجالس الرهبانيّة والمجالس الأسقفيّة في ما يتعلّق بممارسة العمل الرسولي.

ومن الممكن أيضاً إنشاء مجالس شبيهة بها للمؤسّسات العلمانيّة ".

٢٤ . **الدعوات الرهبانيّة :** على الكهنة والمربّين المسيحيّين أن يقوموا بالجهود الصادقة لكي تنمو الدعوات الرهبانيّة المنتقاة بعناية ودراية، نموّاً مستجدّاً يتجاوب تماماً وحاجات الكنيسة.

وعلى الواعظين أن يتناولوا بتكرار وفي عظاتهم العادية

المشورات الإنجيليّة واعتناق الحياة الرهبانيّة. وعلى الوالدين، في تربية أبنائهم التربية المسيحيّة، أن يزرعوا في قلوبهم الدعوة الرهبانيّة، ويسهروا عليها.

أمّا المؤسّسات فيجوز لها أن تعرّف بنفسها لتشجّع الدعوات، وأن تفتّش عن طلاّب، شرط أن يتمّ ذلك بالفطنة المحتّمة وبمراعاة القواعد التي يسنّها الكرسي الرسولي والأسقف المحلّي.

بيد أنّ على الأعضاء أن يتذكّروا أنّ مَثَلَ حياتهم الخاصّة إنّما هو أحسن توصية بمؤسّستهم، ودعوةٌ لاعتناق الحياة الرهبانيّة.

٢٥ . خاتمة : يجب على المؤسّسات التي وُضعت لها قواعد التجديد الملائم هذه، أن تتجاوب ودعوتها الإلهيّة، ومهمّتها في كنيسة اليوم... فعلى جميع الرهبان إذاً أن ينشروا في العالم كلّه بشارة المسيح الخيّرة، وذلك بكمال إيمانهم، وبمحبّتهم لله وللقريب. وبشغفهم بالصليب ولا سيّما برجاء المجد الآتي.

***

أمّا كلام المجمع في سائر الوثائق فنستلّ أهمّه، في الموضوعات التالية :

يقول في **الحياة الرهبانيّة :** " يشهد الرهبان بقوّةِ حالتِهم شهادةً ساطعة ورائعة أنّ العالم لا يمكن تجلّيه وتقدمته لله خارجاً عن روح التطوبيات" (ك ٣١).

ثمّ " يمتدح المجمع المقدّس ويشجّع هؤلاء الرجال والنساء، الإخوة والأخوات الذين يزيّنون عروس المسيح في الأديار، والمدارس، والمستشفيات، والرسالات بالأمانة الدائمة والمتواضعة، وبالخدمات العديدة التي يقدّمونها بسخاء لكلِّ الناس (ك ٤٦).

ويحثّ المجمع الرهبان على أن يعملوا على بنيان الكنيسة بقوله: "على كلّ الرهبان يقع الواجب في أن يعملوا بكلّ قواهم وبغيرة على بنيان كلّ جسد المسيح السرّي ونموّه ولخير الكنائس الخاصّة" (م ا ر ٣٣).

وإذا كان من **عصمة** لبعض الرهبانيّات فهي عصمة بحسب مقتضيات القانون. يقول المجمع: "لكن العصمة لا تمنع الرهبان من أن يكونوا خاضعين في كلّ أبرشيّة لولاية أساقفتهم حسب مقتضيات القانون على قدر ما يتطلّبه تتميم وظيفتهم الراعويّة وتنظيم خدمة النفوس الصالحة" (م ا ر ٣٥).

ويكمّل المجمع: "إنّ العصمة التي بها يتعلّق الرهبان بالحبر الأعظم، أو بأيّة سلطة كنسيّة أخرى، والتي بها يخرجون عن ولاية الأساقفة، إنّما تنظر خاصّة إلى نظام الجمعيّات الداخلي. والغاية من هذا هي تنظيم أحسن للأشياء وتناغمها في الوجود الرهباني والسهر على تطوّر الحياة المشتركة وكمالها" (م ا ر ٣٥).

ويشدّد المجمع على **عمل الرهبان الرسولي**، أكانوا في رهبانيّة تأمّليّة نسكيّة، أم كانوا في رهبانيّة رسوليّة تبشيريّة. يقول: "على الرهبان أن يعملوا بكلّ قواهم لتُظهر الكنيسة بواسطتهم المسيحَ للمؤمنين ولغير المؤمنين، وذلك بصورة أكثر كمالاً وحقّانيّة : إمّا في تأمّلاته على الجبل، وإمّا بتبشيره الشعوب عن ملكوت الله، وإمّا أيضاً عندما كان يشفي المرضى وأصحاب العاهات، ويردّ الخطأة إلى حياة خصبة، عندما كان يبارك الأطفال ويوزّع خيراته على الجميع متمّماً دوماً، في الطاعة، إرادةَ الآب الذي أرسله" (ك ٤٦).

ويروح المجمع إلى التمييز في **المؤسّسات النسكيّة.** فهذه أيضاً، مهما كان أعضاؤها متشدّدين، ومحافظين على التقليد، عليهم أن يسمعوا نصيحة المجمع. يقول : "إنّ تنويهاً خاصّاً يليق بالمبادرات المتنوّعة لإرساء الحياة التأمّليّة. فالبعض إذ يحتفون بالعناصر الجوهريّة للمؤسّسات النسكيّة يعملون على غرس تقليد رهبنتهم الوافر الغنى، وآخرون يرجعون إلى أشكالٍ من الحياة النسكيّة القديمة التي هي أكثر بساطة. ومع ذلك، عليهم جميعاً أن يجدّوا في البحث ليتلاءموا والأوضاع المحلّيّة تلاؤماً أصيلاً" (ن ر ١٨).

ويلاحظ المجمع تأسيس رهبانيّات جديدة بما يتوافق مع عقليّة المجتمع. يقول : "في الكنائس الجديدة يجب الاهتمام بأشكال الحياة الرهبانيّة المختلفة لتعلن الأوجه المتنوّعة لرسالة المسيح وحياة الكنيسة، ولكي تتكرّس **للأعمال الراعويّة** المتعدّدة وتعدّ أعضاءها كما يجب لممارسة هذه الأعمال" (ن ر ١٨).

ويقول أيضاً: في الكنائس الحديثة فليهتمّ الكهنة المحلّيّون بعمل التبشير بغيرة" (ن ر ٢٠).

ويشدّد المجمع في مختلف وثائقه على **قداسة الكنيسة** التي تتغذّى بالمشورات الإنجيليّة، وبنوع خاصّ بالعفّة والعزوبيّة. يقول : "وتتغذّى قداسة الكنيسة بنوع خاصّ بالمشورات، تحت أشكالها المتعدّدة، تلك التي عرضها الربّ في الإنجيل كي يمارسها تلامذته. وفي المقام الأوّل من هذه المشورات عطيّة النعمة الإلهيّة الثمينة التي يهبها الآب إلى البعض (رَ: متى ١٩/ ١١؛ ١قور ٧/٧)، فتحمل نفساً أن تكرّس ذاتها بطريقة أسهل وبدون تجزّؤ قلب إلى الله وحده في التبتّل والعزوبيّة (رَ: ١قور ٧ /٣٢-٣٤). فهذا الانقطاع الكامل في سبيل ملكيّة الله كان دوماً من قبل الكنيسة موضوع شرف، خاصّة كعلامة للمحبّة وحافز إليها، وكينبوع خاصّ للخصب الروحي في العالم" (ك ٤٢).

هذه القداسة، تشهد لها الحالة الرهبانيّة؛ بل إنّ الحالة

الرهبانيّة تؤمّن لأتباعها خيوراً سماويّة هي حاضرة منذ الآن بفضل الفداء والقيامة الحاصلة. يقول المجمع : "فالحالة الرهبانيّة التي تؤمّن لأتباعها حرّية أكبر تجاه الأعباء الأرضيّة تبرز من جهة وعلى نطاق أوسع، الخيور السماويّة التي هي حاضرة الآن في هذا الزمن أمام أعين المؤمنين أجمعين، ومن جهة أخرى تشهد بوجود حياة جديدة وأزليّة اكتُسبت بفضل سرّ الفداء وتنبئ أخيراً بالقيامة المرجوّة، وبمجد ملكوت السماوات " (ك ٤٤).

ويقول المجمع في **رسالة الرهبانيّات :** "فلتعزّز الحياة الرهبانيّة بكلّ عناية، لا لأنّها تقدّم للنشاط الإرسالي مساعدات نفيسة وبمنتهى الأهمّيّة، بل لأنّها تُظهِر أيضاً وتعني بوضوح طبيعة الدعوة المسيحيّة الحميمة من خلال التكريس الأعمق لله الذي يتمّ في الكنيسة" (ن ر ١٨).

ويقول المجمع في **الطاعة** : فليبرهن الرهبان كلّهم عن خضوع ديني واحترام نحو الأساقفة بصفتهم خلفاء الرسل (م ا ر ٣٥).

ويقول أيضاً : وليكن مقتنعاً بأنّ الطاعة هي الفضيلة الخاصّة بخادم المسيح الذي افتدى الجنس البشري بطاعته (ن ر ٢٤).

ويقول كذلك: إذ يطيع الراهب إرادة الآب مع المسيح،

يتابع، بقيادة السلطة الرئاسيّة في الكنيسة، رسالة المسيح، ويشترك في سرّ الخلاص (ن ر ٢٥).

ويقول المجمع في **الفقر** : بما أنّ المسيح قد أتمّ الفداء بالفقر والاضطهاد، فالكنيسة هي مدعوّة أيضاً أن تلج ذات الطريق كي توصل إلى العالم ثمار الخلاص (ك ٨).

ويقول أيضاً : إنّ أمّنا الكنيسة لتفرح لأنّه يوجد في داخلها عدد غفير من الرجال والنساء، يريدون أن يتبعوا المخلّص عن كثب في تخلّيه عن ذاته، ويظهرونه ببيان أجلى، معتنقين الفقر بحرّية أبناء الله، متخلّين عن إرادتهم الذاتيّة (ك ٤٢).

***

وفي **الختام**، لقد أولتْ الكنيسة، في تاريخها، وفي وثائق المجامع المسكونيّة كلّها، وبنوع خاص ّ في وثائق المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الأخير، اهتماماً كبيراً وعنايةً بالغَة في الحياة الرهبانيّة، بشتّى أنواعها وأشكالها. ذاك لأنّ الحياة الرهبانيّة هي الصورة المثلى للكنيسة وقداستها.

ومعظم قدّيسي الكنيسة وملافنتها ولاهوتيّيها كانوا رهباناً وراهبات. هؤلاء يؤلّفون أحسن المؤسّسات التي تعمل في الكنيسة. إنّهم جنودها الذين يلبّون حاجاتها الرسوليّة. إنّهم أولئك الذين يعيشون القِيم المسيحيّة بدقّتها، أكانوا في الأديار والمحابس، أم في مواقع البشارة.

٣٤

الحياة الرهبانيّة
في التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة

يتناول كتاب "**التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة**"، الحياةَ الرهبانيّة في المقال التاسع : **الكنيسة**؛ الفقرة الرابعة : **ذوو السلطة المقدّسة**؛ في المقطع الثالث : **الحياة المكرّسة**[153]

١ . في رأي الكنيسة الكاثوليكيّة أن الحياة الرهبانيّة تقوم على المشورات الإنجيليّة (عد ٩١٤)؛ بالرغم من أنّ هذه المشورات "معروضة على كلِّ واحد من تلاميذ المسيح"؛ غير أنّ كمال المحبّة، الذي دُعي إليه جميع المؤمنين، يتضمّن، بالنسبة إلى الذين لبّوا الدعوةَ برضاهم إلى الحياة المكرّسة، واجب التقيُّد بالعفّة في حياة العزوبة لأجل ملكوت الله، والفقر والطاعة" (عد ٩١٥)

بالإضافة إلى هذه المشورات، تقوم الحياة الرهبانيّة، أيضاً، على كونها "حالة حياة ثابتة، تعترف بها الكنيسة (عد ٩١٥).. وبهذا تتميّز عن غيرها من حالات تقويّة، أو جمعيّات خيريّة، أو أخويّات، نشأت في الكنيسة لقداسة أصحابها وخلاصهم، ولخدمة الكنيسة والإنجيل.

153 ت.م.ك.ك.، عد ٩١٤-٩٤٥؛ ص ٢٨٧-٢٩٣.

٢ . من هنا، تظهر الحالة الرهبانيّة كإحدى الطرائق للوصول إلى تكرّسٍ كاملٍ لله في الحياة الرهبانيّة حيث ينوي المسيحيّ، بدافع من الروح القدس، أن يتبع المسيح عن قرب، وأن يهبَه نفسَه، ويكون في خدمة الملكوت (رَ: عد ٩١٦)

٣ . وتعتبر الكنيسة الكاثوليكيّة أنّ الحياة المسيحيّة "كمثل شجرة تتفرّع أغصانها تفرُّعاً عجيباً"، شجرة فيها نمتْ صيغٌ شتّى للحياة، منها، وبنوع خاصّ، الحياة الرهبانيّة بأشكالها التوحّديّة، والمشتركة، والرسوليّة، والديريّة، والعائليّة (رَ: عد ٩١٧)، كلّ بحسب مواهب الروح له، وعلى طريقته الخاصّة، تقبَّلتها الكنيسة بكلّ رضًى وثبَّتتها بسلطتها (رَ: عد ٩١٨). ويعود إلى الكرسي الرسولي وحده أن يوافق على صيغٍ جديدة من الحياة المكرّسة (رَ: عد ٩١٩).

٤ . من هنا تنقسم الحياة الرهبانيّة إلى حياة نسكيّة، حيث يكرّس النسّاك حياتهم لتسبيح الله وخلاص العالم، في انعزال عن العالم أشدّ، وفي صمت العزلة، وفي الصلاة المتواصلة والتوبة" (عد ٩٢٠)؛ وإلى حياة رسوليّة، حيث يعمل الرهبان في كلّ أنواع العمل الرسولي.

٥ . إلاّ أنّ الحياة النسكيّة تبدو أكثر تعبيراً عن الحياة الرهبانيّة، والنسّاك يُظهرون هذا الوجه الداخلي من سرّ الكنيسة القائم على الإلفة الشخصيّة مع المسيح. وحياة الناسك الخفيّة عن نظر البشر هي كرازة صامتة بالذي كرَّس له حياته، والذي هو كلّ شيء بالنسبة إليه. إنّها دعوة خاصّة إلى أن يجد الإنسانُ في الصحراء، بالجهاد الروحي نفسه، مجدَ المصلوب.

٦ . وممّا تتميّز به الحياة الرهبانيّة منذ ظهورها، هي أنّها تمتاز عن سائر صور الحياة المكرَّسة بمظهر العبادة، ونذْر المشورات الإنجيليّة العلنيّ، والحياة الأخويّة التي تُحيا جماعيًّا، والشهادة على اتّحاد المسيح والكنيسة (رَ: عد ٩٢٥).

٧ . وتعترف الكنيسة الكاثوليكيّة بأنّ إنشاء الكنيسة ونموّها الرسولي يقتضيان وجود الحياة الرهبانيّة. "والتاريخ يشهد على أفضال الأُسَر الرهبانيّة في نشر الإيمان، وفي إنشاء كنائس جديدة، وذلك منذ قيام المؤسَّسات النّسكيّة القديمة، والجمعيّات المتوسّطيّة، إلى الرهبانيّات الحديثة"[154]. (رَ: عد ٩٢٧).

٨ . ثمّ تعترف الكنيسة الكاثوليكيّة بوجود مؤسّسات علمانيّة مكرّسة، "لمؤمنين يعيشون في العالم، ويطلبون كمال المحبّة، ويسعون إلى الإسهام، خصوصاً من الداخل، في تقديس العالم" (عد ٩٢٨).

٩ . يقول التعليم المسيحي أيضاً بأنّ أعضاء هذه المؤسّسات العلمانيّة يشتركون "في عمل الكنيسة التبشيريّ، في العالم، وابتداءً من العالم"[155]، حيث يعمل حضورُهم عمل الخمير. وشهادة حياتهم المسيحيّة إنّما تهدف إلى تنظيم الأحداث الزمنيّة في خطّ الله، وإلى اختراق العالم بقوّة الإنجيل. إنّهم يحافظون في ما بينهم على الشركة

154 يوحنّا بولس الثاني، رسالة الفادي (ر ف)، ٦٩.
155 ح ق ل، ق ٧١٣، ٢.

والأخوّة المتعلّقتَين بطريقة حياتهم العلمانيّة[156] (رَ: عد ٩٢٩-٩٣٠).

***

هذه الخواطر في الحياة الرهبانيّة تقرّها الكنيسة في تعليمها وحياتها. ولا شيء يضاهي هذه الحياة كطريق سويّ إلى الحياة مع المسيح المصلوب، الذي ضحّى بنفسه من أجل خلاص العالم. وقد تكون شهادة الحياة الرهبانيّة، بما فيها من إماتات وتقشّفات هي البديل عن الاستشهاد الذي عاشه المسيحيّون الأوّلون.

ولا تبرح الكنيسة، التي تقدّر الحياة الرهبانيّة حقّ قدرها، تولي ظاهرة النسك كأفضل أنواع الرسالة التي يقوم بها الرهبان النسّاك. هؤلاء، بنظر الكنيسة، هم الرسل والشهود الحقيقيّون للمسيح المصلوب. وقد لا تتطلّب الكنيسة من هؤلاء الرهبان أكثر من عيش نذورهم حتّى يكونوا رهباناً.

156 ر : ح ق ل، ق ٧١٣، ٢.

٣٥
تحديّات الحياة الرّهبانيّة
في "الحياة المكرّسة"[157]

أوّلاً ـ الحياة الرّهبانيّة تحدٍّ كامل شامل

١ . إذا كانت الحياةُ الرهبانيّة، في جوهرها، تتحدّى العالم، فهذا واقع. وإذا كنّا نحنُ نُبيّنُ هذا الواقع، فإنّنا لا نتحدّى. ثمّ إذا كانت الحياة الرّهبانيّة تتحدّى الإنسان فتتطلّب منه أكثر ما بوسعه أن يعطي؛ فهذا أيضاً واقع. أمّا إذا كنّا نُظهر هذا التحدّي ونؤكّده، فنحن بذلك لا نتحدّى، ولا نحكم لا على معتنقي الحياة الرّهبانيّة ولا على رافضيها.

٢ . ثمّ إذا جاز التحدّي في بعض المواقف والمواقع والأعمال والمهمّات، فإنّه لا يجوز أبداً أن يكون في موضوع الحياة والكيان والهوّيّة والحالة... فالإنسان، في تحدّيه، يعمل على تخطّي ذاته؛ فيُخشى عليه، والحالة هذه، أن يستفردَ نفسَه، فيحمّلها ما لا طاقة لها به. والحياة

157 إرشاد رسولي في **الحياة المكرّسة**، البابا يوحنّا بولس الثاني، ٢٥ /٣/ ١٩٩٦، ٢١٦ ص.

الرّهبانيّة هي من هذا القبيل. أي من قبيل تحدّي الإنسان نفسَه وحياتَه وهو، في المفاهيم الطبيعيّة، غير مُستطاع.

٣ . الحياة الرّهبانيّة تتحدّى فعلاً وحقّاً، حياةَ العالَم، والمألوفَ عند البشر، والحياةَ المسيحيّة نفسَها. إنّها تتحدّى كلّ شيء. وتتحدّى العالم في كلّ شيء. والتحدّي هذا قاسٍ جدّاً، يطالُ الخصوصيّات : المشتهيات، والملذّات، والرغبات، والأميال، والنزعات الجنسيّة المتأصّلة، والرغبة في الذرّية؛ ويطال حرّيّة التملّك، والتّصرّف، وتحقيق المشاريع، وهو وجه آخر من تحقيق الذّات؛ ويطال الإرادة، والحرّيّة، والكرامة، والوجاهة..

٤ . وهل مِن تحدٍّ أعمقُ وأبعد من هذا التحدّي المثلّث الرؤوس، ذي المناخس القاتلة!!! وكم من مناخس عالقة بهذه الثلاثة وتابعة لها، لا تقلّ عنها عنفاً وقساوة! وليس أقلّها ما يُسمّى، في قاموس الحياة الرّهبانيّة، الحياة المشتركة، والتخلّي عن الأهل والذرّيّة، والزّهد، والتقشّف، والتحصّن داخل أسوار الدّير، وحفظ القوانين والفرائض بدقّة، وتحمُّل العيش مع أطباع أناسٍ لا تُطاق، والاستمرار في حال التوبة والنعمة، والحفاظ على جذوة الإيمان الحارّ من دون شكوك، وإقامة الصلوات المفروضة، وممارسة الإماتات في المأكل والمشرب، والابتعاد عن طلب الراحة الشخصيّة، وممارسة العمل الدؤوب، والعمل بمجّانيّة في البذل والعطاء.. وما إلى ذلك.

٥ . هذا التحدّي، ما كنّا نتجرّأ على تسميته بهذا الإسم، لو لم يلحّ عليه قداسةُ الحبر الأعظم في رسالته الحبريّة العظيمة، **"الحياة المكرّسة"**. فهو يشدّد على أنّ الحياة الرّهبانيّة، تحدٍّ كامل وشامل. والمشورات الإنجيليّة، في رأيه، ليست سوى "تحدّيات كبرى... تحدّيات رئيسة... تحدّيات كلّ زمان، تتناول مباشرة... الفقر والعفّة والطّاعة" (عدد ٨٧).

٦ . صحيح أنّ الحياة المسيحيّة، في طبيعتها، تحدٍّ للعالم في كلّ شيء. وبنوع خاصّ في إيمانِها بما لا يطاله العقل البشري : فهي في قولها بالله الواحد والثالوث معاً، وبتجسّده، وبآلامه وصلبه ودفنِه وقيامته، وبما أقام عليه الكنيسة، وبما زوّدها من أسرار هي وسائل فعّالة لقداسة البشر، وبما فرضَ عليهم من سلوكٍ صارمٍ في الانتصار الدائم على الذّات... في كلّ هذه، هي تحدٍّ كامل، بل غير مقبول في المفاهيم البشريّة المألوفة.

٧ . إلاّ أنّ الأعظم ليس ما يَعجزُ العقلُ عن فهمه، بقدر ما هو في ما تعجز الحياة البشريّة، بمعطياتها الطبيعيّة، أن تقوم عليه. أي : ما يُلزم الرّاهب به نفسَه بما يطال به الحياةَ ومقوّماتها؛ وينال من الطبيعة ويقهرها؛ ويستمرّ القهر في عهد بين الإنسان والله مؤبّد، لا رجوعَ عنه، ولا استرخاء، ولا ندم... التحدّي، في الحياة الرّهبانيّة، هو في أن يتخلّى الرّاهبُ عن كلّ شيء. ويجب ألاّ نسمّي شيئاً من كلّ شيء لئلاّ يخرج من عدم التسمية أيُّ شيء.

٨ . كلّ الإنسان، في الحالة الرّهبانيّة، في حالة تحدٍّ. بل هو في توتّرٍ شديد، يلامس المطلقَ والكمال. فلكأنّ الحياة الرّهبانيّة، بهذا التوتّر الشديد، هي في مقدّمة الحياة المسيحيّة، في الصفوف الأماميّة، في مراكز العناية الفائقة، في مواقع القيادة، في المعسكر المتقدّم، على رأس مسيرة مرهقة نحو الهدف مباشرة...

٩ . ثمّ إنّ الحياة الرّهبانيّة، هي، حقّاً وفعلاً، في حالة تحدٍّ دائمٍ لعالَمٍ لا يَظهر مؤمِناً بشيءٍ من وراءِ هذا الكون؛ فيما الحياة الرّهبانيّة تقوم، في أساسها على هذا الإيمان. راهبٌ ملحدٌ تعبيرٌ يحمل تناقضَه في ذاته. والحياة الرّهبانيّة، أيضاً، تتحدّى عالماً لا يسعى عادةً إلى القداسة، وليست هي في برنامج عمله اليومي؛ فيما هي لا غايةَ لها إلاّ القداسة، ولا عمل لها إلاّ في القداسة، التي هي في برنامجها في كلّ ثانية من ثواني الوجود.

١٠ . هذه الغاية ليست هدفاً بعيداً عنها، بل هي فيها، تعمل لها. ليست هي مرحلة من مراحل مسيرتها، تقطعها، فتنتهي منها، ثم تُقدم على غيرها، فترمي بها وراءها. بل القداسة هي عملٌ يوميّ، متواصل، مستمرّ، خطوة إثر خطوة. عملٌ باطني، روحانيّ، شخصيّ، ضميريّ؛ كما هي عملٌ ظاهريّ، جماعيّ، يشملُ الجماعةَ كلَّها. والكلّ يساعد فيها الكلّ. إنّها مناخٌ عام، لا يُستثنى منه أحد.

١١ . من هذه المنطلقات، واعتماداً عليها، نستطيع، الآن، الولوج في عمق "التّحدّيات الكبرى والرئيسة": العفّة، والفقر، والطاعة. فنبيّن لماذا هي "تحدّيات"؟ وما هي صعوبات عيشها؟ وهل هي، في عالمنا، ممكنة؟ وهلاّ تزال، اليوم، كما كانت عليه في الأمس؟ أَمِن تطوّرٍ لمفاهيمها؟ وكيف هو هذا التطوّر؟ وهل من حياة رهبانيّة لا تقوم عليها؟ أي هل من حياة رهبانيّة تعمل بأساليبَ أخرى وطرائق غيرِ الطرائق الرهبانيّة المألوفة؟.. إنّها موضوعاتٌ تُطرحُ لتوضيح ما يقوم عليه هذا التحدّي. لنبتدئ بالعفّة.

ثانياً - "العفّة المكرّسة وتحدّياتها"

جاء في الرّسالة: "أوّل التحدّيات.. تحدّي الجنس والغرائز وما يرافقها من آلام.. جواب الحياة المكرّسة يقوم على ممارسة العفّة الكاملة في الفرح، شهادةً لقدرة محبّة الله في هشاشة وضعنا البشري.. شهادة.. قليلاً ما العالمُ يستوعبها.. ودلالةً على أنّ محبّة الله بوسعها أن تصنع عجائب كبرى، شهادة تلبّي حاجة متنامية في العلاقات البشريّة. شهادةً تقضي التحلّي بالتوازن والتماسك والحيويّة والنّضج النّفساني والعاطفي. يشعر بها المكرّس بأهليّة يمارس فيها حبّاً جذريّاً وشاملاً" (عدد ٨٨).

١ . إذا أردنا أن نتوسّع في أبعاد هذا التحدّي، نرى أنّنا أمامَ عمقٍ من أعماق أعاميق الإنسان، يقوم على بتوليّة وعفّة مستمرّتين،

في الظاهر والباطن، في الرغبات والممارسات، في الفكر والقول والفعل.. بفرحٍ وغبطة، من دون توتّرٍ، أو تعصّبٍ، أو حزن، أو تأسّف، أو ندم، وبطريقة مستمرّة، متواصلة، لا ارتخاء فيها ولا ضجر، لا تعب ولا ملل...

٢ . كلّ ذلك من أجل المسيح، من أجل اتّباعه، والاقتداء به، وتمجيده، وتقديس الذات والعالم، وحصر الشرّ العامل فيه، وتفضيل العالم الآخر عليه، والعمل له، والدخول، منذ الآن، في ملكوت الله الذي، تساهمُ البتوليّة مساهمةً فعّالة، في أن يُصبح مجيئُه قريباً، وعلى الأبواب. فالعفّة الرّهبانيّة، إذاً، في غايتها القصوى، هي في حصر منابع الحياة لئلاّ تُنجبَ طعاماً دائماً للموت.

٣ . وكلّما كانت تجاريبُ الحياة الرّهبانيّة كبيرة، يكون التحدّي كبيراً. فالرّاهب يعيش، اليوم، في عالم مغمور بالجنس والإغراءات الجنسيّة والغرائز. في عالم فُقدت فيه مظاهرُ الحياء والحشمة كلّها. وكأنّ ما هو، في ذاته، عملٌ شخصيٌّ سرِّيٌّ حميم، أصبح اليوم عملاً عامّاً، مشتركاً، معروضاً أمام أعين الجميع، بجرأة تأباها كائناتٌ لا تمارسُ الجنسَ إلاّ تحت أجنحة الظلام، وفي منأى عن عيون الآخرين، ومع شريكٍ واحد.

٤ . في مثل هذا الخضم الهائج، تتضاعفُ آلامُ الرّاهبِ

وصعوباتُه. فيكبر، بالتالي، تحدّيه. فتجارب العفّة تطارده في كلّ مكان. تلاحقه في عزلته كما في حياته الجماعيّة، في عمله ونشاطه كما في راحته وبطالته، في ممارسة واجباته الرّوحيّة كما في خدماته الإنسانيّة، في ليله كما في نهاره... ولا يظنّن نفسَه، أنّه، إذا ما تقدّم في القداسة، أصبح عصيًّا عليها. أو كلّما تقدّم في العمر، أمست رغباتُه طيّعةً لمشيئته... إنّها، حقّاً، تحدٍّ كبير، لأنّها حالة شاملة، عميقة، مستمرّة، لا تهادِن.

٥ . أين لا يجدُ الرّاهبُ تجاريبَه في عفّته؟! أفي ما يَقرأ من كتب ومجلاّت! أم في ما يطّلع عليه من أخبار يوميّة في صفحات الجرائد! أم في دُور الفن ولوحات الجمال! أم في معارض الأزياء وصالات التزيين! أم في الروائح العطريّة المثيرة! أم في ملصقات الدعايات في الشوارع العامّة وواجهات المحلاّت! أم في ما يُعرضُ من أفلامٍ جريئة، أمستْ أساليبُها وموضوعاتُها كلُّها تقريباً غارقة في الجنس! أم في ما يسمع من أغاني الطّرب الغنيّة في وصف الأنثى ودقائق جسدها! أم في ما يمارَسُ من تحرّرٍ في حفلات الرقص والقصف والطقش وليالي السّمر!!!

٦ . أين موقع الرّاهب في كلّ هذه! وما موقفه منها، وهي تهجم عليه في صومعته وداخل حصونه! ومع هذه التجاريب كلّها، والإغراءات التي تستفزّه باستمرار، عليه ألاّ يأسف، أو يندم. و ألاّ

يتراجع، أو يتراخى. إنّها محنتُه الكبرى الملازمة له من يومِ نضوجه الجنسي إلى حين اهتراء جسده تحت التراب.

٧ . ومِن تجاريب الرّاهب في عفّته ما يجد من حاجة ماسّة إلى مَن يُعينه ويؤاسيه ويشاركه الأفراح والأحزان. ومن مثل امرأةٍ تكون بإزائه وفي عونه! قد يكونُ مريضاً، أو عاجزاً، أو مرهَقاً، أو مضطرباً، أو معزولاً، أو ضعيفاً... وتخطر في باله، وهو في مثل هذه الحال، أسئلة وأسئلة عن مدى صحّة انقطاعه عن المرأة والبنين... يقفُ قليلاً. يلتفت إلى ورائه. يأسف قليلاً. ثم يكمّل المسيرة. وتعوده هذه الوقفة مرّات ومرّات. ولكنّ أجرَه، كلّ أجره، في هذه التجاريب إيّاها... وكلّما تقدّمت به السنون، شعر بالحاجة أكثر. وهزّته تجارب أعنف. ويتساءل دائماً عن جدوى انقطاعه. ثمّ يعود، بنعمةٍ ما، فيكمّل المسيرة إلى أن ينقضي العمر، وتتوقّف نبضات قلبه.

٨ . إنّه، في الحقيقة، تحدٍّ كبير ودائم. تحدٍّ يطال حياةَ الرّاهب كلَّها، طبيعتَه وهوّيّته الإنسانيّة، كيانَه الجسدي والرّوحي معاً، شخصيّتَه بكلّ ما تتميّز به من صفات وكمالات، روحانيّتَه في مدى عمقها وجدّيتها، سلوكَه الخلقي مهما تسامى وتعالى... ولن يكونَ بوسع إنسانٍ ممارسةَ العفّة الكاملة إنْ غابتْ عنه المُثُل، أو تراخى في نشدان القداسة. فمن دون نشدان هذه القداسة ليس للعفّة أيّ معنى. بل هي غير مستطاعة. لأنّها من جملة الحاجات والغرائز الطبيعيّة الجامحة.

٩ . ولكنّها حاجة تُنَظَّم؛ لأنّها تخضع للعقل؛ ولأنّها لا تؤدّي إلى الموت، كحاجة الأكل والشرب والنّوم... حاجةٌ تُنَظَّمُ لأنّها خاضعةٌ لتربية سليمة، لثقافة روحيّة، لعقلٍ حاكمٍ ضابطِ الغرائز، لذوقٍ رفيع، لِقِيَمٍ ومُثُلٍ سامية، لقداسةٍ تُمارَس باستمرارٍ، ومن دون ملل. هي حاجة ليست غريزةً حيوانيّةً فحسب، بل هي عملٌ إنسانيٌّ، واعٍ ومسؤولٌ عمّا يتبعه من حبٍّ ومشاركةٍ وانجذابٍ وتكاملٍ وارتباطٍ بين قلبَين من أجل مصيرٍ واحدٍ مشترك... فالعفّة الرّهبانيّة، إنْ ترقّتْ، رقّتْ صاحبَها إلى درجات العلويّين؛ وإنْ هوتْ أهوتْ بصاحبها إلى دركات السفليّين.

١٠ . قد يكون بوسع ناشد الدرجات العليا أن يصل إلى ما ينشد، وهو يلبّي حاجات الجسد، من أكل وشرب ونوم، بحكمة واعتدال.. ولكنّه لن يسعه مطلقاً أن ينشد الكمال وفيه ميلٌ جنسيّ واحد لم ينضبطْ بعدُ، ولم ينتصر عليه... من هنا كانت العفّة أساسَ الحياة الرّهبانيّة، وواسطةً فاعلة إلى القداسة، وسُلَّماً يؤدّي بصاحبه إلى الكمال.

١١ . هذه الخواطر في العفّة الرّهبانيّة ليست نظريّاتٍ علميّةً صحيحةً يرتاح إليها العقل. إنّما هي هزّاتٌ عنيفة تتحكّم بالحياة والمصير، وتخضخض القلبَ والكيان، وقد تؤدّي بمن لم يضبطْها تماماً إلى نوباتٍ عنيفة، تُفقدُ الرّاهبَ اتّزانَه، وتُشغله عن كلّ عملٍ ذي قيمة. ويَقضي عمرَه يصارعُ الجوَّ، ويحارب الأرواحَ، ويجاهد من دون

جدوى... فكم عليه، والحال هذه، أن يتدرّبَ على الانتصار على نفسه. فكلّ شخصيّته تقومُ على هذا الانتصار. ونجاحُ حياته كلِّها رهنٌ بهذا الانتصار عينه.

ثالثاً - "الفقر وتحدّياته"

جاء في الرسالة: "ثمّة تحدٍّ معاصِرٍ آخر ناجمٍ عن نزعة مادّيّة إلى التملّك... جواب الحياة المكرّسة: إلتزامٌ فاعل بتنمية التضامن والمحبّة. تنشيط برامج دعم للفقراء... الكفاح في سبيل التغلّب على الجوع وأسبابه. إنعاش النشاطات المجّانيّة. العمل على توزيع المساعدات الدوليّة توزيعاً منصفاً. المساهمة، بفضل سخائهم، في أنسنة العالم.

"الفقر الإنجيلي، قبل أن يكون وسيلةَ خدمةٍ للفقراء، هو قيمة في ذاتها... يتصدّى الفقر لصنميّة إلهِ المال... لمجتمعٍ أخذ يفقد معنى الاعتدال وقيمة الأشياء نفسها...".

فقرٌ يقوم "على التخفيف من حجم الاستهلاك، وعلى ممارسة القناعة، والتزام واجب الحدّ من الرغبات. التجرّد. القناعة. بساطة. وضيافة. والتطلّع إلى إتمام حاجات القريب ومحبّته، ومقاسمة المحرومين... المجّانيّة تشفي من أمراض العزلة. تشرح من الانقباض والاكتئاب" (عدد ٨٩-٩٠).

١ . نقول : هذا التّحدّي يطال علاقة الإنسان بخيراتِ الأرض المادّية. وهو لا يقلّ أهمّيّة عن تحدّي الحياة الجنسيّة، ولا يقلّ صعوبةً عنها. إنّ عيش الرّاهب من دون مال أو تملّكِ شيءٍ من خيرات الأرض هو عيشٌ، في نظر العالم، منقوص. عيش إنسانٍ في حال عوز دائم.

٢ . يعملُ الرّاهب ويبقى، بالرّغم من عمله الدائم، في حاجةٍ دائمةٍ وماسّةٍ لسواه. يعمل من دون أن يجد نتيجةً لعمله. ويعمل باستمرار، بدون ملل أو كلل. يعمل من دون راحة، ومن دون أجر. يعمل لسواه؛ بل لأشخاصٍ لا علاقة له بهم، وقد لا يعرفعهم.

٣ . إنّها لمحنة أخرى للرّاهب، بل تحدّ صارخ لأميال الطبيعة. قد تكون البتوليّة أزمةً شخصيّة داخليّة، يعالجها المرء بينه وبين نفسه؛ وقد لا تَظهر للعيان. ولكنّ أزمةَ الفقر وما ينتج عنها من حاجة دائمة، ومن تعبٍ وعملٍ مستمرَّين، هي أزمة تظهر على الرّاهب في مأكله ومشربه وملبسه وراحته وحياته العامّة كلّها. إنْ خالفَها، ظهرتْ مخالفتُه للناس؛ فتحصل، ثمّةَ، أزمةٌ من نوع آخر.

٤ . تجاريب الرّاهب في هذا التحدّي كثيرة وعميقة هي أيضاً. فهو، ككلّ إنسانٍ، يرغب في التملّك. ويرغب في حريّة التصرّف بما يملك. ويريد، بما يملك، تحقيقَ مشاريعَ يفتخر بها، تخلّد اسمَه، تُبقيه حيّاً حتّى بعد انقضاء عمره، وتُحيي ذكراه بعد أنْ يكون كلُّ شيء قد زال. إنّها "ذرّيّته" التي تستمرّ بعد موته. لهذا، فهو معرّضٌ باستمرار

إلى رغبة الخلود هذه، من خلال ما يجمع من أموال وأرزاق وأملاك ومشاريع، بعدَ أن فَقَدَ رغبةَ البقاء والاستمرار في الأبناء والأحفاد.

٥ . تجاريب الفقر تتخطّى العوز والحاجة وحرّية التملّك والتّصرّف. إنّها، في حقيقتها، على مستوى إثبات الهوّيّة، وتمييز الشخصيّة، وإيجاد موقع له في الأرض، لا يملأه سواه، ولا ينافسه عليه أحد... مع الفقر الرّهباني تُنسَفُ هذه كلّها. وكأنَّ الرّاهب، الذي يعيشُ فقيراً بحسب المفهوم الرّهباني الصارم، لم يمرّ على هذه الأرض، ولم يُبقِ له فيها أثراً.

٦ . لهذه الأسباب، يجد الرّاهب نفسه في نذر الفقر وكأنّه مات فعلاً عن العالم. تخلّى عمّا يميّز شخصيّتَه وهوّيّته. استغنى عن الذرّيّة والاستمراريّة. قرّر ألاّ يكونَ له بعدَ موته أيُّ ذكْر... هذه بطولات لا يحقّقها الناس العاديّون. لكأنّ الفقر، في هذا المعنى، هو الموت البطيء المتعمَّد. إنّه الانتحار. لكنّه انتحار مشروع.

٧ . ماذا يعني كلّ هذا؟ وهل هو جائزٌ في الحياة البشريّة؟ وهل بعد هذا الحرمان مِن حرمان؟ نقول: إنّه الحرمان في أقصى معانيه. وكأنّه هدفٌ بحدّ ذاته. فيما هو يجب أن يكون حرماناً للنّفس في سبيل توفير المال والرزق للمحتاجين والمساكين. إنّه وسيلةٌ لمساعدة الفقراء، وليس غايةً نعمل من أجلها. ونودّ هنا أن نذكّر بأُولَى قراءات يسوع من العهد القديم، وقد رسمها برنامجاً لرسالته العتيدة، فقرأ من أشعيا:

"رُوحُ الرّبِّ علَيَّ، فَقَدْ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ المَسَاكِين" (لو ٤/ ١٨).

٨ . نحن هنا مع مفهوم آخَر لنذر الفقر. وهو أنّ الرّاهبَ لا يَعني بأداءِ نذر الفقر أنّه يُجلُّ الفقرَ في حدِّ ذاته؛ بل هو يَنذر "مساعدةَ الفقراء"، ينذر حرمانَ نفسه من خيراتٍ في سبيل توفيرها للمحتاجين والمساكين. لهذا السبب يرتبط الفقر، بفهومه المتطّور هذا، بالعمل. فالرّاهبُ الذي يعمل هوالفقير، وإنْ كان عملُه يَردُّ عليه أموالاً. أمّا الراهب الذي لا يعمل، وإنْ لم يكن بين يديه مال، فهو يخالفُ مباشرةً مفهومَ الفقر كقيمةٍ إنسانيّة، إجتماعيّة، مسيحيّة، ورهبانيّة.

٩ . وإذا كان لا بدّ للرّاهب من العمل لكي يكون لفقره قيمة، فعمله هذا تقتضي له وسائلُ وآلات ومقوّمات وأمكنة وعاملون وموظّفون... وهذه كلّها لا تكون من دون رأسمال وتصرّفٍ حرّ بالمال، العنصر الأساسيّ والعصَب الحيويّ لكلّ مشروع. ممّا يعني أنّ الفقرَ، كما فُهم في تقاليد الحياة الرّهبانيّة، لم يعد هو نفسه الذي يمارَس اليوم.

١٠ . فالرّاهب الذي يكون تحته سيّارةٌ للذهاب إلى عمله، والذي يكون له مكتبٌ، والذي يأخذ أجرَ عمله، والذي يقتني كتباً، وكمبيوتر، وآلات موسيقيّة، وغرفةً مفروشةً تسهّل له شغله.. ويكون في حوزته أموال وحريّة تصرّف بهذه الأموال... هو أيضاً راهبٌ لا يزال يُصنَّفُ في خانة الفقراء... ولكنّه، كان يُحسبُ في ما مضى، مرتكباً إثماً كبيراً، وكأنّه، وهو يضع قرشاً في جيبه، دسّ فيها

شيطاناً... ونحن نشهد اليومَ رهباناً يمارِسون هذا المفهوم المتطوّر للفقر؛ فيما النّصوص القانونيّة كلُّها لا تزال قائمةً على مفهومها التقليدي. ممّا يجعلُ الأمورَ غير سليمة، والرّاهبَ في حالِ اضطراب. فلا النّصوص تتغيّر؛ ولا المفاهيم تُصحَّح.

١١ . ثمّة مشكلة أخرى تعترض مفاهيمَ الفقر التقليديّة، وهي في تلك المشاريع التي يحقّقها الرّاهب. هذه المشاريعُ لا تقوم من دون مال. وإنْ قامتْ بمال فإنّها تُنتجُ أرباحاً، وتزيد في رأسمالها، فتتعاظم الأموال وتتكاثر... كيف تكون، في هذه الحال، حالُ راهبٍ يَعمل، ويؤسّس مشاريع منتجة، ويفتح لها حساباً في المصارف!!! ألا يجب أن تُعتبر هذه المشاريع مؤسّسةً، كسائر المؤسّسات الرّهبانيّة التي تحكمها نصوصٌ قانونيّة، ويُجرى عليها تدقيق وتنظيم وتفعيل ومساعدة إن اقتضى الأمر!!! إنّنا، حقّاً، في مفهوم الفقر، لا نزالُ نتعثّر كثيراً، ممارسةً ونصوصاً.

رابعاً - "ألحرّيّة الطائعة وتحدّياتها"

"التحدّي الثالث ينجم عن مفاهيم الحرّيّة... الحرّيّة قيمةٌ حقيقيّة وثيقةُ العلاقةِ باحترام الشخص البشري. وكم من الانحراف في استعمال الحرّيّة. جواب الحياة المكرّسة: أن تتّخذَ الطاعةُ نموذجاً لها طاعةَ المسيح لأبيه. وأن ليس ثمّة من تناقضٍ بين الطّاعة والحرّيّة...

سرّ الطاعة أن نتقدّم بها شيئاً فشيئاً نحو امتلاك الحرّيّة الحقيقيّة" (عدد ٩١).

نلخّص كلام الرسالة هذا في مفهومَين اثنين:

١ . **أوّلاً -** الطّاعة لا تُلغي الحرّيّة. إن ألغتْها بطلتْ هي بذات الفعل. الطاعة تُلغي انحرافاتٍ في الحرّيّة. فهي، إذاً، تعمل على احترام الشخص البشري، كما الحرّيّة نفسُها تعمل. الطاعة تضبط الحرّيّة التي تنحرف دائماً نحو التحرّر والفوضى. وهي، بهذا، لا تتناقضُ معها؛ بل تمتلكها. وهذا سرّها، وغناها، وحقيقتها، وأهمّيتها، وضرورتها في الحياة المسيحيّة عامّة، والرّهبانيّة بنوع خاص؛ بل وأيضاً في الحياة الإنسانيّة التي تفترض، بكونها إجتماعيّة، تلازماً وانسجاماً بين أعضاء المجتمع البشري.

٢ . **ثانياً -** للطاعة أيضاً قيمة إنسانيّة خلاصيّة. فهي ليست كطاعة العسكر لقائدهم، ولا هي "طاعة عمياء"، ولا طاعة "ازْرَعْ البصلة بالقِلْب"، ولا طاعة عبدٍ لسيّد، ولا طاعة مأمورٍ لآمرٍ، ولا طاعة مَن ينفّذ قوانينَ وفرائض صارمة على حساب كرامة الإنسان... بل هي، وباختصار، "طاعة المسيح لأبيه"، أي طاعةٌ من أجل غاية محدَّدة واضحة، هي "خلاص العالم". وخلاصُ العالم هو مبادرة إلهيّة، شاءها الآبُ منذ الأزل. ونفّذها الابنُ في الزّمن. ويجب على "الابن" ألاّ يغيّر فيها لئلاّ يُلغي دورَه بنفسه. فلا يعودُ، بالتالي، مخلِّصاً. والابن

لم يُرد أن يكون، بالنسبة إلينا، إلاَّ مخلِّصاً. وليس هو إلاّ كذلك.

٣ . بهذَين المفهومَين، نستطيع القول بأنّ "الطاعة"، بمعناها الرّهباني الأصيل، هي تحدٍّ كبير للمفاهيم البشريّة العادية. إنّها المثاليّة ذاتها. وهي السعي الحثيث المستمرّ الواعي نحو هدفٍ سامٍ وكبيرٍ جدًّا. وهي تتخطّى، بتحدّيها هذا، نذرَ العفّة، الذي فيه يتخلّى الرّاهبُ عن بعضِ ذاته، وتتخطّى أيضاً نذرَ الفقر، الذي فيه يتخلّى الرّاهبُ أيضاً عن بعض ذاته. أمّا في نذر الطاعة فالضحيّة هو الإنسان نفسُه. فهو، به، يتخلّى عن كلّ ذاته، أي عن حرّيّته، وقراره، وكرامته، ومكانته في العالم.

٤ . في الطاعة يسلّمُ الرّاهبُ نفسَه لآخَر. يَسمع لغيره لا لنفسه. يعمل ما يريده غيرُه لا ما يريده هو. يحقِّق مشاريعَ غيره لا مشاريعه هو. يعمل ليفيد غيرَه لا لإفادة ذاته. يقوم بما يُرضي غيرَه لا بما يرضي نفسه. ينفّذ ما يجعل غيرَه يتمجّد لا ليمجّد نفسه. يتفانَى من أجل غيره لا من أجل نفسه. يسلّم زمامَ حكم ذاتِه لقيادة غيره لا لقيادة نفسه. يتعب ويجاهد ويُعاني لا من أجل نفسه بل من أجل أن يقال: "هذا المشروع نُفِّذ في عهد الرئيس فلان".

٥ . في هذا الاستسلام المُطلق تُمحَى شخصيّة الرّاهب محواً تامًّا. إنّها إحدى تجاريبه العظيمة في حياته الرّهبانيّة. إنّها ضرورةٌ ملازمة لكلِّ مؤسّسة، أن يكون فيها آمِرون ومأمورون، رؤساء

ومرؤوسون. ولكنّ الطاعة العمياء قد تؤثّر سلباً على نجاح المؤسّسة، إذ تزول منها كلُّ مبادرة فرديّة، وبالتالي يتضاءلُ نجاحُها، ويقلّ إنتاجها. والنتيجةُ السيِّئة من كلّ ذلك أنّه قد لا ينتمي إلى الحياة الرّهبانيّة إلاّ ضعيفو الإرادة، قليلو الذكاء، معدَمو المبادرات الشخصيَّة، المنصاعون، المستسلمون، الميّتون.

٦ . وثمّة ظاهرة أخرى، خطيرة هي أيضاً، وهي أنّ مَن هم في مقام السلطة وموقع الأمر والنّهي ليسوا، عادةً، من الذين يُشهَد لتقواهم، وروحانيَّتِهم، ومحبَّتِهم لإخوتِهم، وتمتُّعِهم بالمقدّرات العقليّة... هؤلاء، عادةً، لم تأتِهِمِ السلطةُ لو لم يسعَوا إليها، ويستمِيتوا في سبيلها، ويطلبوها بأيّةِ وسيلةٍ، ويعملوا لها ولو على حسابِ قِيمٍ ومبادئ... وتجربة الرّاهب الكبيرة في طاعته لمثل هؤلاء تكمن في أن يسلِّم نفسَه وحرّيّتَه إليهم.

٧ . ودرءاً لمثل هذه التجربة، عمدتِ الكنيسةُ إلى حماية الرّاهب من طلاّب السلطة هؤلاء. فسنّتِ القوانين، ورسمتِ الفرائض، ووضعتْ قيوداً وضوابطَ لتسلّطِ المتسلِّطين، ولاحقَتْهم بالتّوجيهات والتنبيهات، وحتّى بالتأديبات والعقوبات... ومع هذا، أوجد المتسلِّطون لأنفسهم ما يَكفي من الأسباب والمبرِّرات ليُوقِفوا القوانين، ويُحدّوا من الفرائض، ويتخلّصوا من القيود والضوابط، ويُفسِّروا كلَّ شيءٍ بحسب ما يشاءون...

٨ . إلاّ أنّ الكنيسةَ، لِمَا فيها من روحٍ، ولما لها من خبرةٍ وتمرّس، قيّدتِ المتسلّطين بسلطةٍ أعلى، بمرجعيّةٍ تتخطّى نزواتِ الأفراد وادّعاءاتهم. فأعطتِ السلطةَ الكبرى في المؤسّساتِ الرّهبانيّةِ للمجامع العامّة؛ وذلك تحسّباً منها بأنَّ المتسلِّطين سوف يُسيئُون استعمالَ سلطتهم، وظنًّا منها بأنّ هؤلاء، ولو كانوا مختارِين، ومنتخَبِين ديموقراطيًّا، ليسوا متجرِّدِين تجرّداً يوافق السيرّة الرّهبانية... ومع هذا، أوجد المتسلّطون أيضاً أسباباً كافيةً ليوقفوا صلاحيّاتِ المجامع العامّة، أو ليتعدّوها بأيّة وسيلة. وفي أسوإ حال، يعملون على تأليف مجامع من موالين لهم ومنقادين إليهم، ومستفيدين منهم. وفوق هذا كلّه، يتولّى رئاسةَ المجامع العامّة المتسلِّط الأوّل في الرهبانيّة، فيكون، بالتّالي، هو الحُكْمُ والحَكَمُ والحاكِمُ والمحْكَمَة.

٩ . ويزيد أزمةَ الطاعة صعوبةً عدمُ فصل السلطات في المؤسّسات الرّهبانيّة. بل السلطات كلّها في يد الرئيس العام. فهو، مع مجلسه، يشترع، وهو، مع مجلسه، ينفّذ. هو يتّهم، وهو يُقاضي. هو يَدين، وهو يعاقِب. هو يحسب، وهو يُحاسب... هذا أمرٌ، في المجتمعات البشريّة العاديّة، مرفوض. السلطة التشريعيّة، في هذه المجتمعات، في يد؛ والسلطة التنفيذيّة في يد أخرى... هذا الواقع سليم في هذه المجتمعات؛ ولكنّه، في المجتمعات الرّهبانيّة، قد يهزّ مفاهيم الطاعة والمسؤوليّة كلّها : فلا حدود مرسومة بين الرئيس والمرؤوس؛ ولا

قيود تحدّد صلاحيّات الرئيس؛ ولا أطر واضحة لطاعة المرؤوس وانصياعه لأوامر الرئيس. إنّها لأَزمةٌ كبيرة في مفهوم الطاعة الرّهبانيّة.

١٠ . وثمّة أزمة أخرى تكمن في عدم وجود هيئةٍ قانونيّةٍ رسميّةٍ، أو دستوريّةٍ، تراقبُ، وتتّهم، وتُدافع عن الحقِّ العام، وتَحمي القوانين، وتَحدُّ من نزَق المتسلِّطين، وتَنظر في خير المؤسّسة الرّهبانيّة، وفِي نموّها، ومصلحة أعضائِها، وتبيّن الحقَّ من الباطل، الصحيحَ من الخطأ، الصوابَ من الضلال... في واقعِنا اليوم، إذا شاء الرئيسُ مقاضاةَ مخالِفٍ كانتْ مقاضاة؛ وإذا لم يشأ لا تكون مقاضاة. بل، كثيراً ما نجدُ المخالِفين يُكافَأون ويترَقَّون... وهذه أزمةٌ تنالُ من قدسيّةِ مفهوم الطاعة الرّهبانيّة.

١١ . معالجةُ هذه الأزمات في الطاعة الرّهبانيّة توجد في الرؤساء لا في المرؤوسين. بل قليلاً ما تقع المسؤوليّة في مجالات الطاعة، على المرؤوسين. ويومَ تكون القوانين واضحةً، والفرائض مرسومةً، والضوابط محدَّدة، والمقاضاة هي الحلّ، يومَها تسهل على المرؤوسين كلُّ طاعة. فعادةً ما نسمع أنّنا نعيش أزمةَ أوامر لا أزمة طاعة، أزمة رؤساء لا أزمة مرؤوسين.

١٢ . يؤكّد لنا ذلك واقعٌ أليمٌ عامٌ وشامل، نجدُه في المؤسّسات الرّهبانيّة كافَّة. هذا الواقع يوصف كما يلي : يتصرّفُ الرّئيسُ العام

بمرؤوسيه، كأنّهم ملكُه. ويكلّفهم بهذا العمل أو ذاك من أجل نجاحِ المؤسّسة في مدّة ولايته، أكثر ممّا يهمُّه نجاحَ هذا الرّاهب في عمله. ثمّ يستطيعُ هذا الرئيسُ أن يغيّرَ عملَ راهبٍ من مجالِ اختصاصه إلى عملٍ آخَرَ لا عِلم له به؛ وذلك، عادةً، ليسدّ فراغاً يحتاجُ المسؤولُ إلى سدّه. وهو أيضاً وضْع غير سليم في مفاهيم الطاعة المألوفة.

١٣ . حيال هذا الواقع، نقول : ليستِ الطاعةُ الرّهبانيّة، في حقيقتها، أن يتصرّفَ الرئيسُ حرًّا بهذا الرّاهب أو ذاك. ولا يحقّ له أن يعمل لخير المؤسّسة الرّهبانيّة على حساب خيرِ الرّاهب. ولا يحقّ له أن يغيّر ما ارتأتِ الرهبانيّةُ لهذا الرّاهب من اختصاص. ولا يمكنه أن يأمرَ وينهى من دون حوار واستماع إلى وجهات نظر الرّاهب. ولا يسعُه أن يضعَ القوانين والفرائض جانباً. بل لا يحقُّ له أن يتسلّح بالقوانين من أجل تسيير الأمور.

١٤ . ونودّ أن نقول : إنّ الرّاهب لم يدخلِ الرّهبانيّةِ وفي همِّه إنجاحُ مشاريعها، وتسجيلُ نجاحاتٍ لهذا الرئيس أو ذاك. بل همّه، كلُّ همِّه، يجب أن ينحصر في تقديس نفسه، وتقديس جماعته التي يعيش فيها، ورهبانيّته التي ينتمي إليها، والكنيسة التي يعمل لها. همُّه، كلُّ همِّه، أن يُزيدَ الخيرَ والقداسةَ في العالَم، أن يبحثَ عن اللّه، أن يجلو وجهَ الحقيقة، أن يمارسَ المحبّةَ في أصفى معانيها. هذه هي أهدافه القريبة والبعيدة. وإذا ما نالتِ الرهبانيّةُ منها نجاحاً فخيرٌ هو؛ وإذا لم

تنلْ منها نجاحاً فليكنْ. إنّ الخير، كلّ الخير، هو أن يُساهِمَ الرّاهبُ، كلُّ راهبٍ، بتقدّم العالم ورقيِّه وقداسته.

خامساً - تحدّيات أخرى

الحياة الرّهبانيّة، في ذاتها، وفي كلّ ما تقوم عليه، هي تحدٍّ دائم ومستمرّ. بل هي في تحدّ لكلّ شيء في العالم. وعلينا أن نبيّن بعضَ ما تتحدّى به :

١ . إنّها تحدٍّ في التزام الحياةِ الدائمة داخلَ جدران **الدَّيْر**، ضِمنَ حصنٍ ليس على الرّاهب أن يَخرج منه من دون سبب. هذا في الأصل. وقد يكون نذرُه في خطر، كلَّ مرّةٍ يجدُ راحتَه خارجَ حصونه، بعيداً عن بيتِه الذي فيه تسهلُ ممارسةُ المصاعب، ويُنتصر على التجارب، وتتكاثف الصلوات، وتُمارسُ المستحيلات، ويُنتَصَر على الشرّير.

٢ . وهي تحدٍّ دائم في عيش **الحَيَاة الَجمَاعيّة**. الرّاهب إنسانٌ إجتماعيّ بامتياز. يعيشُ مع جماعةٍ من أمثاله. يعيش فيها، ولها. يحبّها. يتحمّل كلّ شيء في سبيلها. هي طريقُه إلى الله، ولا طريق سواها توصلُه إلى الله. إنّها كنيستُه الصغيرة التي فيها عناصر الكنيسة الجامعة كلّها. يعني: جماعتُه هي مكان خلاصه. ومن دونها لا خلاص له. لهذا السبب فهي تقدّسه، ولا قداسة له خارجها. وهو فيها يجدُ كمالَ شخصيّته؛ بل هو قد لا يجد الله إلاّ في جماعةٍ، مع إخوته...

٣ . وهي تحدٍّ في **العَمَل** الدائم المتواصل، العمل المجّانيّ، الذي لا راحة فيه ينشدها، ولا تعب يتذمّر منه. البطالة عدوّةُ الرّاهب بامتياز. وكذلك الضجر، والفراغ، والرّخاء، والـ"وِيْكْ أَنْدْ"، والنّوم الطّويل، والسّمَر. راهبٌ بطّال شيطانٌ كبير... وأعظم ما في الرّاهب العامل أنّه يعمل مجّاناً، من دون أجرةٍ، أو أجرٍ، أو مكافَأة، أو شكران، أو تقدير. إنّه يعمل لغيرِه، ولغيرٍ يجهلُ هوّيّتَه، ويجهل النتائج التي ستكون من عمله... وهذا العمل لن يكون من دون تحدٍّ لما هو مألوف بين البشر. ومع هذا يجدُ الرّاهب فيه كماله.

٤ . وهي تحدٍّ أيضاً في ما فَرض على نفسه من حياة **صَلاَة** دائمة. فالحياة الرّهبانيّة كلّها صلاة. وليست هي إلاّ ذلك. هي عيشٌ دائم مع الله، يتعامل فيها الرّاهبُ مع المطلَق، مع الكمال. وكلّ ما فيها من نسبيّات وأمورٍ تافهة يرفعه إلى مستوى المطلق والكمال. ويجب ألاّ يغيب بالُه عن أنَّه رجلُ صلاة بامتياز. فعمله صلاة. وراحته صلاة. وأكلُه وشربُه ونومه وتتميم واجباته اليوميّة... كلّها صلاة. لذا، عليه أن يتقنها، ويُجيدَها، لأنّ له عليها من الله جزاء. وفيها يجدُ كمالَه. وهي، أيضاً، ليست من دون عناء.

٥ . وهي تحدٍّ في ما يجب أن يكون عليه الرّاهب من **تَوَاضعٍ** عميق. مهما كان شأنه عليه ألاّ يعتبرَ نفسَه شيئاً يُذكر، أو أن يميّزَ نفسَه عن أصغر إخوته. عليه أن يسمع لمن هو دونه. ويحترمه. ويحبّه.

ويأخذ برأيه. فالشرّ الكبير في أن يرى ذاتَه أسمى من غيره، وأكثر فهماً، وفضيلةً، ونفعاً، وخيراً. وفي أن يسعى إلى وظيفةٍ معتبِراً نفسَه أكثر إفادةً فيها من غيره. ولهذا كان التواضع، فيما مضى، نذراً رابعاً. غير أنّه، ولو أُلغيَ كنذر. لكنّ فضيلته لا تُلغى من الحياة الرّهبانيّة، أو المسيحيّة العاديّة، وإلاّ أُلغي سرّ التجسّد نفسه وسرُّ الصليب... وهو، أيضاً التحدّي الرّهباني الكبير، والمعرَّض دائماً إلى الاهتزاز.

٦ . ومن قبيل التواضع **"الاسْتِرشاد"**، أي كشف الرّاهب خفايا ضميره لشيخٍ خبيرٍ متمرِّسٍ في الحياة الرّهبانيّة. كلّ صعوبة أو تجربة يجب أن يَعترفَ بها الراهبُ لـ "مرشد" خاصٍّ به، يَعرفه، يواكِبُ مسيرتَه الرّوحيّة. فالحياة الرّهبانيّة سيرةُ البراري والقفار. مكان عيشها الصحراء وكهوف الأرض. ولا يمكن الاستهداء إليها من دون دليل خبير عاقلٍ مدرِك. والاتّكال على النّفس لن يكون من دون مخاطر. فضرورة المرشد لمثل هذه المسيرة الصعبة لا يتقبّلها إنسانٌ من ذات طبعه. من هنا عناؤه.

٧ . وهي تحدّ في ما يجب أن يكون عليه الرّاهب من عيشٍ دائم في **"حَالَة النّعمة"**. أن يكون الرّاهب ذا ضميرٍ مرتاح، لا غبار عليه، لا خطيئة عنده، كبيرةً كانت أو صغيرة، مميتةً أو عرضيّة، لا نقص ولا هفوة.. هذه هي حالتُه الطبيعيّة المألوفة. وبغير ذلك يفقد هوّيتَه كراهب. حال النّعمة هي حاله الدائمة. راحةُ ضميره هي همّه اليوميّ.

وكلّ مرّة يشعرُ بأنّ شيئاً نال من برارته، عليه بالعلاج السريع: الندم، والتّوبة، والاعتراف بكلّ ما يمسّ ضميرَه، ويعرقل مسيرتَه.

٨ . وهي تحدٍّ أيضاً في ما يحافظ الرّاهب عليه من **قَوَانين وفَرَائض وتقاليد**، بإتقانٍ ومحبّة لما تفرضه عليه. وتحدٍّ أيضاً في ما يُقدّس من عادات جماعته. فهو، بهذه التقاليد ، يكمّلُ تاريخَ هذه الجماعة. وليس عليه أن يُنقص منها شيئاً، أو يغيّر شيئاً. وكأنّه، وهي أزمته الكبرى، يعملُ على محوِ شخصيّته في ما يقدّس من قوانين وفرائض وتقاليد. وهو، بذلك، ينتسب إلى هذه الجماعة أو المؤسّسة لا إلى سواها. لذا عليه أن يقدّس ما هي عليه، وأن يتقدّس بما هي عليه؛ لأنّه اختارها هي لا غيرَها.

نختم ونقول : إنّ كلّ ما تقوم عليه الحياةُ الرّهبانيّة من قِيَمٍ هو تحدٍّ للحياة البشريّة العاديّة. لكنّا ذكَرْنا ما ذكرناه ليكون لنا به دليلٌ على ما هي عليه الحياة الرّهبانيّة في حقيقتها وجوهرها وسلوكها.

وبالرّغم من صعوبة الحياة الرّهبانيّة على الطبيعة البشريّة، وتكاد تكون مستحيلة على النّاس جميعاً، فهي لا تزال في القِمّة؛ لأنّها تتحدّى المطلقَ والكمالَ.

ومع صعوبتها هذه، فوجودها ضروريّ للبشريّة؛ إذ لا بدّ من

بعضِ رجالٍ ونساء يعيشون المُثُلَ، ويَتحدّون الكمال، ويَشدّون الرّحال صوب المطلق، ويقفون على منائرِ الجبال لهديِ المتعثّرين.

٣٦

الرّهبانيّة في الإرشاد الرّسولي

مقدمة[158]

في الفصل الثالث "**سينودس لتجدّد الكنيسة**"، جاء الإرشاد الرّسولي "رجاء جديد للبنان" يعالج الحياة الرّهبانيّة في لبنان، في الموضوعات التالية: "**الرّهبان والرّاهبات**" (عدد ٥٢-٥٣)، "**الحياة الرّهبانيّة الرّسوليّة**" (٥٤-٥٥)، و"**الحياة التوحّديّة**" (٥٦-٥٧). وهو، فيها، يعترف بفضلها، يمدح مآتيها، يحدّد معالمها، يوجّه خطاها، ينتقد بعض ما فيها، ويتمنّى لها أن تكون شاهدةً للمسيح.

أولاً - الحياة الرهبانيّة بالعموم

١ . يعترف الإرشاد بما للحياة الرّهبانيّة، بشكل عامّ، من عطاءات روحيّة واجتماعيّة؛ حتّى إنّ حضور الرّهبان والرّاهبات في مختلف قطاعات العمل، بات ضروريّاً في عالم يسيرُ نحو المادّية والوثنيّة.

158 الإرشاد الرسولي **رجاء جديد للبنان**، وجّهه بعد السينودُس قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى البطاركة والأساقفة والإكليروس والرهبان والراهبات وجميع المؤمنين في لبنان، ١٠ /٥/ ١٩٩٧، ٢٠٠ ص.

٢ . وبهذا، يكون الرّهبان "مرجعاً لإخوتهم" في العالم، بمعنى أنّ الناظر إليهم يجد فيهم وجهَ المسيح الحقيقي، ويقتدي بهم كما هم يقتدون بالمسيح. ويعمل عملَهم المميّز والأساسي في خدمة المجتمع، وفي "خلاص العالم".

٣ . ويطلب الإرشاد من الرّهبان والرّاهبات أن يكونوا بمستوى نظرة النّاس إليهم. أي أن يكون "اختبارُهم الحميم لله" مدعاةً لإيمانِ الآخَرين، وإعلاناً صارخاً في أنّ "الرّبّ يحبّ العالم"، وأنّ سرَّ الملكوت قد ابتدأ منذ الآن يعمل.

ثانيًا - الحياة الرهبانيّة في لبنان

٤ . وفي لبنان والشرق الأوسط، يعترف الارشاد الرّسولي بما للرّهبان والرّاهبات من خدمات جلّى. ويمدحهم على تضحياتٍ جمّة قاموا بها إبّان الحرب. كما يشكرهم على عملهم الدؤوب في خدمة الكنيسة والمجتمع، بما لهم من مؤسّسات وإنجازات في كلّ قطاع وعلى كلّ صعيد.

٥ . بيد أنّ الإرشاد يطلب منهم "أن يتفحّصوا بصدقٍ أنماطَ حياتهم وطرائقهم في الشهادة للإنجيل". وهو ما يعني وكأنّ مسيرتهم يشوبُها نقصٌ ما. ويظهر ذلك في تساؤلات مواطنيهم حول "المهمّات الموكولة إليهم"، وحول إذا "ما زالوا أوفياء لإلهامات مؤسّسيهم"، وأمناء لدعوتهم!!!

٦ . هذه الأمانة تبدو مطلوبةً اليوم أكثر ممّا مضى، وهي "أشدّ إلحاحاً" في عالم يحتاج إلى "شهود أكثر منه إلى معلّمين". ولا تُطلب هذه الشهادة من أيّ إنسانٍ آخر أكثر ممّا تطلب من الرّهبان والرّاهبات.

ثالثًا - عصمة رومانيّة أم اندماج محلّي؟!

٧ . ثمّة قولٌ آخر في الإرشاد يُخفي نقداً لاذعاً لرهبانيّاتٍ لبنانيّةٍ تتمسّك بتعلّقها المباشر بالكرسي الرّسولي، وتعتبر نفسها "معصومة"، أي مرتبطةً بروما أكثر منها بكنيستها المحليّة. يقول: "ومن المهمّ جدًّا، لأسباب لاهوتيّة ورعائيّة، أن **يندمج** الرّهبانُ والرّاهبات **اندماجاً فِعليًّا** في الحياة الكنسيّة".

٨ . هذا **الاندماج** طالبَ به بطاركة لبنان وأساقفته ويطالبون. والرّهبان، منذ نشأتهم، طالبوا باستقلاليّتِهم عن البطاركة والأساقفة ويطالبون. والتاريخ حافلٌ بمبرّراتِ لجوءِ الرّهبان إلى روما واعتصامِهم بالصخرة البطرسيّة مباشرة، بسبب مداخلات البطاركة والأساقفة في شؤون الرّهبانيّة.

٩ . هذه "العصمة"، لئن كانت من الناحية اللاّهوتيّة والرّعائيّة غيرَ جائزة، وهو ما يعرفه الرّهبان جيّداً، باعتبار أنّهم ينتمون إلى كنيستهم المحليّة انتماءً عضويًّا... إلاّ أنّه من الناحية العمليّة والإداريّة، فالرّهبان يعرفون جيّداً أيضاً استحالةَ تسليم شؤونهم الخاصّة إلى مَن يَجهل جهلاً كاملاً جنونَ الحياة الرّهبانيّة ومسيرتها غير العاديّة.

١٠ . فالقول بـ "الاندماج الفعلي" كان ولا يزال مدعاةَ تساؤلٍ واستغرابٍ لدى رهبانيّاتٍ عديدة، لها تاريخٌ حافلٌ بمشاكلَ حصلتْ بينها وبين أساقفة محلِّيين. ولنا من الإرشاد نفسه برهانٌ على استمراريّة هذه المشاكل. إسمع :

رابعاً - نقد الإرشاد للرهبان

١١ . في رأي الإرشاد أنّ البطاركة والأساقفة يوجّهون ملامات عديدة للرّهبان. فهو، وكأنّه ينقل عن لسانهم ما يزعجهم من الرّهبان، أي عدم الخضوع لهم. لهذا يقول، إذا ما لم يتمّ "الاندماج الفعلي" بين الرّهبانيّات والكنيسة المحلّيّة بـ "أنّ الرهبان يؤدّون شهادةً غير صحيحة". وبأنّهم، بما هم عليه من استقلالٍ في إدارة شؤونهم الخاصّة، "ليسوا جزءاً من الكنيسة". وبأنّهم "لا يعملون بانسجامٍ وتعاون مع مجمل الكنيسة". وبأنّهم "لا يؤدّون الطاعة لرؤساء الكنيسة"... لكأنّ في الإرشاد، بعد هذا النقد، توجّهاً نحو نزع "العصمة" من هذه الرّهبانيّات.

١٢ . وثمّة نقدٌ آخر في الإرشاد لرهبانِ لبنان وراهباته. وهو في دعوتهم إلى "أن يشعروا بضرورة الإقدام على إصلاحٍ عميقٍ في طرائق حياتهم وفي سيرهم على خطى المسيح". وما يؤكّد هذا النقد دعوتُه إلى فصلِ الأعضاء الجدد في المؤسّسات الرّهبانيّة عن الأعضاء الأقدمين، أي دعوته إلى فصل الأبناء عن الآباء. "مثل هذا

الإصلاح، كما يقول الإرشاد نفسه، إذا ما بدأ في العناصر الشابّة، بإمكانه أن يحوِّل، شيئاً فشيئاً، حياةَ الجماعة الرّهبانيّة كلّها".

١٣ . هذا كلامٌ صحيح. فالحياة الرّهبانيّة في لبنان، بسبب الوضع السياسي السيّئ، والوضع الاجتماعي الأسوأ، في الكنيسة والمجتمع، وبسبب المصير المجهول للوطن، وبسبب تراخي المسؤولين المدنيّين والكنسيّين في مسؤوليّاتهم، وبسبب عدم تنظيم البطريركيّات والأسقفيّات والرّعايا، وبسبب الساعين إلى كلّ مجد عالميّ... بسبب كلّ ذلك، وغير ذلك، ليست الحياة الرّهبانيّة في لبنان على ما يُرام. فالكلُّ يلحق الكلَّ بالفساد.

١٤ . من أجل هذا الفساد الطامي، اضطرّ الرّهبان اضطراراً حياتيًّا إلى التعويض عمّا يمكنهم تعويضه عن تقصير المقصِّرين. وهو أمرٌ لا يمكنهم تركه، لئلاّ ينقلب البيتُ على أصحابه. ولا يمكنهم التمادي فيه، لئلاّ تخرج الحياةُ الرّهبانيّة عن هدفها الأساسي. وهذا ما حصل. فمن يتحمّل مسؤوليّة ما حصل؟!!

خامساً - ديريّة، أي لا رسوليّة ولا نسكيّة

١٥ . يطيب للمنطق الغربي أن يقونن كلّ شيء. حتّى الحياة الرّهبانيّة، التي هي حياةٌ وحالة أكثر منها تنظيم ومؤسّسة، خضعت لهذا المنطق. فباتت حياتَين لا ثالث لهما : حياة رسوليّة وحياة توحّديّة. فيما الحياة الرهبانيّة في الشرق تتمدّد بين الرّسالة والتوحّد تمدّداً واسعاً

جدًّا، تختصرها، في ما عُرف في لبنان، "الحياة الدّيريّة"، التي هي رسوليّة في شتّى أنواع الرّسالة، وتوحّديّة في مختلف نواحي التوحّد.

١٦ . في ما يعود إلى الحياة الرّسوليّة يشكر الإرشاد الله على ما حقّقته هذه الجماعات الرّهبانيّة الرسوليّة في سني الحرب اللّبنانيّة من خدمات صحيّة وتربويّة واجتماعيّة، ولما قدّمتْه من شهداء، بعضهم ضحّى بحياته، وبعضهم بوقته وراحته. والمطلوب منهم أي يثابروا على تضحياتهم هذه.

١٧ . إلاّ أنّ الإرشاد يعود إلى بعض المآخذ فيقول بأنّ على بعض هذه الرّهبانيّات "أن يراعوا التوازن في توزيع الأدوار" على كلِّ مؤسّسة، بحسب المناطق، وبنوع خاصّ "المناطق المنكوبة والنائية". فلكأنّ الرّهبانيّات العديدة والمستقلّة بعضها عن بعض هي المسؤولة عن هذا "التوازن في توزيع الأدوار"؛ في حين أنّ البطاركة والأساقفة وحدَهم هم المسؤولون؛ ذاك لأنْ ليس من رهبانيّة تستطيعُ، قانوناً وشرعاً، أنْ تقدم على بناء مؤسّسة ما من دون إذنٍ خاصّ مسبق من البطريرك أو الأسقف المحلّي.

١٨ . وأجمل ما في الإرشاد دعوته هذه الرّهبانيّات الرّسوليّة،

أوّلاً، إلى اهتمامها الفائق بالفقراء وبالمناطق المحرومة.

و**ثانياً**، إلى مساعدة كلِّ إنسان على البقاء في أرض أجداده بكرامةٍ وحياة لائقة.

و**ثالثاً**، إلى مدّ يدها إلى العلمانيّين فتوكل إليهم مسؤوليّات تناسب كفاءاتهم.

١٩ . أمّا الحياة التوحّديّة فهي، بحسب الإرشاد، "وكأنّها خلاصة المسيحيّة وشعارها". إنّها حياة تعتمد على التوبة، والتجرّد، والتماس السكينة، والصلاة الدائمة، والسهر، والجهاد الرّوحي، والصمت، وتقدمة الذات، وقراءة الأسفار المقدّسة، والخدمة، والحياة الجماعيّة، والفرح في انتظار مجيء الرّب الأخير.

٢٠ . ويتمنّى الإرشاد أن "تستعيد الحياة التوحّديّة المكان الذي يعود لها". ويُسعده أن يرى بعضَ الرّهبانيّات تعود إليها. ويدعو الكنائس الشرقيّة إلى أن تنهل من ينابيعها. ويرغب إليها أن تشجّع أبناءها على اعتناق هذه الحياة المميّزة في الكنيسة.

٢١ . ولم يَفُتِ الارشاد ما للدّير، الذي يعيش فيه المتوحّدون، من أهمّيّة، إلى درجة أنّ "بإمكان الأديار أن تتحوّل إلى مواقع نبويّة"، بسبب ما تشهد من اختبارات عميقة يقوم بها المتوحّدون مع الله، "بدون حاجز ولا عائق".

٢٢ . إلاّ أنّ الإرشادَ فاتَه، كما أشرنا، ذلك النّوع اللّبناني من الحياة الرّهبانيّة، وهو ما نسمّيه "الحياة الدّيريّة". هذه الحياة، لا هي رسوليّة محضة، ولا هي توحّديّة خالصة. هذه عاشها ويعيشها الرّهبان

في لبنان. **في** ديرِهم يزاولون الصلاة والتوبة والتجرّد والحياة الجماعيّة والعمل... **ومن** ديرهم ينطلقون إلى الرسالة والبشارة والرّعيّة والمدرسة، ثم إلى ديرهم يعودون. **في** ديرهم يسكنون ويتأمّلون. **ومن** ديرهم يتعاطون في شؤون المجتمع والناس، حتّى ولو كانت شؤوناً سياسيّة وإداريّة، بسببِ تلازم الحالات في لبنان، وتقصير المسؤولين.

٢٣ . والحجّة، التي لا يعرفها الإرشاد ولا المنطق الغربي، هي أنّ المجتمع المسيحيّ المضطَهد باستمرارٍ في هذا الشرق كاد لا يستمرّ لولا مساندة الرّهبان ومساعدتهم. إنّها حاجة الشعب المسيحي برمّته إلى مَن يعوِّض له عن ذلك التقصير الهائل الناتج عن تراخي المسؤولين الكنسيّين والمدنيّين. وما كادت الكنيسةُ في لبنان توجّه أبناءها نحو إقامة دولة حديثة، حتى ظهر كلُّ شيء في هذه الدّولة الحديثة مفسوداً. فعادت إلى النضال من جديد.

خاتمة

٢٤ . ليس المهمّ، في موضوع الحياة الرّهبانيّة، ما تَحقّق من كلام الإرشاد وما لم يتحقّق، بل الأهمّ هو أنّ نظرة الإرشاد إلى الحياة الرّهبانيّة في لبنان والشرق ليست نظرةً واقعيّة. إنّها نظرة غربيّة، بمنطق غربي. لهذا السبب، وجّه الإرشاد بعض المآخذ على بعض الرّهبان. وهو، بذلك، كان ضحيّة مَن لم يتنبّهوا إلى أنّ الحياة الرّهبانيّة

في الشرق غيرها في الغرب. وأسلمُ الأمور أن يبقى الرّهبان والرّاهبات في لبنان في مواقعهم. بهذا تستمرّ المسيرةُ. وبهذا بعض الأمل.

٣٧
الحياة الرهبانيّة
في المجمع البطريركي المارونـي
(٢٠٠٦)

المجمع البطريركي المارونـي، في الملفّ الثاني: "التجدّد الراعويّ والروحيّ في الكنيسة المارونيّة. في الأشخاص"(ص ٢٧١-٣١٤)؛ وفي النصّ الثامن: "الحياة الرهبانيّة في الكنيسة المارونيّة"، المنقسم إلى :

مقدّمة

الفصل الأوّل : المحطّات التاريخيّة الرئيسة؛

الفصل الثاني: روحانيّة الحياة الرهبانيّة المارونيّة السريانيّة الأنطاكيّة؛

الفصل الثالث: قوانين الحياة الرهبانيّة؛

الفصل الرابع: رسالة الرهبانيّات؛

الفصل الخامس: إرتباط الرهبان والراهبات بالسلطات الكنسيّة العليا؛

الفصل السادس: تجدّد دائم

خاتمة

١ . يعترف المجمع البطريركي، بادئ ذي بدء، بالواقع التالي: "في كنيستنا مؤسّسات رهبانيّة عديدة، نسائيّة ورجاليّة، تضمّ حاليّاً أكثر من ألف وخمسماية راهب وراهبة". هذه الحياة الرهبانيّة "رافقت ولادة الكنيسة المارونيّة التي ترعرعت في مناخها، وبدونها ما كان لها أن تكون هي نفسها". ويستشهد المجمع برسالة الحبر الأعظم يوحنّا بولس الثاني، الذي قال: "منذ قديم الزمان كانت الحياة الرهبانيّة روح الكنائس الشرقيّة. فالرهبان المسيحيّون الأوّلون وُلدوا في الشرق"[159](ص ٢٧١).

٢ . **في الفصل الأوّل،** تناول المجمع المحطّات التاريخيّة الرئيسة للحياة الرهبانيّة، فإذا هي محطّات ثلاث:

المحطّة الأولى : جذور الحياة الرهبانيّة المارونيّة، من نشأة المسيحيّة حتّى القرن السابع. فيها انطلقت من التشبّه بالمسيح والاقتداء به، ومن عيش التعاليم الإنجيليّة بجذريّتها. ثمّ منذ القرن الرابع، برزت الحياة الرهبانيّة، بصورة فرديّة، على يد نسّاك متوحّدين، كان منهم القديس مارون الناسك، الذي تتلمذ على يده كثيرون من الرجال والنساء، كانوا في أساس "امتزاج الطريقة التوحّديّة بالطريقة الجماعيّة"، عندما تمحورت الحياة الرهبانيّة الجماعيّة حول الدير (ص ٢٧٢-٢٧٣).

159 نور الشرق، ٣ أيّار ١٩٩٥، رقم ٩.

المحطّة الثانية: من القرن السابع حتى القرن السابع عشر. عندما رافقت الحياة الرهبانيّة نشأة الكنيسة المارونيّة، فارتبط تاريخ الموارنة برهبان دير مار مارون الناسك وتلاميذه.. فشكّلت الحياةُ الرهبانيّة عصب الحياة الكنسيّة المارونيّة.. وبقي هذا الدور فاعلاً عبر التاريخ حتّى الآن... وهي "ظاهرة فريدة في تاريخ الكنيسة الجامعة، حيث لا نعرف كنيسة أخرى خرجت من دير، وتمحورت حوله، بالرغم ممّا كان للحركات الرهبانيّة من أثر عميق في حياة الكنائس في الشرق والغرب.."[160] (ص ٢٧٥).

المحطّة الثالثة : منذ أواخر القرن السابع عشر وحتّى اليوم : عندما بدأ الإصلاح الرهباني، مع ثلاثة شبّان من حلب، بتبنّي البطريرك الدويهي لهم، وقبول نذرهم الرهباني في ١٠/ ١١ /١٦٩٥. عندئذٍ انطلقت مسيرة الرهبانيّة، وتعدّدت الأديار، وكثر الرهبان، وانتظمت القوانين والفرائض، وتأسّست رهبانيّات جديدة، حتّى بلغت اليوم خمس رهبانيّات وجمعيّات رجاليّة، وخمس رهبانيّات وجمعيّات نسائيّة، بالإضافة إلى أربعة أديار قديمة مستقلّة.

٣ . **وفي الفصل الثاني :** يبرز المجمع ملامح الروحانيّة التي تتميّز بها الحياة الرهبانيّة المارونيّة، فإذا هي سبع خصال :

160 رَاجع : الأب الياس خليفة، مجلّة أوراق رهبانيّة، عد ٤٧ (١٩٩٥)، ص ٨٥-٨٦.

١ - التجذّر الإنجيليّ. أي إنّ الرهبان والراهبات وجدوا في الإنجيل منبع حياتهم الروحيّة ومصدرها. وبالاستناد إلى الإنجيل، سعوا إلى الاقتداء بالمسيح، وانتهاج نهجه في الخلوة والصلاة والخدمة.

٢ - حبّ "وحيد الآب". أي إن الرهبان والراهبات يقتدون بالمسيح "وحيد الآب"، ويحبّونه حبّاً كاملاً، ليصبحوا قادرين على إدراك سرّ الله الخفيّ.

٣ - نسك وحياة جماعيّة. أي إنّ الرهبان والراهبات، مزجوا حياة النسك والوحدة بالحياة الجماعيّة، لهذا "أنشئت المحابس حول معظم الأديار الكبيرة".

٤ - صراع داخليّ ونموّ روحيّ. أي إنّ الرهبان والراهبات، بمحاربتهم شهوات الجسد، كالشراهة، وحبّ المال، والإرادة الذاتيّة؛ وبمحاربتهم أهواء النفس، كالكسل، والملل، والغضب، والتكبّر؛ وبجهدهم الجهيد في عمل الروح القدس الذي يوجّههم إلى ذروة الروحانيّة؛ يبلغون مرحلة التقديس.

٥ - صلاة وعمل. أي إنّ الرهبان والراهبات اختصروا حياتهم الرهبانيّة في الصلاة المتواصلة، وفي العمل الدائم في مختلف حقول العمل. والصلاة والعمل في الدير كانا الوسيلة الفعّالة لقداستهم.

٦ - حياة رهبانيّة رسوليّة. أي إنّ تزهّد الرهبان والراهبات لم

يمنعهم من الانخراط الشديد في رسالة الكنيسة، ومن نضالهم ضدّ الشرّ في العالم؛ إذ كانوا يخرجون من أديرتهم وصوامعهم ليبشّروا الناس ويربحوهم للإنجيل.

٧ - حياة رهبانيّة منفتحة. أي إنّ الحياة الرهبانيّة اليوم تطلّ على مختلف الحضارات، وتنوّع اختصاصات أبنائها وبناتها في كلّ ما يتّصل بخير الإنسان وخدمته، وتنشط في تقدّم الحركة المسكونيّة، كما تسهم في إعداد الدراسات لحوار الأديان.

٤ . وفي الفصل الثالث: قوانين الحياة الرهبانيّة : يعترف المجمع بأنّ الإنجيل كان، في البدء، دستور الرهبان والراهبات الأعلى وقاعدتهم الحياتيّة... وكذلك كانت كلّ جماعة تخضع مباشرة لسلطة الرئيس، الذي كان يتبع قوانين نسكيّة غير مكتوبة.. فكانت سلطة الرئيس هي القانون الرسميّ لكلّ جماعة رهبانيّة. وقد عبّر قراعلي عن ذلك بقوله: "لم يكن للرهبان الموارنة قوانين ورسوم قبل ١٦٩٥، ولكنّهم كانوا سائرين بسذاجة صالحة للصالحين وخطرة لغير الصالحين".

بسبب هذا، وضع قراعلي القانون الأوّل من ٢٢ باباً، ثمّ اختصره بـ ١٥، ثمّ أصبحت ١٨ باباً. وثبّت البطريرك الدويهي هذا القانون في ١٨/ ٦/ ١٧٠٠، وبعده البطريرك يعقوب عوّاد سنة ١٧٢٥. ثمّ الكرسي الرسولي في ٣١ /٣/ ١٧٣٢. وبقي هذا القانون

معمولاً به حتّى سنة ١٩٣٨. وبقي هذا حتّى ١٩٦٢. حتّى جاء المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، وطلب من جميع الرهبانيّات ومؤسّسات الحياة المكرّسة بتجديد قوانينها، وتحديثها. فكان لكلّ رهبانيّة مارونيّة مستقلّة أن تكيّف قوانينها بحسب مؤهّلاتها، وطبقاً لمجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة الجديدة.

٥ . وفي الفصل الرابع: رسالة الرهبانيّات : يعترف المجمع بأنّ "من أهمّ ثمار الحياة الرهبانيّة، غزارة النعمة المتدفّقة" بفضل قداسة شربل ورفقا والحرديني؛ وبفضل المزارات العديدة التي "تستقطب الزائرين من مسيحيّين وغير مسيحيّين، من لبنان والمنطقة العربيّة والعالم"؛ وبفضل انفتاح الرهبانيّات وحوارها مع طوائف أخرى، بالرغم من الاضطهادات الدمويّة.

وكذلك كانت رسالة الحياة الرهبانيّة "على الصعيد الثقافي والتربويّ"، بنشر المدارس والمعاهد والجامعات، كما بنشر الكتب والمجلاّت؛ و"على الصعيد الإنمائيّ، كانت الرهبانيّات أوّل مَن ابتكر نظام الشراكة مع العلمانيّين لاستثمار الأراضي.. وقد خصّصت جامعة الروح القدس كلّيّةً للزراعة تدليلاً على أهمّيّة هذا القطاع المميّز".

وكذلك كانت رسالة الحياة الرهبانيّة "على الصعيد الرعائي والخدماتي"، في خدمة الرعايا، وخدمة المريض في المستشفيات، وتأمين الوعظ والرياضات الروحيّة والاعترافات والإرشاد في

المدارس والجامعات والسجون والمستشفيات، وتأسيس المياتم ودور العجزة والمعاقين.. وكان هذا النشاط، في لبنان وفي بلاد الانتشار الماروني، حيث أسّس الرهبان رعايا ومدارس...

وكذلك أيضاً كانت رسالة الرهبان والراهبات "في المجال الاجتماعيّ" حيث يُذكر "أنّ الرهبانيّة اللبنانيّة رهنت جميع أملاكها للدولة الفرنسيّة، وباعت رهبانيّات أخرى قسماً من أرزاقها، بغية إغاثة منكوبي الحرب العالميّة الأولى"، ورهبانيّات أيضاً ساعدت على تعليم مجّانيّ ، وعلى توفير فرص العمل، وإقامة مشاريع سكنيّة عديدة...

٦ . وفي الفصل الخامس : إرتباط الرهبان والراهبات بالسلطات الكنسيّة : يعترف المجمع بأنّ "الحياة الرهبانيّة، منذ نشأتها، كانت على ارتباط وثيق بالبطريرك والأسقف". والبطريرك والأساقفة، من جهتهم أيضاً، "تقاسموا حياة الرهبان وشاركوهم في صلواتهم وأعمالهم، ولم يسكنوا إلاّ في أديار؛ لا بل لم يثبت وجود أسقف أو بطريرك من غير الرهبان؛ فتأكّد، عبر الأجيال، تقاربٌ شديد واندماج خاصّ بين السلطة المحلّيّة والرهبان، إلى حدّ انتفاء التمييز بينهم طوال قرون، فبقيت هذه الميزة قويّة وظاهرة حتّى نهاية القرن السادس عشر".

وبعد هذا التاريخ، احتكمت الرهبانيّات إلى ما جاء في "مجموعة قوانين الكنائس الشرقيّة الجديدة"، التي تُلزم كلاًّ من الرهبان

والسلطات الكنسيّة العليا بما تفرضه قوانين مختصّة، وتنسّق الأعمال والشؤون جميعها.

٧ . **وفي الفصل السادس : تجدّد دائم :** يعترف المجمع بـ "أنّ التجديد في كلّ الأمور الحياتيّة أمرٌ حيويّ وملحّ في كلّ زمن ومناسبة، لتبقى الرهبانيّات محافظة على نضارتها وقوّة شهادتها وصدقها".. ويعترف بالتالي بـ "أنّ كنيستنا تعتبر تجدّد الحياة الرهبانيّة المتواصل فيها عنصراً يسهم في تجديدها بأسرها"..

ومع هذا، على "الرهبان والراهبات أن يجهدوا في إبراز موقع سلطات كنيستهم المارونيّة في حياتهم ليعزّزوه، ويتعاطفوا مع هذه السلطات، قلباً وروحاً".. وكذلك "على السلطات، بدورها، أن تصون وتحترم خصوصيّة الرهبانيّات والكاريسما الخاصّ بها، وأن تتعاون معها، وتثق بها، فتشركها في سلطانها التبشيري والرسولي".. لهذا "يوصي هذا المجمع بتفعيل الدائرة البطريركيّة للتنسيق بين الأساقفة والرهبانيّات"[161].

ويعترف المجمع، بالرغم من وجود أزمة في مفاهيم الحرّيّة والمساواة والعدالة والتواصل والشراكة والشفافيّة وروح النقد، والمبادرات الشخصيّة والتنمية الذاتيّة...أنّ هذه "الأزمة تبقى محرِّكاً

161 أنشأ سينودس أساقفة الكنيسة المارونيّة هذه الدائرة، وأقرّ قانونها الأساسيّ في ١٦ / ٦/ ٢٠٠٠.

مهمًّا... فالأزمات كانت نقطة الانطلاق نحو نقلة نوعيّة تُرجع الحياة الرهبانيّة إلى زخم البداية، تمحّص كلّ الشوائب في أتّون التطهير"...

ويطلب المجمع من الرهبان والراهبات أن ينصرفوا إلى اختبارهم الشخصي والجماعيّ للربّ، وأن يُعلنوا بشارة الإنجيل، إذ لا بدّ من "إعلان الحقيقة دون مساومة".

ويوصي المجمع أنّه "لا بدّ من إعادة تعزيز الحياة الديريّة قبل أيّ أمرٍ آخر، عبر تأمين الحياة المشتركة فيها، والحفاظ على ثوابتها، وخصوصاً على المحبّة الأخويّة، وعبر التأكيد قولاً وفعلاً، على أنّ الأديار هي المكان الفعلي لعيش الأبعاد النبويّة القادرة وحدها على أن تشير إلى الملكوت، وهي ملجأ الفقراء، وملاذ الغرباء، ومراكز شفائهم، ورجائهم، لا أسوار بينها وبينهم؛ بل هي علامة حضور الله والقربى من الناس والشركة معهم، يسكنها من وقتهم متاح للمستغيثين ويومهم مشحون بالصلاة والأعمال، ومن عمقها تنطلق سائر المؤسّسات والخدمات وتصطبغ بروحانيّتها".

ويوصي المجمع أيضاً بأنّه "لا بدّ من تقوية البعد الزهدي، وإعادة فتح صوامع القلوب، وولوج برّيتها الداخليّة، لكي يكون ذلك ضابطاً للحياة الرهبانيّة"، بالرغم من "الانهماك المفرط في هموم المؤسّسات المتّسعة، مع ما يستتبعه من نزعة إلى العمل الإداريّ".

ويوصي كذلك بـ "ضرورة تعزيز الشهادة للحياة الأخويّة المحبّة، المتجرّدة والمتفانية، لأنّ منها ينبع خصب الحياة الرهبانيّة... ويمكن تلافي بعثرة الحياة المشتركة، أقلّه بخلق محطّات ثابتة ومكثّفة من لقاءات العيد، والاستغفار المتبادل، والاغتناء بالخبرات المختلفة، وبالتأمّلات الروحيّة العميقة، والخلوات المتواترة".

ولا بدّ أيضاً، بحسب المجمع، من "ضرورة الوحدة والتعاون والتنسيق لتشمل علاقة الرهبانيّات في ما بينها.. وتجتنب المنافسة في مؤسّساتها.. خصوصاً في المناطق التي تضمّ مراكز رهبانيّة متجاورة، وكذلك في بلاد الانتشار...".

وينصح المجمع بأنّ "الأهم أن تولي الرهبانيّات التنشئة أهمّيّة قصوى.. لا بدّ من أن توقظ الدعوات وتميّزها وترافقها وتمرّسها بروّية.. من خلال توليد الحاجة إلى الانكباب المتواصل على القراءة الإلهيّة والتمرّس على الصمت والزهد..

ويقول المجمع أخيراً، بأنّه "لا بدّ من أن تولي الحياة الرهبانيّة الأرضَ واستثمارَها أهمّيّةً خاصّةً في أعمالها.. والتوصّل إلى تحديث أنماط الشراكة مع العلمانيّين، لأنّها من عمق الروحيّة المارونيّة، ولأنّها استباق لشركة القدّيسين"...

٨ . **وفي الخاتمة :** يؤكّر المجمع "أنّ حياة الرهبان والراهبات.. ظاهرة عافية وحيويّة في قلبها، لا يمكن الاستغناء عنها،

لأنّها، كما يقول الإرشاد الرسولي الأخير رجاء جديد للبنان، "جزء لا يتجزّأ منها" (عد ٥٣).

***

في ختام ذلك نقول بأنّ ما جاء عن الحياة الرهبانيّة في المجمع البطريركي الماروني يؤلّف لوحةً زاهية، وموجزاً تاريخيّاً، وخلاصةً لمقوّمات الحياة الرهبانيّة في تاريخ الكنيسة، لا غبار عليها. إلاّ أنّه قد يزاد عليها ما تتميّز به القداسة في الكنيسة المارونيّة، وما تقوم عليه.

ثمّ إنّ التشديد على الفرق بين الحياة الرهبانيّة النسكيّة والحياة الرهبانيّة الرسوليّة هو إنتاج غربيّ. أمّا في الشرق فلا تمييز في ذلك، إذ إنّ الحياة الرهبانيّة هي حياة "ديريّة"، بمعنى أنّها تعيش في الدير، وتنطلق من الدير إلى الرسالة، وتعود إلى الدير لعيش الحياة الأخويّة المشتركة، وممارسة الصلوات المفروضة، والقيام بالنظام اليومي المتّبع...

والقِيم الروحيّة والرسوليّة في الحياة الرهبانيّة هي أكثر ممّا ركّز عليه المجمع، وأهمّ من ذلك بكثير، أمثال التشبّه بأخلاق المسيح، والاقتداء به، والعمل تحت هيمنة الروح القدس، وقداسة الحياة بما يقوم به الإنسان من محبّة وخدمة وصلاة وتأمّل وعمل وتحمّل الآلام بصمت وقبول.

إلاّ أنّ الأساس في ما جاء في المجمع مشار إليه.

فهرس كتاب الحياة الرهبانيّة

فهرس الجزء الأوّل

كتاب الحياة الرهبانيّة

منشورات "أوراق رهبانيّة " (٢٠)

كتاب الحياة الرهبانيّة

(٢)

أ. جوزف قزّي

الكسليك-لبنان

٢٠٠٨

الفصل السادس

من تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

٣٨

مختصر تاريخ

الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

مقدّمة - البدايات الأولى

لم يبقَ جبل لبنان غريباً عن الحركة الرهبانيّة التي نشأت في مصر، وانتشرتْ في فلسطين وسوريا ومناطق آسيا الصغرى، منذ أواسط القرن الرابع للميلاد حتى اليوم. فالإيمان المسيحيّ دخل لبنان منذ بدايته، وكذلك الحياة الرهبانيّة استقبلتْها جبال لبنان وأوديتُه، منذ بداياتها. وإذا كان من الصعب تحديد الزمن الذي تشيّدت فيه الأديار في لبنان، أو تعبّد فيه الرهبان في مناسك وصوامع وكهوف، فإنّه من نافل القول بأنّ مسيحيّةً من دون أديار ومناسك ورهبان شهودٍ لإيمانهم لم تكن لتعرفها الكنيسة في لبنان أو في الشرق.

منذ القديس أنطونيوس أبي الرهبان (ت ٣٥٧)، إلى القديس مارون أبي الموارنة (ت ٤١٠)، إلى تلاميذه الـ ٣٥٠ راهباً شهيداً (ت ٥١٧)، إلى تبّاع مسيرتهم في دير مارون في سوريا الثانية، إلى الراحلين منهم صوب منابع "العاصي" ليشيّدوا لهم ديراً آخر على اسم زعيمهم الأوّل، إلى

الصاعدين نحو الجبال والتلال، إلى المتنسّكين في ودايا قاديشا وقنّوبين، إلى المنتشرين في أنحاء المعمورة.. رحلة واحدة، وشهادة واحدة "على روح الكنيسة المارونيّة السريانيّة الإنطاكيّة" وتراثها"[1].

١ . **عفويّة تنتظر مَن ينظّمها :** إلاّ أنّ الحياة الرهبانيّة في لبنان، منذ بدايتها حتّى أواخد القرن السابع عشر، لم تكن حياةً منظَّمة، تسير بموجب قوانين وفرائض مكتوبة ومحدّدة، أو تحتفل بنذور "علنيّة ومشهود بها وبألفاظ صريحة"[2]، أو تتميّز بزيّ رهبانيّ خاصّ.. لقد كانت حياةَ عبادة وزهد، وكان معتنقوها يعيشونها في أديار ومناسك بحسب طريقة كلِّ واحد منهم، وبحسب حماسه الروحيّ.

وكانت الأديار خاضعة لسلطة أسقف، يعيش الرهبان والراهبات، في معظمها، جماعة واحدة، "كانوا سائرين، على ما روى قراعلي، بسذاجة وبساطة، صالحة للصالحين وخطرة لغير الصالحين"[3].. هذا الوضع الخاصّ جدًّا في الحياة الرهبانيّة، بل الفوضويّ أيضاً، حثّ كثيرين من معتنقيه إلى تدارك ما ينجم عنه من مخاطر. ولكنّ هؤلاء، شأنهم كشأن اللبنانيّين عامّة، لا يستطيعون تنظيم شؤونهم بنفوسهم.. فكانوا ينتظرون منظِّماً من خارج، يدفعه الروحُ إليهم من مكانٍ ما.

1 قوانين الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، ٢٠٠٣، مادّة ١.
2 الأب لويس بليبل، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، ١/ ١٧.
3 مذكّرات قراعلي، في"بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة"، الكسليك، ١٩٨٨، ص ٢٧.

عبّاد زهّاد مشتَّتون ينتظرون مَن يوحّد شملهم. أديار مستقلّة تنتظر مَن يضمّها. حالات تعبّد ولكنّها غير محدَّدة بقوانين. صلوات وعبادات فرديّة. زيّ غير موحّد... الكلّ يعرف ذلك، والكلّ ينتظر أحداً يضبط هذه الفوضى الروحيّة. فكان ذلك في ١ /١٠/ ١٦٩٣، عندما "سافر الشمّاس جبرايل حوّا نحو جبل لبنان يريد الرهبنة"[4]. وتبعه رفاقٌ له، عبدالله قراعلي، ويوسف البتن، بعد ثلاثة أشهر، ثمّ جبرايل فرحات، بعد سنة، وابتدأت معهم مسيرةُ الحياة الرهبانيّة المنظّمة.

٢ . **بداية التنظيم :** اجتمع الثلاثة الأوَل، بعد أن اطّلعوا وبحثوا وصمّموا، ثمّ قرّروا الانطلاقة. مثلوا بين يدي البطريرك إسطفان الدويهي، وأطلعوه على نيّتهم؛ فأجابهم للحال، كمن يتنبّأ على مستقبل خطير : "يا أولادي! إنّكم أنتم أبناء رَغدٍ ونعيم. ومعاشُ الجبال قشف. والحروب قائمة في البلاد. وسفكُ الدماء متّصل. فهل يمكنكم العيش بين هذه المتاعب؟! على أنّه لا قدرة لكم على الفلاحة والزراعة. وبها معاش الرهبان في هذه البلاد. وسيرتهم متعبة وقشفة. فلا أراها في مقدوركم"[5].

لكنّ الروّاد الثلاثة من أجل هذا جاءوا : من أجل الحرب والحياة القشفة ومصارعة الأهواء والعمل في الأرض والالتصاق بها وإنتاج خيراتها.. من أجل حياة رهبانيّة أرادوها مثاليّة. وسوف يتحمّلون في سبيلها كلّ شيء. من أجل الربّ الذي رأوا فيه صورة كنيستهم المارونيّة

4 مذكّرات قراعلي، ص ٢٦.
5 عن لويس بليبل، تاريخ ر ل م، ١/ ١٩.

المضطهدة تحمّلوا الصليب واستمرّوا عليه. وما زالت مدرستهم، حتّى اليوم، تتلقّى من شعلتهم نفحات الروح.

وكان حظّ الروّاد مع البطريرك الكبير كبيراً. فسلّمهم دير مارت مورا في أهدن، فتسلّموه في ١/ ٨/ ١٦٩٥، بدأت فيه ومعهم أولى بذور الحياة الرهبانيّة الجماعيّة القانونيّة المنظّمة، كما ابتدأوا يعملون في بيتهم الأوّل ويرمّمونه ويزيدون على بنائه بناء، ويفتحون فيه أوّل مدرسة لتعليم الأحداث مجّاناً.

وبعد ثلاثة أشهر من اختبار الحياة المشتركة، مَثُلَ الثلاثة أمام البطريرك مجدَّداً، في كنيسة قنّوبين، ولبسوا من يده الإسكيم الرهباني. وكان ذلك في ١٠ /١١/ ١٦٩٥ -تاريخ للحفظ- هو بدء السنة الرهبانيّة، بدء التنظيم، وبدء الحياة الرهبانيّة المشتركة.

٣ . **بداية المسيرة :** ومنذ ذلك التاريخ أصبح الأب جبرايل حوّا رئيساً عامًّا على الرهبانيّة الناشئة. وكان دير مارت مورا أوّل دير في الرهبانيّة، وأوّل مقرّ للرئاسة العامّة. وكانت أيضاً بين الروّاد خلوة طويلة، ظهرت خطورتها من نتائجها : أديارٌ انضمّتْ إليهم، ورهبان عبّادٌ انتظموا في سلكهم، شبانٌ رغبوا في حالتهم، ومدارس فُتحت للتعليم والتبشير، وأراضٍ شاسعة امتلكوها، وأعمال ومهمّات برعوا فيها.. واستمرّوا في ورشةٍ متواصلة حتّى اليوم..

وانضمّ أوّل دير إليهم دير مار أليشاع في بشرّي. وكان ذلك في ١ / ٤/ ١٦٩٦. و"كان خراباً. فيه كنيسة وبيتان حقيران، فجدّدوا بناءه، وأنفقوا

في تأثيثه ٥٣٦٠ قرشاً"[6]. وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت.. ثمّ دخل في صفوفهم سبعة شبّان يريدون الترهّب. وكان ذلك منذ سنتهم الأولى. فألبسوهم الإسكيم الرهبانيّ، وميّزوهم بملابس خاصّة. وكان بين السبعة علاّمة عصره جبرايل فرحات، الذي سيصبح رئيساً عامّاً ثمّ مطراناً على حلب فيما بعد.

وبازدياد العدد ازدادت المهامّ. ووضع لهم عبدالله قراعلي قانوناً من ٢٢ باباً. ثمّ اختصره إلى ١٥ باباً. وفرض أن يكون على الرهبانيّة الناشئة رئيس عام وأربعة مدبّرين، تكون مدّة ولايتهم ثلاث سنين قابلة للتجديد. فكان أوّل مجمع عامّ في ١٠/ ١١ /١٦٩٨، ذكرى ترهّبهم، في دير مار أليشاع. وتمّ فيه تجديد انتخاب الأب جبرايل حوّا رئيساً عامّاً، وأربعة مدبّرين.

٤ . **نكسة في البداية :** غير أنّ الشيطان حاضر، على الباب رابض، ينتظر ثقباً يدخل منه إليهم. لقد عرف بأنّ قيام مثل هذه المؤسّسة سيزيد القداسةَ والخير في هذا العالم، أحسّ أنّ في الأفق تلوح صورُ رهبانٍ قدّيسين، مثل شربل ونعمة الله ورفقا، وغيرهم الكثير.. فهل يتركهم يعملونَ ويكمّلون سعيهم، أم يوقفهم عند حدّهم؟! هل يستسلم الشيطان، وهو الذي لم يترك سلاحه يوماً، منذ أبي البشر حتّى آخر الدهر... وبدأت تجاريبه. فكانت أولاها بين المؤسّسين أنفسهم. إنّها لضربة شيطانيّة محكمة، كانت، كما يقال، على اليافوخ.

6 المرجع السابق نفسه، ١/ ٢١.

وكان على الرهبان الجدد أن يتحمّلوا هجمات إبليس منذ بداية حياتهم، هم الذين سمعوا قول الربّ لسمعان رئيس الرسل : "سمعان، سمعان! ها إنّ الشيطان قد تطلّبكم ليغربلكم غربلة الحنطة. ولكنّي سألتُ ألاّ ينهارَ إيمانُك. فإذا ما عدتَ ثبّتْ إخوتك" (لو ٢٢/ ٣١-٣٢). وكانت "الغربلة" في بداية خلاف عميق بين المؤسّسين أنفسهم، أي: بين الرئيس العام حوّا وأحد المدبّرين قراعلي. قد لا يكون السببُ وجيهاً، ولكنّ إبليس يريد أن "يغربل" وحتّى القدّيسين "يغربل".

"ونحن لا نجهل وساوسه"، على ما يقول القديس بولس (٢ قور ٢/ ١١)، ولا نستغرب. فبطرس، رأس الرسل، شكّ وأنكر وسقط وهرب.. لكنّه عاد بقوّة جاذبيّة المعلّم.. وجبرايل حوّا سقط في وساوس إبليس، وهو الرئيس الأوّل، وبقي يعرج طوال حياته بين قابل ورافض، بين أن يكون من هذه الجماعة أو يكون عليها، وبين أن يكون فيها أو خارجاً عنها.. لقد أتعب "ضجرُه" إخوتَه جميعاً. ومن المعلوم أنّ الحياة الرهبانيّة لا تتحمّل التذبذب وعدم الاستقرار. لا بدّ من القرار.

لقد كان حوّا ضعيفاً رغم اقتناعه بما باشر به : في طبعه يحبّ الرئاسة رغم اقتناعه بأهمّيّة فضيلة التواضع. وفي طبعه يحبّ السلْطة مؤبّدةً رغم معرفته بأنّ الحياة الرهبانيّة والديمقراطيّة صنوان.. وبين هذا التجاذب القتّال مال الرئيس الأوّل إلى أن يستقلّ بالرئاسة، وإلى أن يجعلها له حقّاً مؤبَّداً، وإلى أن يُلغي بالتالي وظيفة المدبّرين.. كما أراد أن يبدّل ويغيّر نهج الحياة الرهبانيّة في الكنيسة المارونيّة، ويقلّد اليسوعيّين، ويتحوّل من حياة

الزهد والنسك إلى حياة رسوليّة تبشيريّة جوّالة.. ففشل المسكين، وأدّى فشلُه بإخوته إلى إعادة النظر، إلى تصحيح المسيرة، أي إلى إيقاف مسؤوليّاته واستبداله بآخر.

٥ . **تصحيح المسيرة :** لقد حسم الموقف الصعب ثلاثة : روح الربّ العامل في المؤسّسة الفتيّة، والراعي الحكيم البطريرك الدويهي، وقراعلي صاحب القداسة والرؤيا. وللحال عُقد مجمع عام، قبل موعده بسنتين وسبعة أشهر، أيّ بعد التجديد لابن حوّا بثمانية أشهر. وقرّر المجتمعون عزْلَ رئيسهم وانتخاب قراعلي. وكان ذلك في ١٤ /٣/ ١٦٩٩. واتّخذت جملة قرارات، منها :

١ - أن لا يصير تغيير في غاية الرهبانيّة،

٢ - وأن تصير مباشرةُ الرسالة عند الإمكان فقط،

٣ - وأن لا تكون الرئاسة مؤبّدة،

٤ - وأن يكون الحكم شورى بين الرئيس العام والمدبّرين..

وكان في ظنّ الجميع أنّ ابنَ حوّا لن يقبل الأحكام؛ لكنّه قَبِل، و"قام لساعته، ومضى إلى الرئيس العام الجديد، وسجد بين يديه، ورفع إليه ما لديه من متعلّقات الرئاسة العامّة، خاضعاً مسروراً"[7].

لقد انقضت العاصفة بسلام، واستمرّت القافلة تسير. وقرّر حوّا الخروج من الرهبانيّة مع راهبين اثنين فقط، واستقلّوا بدير مارت مورا،

7 ج. فرحات، تاريخ تأسيس الرهبانيّة، في كتاب "بدايات..."، ص ١٢٠.

بينما الرئيس العام قراعلي استقلّ مع اثنَي عشر راهباً بدير مار أليشاع. أمّا الرائد الرابع، فرحات، فقد خرج من الرهبانيّة، ولم يعد إليها إلاّ بعد هدوء العاصفة، أي بعد خمس سنين وبضعة أشهر... وكان على البطريرك الحكيم أن يسارع ويتدارك الأمر ويحسم المواقف. فحكم للحال بتقسيم الديرين والأملاك والأموال بين الفئتَين. والقسمة، في مثل هذه الأحوال، أجدى من التعايش في الاختلاف.

واستمرّت القافلة تسير، والروح يعمل، والإخوة يزدادون عدداً وفضيلة. وقام البطريرك يشهد لهذا النموّ، فأنعم على الرهبانيّة بتثبيت القوانين. وكان ذلك في ١٨ /٦/ ١٧٠٠ -تاريخ للحفظ-. وفي اليوم التالي التزم ثلاثة عشر راهباً أداء النذور الاحتفاليّة، شاهدِين على النعمة العاملة فيهم، بالرغم من الصعاب والتجارب العديدة.

دام الحال الصعب سنتَين. بعدها استعاد الرئيس العام قراعلي دير مارت موراً. وخرج حوّا من الرهبانيّة. وارتدّ أحدُ راهبَيه إلى إخوته. أمّا الثاني فشرد.. وهكذا همدت العاصفة، وخفّت التجارب، وارتاح الشيطان من "الغربلة"، ولكن إلى حين، تماماً كما كان الحال مع الربّ نفسه، إذ "لمّا استنفد الشيطان كلَّ وساوسه ابتعد عن يسوع إلى أجل موقوت" (لو ٤/ ١٣).

٦ . **سقوط أديار وأملاك :** استقرّت الرهبانيّة، و"ابتدأت بالزيادة والازدهار والنماء والخير والمبرّات"[8]. ثم "دخلت سنة ١٧٠٣، وكانت

8 المرجع السابق نفسه، ص ١٢٣.

الإخوة، بنعمة الله، تزيد عدداً وعبادة"[9].. وجدّد الرهبانُ الولايةَ لرئيسهم ثانيةً وثالثة.. حتّى السادسة، أي إلى حين سيامته مطراناً على بيروت في ١٧ /٩/ ١٧١٦. وكانت الرهبانيّة، في أيّامه، تزداد رهباناً وأدياراً وممتلكات، وتمتدّ في أنحاء لبنان، في الشمال كما في الجنوب، في الساحل كما في الجبل. وابتدأت أديارُ العبّاد مع أصحابها تنضمّ إلى الرهبانيّة الناشئة :

ففي شباط، سنة ١٧٠٦، تمّ الزحف نحو الشوف، فافتتحتِ الرهبانيّة دير رشميّا. وفي السنة التالية التحق بها دير اللّويزة. وفيها أيضاً تسلّمت دير سير بالقرب من رشميّا. وفي الشهر العاشر منها وهب الحبرُ الأعظم دير مار بطرس ومرشلّين للرهبان وأسكنهم فيه ليصلّوا ويدرسوا ويشهدوا. وكان البابا نفسه، فيما كان يتنزّه يوماً بالقرب منهم، إذ سمع أناشيدهم السريانيّة المارونيّة، فدخل عليهم وصلّى معهم، وباركَ جمْعهم.

وفي السنة التالية، في ٥ /٧/ ١٧٠٨، تسلّمتِ الرهبانيّة ديرَ قزحيّا المنكوب بالضرائب والديون. وكذلك نزحت صوب عكّار سنة ١٧١٠، وأنشأت ديراً في الدريب بالقرب من القبيّات على اسم العذراء. وفي سنة ١٧١٢ تسلّمت دير مار بطرس كرَيم التين بالقرب من بيت شباب. ولمّا عصتْ على الرهبان مزرعةُ عين بقرا القريبة من إهدن، قرّروا استئجارها من صاحبها الشيخ عيسى حماده حاكم البلاد آنذاك. وكان ذلك تمهيداً لشرائها حين يحين الحين. وقد حان.

9 مذكّرات قراعلي، في كتاب "بدايات..."، ص ٤٨.

٧ . **غربلة إبليس :** سوف يضاعف إبليسُ عمله : فبعد أن تسلّم الرهبان ديرَ سير، طُردوا منه؛ ولم يعودوا إليه إلاّ بعد ٢٧ سنة. ثمّ طُردوا من دير العذراء في الدريب، ولم يعودوا إليه قطّ.ثمّ ترك الرهبانُ ديرَ روما لمشاكل مع ابن حوّا الذي كان لا يزال يُتعبهم حتّى بعد خروجه من الرهبانيّة، ولم يعودوا إليه إلاّ بعد ١٨ سنة. ثمّ طُردوا من كريم التين ليعودا إليه أيضاً بعد سنين. ثمّ أخلَوا ديرَ قزحيّا لجور الحكّام المتاولة، فانتقلتِ الرئاسة العامّة منه إلى دير اللويزة.

أمّا النوع الثاني من التجارب فكان في شدّة الصراع بين الرهبان والبطاركة المتعاقبين بعد البطريرك القدّيس الدويهي (ت ١٧٠٤) : منذ انتخاب خلفه جبرايل البلوزاني، بدأت المعارك واستمرّت النكبات. هذا البطريرك، على ما يشهد قراعلي نفسه، "ما كان محبّاً لرهبانيّتنا. ولكنّه لم يعاندنا"[10]. ولكن، ما أن نُصِّب البطريرك يعقوب عوّاد، في ٥ /١١/ ١٧٠٥، حتّى ابتدأت التجربة الكبرى، معه ومع أعوانه الذين يهوون "الغربلة".

السبب معروف : الرهبان يتوسّعون، يكتسبون أرزاقاً وأملاكاً، يأخذون ديراً بعد دير. الشعب يحبّهم، يطمئنّ إليهم، يرتمي بين أيديهم، يسعى وراءهم، يفديهم بحياته، يتنازل لهم عن حقّه، يقيم الأرض ويقعدها في سبيلهم، يتسارع لمشاركتهم ومساعدتهم وخدمتهم، يكشف لهم سرَّه وخفايا ضميره..

10 المرجع المذكور سابقاً، ص ٤٨.

يكفي هذا حتّى تقوم قيامة البطريرك وبعض المطارنة. وكان فرحات، وقد أصبح رئيساً عامّاً، بعد قراعلي (١٧١٦-١٧٢٣)، يحذّر رهبانَه ويردّد على مسامعهم : "تجنّبوا رؤساء الكهنة بكلّ جهدكم. فلا خير للرهبان في معاشرتهم ومحبّتهم ومساكنتهم والتقرّب منهم، حتّى ولو كانوا من آباء رهبانيّتكم. فخذوا بركتَهم وتجنّبوهم بقدر استطاعتكم، وإلاّ فيصيبكم من بلاياهم ما أصاب آباءكم الذين سلفوا..."[11].

والنوع الثالث من "غربلة" إبليس كان، كما كان، في المؤسّسين أنفسهم : حوّا، بعد أن كان رئيساً عامّاً على الرهبانيّة، خرج منها، وبقي يتعبها وهو خارجها. ويوسف البتن، ثالث المؤسّسين، فيما كان يعمل في الأرض، في دير قزحيّا، سقط عليه صخرٌ كبيرٌ حطّم جسدَه، ولا يزال تحته حتّى اليوم.. والصدمة الثالثة كانت أيضاً في الرئيس العام القائم، قراعلي، الذي انتزعه البطريرك من بين إخوته، لغاية في النفس، ليرسمه مطراناً على بيروت. يقول قراعلي: "وكنتُ أرى ذاتي ما بين حزين وفرح: حزين لفرقتي إخوتي وقانوني، وفرح لحمايتي لهم"[12]. وكان بين الإخوة "مناحة ١٥ يوماً"، وحتّى جبرايل فرحات، الذي قامت قيامتُه على رؤساء الكهنة، ناخ تحت التجربة، وتعيّن مطراناً على حلب، في ٢٩ /٦ /١٧٢٥.

وهكذا سلّم المؤسّسون المشعل لآخرين، كانوا من طراز آخر. واستمرّت القافلة تسير، والخصوم أيضاً استمرّوا مستعدّين لكلّ "غربلة".

---

11 ج. فرحات، تاريخ تأسيس الرهبانيّة، في كتاب "بدايات..."، ص ١٤٩.
12 مذكّرات قراعلي، في كتاب "بدايات..."، ص ٦٦.

٨ . **بنيان على الصخرة :** يجب الانتباه جيّداً إلى أنّ أسقفيّة قراعلي وفرحات لم تكن تهرّباً من الرهبانيّة التي أسّساها، كما هي حال نظرائهما اليوم؛ بل كانت، كما أشار قراعلي نفسه "لحمايتها". يعني أنّها كانت اقتحاماً للشرّ في مصدره، في عقر داره. قراعلي وفرحات كانا ولا يزالان راهبَين خارج الأسوار، يقاتلان في قلب معسكر الخصوم. وبحربهما هذا، حيث هما، بدأ عهد جديد مع الذين استمرّوا في الداخل خاضعين لعمل الروح ولـ "غربلة" إبليس معاً.

استمرّ الفتح على جميع الصعد وفي مختلف المناطق اللبنانيّة. والعهد الجديد كان برئاسة الأب مخايل اسكندر الإهدني الذي تولّى مهامّه في المجمع العامّ العاشر، المنعقد في دير اللّويزة، في ١٠/ ١١ /١٧٢٣. هذا العبقريّ عرف تجارب إبليس من أين هي، ومَن يوحي بها. وعرف أيضاً كيف يتداركها وأين. وابتدأت المسيرة : استعادت الرهبانيّة ديرَها في روما في ١ /٩/ ١٧٢٤، وأنشأت لها منزلاً في بيروت سنة ١٧٢٥، وافتتحت ديرَ طاميش في ٣٠ /٦/ ١٧٢٧، وديرَ مار الياس شويّا في ١ /١٠/ ١٧٢٨، وقامت ورشة عمران وبنيان في أمكنة عديدة من المناطق اللبنانيّة.

إلاّ أنّ فرحة الفتح والعمران تبقى ناقصة، إن لم توقف حملة الخصوم عند حدّها. فكان على الرئيس العام أن يسافر إلى روما، إلى أعتاب الكرسي الرسولي، لـ "يعصم" رهبانيّته من كلّ صاحب "غربال"، لـ "يثبّت" قوانينها من كلّ متطاول عليها، لـ "يحميها" من كلّ ذي سلطان واقتدار. من أجل هذا سافر الأب العام، وهو أوّل سَفرٍ من نوعه. يريد

رهبانيّة "مستقلّة"، "معصومة"، "محميّة"، "ثابتة"، "مثبّتة" على الصخرة البطرسيّة. وعلى غير هذه الصخرة لا يريدها. ذهب الأهدنيّ ليطارد الخصوم من فوق.

وفيما هو هناك يتعرّف، يبحث، يسهر، ويعمل على سنّ القوانين والفرائض لـ "يثبّتها".. كان المدبّرون يراسلونه ويُطلعونه على مجريات الأمور عندهم. يكتبون إليه : "يا رَيت تسمعوا الآنَ التجاديف والسباب الذي صاير من الشعب قاطبة في حقّ هؤلاء.. إنّ الفتنة ابتدأت"[13].

وفي ١٨ /٦/ ١٧٢٨، كتب المدبّرون إلى السمعاني، ناقلين إليه أقوال بعض الرؤساء : "ما منرجع عن هالرهبنة حتّى نبيدها"[14]. وفي ٩ /٩/ ١٧٢٩، بُعيد التجديد للإهدني وهو لا يزال في روما، كتب النائبُ العام الجديد الأب جرجس قشّوع الغسطاوي إلى السمعاني يقول له: "لو حضرتكم تكونوا في الشرق لعجبتم ممّا أصابنا، وبالأكثر من أهل الإكليرس وأصحاب العلم، ولعجبتم كيف أن الرهبة ما خربت إلى اليوم"[15]. وفي ١/ ١٢ /١٧٢٩، كتب المدبّرون إلى السمعاني يقولون له : "إنّ السادات المحترمين لم يزالوا مجتهدين على خرابنا"[16].

وفي ١٢ /٩/ ١٧٢٩، كتب الأب توما اللبودي إلى الرئيس العام : "فيا أبي! وحياتكم! لو تكونوا عندنا في هذه المدّة لبكيتم علينا من قِبَل ما

13 مجموعة اللبودي، رسالة عدد ٤٠.
14 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ٤٨.
15 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ٧٧.
16 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ٨٢.

أصابنا من هؤلاء السادات الكرام! فيا أيّها الأب الكلّي الاحترام! إيّاكم أن تفتكروا في المجيء إلى الشرق قبل أن يتثبّت قانوننا، لأنّ الجماعة فاتحين أفمامهم ليبلعونا كلّ وقت. والذي مثل حضرتكم يفهم بالتلويح"[17].

فهم الأهدنيُّ بالتلويح كلَّ شيء. أدرك خطورة مهمّته وأهمّيتها، وكأنّه قال : إنْ لم أنتشل رهبانيّتي برمّتها، أدياراً ورهباناً، أرزاقاً وأملاكاً، وأشدّ حبالَها إلى الصخرة البطرسيّة، لن يهدأ لرهبانيّتي بال. لقد بات على الأهدنيّ العبقري أن يعمل على "العصمة البابويّة" و"الحقّ الحبريّ" لرهبانيّته. عليه أن يقابل الحبر الأعظم، ويستجدي منه "براءة" بها ينتزع رهبانيّتَه من رؤساء هذا الدهر. عليه أن يأخذ البراءة، بالإقناع أم بالحيلة، بالمحبّة أم بالضغط، بالصلاة أم بالمال. لن يستقبله رهبانُه من دونها. وأمواج البحر لن تهدأ ليعود من دون البراءة.

وكان للأهدنيّ ما أراد. وكان ذلك في يوم تاريخُه ذَهَب. في ٣١ /٣/ ١٧٣٢ -تاريخ للحفظ- وللحفظ أيضاً ما جاء في براءة العصمة والتثبيت. إنتبهْ إلى ألفاظها : "إنّ الرهبانيّة جمعاء سعتْ إلى التماس تثبيت قانونها وفرائضها من لدن الكرسي الرسولي؛ وذلك طلباً لمزيد استقرارها، وتنزيهاً لها عن التهم والمطاعن التي كثيراً ما قيلت فيها وانتشرت ضدّها، وحملاً لسائر الطوائف الشرقيّة التي خرجت عن الدين الكاثوليكي، أو شذّت عن التهذيب الرهباني، على الاقتداء بطريقتها والأخذ بمنوالها"[18].

---

17 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ٧٨.

18 راجع ذيل المجمع اللبناني، ص ٤٦.

ورجع الأهدنيُّ إلى الشرق في أواسط شهر آب من سنة ١٧٣٢. وكان رجوعُه عيداً ومهرجاناً، كرجوع فخر الدين الثاني المعني الكبير. ثمّ طارت رسائلُ الشكر والامتنان إلى كلّ مَن ساهم في "عصمة" الرهبانيّة و"تثبيت" قوانينها وفرائضها، إبتداءً من الحبر الأعظم حتّى آخر عامل مجهول في دوائر روما. إنّه انتصارٌ كبير واستقلالٌ عظيم، لا يعرف طعمَهما أبناء هذا الدهر.

٩ . **فتح متواصل :** وقرُبَ موعدُ المجمع العام الثالث عشر، فتجدّد للأهدنيّ للمرّة الرابعة. وكان ذلك في ١٠ /١١/ ١٧٣٢. وفي اليوم التالي مباشرة دخلت الرهبانيّة مدينةَ طرابلس، تلك المدينة الساحليّة الاستراتيجيّة المتّصلة ببلاد النصيريّين والإسماعيليّين والمسلمين كافّة، واشترت فيها بيتاً، وجعلته أنطوشاً. إلاّ أنّ أعداء الله سيُتعبون الرهبانيّة بسببه. وفي السنة نفسها، استعيد دير سير.

وفي السنة التالية، وبالتحديد في ١٥ /٩/ ١٧٣٥ -تاريخ للحفظ- افتتح الأهدنيّ جزيرة قبرص، وبعث رسالةً مع الفاتحين، عالية في أخلاقها الإنسانيّة والمسيحيّة. جاء فيها : "والفقراء الذين ليس لأهلهم قوت يعولوهم بها، فأَطعموهم أنتم من الرغيف الذي يرزقكم الله إيّاه"[19].

١٠ . **الحَدَث : المجمع اللبناني :** لا يزال الخصوم يعملون: لا بدّ من إسقاط الأهدني مهما كلّف الثمن. انعقد المجمع العام الرابع عشر في اللويزة، في ١٠ /١١/ ١٧٣٥. وانتُخب توما اللبودي رئيساً عامّاً. هو من

19 مجموعة اللبودي، رسالة عدد ١١١.

حلب، شابّ غير متمرّس تماماً على تجاريب الخصوم و"غربلة" الأبالسة. وفي ظنّهم أنّ رئيساً من حلب قد يكون قصيرَ الباع، مقصوصَ الجوانح، لا منعة له من قومه وأقاربه. خسئوا أيضاً. لقد أحاط الإخوة برئيسهم، وابتدأت به مسيرة جديدة، على مستوى أوسع وأشمل. سينقل هذا الشابّ الذكيّ المعركةَ من داخل أسوار الرهبانيّة إلى داخل كراسي الرؤساء، وسيسجّل له التاريخ نصراً في ما صنعه في "المجمع اللبناني" الفريد من نوعه، والذي انعقد في ٣٠ /٩/ ١٧٣٦، في مقرّ الرئاسة العامّة نفسه، وتكفّلت الرهبانيّة بمصاريفه الباهظة.

لقد بقيت المسيرة مستمرّة، وروما ترمق الرهبانيّة بعين الرضى، وأنعمت على الأب العام، في ١٥ /٨/ ١٧٣٦ بالشارات الحبريّة، التاج والخاتم والعصا والصليب. وهي إنعامات للأساقفة دون سواهم. فكيف بنا الآن والرئيس العام يتحدّاهم في ما هو لهم ومن مميّزاتهم!

هذه الإنعامات ستشعل النيران، واللبودي يكتب : "وأمّا مِن خارج، فالأفواه مفتوحة علينا من كلّ جهة وناحية"[20]. وابتدأ الصراع الحقيقي بين الرهبان وبين البطريرك وبعض الأساقفة، فأرسل المدبّرون رسالة إلى قداسة الحبر الروماني، في ٢٧ /٥ /١٧٣٧، يضمّنونها شكواهم المريرة. جاء فيها: "المعروض لدى قدسكم هو أنّه قد لحق بعبيدكم البغض والحسد اللاحق بنا من الرؤساء والمشايخ (أقرباء البطريرك آنذاك). وما قصدُهم إلاّ هدْم رهبانيّتنا والازدراء بقوانيننا"[21].

---

20 المرجع السابق نفسه، رسالة في ٢٠ /١١ /١٧٣٥.

21 المرجع السابق نفسه، رسالة في ٢٧ /٥/ ١٧٣٧.

وتجنّد المطارنة ومعهم المرسلون الأجانب، وتلاميذ مدرسة روما، وبعض من الآباء الكرمليّين واليسوعيّين، والمشايخ، ونصبوا الشراك. فاستدرجوا الأبَ العام، بتدبير من المطرانيَن الياس محاسب واسطفان الدويهي، في ١٠ /٩/ ١٧٣٧، إلى كمين أعدّوه له على طريق دير قزحيّا. إلاّ أنّ اللّبودي كان يعرف نيّات الخبثاء[22]. وراح يشدّد الإخوة في قوله: "أيّها الإخوة المكرّمين!.. لا تذهلكم التجارب، ولا تحزن قلوبَكم. بل اذكروا أن لا خلاص لنا إلاّ بالصبر والاحتمال"[23].

وفي رسالة أخرى خطيرة، في ٦ /١١/ ١٧٣٧، كتب إلى رئيس دير روما، يقول له: "لو كان هناك رجالٌ صالحون لطوّبونا لاحتمالِنا لهؤلاء السادة الأساقفة"[24]. وفي ٢٢ /٨/ ١٧٣٨، كتب إلى المدبّر يوسف قراعلي، الموجود في روما، يقول له: "إنّ المضادّين هم جاعلين مرادهم أن يتولّوا على الرهبنة بجملتها وأفرادها. ومقصدهم يهدموها. فإذا تمّ مرامهم يبطل كلّ نظام. وما أحد بفتّش على قيام وسلوك أوامر المجمع المقدّس، ولا أوامر المجمع اللبناني"[25].

١١ . **صراع وفتْح :** واستمرّت الحال على هذا المنوال طوال السنين القادمة. الصراع قائم والفتح مستمرّ. صراع مع الرؤساء، وفتح الأديرة والأملاك. فاشترت الرهبانيّة، في ١٠ /٨/ ١٧٣٦، دير سيّدة الشوف

22 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ١٣٢.
23 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ١٣١.
24 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ١٤٢.
25 المرجع السابق نفسه، رسالة عدد ١٧٨.

في مشموشة، من المطران سمعان عوّاد، و" أراد المطران أن يقبض الثمن سرّاً، ويُذاع أنّ الدير هبة منه للرهبانيّة". وفي السنة التالية، اتّخذت ديرَ مار الياس الراس. وفي ١٠/ ١١ /١٧٣٨، تسلّمت صورة الملك لويس الخامس عشر، علامة رضى من فرنسا على الرهبانيّة. وفي السنة التالية، تسلّمت دير سيّدة حوقا... وتنامت الرهبانيّة حتّى أصبح عدد رهبانها ٢١٠. وذلك بعد ٤٤ سنة فقط من تأسيسها، ورغم المضايق والنكبات.

وجدّدت الرهبانيّة، في ٣ /١٢ /١٧٣٨، للبودي، بتأخير قليل عن موعد المجمع المعتاد، بسبب المضايقات الكثيرة. وبسبب ذلك أيضاً سافر الأب العام، في ٣٠/ ٩/ ١٧٤٠ إلى روما، لردّ الوشايات المتقدّمة ضدّه إلى الكرسي الرسولي. وبالرغم من كلّ هذه المتاعب، استمرّ الفتح، فاشترت الرهبانيّة دير مار ميخايل بنابيل في ١٧ /٨/ ١٧٤٠، كما تكفّلت بخدمة كنيسة مارت تقلا بالقرب من رشميّا، وبفتح ثلاث مدارس في طرابلس وصيدا وعكّا.

أمّا في مجمع ١٠ /١١/ ١٧٤١، فعاد الأهدني ليكمّل جهاده. إلاّ أنّه قضى لكثرة همومه وشجونه في ١٣ /١/ ١٧٤٢، عن عمر ٦٥ سنة. وانتُخب مكانه الأب ارسانيوس عبد الأحد الحلبي في ٢٨/ ١/ ١٧٤٢. وبه ابتدأت مرحلة جديدة : خلافات جديدة، تجارب عنيفة، "غربلة" إبليسيّة قاسية، هزّة في قلب الرهبانيّة، بل في قلب الطائفة : فما أن توفّي البطريرك يوسف ضرغام الخازن حتّى اجتمع الأساقفة وانتخبوا سمعان عوّاد الذي أبى. ثمّ انتُخب بدله إثنان : طوبيّا الخازن والياس محاسب، ولكن ليس من

دون مكر ودهاء. فتدخّلت روما -والحمد لله- فألغت الإنتخابَين، وأعادت سمعان عوّاد.

هذه السخافات لن تمرّ من دون انعكاسات خطيرة على الرهبانيّة. وكانت الرهبانيّة قد فقدت حتّى الآن قوّاداً كانوا لها حماةً وعوناً : المطران قراعلي توفّي في ٦ /١ /١٧٤٢، والأهدني بعد سبعة أيّام، واللبودي عاجز في روما. أجيال المؤسّسين والتابعين مضتْ، ومضتْ معهم شعلة الريادة. وجاءت أجيال غير مدرّبة على اقتحام مثل هذه المشقّات مع مثل هؤلاء الخصوم. وفي كلّ حال نحن مع مرحلة جديدة أشدّ قساوة.

١٢ . **نكسة ثالثة :** نجح المفتِنون بدون شكّ. والرهبان ضعفاء عادة مع تجاريب الرؤساء. والنعمة يفقدها أصحابُها أحيانا بسبب اتّكالهم على أنفسهم، فيسقطون. وها قد سقط هؤلاء الفاتحون في "غربال" المجرِّبين. لكنّ نوراً بقي يطلّ من خلف الغيوم الدكناء.

بدأ الخلاف بين الإخوة بعضهم مع بعض. فقام رهبان دير قزّحيّا، وعزلوا رئيسَهم الأب بولس يونان الحلبي. وكان ذلك في ١/ ١١/ ١٧٤٢. ثمّ إنّ ضيقاً مادّياً جسيماً وقعت تحته الرهبانيّة ورزحتْ : ديون باهظة، فوائد متراكمة، أموال أميريّة لم تُدفع، محاصيل ضحلة، جوع شامل، بنيان يلحّ على الرهبانيّة إنجازه، أسفار إلى روما في سبيل العلم، مساعدات، حروب، مشايخ ورؤساء... كلّهم يريد النيل من هذه المؤسّسة.

وأمام هذه النكبات الجسيمة تقرّر إرسال الأب العام ارسانيوس عبد الأحد الحلبي في سبيل جمْع الحسنات من الدول الأوروبّيّة. وعهدت

الرهبانيّةُ إدارَتَها إلى النائب العام الأب موسى هيلانة الشامي. في غياب الأب العام تفاقمت الخلافات بين الإخوة، وكلّ غياب لأيّ مسؤول لا بدّ من أن تكون هذه نتائجه. واتُّهم البطريرك صراحة بأنّه هو الذي يدير المعارضة والخلافات. وقد أشار إلى ذلك المطران طوبيا الخازن في رسالة واضحة بتاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٧٤٤، يتّهم البطريرك بأنّه هو الذي "يهيّج" الرهبان على رؤسائهم. والمعارضون من الرهبان كانوا قد رفعوا عريضةً موقّعةً من ١٠٤ رهبان ضدّ الرئيس العام الغائب والمدبّرين ورؤساء الأديار. رفعوها إلى البطريرك فيي ١٥ /٩/ ١٧٤٤، كما رفعوا عريضةً مماثلة إلى النائب العام والمدبّرين.

قبِل البطريرك شكوى المشتكين، وعيّن لهم مجمعاً عامّاً يُعقد في مشموشة في غير موعده. ومشموشة مع طاميش كانا مركز المعارضة. في ٤ /١٢/ ١٧٤٤-تاريخ للحفظ- انعقد المجمع في مشموشة، وانتخب المعارضون الأب يواكيم الحاقلاني الزوقي رئيساً عامّاً. وحرم البطريرك الفئة التي لا ترضخ للسلطة الجديدة، وذلك في منشور بتاريخ ١٠ /١/ ١٧٤٥. ورفعتِ الفئةُ الموالية، ومعظمها من الرهبان الحلبيّين، إعتراضَها على مجمع مشموشة ونتائجه إلى البطريرك، ثمّ إلى روما في ١ /٢/ ١٧٤٥. ثمّ اجتمع الرؤساء الموالون في دير اللويزة في مجمع عام، وأعادوا انتخاب ارسانيوس عبد الأحد وهو لا يزال غائباً يُجبي الحسنات.

١٣ . عودة الوئام : وبقيت الرهبانيّة ترزح تحت سلطتَين على فئتَين متعارضتَين، من ٤ /١٢/ ١٧٤٤ حتّى ١ /٤/ ١٧٤٨، عندما انعقد

مجمع عام في دير اللويزة بأوامر مشدّدة من روما، وبسعي أعيان البلاد، وحضور البطريرك للعمل على إزالة الخلافات والتوحيد. فعادت الوحدة. فعُيِّن الأب مارون قرياقوس الدرعوني رئيساً عامّا -وهو من جهة الفئة الحلبيّة-، والأب يواكيم الحاقلاني الزوقي نائباً عامّاً -وهو من جهة الفئة الجبليّة. وقرّر المجمع بأن يكون أوّل نيسان من كلّ سنة إحتفالاً وشكراً لله على اتّفاق الإخوة. وتقرّر أيضاً أن لا يكون على الرهبانيّة، بعد اليوم، ديون. ثمّ أصدر المجتمعون أوامر صارمة بحقّ الذين يتلفّظون في التمييز بين حَلَبي وجَبَلي. وأبطلوا الخصوصيّات والامتيازات لرؤساء الأديار والمراكز في الأكل والكسوة والفرشة وغيرها...

١٤ . **النكسة الرابعة والفتح المستمرّ :** لم يطل الوئام أكثر من سنتَين. إبليس لا يزال يهوى "الغربلة"، يريد شرًّا بهذه الرهبانيّة، لأنّه عرف، بسابق علمه، بأنّ مملكتَه ستندحر، إذا ما ترك الروحَ يعمل من دون "غربلة". ففي تاريخ ١٠ /١١/ ١٧٥٠، جدّدت الرهبانيّة للأب مارون الدرعوني، وعادت الانتكاسة. وتأجّجت النيران من تحت الرماد، وتجدّدت الخلافات سرّاً.

وقبل أن ندخل في تفاصيل الخلاف الكبير، نعود قليلاً إلى الوراء لنشهد عمليّات الفتح المستمرّ بالرغم من كلّ شيء. ففي ١ /١١/ ١٧٤٦، تسلّمت الفئة الجبليّة ديرَ مار يوسف البرج -ضبيّه. وفي السنة نفسها، اشترت داراً في صيدا. وفي ١٧٤٩، أنشأت ديراً في منطقة حوب على اسم السيّدة العذراء. وفي ٢٤ /٦/ ١٧٥٠، تلقّت براءة من الملك لويس الخامس

عشر تعلن حماية فرنسا للرهبانيّة. جاء فيها: " لا فرق بين الرهبان اللبنانيّين والرهبان الفرنسيّين". وفي سنة ١٧٥١، أقامت مدرسة في عجلتون، وثانية في صيدا.

الروح يعمل. وإبليس يعمل. ومَن يفهم ما هو هذا التناقض الحاصل في الرهبانيّة الواحدة؟! مَن يدرك كيف يتوسّع الرهبان وينتشرون من جهة، ومن جهة ثانية يتخاصمون ويشتدّ بعضهم على بعض، ويتفاقم الخلاف فيما بينهم حتّى الفرقة والقسمة؟! هذا هو جنون الحياة الرهبانيّة. هذا وجه منه. هذه الحياة هي حياة غير عادية، ويصعب على العاديّين من البشر أن يفهموا ما يحصل!

ولكن، مع هذا الخلاف سنشهد فصلاً جديداً من فصول الجنون. وهاكه.

١٥ . قسمة لا بدّ منها : في سنة ١٧٥٢، في عهد الأب مارون الدرعوني، والمدبّرِين: أرسانيوس عبد الأحد الحلبي، ويواكيم بلاديوس الحلبيي، ومبارك عبيد الغسطاوي، وجرمانوس الديراني، تجدّدت الخلافات علناً، خلافات بين اللبنانيّين والحلبيّين. أسبابها المباشرة: توزيع الرئاسات، ثمّ الإسراف وكثرة الديون والتلاعب في الوظائف الرهبانيّة.

في ٣ /٩ /١٧٥٢، رفع الرهبان اللبنانيّون، على يد البادري أنطون كينار اليسوعي، عريضةً إلى الكرسي الرسولي، ضمّنوها موقفهم، وهو : أنّهم ضدّ المجمعَين السابقَين، وضدّ أفعال الرؤساء القائمين حاليّاً، وضدّ المجمع العام القادم إذا ما استمرّت الأوضاع على ما هي عليه. لكنّ روما

طويلة البال، تتروّى كثيراً، وتجيب بعد أن تتوضّح لديها الأمور، وعندما تهمد الخواطر. أمّا هنا، في لبنان وفي الشرق عامّة، فتهبّ العاصفة، ويضرب الجنون، وكلّ شيء يصل إلى تمامه. لا أحد هنا ينتظر، أو يتروّى، أو يعالج الخلافات بهدوء أعصاب.

واستمرّ اللبنانيّون يترقّبون جواباً من روما. وروما تماطل، وتراقب. والخلافات تتفاقم. والبطريك يحرم. والأساقفة يتحزّبون مع هذه أو تلك من الفئتَين، والحكّام في حيرة من أمرهم. والشعب كلّه في بلبال.

واستمرّ البلبال حتّى ٢٣ /١١/ ١٧٦٨، عندما وردت الأوامر الرسوليّة إلى البطريرك يوسف أسطفان والقاصد الرسولي بإعداد قسمة الرهبانيّة. بلّغ البطريرك الرئيسَين العامَّين. وكان عدد اللبنانيّين آنذاك ١٩٠ راهباً، واحد فقط من حلب؛ وعدد الحلبيّين ٦١ راهباً، ٥ من جبل لبنان.

في تاريخ ١٩/ ٧/ ١٧٧٠ -تاريخ للحفظ- جاءت من روما براءة القسمة. فانقسمت الرهبانيّة إلى قسمين، أشخاصاً وأدياراً وممتلكاتٍ وديوناً..

١٦ . ومع هذا بقي الفتح مستمرّاً : إنّها لفترة عصيبة في تاريخ الرهبانيّة. كان الروح يعمل وإبليس أيضاً يعمل. فإلى جانب الاختلافات والتحزّبات والانقسامات والشكاوى والدعاوى والعرائض والمناشير والهزّات العنيفة.. كانت الرهبانيّة تتوسّع في المدن والجبال.

ففي سنة ١٧٥٣ باع اللبودي دير مار بطرس ومرشلّين واشترى غيره في ساحة مار بطرس السلاسل. وفي حزيران ١٧٥٤ تسلّم اللبنانيّون دير مار ساسين بسكنتا. وفي ١٧٥٦ أخذوا دير مار مخايل بنابيل وأرضاً

في الناعمة من آل نكد الدروز. وفي آب من السنة نفسها، تسلّموا دير مار موسى الحبشي من الأمير مراد أبي اللّمع؛ وفتحوا مدرسة بحرصاف. وسنة ١٧٥٧ أنشأوا ديراً في بيرسنين المعوش. وسنة ١٧٦٥ اشتروا مزرعة الكحلونيّة؛ وأنشأوا مدرسةً في تنّورين. وفي سنة ١٧٦٦ أخذوا من الأمير يوسف شهاب دير ميفوق، ودير حوب، ودير مار قبريانوس كفيفان، ودير مار سركيس بكفتين، وكنيسة مار يوحنّا مرقس جبيل. " وكم قاسى الرهبان من الأتعاب والمشقّات والكدّ والأعراق لأجل عمار هذه الأديار وقيام أملاكها الخربة وصيانتها من تعدّي المتاولة..."[26].

وما أن أُعلنت براءة القسمة وهدأت العاصفة حتّى بدأت مسيرة جديدة. فبعد ثلاثة أشهر فقط، وبالتحديد في ١٥/ ١١ /١٧٧٠ تسلّم الرهبان اللبنانيّون دير المعونات من الشيخ منصور الدحداح، وخربة الطاحون في البترون من الأمير يوسف شهاب. وفي ١٧٧١ أوقف أهلُ بسكنتا على الرهبانيّة كنيسةَ القديس يوسف لقاء خدمتهم. وفي السنة نفسها اشترى الرهبان جبل طورا في أعالي الجبال الجنوبيّة. وفي ١١ /٩/ ١٧٧٢ وجّهوا أنظارَهم صوب البقاع، فتسلّموا أرضاً في زحلة من أمراء أبي اللمع. وفي ١٧٧٤، أخذوا دير معاد.

وسارت الرهبانيّة اللبنانيّة، وكأنّ شيئاً لم يكن، فتغيّرت السلطة في مواعيدها، وبقيت مسيرة الفتح ناشطة. فانضمّ إليها دير مار أنطونيوس بيت شباب في ١٧٨٥، وأرضٌ في الكرك في ١٧٨٨، ووقفيّة في وادي شحرور،

---

26 رَ: فهد، تاريخ الرهبانيّة بفرعيها، ٤/٣٥٢؛ وبليبل، تاريخ..، ٢/ ٣٧٨.

ورعيّة المروج في ١٧٩٣، وأرضٌ في بمهرِين ١٧٩٥، وجلّ البحر لدير الناعمة في سنة ١٨٠٥، ودير عشاش مع أملاكه سنة ١٨٠٦، ودير ومدرسة بان ١٨٠٧. وبنت الرهبانيّة كنيسة دير طاميش.

وانتقلت القيادة، في هذه الفترة الممتدّة بين ١٧٧٠ و١٨١٠ إلى رجالٍ ذي باع طويل في شؤون الحياة الرهبانيّة والروحيّة : فالرئيس العام، الأب عمانوئيل الجميّل، المتوفّي في ٣٠ /١٠ /١٨١٠، بقي جثمانه غيرَ بالٍ في مقابر الكحلونيّة، عندما فُتحت في سنة ١٨١٣، وأعجوبة صورة مار عبدا معاد، شهدها الأب العام مرقس الكفاعي وسجّلها بخطّ يده[27]؛ ممّا يشير إلى أنّ أصبع الربّ لا يزال يعمل في العاصفة وفي الانقسام.

١٧ . **العصر الذهبي :** في ١٠ /١١/ ١٨١٠، عُقد مجمعٌ عام في طاميش، على أثر وفاة الرئيس العام الجميّل، وانتُخب الأب أغناطيوس بليبل رئيساً عامّاً، الذي استمرّ في الرئاسة ٢٢ سنة متواصلة. وهو أطول عهد في تاريخ الرهبانيّة.وقد كان عهداً ذهبيّاً لكثرة ما شهدت الرهبانيّة من نشاط ونموّ في كلّ صعيد.

على صعيد الاستملاك، استمرّت الرهبانيّة تتوسّع وتنتشر، وتكتسب الديرَ تلو الدير : من محبسة عنّايا سنة ١٨١٤، إلى مدرسة قرطبا وديرها سنة ١٨١٥، إلى شراء أرضٍ في عجلتون ١٨١٨، إلى جرِّ الماء من عشاش إلى رشعين للريّ سنة ١٨٢٦، إلى امتلاك مزرعة كفربعال لمار مارون عنّايا في السنة نفسها، إلى تسلّم حمى اللقلوق الواسع سنة ١٨٢٧، إلى

27 أنظر صورتها في مجلّة أوراق رهبانيّة، (١٩٨٧)، عدد ٣٢.

مدرسة رأس المتن لتعليم أمراء بيت أبي اللمع الدروز المعتنقين المسيحيّة المارونيّة سنة ١٨٣١...

وعلى صعيد النهضة الروحيّة والليتورجيّة، كان لبليبل باع طويل : من طبْع نوافير القدّاس في مطبعة دير قزحيّا على نفقة الرهبانيّة وللمرّة الأولى سنة ١٨١٦، إلى طبع الشحيمة الصغيرة على نفقة الرهبانيّة أيضاً سنة ١٧٢٨. وفي عهده أيضاً ترهّب نعمة الله كسّاب الحرديني في ١٤/ ١١/ ١٨٣٠.

وفي المجال الاجتماعي، استطاع الأب العام بليبل، لتقرّبه من الأمير بشير الثاني الكبير، أن يرفع ظلم الضرائب الباهظة اللاحقة بأملاك الرهبانيّة، والتمس منه أيضاً مسْح أملاك بعض الأديرة لرفع الظلم المتأتّي عن زيادة المال الأميري، وثبّت ملكيّة كنيسة مارت تقلا المروج بعد تطاول مطران بيروت عليها...

١٨ . **إستحقاق الذهب :** إلاّ أنّ الذهب لم يدم، والحياة الرهبانيّة لا تنسجم كثيراً مع الاطمئنان. إنّه عهد حياة وحركة وعمل وفتْح. عهد استمرّ يجدّد الولاية لشخصٍ واحد طوال ٢٢ سنة، ممّا أدّى ببعض الراغبين في السلطة إلى أن يقوم بالبلبلة والتّهَم، فخضع إلى "غربلة" إبليس المتربّص بهذه الرهبانيّة النشيطة : ففي سنة ١٨٣٢، وقبيل موعد المجمع العام، حدث في المجتمع الرهباني، على ما يقول مؤرّخ الرهبانيّة الفذّ، الأب لويس بليبل، "حركة إنقلابيّة، كان هدفها تنزيل الأب العام عن وظيفته. شاء أم أبى".

وكان القائم بهذه الحركة أناس لم يكن بالحسبان أن يقوموا بها. الخصوم التقليديّون باتوا معروفين. أمّا خصوم اليوم فهم الموصوفون بهذا المثل السائر : "مطرح ما بِتأمِّن خاف". الذي قام بهذه الحركة هو الأمير أمين، إبن صديقه الكبير الأمير بشير، ومعه المعلّم بطرس كرامة، يدعمهما البطريرك يوسف حبيش. ومع هذا، ما كان لهؤلاء أن ينفذوا في حركتهم لو لم يجدوا لهم أعواناً في الداخل.

نبادر حالاً إلى القول : نخطئ إنْ أعطينا لهذه الحركة حجماً كبيراً، بالرغم من نجاحها؛ ذلك لأنّها، هذه المرّة، كانت موجّهة ضدّ "الحكم"، وليس ضدّ "الكيان"، كما كان في السابق. لا بأس. هذا هو حال الرهبانيّة، منذ نشأتها، فـ "الغربال" بقي نشيطاً عاملاً، لئلاّ يعتادَ أبناءُ الجهاد حياةَ الرخاء والطمأنينة.

لقد نجحت الحركة. أُسقط الرئيس العام، ولكن في موعده. ففي المجمع المنعقد في طاميش في ١٩/ ١١/ ١٨٣٢، "قاطع" المعارضون دوراته. تركوا الاجتماعات. خرجوا. واعتصموا في دير مار يوسف البرج، القريب من طاميش. ورأس "المقاطعين"، أو "المقاطعجيّين"، أبوان جليلان هما أرسانيوس النيحاوي وعمانوئيل سلامة المتيني. ومن حينه نشأت كلمة "المقاطعة". لكنّها تحمل اليوم غير المعنى الذي كان لها.

رهبان ذاك المجمع لم يُعدَموا بعض الحكمة. تشاوروا بالمراسيل والرسائل الطائرة من دير طاميش إلى دير مار يوسف البرج، وبالعكس. واتّفقوا على انتخاب راهبٍ فاضل قدّيس هو الأب مبارك حليحل

البسكنتاوي. إقترحه المجتمعون ليحلّوا المشكل. فالأب بليبل، الذي خدم الرهبانيّة، لا يتركها الآن عرضةً للانقسام. فاقترح على الأب العام الجديد أن يُعطي مناوئيه حصّة الأسد في الوظائف والرئاسات، وذلك ليصدّ تدخّلاً قد يقوم به البطريرك وبعض الأساقفة. وهكذ ا تلاقت الحكمة مع القداسة لتحلاّ مشكلةً كادت تعرّض الرهبانيّة على انقسام جديد.

١٩ . **أحداث أليمة :** ومع هذا، لا بدّ من دفع الثمن، ثمن الرخاء والازدهار اللذين عاشتهما الرهبانيّة أيّام بليبل. والثمن باهظ حتّى يكون البدل بمستوى المعادلة. وهذا ما حصل بالفعل. فما أن انتهى عهد حليحل، المتنيّح برائحة القداسة[28]، حتّى جاء الأب عمانوئيل سلامة المتيني رئيساً عامّاً في المجمع المنعقد في ١٠/١١/١٨٣٥، وسلّم بعضَ الرهبان إلى السلطة المدنيّة، وساقهم إلى السجون، وذلك بتحريضٍ من البطريرك وإرضاءً له.

وتوالت الأحداث الأليمة على لبنان والرهبانيّة معاً : من حريق دير بيت شباب ومقتل راهبَين فيه في ٢٨/ ٩ /١٨٤٠، إلى نهب دير سير ومقتل ستة من رهبانه في ٢٠/ ٦ /١٨٤١، إلى حريق دير مشموشة على يد الدروز سنة ١٨٤٢... وزاد الشرُّ شرًّا عندما دبّ خلاف بين الرؤساء والمرؤوسين، وتدخّل الكرسي الرسولي، وعيّن، للمرّة الأولى في تاريخ الرهبانيّة، رئيساً عامّاً هو الأب سابا العاقوري، وذلك في ١٢ /٢/ ١٨٤٥.

28 أجرى الله على يده بعض الكرامات؛ وقد باشر الفحص عنها البطريرك بولس مسعد مع الأب العام أفرام جعجع، سنة ١٨٦٥. وهو أوّل راهب لبناني بوشر بالفحص القانوني عن قداسة سيرته.

وللمرّة الأولى أيضاً يكون على الرهبانيّة "زائر رسولي" هو المطران يوسف جعجع. فاعتبر الرهبانُ تعيينَه خرقاً للقانون والتقاليد الرهبانيّة العريقة ولحرّيّتهم. فاقتحموا ديرَ طاميش ليلاً، وسلبوا أختام الرئيس العامّ والمدبّرين.

في هذه الفترة من التاريخ، استمرّ الفتح ناشطاً، رغم النكبات من كلّ جهة. فانشأت الرهبانيّة مدرسةً في بيت لهيا سنة ١٨٣٦، ومدرسة راس الحرف سنة ١٨٣٧، ومدرسة الشبانيّة ١٨٣٩. كما أنشأت أدياراً جديدة، مثل أديار الجديدة، وعشاش، والقطّارة، وقبّيع، وريمات، ومار روكز عجلتون ١٨٤٥. وفتحت مدرسة في حملايا ١٨٤٩. وفصلت أملاك دير قزحيّا وميفوق وحوب ومشموشة والكحلونيّة، وتأسّست في المفصول منها مراكز جديدة مستقلّة. وفي دير عنّايا وحده أُحصي عدد الرهبان سنة ١٨٤٩، فإذا هم ٤٠ راهباً. ممّا يشير إلى نموّ الرهبانيّة رهباناً وأدياراً وممتلكات.

٢٠ . **عهد الزيارة :** تدخّلتْ روما سنة ١٨٤٥، وتحمّل الرهبان تدخّلها على مضض. عاشق الحرّيّة لا يمكنه أن يسكت على كبت الحرّيّات، حتّى ولو كان كابتَها أعلى مقام في الدنيا. وطارت الرسائل برّاً وبحراً إلى روما تحمل مشاعرَ الامتعاض والكبت والظلم. شكاوى ودعاوى من عشّاق الحرّيّة على السلطة العامّة، على الرؤساء الصغار، على الزائر الرسولي، على كلّ مَن يُشعَر منه أنّه يسلب حرّيّةَ راهب. ورغم هذا، وروما لا تدرك عشق رهبان الجبال للحرّيّة، أعادت الكرّة وعيّنت أيضاً رئيساً عامّاً جديداً، هو الأب لورنسيوس الشبابي، سنة ١٨٥٠. ثمّ تدخّلت أيضاً سنة ١٨٥٦،

فألغت انتخاب أرسانيوس النيحاوي، وعيّنت مكانه لورنسيوس الشبابي مجدَّداً مع المدبّرين الأربعة، بينهم الأب نعمة الله الحرديني مدبّراً للمرّة الثانية. وانقسم الرهبان بين مؤيّدٍ لهذا ومؤيّد لذاك. وظلّ على الرهبانيّة رئيسان عامّان من ١٨٥٦ إلى ١٨٥٩، عندما توفّي النيحاوي معلناً خضوعه للشبابي. غير أنّ رهبان أديرة المتن ظلّوا رافضين حتّى مجمع ١٠/ ١١ /١٨٥٩، المسمّى "مجمع الشواديح".

واستمرّت المسيرة، كما استمرّت روما في تدخّلها، فتعيّن الأب أفرام جعجع رئيساً عامّاً سنة ١٨٦٢؛ ودامت ولايته حتّى أواخر ١٨٧٤. في عهده أنشأت الرهبانيّة ديرَ مار سمعان القرن سنة ١٨٦٣، وفصلت له أملاكاً من قزحيّا. وأنشأت أيضاً دير مار يعقوب الحصن دوما، ودير قرطبا. وبنت كنيسة أنطش زحلة. وجدّدت مدرسة بان. وعيّنت ديرَ كفيفان مدرسةً لاهوتيّة فلسفيّة للتلاميذ الرهبان. واشترت مجموعتَين من مكتبة الآباء "مينيي". وفي هذه الفترة أيضاً كثرت الشكاوى على الزائر الرسولي المطران جعجع.

في ٨ /١/ ١٨٧٥، تعيّن الأب مرتينوس سابا الغسطاوي رئيساً عامّاً. وانتهتْ معه زيارة المطران جعجع. وخلفه القاصد الرسولي لوديفيكوس، وأوقف الابتداء في جمع أديار الرهبانيّة، ووحّده في دير الناعمة. أنشأ دير بصرما سنة ١٨٧٦، ودير سيّدة النصر نسبَيه غوسطا سنة ١٨٨٠، وجعله مدرسة لاهوتيّة للتلاميذ الرهبان، وأنشأ مدرسة بدادون ١٨٨٩، وباع مطبعة طاميش. وفي أيّامه أيضاً "حدث اضطراب وقلاقل... (وأخيراً) استقالَ مضطرّاً سنة ١٨٨٩"[29].

---

29 الأب مارون كرم، رهبان ضيعتنا، الكسليك ١٩٧٥، ص ٢٠١، حاشية ٢.

في ١ /٤/ ١٨٩٠، سمّى الكرسي الرسولي الأب يواصاف العنَيسي المدبّر، نائباً عامّاً. دامت نيابته سنة كاملة. بعدها عيّنتْ روما الأب مبارك سلامة المتيني رئيساً عامّاً. دامت رئاسته حتّى ١٨٩٥. في ولايته أنشأ مدرسة بيروت، واشترى عقاراً بقربها كمقرّ للإخوة الرهبان الدارسين في الجامعة اليسوعيّة. وأنشأ دير مار مارون القنيطرة للراهبات ١٨٩٢. "ولأوّل مرّة عيّنَ لكلّ مقاطعة رئيسَ معاملة"[30].

وفي مجمعٍ عام عُقد في دير نسبَيه، في ١٠/ ١١/ ١٨٩٥، برئاسة البطريرك يوحنّا الحاجّ، انتُخب الأب مرتينوس الدرعوني رئيساً عامّاً. في أيّامه أنشئ دير مار يوسف جربتا سنة ١٨٩٧، ومدرسة سقي لحفد، ومدرسة الشقاديف، ومدرسة بعبدات.

في هذه الفترة من التاريخ، من بدء الزيارة الرسوليّة على الرهبانيّة سنة ١٨٤٥ حتّى نهاية القرن التاسع عشر، مرّ على الرهبانيّة أحداث جسيمة للغاية، أجسمها حدثان: تدخّل روما في وصايتها على السلطة العامّة وعلى حرّيّة الرهبان، ومجازر سنة ١٨٦٠. في تلك، نُكبت الرهبانيّة بحرّيّة رهبانها ونموّها وتدخّل الأيادي الأجنبيّة في حكمها. وفي هذه نُكبت برهبانها، إذ سقط منهم ٥٠ راهباً شهيداً، قتلاً وذبحاً. منهم ٢٩ راهباً من دير مشموشة. ونُكبت أيضاً بأديارها ومراكزها، إذ أحرقتْ أديار مشموشة والكحلونيّة ومار موسى وزحلة والعباديّة ووادي شحرور. وطالت النكبات مسيحيّي الجبل، فقتل منها في سنة واحدة ١٤ ألفاً.

30 المرجع السابق نفسه، حاشية ٤.

غير أنّ الروح العامل في الرهبانيّة يعوّض عن هذه النكبات بنعمٍ سماويّة أجدى من كلّ خسارة. ففي هذه الفترة من الزمن نذر الأخ شربل مخلوف، وسيم كاهناً. وكذلك توفّي المدبّر الحرديني في كفيفان في ١٤/ ١٢ /١٨٥٨ برائحة القداسة أيضاً، والأب دانيال الحدثي في دير قرطبا في ٢٦ /٧ /١٨٨٤، مشهوراً بسيرته الرهبانيّة العطرة.

٢١ . **الرهبانيّة والحروب العالميّة :** دخلت الرهبانيّة القرن العشرين، في تطوّر العلم والتقنيّة، كما في معامع الحروب العالميّة الضارية، والتيّارات الفكريّة المتضاربة، والأحزاب السياسيّة المتنازعة. وقد نال الكنيسة الجامعة والكنيسة المارونيّة ما نالها من نصيب هذا التنازع وهذا التطوّر. وكان على الرهبانيّة أن تعرف دورَها. وقد رُزقتْ قوّاداً عَرفوا كيف يسيرون بها في هذا الخضم، لكي تلعب دوراً رائداً. ففي ١٠/ ١١ / ١٩١٢ انتُخب الأب أغناطيوس داغر التنّوري، ورهن أملاكَ الرهبانيّة جميعَها للدولة الفرنسيّة لقاء مليوني فرنك ذهباً تُصرف في سبيل إغاثة منكوبي الحرب العالميّة الأولى، وفتح الأديار والمراكز مأوى للمنكوبين والمحتاجين من أيّة طائفة، فأنقذت حياة جمهور غفير من الموت جوعاً[31]. وفي أيّامه أيضاً رُفعت دعاوى شربل ورفقا والحرديني سنة ١٩٢٥ للنظر في تطويبهم وتقديسهم.

وخلفه الأب مرتينوس طربيه التنّوري في مجمع ١٠/ ١١/ ١٩٢٩. في عهده جُرّت المياه إلى مدينة جبيل سنة ١٩٣٦، الأمر الذي كانت تعجز عنه الدولة آنذاك.

31 أنظر ملخّصاً عن ذلك في رهبان ضيعتنا، ص ١٤.

وفي ١٠/ ١١/ ١٩٣٨، عُقد مجمع عام في دير جبيل، وعُيّن الأب باسيل غانم رئيساً عامّاً. في عهده أُدخلت الطالبيّة على الرهبانيّة سنة ١٩٣٩، وتغيّر أسلوب الابتداء. وفَتحت الرهبانيّة أديارها للاّجئين، بسبب الحرب العالميّة الثانية، وأعالتْهم. فكافأت الدولة رئيسَها العام بوسام مذَهَّب. ووضعت روما قوانين ورسوماً جديدة للرهبانيّات المارونيّات الثلاث. وهو أوّل تعديل كامل شامل لها بعد قوانين ١٧٣٢.

٢٢ . **عَين على العالم :** مع الأب يوحنّا العنداري (١٩٤٤-١٩٥٠)، تقرّر إنشاء دير الروح القدس-الكسليك، ليضمّ النشء الرهباني برمّته، وذلك في ٢٨ /٤/ ١٩٤٧. كما تقرّر إنشاء مدرستي الجيّة وشكّا سنة ١٩٤٩، وبناء مأوى للرهبان العجزة في دير مار يوسف جربتا. إلاّ أنّ الحدث الأهمّ كان في تأسيس أولَى رسالات الرهبانيّة في بلاد الانتشار اللبناني، في داكار سنة ١٩٤٩، على يد الأباتي أغوسطين سركيس.

ومع الأب موسى عازار (١٩٥٠-١٩٥٦)، تمّ تأليف لجنة فحص دعوى الأب الحبيس شربل مخلوف سنة ١٩٥٠، إثر أعاجيب مذهلة حصلت على ضريحه. وافتُتح دير الكسليك لاستقبال النشء الرهباني. وتمّ بناء مدرسة المتين ١٩٥١، ومدرسة حمّانا. وفُتحت رسالة في مندوسا في ٤ /٥/ ١٩٥٢، وثانية في أبيدجان ١٩٥٤، وثالثة في سان باولو في السنة نفسها..

ومع الأب أغناطيوس أبي سليمان (١٩٥٦-١٩٦٢)، تأسّست رسالة

في باماكو ١٩٥٩، وثانية في التوكومان في ٢٨ /٧/ ١٩٦٠. وبتاريخ ٦ /٨/ ١٩٦٠، ثبّت المجمع المقدّس قوانين الرهبانيّة الجديدة.

أمّا مع الأباتي يوسف طربيه (١٩٦٢-١٩٦٨) فقد قامت قيامة الرهبانيّة في البناء والترميم والعمران والمشاريع. ففي عهده زاد بناء الكسليك قدر نصفه، وتمّ إنشاء ميتم ومأوى مار شربل في حريصا، وبُني مستشفى البترون، ومدرسة مار شربل الجيّة وديرها، وتمّ شراء المدرسة المركزيّة في ٢٨ /٥/ ١٩٦٦، وبنيت مدرسة الكحلونيّة في السنة نفسها، ودار المعلّمين في النبطيّة، وكنيسة مار جرجس جبيل، وجُدّدت أديار الشوف كلّها بناءً وأثاثاً وأملاكاً. وعلا شأنُ الرهبانيّة فوق قمم الأرض برفع شربل طوباويّاً في ٥ /١٢/ ١٩٦٥.

٢٣ . **تغيير جذري :** مع الأباتي بطرس قزّي (١٩٦٨-١٩٧٤)، انتهى نوعٌ من الحكم الرئاسيّ كان في الرهبانيّة منذ بدايتها، وابتدأ حكم جديد يتميّز بأسلوب جديد وروح جديدة، يرتكز على مفاهيم لاهوتيّة ورهبانيّة جديدة، وذلك بسبب تطوّرٍ حدث في الكنيسة وفي العالم إثر المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني. وراحت الرهبانيّة، للمرّة الأولى، تجتمع كلُّها، على مدى خمس سنين، لتبحث وتتدارس قوانينَ وفرائضاً جديدة. وانطلاقاً من هذه الروح جرى تغيير جذري في التعامل بين الرؤساء والمرؤوسين، وتغيير جذري في فروض الصلوات، ورتبة القدّاس، والرتب الكنسيّة الأخرى. وفي عهده أيضاً امتدّت الرهبانيّة صوب أوستراليا، حيث أنشأت لها ديراً ورسالةً على اسم مار شربل. كما في أيّامه أيضاً، نُقلت فئة الطالبيّة من النشء الرهباني من الكسليك إلى أديار أخرى.

٢٤ . الرهبانيّة وحرب لبنان : مع الأباتي شربل قسّيس (١٩٧٤-١٩٨٠)، كان كلّ شيء معدّاً لأن تبتدئ الرهبانيّة بتطبيق قوانينها الجديدة، وبتنظيم أديارها ومراكزها، وتخطيط شامل لممتلكاتها، وإعداد الرهبان إعداداً رفيعاً لأن يعيشوا النهضة العلميّة واللاّهوتيّة. إلاّ أنّ كارثة الحرب التي عصفت بلبنان منذ ١٣/٤/١٩٧٥، منعت كلّ شيء عن أن يكون. لقد تميّز عهد الأب قسّيس بهذه الحرب، كما تميّزت الحرب بدوره السياسي الفعّال. فجمع كلمة القياديّين المسيحيّين في غياب كلّ قيادة زمنيّة وعسكريّة وكنسيّة، وقارب بين أعضاء "الجبهة اللبنانيّة"، وقد كان في أساسها وتأسيسها. وفتح أديار الرهبانيّة ومراكزها لاستقبال المهجّرين والمنكوبين، كما حوّل معهد بيت شباب إلى مستشفى لمعوّقي الحرب، وحثّ الرهبانَ على إغاثة المحتاجين، وأعطى الصورة الواضحة عمّا يجب أن يكون عليه الموقف الكنسيّ من الحرب. وبه، لا بغيره، استطاع العالم أن يعرف ما يجب عليه أن يعرف عن حقيقة المواقف. ومع هذا، لم ينسَ واجب الرهبانيّة عليه، رغم الظروف الصعبة، فراح يهتمّ بالبناء والعمران، فزاد على مجمّع الجامعة بناءً للهندسة والفنون الجميلة، كما وسّع بناء مستشفى جبيل، ونقل فئة من الإخوة الدارسين إلى دير غوسطا.

وفي عهد الأباتي بولس نعمان (١٩٨٠-١٩٨٦)، استمرّت الحرب تعصف وتشتدّ على لبنان كما على الكنيسة والرهبانيّة. فكان العهد صعباً بسبب الكوارث والمآسي : إنّه الاجتياح الإسرائيليّ للبنان، واغتيال رئيس الجمهوريّة بشير الجميّل، وإلغاء إتّفاقيّة ١٧ أيّار، وسقوط الجبل والشحّار والضاحية وإقليم الخرّوب وشرقي صيدا في أيدي اليساريّين والمسلمين،

وانتفاضات "القوات اللبنانيّة" المتلاحقة، واتّفاق دمشق وإلغاؤه وما نتج عنه... في كلّ هذه، لم يبق لمنكوبي الحرب إلاّ اللجوء إلى الرهبانيّة وسائر الرهبانيّات والجمعيّات.

ومع ذلك حدث في الرهبانيّة ما لم يكن بالحسبان أن يحدث من مشاريع وإنجازات. في عهده، اشترت الرهبانيّة دير مار أنطونيوس خَشْبَو في غزير، وراحت ترمّمه وتجدّده وتزيده بناءً، مقرّاً للرئاسة العامّة. ثمّ أسّست ديراً في رميش، وتعاونيّة في "المارشي دي بون" عند مفرق يسوع الملك، وبناءً رياضيّاً مميَّزاً في المدرسة المركزيّة، وتجديداً كاملاً لدير جبيل ليكون ملائماً لكبار السنّ في الرهبانيّة، وتوسيع المستشفى وزيادة فروعه.. وفي بلاد الاغتراب، شيّدت الرهبانيّة مدرسةً وديراً في سدني أوستراليا، وفتحت ديراً ورعيّة في مونريال كندا، وبيتاً ورعيّةً في لندن، وآخر في باريس، وأنشأت مدرسة في أبيدجان، واشترت بيتاً ورمّمته في بيت لحم.

هذا والحرب في لبنان مستمرّة، ناشطة في التدمير والتهجير. فمقابل العمران في أديار كثيرة، نرى أدياراً دُمّرت عن بكرة أبيها، وأدياراً أصيبت برهبانها وأملاكها.. هكذا صار بأديار الجيّة، والناعمة، والمعوش، ورشميّا، وسير، والكحلونيّة، وقبَّيع، وغيرها من مراكز ورعايا وضِيع شُلّت فيها الحركة تماماً.

وكان المهجَّرون والجائعون والمنكوبون والبائسون شغلَ الرهبانيّة الشاغل. ولم يهدأ للرهبانيّة بال، ولا للسلطة فيها. وقد عبّر رئيسُها العام عن

ذلك بقوله : "عشنا مستَنفَرِين مدّة ستّ سنوات كاملة"[32]. ومع هذه الكوارث فتحت الرهبانيّة أديارها للاّجئين، وقدّمت لعدد كبير منهم الغذاء واللباس والمسكن؛ وبنتْ في أرضٍ لدير جبيل تجمّعات سكنيّة، ووفّرت لآخرين مساكن جاهزة، وفتحتْ لأولادهم مدارسَ للتعليم المجّاني، وسفّرت مئاتٍ إلى فرنسا للعلم، وأعدّت مخيّمات ولقاءات في مختلف مناطق لبنان..

وما زالت الحرب قائمة، والرهبانيّة حاضرة، والمسؤولون فيها يكمّلون المسيرة. فكانتْ عهود متلاحقة، تعمل الشيء نفسه، ولكن بإفساح المجال للبطريرك ليقوم بدوره الوطني والاجتماعيّ والروحيّ. فكان عهد الأباتي باسيل الهاشم (١٩٨٦-١٩٩٢)؛ وقد تمّ انتخابُه، للمرّة الأولى، مباشرة من جميع الرهبان؛ أمّا الأباتي عمّانوئيل الخوري، الذي لم يعمّر سوى بضعة أشهر، والذي توفّي صباح عيد مار أنطونيوس، فقد عُيِّن من روما بعد استمزاج رأي الرهبان؛ ثمّ عُيِّن مكانه الأباتي يوحنّا ثابت، فكمّل العهد (١٩٩٣-١٩٩٨)؛ وانتخب بعده الأباتي أثناسيوس الجلخ (١٩٩٨-٢٠٠٤)، الذي وفّى عن الرهبانيّة ديوناً تقدّر بملايين الدولارات، وجاء بقوانين مثبّتة سنة ٢٠٠٣؛ وبعده الأباتي الياس خليفه (٢٠٠٤-)..

ولن نقف عند إنجازات هذه العهود الأخيرة، بسبب أنّ روما أوقفتْ، نزولاً عند رغبة البطريرك والأساقفة، بأن يتخلّى الرهبان عن قيادة الأوضاع الراهنة في لبنان، ولأنّ نتائج أعمالها لم تتّضح بعد.

32 التقرير العام للمجمع العام، في آب ١٩٨٦، ص ٨ من المطبوع على الآلة الكاتبة.

٢٥ . جامعة الروح القدس : كانت الغاية من بناء دير الكسليك سنة ١٩٤٨ جمْع شمل الناشئة الرهبانيّة المشتّتة بين أديار بيروت وميفوق وغوسطا وجبيل. فيه تتولّى الرهبانيّة نفسُها بنفسِها، تربّي ناشئتها، توجّهها، تثقّفها، بحسب هوّيتها اللبنانيّة، المارونيّة، السريانيّة، الشرقيّة..

ولمّا أضرب المحامون في لبنان، طوال سنة تقريباً، بسبب استحداث جامعة بيروت العربيّة، تعلّم فيها الحقوق؛ ثمّ عادوا عن إضرابهم بشروط؛ منها السماح لإنشاء جامعاتٍ وطنيّة، أعلمتِ الرهبانيّةُ الدولةَ اللبنانيّة، في ٢٦ / ٤/ ١٩٦٢، بأنّ معهد العلوم العالي في دير الروح القدس-الكسليك، فيه جميع الشروط اللاّزمة لكي يكون جامعة.. فما كان على الدولة إلاّ أن تعترف بذلك.

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت مسيرة جديدة. وبدأت الجامعة تنمو وتكبر وتتوسّع، فزادت كلّيّات ومعاهد وأقساماً وفروعاً.. وفي ١٤/ ١/ ١٩٧٤، وعلى أثر إغلاق كلّيّة اللاّهوت في الجامعة اليسوعيّة، قرّر مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك أن تكون كلّيّة اللاّهوت في جامعة الروح القدس، مركزاً وحيداً لتعليم العلوم الدينيّة والكنسيّة في لبنان. وفي ٢/ ١٢/ ١٩٨٢، أعلنت كلّيّة اللاّهوت كلّيّة حبريّة ذات نظامٍ خاصّ ومميّز عن نظام سائر كلّيّات الجامعة.

٢٦ . حياة النسك : كان للرهبانيّة، منذ نشأتها، اتّجاهان : واحد ديريّ نسكيّ، والثاني رسوليّ تبشيريّ. للاتّجاه الرسولي مستلزماته من العلم والمعرفة والتضحيّة في سبيل شعب الله والشهادة للربّ في المجتمع المدني،

وقد تجسّد في الرهبانيّة، بأشكال عدّة، منها : الجامعة والمدرسة والمستشفى والمأوى والميتم والرعيّة والإرساليّات خارج لبنان... والاتّجاه النسكي تجسّد في الحياة الديريّة وملازمة الصلوات الخورسيّة في أوقاتها، والعمل في زراعة الأرض، والتقشّف في المأكل والملبس، والاستحباس لمن استطاعه.

هذا الاتّجاه النسكي واضح في للرهبانيّة ممّا فيها من محابس وحبساء، وممّا فيها من قوانين خاصّة لحياة النسك والاستحباس، وضع أوّلَها المؤسّس عبدالله قراعلي، الذي جُدّد مراراً. وكان آخرها في قانون ٢٠٠٣، الموادّ ١٠٤ـ١١٥.

٢٧ . **خاتمة ـ التاريخ الصحيح :** نخطئ إن نحن نؤرّخ للحياة الرهبانيّة كما نؤرّخ للمؤسّسات العالميّة والدول. الحالة الرهبانيّة مؤسّسة روحيّة لا تخضع لأحكام الأحداث العالميّة، رغم أنّها تعمل فيها، وتتفاعل معها. تاريخ المؤسّسات الروحيّة هو تاريخ القداسة فيها، وتاريخ الحياة الباطنيّة المستترة. إنّه تاريخ عمل الله الخفيّ. وعمل الله يكون عادةً بهدوء وصمت ونعمة. إنّه تاريخ صراع داخليّ في حياة كلّ راهبٍ جنّد نفسَه لمحاربة الشرّ الذي فيه. هو تاريخ تؤلّف حقباته أعمال الخير دون أن تتسجّل على صفحاته؛ فيما تاريخ العالم تصنع معظمَ مراحله الحروبُ والثوراتُ والكوارثُ وصراعاتُ الأشرار.

والذي سجّلناه في مختصر تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة ليس هو في الحقيقة تاريخاً صحيحاً؛ بل هو أحداث عابرة تفاعلت الرهبانيّة معها.. تاريخ الرهبانيّة الذي يجب أن نسطّره هو هذا الذي عاشه حبساؤها

في المحابس والصوامع والخلوات، وقدّيسوها في هدأةِ الأديار بالصلاة والعمل والزهد والصبر والتأمّل المتواصل، وعمّالها في مختلف حقول العمل. إنّه تاريخ شربل والحرديني ومَن عاش مثلَهما. هؤلاء الذين زادوا الخيرَ والقداسةَ في الكنيسة وفي العالم.

٣٩

قوانين الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

١ . نشأت الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة على يد جماعة صغيرة من حلب، مكوّنة من جبرايل حوّا، وعبدالله قراعلي، ويوسف البتن، وتبعهم، بعد ثلاثة أشهر، رابع هو جبرائيل فرحات. عزموا أوّلاً على اعتناق الحياة الرهبانيّة في جبل لبنان؛ ثمّ إلى تنظيم هذه الحياة في أديار تُعاش فيها الحياة الرهبانيّة المشتركة،

وساعدهم البطريرك إسطفان الدويهي (ت ١٧٠٧)؛ فقدّم لهم دير مارت مورا في بلدته إهدن، وقَبِل نذورَهم في (١٠/ ١١/ ١٦٩٥). وبعد أن رمّموه، وفتحوا فيه مدرسةً للأحداث، انطلقوا منه إلى دير مار أليشاع، وتوّسعوا سنة بعد سنة، حتّى حازوا على أديارٍ عدّة، فانضمّ إليهم عبّادٌ وشبّانٌ كثر رأوا في نهضتهم الرهبانيّة هذه خيراً.

٢ . " وفي هذه المدّة، كان اهتمام الرئيس (جبرايل حوّا) والرهبان في جمع القوانين، وانتخاب ما يحسن لعقولنا من كتب

الشرقيّين والغربيّن... وفي هذه السنة تمّ جمْع القانون، اثنَين وعشرين باباً"[33].

ثمّ يكمّل قراعلي ويقول : " سرنا إلى قنّوبين عند السيّد البطريرك، وطلبنا منه أن ينعم علينا بإثبات القانون. فأنعم علينا بذلك، وأثبته بحضور البعض من السادة المطارنة.

" وكتب في صورة التثبيت، مع جملة الكلام، هذه الجملة، وهي : "إنّنا لا نبرّي أولادَنا الرهبان من قوانين مار أنطونيوس".

" ولأجل هذه الجملة لم نقتبل نحن هذا التثبيت. واعتذرنا لدى البطريرك أنّ قوانين القديس أنطونيوس كثيرة ومختلفة. وأكثرها تخصّ الرهبان المتوحّدين، لا أصحاب الديورة الجامعة. وإن نحن قبِلنا هذه الجملة يتولّد لنا منها أتعاب كثيرة ممكن حدوثها من الرؤساء التي تجيء فيما بعد، ومخاطرات غير هذه.

" وصرنا نتوسّل إلى البطريرك أن يعفينا من هذه الجملة. فما أمكن. ولمّا لجّينا عليه اغتاظ. وأبطل التثبيت. وأمر بخزقه.

"ورجعنا إلى ديرنا حزينين"[34]..

---

33 مذكّرات قراعلي، في كتاب "بدايات الحياة الرهبانيّة"، سلسلةرهبانيّات، رقم ١، تقديم وإعداد أ. جوزف قزّي، الكسليك ١٩٨٨، ص ٣١.

34 المرجع السابق نفسه، ص ٣٤.

وبعد مدّة، أي بعد انفصال حوّا عن قراعلي، جاء الأوّل وقال : "قم يا أبانا نسعى بإثبات القانون عند السيّد البطريرك.. لأنّي أخاف.. أن ينقلب ضدّي فلا يعود يثبّت القانون.. فاستصوبت كلام القسّ جبرايل، ونهضتُ لوقتي، وسرتُ معه إلى دير قنّوبين، وطلبنا من السيّد البطريرك تثبيت القانون.

"وكان عند البطريرك أربعة مطارين، فانقسموا إثنان معنا واثنان ضدّنا.. أمّا المطرانان اللذان كانا ضدّنا، فكانا يتعلّلان على القانون بأنّه يحوي فرائض واهية، لا تفيد، وليست عادة البلاد، وأمثال ذلك. ويمانعان السيّد البطريرك عن تثبيته. وكان البطريرك يرى قريباً وبعيداً، ولكنّه لم يثبّته.

"ورجعنا إلى ديرنا خائبين".

"وكذلك بعد أيّام، عدنا إليهم، ومثل ذلك مرّات عديدة. والمطرانان يمانعان ويزهّدان السيّد البطريرك بذلك، ويزعمان أنّ هذا القانون حقارة لقانون القدّيس أنطونيوس.

"ولكثرة المضي والرجوع من قنّوبين لديرنا، صغرتْ أنفسُنا، واستولى عليّ الحزن. ولم أكن أعرف أن أسلّم لمشيئة الله بالتمام.

"ويوماً ما أخذتُ القانون بيدي، وميّزتُه. واختصرتُه. وجعلتُه خمسة عشر باباً. وطرحتُ من الخمسة عشر باباً جملة فرائض. وجعلتُه

بالنسبة إلى ما كان صغيرا ً جدّاً. وكان قصدي بذلك قطع علل المطرانين اللذين كانا يضادانا.

"ثمّ أخذتُ معي اثنين من الإخوة، وسرت إلى السيّد البطريرك، وتوسّلتُ إلى المطرانين اللذين كانا معنا أن يجتهدا بزيادة معنا في تثبيت القانون. وبكيتُ قدّام الحاضرين. فحينئذٍ أخذتْهم الغيرة بزيادة، ودخلا معنا على السيّد البطريرك، وتوسّلا إليه بتثبيت القانون. فثبّته. وختمه بختم الكرسيّ. وكان ذلك في التاسع عشر من حزيران من هذه السنة (أي سنة ١٧٠٠).

"وحينئذ رجعنا إلى ديرنا فرحين"[35].

" كان هذا القانون، كما يقول الأب يوسف محفوظ، يتضمّن روحيّة المؤسّسين -وهي أثمن ما ورثناه عنهم- المتجسّدة في الأبواب التالية : ١. في الطاعة؛ ٢. في العفّة؛ ٣. في الفقر؛ ٤. في كسوة الرهبان؛ ٥. في سكنى القلالي؛ ٦. في السفر؛ ٧. في المائدة؛ ٨. في عمل اليد؛ ٩. في الصمت؛ ١٠. في الصلاة العقليّة؛ ١١. في الصلاة اللفظيّة؛ ١٢. في الاعتراف؛ ١٣. في تناول الأسرار المقدّسة؛ ١٤. في الأدب؛ ١٥. في المرض"[36].

---

35 المرجع السابق نفسه، ص ٣٩-٤٠.

36 نبذة تاريخيّة عن القوانين والرسوم الرهبانيّة، أوراق رهبانيّة، ١٩٨٧، العدد٣٢، ص ١٢.

٣ . ثمّ عاد وثبّت هذا القانون أيضاً البطريركُ يعقوب عوّاد، في أوّل عهد بطريركيّته. وجدّد هذا التثبيت في ٢٣ /١١/ ١٧٢٥، بعد إضافة ثلاثة أبواب إليه، وهي : ١٦. في الاتّضاع؛ ١٧. في المحبّة الأخويّة؛ ١٨. في الصبر. فأصبحت أبواب القانون ١٨ باباً.

٤ . وبعد اختبار دام حوالي خمسٍ وثلاثين سنة، طلبتِ الرهبانيّةُ الناشئة تثبيتَ القوانين والفرائض من الكرسي الرسولي. فاستجاب البابا إقليمندوس الثاني عشر طلبَ الأب العام مخايل اسكندر الإهدني، والمنسنيور يوسف سمعان السمعاني، فكان ذلك في ٣١ /٣/ ١٧٣٢. ثمّ طُبعتْ في روما سنة ١٧٣٥ في اللاَّتينيَّة والكَرْشُونيَّة، وقدّم لها السمعاني المذكور.

٥ . واعترفَ المجمع اللّبناني بهذه القوانين، في قوله: "إنَّنا نقبَلُ القانونَ والرُّسومَ التي ثبَّتَها قداسةُ سيّدنا الحَبْرِ الأعظم البابا اكلمندوس الثاني عشر لأولادِنا الأَحبّاءِ الرُّهبانِ اللبنانيّين، ونُسلّم بها ونثبّتها ونَحُثّ الرُّهبانَ المذكورين ونحُضُّهم على رعايتها التامّة"[37].

٦ . وبعد صدور الحقّ القانوني العام، سنة ١٩١٧، وتعليمات الكرسي الرسولي إلى جميعِ الرَّهبانيّات في العالم، عَمَدَتِ الرَّهبانيّاتُ المارونيَّاتُ الثَّلاث (الحلبيّة (المريميّة اليوم) والبلديّة (اللبنانيّة اليوم) والأنطونيّة) إلى تجديد رسومها، لا قوانينها، باعتبار القوانين أصبحت

37 المجمع اللبناني، ص ٤٨٨.

موجودةً في الحقّ القانوني المذكور. فكانت سنة ١٩٣٨ "رسوم الرَّهبانيّاتِ المارونيّات الثلاث"، وقد ثبَّتَها الكرسيُّ الرسوليُّ في العام عينه. واعتمدتْ على قانون ١٧٣٢، وعلى القانون الكنسي العام لسنة ١٩١٧.

٧ . وبعد صدور الإرادة الرسوليّة (Postquam Apostolis Litteris)، في ٩/٢/١٩٥٢، وبعد توجيهات الكرسيّ الرسوليّ، عَمَدَتْ كلُّ رهبانيَّةٍ من الرَّهبانيّاتِ المارونيَّاتِ الثلاث إلى وضع رسوم خاصَّة، - لا قوانين-، طِبْقاً للإرادة الرسوليَّة، فكان لرهبانيّتنا "رسومُ ١٩٦٠"، التي ثبّتَها الكرسيُّ الرسوليُّ لسبعِ سنواتٍ تحت الاختبار.

٨ . وبعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، والإرادة الرسولية التي أَصدرها البابا بولس السادس ١٩٦٦ "الكنائس المقدّسة"، عَمَدَتِ الرَّهبانيّاتُ من جديد إلى تجديد حياتها وقوانينها بما يتلاءَم مع مُعطَياتِ المجمع، ومُتطلبِّاتِ العصر. فكان من جديد لكلّ رَهبانيّة قانونٌ خاصّ بها، وكان لرهبانيّتنا، بعد مجمعٍ خاصٍّ تمّ على مراحل، من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٤، وخَلُصَ إلى "قوانين ورسوم ١٩٧٤".

٩ . واستمرّ ت محاولات التجديد والاختبار تنشط حيناً وتهمد أحياناً، إلى أن كانت "قوانين ٢٠٠٣"، ولكن تحت الاختبار لسبع سنين من تاريخ تثبيتها.

١٠ . وسوف نتكلّم في الفصل التالي على مميّزات محاولات التجديد هذه.

١١ . وكان لرهبانيّتنا أيضاً، ومنذ نشأتها، راهباتٌ يَخضعْن لقوانينها ورئيسها العام، الذي كان يؤمّن لهنّ، كما للرهبان، خدمتهنّ الروحيّة، وإرشادهنّ، وإدارة أملاكهنّ في أديارهنّ جميعاً. حتّى شكّلتْ أديار الرّاهبات، منذ نشوئها، جزءاً لا يتجزّأ من الرّهبانيّة، مع ما تميّزت به عن أديار الرهبان من طابع الثبات والتوحّد داخل الدّير.

١٢ . وبقي الرهبان والراهبات رهبانيّةً واحدة، تعيش تحت ظلّ قانونٍ واحد، وسلطة عامّة واحدة، وزيٍّ موحَّد، حتّى٧/٧ / ١٩٨٤، عندما أعلن الزائر الرّسولي المطران جورج أبي صابر، راعي أبرشيّة اللاّذقيّة المارونيّة، أنّ للراهبات رهبانيّةً مستقلّة، في إدارتها، وأديارها، وقوانينها. وقد تمّ ذلك على ضريح المكرّمة رفقا[38]في دير مار يوسف-جربتا. وتلا ذلك تعيينُ أوّل مجلس رئاسة عامّة.

١٣ . وبعد هذا الانفصال بين الرهبان والراهبات، أصبح للراهبات أيضاً قانونٌ بهنّ خاصّ، ثبّته الكرسي الرسولي تحت اسم "قوانين وفرائض رهبانيّة الراهبات اللبنانيّات المارونيّات"، الذي

38 التي أعلنها قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني طوباويّةً في ١٧/١١/١٩٨٥، ثمّ قدّيسة في ١٠/٥/٢٠٠١.

صدر في جعيتا سنة ٢٠٠٤، مع ملحق ينظّم كيفيّة انتقال الأملاك.

٤٠
تجديد قوانين الرهبانيّة

أوّلاً - تنفيذ القرار

١ . ابتدأت مهلة تنفيذ القرار في ١١/ ١٠/ ١٩٦٦، أي "قرار مجمعي في تجديد الحياة الرهبانيّة الملائمة لعصرنا" (**ت ح ر**)، الذي سُمّي أيضاً "المحبّة الكاملة"، الصادر في ٢٨ /١٠/ ١٩٦٥، بعد أن نال رضى آباء المجمع ٢٣٢١، وعارضه ٤؛ ثمّ وافق عليه البابا بولس السادس، وثبّته وأقرّه بسلطانه.

وطُلب من جميع الرهبانيّات في الكنيسة جمعاء أن " يُعقد في خلال سنتَين، أو على الكثير ثلاث سنوات، لهذا الغرض، مجمعٌ عامٌ عاديّ أو غير عادي ". وطُلبَ أيضاً أن يُختبر " على سبيل التجربة.. ويمكن تمديد هذه الاختبارات حتّى المجمع العام العادي المقبل.. ".

٢ . وابتدأت أعمال تجديد القوانين، في الرّهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، بتعيين أعضاء اللّجان بمرسوم من مجمع الرئاسة العامّة، مؤرّخ في (١٣ /٣ /١٩٦٧)؛ ثمّ أتبع بمرسوم دُعي "تعميم العنصرة " في (١٤ /٥/ ١٩٦٧)، للأب العام يوسف طربيه، و" يتضمّن

إيضاحات وتوجيهات إضافيّة بالطريقة الواجب اتّباعها في دراسة القوانين والرسوم الرهبانيّة، وفقاً للخطّ الرسولي الصادر في ٦/ ٨/ ١٩٦٦، والمتعلّق بتجديد الحياة الرهبانيّة تجديداً ملائماً "[39]..

و" يأمر الكرسي الرسولي، كما جاء في التعميم، جميع الرهبان، بدون استثناء، أن يشتركوا إشتراكاً فعليّاً في تجديد الحياة الرهبانيّة، بواسطة مجامع عامّة تُعقد لهذا الغرض، وتُدرس فيها الرسوم والقوانين، بغيةَ تنقيحها وتكييفها، وفقاً للحاجة والاختبار الإيجابي الخيّر، مع الحرص الشديد على روح المؤسّسين وأهدافهم الخاصّة، وعلى التقاليد السليمة وجميع ما يكوِّن تراث الرهبانيّة الثمين"[40]..

ويكمّل التعميم مستنتجاً بأنّه " قد أصبح تجديد الحياة الرهبانيّة، وفقاً للمقرّرات المجمعيّة، أمراً ضروريّاً للغاية لا مناص منه، وبالتالي شيئاً حتميّاً بالنسبة إلى المؤسّسات الرهبانيّة دون استثناء. فلا بدّ إذاً لرهباننا من أن يعوا هذا الأمر وعياً عميقاً للغاية، ويُعيروه من شديد الأهمّيّة ما تقتضيه خطورة الموضوع، إذ عليه وحدَه تتوقّف حياة الرهبانيّة حاضراً ومستقبلاً. وعلى حياة الرهبانيّة، كما لا يخفى، يتوقّف

---

39 راجع كتاب "تجديد قوانين ورسوم الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، تنسيق وإعداد أ. جوزف قزّي، سلسلة التراث الماروني، رهبانيّات، رقم ٣، مركز النشر والتوزيع، الكسليك، ص ١٧.

40 الخطّ الرسولي، جزء ١، أوّلاً عد ١، وثانياً، عد ١٢، آ. أنظر المراجع المذكور آنفاً، ص ١٨.

إنتعاش الكنيسة وازدهارها في لبنان، بنوع خاصّ، لما للرهبانيّة من نفوذ ديني واجتماعي في هذا الوطن"[41].

ووجّه الأب العام بطرس قزّي أيضاً رسائل عدّة إلى الرهبان ليقوموا بـ "متابعة هذا العمل الخطير، الذي نعتبره أهمّ عملٍ ومشروعٍ نقدر أن نخدم به أمَّنا الرهبانيّة والكنيسة المقدّسة "[42]؛ لهذا يتوجّب على الذي سيقوم بهذا التجديد أن يتحلّى بـ : " عمق في الروحانيّة، إطّلاع على تقليدنا الرهباني وعلى أوضاع الكنيسة والحياة الرهبانيّة، خاصّة بعد المجمع الفاتيكاني الأخير، تفهّم لأوضاع العالم المعاصر، مقدرة على الحوار، رصانة في الحكم، إتّزان في الرأي، مفهوميّة صافية للخير العام، بعض الجرأة في مجابهة بعض الأوضاع "[43].

وتشدّد عمليّة تجديد قوانين الرهبانيّة على إعطاء " الأولويّة، مهما كانت دواعي الرسالة، للحياة الديريّة. فالأديار منائر حيّة لهدي الشعب المسيحيّ... "[44].

ومن أجل عظم مسؤوليّة التجديد، طلب الأب العام المذكور من

41 المرجع السابق نفسه، ص ١٨.

42 رسالة عامّة إلى أبناء الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، في ٣/٦/١٩٦٩؛ رَ: "تجديد قوانين ورسوم الر.ل.م.، ص ٤٥.

43 المرجع السابق نفسه؛ رَ: "تجديد قوانين..."، ص ٥٣.

44 كتاب "تجديد قوانين ورسوم..."، ص ٦٩.

المندوبين المجمعيّين أن " يشعر كلّ واحد تجاه ضميره.. شعوراً حياتيّاً بأنّ التجديد الذي ننشد هو، بادئ ذي بدء، عمل روحيّ ينبع من داخل أبناء الرهبانيّة. وأنتم الذين تمثّلون الرهبانيّة في هذا العمل، عليكم، كي يثمر عملكم خيراً على الرهبانيّة والكنيسة، أن تتجدّدوا روحيّاً، وأن تقدموا على هذا العمل بحالة القداسة "[45].

وظلّ العمل في تجديد القوانين قائماً متواصلاً، طوال ستّ سنوات، إلى أنْ صوِّت عليه، ووقِّع يوم السبت الواقع فيه ١٦/٣/١٩٧٤، "على ضريح الطوباوي شربل".

ثانياً - مخاض عسير

أنّ الصعوبات كانت جمّة، والمخاضَ عسير. وقد وصف الأب العام بطرس قزّي في ختام المجمع، بدقّة مجريات الجلسات والدورات. فقال : " ستّ سنوات، ملأها البعض منّا صلوات ليُشرق الربُّ نورَه على الرهبانيّة وينير عقولَ أعضاء المجمع؛ وملأها البعض الآخر، إلى جانب الصلاة، عملاً مستمرّاً يبحثون فيه عن الماضي، ويتدارسون الحاضر، ويستقرئون المستقبل، عملاً تخلّله، تارةً الحوارُ البنّاء، وطوراً الجدلُ العقيم؛ عملاً كان يرى أحياناً الأبوابَ مفتوحةً أمامه على مصراعيها، وأحياناً أخرى كان يصطدم لا ببابٍ مُقفل، بل بحائطٍ من

45 رسالة عامّة إلى مندوبين المجمع، وجّهها إليهم الأب العام بطرس قزّي، في ١٧/ ٨/ ١٩٦٩، يضعهم فيها أمام مسؤوليّاتهم الرهبانيّة وحكم التاريخ؛ رَ: "تجديد قوانين.."، ص ٨٨.

فولاذ : جرأة وتحفّظ، هوس وقنوط، تطرّف وجمود، نرفزة ورباطة جأش، كفاءة وقلّة اطّلاع، عمل وتوانٍ، تشجيع ولامبالاة.
كلّ هذه العوامل كان ينساب عملُ الروح القدس بمعرفة منّا أو بغير معرفة. وكانت النصوص، الجلسة تلو الجلسة، والدورة بعد الدورة، ومن لجنة إلى أخرى، كانت النصوص تتمحّص وتتركّز وتتبلور، حتّى آلت إلى ما هي عليه في هذا النصّ الأخير الذي سيحظى بتوقيع كلّ واحد منكم "[46].

العام المذكور، في خطابه الختاميّ، الخطوط الكبرى التي اعتبرها جديدة. وهي أربعة :

١- المشروع في حدّ ذاته؛

٢- الفصل بين القوانين والرسوم؛

٣- النفحة اللاّهوتيّة والرهبانيّة؛

٤- وأخيراً التركيز على إحياء الحياة الديريّة"[47].

ثالثاً - ملاحظات حول قوانين ١٩٧٤

يقول الأب يوسف محفوظ: "نسمح لنفسنا بأن نسترعي انتباه المسؤولين إلى خطأين مهمّين نأمل إصلاحهما :

الخطأ الأوّل هو عدم ورود الأبواب الثمانية عشرة في مستهلّ

46 رَ : كتاب "تجديد قوانين..."، ص ٥٤٨.

47 المرجع السابق نفسه، ص ٥٤٩.

القوانين والرسوم، كما فعل الكرسي الرسولي سنة ١٧٣٢. قد يتبادر إلى ذهن البعض أنّ هذه الأبواب قد "أكل الدهر عليها وشرب"، لأنّها تتضمّن عبارات لم تَعُد تتلاءم وعصرنا وتفكيرنا وذهنيّتنا. ولكن، نسي هؤلاء أنّ الإنجيل المقدّس يتضمّن أيضاً عبارات يمكن أن نعتبرها غير ملائمة لعقليّتنا المعاصرة، مثلاً: "إذا شككتك عينك فاقلعها"؛ "مَن ضربك على خدّك الأيمن، فدُرْ له الأيسر"، إلخ...

فالمطلوب، كما نعلم، ليس التوقّف عند حرفيّة العبارات؛ بل أن نغوص إلى جوهرها لنفقه ما تحمل في طيّاتها من روحانيّة ومن قواعد حياتيّة. مَن يُطالب بحذف هذه العبارات "البالية" بنظره، إنّما هو إنسان ينظر نظرة سطحيّة للأمور دون التعمّق بجوهرها. والراهب الذي يهمّه جوهر السيرة الرهبانيّة، لا تستهويه سطحيّة "عصر السرعة" الذي نعيش، بل يعرف جيّداً أنّ روحانيّة رهبانيّته هي متجسّدة بالهبة اللّدُنيّة التي أنعم الله بها على المؤسّس، ويعرف جيّداً أنّ هذه الهبة تجسّدت بدورها بالقانون الأساسيّ للرهبانيّة.

فالأبواب الثمانية عشرة هي أقدس ما تحويه رهبانيّتنا اللبنانيّة من قوانين، فكيف يمكن أن نتخلّى عن هذا الكنز؟!! فكيف يمكن أن لا تتصدّر الأبواب الثمانية عشرة في قوانيننا الجديدة، والمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني يُلفت انتباهَنا بوضوح إلى " أنّ التجديد الملائم للحياة الرهبانيّة يتناول، من جهة، العودة المستمرّة إلى ينابيع كلّ حياة مسيحيّة، وإلى الإلهام الأوّل الذي انبثقت منه المؤسّسات الرهبانيّة..

فمن الواجب إذاً أن يُعرف روح المؤسّسين معرفة واضحة، وأن يُحافظ بأمانة عليه وعلى نيّاتهم الأصيلة"[48].

هذا، وقد تجسّدت تعاليم هذا المجمع في الحقّ القانوني الغربي الجديد، حيث نقرأ ما نصّه : " إنّ فكرة المؤسّسين وبرنامجهم الذي اعترفت به السلطة الكنسيّة المختصّة، والمتعلّق بطبيعة المؤسّسة وغايتها وروحها وميزتها، وكذلك التقاليد الصحيحة وكلّ ما يؤلّف تراث المؤسّسة، يجب المحافظة عليها بأمانة من قِبَل الجميع"[49]... أملُنا وطيد أن.. تتصدّر الأبواب الثمانية عشرة القوانين الجديدة قبل إثباتها، لأنّ "التنكّر للأصل" خطأ وخطر.

الخطأ الثاني هو فصْل كتاب القوانين عن كتاب الرسوم. هذا، بنظرنا، لا يتوافق والأدب الرهبانيّ التقليديّ؛ لأنّ كلا الكتابَين يؤلّفان معاً الطريق الواحد التي على الراهب أن يسلكها ليصل إلى السيّد المسيح. فلكلَيهما ذات الأهمّيّة، مع ضرورة التمييز بينهما. إنّ فصل الواحد عن الآخر يخفّف من الأهمّيّة الواجب إعطاؤها للرسوم. لذلك اعتمدت الرهبانيّات إصدار كتاب "القوانين والرسوم والفرائض" في مجلّد واحد. كما إنّ الإنسان هو كائن بشريّ بتكاوين جسمه كافّة، هكذا القوانين والرسوم الرهبانيّة تؤلّف الجسم القانوني الواحد للراهب، وتكوّن الطريق الواجب اتّباعها لعيش السيرة الرهبانيّة على أكمل وجه.

---

48 قرار مجمعي في تجديد الحياة الرهبانيّة وملائمتها، عدد ٢.

49 الحقّ القانوني الغربي الجديد، قانون ٥٧٨.

مَن يفصل القوانين عن الرسوم هو كمن يفصل الرأس عن باقي أعضاء الجسد"[50].

رابعاً - إختبارات لن تنتهي

٣ . ثمّ ابتدأت مراحل الاختبار، ومُدِّدتْ مراراً، بسببٍ وبغير سبب، والكرسي الرسولي يتمهّل، ويصبر صبراً جميلاً. فلا يَفرض علينا ما من حقِّه أن يفرض؛ ولا السلطات المتعاقبة على الرهبانيّة تهتمّ كثيراً في ما هو من واجبها أن تهتمّ به. والقوانين، حتّى الآن، لم تزل تحت الاختبار.

٤ . ولعدم الإنجاز أسباب. وليس فيها، في رأينا، سببٌ تخفيفيٌّ واحد. ومع هذا، ومنذ ١١/ ١٠/ ١٩٦٦ حتّى الآن، أي منذ ما يفوق سبعاً وثلاثين سنة، وهي مدّة عظيمة جدّاً في عالم السرعة والتطوّر والعلم، لم نعرف أحداً من سبعةِ عهود تعاقبت على الرهبانيّة يعرف أهمّيةَ أن يكون للرّهبانيّة قانونٌ ناجز.

٥ . عظيمة هي رحمة الكرسي الرسولي. وأعظم منها صبرُه. أمّا نحن فلم نبادلْه، من عندنا، بشيءٍ، لا بتقديرنا لرحمته وصبره، ولا بتدبيرٍ يشير إلى أنّنا نحبّ رهبانيّتنا.

خامساً - مَن المسؤول عن هذا العجز؟

---

50 أ. يوسف محفوظ،نبذة تاريخيّة عن القوانين والرسوم الرهبانيّة، مجلّة "أوراق رهبانيّة"، ١٩٨٧، عد ٣٢؛ ص ١٧-١٨.

٦ . نقول : في الرهبانيّات عادةً سلطتان: سلطة عاديّة وسلطة غير عاديّة: السلطة العاديّة هي سلطة الرئيس العام منفرداً، ومجمع الرئاسة العامّة، وسلطة رئيس الدير مننفرداً، والمجمع الديري. والسلطة غير العاديّة هي سلطة المجمع العام. وقد رأينا ما لهذا المجمع من مهامّ في تطوّر الرهبانيّة وتقدّمها.

٧ . فإذا كنّا نقول : السلطة هي للقانون، فهذا لا يعني أنّ القانون نصٌّ أبديٌّ لا يتغيّر ولا يتبدّل. بل هو نصٌّ يضعه المجتمع بحسب مقتضى ظروف الحياة وتطوّرها، ويلتزم بها طالما تكون الظروف مؤاتية. إنّ الحياة تتطوّر، والإنسان يترقّى، والعالم ينتفض على ذاته، والكون كلّه يتزعزع؛ فلا شيء، والحال هذه، ثابت مستقرّ؛ وكذلك القوانين التي تسود وتنظّم وترسم الحدود.

٨ . غير أنّ تغييرَ القوانين يعود حتماً، في الرّهبانيّات كما في مختلف المجتمعات البشريّة، إلى ما يُسمّى بـ "المجمع العام" الذي له وحده حقّ التشريع وسنّ القوانين وتغيير السلطات والمسؤوليّات بطريقة الانتخاب.

فالتشريع والانتخاب وتجديد القوانين هي صفات أساسيّة للمجمع العام. ومنها تنبثق صفاتٌ أخرى عديدة : فهو الذي يدرس، ويخطّط، ويوجّه، ويشترع، ويفرض، ويُلزم، ويحمّل الضمائر.. وهو الذي يُقيم سلطةً، ويسقط سلطةً، ويحكم، ويحاكم، ويلتزم بمتابعة أحوال الكنيسة والعالم.

سادساً - لئلاّ يحصل فراغ

٩ . لهذا، وبسبب ما للمجمع العام من أدوار ومهامّ، وبكونه مصدر كلّ سلطة، يتحتّم على الرهبانيّة، بعد انتخاب مجمع الرئاسة العامّة، أن تنتخبَ المجمع العام مباشرةً، لئلاّ يكون فراغٌ في السلطة؛ ذاك لأنّ مجمع الرئاسة العامّة هو إدارة تنفيذيّة، يحكم بما يكون المجمع العام قد درس وخطّط واشترع.

١٠ . من هنا تبطل كلُّ نظريّةٍ تقول بأنّ المجمع العام يُنتخب عندما تكون حاجةٌ إليه. وبعد انتفاء الحاجة يَنتفي مبرّر وجوده. هذا منطقٌ غير سليم، لأنّ المرجعيّة في الرهبانيّة هو لهذا المجمع. وإذا ما طرأ على الرهبانيّة طارئ، تكون الدعوة إلى انعقاده هي الحلّ الشرعيّ السريع.

١١ . والذين لا يسلّمون بهذا الواقع، يرون الحلّ في اللّجوء دائماً إلى خارج الرّهبانيّة، إلى البطريرك، أو الكرسي الرسولي. وهذا ما أوقع الرهبانيّة في شللٍ والتباسٍ وبطءٍ في معالجة قضاياها، وبالتالي في تبعيّةٍ وانعدامِ مسؤولّية.

١٢ . لهذا أيضاً، يتحتّم في تأليف المجمع العام أن تشترك الرهبانيّة كلّها في تأليفه؛ وأن تختار أعضاءَه من بين مَن تتوفّر فيهم شروطُ الوعي، والاستقامة، والكفاءة في التشريع، والقدرة على تحمّل

المسؤوليّة، والجرأة في معالجة المشاكل، واستطلاع المستقبل، ومحبّة الرهبانيّة، وأخصّها العمل على ازدياد القداسة فيها.

١٣ . فعلى كلّ راهبٍ، والحال هذه، أن يتحمّل مسؤوليّةً كبيرةً، ويشارك مشاركةً فعّالة، في انتخاب مَن يراه أهلاً لأن يكون عضواً في المجمع العام؛ ذاك لأنّ المجمع العام هو "السلطة العليا" في الرّهبانيّة، وهو الذي له الحقّ في أن يسنّ القوانين والفرائض، ويبدّل فيها ويحوّر، يُلغي منها ويزيد، يحدّد الأطر ويرسم الحدود، ويربّي الضمائر، وينير ظلمات كثيرة.

سابعاً - القانون والطاعة

١٤ . وأخيراً، نخطأ خطأً جسيماً إنْ قلنا بأنّ القانون وحدَه هو دستور الحياة الرّهبانيّة. لهذا، يتحتّم علينا القول بأنّ الحياةَ الرهبانيّة هي، أوّلاً وآخراً، حياة روحيّة، شخصيّة، عميقة، تتخطّى الأنظمة التي من شأنها أن تضبط الأطر الخارجيّة؛ كما تعلو على الممارسات السطحيّة، وتنفذ إلى عمل الروح.

١٥ . ففي جماعةٍ تكون "الطاعة" فيها قاعدةً أساسيّة لنجاح الحياة الروحيّة والرهبانيّة، لا يمكن أن تكون قوانين العالم كلّه قاعدةً صالحةً لحياة رهبانيّة ناجحة. فهناك، غير القوانين، الانصياع لإرادة الرئيس والسير بموجب التقاليد والعادات والأعراف والمراسيم

والقرارات والأنظمة اليوميّة. فهذه أيضاً تقدِّسُ الحياة الرهبانيّة، وتعمّقها وتروحنها وتطوّرها وتنجّحها وتقدّسها...

بهذا المعنى، ليس بالضرورة أن تُدار الرهبانيّة بقوانينَ صادرة عن مجلس تشريعي.. فمشيئة الرئيس، بالنسبة إلى الراهب، قانون؛ ورغبات الإخوة قانون؛ والنظام الديري قانون، وتوصيات الرئيس العام قانون؛ وما يرسمه الرّاهب لنفسه قانون...

خاتمة

١٦ . وفي الختام، لا بدّ من الإشارة إلى واقع الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة التي لم تلتزم بروحانيّةٍ واحدة لمؤسِّسٍ واحد؛ بل كان لها مؤسِّسون ثلاثة، ثمّ تبعهم رابع. وكلّهم طبعوها بما لهم من "كاريسما" خاصّة؛ كذلك نقول: لم يكن للرهبانيّة، منذ نشأتها، قانونٌ واحد ثابتٌ نهائيٌّ تسير بموجبه. هذا يعني أنّها كانت تجدِّد كتابَها بتجدُّد الحياة التي كانت تعيشها، والأديار التي كانت تفتتحها، والمجتمعات المدنيّة والكنسيّة التي كانت تلتزم قضاياها.

١٧ . مقدَّسات الحياة في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة تكمن في عيش البساطة والعفويّة والمجّانّية والتكيّف مع كلّ إنسانٍ ومجتمعٍ وبيئة. أجل، هي منظّمة واحدة، تعيش حياةً جماعيّة مشتركة، وبموجب قوانين وفرائض واضحة؛ ولكنّ المبادرات الشخصيّة ميزتها، وحياة

التوحّد والانفراد ذروتها، وحرّيّة أبناء الإنجيل دربها إلى القداسة والخلاص.

٤١

"روحانيّة القوانين الجديدة"[51]

لا يجوز أن نَظلِمَ في حكمنا ونقول بأنَّ في قوانيننا الجديدة روحانيّةً لم تكن موجودةً من قبل. كلّ قوانين رهبانيَّتنا، كما قوانين جميع الرهبانيّات، في العالَم، تدعو إلى عيشِ الحياة الروحيّة كركنٍ أساسي للحياة الرهبانيّة، وكوسيلة ضروريّة لقداسة كلّ راهبٍ وراهبة. لهذا ، فإنّ جميع القوانين الرهبانيّة تخصّص للحياة الروحيّة أبواباً، وتفرد لها موادَّ عدّة، واضحة للصلاة والتأمّل والتوبة والزهد والتقشّف وأنواع العبادات والممارسات التقويّة وأعمال البرِّ، وما إلى ذلك...

١ . **فالأبواب الإثنان والعشرون**، التي كانت سنة **١٦٩٧**، أي بعد سنتَين من نشأة الرهبانيّة، امتنع البطريرك إسطفانوس الدويهي عن تثبيتها، "بسبب ممانعة بعض الأساقفة واعتراضهم على بعض النصوص الواردة فيه، والتي هي بنظرهم واهية من جهة، وغير

51 محاضرة ألقيت في اللّقاء السابع (٢ /٧ /٢٠٠٥)، للراهبات اللبنانيّات المارونيّات، في دير مار سمعان، قرن أيطو. أُدرجتْ هنا، في هذا الكتاب، لأنّها تتناول أيضاً قوانين الرهبان اللبنانيّين بطريقة من الطرق.

مطابقة من جهة أخرى، لعادات البلاد"[52]، أخذها عبدالله قرا علي، واختصرها، وجعلها **خمسة عشر باباً** فقط.

ويبدو أنّ الأبوابَ التي امتنع البطريركُ عن تثبيتها تتضمّن تنظيماً جديداً للرهبانيّة الناشئة، أي : "أن تكون أديرة الرهبانيّة كلّها متعلّقة بعضها ببعض؛ وأن يكون الرهبان والأديار كافّة خاضعين لسلطة رهبانيّة موحّدة، ممثّلة بشخص الرئيس العام، يؤازره في وظيفته أربعة مدبّرين، يُنتخَبون كلّهم لمدّة ثلاث سنوات؛ وأن يكون لكلّ دير رئيسُه؛ وأن يكون للمبتدئين فترة تجربة"[53]. ألغيت هذه الأبواب.. إلاّ أنّ أحكامها بقيت "متّبعة، وقد أضيف إليها الفرائض التي كانت تقرّرها المجامع العامّة على التوالي"[54].

٢ . هذه **الأبواب الخمسة عشر**، ثبّتها البطريرك الدويهي، في ١٨ /٦ /١٧٠٠؛ وبعد مدّة، أضيف إليها ثلاثة أبواب (في التواضع، والصبر، والمحبّة الأخويّة)، فأصبحت **ثمانية عشر باباً**، ثبّتها البطريرك يعقوب عوّاد، في **٢٣ /١١ /١٧٢٥**.

عناوين هذه الأبواب الثمانية عشر، التي استفاض المؤسِّسُ عبد

---

52 أ. يوسف محفوظ، نبذة تاريخيّة عن القوانين والرسوم الرهبانيّة، في مجلّة "أوراق رهبانيّة"، عدد ٣٢، سنة ١٩٨٧، ص ١٢.

53 المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

54 المرجع السابق نفسه.

الله قراعلي في شرحها في كتاب **المصباح الرهباني**[55]، تكفي للدلالة على ما قامتْ عليه رهبانيّتنا منذ تأسيسها من حياة روحيّة وإنسانيّة رفيعة:

فالأبواب الستّة الأولى (١-٦) : في الطاعة، والعفّة، والفقر، والتواضع، والمحبّة الأخويّة، والصبر، هي أبواب في النذور الرهبانيّة وفي الفضائل المسيحيّة الأساسيّة؛ وكذلك الأبواب الستّة التالية (١١-١٦) : في العمل اليدوي، والصمت، والصلاة العقليّة، والصلاة اللّفظيّة، والاعتراف، وتناول الأسرار المقدّسة، هي أبواب في أخصّ وأقدس وأهمّ الفضائل المسيحيّة والممارسات التقويّة؛ وأخيراً الأبواب السبعة الأخيرة (٧-١١ و ١٧-١٨) : في كسوة الرهبان، وسكنى القلالي، والسفر، والمائدة، والآداب، والمرض، وهي تتناول الآداب الرهبانيّة والسلوك الذي ينتهجه الراهب في حياته الاجتماعيّة.

٣ . هذه الأبواب الثمانية عشر، وحدَها، كانتْ، في البداية، دستورَ الرهبانيّة وقانونَها وفرائضَها. ووحدَها حملَها الرئيس العام الأب مخايل اسكندر الإهدني، إلى المجمع الشرقي، في أواخر تشرين الثاني سنة ١٧٢٧، ليستمدَّ تثبيتَها، وينالَ بها العصمةَ الحبريّة للرهبانيّة.

ولكنّ المنسنيور يوسف السمعاني، الخبير بالشؤون الرومانيّة،

---

55 الذي ما زلنا ننتظر تحديثَه وشرحَه وإعادةَ طبعِه ونشرِه، ليكون في متناول كلِّ راهبٍ وراهبة؛ إذ هو، في الواقع، مع مذكّرات قراعلي، من تراث الرهبانيّة الذي نفتخر به.

والذي كان يهمّه نجاحُ الرهبانيّة الناشئة، طلب من الرئيس العام أن يزيد على هذه الأبواب ما يفيد تنظيمَ الرهبانيّة وكيفيّة إدارتها، أسوةً بسائر الرهبانيّات الغربيّة، فكان **القانون الأسود**، الذي ثَبَّتَه البابا إكليمنضوس الثاني عشر، ببراءة رسوليّة، بتاريخ **٣١ /٣ /١٧٣٢**، والذي استمرّ حكمُ هذا القانون حتّى سنة ١٩٣٨.

٤ . ولكنْ، لا الأبواب الثمانية عشر، بالرّغم من روحانيّتها وخلوِّها من التنظيم والإدارة، استطاعتْ أن تمنع الرهبانيّةَ الناشئةَ عن انقسامها بين المؤسِّسين أنفسهم، إلى قسمين؛ ولا القانون الأسود، بالرّغم من دقّة التنظيم فيه وحسن الإدارة، استطاع، هو أيضاً، أن يمنع الرهبانيّة عن قِسمتها إلى حلبيّة ولبنانيّة.

٥ . ومع هذا، في الوَحدة كما في القِسمة، كانت الرهبانيّة تنمو وتزدهر، تزيد رهباناً وأدياراً وممتلكات. فلا روحانيّة القوانين، وحدَها، زادتْهم قداسة؛ ولا الدقّة في التنظيم وحسن الإدارة، زادا في نموّ الرهبانيّة وتطوّرِها. الروحُ هو الذي كان يعمل؛ وبه كان رهبانُنا يتقدّسون.

لم تكن روحانيّة الأبواب الثمانية عشر لتمنع الانقسامَ بين المؤسِّسين بحجّة أنّها ناقصة في التنظيم والإدارة؛ ولا القانون الأسود، بالرّغم من دقّته وتفصيله وحسن تنظيمه، استطاع، بعد أربعين سنة تقريباً، أن يمنع الرهبانيّة عن القسمة الكبيرة إلى فئتَين، حلبيّة ولبنانيّة...

٦ . هذا يعني : أنّ الحياةَ الرهبانيّة الحقيقيّة لا تقوم على القوانين. فالمسيحيّة أيضاً لم تقم على الناموس، والإنجيل أيضاً لا يتكلّم على تشريعٍ بين البشر. هكذا كانت الرهبانيّة في نشأتها : كانتْ تقوم على عملِ الروح فيها، كما على عشق الحرّيّة التي يتميّز بها رهبانُنا. وقد عاشوها في العمق، ومنذ البدء، فاتّجه كلٌّ واحدٍ منهم اتّجاهاً خاصًّا به، إلى حيث دفعه الروح.

٧ . إلاّ أنّ ردّة الفعل على هذه الحقيقة الساطعة كانت قويّة، وذلك عندما أصدر الكرسي الرسولي، بعد **٢٠٦ سنوات**، أي **سنة ١٩٣٨، رسوم الرهبانيّات المارونيّات الثلاث**. "فأصبح لهذه الرهبانيّات إذن رسومٌ دون قوانين"[56].

٨ . وتجدّد ذلك أيضاً سنة**١٩٦٠**، في **رسوم الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة**، المطابقة تماماً للحقّ القانوني الشرقي، الصادر سنة ١٩٥٢[57]. وهذه أيضاً كانت خالية من القوانين، وممّا تقوم عليه الحياة الروحيّة في الرهبانيّة.

٩ . لهذا، تميّزتْ **قوانين ١٩٧٤**، لا بدقّة تنظيمها، وحسن صياغتها، فحسب؛ بل بمساحة كبيرة للحرّيّة، وبإبراز الوجه الروحي للرهبانيّة؛ وذلك من خلال العودة إلى روح المؤسّسين، كما في الفصل بين كتابَي القوانين والرسوم. بالرّغم من أنّ الفصل غيرُ جائز وغيرُ

---

56 ي. محفوظ، المرجع السابق نفسه، ص ١٥-١٦.

57 وهو الإرادة الرسوليّة بعنوان: Postquam Apostolicis Litteris ، "بعد أن تدبّرنا"، التي أصدرها البابا بيّوس الثاني عشر في ٩ /٢/ ١٩٥٢.

مرغوبٍ فيه : لقد رغب المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني إلى المؤسّسات الرهبانيّة أن تضمّ قوانينُها "العنصرين، الروحي والقانوني.. ويجب الحذر من تأليف نصٍّ يكون إمّا قانونيًّا بحتاً، أو تحريضيًّا صرفاً"[58].

لقد وقع رهبانُنا في قوانين ١٩٧٤ في هذا الحذَر، وفصلوا القوانين والرسوم إلى كتابَين مستقلّين. فخالفوا نيّةَ المجمع؛ كما لم يسمعوا إلى إرشادات الخبراء الذين نبّهوا "إلى خطأين مهمَّين: الخطأ الأوّل هو عدم ورود الأبواب الثمانية عشر في مستهلّ القوانين والرسوم... والخطأ الثاني هو فصل كتاب القوانين عن كتاب الرسوم. هذا، بنظرنا، لا يتوافق والأدب الرهباني التقليدي، لأنّ كلا الكتابَين يؤلِّفان معاً الطريق الواحد التي على الراهب أن يسلكها.. فلِكلَيهما ذات الأهمّيّة، مع ضرورة التمييز بينهما"[59].

١٠ . وحاول القانونيّون، في **قوانين الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة وفرائضها، سنة ١٩٩٧**، رأب الصدع، فأعادوا جمع الكتابَين، كتاب القوانين وكتاب الرسوم، في كتاب واحد. وبقي التمييزُ واقعاً حتّى في الكتاب الواحد، إذ كان ترقيم الرسوم مستقلاًّ عن ترقيم القوانين؛ كما كان حرْف الطباعة للرسوم مائلاً italique . غير أنَّ خطأً جسيماً آخر وقع فيه هؤلاء القانونيّون، وهو ترداد الفرائض المملّ للقوانين.

58 المرجع السابق نفسه، رقم ١٣.

59 أ. ي محفوظ،المرجع السابق نفسه، ص ١٨.

١١ . ولكنّ مضمون قوانيننا الجديدة، تحت إسم **قوانين وفرائض رهبانيّة الراهبات اللّبنانيّات المارونيّات، سنة ٢٠٠٤**، جاء آيةً في الروحانيّة وفي التجديدالملائم للحياة الرهبانيّة، ممّا يناسب روحَ المؤسِّسين، وتراثِ الرَّهبانيّة، ورغباتِ المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، ومُعطَياتِ القانون العام في ما يختصُّ بالرُّهبان والحياةِ المكرَّسة في الكنيسة، ومستلزمات ِ تطوّر ِ العصر، وطُمُوحات ِ الرَّهبانيَّة وتطلُّعاتِها في العيش الرُّهبانيّ السليم، خدمةً لشعبنا، وشهادةً للرَّبِ، وأمانة لتعاليم الكنيسة ورسالتها في العالم.

***

لهذا كانت قوانيننا الجديدة، منطقيّةَ التبويب، متسلسلة الأفكار، مختصَرةً من دون خلل، مسترسَلةً من دون ملل، سهلةَ اللّغة، بعيدةً كلَّ البعد عن أسلوب التهديد والوعيد.

تبدأ بـ**مقدّمة** صغيرة في التعريف بالرهبانيّة التي أُعطيتْ لها هذه القوانين؛

لتدخلَ في **الباب الأوّل**: "في ماهيّة الحياة الرهبانيّة ومقوّماتها"، حيث أربعة فصول، تفصّل، في أجمل ما كُتب عن: حياتنا الروحيّة وحياتنا المشتركة، كركنَين أساسيَّين لعيش الحياة الرهبانيّة الحقّ، وعن النذور الثلاثة، والحياة في الدير، والعمل، والنسك (الذي لنا على وجوب وجوده تساؤل كبير).

ثمّ تتناول في **الباب الثاني**: "التنشئة الرهبانيّة"، لتنتقل إلى **الباب**

الثالث، "في المسؤوليّة والإدارة في الرهبانيّة"، ثمّ إلى **الباب الرابع**، "في أملاك الرهبانيّة وإدارتها"، ثمّ إلى **الباب الخامس**: "في الإصلاح الأخوي والخروج من الرهبانيّة"، ثمّ إلى **الباب السادس**: "في علاقة رهبانيّتنا بالحبر الأعظم، والبطريرك والأساقفة والرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة"، وأخيراً إلى **الباب السابع** الذي اعتبر كملحق يتكلّم على "عمليّة انتخاب مجلس الرئاسة العامّة".

تقسيم هذه الأبواب، ووجودها حيث هي، يبدوان أكثر ملائمة للمنطق من تقسيم ما سبق من قوانين، وحتّى من تقسيم قانون الرهبان الذي حشر، مثلاً، "ارتباط الرهبانيّة بالسلطة الكنيسة"، و"قرار إنشاء دير أو إلغائه" في باب الحياة المكرّسة. وهذا ما يدعو إلى الاستغراب. وحشر الكلام على "العلاقة مع الرهبانيّات والعلاقة مع راهبات الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة" في فصل "السيرة الرهبانيّة". وهذا أيضاً ما يدعو إلى الاستغراب. وحشر فصلَ "الانتخابات" في "باب المسؤوليّة والإدارة"، وهو فصل طويل يقع في ١٤ مادّة، في ٤٥ بنداً، مع تفانيد عديدة في كثيرٍ من البنود. وهذا غريب أيضاً.

١٢ . نقول: إذا كانت "الجماعةُ الرهبانيّةُ عائلةً قائمةً على صورة الثالوث"، كما في (ق٢٩)، فهذا يعني أنّ العيلةَ الرهبانيّة، كما العيلة الثالوثيّة، كما عيال البشر جميعِها، لا تقوم على قوانينَ ودساتيرَ ونظمٍ وفرائضَ، بمقدار ما تقوم على المحبّة والشراكة والإلفة والأخوّة والتسامح ... وهذه صفاتٌ لا يحكمها قانون. لهذا، أعطتْ قوانيننا الجديدة، أهمّيّة الصدارة للحياة العائليّة، أي الحياة الديريّة المشتركة.

وخلافاً للعادة المألوفة، تبتدئ بالكلام على ماهيّة الحياة الرهبانيّة ومقوِّماتها الروحيّة، قبل البدء بالنذور، والتنظيم والإدارة، وتوزيع المسؤوليّات، وكيفيّة التنشئة، والعمليّات الانتخابيّة، وغير ذلك...

١٣ . لهذا، كانت البداية في الكلام على الحياة الديريّة المشتركة، كمنطلَقٍ لقوانينا، وأساسٍ لكلِّ حياةٍ رهبانيّة حقيقيّة. ويتبع ذلك حتماً الكلامُ على الممارسات التقويّة، التي بها تتقدّس الراهبة، وتكون الراهبةُ راهبةً، وتقدِّس نفسَها، وتساهم في خلاص أخواتها؛ ثمّ بعد ذلك، يأتي الكلام على النذور والتعريف بها؛ ثمّ الكلام على الصفاتِ الأولى والأساسيّة لكلِّ صاحبِ سلطةٍ ومسؤوليّةٍ في الرهبانيّة؛ ثمّ الكلام على ما تقوم به التنشئةُ الرهبانيّة السليمة، وغير ذلك...

بهذه الموضوعات ابتدأت قوانينُنا الجديدة؛ وفي ظنِّنا أنّها تؤهِّلُ الراهبةَ اللبنانيّةَ المارونيّةَ إلى أقوم طريقٍ لتمجيد الله، وتقديس النفس، وخلاص البشر.

أوّلاً - الحياة الديريّة المشتركة

كثيرة جدًّا القوانين التي تتكلّم على الحياة الديريّة المشتركة؛ حتّى ولكأنّ الحياةَ الرهبانيّة من دونها لا تكون. كلّ شيء، في رأي القوانين الجديدة، يُبنَى على الحياة الديريّة المشتركة، وينطلق منها، وينمو بنموّها.

١ . والحياة المشتركة تقوم، بدورها، على وصية الربّ الأولى والأخيرة، أي : **المحبّة**: فالله في ذاته محبّة، والعلاقة بينه وبين الإنسان

محبّة، كما العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان علاقة محبّة. وكذلك الحياة الرهبانيّة، إنّها في جوهرها ومسيرتها حياة محبّة. وإنْ لم تكن كذلك، فهي لا شيء.

٢ . وكذلك تقوم الحياة المشتركة على مفهوم **الجماعة،** أي إنّ الإنسان كائن إجتماعيّ. والناحية الاجتماعيّة فيه هي هويّته الحقيقيّة؛ لأنّ الإنسان، من دون انتمائه إلى جماعة، ناقص. وكذلك المسيحيّ من دون انتمائه إلى الكنيسة -والكنيسة تعني الجماعة- فهو مسيحيّ ناقص؛ وكذلك أيضاً الراهب والراهبة من دون حياة جماعيّة ديريّة هما لا شيء؛ إذ إنّ الراهبةَ، في ديرها، مع أخواتها، تغتني بغناهنّ، ويزداد إيمانُها بإيمانِهنّ، وتصعد إلى الله على أكتافهنّ. راهبةٌ منفردة، معزولة إنسانٌ تعيس وفقير (رَ: **ق ١١**)

٣ . هكذا، فإنّ الحياة الرهبانيّة الحقيقيّة، وذروةَ الحياة الروحيّة، وعيشَ النذور عيشاً حقيقيًّا، والسعيَ الدائم نحو الكمال، لا يكون إلاّ في حياة ديريّة عائليّة جماعيّة مشتركة. هذا هو المدخل الرئيسي للتمرّس بمحبّة الله والإنسان، وبعيش الفضائل المسيحيّة، كما جاء في (**ق ١٣**) : "تتحقّق حياتُنا الرهبانيّة بعيش النذور الرهبانيّة: في حياة ديريّة مشتركة، وفي التمرّس بمحبّة الله والإنسان، والقيام بما يحقّق وحدتَنا مع الربّ من صلاة وأعمال توبة واتّحاد به في سرّ الإفخارستيّا، وعيش الفضائل المسيحيّة والرهبانيّة، وبسعيٍ دائمٍ نحو الكمال".

٤ . وجاء أيضاً في أهمّيّة الحياة المشتركة، في الحياة الرهبانيّة، بأنّها تجسيد حيّ لاشتراكنا في حياة الثالوث. قال : "حياتنا المشتركة هي حياة محبّة حقيقيّة وأخوّة صريحة. وتجسيد حيّ لاشتراكنا في حياة الثالوث الأقدس. إنّ محبّة الأخَوَاتِ من محبّة الله، "بهذا يعرف الناسُ جميعاً أنّكم تلاميذي" (يو ١٣ /٣٥)" **(ق ٢٩)**.

٥ . ثمّ إنّ في الحياة المشتركة مساندةً كبيرة للراهبة في تخفيف أخطار الفرديّة والعزلة، وفي نمو شخصيّتها، ونموّ الجماعة ذاتها بنموِّها، كما جاء في **(ق ٣٠)** : "تؤتي حياتُنا الديريّة المشتركة الراهبةَ مساندةً نفسيّةً وروحيّةً، وتخفّف من أخطار العزلة، وتساعد على الترقّي في الحياة، وعلى القيام بالمهامّ الديريّة الملقاة على عاتق الأفراد والجماعة، فينشأ عنها كيانٌ أخويٌّ متماسكٌ، تنمو فيه شخصيّة الفرد داخل الجماعة، وتترقّى الجماعة بفضل نموِّ أفرادها".

٦ . تتغذّى الحياةُ الرهبانيّة بهذه الحياة المشتركة، "بلقاءاتٍ متواترة، هي مناسبات ممتازة في حياة الجماعة. لهذا يتحتّم على الرّاهبات أن يسعين إليها.. إذ هي فرصة سانحة لتبادل الآراء والخبرات، والسعي إلى الإصلاح، والتدرّج في الوحدة والمحبّة الأخويّة" (رَ : **ق ٣١**).

٧ . فمن مسؤوليّات كلّ راهبة، كما جاء في **(ق ٣٢)**، أن تعمل على "إنماء الحياة المشتركة، لتسود فيما بينهنّ محبّةٌ حقيقيّة، ومعرفةٌ متبادلة، وأخوّةٌ صادقة، وفطنةٌ بالغة في الأقوال والأعمال. وتسعى إلى

قطع كلِّ سببٍ يؤدّي إلى التفرقة والخلاف والشقاق بينهنّ. وتتحاشى كلّ ما يُسيء إلى روح المساواة والعدالة، من حيث القوت والكسوة والمسكن والمصروف، حتّى تحيا الأخوات كلّهنّ بنفسٍ واحدةٍ وقلبٍ واحد".

٨ . فالمطلوب، إذاً، من كلّ راهبة، إستناداً إلى أهمّيّة الحياة المشتركة، "أن تحترم أختها احتراماً كاملاً، وتبادلها النّصح الأخوي، وتقاسمها الأفراحَ والأحزان" **(ق ٣٣)**، وتصفح، وتغفر لها، إذ "يشكّل الصفحُ والغفرانُ أساساً للحياة المشتركة. وهما الوسيلة المثلى لاستمراريّة اللّقاء والمحبّة بين الأخوات، والدّعامة الأقوى لوحدة الجماعة الرّهبانيّة، ذاكرات جواب الربّ لبطرس: "لا أقولُ لكَ: سبعَ مرّاتٍ، بل سبعينَ مرّة سبع مرّات" (متى ١٨ /٢٢)" **(ق ٣٤)**.

٩ . هذه الأفكار في الحياة الديريّة المشتركة هي في قمّة روحانيّة الإنجيل والحياة المسيحيّة. إنّها حقًّا من أولويّات الحياة الرهبانيّة، والحياة الروحيّة في الرهبانيّة. وإذا ما كان لحياة الاستحباس من معنى فلأنّ الاستحباس هو ذروة الاتّحاد بالله، أي إنّ الحياة المشتركة، بدل أن تكون حياةً مع الجماعة، أصبحت حياةً مع الله نفسِه. فالله هو البديل. وقد لا يكون بوسع عامّة الرّاهبات التوصّل إلى هذه المبادلة. ومع هذا، يبقى الاستحباس المطلوب، بحسب قانون الحبساء، ألاّ يكون أقلّ من راهبَين، ولا أكثر من ثلاثة، لتكون بذلك حياة رهبانيّة وإنسانيّة غنيّة.

ثانياً - الممارسات التقويّة

الدعامة الثانية الأساسيّة للحياة الروحيّة في الرهبانيّة، والتي أفردتْ لها القوانين الجديدة، مساحةً واسعة، هي في الممارسات التقويّة. والكلام على هذه الممارسات جاء أيضاً قبل الكلام على النذور، وعلى تنظيم الرهبانيّة وكيفيّة إدارتها، كما كان الحال في القوانين السابقة. هذه الممارسات هي :

١ . **التأمّل** في الأمور الإلهيّة، والاتّحادُ بالله عن طريق الصلاة الدائمة. وهما القاعدة الأولى والرّئيسيّة الذي على كلّ راهبةٍ أن تتمّه كلَّ يوم (**ق ١٤**).

٢ . **الصلاة**، وذلك بغيةَ الاتّحاد الدائم بالله، بفعل الرّوح القدس، وبمشاركتنا للكنيسة المصلّية من أجل قداسة البشر وخلاصهم (**ق ١٦**)، و"على مثال يسوع، الذي كان ينصرف بكلّيته إلى الصلاة لأبيه، تجتهد الرّاهبة أن تتّصل بالله، وتنال منه القوّة للسّير نحو هدف الحياة الرّهبانيّة" (**ق ١٥**).

٣ . "أامثابرةُ على **الزهد والتقشّف**، والمواظبة على **حياة التوبة**، وعلى القيام بأعمال الخدمة المتفانية، والمحبّة المجّانيّة المتبادلة بين الأخوات بعضهنّ مع بعض" (**ق ١٧**). وهذه ركن آخر للحياة الروحيّة في القوانين الجديدة.

٤ . وذروة أعمالنا الروحيّة، **الإحتفالُ بسرّ الإفخارستيّا**، في ذبيحة القدّاس. "تُحييه الجماعة الرّهبانيّة في الدير كلَّ يوم، بقلبٍ واحدٍ

حول المذبح الواحد، مقيمةً ذبيحة المحبّة الواحدة، ومقرِّبةً ذاتَها والعالَمَ ذبيحةً لله" (**ق ١٨**).

٥ . وثمّة اهتمام آخر يقوم على الاحتفال اليومي بـ **"الصلاة المشتركة"**، أي "الفرض الإلهي"، وذلك بحسب دوراته الطقسيّة تتبُّعاً "لسرّ المسيح الذي بلغ ذروتَه بالموت على الصليب والقيامة الممجَّدة" (**ق ١٩**).

٦ . وكذلك الاحتفال **بنهار الأحد**، الذي هو يوم الرّب، حيث "تتذكّر الراهبة قيامةَ الربّ وسرَّ خلاصه لنا. و تعيش بفرح انتظار مجيئه الثاني" (**ق٢٠**).

٧ . أمّا تكريم **العذراء مريم** فيحتلّ مكاناً واسعاً في حياتنا الروحيّة، وفي إشارة قوانيننا إليه. وكذلك أيضاً تكريم **قدّيسي الكنيسة**، وبنوع خاصّ قدّيسي الرّهبانيّة، إذ هم دليلنا إلى الله، ومثالنا في التزام القيم الرّهبانيّة السامية (**ق ٢١**).

٨ . وأيضاً "تتغذّى حياتنا الرّوحيّة اليوميّة، بحسب قوانينا الجديدة، من **الكتاب المقدّس**، كلمة الله، التي تكشف لنا عن قصد الله فينا وفي العالم. فنحرص على مطالعته باستمرار، وعلى التأمّل الدائم في مضمونه، وعلى التماس معانيه الحقيقيّة من خلال تفاسير آباء الكنيسة واللاّهوتيّين" (**ق ٢٣**).

٩ . ومن القيم الروحيّة في قوانيننا الجديدة حفاظنا على أجواء **السكينة والصمت والاختلاء**. فهذه أيضاً عناصرُ أساسيّة لحياتنا

الروحيّة في الرهبانيّة. إنّها قيمٌ تساعد الراهبةَ على تعزيز حياتها المستترة مع المسيح في الله، وعلى المحبّة بين الأخوات (**ق ٢٤**).

١٠ . ثمّ أيضاً، لا حياة روحيّة أو رهبانيّة من دون **حياة توبة دائمة**، إذ "على الراهبة أن تُدرك أنّ سرَّ التوبة هو شهادة لرحمة الله لنا، ووسيلة فعّالة لتنقية الضمير وتقديس النفس. وعليها، والحال هذه، أن تمارس ما يقتضيه سرّ التوبة من ندَمٍ واعترافٍ وتكفيرٍ ومصالحة وتسامح وغفران ومحبّة" (**ق ٢٥**).

١١ . وكذلك من مستلزمات نموِّنا الروحيّ في الرّهبانيّة **الإسترشاد وكشف الضمير** عند مرشدٍ روحيّ يتمتّع بسيرة فاضلة وبأهليّة قانونيّة خاصّة(**ق ٢٦**).

١٢ . ثمّ على الراهبة أن تلتزم بـ**رياضات روحيّة** سنويّة، أو شهريّة، أو في كلّ مناسبة (**ق ٢٧**).

١٣ . وأخيراً تحتفظ راهباتنا ببعض الممارسات التقويّة، الجماعيّة والفرديّة المتوارثة، مثل تلاوة المسبحة، ومزمور التوبة (٥١) يومَي الأربعاء والجمعة مساءً، وزيّاحات الأعياد والأزمنة الطقسيّة، وزيّاحات القربان والعذراء وقدّيسيّ الرّهبانيّة، وقراءة السنكسار.." (**ق ٢٨**).

هذه الممارسات التقويّة، وغيرها ممّا ورد في (**ق٢٦ و ٢٧ و ٢٨**)التي تقوم عليها الحياة الرهبانيّة، تذكرها قوانينُنا الجديدة قبل ذكرِها للنذور؛ ذاك لأنّ هذه الممارسات هي التي تميّز الحياةَ الرهبانيّة،

وتصبغها بصبغةٍ سماويّة. بها تتقدَّس الراهبةُ، وتعمل على تمجيد الله تمجيداً متّصلاً، وتساهم في خلاص العالم.

ثالثاً - نذورنا الرهبانيّة

١ . لا تحديدَ واضح للنذور الرهبانيّة في القوانين السابقة؛ بينما، في قوانيننا الجديدة، يُحدَّد النذر بأنّه "فعلُ عطاء كامل، وشرعةٌ لاتّباع الربّ في حياةٍ رهبانيّةٍ معيّنة" **(ق ٣٧)**. كذلك لا نجد أيَّ تحديدٍ لأيٍّ نذرٍ من النذور الرهبانيّة في القوانين السابقة. أمّا في قوانيننا الجديدة فثمّة بلاغة لاهوتيّة وروحيّة في معنى كلّ نذرٍ من النذور الثلاثة :

٢ . فـ**الطاعة،** في القوانين السابقة، ليستْ سوى نصيحة للراهب في كيف يتصرّف مع رئيسه؛ فيما هي، في **(ق ٣٨)** من القوانين الجديدة، "اقتداءٌ بطاعة المسيح، الذي أتمّ في كلِّ شيءٍ مشيئة أبيه؛ فأطاع حتّى الموت من أجل خلاصِ العالم، وتحريرِه من أسْرِ الخطيئة، وردِّه إلى بيتِ الآب"**.** وفي **(ق ٣٩)** : "على مثال المسيح، نعمل، في نذر الطاعة، على تحقيق مشيئة الآب، مكرِّساتٍ بذلك كاملَ إرادتنا بانسجام واتّحادٍ تامَّين مع الإرادة الخلاصيّة، مقرِّباتٍ أنفسنا ذبيحةً حيّةً مقدّسةً مرضيّةً عند الله". وكذلك أيضاً في **(ق٤٠)** : "على الرّاهبة أن تتبيّنَ، بإخلاصٍ وصفاءِ نيّة، مشيئةَ الله من خلال إرادة رئيستها. ولا تكون طاعتُها إنجيليّةً حقّة إلاّ إذا رافقتْها محبّةٌ متبادَلة بينهما".

وفي (**ق ٤١**)، الذي يجب أن يُنقل إلى باب الرئيسة، يقول : "على الرئيسةِ، بدورها، أن ترى المسيحَ في أخواتها، معتبرةً نفسَها خادمةً لهنّ بالمحبّة، مبتعدةً عن التفرّد بالرّأي، من دون أن تتخلّى، مع هذا، عن حقّها في التقرير وإصدار الأوامر في ما يجب عمله، فتعاملهنّ بالاحترام اللاّئق بالشخص الإنساني، باعثةً فيهنّ روحَ الخضوع الطّوعي، حاثّةً إيّاهنّ، بالتفاهم والمحبّة، على التعاون معها بطاعة إيجابيّة مسؤولة".

٣ . وكذلك **نذر العفّة** ليس هو، في القوانين القديمة، أكثر من قمع الحواس واعتزال النساء، وحفظ التبتّل، ومنع النفس عن كلّ فعل داخلي أو خارجي؛ فيما هي، في (**ق ٤٧**) من القوانين الجديدة : "عطيّةٌ إلهيّة سميا، فوقَ مقاييس البشر؛ لا يُدرِك سموَّها إلاّ المؤمنون. وقد كانتْ على الدوام موضوعَ اعتبارٍ خاصٍّ في نظرِ الكنيسة والحياة الرهبانيّة".. وفيها أيضاً : "يولي نذرُ العفّةِ الرّاهبةَ حرّيّةً فريدةً: به تتفرّغ للعمل في سبيل ملكوت الله، موجِّهةً كلَّ قوى المحبّةِ فيها إلى الله والقريب" (**ق ٤٨**).

وكذلك أيضاً، فإنّ "العفّة هبةٌ لنا في إناءٍ من خَزَف، حتّى يكونَ فضلُ القوّةِ لله لا لنا. لذا، لا نتّكل على قوّتِنا، بل على نعمةِ الله التي بها نرقى إلى الاتّحادِ به، بعيشِنا حياةَ صلاةٍ دائمة، ومواظبتِنا على تناولِ جسد الربِّ ودمه، وممارسةِ أعمال التوبة والإماتة، محافظاتٍ على النظام اليومي، والأعمال الواجبة، قاطعاتٍ بذلك كلَّ سببٍ يؤذي الطهارة" (**ق ٤٩**).

وتؤكّد القوانين أيضاً على المناخ العائلي كوسيلة لحفظ العفّة، تقول: "يؤمّن المناخُ العائلي في الحياة الديريّة المشتركة جَوًّا ملائماً للعفّة. وتكون العفّةُ أسهلَ متى سادتِ المحبّةُ الصادقةُ بين الأخوات. فعلى الجميع في الدير، لا سيّما الرئيسات، أن يسهمنَ في خلق هذا الجوِّ الذي يوحي بالتفاهم والفرح والسلام والثقة المتبادَلة. وكلّ اعتزال عن الحياة الجماعيّة يعرّض العفّة للخطر؛ كما كلّ بذخ وثراء يسهم في النيل منها" **(ق ٥١)**.

٣ . وكذلك **نذر الفقر** فهو يقوم، كما في القوانين القديمة، على أن يتخلّى الراهب عن حقّ التصرّف بكل خير زمني، وعن حقّ التملّك؛ أمّا في القوانين الجديدة، فـ "الفقر قيمة من قيم الحياة المسيحيّة"، وهو "يرتكز على الدعوة الإنجيليّة إلى تحرير الروح من أغلال المادّة" **(ق ٥٤)**؛ و"ليس فقرُنا احتقاراً للعالم ولخيورٍ خلقها الله وباركَها؛ بل انتصاراً على ميلٍ طبيعيّ ينزع إلى الاستئثار بها وتكديسها، واعترافاً لله وحدَه بحقِّ امتلاكها. وما نحن إلاّ مؤتمنات عليها. وإنّ هذا لَيولينا السيطرةَ عليها، فنعيشُ إزاءَها أحراراً" **(ق ٥٥)**.

و"علامة الفقر عند الرّاهبة هي الشهادة على حياةٍ طابعها المميّز الزهد والتجرّد والتضحية والاكتفاء بما هو ضروريٌّ لعيشٍ كريم، والخضوع الطَوعيّ لناموس العمل العام. هذا الناموس يفرض علينا تجنّبَ البطالة والكسل والعيش من جهد سوانا، وإضاعةِ الوقت. وذلك في سبيل القيام بأعمالٍ مفيدةٍ للرّهبانيّة وللكنيسة" **(ق ٥٦)**.

رابعاً - حياتنا الديريّة

١ . وكذلك أيضاً تقوم الحياة الرهبانيّة، بحسب قوانيننا الجديدة، على الحفاظ على**الحصن الديري**، الذي، هو، بدل أن يكون علامة "انفصال عن العالم"، فحسب؛ إنّما هو "أحد المقوّمات الذي يساعد الرّاهبة على التفرّغ لما هو للربّ، وعلى الاتّحاد به" **(ق ٦٣ /١)**.

٢. وكذلك أيضاً تقوم الحياة الرهبانيّة على الحفاظ على **النظام اليومي**، الذي، بدل أن يكون تنظيماً للأعمال بحسب أوقاتها، إنّما هو "يجسّد إلتزامَنا الرّهباني الدقيق لواجباتنا الروحيّة والزمنيّة؛ فهو الدليل على دقّة حفظنا القوانينَ والفرائض، والمعيار الصحيح لتنظيم أوقاتنا وصلواتنا وأعمالنا؛ فحفظنا للنظام وجه آخر من أوجه الصلاة والحياة العائليّة" **(ق ٦٥)**.

٣ . و**للعمل** أيضاً دورٌ كبير في تقديس الراهبة، إذ هو، بدل أن يكون محاربةً للبطالة؛ إنّه، بحسب القوانين الجديدة، "اشتراك مع الله في مواصلة الخلق. وهو، بما يرافقه من مشقّة، يصبح عملَ توبةٍ وانتصاراً على الذات. يحقِّق شخصيّة الإنسان، ويحفظ من البطالة التي هي شرّ في ذاتها. وهو أيضاً استخدام واعٍ للزمن الذي أعطاناه الله. به نكسب الضروريّ لحياتنا، ونوفّر ما نمدّ به المحتاج" **(ق ٧٥)**.

خامساً - مفهوم السلطة في الرهبانيّة

١ . ثمّة مفهوم جديد **للسلطة** في القوانين الجديدة، يختلف عمّا سبق من قوانين. فالسلطة خدمة. فيها تعمل المسؤولات في الرهبانيّة،

"مؤثرات خير الرهبانيّة على مصالحِهنّ الشخصيّة، مضحِّيات بكلِّ غالٍ.. على مثال الرب الذي جاء ليَخدم لا ليُخدَم" (**ق ١٦٠**).

٢ . وتعير القوانين الجديدة أهمّيّةً بالغةً **للمجمع العام**، الذي كان، في ما سبق من قوانين، يأمر وينهى ويصحّح، ويعاقب أشخاصاً، ويصحِّح قوانينَ، ويفرضَ رسوماً، ويُنشئ أدياراً، ويقتني ممتلكات.. أمّا في القوانين الجديدة فالمجمع العام "يُعبّر عن عمل الرهبانيّة من أجل الخير العام وقداسةِ كلّ راهبة فيها" (**ق ١٦١**). هذا "المجمع العام هو قِمّة الشراكة الأخويّة" (**ق ١٦٢**). فيه "يتساوى أعضاء المجمع في الحقوق والواجبات مساواة كاملة" (**ق ١٦٣**).

٣ . وتتّصف **الرئيسة العامّة** بالأمومة الحقّ. فهي أمٌّ بكلّ معنى الكلمة. هكذا جاء عنها : "تجسّد الأمّ العامّة الأمومةَ في الرّهبانيّة. مثالُها الأعلى المسيح. إنّها علامة الوَحدة في الرّهبانيّة.. تجهد في أن تكون الراهباتُ حولَها أخواتٍ محبّاتٍ عاملاتٍ جميعُهنّ في أجواء عيلةٍ واحدةٍ مكرّسةٍ للربّ ولخدمةِ الرهبانيّة والكنيسة. تحثّ كلَّ راهبةٍ على حفظ القوانين والفرائض والتقاليد. وتساعدها على تقديس نفسها" (**ق ١٨٩**). و "على الرئيسة العامّة أن... تتذكّر أنّ السلطة في الرهبانيّة ليستْ تسلّطاً، بل خدمة وحواراً ومشاركة وشُورَى" (**ق ١٩٤ /٨**).

أمّا علاقة الأم العامّة بالأخوات، فالقوانين واضحة في وجوب محبّتهنّ والانفتاح على كلّ واحدة منهنّ: "على الرئيسة العامّة (وبنوع

خاصّ في الزيارة القانونيّة).. أن .. تُصغي إلى كلّ واحدةٍ منهنّ بانفتاح ومحبّة (**ق ١٩٧**)؛ وعليها، في تفقّدهنّ أن "تتفحّص عن مدى المحبّة القائمة بين الأخوات" (**ق ١٩٨**).

٤ . وحتّى **مجمع الرئاسة العامّة**، بدلَ أن يكون إدارةَ حكمٍ وسلطةٍ في الرهبانيّة، كما في القوانين القديمة، فهو، في القوانين الجديدة، قدوةٌ للرهبانيّة، وعيلةٌ مثاليّة لها : "يكوّن مجمع الرئاسة العامّة العيلةَ الرّهبانيّة المثلَى. فيه ترى الرّهبانيّةُ صورتَها، في سكنِ مَن يؤلِّفْنَه معاً، في حياتهنّ الديريّة الجماعيّة المشتركة، وتآلفِهنّ، ومحبّتِهنّ، وحوارهنّ، وعملهنّ من أجل خير الرّهبانيّة العام، وخير كلِّ راهبةٍ، وديرٍ، ومشروعٍ يُنمِي الرّهبانيّةَ ويرقّيها" (**ق ٢٠٥**).

٥ . و**رئيسة الدّير**، بدلَ أن تتميّز بسلطتها وإدارتها وحنكتها، كما في القوانين القديمة، إنّما تكون "هي قلب العيلة، تعتني بكلّ عضوٍ في الجماعة. هي العين الساهرة، تلاحظ ما تحتاج إليه كلُّ واحدة. هي الأمّ الروحيّة لكلّ راهبة. تقوّي الضعيفة، تهتمّ بالمريضة، تعتني بالعاجزة، تعضد المحتاجة، تأخذ بيد المتردّدة، تشجّع الجميع على خدمة الدّير والرّهبانيّة، وتساعدهنّ على الترقّي في مسيرة الكمال" (**ق ٢٣١**). و "الحياة الديريّة النّاجحة رهنٌ بشخصِ الرئيسة، وحسنِ تدبيرها وسلوكها مع كلّ راهبةٍ. ولذلك، عليها أن تكون حاضرةً، مصغيةً، منفتحةً، مهتمَّةً بشؤون الجماعة والدير. وعليها أن تعلم أنّ إدارةَ الدير ليست عملاً فرديّاً؛ بل عملاً اجتماعيّاً ومشاركة فعّالة في الخدمة والمسؤوليّة" (**ق ٢٣٢**).

وعلى رئيسة الدير أيضاً، نظراً لأهمّيّة دورها في الحياة الرهبانيّة، "أن تحرص على... تنمية الحياة الروحيّة في الجماعة؛ وأن تعزّز الأعمال التقويّة في الجماعة ولدى كلّ راهبة، وتسهر على إقامة الصلوات الطقسيّة، وترتيب الاحتفالات والرياضات، ورسالة الدير الروحيّة" **(ق ٢٣٦ /١و٢)**.

وإذا شاءت راهبة الخروج من الرهبانيّة، تطلب القوانين من الأمّ الرئيسة "أن ترعاها باهتمامٍ أخويّ، وتقدّم لها العونَ الروحي، وإذا لزم الأمر، العونَ المادّي أيضاً" **(ق ٢٨٧)**.

٦ . و**المجمع الديري** بدل أن يكون أداةَ إدارةٍ الدير، وتنفيذ مشاريع، فحسب، فهو، في القوانين الجديدة "قِمَّة الحياةِ الأخويّة المشتركة" **(ق٢٣٩)**.

٨ . وحتّى في مجال **التنبيهات والتأديبات**، تطلب القوانين الجديدة من الراهبات أن يحطْنَ راهبةً زلّتْ بالمحبّة الأخويّة. لهذا، "بغيةَ إنماء المحبّة الأخويّة، تحرص الرّاهباتُ على أن يساعدنَ راهبةً وقعتْ في زلّةٍ. وعلى الرئيسة، من جهتها، أن تنبّه وتؤنّب بمحبّة" **(ق ٢٦٧)**.

خاتمة

في الختام نقول ونردّد بأنّ وجه الرهبانيّة الصحيح والرسمي هو كتاب القوانين. فلا كلّ الرهبان والراهبات قدّيسين حتّى نعطيهم مثالاً لطالبي الترهب؛ ولا كلّهم شياطين حتّى نحكم على الحياة الرهبانيّة

بالفساد. وحدَه كتاب القانون هو الذي يعطي الصورة الحقيقيّة عمّا هي عليه الرهبانيّة.

٤٢
صورة النّذر

صورة النذر، في قوانين سنة ١٩٦٠ و ١٩٧٤ وتعديل ١٩٨٩، هي نفسها، مع تغيير طفيف لا يُذكر. ولكنّها تختلف قليلاً عن صورتَي سنة ١٧٣٢ و ١٩٣٨، القانونَين الأوَّلَين للرهبانيّة، اللّذَين يختلفان أيضاً بعضهما عن بعض اختلافًا قليلاً... وعلى القارئ أن يتثبّت بنفسه هذه الاختلافات، وسيجد نصوصَها في آخر هذه الصفحات.

أمّا الذي يعنينا، في هذا البحث، فهو معنى الصورة المعتمدة اليوم في أدائنا النذور الرهبانيّة، في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة. فماذا تعني هذه الصيغة لاهوتيًّا، ورهبانيًّا، وروحيًّا، وحتّى إنسانيًّا، ومنطقيًّا... فلنحلّل عناصرها، ونقول :

أوَّلاً - "في حضرة الله" : يعلّم اللاّهوت المسيحي أنّ الله الحاضر بيننا إسمه: ربّنا يسوع المسيح، إبن الله المتجسّد، الحاضر بيننا، الحالّ فينا، الذي تألّم ومات من أجلنا، والحيّ فينا... وبالتالي، ليس لنا بالله الآب الأزلي أيُّ ارتباط أو علاقة مباشرة معه. فهو الواحد المتعالي الذي لا يطاله بشر؛ فيما الابن هو "الوسيط الوحيد"[60]، هو

---

60 ١ طيموتاوس ٢ /٥؛ أنظر أيضا : عبرانيين ٨ /٦، ٩ /١٥، ١٢ /٢٤.

"عمّانوئيل، أي ّالله-معنا" (متى ١ /٢٣)، وهو الذي "أظهر للناس اسم الآب" (يو ١٧ /٦)، وهو الذي "خبّر منَ هو الآب" (يو ١ /١٨)، وهو الذي قال: "مَن رآني رأى الآب" (يو ١٤ /٩)، وقد قال: مَن يراني يرى من أرسلني" (يو ١٢ /٤٥)، وقال أيضاً: "لا سبيل لأحد إلى الآب إلاّ بي" (يو ١٤ /٦)، وكذلك قال : "إن تعرفوني تعرفوا أبي أيضاً" (يو ١٤ /٧)، وهو الذي قال وردّد: "ما من أحدٍ يعرف مَن الابنُ إلاّ الآب، ولا مَن الآبُ إلاّ الابنُ، ومَن يشاءُ الابنُ كشفَهُ له" (متى ١١ / ٢٧؛ لو ١٠ /٢٢). وفي كلّ حال إنّ الله "الآب لا يدين أحداً"[61].

فما بال ناذري الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة يذهبون مباشرة الى الآب، ويتعاملون مع "حضرة الله"، ويتركون "الوسيط الوحيد"؟! وهل، بنظرهم، يستطيعون التوجّهَ إلى الله ومعرفتَه، واستحضارَه، من دون المرور بالابن، ومن دون "كشف الابن" لهم مَن هو الله الاب؟

الحقّ نقول: إنّ الذهاب إلى "حضرة الله" مِن وراء ظَهْرِ الابن، ومن دون "وساطته"، لهو، في نظري، ضلال مبين.

ثانياً - "... القادر على كلِّ شيء" : نقول: هل من جوٍّ مرعبٍ كمثلِ هذا الجوّ الذي تَخْلُقُه هذه الألفاظ؟ ألمْ يجدْ قانونيّو الرهبانيّة ومشترعوها في قاموس اللاّهوت المسيحيّ غيرَ هذه الألفاظ والصفات يُضفونَها على الله في مثلِ هذه المناسبة؟ أليس عند آباء الرهبانيّة كلامٌ على الله مثل: الحنّان، الرحيم، العطوف، الرؤوف،

---

61 يو٥ /٢٢؛ رَ : يو ٣ /١٧، ٥ /٢٧، ٩ /٣٩، ١٢ /٤٧، أع ١٠ /٤٢، ١٧ /٣١.

الشفوق، المحبّ، الجوّاد، الكريم، الغافر، التوّاب، السميع، المجيب، الأب.. وما إلى ذلك؟! فما هو المقصود من اختيار صفةِ "القادرِ على كلّ شيء"؟ أَمِن أجلِ تذكير الرّاهب الناذر بأنّه في جوِّ "سيّدٍ وعبد"، لا في جوّ "علاقةٍ بنويّةٍ مُحبّة"؟ في الحقيقة نخشى أن تضيعَ مع هذه الألفاظ قِيمُ المسيحيّة كلُّها!

ثالثاً - "... والطوباويّة مريم العذراء" : نأسف أن تُذْكَرَ "الحنونة" بعد ذكرِ "قدرات الله على كلّ شيء"، وفي هذا الجوّ المرعب! أجَاءَ اسمُها هنا ليلطِّفَ المقام، أم زُجَّ لتكونَ هي أيضاً، مع "الله القدير"، قديرةً وشاهدةً على ذاك الناذرِ الضعيف، المرتجفِ القلبِ، المضطربِ الأعصابِ، المبلبل الأفكار، المهدّجِ النبرات!! لم نعرفْ في تاريخِ المسيحيّة أحدًا التجأ الى الأمِ العذراءِ لتشهدَ عليه وتَدِين، بل لتساعدَ وتُعِين... ثمّ إنّنا لا نجدُ، في العذراء المعطوفة إلى "الله القادر على كلّ شيء"، وفي جملة واحدة، تركيباً لغويًّا ومنطقيًّا مستساغاً. فالعذراء الحنونة ليستْ من طينةِ الألوهة القادرة ومن طبيعتها حتى تُعْطَفَ إليها.

رابعاً - "... وأبينا الطّوباوي القدِّيس أنطونيوس الكبير" : نسأل: ما علاقة الرّهبان اللّبنانيّين الموارنة بالقدّيس أنطونيوس؟ أَلأنَّه مِن أحدِ قدّيسي الرهبانيّة ومشترعيها ومنظّمي سيرتها؟ وهو أمرٌ نجهله؛ أم أنّه مِن مصاف "الله القدير" و"الطوباويّة مريم العذراء"، حتّى جاء اسمُه معهما وعلى قدم المساواة؟ وهذا كفر صريح.

ثمّ لماذا هذه الألقاب الكثيرة لهذا القدّيس في نصٍ ليس المقصودُ فيه تعظيمَه بقدرِ ما المقصودُ الإشارةُ إليه على أنّه رائدُ الحياة الرهبانيّة فقط.. فهلْ وُضِعَتْ هذه الألقابُ له، من أجلِ خلقِ جوٍّ مهيب؟ أم لِيجيءَ هذا القديسُ ويشهدَ علينا مع "الحضرةِ الإلهيّة" و"مريم الطوباويّة"؟!

خامساً - "... وجميع القدّيسين" : إذا كان المقصودُ استحضارَ كلِّ ما خلقَ الله من كائناتٍ منظورةٍ وغيرِ منظورةٍ، وإضفاءَ جوٍّ مخيفٍ جدّاً على ذاك الناذر المسكين المستفرَد، المرتعش أمام "الرئيسِ العامّ السامي الإحترام" و"المدبّرين الجزيلي الإحترام" والرؤساء والرهبان كافّة في الصباح الباكر... فأنا أقترح أن يُضافَ الى "جميع القديسين"، ومِن أجل خلقِ جوٍّ مؤاتٍ للرهبةِ والرعدة، ما نذكره قُبَيْلَ كلامِ التقديسِ من ملائكةٍ وعظماء ملائكة، وسلاطين، وجلاّس، وسادات، وساروفيم وكاروبيم مجَنّحِين، ورؤساء، ومدبّرين، وملافنة، وربوات في ربوات، وما خلقَ الله من أنسٍ وجنّ، ممّا يُرى وممّا لا يرى.

بهذه الكائنات "المستحضَرَة"، مع الله القديرِ، والعذراءِ مريم، ومار أنطونيوس، وجميعِ القديسين، نضفي جوًّا ملائمًا على الناذرِ الذي قد لا يعرف ماذا عليه أنْ يصنع.

أشهد أنّني عرفتُ بعضَ مَن يُغمَى عليهم من الناذرين، وهم يَتلون صورةَ النذر هذه، وبعضَهم الآخرَ ترتخي كِلاهُم لشدّةِ الخوف[62].

62 إشارة إلى المزمور القائل: "واستولى الخوف على كليَتَي".

فهل يُخَفِّف واضعو "صورة النذر" عن المسكين قليلاً !!

سادساً - "... وأمام رئيسِ رهبانيّتِنا العام، قدسِ الأبّاتي فلان، الكلّيّ الاحترام" : لنا على هذه الجملة جملةُ اعتبارات:

١ . أيُعْقَلُ، لغةً ومنطقًا، أن نضعَ اسمَ الرئيسِ العام بمستوىً واحدٍ وبحضرةٍ واحدةٍ، مع الله القديرِ، ومريمَ العذراء، ومارِ أنطونيوس، وجميعِ القديسين؟! أيُعقلُ أن يكون الرئيسُ العام من جملةِ "الحضورِ" والشهودِ السماويّةِ العليا؟ لقد كانتْ صيغة ١٩٣٨ أكثرَ حشمةً في قولها: "أنا فلان أَعِدُ الله... أمام قدسِ رئيسي العام".

٢ . ثمّ لماذا بقي هذا الكائن هنا يُسمّى "الرئيسِ العام" فيما تغيَّر اسمُه في القوانين والفرائض جميعها، واستُبدِلَ بتعبيرِ "الأبِ العام"؟! أَلِلْرعبِ أيضًا؟!

٣ . ثمّ أَلِلْرعبِ كذلك أُضيفَتْ على "الرئيس العام" ألقابُ العظمةِ والفخامةِ والسموّ؟ مثل "قدس، وأبّاتي، وكلّي الاحترام"؟ فهل نحن في معرض التركيز على هذه الشخصيّة المرموقة وتكريمها وإظهارِ دورها، أم في معرضِ كونها تمثّلُ الرهبانيّة في قبولِ نذر الناذرين، وباسم الرهبانيّة؟!

٤ . ثمّ مَن هو هذا "الأبّاتي"؟ مِن أين دخلَ هذا اللّفظ ؟ ما معناه في لغتنا؟ وما دوره في تقاليدنا؟ إنّه حشو في صيغةٍ رسميّة.

٥ . ولننتبهْ أيضاً إلى أنّ هذا "الرئيس" لا يكون حاضرًا ببساطةٍ ولياقة، فحسب؛ بل عادة ما يحضرُ بأبّهةٍ وفخامةٍ، غارقًا في

كرسيٍّ رخيمةٍ، مُعْتَمًّا بتاجٍ مرصّعٍ بِحَبّاتٍ ماسٍ، مُتّكِئًا على عصاً مذهّبةٍ، متّشحًا ببدلاتٍ مخمليّةٍ مزركشة، مترنّحاً بألوانٍ زبرجديةٍ فاقعة، عائماً بعَرَقِهِ المتصّببِ مِن رأسهِ وشعرِه ويديه. يوهمك بأنّه يُصغي بكلِّ مسؤوليّةٍ لذاك الناذرِ المرتعِشِ كالصُّوصِ المذبوحِ، لكنّه، إنْ لحظتَه جيِّداً، تراهُ يُغالبُ النعاس.

٦ . وتكتملُ الصورة إذا ما رمى الناذرُ نظرةً إلى صورةِ مار أنطونيوس في زاويةِ المذبحِ السفلِيّ مع ما فيها من كائناتٍ عجيبة، وأرواحٍ تلمعُ عيونها في ظلام دامس، كائناتٍ هي شياطين، وخنازير، وأبالسةٍ مع قرونٍ، وأفواهٍ فاغرة، وأذنابٍ مرتفعة؛ ونظرةً ثانيةً إلى ذاك الذي يَظنّ نفسَه بأنّه يمثّلُ اللهَ القديرَ على كلّ شيء، مع ما هو عليه من استرخاءٍ واطمئنانٍ.

٧ . ثمّ نسأل: لماذا تَذْكُرُ صورةُ النّذرِ إسمَ "الرئيسِ العام" وحدَه، ولا تذكرُ "الجماعةَ الديريةَ" الحاضرةَ، ورئيسَ الدّير، وعددًا وفيرًا من الرّهبان الحاضرين.. ألا يشهدُ هؤلاء على نذرِ أخيهم؟ ألا يُصَلّون من أجلِه؟ ألا يتقبّلونَ باسمِ الرهبانيّة نذورَه؟

الجواب على هذه الأسئلة كان قديمًا في زيادةِ تعبير: "وخلفائهِ من بعدِه". أيّ أنّ "الرئيسَ العام" ليسَ وحدَه مَن يمثّلُ الرهبانيّةَ، ومَن يتقبّلُ نذرَ الناذرين، بل "خلفاؤه" أيضاً، إذ بهم نرى الرهبانيّة متّصلةً، متواصلةً ومستمرّة.

٨ . ويُخشى أخيرًا، إذا ما بقي ذكرُ "الرئيس العام" وحدَه،

على أنّه يحصر في شخصه الرّهبانيّة كلّها، ماضياً ومستقبلاً، يخشى أن يَصْدُقَ خبرُ ذاك الراهب الذي قال لشقيقِ الرئيسِ العام : أَتَعلمُ يا فلان أنّني نذرتُ (كلَّ ما عندي) لأخيك؟".

سابعاً - "... أنا الأخ فلان أبرز النذور الموقّتة (أو الإحتفاليّة) : هذا في رسوم ١٩٧٤. أمّا في قوانين ١٧٣٢: "أنَا فلان أعَاهد أمام الله... بحِفظِ". وفي رسوم ١٩٣٨: "أنا فلان أعدُ الله.. وأنذرُ". وفي تعديل ١٩٨٩: "أنَا فلان أنذرُ النذورَ البسيطة".

هناك إذًا تعابير: "أعاهدُ بحفظ"، و أَعِدُ وأنذُر"، و "أبرز النذور"، ثمّ "أنذر النذور".. وجاء أيضاً فعل **"لَفَظَ"** في المادّة ١٩ من تعديل ١٩٨٩، تقول: "على كلٍّ منهم أنْ **يَلفظَ** الصورةَ منفرِدًا؛ أمّا إذا كان كثيرون يجدّدون، فيستطيعون أن **يَلفظوا** الصورةَ معاً؛ أو أنّ واحدًا منهم **يلفظ**، والباقون يردّدون. على أنّ المفضّل أن **يلفظَ** كلٌّ على حدة"... أَتركُ للّغويّين والقانونيّين أن يختاروا المناسب.

أمّا القول بـ **"النذور الموقّتة"** فهو قولٌ مُشْتَبَه. هو كقولِ عاشِقَينِ اثنَينِ إنّهما يتحابّانِ لمدّةِ شهرَين اثنَينِ فقط لا غير؛ أو كاتّفاقِ عروسَينِ أنّهما يتعاقدان لمدّةٍ مُحَدَّدة. التعاملُ مع الربّ لا يمكن أن يكونَ، من قِبَلِ الرّاهبِ، موقّتاً، ولأجَلٍ مُحَدّد. قد تكون النذورُ "موقّتةً" بنظرِ الكنيسة والرهبانيّة، ولكنّها لا يمكن أن تكونَ كذلك بنظرِ الرّاهبِ نفسِه. شأنُ الناذرِ مع الربّ كشأنِ عاشقِ الحبِّ، كلاهما يحملُ في حبِّهما طابعَ الأبدِ والالتزامَ النهائيَ الكامل.

وقد يعني تعبير "النذور الموقّتة" ما يعنيه "الزواج الموقّت" عند الشيعة، أي "زواج المتعة" الذي هو حبّ بين رجلٍ وامرأة ينقطع بانقطاع المدّة، وينتهي كلّ شيء بينهما.. لا أجد أنّنا مع الله نستطيع أن نحبّ موقّتاً. التوقيت هو بالنسبة إلى علاقتنا بالرهبانيّة والكنيسة، وليس بالنسبة إلى علاقتنا مع الله.

ثامناً - "... الطاعة والعفّة والفقر" : هذا في قوانين ١٧٣٢، و ١٩٣٨، و ١٩٦٠، و ١٩٨٩، أمّا في رسوم ١٩٧٤ فـ"العفّة والفقر والطاعة". في قوانين ١٧٣٢ و ١٩٣٨ هناك إضافةُ صفة "إختياري" على الفقر.

كم تجادلَ آباءُ الرّهبانيّة! وكم كتبوا ليقرّروا أيَّ نذرٍ هو الأسبقُ رتبةً. وفي ظنّهم أن الأسبقَ رتبةً يعني أنّ الحياةَ الرهبانيّة تقومُ عليه. لهذا مِنَ الآباءِ مَنْ قال بأنّ الطاعةَ هي الأساس، ومنهم: العفّةَ. والكلّ متّفِقٌ على أنّ كلَّ تجديدٍ لا بدّ من أن يتناولَ الفقرَ أوّلاً. لهذا اختلطتْ علينا، نحنُ المساكين، نيّاتُ آباء الرّهبانيّة الروحانيّين الملهَمين، حتّى بتنا لا نستطيع البتَّ في الموضوع.

أمّا الذي يهمّنا فهو: هل الحياةُ الرهبانيّة تقوم فقط على هذه الثلاثة، حتى لا يَذكُرَ الناذرُ في صورةِ النذرِ إلاّها؟! هل يكفي الإنسانُ أن ينذرَ هذه الثلاثةَ ليكونَ راهبًا، وراهبًا لبنانيًّا مارونيًّا؟

الذي يقرأ صورةَ النذرِ هذه مُسْتَلَّةً من كتابَي القوانين والفرائض، لا يَعرِفُ لأيّةِ رهبانيّةٍ هي هذه الصورة؟ ولا يعرفُ في أيّةِ

رهبانيّةٍ ينذرُ ناذرُها. إنّها صورةٌ ناقصةُ الهويةِ والانتماء.

وهي أيضا ناقصةٌ في ما تقوم عليه الحياةُ الرهبانيّة في جوهرها، كالصلاةِ، والحياة المشتركة، والعيش في الدير، والعمل، والخدمة، والتوبة والابتعاد عن العالم، ومحبّةِ القريب، والعملِ مجّانًا، والرسالة، والزهد بكل ميل ورغبة.. وما إليه... أليستْ هذه، وغيرُها، من مقوّماتِ الحياةِ الرهبانيّة، حتى لا يُشارَ إليها في صورةِ النذرِ بأيّة إشارة؟!

تاسعاً - "... حسب مضمون قوانيننا ورسومنا" : لا يُسْتَبْعَدُ أن تكونَ هذه الخاتمةُ على نسَقِ ما نراه في "الأديان السرّيّة" من باطنيّة وتقيّة وكتمان وتستّر!! فما معنى هذه الخاتمة؟ وإلامَ تُشير؟ ما هو، بالتحديدِ، مضمونُ القوانين والرسوم؟ هل يكون الراهبُ راهبًا بسببِ كلِّ ما في القوانين والرسوم؟ والمعروفُ أنّ ثلاثةَ أرباعِ ما في القوانين والرسوم لا تشكّلُ شيئًا في مقوّماتِ الحياةِ الرهبانيِّة، إنّها نُظُمٌ إداريّةٌ وقوانينُ في تنظيمِ الانتخاباتِ، والاقتصادِ، والإداراتِ، وأعمالِ التربيّة، والمدارسِ، والرعايا، وواجباتِ المسؤولين.

ثمّ هل هذه الخاتمة هي من باب الاختصار والإيجاز، أم من باب التعجيز والإعجاز؟ أم هي، وهو الحقّ، من باب التقيّة والألغاز؟!

وأخيراً ألا نرى أفضلَ مِن هذه الخاتمةِ القولُ "بحسبِ مضمونِ شرعةِ الأممِ المتّحدةِ في حقوقِ الإنسان"؟ أرى هذه أفضل، لأنّها تركّزُ على جوهرِ الإنسانِ وقيمتِه، وتعدّد ما به يكونُ الإنسانُ إنسانًا، مثل

الحرّيّة، وحقِّه في العلم، والتربيّة، والطبابة، والحياة الكريمة، وفي الإنتماء إلى مجتمعٍ متمدِّنٍ، في محاربةِ الفقر والعوز، في مساعدة المجتمعات الغنيّة للفقيرة منها، وما إلى ذلك...

***

ولا بدّ لي من ذكر بعض صُوَرِ النّذر في بعض الرهبانيّات ليستوحي قانونِيّونَا ما باستطاعتهم.

صورة الإبتداء : "باسم الآب والابن والروح القدس. أمين. أمام الإله القدير، أعترفُ بضعفي وعدم جدارتي، وأتوقُ إلى تكريس ذاتي لخدمته المقدسة. فها أنا، بتمام اختياري ورضاي، أعزم على الدخول في جمعيّة الـ . الـ. وأتعهّد بأن أقوم بكامل أهدافها، وأعِد بحفظِ قوانينها، والسلوكِ بموجب رسومها. وأجاهر بذلك علناً، أمام هذا الجمع الحاضر. فليقبلِ الربُ تقدمتي هذه. وإيّاه أسأل، بشفاعةِ العذراء أمّنا، والقديس يوسف البتول، أن يجعلني من عداد عرائسِ الحمل البريء . أمين".

صورة النذر : "+ أنا الأخت...، إبتغاءً لمجد الله ومرضاته، ورغم ضعفي وحقارتي أتّكل على مراحمِه الأزليّة، وأنذر لعظمته الإلهيّة، في حضرة مريم أمِّنا، والقديس يوسف البتول، وأمام ممثّل الكنيسة والأم العامّة وهذا الجمع الحاضر، العفّة والفقر والطاعة، بمقتضى قانون جمعيِّتنا، وذلك إلى مدّة سنة. هكذا فليشهد الله عليّ وهذا الإنجيل الطاهر" (تقبّل الإنجيل).

صورة النذر : "+ أنا فلان إبن فلان من المحلّ الفلاني، أوضح، وأنا جاثٍ أمام القربان المقدّس والإنجيل الطاهر، أنّني لأجل مجدِ الله الأعظمِ وخلاصِ نفسي وإفادةِ القريب الروحيّة، اخترتُ هذه الطريقة المقدّسة، أي التبنّي لجمعيّة الـ.الـ الـ.، متفرّغًا عن العالم ومشاغله ومتعلّقاته عامّة، مكرّساً نفسي لله تعالى، قاصداً إتمام الغاية التي لأجلها تأسّستْ هذه الجمعيّة. وها إنّي أتقدّم طوعاً للنذر بحضرة رئيسي الجليل وهذا الجمع المبارك، وأقول متوكّلاً على عناية محامِيَي هذه الجمعيّة، الأمّ الحنون ومار يوحنّا البتول: أنا أنذر نذراً ثابتاً صادقاً، العفّة والفقر والطاعة، بمقتضى قانون هذه الجمعيّة، وذلك الى مدّة (يحدّد المدّة)، حالِفاً اليمين بالإنجيلِ المقدّس، على أنّي لا أقبلُ درجةً، أو رتبةً كنسيّةً، أو وظيفةً روحيّةً رسميّةً خارجَ الجمعيّة، ما دمتُ مقيَّداً بنذورها المذكورة، إلاّ عن إلزام مَن له الحكمُ عليّ. وهذا الإنجيل الطاهر الذي أقبّله الآن (يلمسه ويقبّله) هو شاهد عليّ بما نذرتُ وعاهدت" (ثم يقبّل يد الرئيس).

***

أمّا صور النذر في الرهبانيّة فكانت، منذ تأسيسها، كما يلي :

صورة ١٧٣٢ : "أنا فلان أعاهد أمام الله الضابط الكلّ، ورئيسي العام الفائق الإحترام فلان، وخلفائه من بعده، بحفظ الطاعة والعفّة والفقر الإختياري حتى الممات، بموجب قوانيننا وفرائضنا. وأيضاً أعاهد على نفسي أنّني لا أرغب ولا أطلب بذاتي، أو، على يد

غيري، ولا أقبل درجةً ما أصلاً، سواء كانتِ من رتبِ رهبانيّتنا أو غيرها، إلاّ بأمر الرؤساء"[63].

صورة ١٩٣٨ : "أنا فلان أعد الله القادر على كلّ شيء، أمام قدس رئيسي العام الكليّ الإحترام فلان، وأنذر الطاعة والعفّة والفقر الاختياري حتى الممات بموجب قوانيننا ورسومنا"[64].

صورة ١٩٦٠ : "في حضرة الله القادر على كلّ شيء، والطوباويّة مريم العذراء، وأبينا الطوباوي القديس أنطونيوس الكبير، وجميع القديسين، وأمام رئيس رهبانيّتنا العام قدس الأبّاتي فلان، الكلّي الإحترام، أنا الأخ فلان أبرز النذور الموقّتة (أو الإحتفاليّة)، أي نذر الطاعة والعفّة والفقر، حسب مضمون رسومنا وفرائضنا"[65].

صورة ١٩٧٤ : "في حضرة الله القادر على كلِّ شيء، والطوباويّة مريم العذراء، وأبينا القديس أنطونيوس الكبير، وجميع القديسين، وأمام رئيس رهبانيّتنا العام، قدس الأبّاتي فلان الكلّي الإحترام، أنا فلان أبرز النذور الموقّتة (أو الإحتفاليّة)، العفّة والفقر والطاعة حسب مضمون قوانيننا ورسومنا"[66].

صورة ١٩٨٩ : "في حضرة... السامي الإحترام (بدل:

---

63 القسم الثالث، ألباب الأوّل، ثامن عشر.

64 قانون ٤٧.

65 مادّة ٧٩.

66 مادّة ١٦.

الكلّي)... أنذر (بدل: أبرز) النذور البسيطة (بدل الموقّتة)، الطاعةوالعفّة والفقر(بدل: العفة والفقر والطاعة)[67].

صورة ٢٠٠٣ : "باسم الآب والابن والروح القدس. في حضرة الله الآب الضابط الكلّ، وبنعمة ربّنا يسوع المسيح، وتأييد الروح القدس، ومعونة أمّنا العذراء مريم، وشفاعة أبينا القديس أنطونيوس الكبير، وقدّيسيّ رهبانيّتنا، وأمام قدس الأب العام (فلان)، السامي الاحترام، أنا (فلان) أُبرز النذورَ الرهبانيّة الموقّتة (أو المؤبّدة)، الطاعة والعفّة والفقر، في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، وأَلتزمُ بحفظ قوانينها.[68]

***

نقول :

كم نرغب على صورة النذر عندنا أن تتغيّر جذريًّا!

وكم نرغب في أن تركّز على : التوجّه إلى ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح، والاتّكال المطلق على نعمة الروح القدس، والانتماء إلى الكنيسة المقدّسة، في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة.

وكم نودّ لو تشير، بالإضافة إلى النذور الثلاثة، إلى ما به تقوم الحياة الرهبانيّة؛ وقد عدّدنا بعضاً منها سابقاً، وفي سياق البحث.

---

67 مادّة ١٧.

68 مادّة ١٦٣، و١٧٢. هذه "الصورة" أضيفت على المقال لاحقاً.

وكم نتمنّى أن تشير إلى الغاية التي من أجلها يعتنق الرّاهبُ الحياةَ الرهبانيّة، كـ : تمجيد الله، وخلاص النفس، وخدمة القريب، والعمل من أجل تثبيت ملكوت الله، وحصر الشرّ في العالم، ونشر الخير والسعادة بين أبناء الله.. وما إلى ذلك.

وعليها أن تكون أكثر ديناميكيّة وحركة وحياة...

وليتها، أخيراً، تكون في صيغة صلاة وتضرّع، أكثر من صيغة عهد، لا يصحّ أن يكون بين طرفَين غير متكافِئَين إطلاقاً.

٤٣
الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة
بعد ٣٠٠ سنة أيضاً

مقدّمة

إذا شاءت الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة -واستطرادا ً سائر الرهبانيّات- أن تستمرَّ موجودةً، وفاعلةً في الكنيسة والمجتمع، وذاتَ رسالةٍ إنجيليّة ناجحة، يتوجّب عليها حتماً أن تنظرَ في ما آلت إليه، وأن تأخذَ مواقفَ جازمة مما آلت إليه.

ولقد تجرّأتُ جدًّا في بحثي هذا في معالجة ما ستؤول إليه الرّهبانيّة، بعد ثلاثمائة سنة مقبلة، لأنّه مَن بوسعِه أن يعرِفَ ما ستكونُ عليه أحوالُ العالم بعد ثلاث سنين، حتى يعرف ما ستكون عليه الرّهبانيّة بعد ثلاثمائة سنة؟ ومَن يعرفُ ما ستكون عليه النظرةُ إلى الله والإنسانِ والعالَمِ والكنيسةِ والأخلاقِ والحياةِ والموتِ والألمِ والمرضِ والصليبِ والقيامةِ وأحوالِ المعاد والمصير... حتى يعرفَ أن يأخذَ موقفًا منها كلِّها؟!

ومَن يعرف أيضاً ما ستكونُ عليه الرّهبانيّة، خلال ٣٠٠ سنة

المقبلة؟ كم سيكونُ عددُ أفرادِها وأديارِها؟ وفي أي بلادٍ ستكون؟ ومَا سيكونُ عملُها الأساسي؟ رسالة؟ أم نسك؟ أم إعلام؟ أم تعليم؟ أم طبابة؟ وما ستكون عليه مفاهيم الطاعة والبتوليّة والفقر والصلاة والعمل والحياة المشتركة والنسك والدير والمحبسة.. وما إلى ذلك ممّا تقوم عليه الحياة الرهبانيّة اليوم؟!

علينا، جوابًا على هذه الأسئلة، إعداد "العلّيّة "، وعلى الرّوح أن يهبّ كما يشاء. والموضوعات التي نبحثها معكم ١٩. لن نفصلّها كثيراً لئلاّ نضيّع الهدف.

أوّلاً - علاقة الرهبانيّة بالقديس أنطونيوس

أقول: لم يكنْ للرهبان قديمًا، قبلَ تأسيسِ الرّهبانيّة، سنة ١٦٩٥، قانونٌ يسيرون بموجبه، ولا حياة منظّمة ترعاها فرائض. كانوا بحسب قول قراعلي "ينذرون كعادةِ الموارنة "[69]. أي إنّها سيرةٌ نسكيّةٌ حرّة، منسجمة مع طبائع أهل جبل لبنان النازعة إلى الحريّة والفرديّة أبدًا.

والرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة لم تعرف، هي أيضاً ومنذ تأسيسها، قوانينَ مار أنطونيوس، ولا سيرتَه. ولم تنتسبْ إليهِ مطلقاً. وقصّةُ تثبيتِ قانونها الأول على يد البطريرك اسطفان الدويهي (+١٧٠٤)، في بداية سنة ١٦٩٩، دليل على ذلك. لنسمع ما كتبه المؤسّس في مذكراته عن تثبيت القانون. قال : "وكتبَ (البطريرك)

---

69 مذكرات قراعلي، كتاب "بدايات الرهبانيّة، ص ٣١ رقم ٨.

في صورةِ التثبيت، مع جملةِ الكلام، وهي: "إنّنا لا نبرِّىء أولادَنا الرّهبان من قوانين مار أنطونيوس"".

يعلّق قراعلي على هذا الكلام فيقول: "ولأجل هذه الجملة لم نقتبلْ نحن هذا التثبيت. واعتذرْنا لدى السيّد البطريرك أنّ قوانين القديس أنطونيس كثيرة ومختلفة، وأكثرها تخصّ الرهبان المتوحِّدين لا أصحاب الديورة الجامعة. وإنْ نحن قَبِلْنَا هذه الجملة يتولّد لنا منها أتعابٌ كثيرة... ومخاطرات ... وصِرنا نتوسّل إلى السيّد البطريرك أن يَعفيَنا من هذه الجملة. فما أمكن. ولمّا لجّينا عليه اغتاظ. وأبطلَ التثبيت. وأمر بخزقه. ورجعنا إلى ديرنا حزينين "[70]. وفي محاولة ثانيّة، في أيّار سنة ١٧٠٠، حاول جبرائيل حَوّا وعبدالله قراعلي تثبيت القانون من السيّد البطريرك، فامتنع أيضاً. و "رجعنا إلى ديرنا خائبين "[71].

و "كذلك بعد أيّام، عدنا إليهم (أي إلى البطريرك وبعض المطارنة)؛ ومثل ذلك مرّات عديدة. والمطرانان يمانعان، ويزهّدان السيّد البطريرك بذلك، ويزعمان أنّ هذا القانون حقارةٌ لقانون القديس أنطونيوس. ولكثرة المضي والرجوع من قنّوبين لديرنا، صغرتْ أنفسُنا واستولى علينا الحزن "[72].

ويكمّل قراعلي: "ويوماً ما أخذتُ القانون بيدي وميّزتُه واختصرتُه وجعلتُه خمسةَ عشرَ باباً (بدل 22).. ثمّ سرتُ إلى السيّد

70 المرجع نفسه، ص ٣٤، رقم ١٢.
71 المرجع نفسه، ص ٣٩-٤٠، رقم ١٨.
72 المرجع نفسه، ص ٤٠.

البطريرك.. ثبّت القانون وختمه بختم الكرسي. وكان ذلك في ١٩ /٦ / ١٧٠٠. وحينئذٍ رجعنا إلى ديرنا فرِحين "[73]. وكان ذلك عيدًا في الرهبانيّة.

إنّ عناد البطريرك، العارف بالأمور، في محلّه، وذلك من أجل أن تكون الرهبانيّة الناشئة مقبولةً لدى الكرسي الروماني والمطارنة تلاميذِ روما، ولكي تزدهرَ الرهبانيّةُ، ويطمئنَّ طالبو الترهّب إلى أنّ رهبانيّتَهم تسيرُ على خطى أبِ الرهبان وقوانينه...

وكذلك عناد قراعلي في محلّه، وذلك من أجل أن لا يتولّد من الإنتساب إلى مار أنطونيوس "أتعابٌ ومخاطر "، على ما قال، قد تتأتّى من عدم الإنسجام بين الحياة المعاشة والقوانين المكتوبة. فكان الحلّ، بعد أخذٍ وردّ، وِفاقاً على الطريقة اللبنانيّة، أي إرضاء الطرفَين، والأخذ بالرأيَين.

وفي الحقيقة، ليس للقديس أنطونيوس في الرهبانيّة أيّة علاقة. وانتسابها إليه لم يكن إلاّ بالإسم فقط، كانتساب البشر إلى جدِّهم آدم. وممّا يدلّ على ذلك أيضاً أنّ الرهبانيّة، في أكثر من ثلثي عمرها، كانتْ تجدّد نذورَها، وتَعقِدُ مجامعَها، وتنتخبُ سلطتها العليا، ورؤساء الأديار والمراكز في ذكرى نذرِ المؤسّسين، أي في ١٠ /١١ /١٦٩٥؛ وليس، كما هو اليوم، في عيد مار انطونيوس في ١٧ ك ٢.

نقول: قد يكون على الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، في الـ٣٠٠

---

73 المرجع نفسه.

سنة المقبلة، أن تنظر في انتسابها إلى القدّيس أنطونيوس وقوانينه، وإلى التقليد الرهباني المصري.

ونقول أيضاً: كما أنّ الرّهبانيّة، في الـ ٣٠٠ سنة الأولى، صنعتْ لها تقليداً مميَّزًا، لا هو مصري صعيدي أنطوني، ولا هو سوري سرياني أنطاكي؛ إنّما لبناني ماروني جبلي، يتميّز بما قاله قراعلي بـ "الديورة الجامعة "؛ عليها في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة أن تصنع لها تقليداً عالميّاً واسعاً، بسبب انتشارها في العالم وفي القارّات الخمس، بين مختلف الأمم والملل.

ثانياً - الحياة الدّيريّة المشتركة

الدّير هو بيتُ الراهب، حيث سَكَنُه وعملُه ورسالتُه وَخلوتُه ورعيّتُه وطلّتُه إلى المجتمع واختفاؤه عن المجتمع. والحياة الديرية المشتركة هي جوّه ومناخه. في الدير تُعاش الحياة الرهبانيّة؛ وفي غير الدير تَبقى منقوصة. الحياةُ في الدّير هي ميزة الحياة الرهبانيّة في لبنان. ولقد عاش الرهبان الموارنة حياتَهم الرّهبانيّة في الدّير حمايةً لهم من أعداءِ دينِهم وأعداءِ وطنِهِم، وسطَ اضطهاداتٍ مريرة وكثيرة ومستمرّة عليهم.

هذا الواقع أجبر الرهبان، وحتى النسّاك، على أن يَعيشوا معاً، في "ديورة جامعة "، أو في محابس متجاورة؛ وذلك حمايةً لإيمانهم وحياتهم. وهي ميزة لازمتِ الحياةَ الرهبانيّة المارونيّة في لبنان، ولا تزال. واسم "دَيرِيِّين " (دَيْرُويِي) هو الاسم الحقيقي والمطابق للاسمِ

العربي "رهبان ". ذلك لأنّ ميزتَهم الأولى السَكَنُ في الدير، لا الهرب من العالم، كما توحيه لفظة "راهب " العربيّة.

الدّيرُ، ميزة الرهبانيّة اللّبنانيّة، في الـ ٣٠٠ سنة الماضية. ويجب أن يبقى في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة. وذلك لأنّ "الحياة الديريّة المشتركة " هي حصانتُها في هذا العالَم العظيم في تجاريبه، وحمايتُها لإكمال مسيرتها نحو الملكوت.

ثالثاً - الطاعة والحرّيّة

الطاعة، في مفهومها البسيط العادي، هي خضوعُ مرؤوسٍ لرئيس، وانصياعٌ له في تلبية مشيئتِه وتنفيذٍ أوامره. وهي، بالتالي، انكسارٌ للإرادة الذاتيّة، وانتصارٌ لإرادة الرّئيس "مع قطْع النَّظر "، كما جاء في القانون. وفي الرهبانيّة تتّصف الطاعة بـ "الطاعة العمياء "، وبـ "زرْع البصلة بالمقلوب "، وبتنفيذِ الأوامر من دون سؤالٍ أو اعتراض. حتّى وإن كان الأمر مخالِفاً للواقع والمنطق.

هذه الطاعة ليست إنجيليّةً في شيء: ألم يكن المسيح واضحاً عندما قال وشدَّد على أنّ السلطةَ خدمة، والسيادة حال أممٍ سواكم! فيما السلطة والسيادة، عندكم، هي مِن الله! وإنْ لم تكنْ خدمةً فليستْ من الله! وبذلك قضى على مفهوم الأمم للسلطة والسيادة، في قوله: "تَعلَمون أنّ رؤسَاءَ الأمِمِ يَسْتَعْبِدُونَهَا، وأنّ عظمَاءَها يتسلَّطُون عَليها. أمّا الحَالُ بَينَكم فَآخَر: مَن أرادَ أنْ يكونَ فِيكم عَظيماً فليكنْ لَكم خَادماً. ومَن أرادَ أنْ يكونَ فِيكم أوَّلَ فَلَيَكنْ لَكم عَبداً " (متى ٢٠ /٢٥).

لم يسلّطِ الله الناسَ بعضهم على بعض؛ بل سلّطهم على المخلوقاتِ كلِّها من دون الإنسان. وهذا واضحٌ، من بدء الخليقة، حيث قال: "ليتسلّطِ الإنسانُ على أسماكِ البحر وطيور السماء والبهائم وجميع وحوش الأرض وجميع الحيوانات " (تك ١ /٢٦). أمّا علاقة الإنسان بالإنسان فلم تكن تسلّطاً أبداً؛ بل عوناً ومساواة، حتّى إنّ المرأةَ خلقها الله للرجل "عَوناً تناسبه " (تك ٢ /٢٠) وتساويه، لا أمة تخدمه.

وكلام يسوع في المساواة بين النّاس عبرة: "كلّكم إخوة. لا تُدْعُوا لكم في الأرض أباً، فواحِدٌ أبوكم هو الآب السماوي. ولا يُدعَيَنَّ أحدُكم هاديًا، فواحدٌ هاديكم هو المسيح. أعظمُكم خادمُكم. كلُّ متعالٍ إلى ضِعَة. وكلّ متَّضع إلى عُلوّ " (متى ٢٣ /٨-١٢). كلام عظيم جدّا، فهو يعني بوضوح: وحدَه الله، بكونه الخالق، ووحده يسوع، بكونه المخلّص، هما صاحبا السلطة والسيادة.

وفي هذا السياق حذّر يسوع تلاميذه من طلب السلطة. فهي، في أحسن حالاتها، عُجبٌ بالنفس وكبرياء. فيما هي، في حقيقتها، يجب أن تكونَ خدمةً وبذلاً وعطاء. "والمثالُ ابنُ الإنسان الذي ما جَاء ليُخدَم بل ليَخدُم. وبنفسِه يَفدي الكثيرين " (متى ٢٠ /٢٨ / /). وطالبو الملكوت، إنْ لم يعودوا ويصيروا كالأطفال، فلا ملكوتَ لهم (رَ: متى ١٨ /٣).

وإنْ كان لإنسانٍ على الأرض من سلطان وسيادة فهما ليسوع. وقد جرّبه الشيطان من موقعه هذا. إنّما لننظر جيّداً على مَن كانتْ سلطته وسيادتُه : كان يسوع يعلّم بسلطان، ويغفر الخطايا بسلطان،

وكان له سلطان على المَرَض، وعلى عناصر الطبيعة فتطيعه، وعلى الشياطين فتهرب منه، وعلى الناموس الذي تحكّم برقاب الناس... فيسوع هو ربّ السبت والناموس. وقد حرّر الإنسان منهما. وقد جاء يسوع ليحرِّرَ الإنسان من كلّ سلطة وسلطان عليه، ومن كلّ ناموسٍ قضى على حرّيّته.

وفيما كان الرّسل يتنازعون في منَ يكونُ الأعظمَ، عرفَ يسوعُ وسألهم: "فيمَ كنتم تتجادلون في الطريق؟ فوَجَموا. لأنّهم تجادَلوا في الطريق في مَن هو الأعظم. فجلسَ يسوع. ودعاهم. وقال لهم: "إنْ أرادَ أحدُكم أنْ يكونَ أوّلَ فليَكنْ آخِرَكم جميعًا وخادِماً " (مر ٩ /٣٣).

أمّا لوقا فيقول في روايتِه إنّ الرّسل "اختصموا في من يُعدّ الأعظم ". فكان جواب يسوع لهم: "أنتم ثبتُّم في شدائدي، وأنا أُعدّ لكم ملكوتاً " (لو ٢٢ /٢٨-٩). هذا يعني، وبكل وضوح، أنّ السلطة والسيادةَ والمقامَ الأوّل إنّما تكون لمن حمل صليبَ يسوع، وثَبَتَ في شدائده، وشرب كأسَه، وتألّم معه. ونشدَ ملكوتَ الآب.

وَعَبْرَ تاريخ الكنيسة، هل يختلف اثنان بأنّ الانقسامَ في الكنيسة كان بسبب تزاحم الرؤساء على المقامات والسلطان؟ وفي الرهبانيّة، هل يختلف اثنان بأنّ الانقسام الأول بين المؤسّسين، سنة ١٦٩٨، أي بعد ثلاث سنين فقط من تأسيسها، كان بسبب الرئاسة؟ وكذلك الانقسام الثاني، سنة ١٧٤٢، وكذلك الثالث سنة ١٧٥٢-١٧٧٠؟! ثمّ هل كان

في الرّهبانيّة مشاكل وخلافات ولم تكن بسبب المراكز والرئاسات؟! وأيضاً بسببِ علاقة الراهب بالسلطة؟!

بهذا التوجّه الإنجيلي، نقول: إنّ الطاعة في رهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة لن تكونَ عمياء، ولا خضوعاً لإرادة الرؤساء، ولا انكساراً للإرادة الذاتيّة، ولا تنفيذَ أوامر اعتباطيّة.. إنما ستكون وعياً لمسلسل أحداث عالميّة يتجلّى فيها الربّ، وتفاعلاً مع مشيئة الله الخلاصيّة، وتجاوباً مع نعمةِ الله التي وَهَبتِ الإنسانَ الحريّة، وحواراً بنّاء يتكامل بواسطته البشر، وجدَليّةً بها تنصهر الأفكار وتتبلور، وانفتاحاً على الآخرين باحترامٍ ومحبّة واعترافٍ لخصوصيّاتهم... وذلك كلُّه من أجل البحث عن الله والحقيقة، ومن أجل إعلان حقّ الإنسان وكرامته وحرّيّته. هذه الحقائق لا تنكشف الا بتفاعل إراداتٍ متناقضة، مختلفة، متصادمة، وحتى متصارعة.

الطاعة العمياء اختراعٌ عسكري، من أجل التسلّط واستعباد الناس، لا من أجل الخدمة، ولا من أجل السير بالعالم إلى الأمام. إنّها اختراع رؤساءِ هذا الدهر وأسياده، لتدعيم ضعفهم، وتقوية حكمهم، وتمرير حججهم.

لهذا، يجب أن تتسامى الطاعة الرهبانيّة حتى تصبح بمستوى طاعة المسيح الخلاصيّة لأبيه السماويّ، بمقابل معصية آدم التي جلبتْ لنا الهلاك.

رابعًا - المعارضة والموالاة

هذا الموضوع يكمّل الموضوعَ السابق ويوضحُه. نقول: إنّ الله لم يخلقْ أحداً مثلَ أحد. وفي هذا سرّ غناه. وفي الحياة الرهبانيّة أيضاً ليس أحدٌ مثلَ أحد. وفي هذا سرّ غناها: لو كان الرهبان متجانسين، متّفقين، منصاعين، مطواعين، متشابهين، متقاربين، وعلى وفاق تامّ فيما بينهم في الرأي والفكر والرؤيا، فلِمَ هُم؟ وما الفائدة منهم؟ ولماذا الأعداد المتشابهة؟!

من هنا نقول: إنّ الاختلاف بين الرهبان، والمعارضة الفعّالة للسلطة، هي علامات نجاح وصحّة وحرّية، وبوادر نموٍّ وتقدّم وتطوّر... وحتّى الانقسامات التي حصلتْ في الرّهبانيّة مراراً، ونتج عنها رهبانيّات مستقلّة منفصلة الواحدة عن الأخرى، هي من عمل الروح. وهي أفضل ألف مّرة من التوافق الخامل، أو من الاختلاف المتصادم. وكلاهما يفقر الرهبانيّة ويجمّدها، لا تتقدّم ولا تترقّى.

إنّ الحقيقة لا تنكشف، ولا يتقدّم البحث عنها قيد أنملة إن لم يدفعْها أناسٌ يَطعنون بها. كلّ شيء يتطوّر ويتقدّم، بسبب مزاحمة الشرّ للخير، وبسبب انتصار الشرّ أحياناً كثيرة. وقد عبّر بولس عن ذلك خير تعبير عندما قال: "حيث كثرتِ الخطيئة طفحتِ النعمة " (رو ٥ / ٢٠). هذا يعنى أنّ الأشرارَ يستحثّون الأبرارَ لإظهار نعمةِ الله في العالَم. ويعني أيضاً أنّ الملحدين يساهمون في التدليل على الله كالمؤمنين. وأنّ الذين طعنوا في الحياة الرهبانيّة أفادوها أكثر من المطمئنّين. وأنّ المعارضِين للسلطات والحكّام أولوهم قدرةً وحكمةً ودرايةً في حكمهم.

لهذا، فإنّ المعارضة، في الحياة الرهبانية، علامة خير. وقد لا يُعَبَّر عن وجود الديموقراطيّة والحرّية إلاّ بوجودِ معارضة. والإصغاء إلى المعارضة فضيلةُ الحكماء. والإصغاء يعني الاعترافَ بحقّ الآخر وقبولَه كما هو، وكما ميّزه الله. الإصغاء إلى صوت المخالِفين والمعارضين هو سرّ نجاح رهبانية الـ ٣٠٠ سنة المقبلة. والاعتراف بوجودِ آخَر مخالفٍ علامةٌ من علامات الجدّيّة في البحث عن الحقيقة المنشودة.

خامساً - الانتخابات النزيهة

العملية الانتخابيّة في الرهبانيّة ليست رهبانيّة. إنّها، في صيغها المختلفة، عبر تاريخها، كانتْ دائماً سبباً لخلافاتٍ شديدةٍ من حيث تفضيلها لأشخاصٍ على أشخاص. وليست هي معارضة بالمعنى الذي سبق وبيّناه: في كلّ عمليّة انتخابيّة تضيّع الرهبانيّة كثيراً من المحبة. والسرّيّة المطلوبة في الانتخابات هي أيضاً غير مصانة في الجماعات الصغيرة حيث تُجرى عمليّة الانتخاب. وهذا أمرٌ طبيعيّ. بالإضافة إلى هذا كلّه، تطفو، في الانتخابات المصلحةُ الخاصّة، والانتماءات العائليّة، وروح المقاطعة؛ حتى يصبح كلّ شيء في الرهبانيّة معرّضاً للاهتزاز.

فما العمل، والحالة هذه، في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة؟

نرجو أن يصار إلى ما بيّنّا أعلاه :

١ . ينتخبُ كلُّ راهبٍ، من لائحةٍ تتضمّن أسماء الرّهبان ذوي الحقّ الانتخابي، سبعةً مندوبين من كلّ مقاطعة. يفوزون بالأكثريّة

النسبيّة. يؤلِّفون، مع مجمع الرئاسة العامّة القائم، أعضاء المجمع العام الأربعين.

٢ . ويَنتخِبُ كلُّ راهبٍ الأبَ العام.

٣ . يفرزُ المجمعُ العام الأوراق؛ فمَن يفوز بالأكثرية المطلقة يكون أباً عامّاً. ومن لم يفزْ ينتخبُ المجمعُ العام واحداً من بين الإثنَين الأوَّلَين.

٤ . ثمّ ينتخبُ المجمع العام المدَبِّرين الأربعة بالتتالي.

بهذه الطريقة، حيث يكون الرّاهبُ أمام ضميره، مع لائحةِ أسماء، لا مع أشخاص، تصان الحريّة، وتُحتَرَمُ السرّية، وتُحفَظ وحدةُ الرهبانيّة، ويتعاونُ الكلّ، وتسلَم العلاقة بين الأفراد.

سادساً - العفّة والحبّ

لستُ أدَّعي معرفةَ معالجة مثل هذا الموضوع الشائك. لذلك اقترح لجنةً تبحث بصدقٍ وصراحةٍ ووضوح، فتنظرُ في كرامةِ الشخص البشريّ، وفي القِيم الإنجيليّة، والتراث المسيحي، كما تضعُ نصبَ عينيها بأنّ العفّة وسيلةٌ لا غاية، وبأنّ الحفاظَ على الإنسان أَولى، والقيامَ بأعمالٍ منتجةٍ هو المطلوب.

عيش العفّة الرهبانيّة في هذا الدهر الصاخب لمن المعجزات: العفّةُ فضيلة لا تُعاش في شوارع المدن ودُور الملاهي والسينما، ولا في التجوال والدوران والاختلاط والمعاشرات، ولا مع المشاهد العارية

والصور والرسوم الجريئة، ولا بين صفحات الكتب والمجلاّت التي تروِّج للبيع الكبير والكسب العظيم.

على المربّين أن يقولوا لنا أين تعاشُ العفّةُ الرهبانيّة؟ وكيف؟ إنّما أستطيع أن أقول وأجزم: العفّةُ تعاش في إطار حياةٍ ديريّةٍ مشتركة، مع جماعةٍ متحابّةٍ، في مشاريعَ جدّيّة ورصينة، في عملٍ منتجٍ متواصل، في أوقاتِ راحةٍ مُفيدة، في أجواء صلاةٍ وتأمّلٍ دائم، على صليبٍ منتصب أمام عيوننا، وفي ممارساتٍ تقشّفيةٍ يوميّة، وفي ضبط الحواسِ عن كل ما يجعلُ الفكرَ شارِدًا...

العفّة الرهبانيّة هي فضيلةُ تحريرِ القلبِ والعقلِ، والانصرافِ الكلّي الى الملكوت : فيومَ يستطيعُ الراهبُ اعتبارَ الناسِ كلِّهم إخوتَه وأبناءَه، تكونُ العفّة ممكنة. ويوم يَحترِمُ البُعْدَ بينَه وبينَ أيِّ إنسانٍ سواه، تكون العفّة ممكنة. ويوم يكون العملُ من أجل الملكوتِ غايته، تكون العفّة ممكنة. ويومَ يَجدُ إنساناً زاهداً، ناسكاً، متقشِّفاً، قليلَ الأكلِ والشربِ والنوم، كثيرَ الصلاةِ والصيامِ والصمتِ، عفيفَ النظرِ والسمْعِ، يومَها تكون العفّة الرهبانيّة ممكنة.

وأكثر ما أخشى أن تسبَقَنا نظريّاتٌ عالميَّةٌ في شأنِ العفّة والبتوليّة فلا تعود عندئذٍ نظريّاتُنا تنفعُ شيئاً. لهذا، فالأَمرُ ملِحٌّ، ولَجنةُ أبحاثٍ متنوّعةُ الاختصاصِ واجبةٌ. ورهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة يجب ألاّ تكونَ قوانينُها وفرائضُها كما كانتْ عليه سابقاً، ولا عَلى غيرِ ما

يمارسُه رهبانُها، ولا أيضاً بمفاهيمَ لا تستند إلى الفكر اللاّهوتيّ المعاصر.

سابعاً - الفقر والمال

لن نَنذِرَ الفقرَ بعدَ اليوم. بل نَنذِرُ للفقراء. ننذِرُ العملَ المجّاني، ومساعدةَ الفقراء، والتضحيةَ في سبيلِهم. قد ننذرُ عدم الملكيّة الخاصّة، وعدم التفريط في المأكل والمشرب والمسكن والملبس. وقد ننذر أيضاً الحفاظ على خيراتِ الكنيسة والرهبانيّة، وأن لا نعيش من وارداتِ الأوقاف وممّا وفّره لنا الموتى من الآباء والأجداد، وأن لا نورِثَ أحداً من الأولاد والأحفاد.

ولِمَ نحن إلى هذا الحدّ أغبياء؟! فهل الفقر يعني ألاّ يكونَ باسمنا ممتلكات، وبنايات، ومصانع، وحسابٌ خاصّ في المصارف وحسب؟! أم الفقر أيضاً ألاّ يكونَ بحوزتنا سيّارةٌ من طراز رفيع، وتلفزيون وفيديو؟ وثيابٌ حريرية ممهورة، وآلاتٌ موسيقيّة رفيعة؟! وكمبيوتر، وبرامج، وأنترنِت، وبريد إلكتروني، وهاتف محمول... أليستْ هذه موجودة عند ناذري الفقر في الرهبانيّة؟! وهَل هم بها فُقَراء؟! وهل هذه تكون من دون فتْح حسابات خاصّة في المصارف؟!

ولِمَ نخادعُ أنفسَنا ونخدع سوانا؟ فنسجّل على دفاتر الدير ما لا شأن للدير به، كالدخان، والسّفر، والثياب، والمشروبات ، والعطور، والأثاث الفخم، وغير ذلك وهي كلّها، وغيرها، يستهلكها الرّاهبُ لا الدير!!

وهل الذين لا يعملون، وبالتالي، لا يُنتِجون، هم فقراء؟ أم الذين يعملون فيُنتِجون ويتصرّفون بالمال، ويُقيمون مشاريع، ويتحمّلون مسؤوليّات، هم فقراء؟

ثمّ كيف يكون راهبٌ فقيراً وقد سلّمتْه الرهبانيةُ رأسمالٍ خاصّ ليحسن التصرّف به! وتكلّفت كلَّ شيء على تربيته، وكمّلتْ معه حتّى مرحلة الاختصاص!! أليس على هذا الرّاهب أن يستثمر رأسماله هذا؟ وهل يكون استثمارٌ من دون مال؟!

رهبانية الـ ٣٠٠ سنة المقبلة لن تكون كذلك. ولن يبقى الفقر نذراً سلبيًّا. وعلينا أن نسمّي الأشياء بأسمائها ونضع النقاط على الحروف: الفقر إنما يكون في حياتنا ومسلكنا ومظهرنا؛ ويكون أيضاً في مساعدة المحتاجين. ولن تنموَ الرهبانيّة، عددًا وفضيلةً، إلاّ بهذا... وأعدى أعداء الحياة الرهبانيّة البطالة وضياع الوقت. في هذين تكمن الرذيلة كلّها.

ثامناً - العمل والعلم

يتعلّق موضوع العمل بموضوع الفقر مباشرة. ولي فيه ما يلي: على كلِّ راهبٍ أن يعمل، وأن يعمل بموجبِ اختصاصِه وميلِه وتوجّهِه، وإلاّ فهو يتسلّى ليس إلاّ.

ليس على الرهبانيّة أن تكلّفَ راهباً بأيّة مهمّةٍ أو وظيفةٍ إلاّ بعد أن تكونَ قد اختارتْ له، في حياته كلِّها، عملاً جدّيًّا واختصاصًا معيَّنًا. ولا يقوم الراهب برسالة، أو يخدم رعيّة، أو يكون مرشداً، أو يتحمّل

مسؤوليّة اجتماعيّة، أو يقود سيّارة... قبل أن يُحدّد مجالَ عمله ويعيّن مادّةَ اختصاصه.

ولا بدّ، لكي يكون العمل جدِّيًّا، من الاستقرار والثبات. ولا بدّ أيضاً من أن يكون العملُ مثمراً، والاختصاصُ ناجحاً.

ولا يعوز الراهب اللبناني الماروني، لكي يكون سعيداً وسليمَ العقل ومتّزنًا، أكثر من أن يكون عاملاً منتجاً. فهو بذلك يكون راهب الـ ٣٠٠ سنة المقبلة.

تاسعاً - يوم النّسك

مهما قيل ويقال في الرِّسالة وأهمّيتها، فإنّ الحياة الرهبانيّة لا تزال متّصلةً بالبرّيّة. ومهما تعدّدتْ مواهبُ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونية، وانصرفت إلى الأعمال والنشاطات، وعملت في الجامعات والمدارس والمستشفيات، وارتبكتْ بأعمال التجارة والزراعة والإنتاج والإيجارات... فإنّها لا تزال، في عمق أعماقها، تحنُّ إلى تلك المحبسة الرابضة في جوار كلِّ دير.

ولنا على ذلك من التاريخ أدلّة:

١. هناك، بالقرب من معظم الأديار القديمة، محبسة.

٢. وهناك قانون قديم للحبساء، وضعه أحد المؤسسين عبدالله قراعلي[74]. ثمّ وَضع قانوناً آخَر الأبُ العام اغناطيوس بليبل[75]، وقانونًا

---

74 أنظر كتاب المصباح الرهباني لعبدالله قراعلي.

ثالثاً وضعَه الحبيسُ أنطونيوس شينا[76]، وقانوناً رابعاً مدرجاً في قوانين سنة ٢٠٠٣.

٣. ثم هناك رعيل كبير من الرهبان آثروا سكنى المحابس. وقد عدّ أشهرَهم الأب ليباوس داغر في كتابه المذكور، وبلغ عددهم ٦٣ حبيساً.

٤. وفي الأديار أيضاً رهبان يعيشون، بالقرب من إخوتهم، كالحبساء. وكثيرون منهم يميلون كلَّ الميل إلى حياة الزهد والنسك والتقشّف. ولا تزال المحبسة تشدّهم إليها.

ولستُ أجدُ الحياةَ الصحيحةَ والجدّيةَ في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة إلاّ مشدودةً إلى المحبسة. وسوف يجيء الرّوح برهبان همّهم الرّب وحدَه.

وإذا ما تأخّر هبوب الروح يتحتّم على الرهبانيّة، لكي تستمرّ شاهدةً لقيمها، أن تصنَع لكلِّ راهبٍ يومًا في الشهر يُسمّى "يوم النسك". فيه يتخلّى الرّاهب عن أعماله كلِّها. يترك ديرَه. ينسحب إلى مكان ناءٍ. يختلي. يعترف. يسترشد. يصلّي. يتأمّل. يصوم. يتوب. يمارسُ إماتاتٍ جسديّةً حتى الانسحاق.

---

75 أنظر كتاب "كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء"، الأب ليباوس داغر، تقديم وتحقيق الأب جوزف قزّي، سلسلة التراث الماروني - رهبانيّات، رقم ٤، الكسليك، ١٩٨٨.

76 أنظر مجلّة أوراق رهبانيّة، عدد ٣٧.

من دون "يوم النسك " هذا، نحن سائرون إلى حياةٍ لا علاقة لها بالحياةِ الرّهبانيّة. إنّه رمزُ ما ستكون عليه الرهبانيّة في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة.

عاشراً - رسالة الدير

الرسالة في الرهبانيّة هي للدير لا للرّاهب. والدير هو الرسول لا الرّاهب:

إنْ أقيمتِ الصلواتُ في الدّير بإتقان، وكذلك الاحتفالات والأعياد والرياضات الروحيّة. وإن حافظ الرهبانُ في الدّير على قوانينِهم وفرائضِهم وأنظمتِهم وأعمالِهم ومسلِكهم ومَثلِهم. وإنْ كان الدَّير مضيافًا، فاتحاً أبوابه للزائرين والمحتاجين والفقراء. وإنِ اهتمّ الدّير باستغلال ممتلكاته، وأجادَ إدارتَها، واعتنى بها. وإنْ شغّلَ الناسَ، وعَدَلَ في أجورِهم، وساعدهم.. عندئذٍ يكون الرّاهبُ رسولاً، والرّهبانيّة تعمل من أجل انتشار ملكوت الله.

ولا ننسى باباً في القانون الأسود سمِّي "باب الضيافة "، وكان راهبٌ مسؤولاً عن استقبال الزّائرين والضيوف. يُحسن معاملتَهم، يُعدُّ لهم غرفَ النّوم، ومائدةَ الأكل، ومالاً للمساعدة.. وذلك لاعتقاد المؤسِّسين والرّهبان الأوّلِين بأنّ الضيافةَ والكرَم واستقبالَ الناس لمن أجدى أنواع الرسالة والشهادة. وخبر اهتداء موسى الحبشي، زعيم أربعين لصّاً، خيرُ دليل على ذلك.

وأقول أيضاً: إنّ الدير الرسول أجدى من الراهب الرسول وأكثر فاعليّة: رسالة الدير مجرّدة، ليس الافتخار فيها لأحد؛ أمّا رسالة الرّاهب ففيها ما فيها من افتخار وتمجيد للذات. والناس يمتدحونه. والإنسانُ عادة ضعيفٌ أمام مادحيه.

رسالة الدّير تبتدئ بجيرانه، وهو بجيرانه أولى؛ فيما رسالة الراهب المفضّلة تكون مع البعيدين، فهو فيها حرّ طليق، يعمل لنفسه، ويفتخر بما يعمل. ويُخشى، والحالُ هذه، أن يكون هو المستفيد لا الرّب.

فلتعدِ الرسالةُ إلى الدّير، لا إلى الرّاهب. وليختفِ الراهبُ في ديره، فيكون رسولاً حقًّا. هذا النوع من الرسالة هو، من دون شكّ، من ملامح رهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة.

حادي عشر - الوسيلة إلى الرسالة

ما هي الوسيلة العصرية، التي يجبُ الاعتمادُ عليها اليوم، لنبلّغَ كلمةَ الخلاص إلى العالم؟ كيف تشهد الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، في هذه المنطقة، للقيم التي بها تؤمن، والتي من أجلها كانت؟ كيف تعمل؟ وأيّة وسيلة للرسالة تقوم بها؟

كلُّ عبقريّةِ مَنْ يَوَدّ خيرَ الرهبانيّة، ومَن يتطلّعُ إلى رهبانيةِ الـ ٣٠٠ سنة المقبلة، تكمن في الجوابِ على هذا السؤال: مَا هي الوسيلة العصريّة الفعّالة لقيامِ الرهبانيّة بعملِ الرسالة، في عالم اليوم، والتي يستوعبُها الناس، وتَفيدُهم، وتجذبهم إلى إيمانٍ ملتزم، وحياةٍ مسيحيّة

صادقة في مختلف أحوالهم وشؤونهم وأعمارهم وثقافاتهم؟

وسؤال آخَر يؤرقني: ما هي الوسيلة الرسولية التي تتلاءَم مع الحياة الرهبانيّة؟ وما هي الوسائل التي لا تتلاءم معها؟ أي: أيٌّ عملٍ رسوليٍ لنا الحقّ به؟ وأيّ عمل ليس لنا الحقّ به؟

أجيب على هذه الأسئلة الكبيرة بوضوح واختصار:

إلى جانب حياةِ الصلاة والنسك والعمل في الأرض وفي المدرسة وخدمة الرعايا، ثمّة وسيلة عصريّة فعّالة تفرض نفسَها في ما يُسمَّى اليوم "وسائل الإعلام". العاملون في هذه الوسائل، يستطيعون، بحسب قول المجمع الفاتيكاني الثاني "أن يَحملوا الإنسانيّةَ في أن تَسيرَ في طريقِ الخير أو في طريقِ الشرّ"[77]. و "المجتمعُ البشري، بحسبِ قولِ المجمع أيضاً، يتعلّق مصيرُه، يوماً بعد يوم، بحسنِ استعمالِهِ لها"[78].

وعلى الكنيسة اليوم "أن تستخدمَ وسائل الإعلام لتُعلنَ رسالة الخلاص"[79]. هذه الوسائل "تؤدّي للجنسِ البشري خدماتٍ جلّى... إنّها تُسهِمُ بطريقةٍ فعّالةٍ بالترويحِ عن النفس، وتثقيفِها، وبامتدادِ ملكوتِ الله وترسيخِه.. وبإمكانِ الناسِ أن يستخدموها، ويحوّلوها إلى هلاكِهم بالذات"[80].

---

77 قرار في وسائل الإعلام الإجتماعية، عد ١١، ٢٤، ٣، ٢.

78 المرجع السابق نفسه.

79 المرجع السابق نفسه.

80 المرجع السابق نفسه.

من هنا نقول: إنّ الوسيلة العصرية لرسالةِ الرهبانية اليوم، في هذه المنطقة المفطورة على "الصوتِ والصورة "، هي أوّلاً: التلفزيون والإنترنت.. وتاسعاً: الكتاب، وعاشرًا: الصحافة.

لن أتركها مفاجأة لأقول بأنّه على الرهبانيّة خلال الـ ٣٠٠ سنة المقبلة، في رسالتها في العالم، أن تتوجّه بواسطة هذه "العلبة الساحرة " التي تختصر الجامعة والرّعيّة والمدرسة ومنابر الوعظ والرياضات الرّوحيّة وإرشاد الشبيبة.. وتتوجّه إلى كلِّ النّاس، وهم في بيوتهم وحالاتهم المختلفة، صغاراً وكباراً، أصحّاء ومرضى... إنّها تختصر، حقًّا، كلَّ أنواعِ الرّسالة.

ثاني عشر - التوأمة بين دير وقرية

على كلّ ديرٍ، إن أمكن، أنْ يتبنّى قريةً ما في مكانٍ ما من لبنانَ أو قبرص أو سوريا أو مصر، أو أيَّ بلدٍ عربيٍّ.. ويُقيم مع هذه القرية توأمةً كاملةً على مختلفِ الأصعدة، الرّوحيّةِ والرّعائيّةِ والثقافيّةِ والاحتفالاتِ الطقسيّةِ والمساعداتِ العينيّة والمشاريع العمرانيّة والزياراتِ والرسائلِ المتبادَلةِ والخدماتِ في كلِّ مستوى...

يدفعُنا إلى ذلك إقتناعُنا بأنّنا لسنا قادرين على كلِّ شيء ولسنا نستطيع أن نكونَ في كلِّ مكان، ولسنا أيضاً بمُوَلَّجين بسَدِّ حاجاتِ الكنيسة الجامعة في العالَم كلِّه. ليس بمقدورنا أن نكونَ للجميع، وأن نقومَ بأعمال الرسالة جميعِها. فلننجح جيّدًا في مكانٍ ما فيكون نجاحُنا كاملاً في كلِّ مكان : ألربّ نفسُه لم يعملْ إلاّ ضمنَ حدودٍ جغرافيّةٍ

ضيّقةٍ جدًّا، ومع أشخاصٍ معدودينَ محدودينَ جدًّا. والقدِّيس شربل لم يترك محبسَتَه، ولكنّ العالم كلّه أصبح، بقداسةِ حياته، مجالاً لرسالته.

هذا النّوع من الرسالة هو المستطاع. وهو أكثر إفادةً للناس في خدمتهم وفي تبشيرهم، حيث هم، في مجتمعهم وبيئتهم التي نشأوا فيها، ويعملون. والنتيجة أجدى.

ولنا على هذا التوجّه حجّةٌ واضحةٌ من القديس بولس الذي لم يكتب في موضوعاتٍ لاهوتيّة، وقِيمٍ أخلاقيّة؛ بل كتب إلى مدن وقرى بأسمائها: إلى روما وقورنتس وغلاطية وأفسس وفيلبي وقولوسي وتسالونيكي. وكتب إلى أشخاص بأسمائهم، إلى طيموتاوس وطيطس وفيلمون.

إنّ حصرَ العملِ في قريةٍ ما أجدى من العملِ في كلِّ مكان. وهي من ملامح رهبانيّةِ الـ ٣٠٠ سنة المقبلة.

ثالث عشر - السبيل إلى الدّعوات

لإنماء الدعوات الرهبانيّة شروط واضحة، لا هي من علم الغيب ولا من غياهب السحر. لا هي بالاتكال على مشيئة الله من دوننا، ولا هي من عملنا من دون نعمة الله ودعوته. دورُ الله في اختيار الدّعوات الرّهبانيّة رهنُ مشيئته ونعمته. أمّا عن دورِنا نحن فنقول :

لا رهبانيَّة تستمرُّ وتبقى من دون دعوات. ولا دعواتٍ لرهبانيّةٍ تريد الاستمرارَ والبقاء من عيالٍ مسيحيَّةٍ قليلةِ الأولاد. العيلة ذاتُ الولد الواحد، أو الوَلَدين، لا يكون منها دعواتٌ رهبانيّة. ولا يجب أن يكون.

النتيجة، إذاً، لا دعوات. وبالتالي انقراض الرهبانيّة.

فما العمل لكي تستمرّ الرّهبانيّة ٣٠٠ سنة جديدة؟

نقول: على الرهبانيّة أن تعمل ما بوسعها على أن تكونَ العيلةُ المسيحيّةُ كثيرةَ الأولاد. لكنّ كثرةَ الأولاد في العيلة، اليوم، لَمِنَ المستحيلات، بسبب عوائقَ ماديّةٍ واجتماعيّةٍ وتعليميّةٍ وتربويّةٍ وصحّيّةٍ مستعصيةٍ ناتجةٍ من سياسةِ دولةٍ فاشلةٍ وقادةٍ أغبياء. على هذا يتحتّم على الرهبانيّة، وليس على سواها، وخدمةً لنفسها قبل غيرها، أن تلتزم، لكي تستمرّ وتبقى ٣٠٠ سنة جديدة، بما يلي :

١. بإيجاد مساكن للعيال المسيحيّة بأسعار الكلفة،

٢. بمساعدة الأهل في التعليم وأقساط المدرسة،

٣. بمساهمتها في الطبابة والاستشفاء والدواء،

٤. بإيجاد أبوابٍ رزقٍ للمحتاجين وعملٍ للعاطلين،

٥. بتبنّي الولد الثالث وما فوق في كلِّ شيء حتى الاختصاص.

هذه الواجبات قد لا تكون من دون شروطٍ في صالح الأهل والأولاد والرّهبانيّة. والتكلّم عن هذه الشروط سهل. والأسباب والنتائج واضحة.

ولِمَ الهروبُ من واقعٍ أليمٍ جدًّا : فالعيلة المسيحيّة الصغيرة تكاد تكون الخطر الأكبر على استمراريّة الرهبانيّة، كما على الوجود

المسيحي في لبنان والشرق. فعلى رهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة أن تعمل ما بوسعها لمواجهة هذا الخطر.

رابع عشر - مدرسة الترهّب

لا أعلم ما الاسم الرّسمي لهذه المدرسة؟ أهي مدرسة رسوليّة؟ أم إعداديّة؟ أم طالبيّة؟ أم إكليريكية صغرى؟.. أم غير ذلك. في كلّ حال، لهذه المدرسة أهمّيّتها بالنسبة إلى الرهبانيّة. وهي من الأولويّات فيها، قبل الجامعة، والمدارس، ورئاسات الأديار والمراكز، والمشاريع العمرانيّة والاقتصادية، واستثمار الأرض والممتلكات. هذه المدرسة يجب أن تُبنَى مُجدَّداً، في مكانٍ جغرافيٍّ ممتاز، بعدَ أن ذهبتْ ضحيّة الاهتمام الكبير بالجامعة.

هذه المدرسة المرتقبة تتألّفُ من بناياتٍ عدّة، معدَّةٍ، بطرقٍ فنّيّةٍ حديثة، لاستيعاب أكبر عددٍ من الأولاد في مراحل التعليم الابتدائي والمتوسّط والثانوي. لا يقلُّ عددُ روّادها عن الخمسماية. وإذا تخطّوا الألف والألفين يكون هو المطلوب.

قد يكون لكلّ صفٍ فيها فرعان وأكثر: فرعٌ منها يكون عنده الاستعداد والميل لاعتناقِ الحياة الرهبانيّة، وفرع يتلقّى التوجيهَ نفسه، يعَدُّ ليكونَ من أصدقاءِ الرهبانيّة العلمانيّين الذين سيؤلّفون "رهبنةً علمانية"، نتكلّم عليها بعد قليل.

رهبانية الـ ٣٠٠ سنة المقبلة لا يمكن أن تستمرَّ وتبقى من دون دعوات. والدعوات لا تكون من دون اهتمامٍ تربويٍّ رفيعٍ من قِبَلِ

الرهبانيّة. وهذا الاهتمام قد لا يكون خارج "مجمّع تربويّ رهبانيّ " لمختلف الفئات التربويّة في الرهبانيّة.

خامس عشر - الرهبنة العلمانيّة

هؤلاء هم "شركاؤنا الجدد "، أو ما سمّي بـ "الرهبنة الثالثة ". نقول: لا يمكننا، ولا يحقّ لنا، أن نكونَ في العالمَ اليوم مُستَفرَدين، من دون أصدقاء وشركاءَ ومعاونين ومستشارين وخبراء. فأملاكُ الرهبانيّة الشاسعة، التي لا يجوز أن نضحّي بشبرٍ واحدٍ منها، ومشاريعُها العمرانيّة والتربويّة والاقتصاديّة.. لا يمكننا إدارتُها وحدَنا، ولا تغطيتُها من دونِ مساعدة. كما لا يحقّ لنا أن نتصرّفَ بها على هوانا. فنحن في عالَم مضطرِبٍ مسيحيًّا، وممتلكاتُ الرهبانيّة قِجّةُ المسيحيّين في الشرق المضطرب. فما الحلّ والحال هذه؟

الحلّ هو إيّاه، في الماضي وفي الحاضر: التعاون مع "شركاء "، يقوم على تأليف جماعةٍ مسيحيّة من أصدقاء الرهبانيّة، يكونون معنا في إدارة كلِّ شيء، وفي تحمّل مسؤوليةِ كلِّ شيء. ولهم الحقّ في أنْ نتقاسم معاً المكاسب والأرباح والمصير. نعمل معاً في تطوير رأسمال الرهبانيّة.

وهذا ليس جديداً في ما نحن عليه في أديارنا ومدارسنا ومؤسّساتنا كلّها. ففي المدارس عندنا مساعِدون من أساتذة وإداريّين وموظّفين وعمّال. وفي المستشفيات عندنا مساعدون من أطباء وممرِّضات وموظّفين وإداريّين وعمّال. وفي مشاريعنا الاقتصاديّة

والإنمائيّة عندنا محامون ومهندسون ومقاولون وعمّال وخدم. وحتّى في أديارنا ومراكزنا عندنا معاونون من كلّ نوع...

هكذا على رهبانية الـ٣٠٠ سنة المقبلة أن يكون لها معاونون أصدقاء يكونون "شركاءَ جددًا "، لهم وعليهم ما للرّهبانيّة وعليها. إنّهم ظلّ الرّهبانيّة في العالم. يدها القديرة. عينها الباصرة. عقلها العملي. "شركاء " بأسلوبٍ جديد وبطريقة حديثة ومعاصرة.

واجباتُ الرهبانية تجاه هؤلاء "الشركاء الجدد ": توجيهُهم وتدريبُهم وتخصيصُهم ومقاسَمَةُ الأرباح معهم والإهتمامُ الرّوحيّ بهم، وتثقيفهم بثقافةٍ لاهوتيّة متطوّرة، وتعليمُ أولادِهم، وإعطاؤهم حقَّهُم في الطبابة والضمانِ وحالاتِ العجز والعوز.

هؤلاء، بكلمةٍ صريحة وواضحة، هم رهبانٌ في العالم، ناذرون متزوِّجون، فقراء يملكون، مطيعون أحراراً، عاملون خارجَ الأديار والأسوار.

مرّةً أخرى نقول: على الرهبانيّة أن ترتاح من هموم إدارة أملاكها ومشاريعها، وتتنصرف إلى أعمالِ الروح والعبادةِ والحياةِ النسكيّةِ والتأليفِ وإدارةِ النفوسِ وخدمتِها. ويكون "شركاؤنا " هؤلاء عوناً وعيوناً وسواعدَ ومستشارين وخبراء. فموقعنا المسيحيّ من دونهم صعبٌ في هذه المنطقة. وقد لا نجتازه من دونهم كرقباءَ في مواقعِ الخصوم.

سادس عشر - كُتُبٌ لا بدّ منها

يقع على عاتق الرهبانيّة في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة مسؤوليّة التأليف في مجالاتٍ روحيّةٍ ولاهوتيةٍ عديدة. وقد يكون عليها بنوع خاصّ أن تحدّدَ تطلّعاتِها ورسالتها في ما يلي مِن كتب :

١. كتاب القوانين الرهبانيّة. إنّما بإسلوب ورؤية لاهوتيّة معاصرة.

٢. قاموس رهباني، فيه المصطلحات الرهبانيّة مع تحديدِها والتعريف بها

٣. مجلّة رهبانيّة، تهتمّ بكلِّ ما يعود إلى الحياة الرهبانيّة وتاريخها.

٤. سلسلة لاهوتيّة، كتابيّة، علميّة حديثة، تتوجّه إلى شرقنا المسيحي الإسلامي واليهودي. فنحن، لا سوانا، مسؤولون عن كنيستنا في هذه المنطقة، وعن نموّ ملكوت الله.

هذه الأربعة قد تساهم، بطريقة فعّالة، في تنمية الدّعوات الرهبانيّة، من خلال التعرّف الحقيقي والعميق على كلّ ما في الرهبانيّة وتاريخِها وتراثها من قِيمٍ وتطلّعات.

سابع عشر - الرّهبانيّة والرّهبانيّات

علاقة الرهبانيّات في لبنان، بعضها ببعض، ليست على ما يرام. كلّها تعمل الأعمال نفسَها، في الأمكنة نفسها. لا تنسيقَ بينها في عملها، ولا اختصاص يميّز واحدةً عن أخرى. هناك مناطق مسيحيّة محرومة من أيٍّ وجودٍ رهبانيّ، ومناطق أخرى متخمة. يضاف إلى

ذلك أنّ تنافساً قاتلاً، وحسداً موبَقًا، يتحكّمان في معظم الرهبانيّات: فما أن تكونَ رهبانيّةٌ فتحتْ جامعةً، أو مدرسةً، أو مستشفى، إلاّ وتكونُ قامتْ رهبانيّةٌ أخرى بالعملِ نفسِه وفي المكان نفسه.

هذه الظاهرة ليستْ من علامات الصحّة في كنيستِنا ومجتمعنا.

وهل يكون العلاج في ضمّ الرهبانيّات بعضها إلى بعضها، طالما لا يوجَد أيّ فرقٍ في أيِّ شيءٍ بينها! إنّه موضوعٌ جدِّيٌّ للدرس؛ لأنّ كلَّ شيء فيما بين الرهبانيّات المارونيّات الثلاث يبدو مشترَكاً : التاريخ، والتراث، والأهداف، والتوجّهات، والاختصاصات، والأعمال والأدوار... وحتّى التفتيش عن الدعوات والتشكّي من نقصها يبدو مشترَكاً.

فهل يكون هذا كلّه دعوةً جديَّةً لإعادة النظر في الـ ٣٠٠ سنة المقبلة؟

ثامن عشر - الأمور المصيريّة

على رهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة أن يكون لها مواقفُ صريحة وواضحة من مختلف الأمور المصيريّة الكبرى، في الأمور اللاّهوتيّة كما في الأمور الاجتماعيّة، في الشؤون العمليّة كما في الشؤون الوطنيّة، في حقول التربية كما في حقول الاقتصاد... فالرهبانيّة كالكنيسة تعيش على أرض وفي وطن، وتحقّق التجسّد بكامله، أي تلتزم قضايا الإنسان والمجتمع وتدافع عنها، وتعمل فيها.

إنّ القول بأنّ في المسيحيّة فصلاً بين الدِّين والدولة، أي بين ما

هو لله وما هو لقيصر، أي بين الرّوحيّ والزّمنيّ، هو قول خاطِىء من أساسه.

ينفي هذا القولَ أمران : التجسّد والكنيسة: في التجسّد، تبنّى الله الإنسانَ كما هو وحيثُ هو. وفي الكنيسة، يواكب الله الإنسانَ في تطوّره ورقيّه.

غير ذلك حالُ الإسلامِ تماماً. لقد قيل قولاً خطأ إنّ "الإسلام دِينٌ ودولة ". الصواب هو أنّ الإسلام، منذ أن كان حتّى اليوم وإلى آخر الدهر، هو هو، لا يتغيّر ولا يتبدّل، وبالتالي، ليس له أيّةُ علاقةٍ بهذا العالم المتغيِّر والمتبدِّلِ أبداً. دليل ذلك أنّ الإسلامِ، بما فيه من شرائع ثابتة، وتعاليم قائمة، وكتابٍ منزَلٍ منذ الأزل وإلى الأبد، لا يواكبُ العلمَ والتطوّر، بأيٍّ حالٍ من الأحوال؛ فيما المسيحيّة، بفضلِ عاملَي التجسّدِ والكنيسة، تواكبُ الإنسانَ والعلمَ باستمرار.

بسبب هذا المبدأ نقول: على الرهبانيّة أن تواكبَ الإنسانَ في شؤونه المصيريّة. ويكون لها رأيٌ واضحٌ وموقفٌ حازمٌ من جملة أمور:

١. من اليهوديّة والإسلام والدرزيّة والنصيريّة، وكيفيّة التعامل معها.

٢. من إسرائيل وسوريا لما لهما مع لبنان من حدودٍ وقضايا مشتركة.

٣. من الحوار والعيش المشترك، كقضايا دينيّة ووطنيّة واجتماعيّة..

٤. من العروبة والطائفيّة والعلمنة، كمسائل وطنيّة أساسيّة.

٥. من مناهج التعليم وطرقِ تدريسِها، وهي فاعلة في تربية الأجيال.

٦. من الأمور الإجتماعيّة والإنسانيّة، كالطبابة المجانيّة، والزاميّة التعليم، وضمان المرضى والعجّز، وتأمين الشيخوخة، وما إلى ذلك... فقد آن الأوان في أن يُرفَعَ عن كاهل الإنسان عبءُ تكاليف الحياة.

هذه بعضُ ما يقع على عاتق رهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة بأن تكافح وتناضل من أجلها... وإلاّ فنحن لم نحقّقِ التجسّدَ بعد، ولم ندخل في سرّ الكنيسة أيضاً.

تاسع عشر - الأرض والكنيسة

قد لا تكون ملكيّةُ الأراضي في غيرِ لبنانَ هدفاً؛ غيرَ أنّها في لبنان هي هدف لا وسيلة. وأكاد أقول: إنّ سياسةَ الرهبانيّةِ اللبنانيّةِ المارونيّةِ كانتْ، منذ نشأتها وعَبر تاريخها، في امتلاكِ الأراضي الشاسعة، جَبَلاً وسَاحِلاً وجُردًا، شَمالاً ووسطاً وجنوباً. وكان اهتمامُها بها بالِغًا.

وكان ذلك سبباً من أسباب إنتشار الرهبانيّة وتوسّعها. وبازدياد الأملاك ازدادتِ الدعوات وأعمال الخير؛ كما ازداد الأصدقاء والشركاء، ونمت الرسالة أيضاً، والاندفاع المتبادَل بين الرهبان والمواطنين.

هذا كان بالأمس. فهل هو اليوم عامل فعّال في الرسالة والانتشار ونموِّ الدعوات، أم هناك بديل؟ وما هو؟

نقول : ثمّة اليومَ بديلٌ عن تملّكِ الأرضِ هو في كيفية استعمالها. بالأمسِ استُعملتِ الأرضُ للزراعة، فأدّتْ، في ما استُعملتْ، غايتَها. أمّا اليوم فنرى البديل في التجارةِ، أي التجارةِ بالأرضِ نفسها. أرضٌ بأرض. نبيعُ في منطقة لنشتريَ في أخرى. نبيعُ قليلاً لنشتري أكثر. نبيعُ في منطقةٍ مسيحيّة لنشتري في مناطق غير مسيحيّة. لقد باتِت الزراعةُ، كما نقومُ بها، غيرَمُجدِية. وحلقاتُها عندنا غيرُ متكاملة، إنّها ضحيّةُ سياساتٍ غبيّةٍ أدّتْ بها من خسارةٍ إلى خسارةٍ.

فرهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة ستعتمد على الأرض أكثر، إنّما بطريقةٍ أخرى، وبحكمةٍ مختلفة، ومن أجل رؤيا جديدة، وغاية أسمى.

أختم وأقول :

هذه كانت بعض ملامح رهبانيّة الـ ٣٠٠ سنة المقبلة. لا أدّعي بأنّني استوعبتُها كلَّها، أو بأنّني أجدتُ في معالجتها... بل أدّعي بأنّني تجرّأت على عرضها بما يخالِف المألوف. وحسبي أنّني فتحتُ نافذةً لهمٍّ يأكلُ مع مَن يحمل لرهبانيّته في قلبه حبًّا كما أنا أحمل.

إنّني أحبّ رهبانيّتي. لذلك تكلّمتُ. أحبّها لأنّها كنيستي، ومكانُ قداستي، ومحلُّ خلاصي. وفي مقبرةٍ من مقابر قدّيسيها سأرقد متبرِّكاً برفاتهم. وعلى مَن يُحبُّ رهبانيّتَه، كما أحبّها أنا، أن يمدَّ لي يده. فنعدّ معاً شيئاً ما يكون بمستوى ثلاثمائة سنة من القداسة.

٤٤
قصّة "المقاطعة" والانقسامات
في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة

مقدّمة

يُدرك أبناء الرهبانيّة اللبنانيّة المارونية تماماً، ومَن تقصّى شؤونَهم، ما معنى "المقاطعة"، ما المقصود بها، ما مفهومها، وحدودها، وأبعادها، ومشاكلها، وموقف كلّ راهب منها... لهذا، لا نحتاج إلى عناءٍ كبير لكي يعرفَ الجميعُ أهمّيةَ هذا الموضوع في تاريخ الرهبانيّة وحياتها.

ونودّ، منذ الآن، أن نشير إلى استنسابِ معالجتهِ اليوم، في معمعة تجديد القوانين والفرائض وتصحيحها؛ ولأهمّيتها بسبب كونها مشكلةً حياتيّةً تقسيميّةً في الدرجة الأولى. يعيشها معظمُ الرهبان بألم؛ وبعضهم يرى فيها شرّاً لا بدّ منه.

غير أنّ منهم مَن وجد ويجد لها تبريراً تاريخيًّا، وتبريراً إداريًّا، موافقاً لحلولِ مشاكلَ عديدة. إنّها بالنسبة إلى هؤلاء موجودة، معاشة ومدعاةُ توازن.

ومنهم مَن يرفضها رفضاً قاطعًا. لا يريدها. ولا يريدُ حتّى ذكْر

اسمِها. إنّها عارٌ وشنار. وهي مدعاة تحزّب وانقسام. لسنا بحاجة اليها في أيٍّ مستوى. البقاء عليها قد يُنذر بشرٍّ، يجب تجنبّه مهما كلّف الأمر.

ومنهم من يقف منها بين بين. هم معها على صعيد الحكم والإدارة؛ وضدّها اذا ذهبتْ أبعد من ذلك. هؤلاء لا يستسيغون ذكْرَ اسمها في القوانين، ولكنّهم يقسّمون الرهبانيّة إلى مناطق ليسهل حكمها وإدارتها واجراء عمليّات الانتخابات فيها. يتّصف موقف هؤلاء عادة بالخجل؛ وتنقصهم الجرأة لمواجهتها.

هذه المواقف تستدعي منّا توضيحًا، لا سيّما وإنّ الأزمة القائمة في الرهبانيّة، بسبب المقاطعة، تطال عمق الحياةِ فيها. فكثيرون يُعانون بسببها : بسبب رفضها نظريًّا، وممارستها عمليًّا. أي هي في النفوس موجودة، وفي النصوص مفقودة. تظهر بعنفها كلَّ ستّ سنوات، ثم تخبو. وهي متمكّنة في الرهبانيّة على مستوى السلطة العامّة، أمّا على مستوى الرهبان العاديين ففي حالات استثنائيّة.

لهذا، وبسبب هذه المشاكل الحياتيّة التي نعاني منها حتى الساعة، آلينا على أنفسنا عناء البحث في "المقاطعة" التي تعني لنا، في عمقها وحقيقتها، "انقسامًا". هذا الانقسام كان، على ما يبدو، "اللاّزمة الدائمة"، أو "المخرج العادي" الذي كانت تلجأ إليه الرهبانيّة في كلِّ أزمة.

ومن أجل توضيح ذلك كلّه، سوف نقف على الوقائع التاريخيّة منذ البداية حتى اليوم. ونقولها، من الآن : إنّ الانقسامات في الرّهبانيّة

انتهتْ عندما اعتمدتِ الرّهبانيّة نظام "المقاطعة"، ولو بخفر وخجلٍ. هذه من أجلّ نتائج "المقاطعة" التي منعتْ الانقسامات المألوفة في الرهبانيّة، كما في لبنان ومؤسّساته وجمعيّاته وأحزابه.

أوّلاً - إنفصال منذ البدء

حدثَ الانفصال الأوّل، منذ التأسيس، أي منذ أن قرّر المؤسِّسون[81] الترهّبَ على غير ما هي عليه الحياة الرّهبانيّة المتّبعة في أديار لبنان. وكان ذلك في ١٠ /١١ /١٦٩٥.

لم يكن في نيّة المؤسّسين، في أوّل أمرهم، تأسيسُ رهبانيّة جديدة، أو تنظيمُ الحياة الرهبانيّة القائمة، بقدْر ما كان مقصدُهم الترهّبَ في ديرٍ من أديار جبل لبنان، وعيشَ الحياة الرهبانيّة كما هي قائمة عند أصحابها.

هذه النيّة نجدها واضحةً في مذكّرات قراعلي حيث قال: "وتعاهدْنا معاً (قراعلي وحوّا) على السَّير إلى جبل لبنان نترهّبُ فيه"[82]. ثمّ بحث المؤسّسون الثلاثة في الأديار، وتنقّلوا بينها كثيراً، وتعرّفوا على الحياة الرهبانيّة فيها. قال قراعلي: "وزرنا ديارة البلاد أكثرها"[83]، واستقرّ رأي قراعلي والبتن على أن يترهّبا في دير

81 هم شبّان حلبيّون ثلاثة: جبرايل حوّا، عبدالله قراعلي، ويوسف البتن؛ وتبعهم رابع هو جبرايل فرحات.

82 مذكرات قراعلي، في كتاب "بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة"، تحقيق الأب جوزف قزّي، الكسليك، ١٩٨٨؛ صفحة ٢٥.

83 المرجع السابق نفسه، ص ٢٦.

طاميش، "لأنّنا رضينا بالدير ومعاشرة الرهبان"[84]. إلاّ أنّ السَّكن مع الرّاهبات في دير طاميش حال دون الترهّب فيه. فعاد قراعلي، من دون البتن، إلى قنّوبين ليستشير رفيقَه حوّا في الأمر.

وصادف أن خرج البطريرك الدويهي لزيارة أديار جبيل والبترون، فخرج معه قراعلي وحوّا. وكان قصدهما التعرّف أيضًا على أديار تلك المناطق. قال: "وكان لنا بهذا غرض، وهو أن نزور ديورة بلاد جبيل والبترون، ونميّزها، لعلّها توافقنا للسَّكن فيها"[85].

إلاّ أنّ المؤسّسين لم يرتضوا بأيّ دير. فقرّروا الانفصال والاستقلال في ديرٍ خاصّ بهم، لأنّ الحياة الرهبانيّة المتَّبعة في أديار لبنان "غير صالحة"[86]. قال: "وفي هذا الصيف كلّه (أي صيف سنة ١٦٩٥) لم نكن نفتر من التفتيش والفحص عن مكانٍ نسكنه وتدابير نتدبّرها"[87].

فوفّقهم الربّ ببطريركٍ عظيمٍ عرف قصدهم، فوهبَهم ديرَ مَارتْ مُورَا في إهدن. استقلّوا به، فرمَّموه، وعاشوا فيه،

ثمّ لبسوا الإسكيم الرهبانيّ من يد البطريرك، وأقاموا عليهم جبرايلَ حوّا رئيساً.

84 المرجع السابق نفسه، ص ٢٧.
85 المرجع السابق نفسه، ص ٢٨.
86 المرجع السابق نفسه، ص ٢٧.
87 المرجع السابق نفسه، ص ٢٨.

ثم ّ راحوا يجمعون القوانين. فاختاروا منها "ما يحسن لعقولهم"[88]، أي ما يناسب وضعهم الانفصالي الجديد. و "أكملوا الصيف والشتاء في مثل هذه التدابير والترتيبات"[89]، إلى أن استقلّوا استقلالاً تامًّا، وتبعهم مَن تعرّف على نهجهم الجديد.

نقول: لم يكن في نيّة الشبّان الحلبيّين الثلاثة تأسيس رهبانيّة جديدة في البدء . ولكن، لمّا وجدوا أن ليس هناك ديرٌ صالحٌ للترهّب فيه، قرّروا الانفصالَ والاستقلال.

إنّه أوّل انفصال حدث في الرهبانيّة، انفصال بين تنظيمها الجديد وبين ما كانت عليه. إنّه، في الواقع، تاريخٌ حاسم، يوم ١٠ /١١ / ١٦٩٥، يوم قرّر المؤسِّسون، بموافقة السيّد البطريرك، الانفصالَ والاستقلال، من أجل تنظيمٍ جديدٍ للحياة الرهبانيّة في لبنان.

ثانياً - إنقسامٌ بين المؤسّسين

يعدّد قراعلي في مذكّراته أسباب الانقسام، الذي حدث، سنة ١٦٩٨، أي بعد ثلاث سنين ، بين المؤسّسين أنفسهم. قال :

السببُ الأول في اختلافِهم حول معنى السِّيرة الرهبانيّة: "ومِن بعدِ هذا المجمع، (الذي انعقد في ١٠ /١١ /١٦٩٨، وجُدّد فيه لحوّا)،

88 المرجع السابق نفسه، ص ٣١.

89 المرجع السابق نفسه، ص ٣٢.

ابتدأ يَقوى الاختلاف الواقع بين الرئيسِ والرّهبان في معنى السِّيرة الرهبانيّة"[90]، أي هل هي نسكيّة أم رسوليّة؟ هل يكون رئيسُها مدى العمر أم لمدّة محدَّدة؟ هل يعيش الرّهبان في الدير، أم أنّهم رسلٌ يعودون إلى الدّير كمرجعٍ لهم؟

والسبب الثاني كان حول سلطة المدبِّرين، فكان الرئيس "يتزايد يوماً فيوماً ببغض وظيفة المدبِّرين ويحتملها بصبر... لأنّ طبعه كان يُحبّ تدبيرَ كلِّ شيء، ويشور على كلّ أحد"[91].

والسبب الثالث يعود إلى تدخّل المرسَلين، واليسوعيّة بنوع خاصّ. يقول قراعلي: "البعضُ من الرهبان المرسلين صار لنا سبباً لضررٍ أكثر. وذلك أنّ الأب الرئيس كان يتردّد على رهبانِ اليسوعيّة ... الذين كانوا يشجّعونه على التشبّه برئيسِهم العام، الذي لا ينعزل، وليس له مدبّرون، وسلطانُه مطلق... ومن كلامهم كان (حوا) يزيد ببغض المدبِّرين، وكنتُ، أنا، من أكبر المضادِّين لرأيه"[92].

وكانت النتيجة الأولى من هذا الاختلاف أنْ "ضجر فرحات"[93]،

---

90 المرجع السابق نفسه، ص ٣٢.

91 المرجع السابق نفسه، ص ٣٢-٣٣.

92 المرجع السابق نفسه، ص ٣٦-٣٧.

93 من حلب أيضاً، وهو رابع المؤسِّسين.

و"عزم على الانفصال منّا"[94]، وخرج من الرهبانيّة. واعتبر الإخوةُ أنّ "سبب خروجه من تدبير الرئيس"[95].

والنتيجة الثانيّة: وقعت "الفتنة"[96] بين الرهبان. و"لمّا كثر السجس والتذمّر بيننا أشرفْنا على التّلَف الكلّي"[97]. فكان لا بدّ من الحسم واختيار أحد الأمرين: إمّا عزلُ الرئيس العام، وإمّا الاستمرار في السجس والتذمّر. والاقتراعُ يحسم. فاستقرّ الرأيُ على عزل الرئيس، وانتخابِ آخر. فكان قراعلي رئيساً عامّا في مجمع استثنائيّ، عُقد في ١٤ /٢/ ١٧٠٠.

واستمرّت "الفتنة" تعمل: فحوّا المعزول عن الرئاسة "لم يقدرْ أنْ يستقرّ في الدير طويلاً"[98]. وكان الاختلاف يشتدّ. والشكاوي المتبادلة تزدحم عند البطريرك. والابتعاد بين المؤسّسين يزداد. فـ "حكمَ البطريركُ بالفسْخ بينَنا. وقال: "أنا حكمتُ بينَكم بالقِسمَة""[99].

ثمّ كتب حجّة الانفصال، وهي هذه: "وقفْنا على الخلاف الواقع بين أولادنا الرّهبان الحلبيّة... نَسأل الحقَّ سبحانَه وتعالى أنْ يكونَ

---

94 مذكّرات قراعلي، المذكور آنفاً، ص ٣٥.
95 المرجع السابق نفسه، ص ٣٦.
96 المرجع السابق نفسه، ص ٣٦.
97 المرجع السابق نفسه، ص ٣٧.
98 المرجع السابق نفسه، ص ٤١.
99 المرجع السابق نفسه، ص ٤٣.

ناظراً إليهم ومساعِداً لهم، ليَحظوا في الخلاص. حرّر في دير قنّوبين في ٥ /١١ /١٧٠٠"[100].

تمّت القسمة بين المؤسّسين، "وصارتِ الإخوةُ تسعى بالفضيلة بفرحٍ واجتهاد"[101]. و"سلكت المحبّة بينَنا وبينَهم (أي بين القِسمَين)، وصاروا يتردّدوا إلى ديرِنا (مار إليشاع)، ونتردّد إلى ديرِهم (مارتْ مورا)، واجتهدْنا جميعاً على تناسي كلِّ شيء فات. وصرْنا نقول: هكذا دبّر الله. وهكذا هو الجيّد. والكلّ لمجد الله"[102].

هكذا كانتِ البداية. لكأنّ الروح أرادها لهذه الرهبانيّة لتعتادَها، فتتمكّن من الثبات عند كلِّ هزّة قد تحصل، وعند كلِّ فتنةٍ ومشروع قسمة.

ثالثاً - "المعاملة" تقسيم قانونيّ غير نافذ

في قوانين ١٧٣٢ كلام على "المعاملة"، ولكن من دون أن يُعرَف معناها، أو تُحَدَّد حدودُها، أو يُحصى عددها، وعدد أديارها، أو تُعرَف هوّيّة رئيسها، ولا انتماؤه إليها أو لغيرها.

إنّما تشير هذه القوانين إلى كيفيّة انتخاب "رئيس المعاملة"، وإلى صلاحيّاته، فتقول في انتخابه: "بعد تمام المجمع العام وتوديعه،

100 راجع صورة صكّ "القسمة" كاملةً في مذكّرات قراعلي، ص ٤٣.
101 المرجع السابق نفسه، ص ٤٤.
102 المرجع السابق نفسه، ص ٤٦.

فليَجمعِ الرئيسُ العام مجمعاً مع المدبِّرين، وينتخبوا فيه رؤساءَ المعاملاتِ والدّيورة"[103].

وتقول أيضاً في صلاحيّات رئيس المعاملة :

أوّلاً - " مجمع المعاملة. فليجتمع كل سنة مدّة ثلاثة أيّام من رئيس المعاملة ومن رؤساء الأديرة الخاضعين له...

ثالثاً - وليحضر في مجمع المعاملة، ما عدا رؤساء الدّيورة، رفيقٌ لكلِّ رئيسِ دير، منتخَباً من جمهور الدّير

...

خامساً - وليتفاوضوا :

١. عن الأمور المناسبة لنجاح الرهبان الرّوحي، ويفحصوا عن خصال كلِّ واحدٍ منهم هل يُنقص بشيءٍ ضدَّ القوانين والرّسوم والعوائد!

٢. عن كيفيّة تدبير الرؤساء وخضوع المطيعين.

٣. عن أرزاق الديرالزمنيّة"[104].

ولكن، تجدر الإشارة إلى أنّ قوانين ١٧٣٢ نصّت على "المعاملة" مع وقف التنفيذ، مستدرِكةً فقط، على ما يقول الأب مارون كرم، "ما يجدّ في مستقبل الأيّام، كأن تنتشر الرهبانيّة في الأقطار

---

103 قوانين سنة ١٧٣٢، قسم ٤، باب ١، عد ١٣، وباب ٣، عد ٤.

104 المرجع السابق نفسه، قسم ٤؛ عدد ١ و٣ و٥، "في مجمع المعاملة والديورة".

البعيدة عن لبنان، مثل مصر وأوروبّا وغيرها. وفي مثل هذه الأحوال وصعوبة المواصلات، لا يتسنّى للرئيس العام الاتّصال المباشر برهبانه، فجعل المؤسِّسون في صلبِ القانون هذه الوظيفة".

ويكمّل الأب مارون كرم في بحثه عن "المقاطعة"، فيقول: "ولكن لم تكن (المعاملة) عمليّةً في لبنان، ولم يقمْ رئيسُ معاملةٍ إلاّ في عهد الأب مبارك سلامه المتيني (سنة ١٨٩١). ومع هذا كانت هذه الوظيفة شرَفيّة، وأعمالُها تقتصر على إذاعة اسم الراهب المتوفَّى على رهبان المنطقة، وإجراء حسابات الأديار، وأمور أخرى كهذه تافهة. وكان يقال: "رئاسةُ المعاملة مثل الحياصة بالطّلعة". ولم يكن لرئيس المعاملة صوتٌ في المجمع العام، وكان يقال عليها أيضاً: "مثل فشلكِ الكرّ لا بتنفع ولا بتضرّ"".

غير أنّ المعاملة، بنظر الأب كرم، أضرّتْ كثيراً، لأنّها "نبّهت أكثر فأكثر إلى التفرقة، وأصبحَ راهبُ المنطقة موقوفاً على منطقته، لا يُنقل إلاّ برضى رئيس المعاملة.. فقلّ الاختلاطُ، وزاد الجفاء، وأصبح الراهبُ الساكنُ خارجَ المنطقة، أو الدّير المهيمنة عليه ضيعتُه، يَعتبرُ نفسَه غريباً. وكان بعض الرهبان يقول للأجنبيّ عن منطقته: "شو جابك لهون؟ ما بقى في خبز ببلادك؟""[105].

وفي الواقع ليس في تاريخ الرهبانيّة، قبل مبارك المتيني، أيٌّ

---

105 "المقاطعة"، بحث للأب مارون كرم، في ٧ صفحات، على الآلة الكاتبة.

معلومةٍ عن المعاملات، لا عن أسمائها، ولا عن حدودها، ولا عن اسم رئيسٍ واحدٍ من رؤسائها.

جاء في تعميم من الكرسي الرسولي في ١٥ /٤ /١٨٩١ ما يلي: "أوّلاً - يجب على حضراتكم مع المدبرين: ...ً٢ - أن تُعيِّنوا مع المدبِّرين خمسةَ رؤساء معاملات، كلاً في إقليمه، بعد أن تصير تسميّتهم هذه المرّة من هذا المجمع (الشرقي) على وجه المبرم في المرسوم المذكور (قسم ٣، باب ٢، عد٥)". ألكردينال سيموني.

ودام العمل بالمعاملة حتّى سنة ١٩٣٨، أي مدّة ٤٧ سنة فقط.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أنّ المجمع العام الخاصّ المنعقد في ٢٦ /٤ / ١٩٩١ في دير جبيل، برئاسة الأب العام باسيل الهاشم، قرّر العودة إلى المعاملة. ولكن، عند الانتهاء من وضع الفرائض، لم نجد للمعاملة من ذكر. وكان القصد منها منع المدبّرين من هيمنتهم على المقاطعة، والاعتراف الكامل بسلطة الرئيس العام على الرهبانيّة كلّها.

رابعاً - إنتفاضةٌ كادتْ تكون انقساماً (١٧٤٨-١٧٧٤)

ظهرتْ، سنة ١٧٤٤، بوادر انقسام جديد في الرهبانيّة، بحسب قول الأب لويس بليبل في تاريخه العظيم، وذلك بين الرؤساء والمرؤوسين، للأسباب التاليّة:

ألأوّل - نقض الرؤساء عادة رفع الشكوى إلى المجمع العام إلى من شذّ منهم.

ألثاني - تحوير الرؤساء لبعض الفرائض التي تتعلّق بالانتخابات لمصلحتهم.

ألثالث - تصرّف الرؤساء بالأموال ممّا أوقع الرهبانيّة تحت ديون باهظة.

ألرابع - عدم وقوف الرؤساء عند نصح الجمهور وتنبيههم.

هذه الأسباب دفعت بـ ١٠٤ رهبان إلى توقيع عريضةٍ رفعوها إلى البطريرك سمعان عوّاد في ١٥ /٩ /١٧٤٤. فاستجاب البطريرك طلبهم، وضاعفوا هم حملتهم، فعقدوا مجمعاً برضاه، ومن دون علمِ السلطة العامّة، في دير سيّدة الشوف (مشموشة)، في ٤ /١٢ /١٧٤٤، حضره رهبانٌ غير الذين لهم حقٌّ الانتخابِ قانوناً. وانتخب الجميعُ سلطةً عامّة مؤلّفة من الآباء: يواكيم الحاقلاني الزوقي رئيساً عامًّا، إقليموس المزرعاني، يعقوب الصفراوي، وتوما رزق الله الطرابلسي وحنانيا جرجي الحلبي اللّذَين استقالا وانضمّا إلى المخالِفِين، وانتخب عوضهما جرجس قشّوع الغسطاوي ونيلوس صليبا الزوقي، مدبِّرَين(وقد أصبحوا خمسة على خمسة من كسروان). وبعد ثمانيّة أيّام شرّف البطريركُ ديرَ مشموشة إظهاراً لرضاه.

وبعد ٣ سنوات، أي في ١٠ /١١ /١٧٤٧، جدّد المنتفضون انتخابَ الحاقلاني رئيساً عامًّا، مع قشّوع، وإقليموس، ويوسف جعاره من غزير، ومرقس من ميروبا، مدبِّرِين (خمسةٌ أيضاً على خمسة من كسروان).

واستمرّ الوضع الانقسامي قائمًا بسلطتَين عامَّتَين حتى ١ / نيسان /١٧٤٨، حيث جرت مصالحة شاملة، واتّفق الجميع، بسعي الخيِّرِين، على سلطةِ اتّفاقٍ جديدة. واعتُبرَ أوّلُ نَيسان عيداً وذكرى لهذه المصالحة.

الجدير بالإشارة إلى أنّ تأليفَ سلطةٍ عامّةٍ مرّتين، جميع أفرادها من منطقة كسروان، دليلٌ واضحٌ على نزعة إقليميّة صريحة. يؤكّد ذلك انتماءُ السلطة العامّة التي كانتِ الانتفاضةُ عليها، والمؤلّفة من: أرسانيوس عبد الأحد من حلب رئيسًا عامًّا، وموسى هيلانه من دمشق، ويوسف قراعلي من حلب، ونتنائيل من حلب، ومارون الدرعوني، مدبِّرين .

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى ما جاء في الجلسة الثالثة من المجمع العام، المنعقد في ١٠ /١١ /١٧٥٠، حيث "تقرّر فيها إحالة وظيفة رؤساء المعاملات إلى حضرات الآباء المدبِّرين. فتعيّن المدبِّر الأوّل الأب أرسانيوس عبد الأحد لمراقبة أديار القاطع (ألمتن وكسروان اليوم)، والأبوَين مبارك عبيد المدبر الثاني، وجرمانوس الديراني المدبر الرابع، لمراقبة أديار الجبّة (الشمال) وأنطوش طرابلس، والأب يواكيم بلاديوس الحلبي، المدبر الثالث، لمراقبة أديار الشوف.

يشير هذا التدبير، للمرّة الأولى، إلى تسميةِ الأقاليم الجغرافيّة، وإلى تكليف المدبِّرين العامّين بإدارتها. ويشير أيضًا إلى أنّ هذه الأقاليم

ليست، كما هي اليوم، اذ لم يكنْ، حتّى ذاك التاريخ، أيُّ ديرٍ أو مركزٍ للرهبانيّة في منطقة جبيل[106].

يستدلّ ممّا قلنا أنّ السبب الرئيسي الذي نعوّل عليه في تفسير ظاهرة الانقسام في الرهبانية ليس، كما أشرنا في مطلع هذه الفقرة، الاختلافُ بين الرؤساء والمرؤوسين، أو الديون الباهظة، بل هو في العمق هيمنةُ منطقةٍ على منطقة، أي تفرّد الحلبيِّين بالسلطات والرّئاسات على حساب البلديِّين. إنّها لظاهرة ستتكرّر طوال تاريخ الرهبانيّة وفي جميع أزماتها وتجاريبها.

خامساً - القِسمة النّهائيّة (١٧٥٢-١٧٧٠)

لم تدمْ مصالحةُ ١ /٤ /١٧٤٨ أكثرَ مِن أربع سنوات حتّى تجدّد الاختلافُ واضحاً بين اللّبنانيّين والحلبيّين. فـ "الرؤساء، ومعظمُهم من الحلبيّين، رجعوا إلى الإسرافِ والتبذيرِ والتلاعبِ في الوظائف الكبيرة والصغيرة"[107]. فانتفض اللبنانيّون لكرامتهم، ورفعوا عريضةً، موقّعةً من ١٧٠ راهباً، إلى المجمع الشرقي، في ١ /٩ /١٧٥٢، يعلنون فيها موقفهم. إنّهم:

١ . ضدّ المجمعَين السابقَين (أي فترة الصلح التي كان فيها مارونُ الدّرعوني رئيسًا عامّا).

---

106 غير أنّه كان في منطقة حوب ديرٌ للرهبانيّة على اسم العذراء منذ سنة ١٧٤٩، لكنّ هذا الدير ألغي، وصار مكانه دير مار انطونوس سنة ١٧٦٦.

107 راجع بلبيل، تاريخ الرهبانيّة ...، ٢ /١٠٠ وما يلي.

٢ . ضدّ أفعال الرؤساء القائمين حالاً (لأنّ معظمهم من حلب، وهم لا يزالون يستبدّون ويستخفّون ويبذّرون الأموال ويحمّلون الرهبانيّة ديوناً باهظة).

٣ . ضدّ المجمع العام القادم (الذي سيعقد سنة ١٧٥٣، والذي ستكون فيه للحلبيّين حصّة الأسد أيضًا).

ثمّ استفاضتْ عريضةٌ مرفوعةٌ إلى الأب الأقدس، بتاريخ ١ / ٥ /١٧٥٤، بتعداد أسباب كثيرة، وقّعها أيضًا ١٧٠ راهباً، وصادق عليها الأب أنطوان كِينار اليسوعي ومطران بانياس مخايل البلوزاني. من هذه الأسباب :

١ . "القلاقل والسجس من أولاد الغير طوائف المترهّبين بيننا".

٢ . "ألمجامع التي عملوها (الحلبيّون) في السابق ضد القوانين والفرائض، ولأجل سقوطهم الشرعي عن وظائفهم؛ لأنّ اتنخابهم كان خلافاً للقانون محض، ولسلوكهم المنحرف عن القانون، ولأجل الشرّ الذي يحصل إذا ألزمناهم أن يمشوا حسب القانون والفرائض".

٣ . إنّهم "التجأوا إلى حكّام السياسيّة الغير المؤمنين، وربطوا أشغالهم معهم، واعتزّوا بأنّنا نعمل مجمع، والذي بيطيع بيطيع والذي ما بيطيع يوجد قوّة تطيّعه".

٤ . ثمّ "جمعوا بعضهم بعض وأولاد الحلبيّة (من الرهبان)،

وأرادوا يعملوا مجمع ويقيموا بعضهم بعض، مثل عادتهم السابقة: "أقيمني حتى أبقى أقيمك"".

٥ . و"أدخلوا أصوات ضد الفرايض، واختاروا وكلاء نيابةً عن بعض رهبان غائبين ليس لهم حقّ في الدخول إلى المجمع العام. وهذا كلّه ليثبتوا في الوظائف وفي الرئاسات دائماً".

٦ . ومن الأسباب أ يضاً أنّهم حمّلوا الرهبانيّة "جملة ديون باهظة"، إنّما الصرف لم يكن "على الديورة والرهبنة، بل على ذواتهم وعلى نفوذ مأربهم وأغراضهم".

٧ . و"أنّهم باعونا ألأديرة أربعَ بَيعات بالديون التي وفّيناها من تعبنا وعفر جبيننا".

٨ . وأنّهم "عملوا ذواتهم رؤساء بالسيف (سيف الحكّام: ملحم شهاب وعلي جنبلاط)، وطردوا الرهبان (البلديّين) من الديورة بقوّة الحكّام. وهم بحالة يُرثى لها، لأنّهم مشتّتين في القرى والمدن بين الأمم الغريبة، ومتسوّلين من مكان إلى مكان لكي يحصلوا على قوتهم اليومي".

٩ . وأنّهم "زوّروا الأصوات.. لأنّ ختومات الديورة هي بيدهم".

١٠ . "والديورة التي أخذوها (مثل شويّا ومشموشة ورشميّا وسِير) صارت مسكناً للعلمانيّين والنساء معاً، لأجل شَيل القزّ وقيام

أشغال الديورة التي كان يقوم بها الرهبان البلديّون بعرق جبينهم ونقط دمهم الذي سال منهم بالكدّ والتعب لأجل قيام هذه الأملاك".

١١ . ورأس الشرّ الأب أرسانيوس عبد الأحد الحلبي (الذي كان رئيساً عامّا بين ١٧٤١-١٧٤٤، والذي كان سبباً مباشَراً للاختلاف الأوّل، والذي كوفىء فصيّروه مطراناً سنة ١٧٥٥). هذا "خافي جملة دراهم من أرزاق الرهبنة ومن الحسنات التي جمعَها، وبيقول: إذا قبلوني عليهم رئيس عام بْرِدٌّ لهم الديورة". ومعه أيضاً كان القس نتانائيل الأرمني، حانوت الشرّ".

وتختم العريضة المعزّزة بالوثائق بهذا المطلب : "والذي نطلبه ونلتمسه من الكرسي الرسولي أن يسمح لنا بأن نقيم رئيس عام ومدبِّرين بموجب قانوننا وفرائضنا... أم أنّه يُقيم لنا الأب جرجس قشوع رئيساً عامًّا، ويفصل رهبان الحلبيّة عنّا. والذين هم من غير طوائف يردّهم إلى طوائفهم لتستريح الطائفة والرهبانيّة من أعمالهم. ولا تلزموننا بالالتحام معهم، لأنّه غير ممكن، غير ممكن، غير ممكن"[108].

وعقد اللبنانيّون النيّة على ألاّ يتراجعوا إلاّ بقِسمة الرهبانيّة إلى قسمَين مستقلَّين مهما كلّف الأمر. فسيّروا العرائض في كلِّ اتّجاه : إلى قداسة البابا، وغبطة البطريرك، والسادة الأساقفة.. ثم حشدوا الصفوف، ووضّحوا الأفكار والمواقف. ولمّا آن أوان المجمع العام،

---

108 المرجع السابق نفسه، ٢ /١١٩-١٣٥.

متأخّراً قليلاً عن موعده، أي في ١٩ /١١ /١٧٥٣، واشتلق الحلبيّون أنّهم سيخسرون، تركوا الاجتماع "وتوجّهوا إلى دير القمر لدى الأمير ملحم شهاب حاكم البلاد، مستمدّين حمايته... وأمّا الرهبان البلديّون، لمّا لم يكن بإمكانهم مواصلة أعمال المجمع العام أقاموا الأب جرجس قشّوع الغسطاوي مدبِّراً لجمهورهم، ووجّهوه إلى رومية، ومعه اثنان هما : الأب يواكيم الزوقي والأب انطونيوس صالح"[109].

واستمرّ الاختلاف والاعتصام والانقسام وقيام سلطتَين عامّتين. وتدخّل المصلحون. وتمهّلت روما والبطريرك لعلّ مساعي الخير تفلح. ولكنّها لم ولن تفلح.

في ١٠ /١١ /١٧٥٤ عقد اللبنانيّون مجمعاً عامًّا، وأقاموا عليهم الأب جرجس قشّوع رئيساً عامًّا، والآباء: إقليموس المزرعاني، وميخائيل عبيد الغسطاوي، ورافايل موسى الزوقي، ويواكيم الحاقلاني الزوقي، مدبِّرين عامِّين (خمسة على خمسة من كسروان).

واتّخذوا في مجمعهم مقرّرات هامّة، تجدر الإشارة إلى واحد منها، وإن لم يكن له صلة بموضوعنا، وهو: "رابعاً - لا يحقّ لأحدِ رهباننا اختصاصٌ أو تقدّمٌ إلاّ القائم بالوظيفة فقط، حتّى الأب العام، متى عُزل عن وظيفته، يجلس بحسب قدميّته بالنذر"[110].

واستمرّ الاختلاف، واشتدّ الاعتصام، واتّسع شرخ الانقسام،

---

109 المرجع السابق نفسه، ٢ /١١٨.
110 المرجع السابق نفسه، ٢ /١٥٦.

وبقي على الرهبنة سلطتان عامّتان: الحلبيّة في دير اللّويزة واللّبنانيّة في دير طاميش.

وقبيل المجمع العام المزمع انعقاده في ١٠ /١١ /١٧٥٧، وجّه البطريرك منشوراً إلى عموم الرهبان في الفئتين، جاء فيه: إنّ رغبة الحبر الأعظم بأن "لا يَسمح ولا يشاء قط بأنْ يصير بينكم قسمةٌ أم تمييز حتّى ولا بالاسم"[111].

بالرّغم من ذلك، " فالرهبان البلديون اللبنانيّون تردّدوا في الخضوع للأوامر الرسوليّة، وأصرّوا على عدم الاتّفاق والاتّحاد مع إخوتهم الرهبان الحلبيّين لدواعي عديدة. أهمهّا:

١ . إنّ أسباب الاختلاف باقية كما كانت، والأوامر الرسوليّة لم تُزِلْها.

٢ . إنّ الاتّفاق الماضي (١ /٤ /١٧٤٨) عاد بالوبال عليهم إذ زاد في تعبهم.

٣ . إنّ الحلبيين يرغبون في الوحدة، لا إتماماً للأوامر الرسوليّة، بل طمعًا بالمنفعة الزمنيّة، لأنّ أشغال الرهبنة اليدويّة، كالفلاحة والزراعة، كان قيامُها على عاتق الرهبان البلديين "[112].

لهذا لم يحضر أحد من البلديّين إلى دير اللويزة لعقد المجمع

111 أنظر : بليبل ٢ /٢١٥: تاريخ الأوامر الرسوليّة ١٧ /٥ /١٧٥٧.
112 بليبل، ٢ /٢٢٣.

العام، بل توجّهوا إلى دير مار موسى الدوّار الذي عيّنوه لعقد مجمعهم العام وانتخاب سلطتهم العامّة. وبعد ذلك يرفعون عرائض الاحتجاج والاستغاثة إلى روما.

بيد أن البطريرك سارع ووضع حرماً على كلّ من يدخل دير مار موسى. ومع هذا اجتمع في الدير كلّ صاحب حقّ في الانتخاب وأقاموا عليهم رئيساً عامًّا: إقليموس المزرعاني، ومدبّرين: رافائيل الحاقلاني ويواكيم الحاقلاني ومرقس الكفاعي وعمانوئيل الرشماوي. ثمّ تعيّن رؤساء على الأديرة التي كانت بيدهم، وهي: طاميش، البرج، حوب، الناعمة، بنابيل، مار موسى، بيرسنين، وقبرس.

وبادر البطريرك، وسمّى على الفئة الحلبيّة المجتمعة في اللّويزة: أرسانيوس شكري رئيسا ً عامًّا، وجرمانوس الديراني وبرنردوس الحلبي وميخائيل عبيد الغسطاوي (الذي كان قد ترك الفئة البلديّة) ونستير الطرابلسي، مدبِّرين. وكان بيدهم: مشموشة، روما، اللّويزة، مار إليشاع، قزحيا، شويّا، وكرَيم التين، رشميا، سير، كفرحمل.

وبعد فترة قصيرة انتقل ديرا مشموشة ثمّ قزحيا إلى الفئة البلديّة.

ثمّ بعد سنة تقريباً من ترقّب مسيرة الأوضاع ومنْحاها التقسيمي الجريء، اجتمع البطريرك ببعض أساقفة الطائفة ورشق البلديّين بالحرم الكبير. وكان ذلك في ١ /٧ /١٧٥٨، ولكن لن يكون نافذاً إلاّ بعد أسبوعَين من تاريخه.

واجتمع البلديون، وتعاقدوا على ١٤ شرطاً لرجوعهم عن نيّتهم التقسيميّة. هذه الشروط لم ترق للبطريرك ولا للأساقفة، اذ هي أيضًا تقسيميّة وتشدّد على الامتناع عن كلِّ اختلاطٍ أو تعايشٍ مع أيِّ راهبٍ حلبيّ.

وتجدر الإشارة إلى الشرط الرابع. جاء فيه : "انتخاب الرئيس العام والمدبرين يكون على عدد رؤوس الرهبان بالسواء، وتسود سلطتهم على جميع الرهبنة، فإن كان عدد الرهبان الحلبيّة يبلغ الربع فبكلّ مجمع يقام منهم مدبّر، وكل أربع مجامع ينتخب منهم رئيس عام".

ومع كلِّ ذلك، رغم الحرم والشدّة، استمرّ الوضع التقسيمي قائماً. وسعاة الخير يعملون، ولكن من دون جدوى. وكاد بعض الحلبيّين يطالبون بالاتّفاق والعودة إلى الوحدة مع إخوتهم، فالحرم صعب وتشكيك الناس أصعب. ولكنّ الظلم أصعب الأمرين.

لهذا عمد البطريرك يوسف إسطفان إلى حلٍّ جذريٍّ كان ذروةً في الحكمة. فأصدر منشوراً إلى الحلبيين في ١٠ /٢ /١٧٦٧. جاء فيه : "إنّ التحامَكم اليوم هو ضدّ حكم الكنيسة، كما كان سابقاً انفصالُ أولئك عنكم ضد كلّ ذمّة، لأنّه كان ضد حكم الكنيسة"[113].

وكان من نتيجة هذه الحكمة أنْ صدرتِ الأوامر الرسوليّة في صيف ١٧٦٨ بالقِسمة، وأعلنها البطريرك في ٨ /١٢ /١٧٦٨. ثمّ

113 بليبل ٢ /٢٨١.

جاءتِ البراءة الرسوليّة بالقِسمة النهائيّة في ١٩ /٧ /١٧٧٠-وهو تاريخ للحفظ-.

وكان عدد البلديّين آنذاك ١٩٠ راهباً، منهم راهب واحد من حلب. وعدد الحلبيين ٦١ راهباً: ٣٥ من حلب، ٢١ من الشام وطرابلس وصيدا وقبرس وبيروت و ٥ من جبل لبنان، ١ من أهدن، ١ من بشرّي، ٣ من درعون[114].

سادساً - بداية الحزبَين (١٨٣٢-١٨٥٣)

بعد القسمة بـ٦٢ سنة (١٧٧٠-١٨٣٢) هدأت ِ الرهبانيّة وارتاحتْ. وأخذت في النموّ والتوسّع. وراح أبناؤها يجاهدون في ازدهارها: فكثرتْ الأديار والمراكز، وامتدّت إلى مناطق لم تعرفها مِن قبل، وازداد رهبانُها، وتعمّقتِ الفضيلة، وعمّ العلم، واتّسعتِ الأملاك، وكان العمل في كلِّ اتّجاه. إنّه حقّا عهد ذهبيّ.

إلاّ أنّ بعد الذهب لا بدّ من هزّة، ومن "غربلة" شيطانيّة . ففي نهاية عهد الأب أغناطيوس بليبل البحرصافي (١٨١٠-١٨٣٢) الطويل، بل هو الأطول في تاريخ الرهبانيّة، كان لا بدّ من حصول بعض التراخي في الإدارة وبعض الإستبداد في السلطة، ممّا أدّى إلى منعطفٍ جديدٍ في مسيرة الرهبانيّة.

كان ذلك في "مقاطعة" ١٦ راهباً المجمعَ العام المنعقد في دير

---

114 بليبل ٢ /٢٩٢.

طاميش في ١٠ /١١ /١٨٣٢، وتركِهم الدير والمجمع، وخروجِهم إلى دير مار يوسف البرج للاعتصام فيه.

"هؤلاء (الـ ١٦)، على ما يقول الأب مارن كرم، هم المطالبون بتنزيل بليبل عن الرئاسة العامّة، وإذ عجزوا عن ذلك "قاطعوا" الانتخاب. ومن هنا اتّخذتِ "المقاطعة" اسمها. أمّا إطلاقها فيما بعد على الأقاليم والمناطق فهو تغطيةٌ كلاميّةٌ فارغة وقميصٌ عثمانيّة تُنشر في كلِّ مناسبة طَلياً على البسطاء"[115].

نقول: إذا لم يكن الاسم في محلّه فالاختلاف والاعتصام ومقاطعة أعمال المجمع حدثتْ فعلاً، واستمرّ اسمها، ولكن دون المضمون. لهذا يكمّل الأب كرم كلامه فيقول : إنّه منذ هذا التاريخ "انقسمت الرهبانيّة حزبَين: حزب بليبل أو الجبليّة، وحزب المقاطعجيّة أي الذين قاطعوا الانتخاب". أجل "قاطعوا الانتخاب"، وليس مقاطعة الرهبانيّة، أو تقطيعها إلى مقاطعات كما هي اليوم.

وبقيت روحُ التحزّب تشتدّ رغم تعيين سلطةٍ جديدة برئاسة أبٍ قدّيس هو الأب مبارك حليحل (١٨٣٢-١٨٣٥). وكانت الشكاوي تُرفع إلى روما بالعشرات. ففي ١٣ /٦ /١٨٣٥ رفع الأب العام نفسُه تقريراً إلى المجمع المقدّس يشرح فيه عن الرهبان العاصين في قزحيا وميفوق

115 بحث في "المقاطعة"، على الآلة الكاتبة.

وحوب. ولمّا عزم الرئيس العام زيارة بلاد جبيل أرسل إليه العصاة بأن يتحوّل عن تلك المنطقة بألفاظ سمجة وإهانات[116].

وفي ولاية الأب عمانوئيل المتيني الثانية (١٨٤١-١٨٤٤)، قامت قيامة رهبان دير قزحيّا، ووقّعوا عريضة من ١٤٦ راهباً في ١٩ /٤ /١٨٤٣، متّهمينه بالرشوة، وبأنّ كلَّ واحدٍ من السلطة العامّة "انتخبَ رؤساء من أقربائه"، وأنّ "كلَّ رئيس دير جمع لديره الرهبان الذين يقربوه"، وأنّ "التخصيص" جارٍ بين الرؤساء الذين يميّزون أنفسَهم عن سائر الرهبان بالمأكل والملبس والمسكن وما إليه"[117].

نتيجة ذلك كتب رئيس المجمع الشرقي في ٢٣ /٣ /١٨٤٤ إلى القاصد الرّسولي في لبنان ينبّهه إلى أنّ الرهبان "قد انقسموا حزبَين يتزّعمهما الأبوان عمانوئيل المتيني وعمانوئيل الشبابي، وقد جرت بينهما معاهدة مشترَكة على أن يُنتخَبا مداورة للرئاسة العامّة... ويقال أيضا إنّ هناك حزباً ثالثاً متأهِّباً لمعارضة الآخرين معارضةً ضاريّة. وعليه يمكن الاستنتاج الأكيد أنّه سيحدث انشقاقٌ سيّئ مشؤوم"[118].

فاتّقاء لشرّ قد يحدث، بسبب التحزّبات العنيفة، صدرت أوامر رسوليّة في ١٧ /٢ /١٨٤٥ بتعيين السلطة العامّة. وهو أوّل تعيين من نوعه في الرّهبانيّة. فكان الأب سابا العاقوري رئيسًا عامًا. وتبعته

116 وثيقة في الخزانة الرهبانيّة، نسبيه، رقم و ٣١.
117 وثيقة رقم ح ١.
118 وثيقة رقم ح ١٥.

هزّات وتحزّبات وشكاوى، هي تحزّبات وراء أشخاص ذوي نفوذ أكثر ممّا هي وراء مبادئ وقِيم. تعتمد في الغالب على القرابة والنَّسَب والانتماءات الإقليميّة.

سابعاً - حكم المقاطعة (من ١٨٥٣ حتى اليوم)

نعالج هذه المرحلة في أربعة مستويات :

١ً - في مستوى السلطات العامّة،

٢ً - في مستوى رؤساء الأديار،

٣ً - في مستوى الرهبان المتوفّين،

٤ً - في مستوى القوانين والفرائض.

ابتدأتْ، قُبيل هذا التاريخ (١٨٥٣)، اشاراتٌ معبِّرة في شأن الحكم الإقليمي في الرهبانيّة. فهناك، مثلاً، وثيقة من تاريخ ١٥ /٤ / ١٨٤٥، أرسلَها الأب عمانوئيل المتيني، بعد نزوله عن الرئاسة العامّة بشهرَين، إلى المجمع المقدّس. يقول فيها بالحرف الواحد: "إنّ أغلبيّة المراكز والرئاسات في الأديار جاءتْ لصالح بلاد جبيل، إذ تَعيّن منها رئيس عام ومدبّر[119]، بالإضافة إلى الرؤساء"[120].

وهناك أيضًا ذكر "للمقاطعة" في مرسوم بتاريخ ٢٥ /٧ /

119 الرئيس العام هو سابا العاقوري والمدبر نعمة الله الحرديني. تعيّنت سلطتهما في ١٢ /٢ /١٨٤٥-١٨٤٧؛ لخلاف حصل في الرهبانيّة.

120 وثيقة رقم ط ٦؛ خزانة نسبَيه.

١٨٤٨ يقول: "عيّن مجمعُ المدبِّرين أديرةً خاصّةً لابتداء وتجربة المبتدئين من أديرة رهبانيّتنا، وإنّ الذي يشاء الدخول برهبنيّتنا لا يبتدئ بدير مقاطعته؛ بل معيّن لكلِّ أهل مقاطعة أديرة تبتدئ فيها"[121].

لقد ابتدأت "المقاطعة" تذرّ بقرنها إذًا منذ زمن بعيد، وإنْ تحت أشكالٍ شتّى من الاختلاف والتحزّب والاعتصام والانقسام. إلاّ أنّ كلَّ خلافٍ ما كان ليكون لولا المقاطعة.

١ً - في مستوى السلطات العامّة

في الولاية الثالثة للأب عمانوئيل سلامة المتيني[122]، ابتدأ حكم المقاطعة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، بطريقة واضحة، وهو مستمرّ حتّى اليوم.

منذ ذلك التاريخ ١٨٥٣ ابتدأت الرهبانيّة، على مستوى السلطة العامّة، تتحكّم بها "المقاطعة" تحكّماً مبرَمًا. وأصبحتِ السلطة العامّة تتوزّع، في أعضائها الخمسة، على المقاطعات الخمس، من دون أيِّ استثناء.

---

121 وثيقة رقم ٤، نسبيه. كانت السلطة العامّة آنذاك: عمونئيل الشبابي رئيساً عامّا، عمونئيل المتيني وأرسانيوس النيحاوي وسابا العاقوري ومرقس شننعيري مدبِّرين.

122 كان عمانوئيل المتيني رئيساً عامًّا في المرّة الأولى (١٨٣٥-١٨٣٨)، وفي المرّة الثانيّة (١٨٤١-١٨٤٥)، في المرّة الثالثة (١٨٥٣-١٨٥٦).

وجاء الزائر الرسولي، في مجمع ١٨٥٦[123]، ليكرّس هذا التوزيع، فعيّن خمسة أعضاء السلطة من المقاطعات الخمس، فيما الرهبان كانوا قد انتخبوا، في المجمع نفسه، مدبِّرَين من المتن. وسارع الزائر الرسولي فألغى هذا الانتخاب.

وهكذا دخل "حكم المقاطعة" الرهبانيّةَ من الباب العريض، وإن لم يشرّع له في الفرائض. ومن ثمّ توالت السلطات العامّة كلّها، حتى اليوم، ومن دون انقطاع، بحسب هذه العادة التي اكتسبتها الرهبانيّة سريعاً ومن دون عناء.

أمّا في عهد مبارك سلامه المتيني (١٨٩١-١٨٩٤)، بالإضافة إلى توزيع المدبِّرين بحسب المقاطعات، فقد تعيّن أيضاً رؤساء للمعاملات. وهي، كما ذكرنا آنفاً، المرّة الأولى التي فيها يتعيّن في الرهبانيّة رؤساء لهذه المعاملات؛ مع أنّ قوانين ١٧٣٢ تشير إليها فقط، من دون ممارستها. واستمرّ التمييز بين المدبِّرين ورؤساء المعاملات معمولاً به حتى سنة ١٩٣٨.

وفي عهد مرتينوس الدرعوني (١٨٩٤-١٨٩٩)، وبالتحديد سنة ١٨٩٧، تحدّدت المعاملات الخمس جغرافيًّا وبأسمائها، كما يلي: معاملة الجبّة الزّاوية، معاملة جبيل البترون، معاملة كسروان، معاملة

123 سمّي هذا المجمع بمجمع الشواديح للعنف الذي صار بين طرفَي النزاع: بين السلطة التي انتخبها الرهبان، وعلى رأسها أرسانيوس النيحاوي من حزب المتيني، وسلطة الزائر المعيّنة وعلى رأسها لورنسيوس الشبابي...

المتن، ومعاملة الشوف. ويعمل بهذا التحديد الجغرافي، على أنّه تحديد للمقاطعة، حتى اليوم.

في سنة ١٩٣٨، أي في أوائل عهد الأباتي باسيل غانم (١٩٣٨-١٩٤٤)، انتهى تعيين رؤساء المعاملات، وأصبح المدبِّرون العامّون، طالما هم يُنتخبون على أساس إقليمي، يتولّون شؤون المقاطعة أو المعاملة. ويعمل بهذا الوضع حتى اليوم.

٢ً - في مستوى رؤساء الأديار

ثمّة مستوى آخر للاستدلال على بداية الحكم المقاطعجي هو مستوى رؤساء الأديار. هؤلاء الرؤساء ابتدأوا يتولّون مسؤولياتهم على أديار مقاطعاتهم منذ بداية الولاية الثالثة للأب عمانوئيل المتيني (١٨٥٣-١٨٥٦). إنّه تاريخ فاصل. وما شذّ عن هذه القاعدة يرجع إلى أحد أمرَين: إمّا مبادلة بين رئيس ورئيس، وإمّا مقتضيات الناشئة الرهبانيّة.

أمّا القاعدة، قبل ذلك التاريخ، فهي أنْ لا يكون رئيسٌ على ديرٍ من مقاطعته. والشواذ كان قليلاً جدًّا.

ولا بدّ من استعراض لائحة الأديار مع رؤسائها بحسب ما جاءت في كتاب "رهبان ضيعتنا"[124] للأب مارون كرم. وطريقتنا هي: نسمّي الدّير. ندوّن تاريخ تأسيسه. ثمّ نعطي عدد الرؤساء من خارج

---

124 الأب مارون كرم، رهبان ضيعتنا، الكسليك، ١٩٧٥؛ (٢٥*١٧سم)؛ ٢٧٢ صفحة مع خرائط مفصّلة.

المقاطعة ابتداءً من سنة ١٨٥٣ حتّى التعيينات الأخيرة سنة ١٩٨٩، أي في مدّة ١٣٦سنة. وكان من المفروض أن يكون على كل دير ٤٥ رئيساً، بمعدّل رئيس كلَّ ٣ سنوات :

رشميّا (١٧٠٦) : ٦ رؤساء من خارج المقاطعة.

سِير (١٧٠٦): ٦ رؤساء من خارج المقاطعة

قزحيّا (١٧٠٨): ٤ رؤساء من خارج المقاطعة.

طاميش (١٧٢٧): رئيس واحد من خارج المقاطعة.

مشموشة (١٧٣٦): ٤ من خارج المقاطعة.

البرج (١٧٤٦): رئيس واحد من خارج المقاطعة.

حوب (١٧٤٩): ٤ رؤساء من خارج المقاطعة.

بنابيل (١٧٥٦): رئيسان من خارج المقاطعة.

الناعمة (١٧٥٦): رئيس واحد من خارج المقاطعة.

الدوّار (١٧٥٦): رئيس واحد من خارج المقاطعة.

ألمعوش (١٧٥٧): رئيسان من خارج المقاطعة.

معاد (١٧٦٣) : ٥ رؤساء من خارج المقاطعة.

الكحلونيّة (١٧٦٥): رئيس واحد من خارج المقاطعة.

ميفوق (١٧٦٦): ٥ رؤساء من خارج المقاطعة.

كفيفان (١٧٦٦): رئيس واحد من خارج المقاطعة.

جبيل (١٧٧٠): ١٠ رؤساء من خارج المقاطعة، بسبب وجود الناشئة فيه.

بيت شباب (١٧٨٣): ٣ من الخارج، منهم ٢ عيِّنا لحسم خلاف في المنطقة

قرطبا (١٨١٥): ٨ رؤساء من خارج المقاطعة.

عنّايا (١٨٢٦): رئيسان من خارج المنطقة.

دوما (١٨٤٤): ٦ رؤساء من خارج المقاطعة.

عجلتون (١٨٤٥): لا رئيس من الخارج. إنّما ١ منذ تأسيسه.

عشاش (١٨٤٧): لا رئيس من الخارج. إنّما ١ منذ تأسيسه.

ألجديدة (١٨٤٧): لا رئيس من الخارج. إنّما ٣ منذ تأسيسه.

قبيع (١٨٤٧): ٤ من خارج المقاطعة، ومنذ تأسيسه.

بحنِّين (١٨٤٨): ١ من خارج المقاطعة، منذ تأسيسه أيضًا.

القطّارة (١٨٤٨): لا رئيس من خارج المقاطعة.

دير جنِّين (١٨٥٣): لا رئيس من خارج المقاطعة.

بصرما (١٨٧٦): لا رئيس من خارج المقاطعة.

بحرصاف (١٨٨١): لا رئيس من خارج المقاطعة.

نسبَيه (١٨٨٧): ٨ من الخارج، بسبب وجود الناشئة فيه.

النبطيّة (١٩٠٧): ١ من خارج المقاطعة.

البراميّة (١٩٢٩): لا رئيس عليه من خارج المقاطعة.

طرزيا (١٩٣٢): لا رئيس من خارج المقاطعة.

الجيّة (١٩٤٩) لا رئيس عليها من خارج المقاطعة.

شكّا (١٩٥٠): لا رئيس عليها من خارج المقاطعة.،

المركزيّة.(١٩٦٢): لا رئيس عليها من خارج المقاطعة.

وغير هذه من الأديارالجديدة.. إلاّ أنّ أديار الرسالات خارج لبنان لا تزال حتّى اليوم موضوع نزاع في تعيينات رؤسائها.

هذه الجردة تصرخ بتمكّن المقاطعة في حكمها الرهبانيّة.

٣ً - في مستوى الرّهبان المتوفّين

قد لا يكون إحصاء الرهبان المتوفّين دليلاً صالحاً على تمكّن "حكم المقاطعة" في الرهبانيّة، بسبب أنّ الراهب المتوفّي والمدفون في دير من "مقاطعته" لا يعني دائماً أنّه عاش في هذا الدّير المدفون فيه. فقد يقرّر مكان دفنه عوامل كثيرة، كالعجز والخدمة والتهجير، أو أيضًا تسهيل اشتراك ذويه بدفنه.

ومع هذا يبقى الإحصاء ناطقاً إذا ما اعتمدنا المقارنة بين المراحل الزمنيّة. وطريقتنا في ذلك هي التاليّة .

في العامود الأوّل نشير إلى المرحلة الزمنيّة التي جرى عليها الإحصاء... وقد قسّمنا تاريخ الرهبانيّة إلى خمس مراحل ليسهل علينا العدّ.

في العامود الثاني ندوّن عدد الرهبان المتوفّين في الرهبانيّة عامّة، منذ نشأتها حتى سنة ١٩٩١، وقد اعتمدنا في ذلك كتاب "روزنامة الرهبان اللّبنانيّين"، طبعة ثانية ١٩٩١.

في العامود الثالث نسجّل عدد الرهبان المدفونين في مقاطعتهم.

في العامود الرابع نسجّل أيضًا عدد الرهبان المدفونين خارج مقاطعتهم.

ألمرحلة الزمنيّة	عدد المتوفَّين	ألمدفونون في مقاطعتهم	خارجها
١٧٠٦-١٨٣٢	٣٧٠	١٤٣	٢٢٧
١٨٣٣-١٨٦٩	٤٢٤	٢٣٤	١٩٠
١٨٧٠-١٨٨٩	٣٢٤	٢٥٣	٦١.
١٨٩٠-١٩٥١	٧٤٢	٦٥٩	٨٣.
١٩٥٢-١٩٩٢	٣٥٠	٣٢٠	٣٠.
ألمجموع	**٢٢٠٠**	**١٦٠٩**	**٥٩١**

نستنتج :

١ً. أنّ العدد الذي شملهم الإحصاء يبلغ ٢٢٠٠ راهباً.

٢ً. أنّ عدد المدفونين في مقاطعتهم يبلغ ١٦٠٩راهباً.

٣ً. أنّ عدد المدفونين خارج مقاطعتهم ٥٩١ راهباً.

٤ً. وعندما تمكّن حكمُ المقاطعة في الرهبانيّة، أي منذ حوالي سنة ١٨٧٠، بلغ عدد المدفونين في مقاطعتهم ١٢٣٢ راهباً مقابل ١٧٤ راهباً مدفونين خارج مقاطعتهم، مع الأخذ بعين الإعتبار التهجير وغيره.

٥ً. يلاحظ عدد المدفونين في مقاطعاتهم على تزايد مطرد، وذلك بقدر ما تزايدت الاختلافات بين الرهبان، وترسّخت روح المقاطعة، وتحكّمت الانقسامات في الرهبانيّة.

٦ً. لا يغيب عن بالنا أنّه "في النصف الأوّل من القرن العشرين دفن عدّة رهبان في مقاطعة جبيل لأنّهم إمّا كانوا تلامذة في دير المعونات، أو أعضاء في السلطة العامّة. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى دير طاميش مركز السلطة العامّة خلال العهود السابقة (١٧٤٤-١٩١٣).

"كثير من الرهبان دُفنوا في دير قزحيّا زمن بدء الرهبانيّة لعدم وجود الأديار الأخرى. كما أنّه كثرَ خلالَ النصف الثاني من القرن العشرين دفنُ الرهبان في دير جربتا (المأوى) أو المعونات (دير

العجزة). كما أنّه ابتداءً من ١٩٨٣ كثر عددُ رهبان الشوف الذين دُفنوا في غير أديار مقاطعتهم، وذلك بسبب التهجير، و "الدياسبورا" التي حلّت بهم"[125].

٤ً - في مستوى القوانين والفرائض

مع أنّ قوانين ١٩٣٨ و١٩٦٠، و١٩٧٤، وما رافق هذه الأخيرة من تعديلٍ وتصحيح، تذكر بصراحةٍ ووضوحٍ تامَّين عدم انقسام الرهبانيّة إلى "أقاليم" أو "مقاطعات" أو "مناطق نفوذ"... ولكن، وبالرغم من كلِّ ذلك استمرّت السلطة العامّة في الرهبانية موزّعةً بحسب المقاطعات. وكذلك أيضًا رؤساء الأديار والمراكز والرهبان، إلاّ ما ندر.

تقول رسوم ١٩٦٠، في الفصل السادس في تقسيم الرهبانيّة إلى أقاليم، ألمادّة ٢٣٨ (الوحيدة): "بما أنّ الرهبانيّة غير مقسّمة إلى أقاليم، فللرئيس العام، بموافقة مجلسه، أن يلقي إلى أحد الرهبان ببعض سلطاتٍ تتعلّق بأديار كثيرة أو بمنطقة معيّنة".

نقول: مثل هذا المرسوم في مثل هذا الوضع المقاطعجي في الرهبانيّة، لا يلغي "روح المقاطعة" ولا النزعة الإقليميّة وهيمنة المدبِّرين وتسلّطهم، وهم منتخبون على أساس "حكم المقاطعة".

أمّا القوانين والفرائض التي صوّت عليها آباءُ المجمع التصويتَ

---

125 إحصاءات دقيقة وموسّعة قام بها الأخ جوزف مكرزل، في بحث عن مدى تمكّن روح المقاطعة في السلطات العامّة. واستفدنا منه في بحثنا هذا.

النهائي، في ٩ /٣/ ١٩٩٢ في دير كفيفان، فتذكر "المقاطعة" في باب الانتخابات فقط، ولكن بحياء وخجل، من دون ذكر اسمها المتعارَف عليه، ومن دون تحديدٍ جغرافيّ لها.

يقول قانون ١٤٤ بند ١: "تؤلِّف الرهبانيّة اللبنانيّة جسماً واحداً، وتُقسم انتخابيًّا إلى خمس مناطق حسبَ العرف الرهباني".

بند ٣ : "يُعتبر عضواً في المنطقة المنتمي إليها جغرافيًّا، أو التي يُقيم فيها، ولو كان من غير منطقة، شرط أن يُعلم مجمعَ الرئاسة العامّة عن رغبته في الالتحاق بهذه المنطقة، قبل الانتخابات أقلّه بستة أشهر".

قانون ١٤٥: "يُعيّن مجمع الرئاسة العامّة مركزَ الدائرة الانتخابيّة لكلِّ منطقة، ويُعلن على لائحة أفراد هذه المنطقة المقيمين والمغتربين".

نقول :

١ً. يلاحظ الهروب من الاسم التقليدي للمقطاعة إلى إسم "منطقة".

٢ً. ويلاحظ الهروب من تحديدِ المقاطعة وعددِها بتعابير مموّهة، مثل "حسب العرف".

٣ً. ويلاحظ أيضًا "الانتماء" الطبيعي للمقاطعة، فيما الذي يريد

"الالتحاق" بغيرها فعليه أن يكتب عن رغبته هذه إلى مجلس الرئاسة العامّة.

٤ً. ويلاحظ أخيراً أنْ لا ذكر لهذه "المنطقة"، لا تعريفاً ولا تحديداً، في أي قانون أو فريضة من القوانين والفرائض. لكأنّها منزَلةٌ تنزيلاً من ربِّ العالمين.

أمّا قوانين ٢٠٠٣ فلا ذكرَ فيها للمقاطعة، لا تصريحاً ولا تلميحاً.

ثامناً - تقويم المعطيات التّاريخية

لا بدّ من وضع النقط على الحروف، من أخذ المعطيات التاريخيّة كما هي، من الاستناد إليها كما بدت، وبالتالي من تقويمها كما سنرى. "ألمقاطعة" في الرهبانيّة قد يُنظر إليها من اعتبارات ثلاثة: فهي، من جهة، تتحكّم بالرهبانيّة؛ ومن جهة ثانيّة، تبدو الرهبانيّة على انفتاح تامّ في تخطّي المقاطعة؛ ومن جهة ثالثة، ألتعايش مع الواقع كما هو له أنصاره في الرهبانيّة.

١ً - ظاهرة تحكّم المقاطعة بالرّهبانيّة

لقد ظهرت "المقاطعة" في الرهبانيّة بوضوح في أمور ومجالات عدّة :

١. ظهرت "المقاطعة" في كلّ هزّة تقسيميّة، أو تحزّب فلان ضدّ فلان، أو في كلِّ اختلاف، سياسيًّا كان أو أصوليًّا. والقِسمة

الأصوليّة لم تكن إلاّ مرّتين ومع المؤسّسين أنفسهم: في المرّة الأولى عندما انفصلوا عن الحياة الرهبانيّة المتّبعة في لبنان، وفي المرّة الثانيّة عندما اختلفوا فيما بينهم حول مفهوم السلطة وحول غاية الرهبانيّة. أمّا سائر الاختلافات فكانتْ، كما مرّ معنا، بسبب نفوذ، أو ظلم، أو مصالح خاصّة، وما أشبه .

٢. وظهرت أيضًا عند كلّ عمليّة انتخابيّة سياسيّة، أكان الانتخابُ على صعيد السلطة العامّة، أم على صعيد المندوبين. أمّا الانتخابات التي كانت تُجرَى لتأليف لجان للدرس أو للعمل، فلم يكن للمقاطعة فيها أي دور، كما لم يكن للرهبان مصلحة للنضال في سبيلها.

٣. وظهرت أيضاً على مستوى الرئيس العام والمدبِّرين وتوزيعهم على المقاطعات الخمس؛ وعلى مستوى الوظائف العامّة الخمس: أمين السرّ العام، الوكيل العام، مدير المدارس، وكيل الرهبانيّة في روما، ومعلّم المبتدئين؛ وكذلك أيضاً على مستوى رؤساء الأديار والمراكز.

٤. وظهرت أيضًا، وبنوع خاصّ، في كيفيّة تصرّف كلٍّ من الرئيس العام والمدبِّرين في الحكم والإدارة، في النفوذ، في التسلّط، في كسب المغانم، في لمّ "التوزيعة"، في الاستفادة من "المشاعات"، أي تلك الموارد التي لم تنشأ باسم مقاطعة معيّنة، مثل الرِّسالات خارج لبنان، والمارشي دي بون، والجامعة، وأملاك الوظيفة، وغيرها ممّا يدرّ لبنًا وعسلاً.

٥. وظهرت أيضًا، ولفترة طويلة من الزمن، في تحديد عدد الطلاّب، وفي تمييز طالبي التخصّص في أوروبّا وأميركا، وفي التعامل المميّز مع "زلم خصوصيين"، في فرض "توزيعة" من كل مقاطعة بحسب عدد المستفيدين منها.

٦. وظهرت أخيراً في الاختلافات والتحزّبات والانقسامات التي حدثت في الرهبانيّة، وكانت على أساس إقليمي وانتماءٍ جغرافيّ، أكثر ممّا كانت في سبيل مبادئ أو أشخاص أصحاب رؤيا أو إصلاحٍ قانونيٍّ ما...

لقد تحكّمت المقاطعة في الرهبانيّة، بسبب هذه العوامل، واستبدّت. ومع هذا بقي هناك بصيص نور للانفتاح والشموليّة.

٢ً - ظاهرة الانفتاح والشموليّة

تعود ظاهرة الانفتاح والشموليّة والحدّ من "حكم المقاطعة" إلى عوامل عديدة. نقتصر منها على ما يلي :

١. إنّ مراحل تربية الناشئة الرهبانيّة الموحّدة والمشتركة جعلت الرهبانَ منفتِحين بعضهم على بعض. مع ما في هذه المراحل من علم وثقافة وتطلّع واسع نحو آفاق جديدة وبعيدة، وانخراط كبير بحركات عالميّة مسكونيّة متحرّرة من كل تقوقع وانعزاليّة.

٢. إنّ ما يستهوي رهبانَنا اليوم تحقيق طموحاتهم على قدر علمهم وثقافتهم وتطلّعاتهم على مستوى الرهبانيّة كلِّها، ويستهويهم العمل مع أشخاص متجانسين في أيّ دير يسكنون، أو في أيٍّ عملٍ

يعملون، أكثر ممّا تستهويهم الخدمة في مقاطعاتهم مع أشخاص غير منسجمين معهم ولا متناغمين.

٣. إنّ ظاهرة العمل في الجامعة، وفي أديار الناشئة، وفي الرّسالات خارج لبنان، والسّكن في أديار العجزة، جعلت الكثيرين من الرهبان يسكنون ويعملون خارج مقاطعاتهم.

٤. إنّ ظاهرة الحرب الدائرة في لبنان، وما تبعها من تهجير للرهبان وأهاليهم، ومن تدمير أديار، وحرق أرزاق وممتلكات، جعلتْ رهباناً كثيرين من دون مرجع في المقاطعة، فهاجروا، أو أووا إلى غير مقاطعة، أو انتموا إلى العمل في المصالح الرهبانيّة العامّة.

٥. إنّ عدم وجود أي نصّ قانوني صريح يمنع على الراهب العيش والعمل خارج مقاطعته جعل البابَ مفتوحاً على التعايش والانفتاح. وكذلك ليس من نصٍّ قانونيّ يقيد الرئيسَ العام ليتصرّف بموجبه على أساس المقاطعة.

٦. إنّ الانفتاح الثقافي، وسهولة المواصلات، والسفر إلى الخارج، وضيقَ مساحةِ لبنان المسيحي، وقلّة عدد الرهبان وتضاؤله الدائم، وكثرة عدد الأديار والمراكز والمهمّات... كلّها جعلتِ الرهبان غير مقيّدين بمقاطعاتهم.

هذه الأسباب وغيرها جعلت رهباناً كثيرين يمقتون المقاطعة، ويرفضون التعامل بمفهومها، ويودّون تخطّيها في أي مستوى كان.

٣ً - الوقائع

الواقع الأوّل: أنّ ظلماً يحدث في الرهبانيّة بين المقاطعات. فمنها الكبيرة جغرافيًّا وعددًا، ومنها الصغيرة، منها الغنيّة جدًّا، ومنها الفقيرة جدًّا. بعضها محصور لا امتداد له، كمقاطعة كسروان وجبيل، وبعضها يمتدّ حتى مصر والشرق الأدنى والأقصى كالشوف، وبعضها يمتدّ حتى قبرص وأوروبا كالمتن، وبعضها يطال سوريا وتركيا وسيبيريا كمقاطعة الشمال.

والواقع الثاني، وفيه أيضًا ظلم جسيم: في كلِّ انتخابٍ لعهد جديد تتحكّم المقاطعات الكبيرة بالصغيرة، وتنتخب لها الشخصَ الذي تريده هي إلى منصب المدبّريّة.

والواقع الثالث، هو من تلك الثوابت في الإنسان المسيحيّ الشرقي، وفي الماروني بنوع خاص. إنّه "إنسان ملتزم بالجغرافيا والأرض أكثر ممّا هو متعلّق بالتاريخ" (الأباتي نعمان)، وانّ الانقسامَ، بحسب هذا المبدأ، أفضل من الاختلاف المستمرّ وما ينتج عنه من قلقٍ وسجسٍ وشكوك. فالمؤسِّسون أنفسُهم انفصلوا بعضهم عن بعض. والقديس بولس وبرنابا، بعد أن "وقع بينهما خلاف شديد فارقَ أحدُهما الآخر" (أع ١٥ /٣٩). إنّها لجرأة قد يكون الروح دافعاً إليها، شرط حسن الإفراز.

خاتمة :

حسن الإفراز في موضوع "المقاطعة"، بعد الذي رأينا، يقتضي واحداً من أمرَين: إمّا التشريع للمقاطعة، وإمّا إلغاؤها.

أوّلاً - ألتشريع لها يتطلّب ما يلي :

١". إعادة النظر في عددِها، وحدودِها، وعدد أديارها.

٢". إستقلاليّتها على صعيد انتخاب مَن يمثّلها في مجلس الرئاسة العامّة.

٣". مساواة عدد ممثّليها في المجمع العام.

٤". إيجاد مقاطعاتٍ جديدة تتناسبُ رهبانًا ومعطياتٍ ومشاكلَ وتطلّعاتٍ، من مصر وقبرص وسوريا وأستراليا.

٥". إلتحاق كلِّ راهبٍ بمقاطعته، لأنّ علمَهُ وتخصّصَه وَعَمَلَه وعجزَه وخيرَه وشرَّه وآخرتَه... كلُّها تقع على عاتق المقاطعة.

ثانياً - أمّا إلغاء المقاطعة من الواقع، رغم عدم وجودها في النّصوص، فصعب جدًّا، لأنّ مُوقِدَ نيرانها ومحرِّكَها هو السلطةُ العامّة نفسُها، في بُنيتِها، كما في توجّهها، وإدارتها، وكيفيّة وصولها إلى مراكز الحكم والمسؤوليّة.

وفي الوقت نفسه نجد معظم الرهبان، وهم من الواعين المثقّفين، يرفضون رفضاً قاطعاً كلَّ كلام عن المقاطعة. هؤلاء يعرفون خطرها، وعارها، وشرّها؛ يدركون فسادها على مستوى السلطة

العامّة، ويدركون ما تؤول اليه الرهبانيّة من قلّة الدعوات، ويدركون أهمّيّة المصالح المشتركة بين أبناء الرهبانيّة... ومع ذلك يعرفون صعوبة إلغائها.

وصعوبة الإلغاء لا تضمحلّ إلاّ بإيجاد تيّار رهباني جديد يعتبر "الدير" نواة الحياة الرهبانيّة ومركزها ومحورها الأوّل والأخير، لا "الرّهبانيّة" ككلّ، ولا "المقاطعة" أيضاً.

وحده "الدّير" يستطيع أن يلغي "المقاطعة". ووحدها "المقاطعة" تقف عائقاً دون تحقيق "الدير".

في علمنا أنّ معظم أبناء الرهبانيّة القلقين والواعين يريدون "الدير"، الذي فيه تعاش الحياة الرهبانيّة الصحيحة.

راهبٌ خارج الدير هو راهب منقوص الحقوق والواجبات. بل هو راهب من دون حصن أو حماية. فالدّير حصنه وحمايته. لا "المقاطعة"، ولا "الرهبانيّة"، تستطيعان أن تحصّن راهباً وتحميه.

كلامنا، في الختام، يعني خيارَ أحد الأمرين: إمّا "المقاطعة" وإمّا "الدير". بعضنا، وهو على حقّ، يعتبر "المقاطعة" ديراً كبيراً يتحرّك فيه رهبان منطقةٍ جغرافيّة معيّنة. وبعضنا الآخر، وهو أيضًا على حقّ، يعتبر "الدير" مقاطعةً صغيرةً يدير شؤونها جمهورٌ ثابتٌ مستقِرٌّ، له انتماء جغرافيٌّ محدّد، وعمل معيّن.

في كلٍّ من الخيارَين، تُقزَّم سلطةُ الرئيس العام والمدبِّرين. وهذا ما يجب أن يكون لتسلم الحياة الرّهبانيّة. كلّ ذلك ليكون الدورُ الفعّال والأنتسابُ الحقيقي للدّير، الخليّةِ الرهبانيّة السليمة، أو للدير الكبير الذي هو المقاطعة.

على ضوء أحدِ الخيارَين يجب أن يعاد النظر كلّيًّا في بنية الرّهبانيّة. نرجو ألاّ يكون ذلك اليوم بعيداً.

٤٥

تعريف جديد للمقاطعة في الرهبانيّة

أوّلاً - ما هي المقاطعة؟

١ . أصبحت المقاطعة من تاريخ الإدارة في الرّهبانيّة.

٢ . وهي تتألّف من مجموعة أديار متقاربة جغرافيّاً، يهتمّ بشؤونها العملانيّة، مباشرةً، أحدُ أفراد الرئاسة العامّة.

٣ . يرفع المدبّر المختصّ بكل مقاطعة ما يراه مناسباً إلى مجمع الرئاسة العامّة، وتُتّخذ الإجراءات اللازمة بحسب ما تفرضه القوانين والفرائض.

ثانياً - مِمَّنْ هي؟

٤ . ينتمي إلى هذه المقاطعة أو تلك كلّ راهبٍ يعيش في أحد أديارها ويعمل فيها، أيّاً يكن منشأه أو مكان ولادته.

٥ . لا ينتمي الأخوة الدارسون، ولا الآباء الذين هم في مرحلة العلم، ولا الذين يعملون في الجامعة أو في أحد أديار النشء، إلى أيّة مقاطعة.

٦ . ليس لأحد من المدبّرين سلطة على أيّ راهب، إلاّ من خلال

مجمع الرئاسة العامّة، أو من خلال الأب العام الذي له وحده حقّ المعاطاة مع الرّهبان.

ثالثاً - أهمّيتها

٧ . للمقاطعة في الرّهبانيّة دور هام في إدارة الرّهبانيّة. إذ أعطت لكلّ فرد من الرئاسة العامّة مهمّة إداريّةً معيّنة ومحدّدة على الأديار والممتلكات.

٨ . هذه المهمّة الموزّعة على كلّ عضو من مجمع الرئاسة العامّة أرضتْ طموحات هذا العضو، وأعطتْه عملاً يشارك به الرئيس العام بالسلطة الإداريّة.

٩ . قبلَ توزيع هذه السلطة الإداريّة، كانت الرّهبانيّة تتعرّض إلى هزّات وانقسامات، خلّصها منها نظام المقاطعات.

رابعاً - تجديد الاسم والانتماء

١٠ . يجب، مهما كلّف الأمر، العمل على تغيير التسمية.

١١ . ويجب أن يتغيّر أيضاً الانتساب اليها

١٢ . ويمكن أن يكون هناك مقاطعات جديدة مستقلّة إداريّاً.

١٣ . كما يمكن أن يُعاد النظر في حدود المقاطعات، وعدد الأديار والمراكز في كلّ مقاطعة.

٤٦

تاريخ المدرسة الإكليريكيّة
في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة

في البدء كان كلُّ ديرٍ "مدرسةً إكليريكيّة" للتنشئة الرّهبانيّة؛ و"دير ابتداءٍ" للاختبار؛ و"مدرسة لاهوتيّة" للمقبولين في درجات الكهنوت، و"بيتاً" يعيشون فيه، ويسكنون، ويعملون، ويثبتون فيه طوال العمر؛ و"مركزَ رسالةٍ" وإشعاعٍ روحيٍّ وخدمةٍ رعائيّة، تقوم على مساعدة النّاس في حياتهم وأعمالهم.

واستمرّ الحالُ هكذا، إلى أنْ توسّعتِ الرّهبانيّة سريعاً، وانتشرتْ في جبل لبنان وفي خارجه، في المدن والأرياف، في عكّار، وطرابلس، وصيدا، وعكّا، في قبرص، ومصر، وروما.. وكثر عدد الرّهبان.. وكثرتْ أعمالُ الرّسالة.. فأمستِ التنشئةُ الرّهبانيّةُ في الدّير لا تكفي حاجاتِ الناشئة.. فقرّرتِ الرّهبانيّةُ إنشاءَ أديارٍ خاصّةٍ لقبول قاصدي الترهّب، ولتعليمهم واختبارهم وتنشئتهم وتربيتهم.

١ . فكانتِ الأديارُ الكبيرة تقوم بهذه المهمّة.. منها دير كفيفان، الذي كان التعليم العالي فيه منذ سنة ١٨٠٨.. إلى أن عيّن الأب العام أفرام جعجع، سنة ١٨٦٣، هذا الدير مدرسةً لاهوتيّةً فلسفيّة موحَّدة

للتلاميذ الرّهبان. وكان القدّيس نعمة اللهّ الحرديني أحدَ أساتذتها، والقدّيس شربل مخلوف أحدَ طلاّبها، وغيرهما العديد من عظماء الرّهبانيّة وأعلامها.

٢ . وفي سنة ١٨٧٥ أوقفَ الأب العام مرتينوس سابا الابتداءَ في أديار الرّهبانيّة، ووحّده في دير مار جرجس النّاعمة.. وفي سنة ١٨٨٠ عزم على بناء دير سيّدة النّصر في نسبيه غوسطا، وجعله مدرسةً لاهوتيّةً للتلاميذ الرهبان، بدلَ كفيفان، منذ سنة ١٨٩٩. واستمرّ كذلك حتّى سنة ١٩١٠.

٣ . في هذه السنة، انتقل التلاميذ الرّهبان من دير غوسطا إلى دير مار موسى الدوّار، حتّى سنة ١٩١٣؛ ثمّ إلى دير سيّدة المعونات جبيل بين ١٩١٣و١٩٥٠. في هذه الفترة، سكن قسمٌ من التلاميذ ديرَ مار أنطونيوس بيروت، يتلقّون علومهم العاديّة والجامعيّة في جامعة القديس يوسف حتى١٩٥٠.

***

٤ . أمّا ما يسمّى بمرحلة "الطالبيّة" فقد أُدخلتْ على الرهبانيّة في عهد الأب العام باسيل غانم (١٩٣٨-١٩٤٤)، الذي أنشأها سنة ١٩٣٩ في دير سيّدة النّصر نسبيه غوسطا. واستمرّت فيه حتى انتقالها إلى دير الروح القدس في الكسليك، سنة ١٩٥٠، باسم "إكليريكيّة الرّوح القدس".

٥ . منذ سنة ١٩٥٠، جمع الكسليك ناشئة الرّهبانيّة كلّها، بعد أن كانت مشتّتة بين بيروت، وميفوق، وجبيل، وغوسطا، ما عدا الابتداء، الذي انتقل من دير كفيفان إلى دير غوسطا.

٦ . في الكسليك تولّت الرّهبانيّة ناشئتَها بنفسها. فعزمت على تربيتها، وتثقيفها، بحسب هوّيتها اللّبنانيّة المارونيّة السريانيّة الإنطاكيّة الشرقيّة. كما كان قصدها أن تحرّر الكنيسةَ المارونيّة من اللّيتنة المستشرقة. فكانت في دير الرّوح القدس مراحلُ التعليم كلّها، من ابتدائيّة، إلى متوسّطة، فثانويّة، ففلسفيّة ولاهوتيّة.

٧ . ولكن، بعد أن تحوّل دير الكسليك إلى جامعة، سنة ١٩٦١، وبعد أن تولّى الأب بطرس قزّي الرئاسة العامّة (١٩٦٨-١٩٧٤)، نقل مرحلةَ الطالبيّة من الكسليك إلى دير سيّدة طاميش التي استمرّت فيه منذ سنة ١٩٧٠ حتى تدمير الدير وحريقه سنة ١٩٩٠. منذ ذلك الحين انتقلتْ إلى دير سيّدة ميفوق، ثمّ إلى دير غوسطا. ونقل القسم المتوسّط من الإخوة الرهبان إلى دير مار يوحنّا قبّيع، سنة ١٩٧٢، ثمّ إلى دير مار أنطونيوس بيت شباب، حتّى سنة ١٩٧٦.

٨ . في هذا التاريخ، نقل الأب العام شربل قسّيس (١٩٧٤-١٩٨٠)، المرحلتَين المتوسّطة والثانويّة إلى دير غوسطا، واستمرّتا فيه حتّى سنة ١٩٩٤، عندما أنشأ الأب العام يوحنّا تابت ،

سنة ١٩٩٤، مجمّعاً في طاميش، للاّهوتيّين الذين كانوا لا يزالون في الكسليك، وقد انضمّ إليهم القسم الموجود في غوسطا.

٩ . في سنة ١٩٩٥، انتقل القسم الثانوي من الطالبيّة من ميفوق إلى دير نسبيه. ومن دير نسبيه إلى طاميش مع اللاّهوتيّين، حتّى انقراض هذه الفئة من الرهبانيّة؛ إذ أصبح الرهبان الجدد يدخلون بعد الابتداء إلى المرحلة اللاهوتيّة.. واقتصر دير نسبيه على فئة الطلاّب الثانويّين الذين يتلقّون دروسهم في المدرسة المركزيّة في جونيه.

١٠ . في الختام، نقول: لقد كان همُّ الرّهبانيّة الاهتمامَ بناشئتها، ففتحتْ لهم مدارسَ خاصّة بهم، وعيّنتْ رهباناً كهنةً لتنشئتهم الروحيّة والعلميّة. وأرسلتْ بعضهم إلى أوروبّا وأميركا وأوستراليا للتخصّص بشتّى أنواع العلوم. وأعدّتْ لهم الجامعة والمدارس العديدة لممارسة اختصاصاتهم العلميّة...

١١ . فالناشئة الرّهبانيّة هم أبناء الرّهبانيّة التي بهم تستمرّ وتدوم. وليس من عيلةٍ تستمرّ وتدوم من دون بنين. ولقد وعت الرّهبانيّة ضرورة وجودها وحضورها في عصر العلم والتقنيّة والنّور. وما استطاعت إلاّ أن تبقى كذلك.

١٢ . إهتمام الرّهبانيّة بناشئتها، لم يمنعها من اهتمامها بمَن اعتنقوها ثمّ خرجوا منها لسببٍ من الأسباب. هؤلاء حاولتِ الرّهبانيّة رعايتهم، والتعاون معهم حيث هم في مرافق الحياة. ولا تزال تبحث معهم عن مدى هذا التعاون. لقد نشط كثيرون منهم إلى تأسيس رابطةٍ،

تربطها بالرّهبانيّة، وتعمل على نوع من اللّقاء يقوم بين أعضائها وبين الرهبانيّة، فاختاروا لهم إسمَ "رابطة اللّقاء لقدامى الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة". ورخّصتِ الدولة لهذه الهيئة العلمانيّة-الرهبانيّة.

٤٧
الوسيلة إلى الرسالة

مقدّمة

وأخيراً، نودّ أن نعرفَ أمرًا واحدًا فقط : ما هي الوسيلةُ العصريّةُ الأفضل والأفعل والأهمّ، التي علينا أن نعتمدها اليوم، لنبلّغَ كلمةَ الخلاص إلى الناس؟ وبتعبير آخر : كيف يشهدُ الرهبانُ اللبنانيّون اليوم، في هذا الشرق، للقيم الروحيّة والأخلاق المسيحيّة التي من أجلها اعتنقوا الحياةَ الرهبانيّة الصعبة؟ كيف يعملون؟ وأيّةَ وسيلةٍ للرسالةِ يعتمدون؟ لكي تملأ قامة المسيح هذه البقعة من العالم؟!

كلُّ عبقريّةِ مَنْ يَوَدُّ خيرَ الرهبانيّةِ يكمنُ في الجواب على هذا السؤال : ما هو العملُ الملائمُ لعيشِ الحياة الرهبانيّة، والمناسِبُ لإبلاغ كلمةِ الخلاص إلى الناس؟ ما هي الوسيلة العصريّة لرسالةِ الرهبانيّة اليوم، والتي يستوعبُها الناس بأكثرَ سهولة، ونفيدُهُم بأكبرَ قدرٍ وأوسَعه، في جميعِ مستوياتهم وأحوالهم؟

لسنا الآن، في بحثنا هذا، في صدد معالجة كيفيّة عيش الراهب لحياته الرهبانيّة، أو كيف تنَظّم الرهبانيّة ليسهل عيشُ الفضيلة فيها، أو كيف تكون القوانين والفرائض ليسير الرهبان بموجبها... إنّما نحن في

صدد معالجة الوسيلة العصريّة الملائمة، التي بها نستطيع اليوم تبليغ كلمة الخلاص إلى الناس.

ليس منّا من ينكر بأنّنا اليوم، كما بالأمس، أمام وسائل رسوليّة عديدة. كلّها كانت، ولا تزال، فعّالة مجدية. وكلّها، تقريباً اعتمدتْها الرهبانيّة، عبر تاريخها، في رسالتها وشهادتها. ومعظمها كان للرهبانيّة مدعاة فخر واعتزاز.

لقد نجحتِ الرهبانيّةُ في إفادة الآخرين، من دون شكّ؛ ولكنّها، للأسف، ومن دون شكّ أيضاً، وبسبب ما ضحّتْ في سبيل الآخرين، ضحّتْ، بالوقتِ ذاته، بنفسها، بسبب انفلاشِها في العالم، وتمادِيها مع أهل العالم، وتعاطِيها بأعمال العالم، وتعامِلها مع المادّة والمال، وتعرّضِها لغمزاتِ الناسِ .ألا يعنينا ذلك؟! أنستمرّ على ما نحن فيه؟! أنبقى على هذه "الوسائل" التي أوصلتْنا إلى ما أوصلتْنا إليه؟!.

من هذه "الوسائل الرسوليّة" التي مارستها الرهبانيّة : المدرسة، الجامعة، التعليم، خدمة الرعيّة، الوعظ، الإرشاد، صناعة الكتاب ونشره، حياة النسك والزهد، أعمال الرحمة، قطاع الزراعة، والصناعة، وبعض أعمال التجارة...

وكذلك أيضًا فتحت ِ الرهبانيّة مستشفيات، وسوبرماركات، أنشأت بنايات للإيجار، وفنادق، وسافرت إلى بلاد الاغتراب، فكان لها فيها مدارس ورعايا، وسفّرت أبناءها في طلب العلم، فغابَ الكثيرُ منهم عشرات السنين، ولمّا عادوا كانوا قد اكتسبوا من أسفارهم، على ما

يصف الأب زنده، سنة ١٧١٧، "التغندلَ والاعتيادَ على الدوران الذي سبّبَ لهم، فيما بعد، صعوبةَ الجلوس في الدير، وإذ مُنِعُوا عنها استحوذَ عليهم الضجرُ وتراكمتْ عليهم التجربةُ، وانغلبوا لها"[126].

أنبقى على ما وصلنا إليه، أم علينا أن نجهد لنرى "الوسيلة" المناسبة؟ نقول ونردّد قولنا : كلُّ عبقريةِ مَنْ يَوَدُّ خَيرَ الرهبانيّةِ يكمنُ في الجواب على هذا السؤال: ما هو عملُ الرسالة المناسب للحياة الرهبانيّة اليوم؟

ولكن، قبل الجواب النهائي على هذا السؤال، نستعرض أهمّ ما قامت به الرهبانيّة، عبر تاريخها، من أعمال رسوليّة، ومن خدمات اجتماعيّة، فنرى عندئذ حقيقةَ الأمر، ونوازي بين النتائج.

١ . **المدرسة والتعليم :** منذ نشأتها، ابتدأتِ الرهبانيّة، وقبل أيّة مؤسّسة تعليميّة في المجتمع اللبناني، تفتح المدارس، وتعلّم الأولاد مجّاناً. ولم يكن الاختلاف بين المؤسّسين بسببِ أنّ واحداً يريد التعليم والثاني يريد حياة النسك، كما يشاع. الاثنان، جبرائيل حوّا وعبدالله قراعلي، أعارا للمدرسة اهتماماً. في الدير-الأمّ ذاته، مورت مُورا، كانت أوّل مدرسة. ثمّ أصبحَ في كلّ دير مدرسة.

ولم يُفتح ديرٌ، فيما بعد، إلاّ وكانتْ رسالةُ التعليم في أساس نشاطه... ولم يمضِ زمنٌ حتى فاق عددُ المدارس في الرهبانيّة عددَ الأديار. ولم يكن دير من دون مدرسة... يعدِّد منها الأبُ مارون كرم:

---

126 التاريخ اللبناني (١٧١٤-١٧٢٨)؛ تحقيق ج. قزّي، ١٩٨٨، ص ٢٦.

١٨ مدرسة قديمة، و١٣ حديثة، و ١٦ بِيعت أو أُغلقت أو أُلحقت بدير[127]. وفات الأب كرم مدارس بلاد الإغتراب... أمّا الأب لويس بليبل (ت ١٩٣٨) فيعدّد ٤١ مدرسة حتى أيّامه. والعديد منها لم يذكره الأب كرم... وقد يصل بنا عدد مدارس الرهبانيّة، حتّى اليوم، إلى ٧٠ مدرسة.

من هذا الواقع يستنتج الأب بليبل قائلاً: "إنّ كلَّ مَنْ عَرَفَ القِرَاءَةَ والكتابةَ من عمومِ سكّانِ هذه القرى (المجاورة للأديار) في تلك الأيام حتى أواسط القرن الماضي كان من متخرّجي هذه المدارس"[128].

لقد سَعَتِ الرهبانيّة، منذ نشأتها، وبنشاطٍ بالغ، حسب قولِ الأب بليبل، إلى "إنشاء مدارس في كلِّ دير أَنْشَأوه (الرهبان) بقصدِ تعليمِ الأحداث.. دون استثناء"[129]، وَسَعَتْ أيضاً لأن تكونَ المدرسةُ رسالةً، وشهادةً، وخدمةً مجّانيّة[130].

وراحتِ الرهبانيّةُ أيضًا تزيدُ مدارسَها يومًا بعد يوم، فحوّلتْ أديرَتها كلَّها تقريبًا إلى مدارس مجّانيّة. وأصبح المعلّمونَ والتلاميذُ والأهلُ ضمنَ حَرَم الدير... ومع تقدّمِ الزمن، وفي هذا العصرِ، انفتحتِ الأديارُ للناس، وانفتحَ الراهبُ عليهم، فعرفوا سرَّه، ولاحظوه في أكلِه

---

127 الأب مارون كرم، رهبان ضيعتنا، الكسليك ١٩٧٥، ص ١٩٥.

128 أ. لويس بليبل، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، مصر ١٩٢٤، ١ /٤٢٦.

129 المرجع نفسه، ١ /٤٢٤.

130 رسالة الإهدني إلى القسّ أندراوس القبرصي، مجموعة اللّبودي، عد١١١.

وشربِه وحاجاته البشريّة، أحبّوه وأحبَّهم. تعلّقوا به وتعلَّقَ بهم. رأوه رسولاً مضحِّياً، ورأى فيهم سَنَدًا وعوناً.

لقد أمسى الرّاهب، بسببِ المدرسة، وعندَ الناس، من دون سرّ. وأصبحَ العلم، بسبب متطلّباتِ هذا الدهر، مقايضةً بالمال والعلاقاتِ البشريّةِ الحميمة، بعد أن كان كلُّ شيء مجّانًا، ورسالةً وشهادة.

وبكلمة، لئلا نُجحِفَ بحقِّ المدرسة الرهبانيّة ودورِها، نقول: لقد خدمتِ الرهبانيّةُ الناسَ برسالتِها التعليميّة، ولكنّها عرّضَتْ أبناءَها إلى عيشِ حياةٍ رهبانيّةٍ تُعاشُ في غير أجوائها الصحيحة.

ويبقى السؤال الكبير : هل تبقى المدرسةُ الوسيلةَ الأفضل لرسالة الرهبانيّة اليوم؟! أما آن الأوان لكي يكون لنا وسائل أخرى أهمّ وأفعل؟

٢ . **خدمة الرعيّة :** قال مؤرّخ الرهبانيّة: "كم مِن كنيسةٍ أو رعيّةٍ لولا الرهبانيّة، لكانتْ مقفَلةً وبدونِ راعٍ، وخاصةً لفقرِ أهاليها"[131]. يصحّ هذا الكلام على الرهبانيّة منذ نشأتها حتى اليوم. ونقول أيضاً: كانتِ الرهبانيّة، ولمّا تزل، تمدّ يَدَها للأساقفة والخوارنة، وتسهم معهم مجّانًا في خدمة الرعايا الفقيرة والمنكوبة.

اشتهرتْ كنائسُ الرهبانيّة بازدحامِ الناس عليها، لِما يَرونَ فيها من ترتيبٍ وتنظيمٍ للصلوات والاحتفالات والأعياد، ولما يَجدون فيها من تأمينٍ للإرشاد والكرازة تطال حياةَ الناس وتصرّفاتهم وحقيقة

---

131 الأب لويس بليبل، تاريخ الرهبانيّة،١ /٤١٤.

أمرهم، ولما يقدِّم الرهبان لهم من صلوات تُقام في أوقاتها، وبتنظيم وترتيب...

في البدء كانت خدمة الرعيّة ناجحة للمؤمنين وللرهبان سواء. المؤمنون يقصدون الديرَ لدقّةِ نظامِ الأعمالِ الروحيّة فيه. والرهبانُ كانوا يخدمون خدمتَهم في الرعيّة، إنطلاقاً من الدير وعَودًا إليه؛ غير أنّ هذه الخدمةَ جنحَتْ، فيما بعد، عندما تراخى النظام في الدير فطلّقه المؤمنون؛ وجنحتْ أيضًا أكثر فأكثر عندما أصبحَ الرهبان يعيشون في الرعايا أفراداً. فأَفقدوا بالتالي خدمتَهُم الرعائيّةَ ميزَتها الرهبانيّة. وأصبحتِ الرهبانيّة في خدمتِها الرعائيّةِ هذه ضحيّةَ رسالتِها.

هذا بالإضافة إلى أنّ خدمة النفوس منوطة، لاهوتيّاً وقانونيّاً، بالمطارنة والخوارنة لا بالرهبان. ويسعى معظم المطارنة إلى نزع الرعايا من يد الرهبان. وعلى الرهبان، والحال هذه، أن يسلّموا خدمة النفوس للمسؤولين عنها. لهذا، لم تعد خدمة الرعيّة، اليوم، وسيلةً رهبانيّة من وسائل الرسالة الفاعلة.

٣ . **رسالة الكلمة :** منذ بدء الرهبانيّة كانت خدمة الكلمة فيها ناشطةً وناجحة. لقد مارسَ الرهبانُ الوعظَ والإرشاد. وكانوا أوّلَ مَنْ ترجمَ الصلواتِ عن السريانيّة إلى العربيّة الدارجة ليفهمَها المصلّون.

فكان ذلك سببًا لاختلافٍ كبيرٍ بينهم وبين أسياد الطائفة[132].

وكان نجاحُهم في الوعظِ والرياضات الروحيّة سببًا آخرَ لخلافٍ كبيرٍ بينهم وبين تلامذة مدرسة روما المارونيّة ومَن وراءَهم من المطارنة. وهاك ما يقوله الأب زنده : بسبب نجاح الرهبان في رسالة الوعظ والإرشاد والرياضات الروحيّة، "تداخلتِ الغَيرةُ وتوابعُها في تلاميذِ المدرسة المارونيّة، وصارتِ الغيرةُ سببًا لتحريكِ اضطهادٍ عظيمٍ منهم ومن السيّدِ البطريرك على الرهبنة"[133].

وأيضًا، وبسبب "سلوك الرهبان الحسن"، والنجاح الكبير في وعظهم، "والفوائد التي حصلت لأهل القرى من تعليمِهم ووعظِهم، تعلّقتْ قلوبُهم بمحبّةِ الرهبنة... وصاروا يقولوا: إنّهم حينئذ ابتدأوا يَفهَمُوا طرايقَ المسيحيين... وصار أيّ مَنْ كان مِن العوام يتمنّى وصولَ الرهبان إليهم"[134].

نجاح الرهبان في رسالة الكلمة واضح. وممارستهم لها منذ نشأتهم واضحة أيضًا. وَمَنْع البطريركِ يعقوب عوّاد لهم دليلٌ على تعلّقِ الناس بهم. يقول ابليبل : "في أوائل نيسان لهذه السنة (١٧٢٨)، عقد السيّد البطريرك يعقوب عوّاد إجتماعاً مؤلّفاً من بعض المطارين

132 أنظر مجموعة اللّبودي، ع ١٣٤ ص ٢٠٣؛ عد ١٤٢ ص ٢١٩؛ عد ٨٥ ص ١٢٩؛ عد ٦٣ ص ٨٩؛عد ٥٠ ص ٧٥. وكلّها في شأن ترجمة الطقوس والرتب لأجل نفع المؤمنين.

133 زنده، التاريخ الرّهباني، ص ٧٣-٧٤؛ أنظر أيضًا ص ١٣٠.

134 المرجع نفسه، ص ١٢٧.

مَنَعُوا فيه آباءَ الرهبانيّة من تِلاوةِ الخدَمِ الكنائسيّة باللغة العربيّة، وعن التجوّلِ في القرى بحجّة أعمال الرسالة والاعترافات والرياضات... ولمّا رجع البطريركُ (فيما بعد) عن مَنْعِهِ، رَجَعَ الرهبانُ إلى ممارستها بأوفرَ غَيرة"[135].

لقد أفادتِ الرهبانيّة المؤمنينَ بما قامتْ به من أعمالٍ روحيّة، مِن وعظٍ ورياضاتٍ وإرشادٍ وما أشبه ذلك.. غير أنّ هذه الأعمالَ فَصَلَتْ رهبانًا كثيرين عن ديرِهم، فأضرّتْ بهم. بل كان ضررُها أشدَّ على الرهبانيّةِ من الخيرِ الناتجِ عنها. والصراع قائم، منذ أيّام المؤسّسين حتّى اليوم، بين مَن يميل بالرهبانيّة نحو مزاولة الرسالة بالكرازة والوعظ وبين مَن يريد ممارسةَ الحياة الروحيّة في الدير.

٤ . **الكتاب ونشره :** ومنذ البدء أيضًا راحَ كثيرٌ من الرهبان يعملُ في تأليف الكتبِ اللاّهوتيّةِ والروحيّةِ. المؤسِّسون أنفسُهم كانوا أصحابَ باعٍ طويلٍ في هذا المجال، من حَوّا إلى قراعلي إلى فرحات، ثمّ إلى اللّبودي والدبسي وأروتين وبلاديوس وجبرايل صقر... ومن المتأخِّرين: نعمة الله الكفري واغناطيوس سركيس البيروتي ومبارك المتيني... ومن المعاصرين: لويس بليبل وبطرس ساره واغناطيوس الخوري وأنطونيوس شبلي... وغيرهم في كلِّ عصر.

ويكفي الرهبان فخرٌ بأنّهم كانوا أوّلَ مَن جلبَ إلى الشرق مطبعةً، وأوّلَ منَ طبعَ ونشر وتعامل مع نشر الكلمة. وأصدروا الكتبَ

135 بليبل ١ /٤١٤؛ أنظر مجموعة اللبودي، عدد ١٤٢.

في كلِّ علم، وأصدروا المجلاّتِ والدوريّات والسلاسلَ... كما نشروا الفكرَ المسيحيّ ومعتقداتِ غيرِ المسيحيين، وعمّموا المعرفةَ على الناس أجمعين...

لقد تمكّنتِ الرهبانيّةُ من العنايةِ بالكتاب، إذ به أدّتْ وتؤدّي قسطَها الرسولي : الكتابُ هو رسولُ الرهبانيّة إلى العالم. إنّه ثمرة الجهدِ والسهر. هو نتيجة العلم والتعليم والدرس والثقافة. هو ما يبرّر رحلاتِ المسافرين إلى أوروبّا وأميركا. وحدَه الكتاب يستحقّ معاناة السفر والسهر.

الكتاب يَخفي صورة الإنسان الضعيفة. يستر على الرهبانيّة ميلَها إلى الكسل والخمول وضياعِ الوقت. يُخرِجُ الراهبَ من ذاته. إنّه رسولُه إلى الخارج. به يفرِضُ نفسَه على المجتمع. إنّه المرآةُ الحقيقيّة الساطعة للراهب وللرهبانيّة. يكشف الحقيقةَ كما هي. يعلِنُ الأسرارَ والخفايا. معه لا يستطيعُ أحدٌ الغشَّ والاحتيال.

الكتابُ غايةُ العلم والثقافة. رهبانيّةٌ من دون كتابٍ كشجرةٍ غضّةِ الظلال، وارفةِ الأوراقِ، يانعةِ الأغصانِ، باسقةِ الفروعِ، شامخةٍ متعاليةٍ... ولكنّها من دون ثَمَر. فما الفائدة منها، وصاحبُها يعتني بها ويشقى في تنميتها من أجل الثَمَر! وهي لا تعطي ثمرًا! تلك هي تينة الإنجيل الملعونة (رَ: لو ١٣ /٦).

الكتابُ هو أفضل أنواع رسالةِ الرهبانيّةِ في العالم. بل هو أرقى نوعٍ لخروج الراهب من ديرِه إلى العالم. بواسطتِه يطلُّ الراهبُ في

المجتمع بصورةٍ نقيّةٍ، بمثاليّةٍ يُقْتَدَى بها. لا رسالة للراهبِ حقيقيّة إنْ لم يَدْعَمْها كتابٌ يَضَعُهُ بمسؤوليّةٍ وعناية.

الكتابُ هو الصيغة النهائيّة الكاملة التي تبقى بعدَ اندثارِ معالِم الحضاراتِ والمدنيّاتِ كلّها. إنّه الصيغة الباقية من "الكرازةِ الرسوليّة" التي لولاها لما عرفْنا الربَّ. على "الكتاب" تعتمدُ الكنيسة في رسالتها. لنَسْمَع القدّيس يوحنّا يقول : "أُكْتبْ ما تراهُ في كِتَاب. وابعَثْ بهِ إلى الكنائس" (رؤ ١ /٩-١١).

٥ . حياة النسك : هل منَ يجهل أنّ الرهبانَ الحبساء الذين ابعتدوا عن العالم، ومارسوا حياةَ الزهد والإماتات، ولبسُوا المسحَ واكتفوا بأكل البقول والحبوب، وقضَوا لياليهم في الصلاة والتأمّل والهذيذ، ونهاراتهم بالتعب والعمل، وحياتَهم كلَّها بالصمتِ والصوم ومحاربةِ أميالِ الطبيعة... هل من يُنكر أنّ هؤلاء، في حياتهم هذه، لم يكونوا رسلاً على المستوى الأرفع للرسالة؟!.

هذا النوع من الرسالة مارستْهُ الرهبانيّةُ منذ نشأتها. وكم كانَ فيها من الحبساء في محابسَ بعيدةٍ أو في زوايا الأديار. المحبسة هي "عنصرٌ مميّزٌ لرهبانيّتنا". إنّها الامتدادُ الطبيعي للدير، والبديلُ الوحيد للحياةِ المشتركة. هي كمالُ شخصيّةِ الراهب. هي البعدُ الوجودي للإنسانِ المدنيّ في راهبٍ يُعاني مِن ثِقَلِ المادّةِ عليه. إنّها قِمّةُ تطلّعاتِ الراهبِ المجِدِّ في تقديسِ نفسِه والغيورِ على خلاصِ العالم. إنّها المكانُ الأنسبُ لأعمالِ البطولةِ الخارقة.

تُعلِّمُنا تلك المحابسُ الشامخةُ فوقَ التلال، أو الرابضةُ في الوديا، بأنّه علينا أن نَزيدَ الخيرَ والقداسةَ في هذا العالم؛ وذلك، فقط، بمحاربةِ الشرِّ الذي فينا. لهذا، فهي تدعونا باستمرار إلى إبطال عادةِ التجوالِ في الشوارع والقرى من أجل اصطيادِ الناسِ إلى الملكوت. إنّ الصيدَ في محبسةٍ نائية، لأَفضَلُ ألفَ ألفَ مرّةٍ من الصيدِ في شوارِع المدنِ ومنابرِ الوعظِ وكراسي المجد...

هذه الوسيلة الفعّالة لرسالة الرهبانيّة التي هي المحبسة، تبقى الأفعل والأهّم بين الطرائق التي تؤدّي للشهادة الحَقّ. لقد خبا نورُها فترةً من الزّمن، وها هي تعود اليوم مع ثلاثة حبساء من أبناء الرّهبانيّة، هم موضوع فخر واعتزاز... ولكن كم على الرهبانيّة أن تُعيد النظر في قوانين الحبساء!

٦ . **أعمال الرحمة :** "أعمال الرحمة، كإطعام الفقير وتربيةِ اليتيم، والضيافة، وخاصّة إبّان الأزمات، وبذْلِ الأموال، وصرفِها بشؤون هامّة"[136]، وخدمةِ المرضى، وفتحِ المستشفيات، وإيواءِ المهجَّرين، وتعليمِ الفقراء، وفتحِ المدارس المجّانيّة، وإيجادِ مساكن للمنكوبين... كلُّها وسائلٌ مهمّةٌ للرسالةِ..

ولكنّ أعمال الرحمة هذه كانت هي أيضاً على حساب الحياة الرهبانيّة. فبسببِ مثلِ هذه الأعمال هَجَرَ الرهبانُ أديرتَهم، وتركوا الحياةَ المشتركة. بسببها هجمَ الناسُ على الأديار ودخلوها متزاحِمِين،

136 بليبل، تاريخ الرهبانيّة، ١ /٤١٦.

مستطلِعين... وبسببها أيضاً انكشفَ الراهبُ على العالم، وأمسىَ عرضةً لكلِ التّهم.

مَن منّا يستطيعْ أن يتنكَّر لما قامتْ به الرهبانيّةُ من أعمال بِرّ! بل مَنْ منّا لا يقدّرُ الرهبانيّةَ ويشكرُها على ما قامتْ به!. ولكن أيضًا، لا يستطيعُ أحدٌ أن يتجاهلَ ما أصابَ الرهبانيّةَ من شرٍّ وفسادٍ بسبب هذه الأعمال نفسِها. وإذا أردنا الموازنةَ بين الربح والخسارة، نرانا، في الحقيقة، خاسرين أضعافًا مضاعفة... ومع هذا، لا بدّ من مزاولة أعمال الرحمة مع المحتاجين إليها، ولكن بخفرٍ وانتظام.

٧ . **الزراعة والصناعة :** قد تكونُ ميزة الرهبانِ اللبنانيّين، منذ نشأتهم حتّى اليوم، العمل في الزراعة، واستثمار الأرض، واقتناء الأملاك، وكسْب الأرزاق، وكثرة الإنتاج، وتنشيط اليد العاملة، وإشراك العلمانيّين برأسِ المال، والاتّكال في المعيشة على المحاصيل الزراعيّة والثروة الحيوانيّة والمواسم الفصليّة...

قد كان للرهبانيّة، من خلال هذا كلّه، هدفٌ رسوليٌّ لا يخفى على أحد. لقد وَعَتِ الرهبانيّة تماماً أنَّه باتّساعِ الأرضِ تتّسعُ أعمالُ الرسالة، وبتعميدِ الأرضِ يكثر المسيحيّون، وبواسطةِ العملِ في الأرض تستطيعُ العملَ في الناس.

إنطلاقاً من هذا، واستناداً اليه، عمل الرهبانُ اللبنانيّون عند بعض الطوائف غيرِ المسيحيّة كأجراءَ وعمّالٍ، وذلك من أجلِ اكتسابِ أرضٍ، ثمّ إنشاءِ ديرٍ، وثمّ تثبيتِ المسيحيين. يقول الأب بليبل: "يتبيّن

من صكوكِ المشترى والشَرَاكة أنّ كلّها، أو بعضَها على الأقلّ، قد ابتاعتْه الرهبانيّة من الطوائفِ الأجنبيّة، من دروز ومسلمين ومتاولة وروم أرثوذكس"[137].

بتضحيّاتٍ جمّةٍ استطاعتِ الرهبانيّة اقتناءَ الأملاكِ وحفظَها واستثمارَها، وذلك من أجل أن تكون الأرضُ واسطةً، أو "وسيلةً رسوليّة"، لتبليغ كلمة الخلاص. ولولا "الأرض" لما قامتِ الرهبانيّة، ولا استمرّتْ ولماَ بقي لبنان وطناً لها وبلداً مستقلاً. في هذا يقول الأب بليبل أيضاً : "أمّا الركنُ المتينُ والموردُ الحقيقيُّ لإنشاءِ الأملاكِ وحفظِها فإنّما هو العيشُ القشِفُ والنسكُ والإقتصاد. وما دام هذا الركن مرعيًّا تبقى هذه الأملاك. ومتى قُوِّضَ فلا حياة لها بعده"[138].

وبسبب ارتباط الرهبانيّة بالأرض، أرضِ لبنان، في الجبل والجرد والساحل، اتّخذ اسمها: الرهبانيّة اللبنانيّة، أو كما كان قديماً: الرهبانيّة البلديّة. حتّى إنّ رهبانيّة من دون أرض، يستحيل انتشارها واستمرارها.

أمّا الصناعة فقد "اعتنى آباء الرهبانيّة في كلّ حين، ولا سيّما في عهد نشأتها، بتعليمِ أبنائها الصنائع، لسدِّ حاجاتِ الأديار. فكان من الرهبان: البنّاء، والنَّجَّار، والكلاّس، والحَدَّاد، والخَيَّاط، والإسكاف،

137 بليبل، المرجع المذكور نفسه، ١ /٤٠٢.

138 الأب بليبل، المرجع المذكور آنفاً،١ /٤٠٣.

والحائك، والطبَّاخ، والسَّنكري، والمصوِّر، والطبيب، والفقيه، والكاتب، والإداري "[139].

مارس الرهبان هذه الصناعات لكي يكونوا أحراراً، ويكْفُوا أنفَسهم بأنفسِهم، ولا يحتاجون أحداً، بل الناس هم الذين شعروا بالحاجة إلى الرهبان؛ فكان الرهبان بصناعاتهم المتنوّعة رسلاً للناس؛ بالإضافة إلى أنّهم علّموها لهم. فكانوا، بسبب ذلك، يدعون الراهب: "معلّمي".

عيب الزراعة والصناعة اليوم أنّها أصبحتْ سمسرة، فأضاعتْ هدفًا رئيسيًّا كان لها في البدء. وعيبها أنّ الأملاك في الرهبانيّة أمستْ للبيعِ والربح السهل. معظمها مهجورٌ، داشِرٌ، عرضةٌ لأنظارِ الناس وطمعِهم.

٨ . **الجامعة :** عنصرٌ جديد دخل الرهبانيّة لأسبابٍ لا نجهلها: في ٢٦ /٤ /١٩٦٢ أَعلَمَتِ الرهبانيّةُ الدولةَ اللبنانيّةَ بأنَّ معهد العلوم العالي في دير الرّوح القدس الكسليك، فيه جميعُ الشروط لكي يكونَ جامعة... فأعترفتِ الدولةُ بما أُعلِمَتْ. فكان للرهبانيّة، منذئذٍ، جامعةٌ تضمّ كليّاتٍ ثلاثًا: اللاّهوت والفلسفة والحقوق... ثم راحتْ الجامعةُ تتوسّع، وكلّياتُها تتفرّع، وبناؤُها يكبر، وجمهورُها ينمو، ومعاهدها تزدهر.

لقد ملأتْ جامعةُ الرهبانيّةِ فراغاً، لا سيّما إبّان الحرب الدائرة

139 المرجع نفسه، ١ /٤٠٧.

منذ ١٩٧٥، والتي فصلت ِ اللبنانيّينَ بعضَهم عن بعض بحسبِ انتماءاتهم الدينيّة. وقدّمتِ الجامعةُ خدَماتٍ علميّةً واجتماعيّةً بفضلِ وعي آبائها وأساتذتها وجمهورِ الإخوة الرهبان فيها.

ولكنّ الورودَ الجميلة لا تكون من دون أشواك؛ وجنيَ العسلِ الطيّب يلازمه وَخْزُ الإبر. فتضحياتُ الرهبانيّة في الجامعة كانت على حسابِ الناشئة. بل لقد احتلّتِ الجامعةُ مكانَ الناشئة، فشتّتَتْها في كلِّ اتّجاه.

***

هذه "الوسائل" الثمانية للرسالة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة يمكن أن تتعدّى هذا الرقمَ كثيرًا، لأنّ الرسالة إنّما تقوم على وعيِ كلِّ فردٍ من أفرادِ الرهبانيّة يشهدُ للقِيم المسيحيّة، ويحيا حياةَ قداسةٍ، ويعملُ من أجلِ الخير في العالم.. . بل كلُّ عملٍ يقومُ به راهبٌ مقتنعٌ بحياته يكونُ عملَ رسالةٍ وشهادة. والقداسةُ، في النتيجة، هي المبتغى من كلِ شَهادةٍ ورسالة. والطرقُ إلى القداسةِ لا يُحصيها عَدٌّ.

لهذا يستمرّ سؤالُنا الذي أشرنا إليه في بدء البحثِ مطروحًا. ونذكّر به: "ما هي الوسيلة العصريّة، الأفضل والأفعل والأهم، التي على الرهبانيّة أن تعتمدها في رسالتها اليوم"؟

***

٩ . **وسائل الإعلام :** بعد الذي عَرَضْنا من "وسائل"، نتوجّه، جوابًا على السؤال المطروحِ، صوبَ المجمع الفاتيكاني الثاني الذي

خصّصَ لوسائلِ الإعلامِ قَرَارًا مميَّزًا. هذه "الوسائل" اعتبرها المجمع بحقٍّ أخطرَ ما في المجتمعِ البشري المعاصر، بسبب أنّها تستطيع أن تتلاعبَ بالرأي العام، وتلعبَ بالحقائق، وتغيّرَ الوقائع، وتؤثّرَ على المشاعر. والعاملون فيها يستطيعون، بحسب قول المجمع. "أن يحمِلوا الإنسانيّةَ في أن تسيرَ طريقَ الخير أو طريقَ الشرّ"[140] سواء.

إنّنا، بسبب أهمّية "وسائل الإعلام" هذه، نستعرض أقوالَ المجمع المقدّس الذي يشير أيضاً إلى أنّ "المجتمع البشري يتعلّق مصيرُه، يومًا بعد يوم، بحسنِ استعمالِه لها" (وج، عدد ٢٤). لهذا، فهو يدعو إلى "أن يخَصَّصَ لها مكانٌ ممتاز" (وج، عد ١). وعلينا ألاّ نكون غير مبالين بأهمّية "وسائل الإعلام" هذه.

كلّ ما ذكرنا من "وسائل" للرسالة، في الرهبانيّة، مهمٌّ ومفيد. وقد لا نتخلّى عن واحدةٍ منها. غير أنّ أكثرها فاعليّة، في هذا العصر، وسائلُ الإعلام الاجتماعيّة كالتلفزيون، والإنترنت، والصحافة، والراديو، والسينما، والمرسح، وما أشبه... بهذه الوسائل العصريّة، تصل كلمة الخلاص إلى الناس بسرعةٍ أكبر وفاعليّةٍ أعظم.

وفي تعاليم المجمع المقدّس أيضاً "إنّ الإعلام أمسى مفيداً جدًّا، وفي أغلب الأحيان، أَمرٌ لا بُدَّ منه" (وج، عد ٥). ويؤكّد أنّه على الكنيسةَ اليوم "أن تستخدم وسائلَ الإعلام لتعلنَ رسالةَ الخلاص" (وج،

140 في وسائل الإعلام الإجتماعيّة، في الوثائق المجمعيةّ (وج)، عد ١١.

عد ٣). ولها الحقّ. بل هو "حقٌّ طبيعي في استعمال هذه الوسائل واقتنائها من دون استثناء" (وج، عد ٣).

وعلى رعاة الكنيسة والمسؤولين فيها أن يعملوا جهدَهم في توجيه الناس نحو حسن استعمالِ هذه الوسائل والاستفادة منها لخلاصهم. بل "ومن مهمّة الرعاة أن يعلّموا المؤمنين، ويوجّهوهم، بحيث أنّهم يستعملون هذه الوسائل بطريقةٍ تؤمّن خلاصهم، وكمالَهم الذاتي، وخلاص وكمالَ البشريّة بأسرها" (وج، عد ٤).

يعرف المجمع المقدّس ما لهذه الوسائل من أهمّيّة في المجتمع البشري المعاصر: لها "المكان الممتاز" بين كلِّ الاكتشافات والتقنيات الحديثة. يقول: "ومن بين هذه الاكتشافات التقنيّة العجيبة.. يجب أن يُخَصَّصَ مكانٌ ممتاز للوسائل التي، من طبيعتها، هي أهل لأن تبلغ، لا الأفرادَ فقط، بل الجماهيرَ، وحتى المجتمعَ البشري بأسره، وتؤثّر فيهم" (وج، عد ١).

والكنيسة تعرف تماماً ما لهذه الوسائل من مكانةٍ ودور فاعل. إنّها "تؤدي للجنس البشري خَدَمَاتٍ جُلّى.. إنّها تُسْهمُ بطريقةٍ فعّالةٍ بالترويحِ عن النفس وتثقيفها، وبامتدادِ ملكوت الله وترسيخه.. وتعلّم أيضاً أنَّ بإمكان الناس أن يستخدموها.. ويحوّلوها إلى هلاكهم بالذّات" (وج، عد ٢).

لهذا ينبّه المجمع ويقول: إنّه "من الأكيد جدًّا بأنّ واجباتٍ كثيرةً وجسيمةً تقع على الذين يمكنهم أن يحملوا الإنسانيّة في أن تسير طريق

الخير أو طريق الشرّ ، وذلك بما يذيعون من أخبار وبما يمارسون من تأثيرات" (وج، عد ١١).

إنّها وسائل خطيرة للغاية، وبنوعٍ خاصّ التلفزيون. لهذا يشدّد المجمع في قوله بأنّ "المجتمع البشري يتعلّق مصيره، يوماً بعد يوم، بحسن استعماله لها" (وج، عد ٢٤). لهذا "ينبغي إعداد كهنةٍ ورهبانٍ وعلمانيّين أيضاً، **ومن دون تأخيرٍ**، كي يحصّلوا جدارةً ملائمة لاستعمال هذه الوسائل للخدمة الرسوليّة" (وج، عدد ١٥).

بل المسؤوليّة مشتركة بين جميع أبناء الكنيسة: "فليجتهد كلُّ أبناء الكنيسة في أن يوحِّدوا غيرتهم ومعرفتهم ليعملوا في أن تكون وسائلُ الإعلام الاجتماعي في خدمة العديد من أعمال الرسالة، **دونَ أيّ تأخيرٍ**، وفقًا لمقتضياتِ الزمان والمكان" (وج، عد ١٣).

من أجل هذه المسؤوليّة الشاملة والسريعة، "يجب إنشاءُ محطّاتٍ كاثوليكيّةٍ خاصّة، حيث تقضي الحال. إنّما يُحتَاطُ لكي تفرضَ الإذاعاتُ نفسَها بكمالِها وفاعليّتِها وفقاً لمهمّتها" (وج، عد ١٤).

ومع أنّ المخاطرَ الناجمةَ عن استعمالِ وسائل الإعلام جسيمةٌ، والصعوباتِ جمّةٌ لا يفتأ المجمعُ يشجّع على ممارستها وإتقانِها مهمّا كلّف الأمر. يقول: "إنّه لمِنَ المخجلِ حقًّا أن يسمحَ أبناءُ الكينسةِ بأن تُقَيَّدَ كلمةُ الخلاص، وأن تُمْنَعَ من الوصولِ إلى النفوس، بسببِ الصعوبات التقنيّة أو الإاتصاديّة، مهمّا كلّفتْ هذه الوسائل من تضحيات" (وج، عد ١٧).

لم يكن كلام المجمع على وسائل الإعلام هِوايةً، ولم يكن "القرار" اعتباطًا. إنّه، في الحقيقة، يستندُ إلى كلامِ الوحي. كلامُ القدّيسِ بولس واضح: "الشهادة باللسانِ تَهدي إلى الخلاص". ويكمّل: "الإيمانُ من السماع. والسماعُ من المناداةِ بكلام المسيح" (رو ١٠ /١٣ و١٧). وكان آخر ما سجّله الإنجيليّون عن المسيح دعوتَه لرسله إلى هذه المناداة: "ثمّ قال لهم: إذهبوا في العالَمِين، ونادوا بالبُشرى في الخلقِ أجمعين" (مر ١٦ /١٥). "وعلى البُشرى أن يُنادَى بها في كلِّ الأمم" (مر ١٣ /١٠)، "حتى أقاصي الأرض" (أع ١ /٨)، و"بجرأة"[141]، و"ثقة"[142]، "بوقتِه وبغيرِ وقته" (٢ طيم ٤ /٢).

لم يأتِ المسيحُ إلى العالم من دون رسلٍ ومبشّرين ومنادِين بقدومه: قبل ميلاده، أُرسِلَ جبرائيلُ إلى مريم يبشّرها ويُعْلِمُها بما سيكون (رَ: لو ١ /٢٦-٣٨)، وعند ميلاده، ظهر مجوسٌ من المشرق (رَ: متى ٢ /١-١٢)، ورعاةٌ حول المعلف (رَ: لو ٢ /٨-٢٠)، وحشدٌ من جند السماء (رَ: لو ٢ /١٣..). وقُبيل البدء برسالته العلنيّة "ظهر يوحنّا المعمدان وهو يُنادي" (متى ٣ /١ / /). بل كان يوحنّا هو الصوتُ المنادي في البرّيّة إعدادًا لطريقِ الرب، ولظهورِه العلني بين الناس (رَ: متى ٣ /٣). وهو الذي جاء ليشهد للآتي بعده[143].

141 أع ٢ /٢٩؛ ٤ /١٣ و ٢٩ و٣١؛ ٢٨ /٣١.

142 ١ تسا ٢ /٢٠؛ في ١ /٢١.

143 متى ٣ /١١؛ يوحنا ١ /٦ و٨.

وحتى الصليب، موضوع الشكّ والعثار، أشار إليه العهد القديم، بـ"الخشبة" (تث ٢١ /٢٣). وكذلك قيامةُ المسيح لم تكن من دونِ شهودٍ ومعلِنين ومعلِنات: ملاكُ الربّ نزل من السماء (متى ٢٨ /٢)، وخاطبَ الإمرأتَين (متى ٢٨ /٥)، ودعاهما قائلاً: "أنتما.. إهرعا إلى تلاميذه، وقولا لهم إنّه قام.. ها أنا قد قلتُ لكما.. وهرعتا تحملانِ البُشرى.. فإذا يسوع يلاقيهما.. ويقول لهما: لا تخافا. إذهبا . وبشِّرا إخوتي" (متى ٢٨ /٥-١٠).

لكأنّ المسيحَ يحتاجُ، في كلِّ ما قام به في حياته، إلى يدِ الإنسانِ وعونِه ليبلّغَ العالَمَ كلمةَ الخلاص، ويفتَح له أبوابَ ملكوتِ السماء.

ويبدو أنّ الدينونةَ العامّة واليومَ الأخير وظهورَ المسيح الثاني قد لا تتمّ أيضاً وأيضاً من دون معلِنين سابقين، ومنادِين مبشِّرِين منذرِين: سوف يأتي ابنُ الإنسان فتواكبه جميعُ الملائكة (رَ: متى ٢٥ /٣١)، وينفخون في الصّور (رَ: متى ٢٤ /٣١)، ويجمعون الخلقَ أجمعين أمام منبر المسيح[144].

وما عبارة "كَمَا جَاءَ في الكتب" إلاّ، في النهاية، دليلٌ على الإعلانات السابقة لجميع أحداثِ الخلاص. وهي عبارة موجودةٌ في مضمونِ أقدمِ دساتير الإيمان (رَ: ١قور ٢٥ /٣و٤). وما الأنبياء والحكماء والقضاة والمشترِعون جميعُهم في العهد القديم إلاّ معلِنون مبشِّرون سابقون لقدوم المسيح. وأحداثُ العهد القديم جميعُها هي أيضاً

144 متى ٢٥ /٣١؛ ١٣ /٤١؛ ١ قور ١٥ /٥٢ ، ١تسا ٤ /١٦.

إعلانات مسبقَة ترمز إلى ما ستكون عليه، في حقيقتها، في العهد الجديد.

الإعلان عن الحدث قبل حصوله من ثوابت تعامل الله مع البشر. الحدَثُ الخلاصي لا يقوم، ولا يؤمِن به الناس، ولا يدركونه من دون "كلام". أللهُ، في كلِّ حال، هو "الكلمة". والكلمة ضروريّة لإعلان الحقيقة وفهمها. الصمت، اذا كان سكوتا، قاتل، الصمتُ، إذا كان يعبّر عن الكلام، غنّي وعظيم.

"اللِّسَانُ نَارٌ هُوَ" (يع ٣ /٦). ولكنّه أداةٌ لتسبيحِ الله تفوقُ كلَّ مزمارٍ وعُود: "المزمار والعود يرخّمان اللَّحنَ. لكنّ اللِّسانَ العذبَ يفوق كليهما" (سي ٤٠ /٤١). وحكمة ابن سيراخ: "لا تمتنعْ عن الكلام في الوقتِ المناسب. ولا تكتمْ حكمتَك. فإنّما تُعرَفُ الحكمةُ بالكلام، والتأديبُ بنطقِ اللِّسان" (سي ٤ /٢٣-٢٤). وأيضًا: "أمّا الحكمة المكتومة والكنز المدفون فأيّةُ منفعَةٍ فيهما؟" (سي ٤١ /١٤). وسِفر الأمثال شديدٌ في هذا القول: "مَنِ اسْتَهَانَ بالكلمةِ يَبِيْد" (أم ١٣ /١٣).

القديس بولس يكره الصمتَ عندما يكونُ الأمرُ يخصُّ البشارةَ بسرِّ المسيح. إنّه يلتمس من القدّيسين دعاءَهم ليعطيه الرّبُ نعمةَ الكلامِ والجرأةَ عليه. يقول: "أُدعُوا لنا حتّى يفتحَ اللّهُ لنا بابَ الكلامِ، فنبشِّرَ بسرِّ المسيح. فأُعْلِنَهُ كَمَا يجبُ عليَّ أن أُبشِّرَ به" (قو ٤ /٣-٤). ويردّد ذلك وهو سجينٌ في روما: "أَحْيُوا اللّيلَ في الدّعاء.. ليَفتحَ اللّهُ لي فأجرؤَ على الكلام، وأُعلنَ سرَّ البشارة. فأنا سفيرُه المقيَّدُ بالسلاسل. واسألوا

لي الجرأةَ على التبشير به كَما يجب أن أتكلّم" (أف ٦ /١٨-٢٠).

وفي النتيجة: "الشهادة باللّسان تهدي إلى الخلاص" (رو ١٠ / ١٠).

***

فبناءً على ما لوسائل الإعلام من أهميّة اليوم،

وبناءً على رغبة المجمع المقدّس الملحّة، و"من دون أيّ تأخير"،

وبناءً على أنّ "الإيمان من السماع، والسماع من المناداة بكلام المسيح"،

وبناءً على اختبارنا اليومي بأهمّية هذه الوسائل وتأثيرها في الناس،

وبناءً على أنّ الرهبانيّة وجب عليها، في كلّ حال، أن تواكب حركة العالم،

وبناءً على أن ّوسائل الرسالة المألوفة في الرهبانيّة شاختْ،

وبناءً على أنَّ إنسانَ اليوم، في جميع أحواله ومستوياته وأعماره، يؤخذ بوسائل الإعلام الحديثة أخذا كلِّيًّا،

أتقدّم من الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، وهي في بداية المائة الرّابعة من عمرها، أن تحسب للتلفزيون والصحافة، في رسالتها، حساباً.

لهذا، وقبل وضْعِ القوانين والضوابط اللاّزمة لكيفيّة استعمالنا لهاتين الوسيلتَين، نرانا مدعوّين إلى التخلّي عن أشياء كثيرة قد تعيقنا عن ممارستهما. وقد نقول: أن لا رسالة مسيحيّة يمكن أن تقوم اليوم من دونهما.

الآن، يهمّنا المبدأ، أي مبدأ القبول بهاتين الوسيلتين. ثمّ نبحث، بعدئذ، في كيفيّة تحقيقهما... والصعوبة الكبرى تبقى في حَثِّ مسؤولين، وجعلهم يميّزون بين المهمّ والأهمّ، ويختارون الأفضل والأفعل والأنسب والأصوب... إنّ الصعوبة كائنةٌ، ويا للأسَف، لا في نهجِ الرّهبانيّة وقابليّة انفتاحِها على كلِّ جديد؛ بل في رؤوس خاليةٍ من كلِّ وعيٍ وتفكيرٍ وهمّةٍ وقلقٍ وطلبِ مشورة أحد.

***

جوابي، إذاً، على السؤال المطروح سابقاً هو هذا: إنّ الوسيلة العصريّة، الأفضل والأفعل والأهمّ، لرسالةِ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة اليوم، في هذا العصر، وفي هذا الشرق الذي فُطِر على "الصوت والصورة"، هي أوّلاً "التلفزيون"، وثانياً "الصحافة"، وثالثاً "الكتاب".

لن أتركها مفاجأة لأقول بأنّه على الرهبانيّة، بعد ثلاثمائة سنة من الجهاد، أن تتوجّه، برسالتها إلى الناس، بكل ما عندها من زخم، وما فيها من قدرات بشريّة وإمكانات مادّية، من خلال هذه "العلبة الساحرة"، ومن خلال مواقع على الإنترنت.

هاتَان الوسيلتان موجودتان في كلِّ بيت. يقف حيالهما كلُّ إنسان

مرهَقٌ يريدُ الراحةَ والتسلية، ويراقبهما كلُّ مَن يريد متابعةَ مستجدّاتِ هذا العالم، ويرغبهما كلُّ مَن يريد الاستزادة في علمٍ والاطلاع على أيٍّ جديد.

يقفُ أمام "العلبة الساحرة" هذه كلُّ عامِلٍ أرهقَه عملُ النهار، وكلُّ طبيبٍ تعِبَ من أوجاعِ الناس، وكلُّ مريض أضناه الألم، وكلُّ عجوز يرغب بأيامٍ هنيئة، وكلُّ مفكّرٍ عبقريّ، أو شاعر محلِّق يكره ضياعَ الوقت، وكلُّ بطريركٍ أو مطرانٍ أو شيخٍ يرغب في تغيير نمط عيشه وعمله.

إنّها لساحرةٌ هذه "العلبة" التي قد تحلّ محلّ السَّفر والتجوال والدوران حول العالم، والتي قد تحلُّ أيضاً محلَّ الكتاب والجريدة والمجلّة، والتي قد تحلّ كذلك محلَّ المدرسة والمعلِّمة، والتي قد تحلّ أيضاً وأيضاً محلّ الرّعيّة التي بات الخوري يجهل معظَمها، وباتت هي تستغني عنه وعن عظاته..

لَسَاحِرةٌ هي للولدِ الذي لا يهدَأ فورانُ دمِه في عروقه إلاّ أمامَ صوَرِها الكرتونيّة المتحركّة، للولدِ الذي لا يستطيعُ أحدٌ ضبطَ أنفاسهِ إلاّ أمامَ مسلسَلٍ تلفزيونيٍّ، ومن أيّ نوع.. وقد يَسبَقُ الوعيُ عمْرَ كلِّ ولدٍ تراه مسحورًا أمامَ مشهدٍ يمرّ في تلكِ "الساحرة".

أيعنينا، نحن الرهبان اللبنانيّون، ذلك؟

ألا يهمّنا التقاطُ الناسِ حيثُ هم؟ في راحتِهم؟ في منازِلهم؟ أمام "علبتهم"؟

ألا نريد أن نسمع أخيراً قولَ بولسَ العظيم، ونقتدي به، و"نعمل لاعْتِقَالِ كلِّ ذِهْنٍ لِنُهْدِيَهُ إلَى المَسِيح"؟ (٢قور ١٠ /٥).

أثمّة مَنْ يشكُّ، بعدُ، في هذه الوسيلةِ العصريّة حتى لا نعملَ جاهدين في اقتنائها، "مهما كلّفت هذه الوسائل من تضحيات". إنّ كلمة الخلاص لا تُقَيَّد. هذا ما نقلناه عن المجمع. مَن يملكُ أفضلَ وأفعل مِن هذه الوسيلة فليتقدّمْ بما عنده.. وأخشى ما أخشاه أن يتحوّلَ مشروعٌ خطيرٌ كهذا إلى مشروع تسليةٍ عند أقزامٍ لا يهمُّهم "اعتقال كلِّ ذِهْنٍ مِنْ أَجْلِ المَسِيح".

كل طاقاتِ الرهبانيّة اليوم، البشريّة منها والماديّة، لا تجعلها تتقدّم في وسائلها الرسوليّة التقليديّة شيئاً بمقابل تلك الوسائل الاجتماعيّة المعاصرة التي أعارَها آباء المجمع المسكوني كلَّ عناية واهتمام. ليتَ رهبانّيتي، في الثلاث مائة سنة المقبلة، تعمل بهذا الاتّجاه!

ألا فليتّعظ الرهبان من قناة "الحياة" التي، وحدها، تكاد تصل إلى هدفها العصيّ على النفوس العاديّة!!!

٤٨

رهبنة من أجل عالمنا

مقدّمة

إنّ الرؤيا إلى مستقبل الحياة الرهبانيّة يقتضي لها الكثير من النظر الثاقب والبصيرة النافذة لنعرف ما ستكون عليه هذه الحياة غداً في الكنيسة وفي العالم. فهل ستبقى كما هي اليوم؟ في قوانينها، وسلوكها، ونذورها، وأديارها، ونوعيّة عملها؟!

أم هل ستكون غداً على ما هي عليه " المؤسّسات العلمانيّة"، كما يسمّيها كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، وهي "مؤسَّسةُ حياةٍ مكرَّسة لمؤمنين يعيشون في العالم، ويطلبون كمال المحبّة، ويسعون إلى الإسهام، خصوصاً من الداخل، في تقديس العالم؟ "[145].

عن هذه "المؤسَّسات العلمانيّة" قال التعليم أيضاً :"يشترك أعضاء هذه المؤسّسات في عمل الكنيسة التبشيريّ، في العالم، وابتداءً من العالم، حيث يعمل حضورُهم عمل الخمير. وشهادة حياتهم المسيحيّة تهدف إلى تنظيم الحقائق الزمنيّة في خطّ الله، واختراق العالم بقوّة الإنجيل. إنّهم يتقيّدون برُبُطٍ مقدَّسة بالمشورات الإنجيليّة،

145 كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٩٢٨.

ويحافظون في ما بينهم على الشركة والأخوَّة المتعلّقتَين بطريقة حياتهم العلمانيّة "[146].

وكذلك يعترف التعليم بوجود "جمعيّات الحياة الرسوليّة"، "يسعى أعضاؤها، من دون نذور رهبانيّة، وراء هدفٍ رسوليّ معيّن، ويمارسون الحياة الأخويّة المشتركة، ويسيرون في سبيل كمال المحبّة "[147].

إنّنا، إذا ما نظرنا إلى هذه الحركات الرّسوليّة العلمانيّة، والتنظيمات، والأخويّات، والجمعيّات، والمؤسّسات، كيف تعملُ في بيئتها التي هي منها ولها، وتعيشُ القِيَمَ المسيحيّة حيث هي موجودة، وتساعد الناسَ حيث هم في بيئتهم ومجتمعهم، وتهتمّ اهتماماً مباشراً بالمحتاجين... فإنّنا، عندئذٍ نشهدُ حقًّا لمَن نحن به مؤمنون، ونعملُ كـ"كنيسة محلّيّة" تتمتّع بعلامات الكنيسة الجامعة جميعها.

في هذا المنظار، تبدو الحياةُ الرهبانيّة المألوفة، كما نعرفها اليوم في نذورها وقوانينها ونوعيّة حياتها وأعمالها، أخصّها" واجب التقيّد بحياة العزوبة لأجل ملكوت الله، والفقر والطاعة"، تبدو حياةً يعتنقها قلّة قليلة من المؤمنين.

فبما تقوم عليه الحياة الرهبانيّة اليوم من خدمات اجتماعيّة في العالم يجيز لها أحد احتمالَين : إمّا البقاء حيث هي من دون تقيّد بالنذور

146 المرجع السابق نفسه، عدد ٩٢٩.

147 المرجع السابق نفسه، عدد ٩٣٠.

التقليديّة؛ وإمّا الابتعاد عن العالم لتنسجم مع ما كرّستْ نفسَها من أجله.

هذا الاحتمال الأخير هو خيار النسّاك، الرهبان الأصوليّين، الذين" يكرِّسون حياتهم لتسبيح الله وخلاص العالم، في انعزال عن العالم أشدّ، وفي صمت العزلة، وفي الصلاة المتواصلة والتوبة "[148].
هؤلاء هم وحدَهم يحقّ لهم أن يعيشوا الحياةَ الرهبانيّة بحسب مفهومها الأصوليّ والحقيقيّ.

هؤلاء الرهبان النسّاك " يُظهرون لكلِّ إنسانٍ هذا الوجه الداخلي من سرّ الكنيسة القائم على الإلفة الشخصيّة مع المسيح. وحياتُهم الخفيّة عن نظر البشر هي كرازة صامتة بالذي كرَّسوا له حياتَهم، والذي هو كلّ شيء بالنسبة إليهم. إنّها دعوة خاصّة إلى أن يجد الإنسانُ في الصحراء، بالجهاد الروحي نفسه، مجدَ المصلوب "[149].

فالحياة الرهبانيّة، إذاً، في أصوليّتها وحقيقتها، لا تُعاش إلاّ في الصحراء، أو البرّيّة، كما كانت منذ نشأتها. ولا تُعاش إلاّ في الأديرة والمحابس والصوامع، بعيداً عن العالم وأهله، قريبة من الله إلى درجة أن لا شيء يجب أن يُلهيها، في ساعات الليل والنهار المتواصلة، عن الصلاة المستمرّة. فكلّ ما يتمتّع به الإنسان العادي يجب أن يتخلّى عنه الراهب.

هذه الحياة الرهبانيّة الأصوليّة لا يمكن أن تعمل عملَها اليوم في

---

148 المرجع السابق نفسه، عدد ٩٢٠.

149 المرجع السابق نفسه، عدد ٩٣١.

العالم، كما يجب، ومن دون ترك هوّيتها الأصليّة. لهذا يقتضي لها "مساعدون"، و"معاونون" من أهل العالم، يعملون عملها، ويتمّمون رسالتها، ويكونون ذراعَها الفاعل في المجتمع. إنّهم قديماً "شركاء" الرهبانيّة؛ ويجب أن يستمرّوا اليوم كـ "شركاء جدد".

"رَهْبَنَةٌ مِنْ أَجْلِ عَالَمِنا"[150]

لهذا، في البال مشروع يصنَّف بين"المشاريع الرهبانيّة الكبرى"، هو إنشاء"رهبنة علمانيّة"، أو"رهبنة من أجل عالمنا"، تكون"رديفة" للرهبانيّة، وامتدادُها في العالم. المنتمون إلى هذه"الرهبنة العلمانيّة" هم أنصار الرّهبانيّة، وأصدقاؤها المناضلون، وسندها القويّ، ومنقذوها من الترف والرخاء، ومنجدوها من الضياع والتلاشي، والعاملون عملَها في العالم، ورسلها بين الناس.

بهم ترجع الحياة الرهبانيّة إلى أصالتها، ويعود الرهبان إلى هويّتهم الحقيقيّة، وتُعاش القِيم التي من أجلها ترهّب مَن ترهّب.

لِمَ هذ ه"الرهْبَنَة"؟

التخلّي عن العالم شرط أساسيّ للحياة الرهبانيّة. من دونه لا حياة رهبانيّة. إنّه يوجب على الراهب الابتعاد عن كلِّ ما في العالم من مغريات المال والنساء والحياة الحرّة؛ كما يوجب عليه السكن في الدّير، في حياةٍ جماعيّةٍ مشتركة، وصلواتٍ متواصلة، وأعمال مجّانيّة،

---

150 الفرق لغويّا بين"الرُّهبَانيّة" و"الرَّهْبَنَة" هو في أنّ الأولى هي طريقة الرهبان؛ فيما الثانية تعني اتّخاذ طريقة الرهبان (رَ: المنجد، مادّة: رهب).

وتضحيات لا حدود لها... كما يوجب عليه أيضاً الابتعاد عن الأعمال التجاريّة، وحسابات الربح والخسارة، وهموم المال، والأعمال الإداريّة، وكثرة التنقّل والحركة، والمعاطاة مع أهل العالم..

هذا التخلّي يوجب على الراهب أيضاً وأيضاً ضرورة الحدّ من الاهتمام بإدارةِ المدارس والجامعات والمستشفيات وأبنية الإيجار والسوبرماركات... وضرورة الحدّ من العمل خارج الدير، في الرسالات التي تستهوي الكارزين الغيورين، في الرعايا، وحبّ الوعظ والإرشاد والتوجيه، والعمل الدائم في المجتمع، ومع الحركات والمنظّمات والفرسان وسواهم...

هذه المظاهر باتت كلّها موانعَ مباشرة وأكيدة لعيش الحياة الرهبانيّة في صفائها وأبسط أشكالها... لقد كان رهبانُ البريّة يبتعدون عن حفيف القصب الذي كان يزعجهم في صلاتهم عند هبوب الريح. وكان يزعجهم نباح الكلاب الذي كان يشتّتهم.. فكيف بمَن يعيش اليوم في الضوضاء والهموم والمقابلات والمغريات... كيف يصلّي؟ ويتأمّل؟ وتهدأ أعصابه؟ أيّة حياة روحيّة عميقة متّصلة يمكن أن تكون عند راهبٍ تكردستِ الهمومُ في رأسه، وتراكبت حركاته ونشاطاته! وتراكمت عليه الإستقبالات والمقابلات!

هذا الوضع المضطرب، بل السيّئ، دفعني إلى تقديم هذا المشروع الرهباني، الذي يقوم على إيجاد "نجدة" للحياة الرهبانيّة. وذلك بإيجاد فئةٍ من العلمانيين، يتولّون أمور الرهبانيّة المادّيّة

والإداريّة وكلّ ما له صلة بالعالم. هذه الفئة، إسمها "رهبنة من أجل عالمنا". تعمل من أجل الرهبانيّة، وباسم الرهبانيّة. وتعفي بذلك الرهبان من كلّ همّ عالميّ.

يجب أن نصل إلى مثل هذه "الشركة الرهبانيّة العلمانيّة"، وذلك حتّى نخلّص الرهبانيّة من هموم وأشغالٍ باتت تهدّد الحياة الروحيّة؛ بل أمستِ الحياة الرهبانيّة معها مستحيلةً ومعدومةً في الحقيقة وفي الواقع. وبات على كلّ راهبٍ يريد عيش حياته الروحيّة أن يتخلّى حتّى عن الدّير ويسعى صوب المحبسة... وأمست المحبسة اعتراضاً صارخاً على الحياة الرهبانيّة في الدير؛ فيما كانت، في أساسها، استكمالاً لحياة الدير وغوصاً أعمق في أسرار الرّب والملكوت.

ممّن تتألّف هذه "الرَهْبَنة"؟

أوّلاً - تتألّف من جميع الذين عاشوا في الرهبانيّة، ونذروا نذورها، واشتركوا في حياتها، وعرفوا طريقها، واطّلعوا على أسرارها، وأكلوا خبزها، وصلّوا صلاتها، واختلوا في أديارها، وعملوا فيها، وتنعّموا بخيراتها، وتذكّروا موتاها، واعتزّوا بعزّها، وتألّموا لآلامها... وكانت لهم مع رهبانها صلات روحيّة ورهبانيّة واجتماعيّة... ثمّ، لسبب ما، تركوا الرهبانيّة، وعادوا إلى العالم، حاملين منها ذكريات وآمالاً كثيرة.

هؤلاء الذين خرجوا من الرهبانيّة، وتفرّقوا على طرقاتِ الحياة : منهم من تزوّج وأصبح له عيال؛ ومنهم من دخل سلك الخورنة

أو الجنديّة؛ ومنهم من سافر؛ ومنهم من كثرت ثروتُه؛ ومنهم مَن رزح تحت عبء الحياة؛ ومنهم من فتح مشاريع اقتصاديّة؛ ومنهم من أصبح طبيباً، أو مهندساً. أو معلّماً، أو رجلَ أعمال..

هؤلاء، شاءوا أم أبوا، وشاءتِ الرهبانيّة أم أبتْ، لا يزالون على علاقةٍ ما مع الرهبانيّة. فهم ليسوا عنها غرباء، ولا الرهبانيّة تستطيع أن تتجاهلهم، أو أن تمحو أسماءهم من سجلاّتها... أكثرهم، مع بُعدهم الجغرافيّ عنها، تمكّن فيهم الحنينُ إليها، أكثر ممّا لو كانوا فيها. والرهبانيّة، للأسف، بادلتْهم التنكّر؛ في حين كان يجب أن تكون بالنسبة إليهم أكثرَ محبّة.

بعض هؤلاء، على علمنا، كانوا يسعون إلى إيجاد رابطة فيما بينهم، وكانوا يتمنّون على بعض المسؤولين في الرهبانيّة أن يساعدوهم في خلق هذه الرابطة وتنظيمها. إلاّ أنّ المسؤولين، كعادتهم، كانوا في خمولهم يَنعمون... وكثير من هؤلاء القدامى، وخاصّة الذين نذروا في فوج واحد، أو في أفواج متقاربة، كانوا، على علمنا أيضاً، يتلاقون بعضهم مع بعض بفرحٍ وذكرياتٍ اعتزاز.

هؤلاء تركوا الرهبانيّة، ليس من دون مشكلة، ولكنّهم كانوا يحنّون بالرجوع إليها من دون مشكلة. إنّهم يتميّزون، ولا يزالون، بروحهم التي أخذوها من الرّهبانيّة، وبالتربيّة التي حظوا بها.

ثانياً - أمّا الفئة الثانية التي تتألّف منها "الرهبنة من أجل عالمنا" فتقوم على بعض أشخاص من رعايا الرهبانيّة، ومدارسها،

وجيران أديارها، وأصدقائها، وعمّالها، وخَدَمِها ، والرّاغبين المؤهّلين إلى ذلك...

وتتكّون من النساء والرجال على السواء، متزوِّجين وغير متزوّجين، يعيشون حياة مسيحيّة واعية في بيوتهم وعيالهم وأعمالهم. يرغبون في أن يكون لهم مع الرهبانيّة صلة روحيّة عميقة. يخدمونها، وتخدمهم. يقدّمون لها يدَ العون في أمورها الزمنيّة والاجتماعيّة، وتقدّم لهم المحبّة والعطف والتوجيه والتوعية والاشتراك في خيراتها الروحيّة والانتماء إلى قداسة أبنائها...

وقد لا يُستثنى أحدٌ، من الموارنة الرّاشدين، من الانتماء إلى جسم"الرهبنة العلمانيّة"، شرط أن يرغب في ذلك، وأن يعي دوره، ويخضع لقوانين الانتساب، ويتحلّى بروحٍ مسيحيّة مميّزة. فهؤلاء، في الحقيقة، هم رسل الرهبانيّة في العالم، وذراعها الممتدّة إلى المجتمع.

غاية هذه "الرّهبنة"

الغاية من إنشاء هذه الرهبنة العلمانيّة، علاوة على خلق مجتمع علمانيّ مسيحيّ ملتزم، وعلاوةً على الاستفادة من خيرات الرهبانيّة الروحيّة والزمنيّة، هي أن تتخلّى الرهبانيّة عن هموم أمورِها المادّيّة والزمنيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والإداريّة.

الغاية الأساسيّة من خلق هذه الرهبنة العلمانيّة هي"نجدة" الرهبانيّة و"تخليصها" من المعاطاة بالمال والتجارة، وإدارة الأعمال، والاهتمام البالغ بأمور العالم، وإبرام الصكوك والعقود، والتقاضي لدى

المحاكم، والمدافعة والمرافعة، والكرّ والفرّ، والسعي نحو تنشيط عمليّات العرض والطلب، والزيادة في الدخل، ومراقبة تقلّبات البورصة، وإدارة المستشفيات والمستوصفات والمدارس والجامعات والسوبرماركات وأبنية الإيجار، وما يُشبه ذلك من هموم العالميّين.

هذه الهموم جميعها، التي نادراً ما تتوفّق الرهبانيّة في تحمّلها، يجب أن تُسَلَّم، مهما كلّف الأمر، ومهما كانت النتائج، إلى هؤلاء"الرّهبان العلمانيّين". بهذا تَسْلَمُ الرهبانيّة، وتعود إلى أصالتِها، ورسالتِها الحقيقيّة، وتَظهر أنّها، حقًّا وفعلاً، تتخلّى عن العالم وكلِّ ما في العالم.

إنّها النجدة الروحيّة الأخيرة لما تبقّى للرهبانيّة من أمل في الحياة والبقاء.

إذا أرادتِ الرهبانيّة أن تكون ذاتَها عليها أن تتخلّى عن كلِّ شيء... وكلّما أرادتْ أن تتقدّم في طريق الكمال، أو شاءتْ ممارسة قوانينِها وفرائضها، أو ابتغتْ عيشَ المشوراتِ الإنجيليّة، أو نَوَتْ أن تكون رسوليّةً بطريقةٍ أفعل، أو وَعَتْ دورَها في العالم، أو عملتْ في تقديس أبنائها، أو قصدتْ محاربةَ الشرّ والفساد، أو عزمتْ على اتّباع الربّ والاقتداء به، أو رامتْ حفظَ نذورها، أو شاءتِ الخلاص لها وللعالم... إذا أرادتِ الرهبانيّة ذلك عليها، مهما كلّفها الأمر، أن تجد لها في العلمانيّين مساعِدين معاونِين منجدِين يديرون أمورها الزمنيّة باقتدار.

وهل من طريق إلى القداسة غير هذه؟

ما عمل الرّاهب إذاً؟ ماذا يبقى على الراهب أن يعمل، بعد أن جرّدناه من كلِّ همٍّ عالميّ؟

قد يهزأ بعضنا من هذا السؤال لعلمه أنّ عملَ الراهب معروف واضح؛ بل هو من البديهيّات. وقد يلحّ بعضنا الآخر على السؤال، إذ لا يعرف تمييزَ الأعمال التي تناسبُ الحياةَ الرهبانيّة من الأعمال التي لا تناسب.

للسائلين نقول : يقتصر عمل الراهب على ما يلي: ممارسةُ حياته الرّهبانيّة في الدير، حيث يسكن، ويعيش، ويعمل، ويصلّي، ويتأمّل، ويخدم. من الدير ينطلق إلى الرّسالة، وإلى الدير يعود. ولا يتركه إلاّ نادراً. في الدّير، وليس خارجه، حياته العاديّة، حيث يمارس الحياةَ المشتركة مع إخوته، والصلاة الفرضيّة المنتظمة، والتأمّل الدائم، والصمت العميق، والاحتفالات بالإفخارستيّا اليوميّة، والعمل العقلي، ونشره، وإصدار مجلاّتٍ ودوريّات وكتبٍ روحيّة ورهبانيّة ولاهوتيّة، والنشاط الزراعي المنتج، والعمل الرسولي والرعائي، والتعليم اللاّهوتي، وترجمة التراث وكلِّ جديدٍ مفيد.

... ثمّ الاهتمام المباشر بكل فرد من أفراد"الرهبنة العلمانيّة"، وتوجيهه، وإرشاده، وخدمته، ورعايته، وتنشئته، وتعليمه؛ لكي يقوم بواجبه كوسيط بين الرهبانيّة والعالم.

فهؤلاء هم حقل عملِنا. هم رعيّتنا. ومجالُنا في العالم، ورسالتنا في العالم.

وهل تصحّ حياة رهبانيّةٌ بغير هذا؟ ونقول أيضا : لو لم يكن لهذه"الرهبنة العلمانيّة" من فضيلة سوى تخفيف الأعباء المادّيّة عن الرهبانيّة، والحدّ من الحركة والتنقّل والخروج من الدير، لكفانا ذلك خيرًا...

عملُ هذه "الرهبنة"

على الذين "أنْجَدوا" الرهبانيّة و "خلّصوها" من هموم الأرض، والذين انخرطوا في جسمها وانتموا إليها، أن تُدوَّن أسماؤُهم في سجلاّت الرهبانيّة وفي الدوائر الرسميّة؛ ويُعتَبروا، بموجب قوانينهم الخاصّة، كأفرادِ الرهبانيّة أنفسهم، من حيث الحقوق والواجبات.

فهم يمارسون الحياة الرهبانيّة في مواقعهم في العالم وكعلمانيّين : يمارسون العفّة في الزواج، والفقرَ في المعاطاة بالمال، والإماتة في الحياة الصاخبة، والطاعة للقوانين والرؤساء من حيث هم، والصلاة اليوميّة، فرديّةً وجماعيّةً، وعملَ الخير مع المحتاجين، وتنمية خيرات الرهبانيّة وأملاكها، وحسن الإدارة والإنتاج، واللقاءات الدوريّة بعضهم مع بعض، والاطلاع على النشرات الروحيّة التي توجَّه إليهم وتوزّع مجّانًا، والتمتّع الكامل بكلٍّ ما للرهبانيّة وفيها من خيراتٍ روحيّة وزمنيّة...

إنّهم، بكلمة، الرهبانيّة في العالم.

قانون هذه "الرهبنة"

متى وجُدتْ هذه "الرهبنة" يُصار إلى وضعِ قانونٍ لها، بحسب أبواب قوانين الرهبانيّة وفصولها. ويكون، بدايةً، تحت الاختبار لمدة خمس سنوات.

إسم هذه "الرهبنة"

الاسم أيضاً يخضع للبحث. وهو يُؤخذ من غاية إنشاء هذه الرهبنة العلمانيّة. وقد يكون: "الرهبنة العلمانيّة"، أو "رهبنة من أجل عالمنا"، أو "العلمانيّون الرهبان"، أو "شركاؤنا الجدد"، أو "أصدقاء الرّهبانيّة"، أو"أنصار الرهبانيّة"... إلخ.

شركاؤنا الجدد

١ . يبدو، من دون شكّ، أنّ نعمةً ما جمعتْ في "رابطةٍ" واحدةٍ مَن تفرّق شتاتاً؛ وضمّتْ في "لقاءٍ" واحدٍ مَن "شطر" عن الرّهبانيّة وابتعد. وكانت هذه "النعمة" نفسُها حركةً، بدأتْ صغيرةً، كحبّة خردل، وراحتْ تنمو، وتتطوّر، وتتّوضّحُ معالمُها، وأهدافُها، وأساليبُها، وتوجّهاتُها، وغاياتُها القريبة والبعيدة، وذلك منذ عشرات السنين، عندما تداعَى بعضٌ من "الرّابطة"، والتقَوا في منزلِ أحدِهم، ثمّ في ديرٍ من أديارِ الرّهبانيّة، وبرعاية راهبٍ من الرّهبان بصير .

٢ . ومنذ ذاك الحين، تعدّدتِ الاجتماعاتُ، وتوالتْ، وانتظمتْ في لقاءاتٍ عديدة، وجمعيّات، وتجمّعات، كبيرةٍ وصغيرةٍ، وفِرَقِ عَمَل، لتوضيح الصورة والأهداف... فاتّضحَ لنا ما يلي :

٣ . **أوّلاً** - إعتبار"رابطة اللّقاء" من عداد تلك الحركات العلمانيّة المسيحيّة الملتزمة، التي نشأتْ ونمتْ بُعَيدَ المجمع الفاتيكاني الثاني، وهي تُعَدُّ بالعشرات. ولهذه الحركة، بين تلك العشرات، دورٌ تلعبُه.

٤ . **ثانياً** - إعتبار "رابطة اللّقاء" هذه حركةً لها علاقةٌ قانونيّة، رسميّة، بالرّهبانيّة، كما يدلّ عليها اسمُها الرسميّ : "رابطة اللّقاء لقدامَى الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة".

٥ . **ثالثاً** - لهذه الرّابطة دورٌ مشترَكٌ مع الرّهبانيّة. فهي عينُ الرّهبانيّة ويدُها في العالم. لها مع الرّهبانيّة إرثٌ كنسيٌّ ووطنيّ واحد. بل لها من الرّهبانيّة ما يُتّفقُ عليه، وللرّهبانيّة عليها ما يجب أن يُتّفَقَ عليه أيضاً.

٦ . **رابعاً** - للرّابطة على الرهبانيّة ما يلي :

١- أن تُدرِجَ الرّهبانيّةُ "رابطةَ اللّقاء" هذه في فرائضها؛

٢- أن توضحَ الرّهبانيّةُ "للرّابطة" مَدى المسؤوليّاتِ المشتركة بينهما؛

٣- أن تعيّنَ الرّهبانيّة رهباناً يتولَّون شؤون "الرابطة" باسمِ الرّهبانيّة؛

٧ . **خامساً** - وللرهبانيّة على "رابطة اللّقاء" ما يلي :

١- أن تقوم الرّابطة بلقاءاتٍ متتالية بين أفرادها، فاسمها

"رابطة"، وهوّيتُها "لقاء"، وهمُّها التعارفُ والتقاربُ والتعاونُ والائتلاف؛

٢- أن تُؤلِّف "جمعيّة تأسيسيّة"، بحسب نظامها الأساسي المعترَف به من وزارة الدّاخليّة. على هذه الجمعيّة التأسيسيّة أن تقدِّمَ تصوّراً واضحاً عن أهدافها، وتضع دليلاً مكتوباً فيه توجّهاتها وقناعاتها الرّوحيّة والكنسيّة والاجتماعيّة والوطنيّة...

٣- أن لا تكتفي "الرّابطة" بحدودٍ بشريّةٍ أو جغرافيّةٍ ضيّقة؛ لأنّه لا يجوز لها أنْ تحرمَ من الانخراط فيها مَن يرى رؤيَتَها؛

٨ . وثمّة منهجيّة عملٍ أمام الرّابطة تسعى إليها، لتحقِّق أهدافها :

١- لقاءات دائمة، بحسب المناطق، وفي جمعيّات عامّة، وذلك في سبيل تمكين التعارف بين أعضاء الرّابطة، وعيالِهم، وأصدقائهم، وفي سبيل الاحتفال بصلواتٍ مشتركة، ورياضاتٍ روحيّة سنويّة، وندوات فكريّة.. وبأفراحٍ وأحزان، وإنْ في أكلٍ وشربٍ، وسهرات عائليّة...

٢- مساعدة أعضاء الرّابطة بعضهم لبعض، في كلّ صعيد ومجال، مجال الخدمة والوظيفة والتعاونيّات وشركات الإنماء والعمران والمال والاقتصاد...

٣- الانخراط في أحزابٍ وحركات وطنيّة، والتزام العمل

السياسي الشريف، والتوصّل بالوسائل النبيلة، إلى وظائف ومراكزَ، تكونُ الخدمةُ فيها أقربَ منالاً، وأعظم قدراً.

الفرع العالَمي

لقد منحت الرّهبانيّةُ "قداماها" شهادةً، اعتبرتْهم فيها، فرعاً منها، وامتداداً لها في العالم. بهذه الشهادة ألزمتْ نفسَها بمدِّ يدِها إليهم. وأجازتْ لهم، استعمالَ اسمِها المعروفة به في المجتمع. وكأنّها، لثقتِها بهم، أعطتْهم الحقَّ في أن يمثِّلوها في المجتمع الذي يعيشون فيه، تمثيلاً مسؤولاً.

وأبيِّن بعضَ هذه المسؤوليّة المترتّبة على الفرعَين، الفرع الرّهباني الدّيري والفرع الرّهباني العالَمي. وذلك دائماً اعتماداً على هذه "الشهادة". أقول :

١ . يقع على عاتق "رابطة اللّقاء" أن تفسّرَ لنا ولأعضائها ما جاء في وثيقة المجمع المسكوني عن دور "جمعيّات الحياة الرسوليّة"، وما جاء في الإرشاد الرّسولي، وفي وثائق المجمع البطريركي، وفي كتاب التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، تفسيراً عملانيًّا، ومن موقعها هي. وتَخرج بأفكارٍ واضحةٍ عن دورِها الكنسيّ والوطنيّ، وعن علاقتها بالرّهبانيّة. وهي، بكونها تعيش في العالم، تعرفُ جيّداً ما يحتاجُ إليه العالم، وكيف تؤدّي له ما يجب عليها تأديته.

٢ . يقع على عاتق الرهبان وشركائهم أن يتشاركوا في اتّخاذ مواقف وطنيّة وسياسيّة واجتماعيّة موحَّدة، ويعالجوا أموراً تُطرَحُ من

حينٍ إلى آخر في المجتمع، كالزواج المدني، وإلغاء الطائفيّة السياسيّة، ومسألة التجنيس، ودور المعارضة، والموقف من المقاومة، والاحتلالات المتنوّعة، والعفو عن جرائم فظيعة، والسلم والحرب مع إسرائيل، والموقف العلمي والتاريخي من العروبة، وفهم الإسلام فهماً علميّاً تاريخيّاً صحيحاً، وكذلك فهم اليهوديّة، وإمكانيّة الحوار وكيفيّته وجدواه، ومختلف المسائل والمشاكل الوطنيّة المستجدّة..

٣ . على المسؤولين في الرّابطة أن يضعوا برنامجَ عملٍ يتضمّن ما يريدونه من الرّهبانيّة وما يظنّون الرّهبانيّةَ تريدُه منهم. وكذلك يضع المسؤولون في الرّهبانيّة برنامجَ عملٍ يتضمّن ما يريدونه من الرّابطة وما يظنّون الرّابطة تريدُه منهم.. فتتّضح بذلك الأهدافُ والغايات كلّها.

٤ . تعمل الرّابطةُ لها قوانينَ وفرائضَ خاصّةً بها، على نسقِ قوانين الرّهبانيّة وفرائضها... ويوافق "المجمع العام" في الرّهبانيّة، بعد الاستماع إلى لجنةٍ خاصّةٍ من الرّابطة، على كلِّ مادّةٍ من قوانين الرّابطة وفرائضها.

٥ . على الرّهبانيّة أن توفِّرَ للرّابطة أمكنةً يجتمع فيها إداريّوها وموظّفوها وأعضاؤها. وتقدِّم لهم خزائنَ ليحافظوا فيها على أرشيفهم. وتسهِّل لهم كلّ وسائل الاتّصال. وتفرز لهم راهباً يكون صلةَ وصلٍ بينها وبينهم. وتسمح لهم بفتحِ حساباتٍ خاصّة بهم، باسم الرّابطة. ويطّلع الوكيل العام في الرّهبانيّة على حركتهم الماليّة والاقتصاديّة...

٦ . يجتمع فرعا الرّهبانيّة، في مناسبات عديدةٍ، مثل يوم تأسيس الرّهبانيّة، في ١٠ /١١/ من كلّ سنة، وفي أعياد قدّيسيها، شربل ورفقا ونعمة الله، وسواهم ممّن ترفع الكنيسة ذكراهم، وتكرّمهم، وتجعلهم شفعاء لنا لدى الله... إنّها لقاءات واحتفالات وأفراح.

٧ . تُدعى رابطة اللقاء إلى مناسبات عديدة في الرهبانيّة، إلى سيامات كهنوتيّة، ومحاضرات علميّة، ووفاة راهب، وغيرها من مناسبات أو واجبات.. هذه توطّد العلائق بين الفرعَين، وتوضّح الرؤيا المشتركة، وتفعّل بعض المشاريع، وتؤكّد ضرورةَ التعاون واللقاء.

٨ . وفي الختام، أخشى ما أخشى ألاّ يشعر كلٌّ من الرّهبانيّة والرّابطة، بالحاجة الملحّة إلى بعضهما بعضاً. إنّي لَعلى اقتناع كبير بأنّ من أولويّات السلطات الرّهبانيّة، تشجيع هذه الرّابطة، وتحديد مدى العلاقة بينها وبين الرّهبانيّة، وتوضيح مجالات التّعاون، وتخصيص مدبّر يهتمّ بشؤونهم. وإنّي لَمقتنع أيضاً بأنّ مِن أولويّات الرّابطة أن تعيرَ بالَها لمدَى هذه العلاقة وهذا التعاون. وإلاّ فالخسارة واقعةٌ على الفرعَين معاً؛ وقد تكون على الرّهبانيّة أكثر[151].

151 إجتماع عام في ١٩ /٤/ ١٩٩٨.

الفصل السادس

القداسة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

٤٩

القداسة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

أوّلاً - مناخ القداسة في الرّهبانيّة

في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة قدّيسون. لا شكّ في ذلك. وفيها دائماً إمكانيّة تقديس أبنائها إنْ هم سَعَوا، إذ فيها القِيم المسيحيّة مصانة، والوسائل إليها كفيلة، والطرائق متنوّعة ومتعدّدة، والمناهل مؤكّدة، والرّوح يعمل. والذين عاشوا حياتَهم في القداسة، وقدّسوا ذواتَهم كُثر. ولكلٍّ منهم طريقته ونهجه ونمطه. والرّهبانيّة غنيّة بهم كغناها بأملاكها وأديارها ومشاريعها ومجالات العمل الكثيرة والمتنوّعة فيها.

غنى هذه الرّهبانيّة يقوم على ما فيها من مادّيّات وروحانيّات. وهي تفتخر بذلك. ولكن أيضاً، ما تملك من هذه ومن تلك يجعلها تعيش مأساة التجاذب بين الأرض والسماء، بين المادّة والرّوح، وأيضاً بين الخير والشّر. فهي تعمل في ما هو للأرض، كما تعمل في ما هو للسماء. وبعض أبنائها علا في قمم القداسة، وأشرق، وبعضهم الآخر ضلّ السبيل، وهوى.

كلّ فخر الرّهبانيّة أنّها توفّر لأبنائها إمكانيّة القداسة؛ كما كلّ ضعفها أنّ شياطينَها يستغلّون احترامَها وتقديرها للحرّيّة : فأبناؤها

أحرار في ما يختارون. وهي تساعدهم على أن يكونوا أحراراً في ما يختارون. وليسوا مكرَهين بحال من الأحوال، لا على اختيار القداسة والخلاص، ولا على اختيار الشرّ والهلاك.

"هَيْكْ هي الرّهبانيّة. وهَيكْ بتضلّ. وهَيكْ كانت. والشاطر بيخلِّص نفسو". هذا ما قاله "قدّيس كفيفان". وهو يعني أنّ الرّهبانيّة هي المجال الحرّ للرّاهب في أن يعتني بخلاصه، كما في أن يعمل لهلاكه بملء إرادته. فخلاصه وهلاكه متعلّقان باختياره. والرّهبانيّة مثل مائدة شهيّة غنيّة، إنْ أكل منها سليمُ الجسم، تغذّى ونما؛ وإنْ أكل منها سقيمُ الجسم، اعتلَّ وأهلكَ حياتَه. وهي أيضاً كأرضٍ بُورٍ، مؤهّلة لأن يُزرَع فيها القمحُ والزؤان سواء بسواء.

فالرّهبانيّة، من هذا المنظار، يعيش فيها الجادّ النشيط، والخامل الكسول. فيها يعيش الشرير ويبدع. وفيها يعيش طالب القداسة ويحلّق. والرّاهب فيها على توتّر عالٍ باستمرار. ولا وسط له فيها. هذا هو المناخ في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، منذ تأسيسها سنة ١٦٩٥ حتّى اليوم وإلى ما بعد اليوم.

هذا المناخ، بشكل عام، ذو وجهَين متناقضَين واضحين : وجه زمني أرضي، ووجه روحانيّ سماويّ. وهمّ الرّهبانيّة يصبُّ في الزمنيّات والرّوحانيّات سواء : لها من الأملاك والمقتنيات والأرزاق والأنشطة الاجتماعيّة الكثير. ولها في مجال الأعمال الروحيّة من

خدمات رعائيّة ورسوليّة وخيريّة وقداسةٍ في سير أبنائها ما يرفع قيمتَها فوق مؤسّسات الأرض جميعها.

هذا الوجه، وجه القداسة في الرّهبانيّة، جليّ واضح. يكتشفه كلّ عارف بتاريخ الرّهبانيّة وبأمور الروحيّات. ويلمسُه كلّ خبير يعرف ما للقداسة من منطلقات وصفات وطرائق وظواهرَ تتميّز بها، عبر تاريخها، في حياة أبنائها، واختبارهم الشخصيّ العميق للرّب الذي يعبدون، وقد كرّسوا حياتَهم وكيانَهم وخوالج صدورهم له. وعاشوا في كنف الرّوح الذي به وفيه يحيون ويتحرّكون.

ثانياً - أسس القداسة في الرّهبانيّة

صحيح أنّ دعوة كلّ مسيحيّ هي في أن يصبح قدّيساً. بيد أن هذه الدّعوة هي هاجس كلّ راهبٍ، ضيّقَ عليه الأبواب، ويشاء أن يسعى إلى كماله وقداسة نفسه باستمرار واضطراد. وهو، في سبيل ذلك، تخلّى عن كلّ شيء. والحياة الرّهبانيّة، في جوهرها، مسيرة مستمرّة نحو الكمال، والتعامل مع المطلق، والنّمو الرّوحي المتواصل، ورفع كلّ ما هو زمني إلى مستوى الرّوحيّ... حتّى إنّ كلّ ما هو مادّي لا قيمة له إلاّ بمقدار ما يتّجه نحو الرّوحي. يعيش الرّاهب في هذا العالم، في كلّ ما فيه من إغراء يجرّه إلى الابتعاد عن الرّب جرّاً. ولكنّه يعيش وكأنّه خارجه. هنا تكمن أزمتُه كلّها. وفي هذا كلّه قداسته.

قداسة الرّاهب تعتمد، في ما تعتمد، على علاقته العميقة بالربّ، وعلى الاتّحاد به، واعتباره هو الغاية القصوى لحياته وكيانه. قداستُه لا

تقوم إطلاقاً على الالتحاق بأي نبيّ أو رسول، أو على السير الدقيق بموجب شرائع وإنْ إلهيّة، أو على حفظ ما في الكتب المنزلة من حقائق ودقائق، أو على التحلّي بسلوك خُلُقيّ عصاميّ، أو على التزام نظريّات فلسفيّة شاملة، أو على أيّ شيء آخر سوى واحدة فقط هي الاتّحاد بالرّب والاقتداء به. لا شيء في الأرض يستطيع أن يزيد الخيرَ والقداسة في راهب قطع تعامله مع الرّوح. هذا الرّوح هو الذي يقدّسه. ويبدّل حياتَه. ويرفعه فوق الأرض والسماء.

إلاّ أنّ الاتّحاد بالرّبّ لا بدّ له من وسائل. والانتماء إلى الرّهبانيّة، كانتمائه إلى الكنيسة، التي توفّر للرّاهب كلّ إمكانيّات القداسة والخلاص. رهبانيّة الراهب هي إحدى تلك الوسائل الفعّالة. رهبانيّته هي كنيستُه التي اختارها بإرادته. هي رعيّته التي أوجدها بحرّيته. لا كرعيّته التي فُرضت عليه فرضاً. رهبانيّته هي مجال عمله، ومكان خلاصه، ومحلّ نموّه الرّوحي والإنساني والاجتماعي. هي "الجماعة" التي يرتبط بها ارتباطاً عضويّاً، فتقدِّسه ويقدِّسها. ومصيره من مصيرها. والمنتسبون إليها كلّهم إخوته، يخدمونه ويخدمهم. يقدّسونه ويقدّسهم. ويكون الواحد للآخر سُلَّماً يصعد به إلى السماء.

"الآخر" في الرّهبانيّة هو السرّ العظيم، هو وجه من وجوه الإفخارستيا؛ بل هو القربان نفسه. ألم يقل الربّ في ما قال:" إنْ كنتَ تقدّمُ قربانَك وعرفتَ أنّ لأخيكَ عليكَ شيئاً. أتركْ قربانَكَ. واذهبْ. وصالحْ أخاك أوّلاً. ثم عدْ إلى تقدمتك". ألا يعني هذا القول الرّبّاني بأنّ "الآخر" هو أولى من القربان وأسمى! ألا يعني هذا بأنّ الإنسانَ

الآخر، في الرّهبانيّة، أي كلّ أخٍ من الإخوة فيها، هو هو القربان الذي يقدِّس! ألأب نعمة الله الحرديني. هذا هو سرّه، وسرّ قداسته. خلّص نفسَه وقدّسها بخدماته العديدة لإخوته. والحياة في الرّهبانيّة ليست في حقيقتها إلاّ شراكة بين إخوة ارتضوا أن يعيشوا معاً، متساوين في كلّ شيء. وهو ما يُسمّى، في القاموس الرّهباني، "الحياة الديريّة المشتركة"، و"المحبّة الأخويّة" الشاملة.

لكنّ الرّهبانيّة، في مسيرتها نحو القداسة، لم تحصرْ تعاملَها مع أبنائها فقط. لأنّ كلّ جماعة تحصر تعاملها مع أبنائها دون سواهم هي حزب. والرّهبانيّة ليست حزباً. ولا أيضاً عصبة من عنصريّة معيّنة. ولا حركة لها أبعاد وأهداف دنيويّة. الرّهبانيّة، كالمسيحيّة، منفتحة على العالم كلّه. وليست كبعض الأديان مغلقةً على أتباعها. مثل هذه الأديان وتلك الأحزاب لا تفيدُ قداسةً. وليس فيها أيّة إمكانيّة للحصول على القداسة. ولئن كان لبعضهم، عَرَضاً، بعضُ الخير، فلأنّهم ينالون هذا الخير من انتمائهم العضوي إلى البشريّة التي خلّصها الرّبّ. لهذا، شرطُ القداسة في الرّهبانيّة، أن لا تنغلق على ذاتها. بل أن تعمل من أجل غيرها.

والقداسة في الرهبانيّة تتجلّى في أنشطتها ومهمّاتها المتعدّدة والمتنوّعة. وقد تكون في العمل في الأرض، كما في الخدمة الرعائيّة، وفي التعليم والتدريس، وفي المستشفيات ودور العجزة والأيتام، وفي العمل السياسي والاجتماعي والإداري، وفي الاهتمام بشؤون النّاس والمجتمع... فليست الرّهبانيّة، إذاً، في أنشطتها المتعدّدة والمختلفة،

شعباً مختاراً لشعب مختار. وليست "جمعيّة سرّيّة" لا يهمّها إلاّ أعضاؤها. وليست أيضاً حزباً ذا لونٍ واحد وعقيدة جامدة. وليست عصبة من الناس يدورون حول مصالحهم الخاصّة، وليست أصوليّةً ترفضُ كلّ مَن لا ينتمي إليها أو يقول قولَها... إنّها تنظيم روحيّ، له أبعاده الرّوحيّة الواسعة وهموم الأرض والسماء.

وانغلاق الرّهبانيّة على ذاتها خطيئة. بل هو الخطيئة بعينها. والخطيئة على طرفي نقيض بينها وبين القداسة. فإذا كانت الخطيئةُ انغلاقَ الإنسانِ على ذاته، فالقداسة هي انفتاحُ الإنسانِ على كلّ ما في الكون. إنّها الحوار مع كلّ كائن. فيما الخطيئة لا تدور إلا في فلك صاحبها. الخطيئة حال اكتفاء وانكفاء وانحسار. وبسبب ذلك تحمل حياءها وخجلها، وتعمل في السّرّ. وإنْ كان للرّاهب عملٌ دائم فهو في الخروج من الانكفاء والاكتفاء. وفي انفتاحه يكتسبُ قداسة فوق قداسة.

هذا المفهوم للخطيئة في الحياة الرّهبانيّة يجعلنا نقول إنّ الخطيئة، بمفهومها الحقيقيّ، لا يَظهر شرُّها ساطعاً إلاّ في الحياة الرّهبانيّة، ذاك لأنّ تعامل الرّاهب مع المطلق، كما سبق وقلنا، هو الذي يوضح مدى تعامله مع الخطيئة. وليست الخطيئة إلاّ في مثل هذا التعامل. وحيث يسطع نور المطلق تُعرف ظلمة النّسبيّ. وفي المسيحيّة تأكيدٌ لمثل هذا القول: "حيث كثرت الخطيئة فاضت النعمة"، أي أنّك لا تعرف شرّ الخطيئة إلاّ بانعكاس نور المطلق عليه. من هنا قول الرّبّ: "لو لم آتِ وأكلّمهم لما كانت عليهم خطيئة". فكلام الرّبّ هو معيار القداسة والخطيئة.

وثمّة مجال آخر للقداسة في الرّهبانيّة، وهو مجال عملها في ما تقتني من ممتلكات وأرزاق. هذه، أصبحتْ ملكاً للكنيسة، ووقفاً على الله وعباده. ولا يحقّ لأحد التفريط بها. هذه الممتلكات أمستْ ملكاً إلهيّاً، كمائدة تقدمة القرابين، وكالخبز والخمر في الإفخارستيا، وكالزيت والماء وعود الصليب وكتب الصلاة والألبسة المكرّسة وذخائر القدّيسين... كلّ هذه، بكونها ملكاً للرّهبانيّة، وبالتالي ملكاً للكنيسة ولله، باتَ مَن يعمل فيها يتقدّس ويتبارك. وبها ينال النّعم. لهذا كان للتراب الذي عمل فيه شربل قداسة وبركة وشفاء للّذين يؤمنون. وكذلك كان للسنديانة التي تفيّأها، وللألبسة التي ارتداها، وللقبر الذي دفن فيه جثمانه... مفاعيل عجائبيّة. وكأنّها كلّها، أصبحت، على حدّ قول بولس الرّسول عن أجساد المسيحيّين، "هياكل للرّوح القدس".

غاية الحياة الرّهبانيّة القصوى الاتّحاد بالرّب والدخول في سرّه. بهذا يصبح الرّاهب قدّيساً. ولا غاية له سوى ذلك. ولا الحياة الرّهبانيّة لها مبرّر غير ذلك. المسيح فيها هو كلّ شيء. وله فيها كلّ شيء. ومن أجله يُعمل كلّ شيء. ولو أنّ شربل، مثلاً، صلّى دهراً، وصام وسهر اللّيالي الطوال، وتقشّف وعذّب جسدَه ليلَ نهار، وبكى خطاياه بحسرةٍ ومرارة... ولم يكن المسيح نصبَ عينيه، لما حظي ببصيص نور من القداسة. إنّ اتّحاده بالمسيح هو الذي أكسبه قداسةً، وأضفى عليه قيمةً بمستوى المطلق. ومهما صنع الرّهبان البوذيّون من تقشّفات وإماتات، والصوفيّون المسلمون من حالات وَجْدٍ وفناء، فلا يدركون من القداسة شيئاً.

هذا الاتّحاد الحميم بالمسيح، ما كان ليكون للرّاهب خارج الكنيسة، أي من دون جماعة، هي هنا، بالنسبة إليه، رهبانيّته. لهذه الرّهبانيّة-الكنيسة، كما رأينا، القدرة والسلطة على تصويب خطوات أبنائها صوب المسيح. ولولاها لكان لكلّ راهب نظرةٌ للمسيح خاصّة به، تختلف عن نظرة الآخرين. فيتعدّد، بالتالي، المسيح. ويُختلف فيه. ويصبح هناك مسحاء لا حصر لهم. لهذا لا يسع المسيحيّ أن يعرف المسيحَ خارجَ الكنيسة، ولا الرّاهب أن يعرف المسيح خارج رهبانيّته. من هنا أصبحت رهبانيّتُه محلّ معرفته للمسيح، ومجالَ اتّحاده به، ومكان قداسته وخلاصه.

هذه المبادئ الواضحة التي تبرّر وجوب القداسة في الكنيسة هي نفسها تبرّر وجود الحياة الرّهبانيّة في الكنيسة، وتبرّر وجوب القداسة في الرّهبانيّة. فلكأنّ الرّهبانيّة -ولا نملّ من ترداد ذلك- هي كنيسة الرّاهب التي اختارها كمكان لقداسته وخلاصه.

ثالثاً - مميّزات القداسة في الرّهبانيّة

تتميّز القداسةُ في الكنيسة وتختلف من عصر إلى عصر، ومن رهبانيّة إلى رهبانيّة، ومن شخص إلى شخص... فالقداسة هي أيضاً بنت بيئتها ومجتمعها وعصرها. وتابعة لحضارات الأمم والشعوب، ولسلّم القيم فيها. ونابعة من اختبار كلّ شخص بفردانيّته، ومن قدراته الخاصّة والذّاتيّة على استيعاب معطيات إيمانه المسيحيّ وسلوكه والتزامه، واتّحاده العميق بربّه.

وفي الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة من هذه المميّزات ما بات واضحاً عبر التّاريخ. وهو ما نستجليه من وقائع عديدة : من سِيَر رهبانٍ اشتهروا ولمعوا في ميادين القداسة. ومن القوانين والفرائض التي قدّستْ وتقدّسُ مَن يحفظها بفرح. ومن أديار الرّهبانيّة ومراكزها التي هي منارة حقّ لكلّ إنسان قهرته الحياة، أو لكلّ مؤمن يحتاجُ إلى خلوة لمحاسبة نفسه وصفاء ضميره. ومن مهمّات الرّهبانيّة وأنشطتها وخدماتها في الكنيسة والمجتمع. ومن حسّ المؤمنين بحاجتهم الملحّة إلى وجود رهبانيّ في قراهم وديارهم ومؤسّساتهم، ممّا حدا بالرّهبانيّة إلى الانتشار بينهم حيث هم في مختلف أنحاء العالم.

هذه الظواهر علامات ناصعة وأدلّة كافية، على وجود القداسة في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. ولئن اعترض معترض ويقول بأنّ هذه لم تجعل الرّهبان كلَّهم قدّيسين، فنقول للحال بأن لا شيء يحلّ محلّ الاختبار الشخصي والحرّيّة الشخصيّة. لهذا قلنا، ونردّد، بأنّ الرّهبانيّة تقدّم الإمكانيّات والوسائل للقدّاسة، وتُعِدّ المناخ الملائم، وتحثّ أبناءها على ذلك. ولكن، دون أن تحلّ محلّ واحد في اختباره الحميم لله. لهؤلاء أن يعملوا ويكمّلوا بسيرتهم الذاتيّة، وبسلوكهم الحسن، واختبارهم العميق، وقناعاتهم الشخصيّة، وعقلهم الواعي، وضميرهم الحيّ... ما قدّمت لهم الرّهبانيّة وما أهلّتهم إليه.

والميزة العامّة الشاملة التي تتصف بها الرّهبانيّة اللّبنانيّة ورقمّت بها أبناءها هي تلك البساطة التي يتّصف بها الموارنة وأهل الجبال، بساطة في العيش : في المسكن والمأكل والمشرب والتعامل مع

الآخرين... بسبب هذه البساطة أصبح كلّ راهب لبناني وكأنّه أخٌ لأيّ إنسان. يعرفه ولو هو يشاهده للمرّة الأولى. يحبّه وكأنّ بينهما خبزاً وملحاً. يخدمه بفرح. يحمل همّه وكأنّه مسؤول عنه. وفي كلّ هذا لا تجد تكلّفاً ولا منّيّة.

ما عند الرّاهب اللّبناني مكشوفٌ للعيان. وهي ميزة أخرى لشخصيّته وقداسته. تعرفه. تعرف تاريخَه، وتَوجُّهَه، وهمومَه، وتطلّعاتِه. يحدّثك بلا عِقَد. يخبرك وكأنْ لا سرّ له ولا خصوصيّات. ترتاح إليه. تحبّه. تسلّمه سرّك وسرّ بيتك وعيلتك ومهنتك. تتبادل معه آراءك من دون وجل أو رقيب أو نيّة خفيّة. تسمح لنفسك باقتحام أبواب ديره، وقضاء بعض الوقت معه، أكان الوقت وقتَ صلاة، أم وقت راحة، أم تسلية. هذه الميزة سهّلت للناس الحكمَ على الرّاهب أو عليه. وهم له قابلون أو رافضون. ولا يسعهم أن يكونوا تجاهه بلا موقف أو لامبالين. ذلك لأنّهم يعرفونه معرفة تامّة، بسبب ما انكشف لهم منه.

ومع أنّ بعض الرّهبان التزم الاستحباس والصمتَ والبعد عن العالم، نجد النّاسَ يؤمّون المحبسة، ويدخلون أبوابها، ويرافقون الحبيس في صلاته، ويطلبون منه البركة، ويكشفون له عن خفايا ضمائرهم، ويستشيرونه بما ينوون، ويرمون بين يديه همومَهم ومتاعبهم ومصاعبهم الحياتيّة... ولهذا، لم يكن الحبيس اللّبناني منعزلاً عن النّاس تماماً. ولم يكن النّاس هم أيضاً لينعزلوا عنه من دون محبّتهم له والافتخار بأنّ لهم في عصرهم راهباً حبيساً يلجأون إليه في الساعات العصيبة.

بالإضافة إلى ذلك هناك أيضاً ميزة أخرى للقداسة في الرّهبانيّة، هي ميزة إثبات الذّات، والاستقلاليّة، والحرّيّة، ولو على حساب الوحدة والإلفة وسلامة المبادئ. فمن الثوابت في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، متى ما اختلفتِ النّظرة إلى القِيم والمبادئ والمفاهيم بين أبنائها، أنْ يحسموا الاختلاف، لا بالخلاف، بل بالفرقة والقسمة. والأصوب، في منطق هؤلاء، أن يذهب كلّ صاحب رأي وموقف في سبيله، ويفترق عن أخيه، من أن يستمرّا معاً على اختلاف وتعارض وتناقض وخلاف. لا حظّ للمعارضة أن تنجح في الحياة الرّهبانيّة: فإمّا أن يكون الرّهبان متّفقين، وإما الفرقة والقسمة. هكذا كانوا منذ بدء تاريخهم وهكذا سيستمرّون. وإليك بعض محطّات القسمة :

* منذ التأسيس، ومع المؤسِّسين أنفسهم، بدأ ت وجهات النّظر تختلف. فقرّروا الانقسام فيما بينهم. ولم يمضِ على الرهبانيّة، بعدُ، إلا بضع سنوات حتّى أصبحت رهبانيّتَين. المؤسّسون أنفسهم انقسموا. فقسموا الرّهبانيّةَ وتقاسموا الأديار والأرزاق والرهبان. وانقسم معهم المطارنة وأعيان الطائفة والبلاد.

* ثم سارت الرّهبانيّة اللّبنانيّة، إحدى الفرعَين المنقسمَين، نحو أربعين سنة، واختلفت الآراء مجدّداً. وانقسمت الآراء والتطلّعات الى الرسالة والخدمة ونوعيّة الحياة. فانقسمت هي إيضاً إلى فرعَين. وحاول المصلحون رأبَ الصدع. فكان لهم ذلك، ولكن إلى حين. وعاد الاختلاف على أشدّه. وكان المبرّرُ أنّه لا شيء يوجبُ العيشَ بين أناس

مختلفي الآراء والتطلّعات، ولو هم قدّيسون. وكان الانقسام الكبير بين جبَلِيِّين وحلبيِّين.

* ثم سارت المسيرة حوالي سبعين سنة أخرى، فاضطربت الرّهبانيّة الجبليّة من جديد، فكان عليها سلطتان عامّتان: واحدة كانت نتيجة تدخّل روما في تعيينها، والثانية نتيجة انتخاب الرهبان لها. ولم تعد الأمورُ إلى مجراها إلاّ بعد أن حسم موتُ أحدِ الرئيسَين العامّين الموقف. وكان الأب الحرديني، أحد أعضاء تلك السلطة المعيّنة، وبالرّغم من كلّ شيء، كان يحلّق في مجالات القداسة. ويردّد قولَه المأثور: "هَيْكْ كانتْ. وهَيْكْ هي. وهيْكْ بتضلّ. والشاطر بيخلّص نفسو".

* وفيما التعيين يتكرّر، والامتعاض يتزايد، والانقسام يذرّ قرنه.. وجد الرّهبانُ لهم حلاًّ مؤاتياً لتلك الظروف القاهرة والحالات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة السيّئة.. وكان حلّهم هذه المرّة طريفاً. وطريفاً جدّاً. فانقسموا. ولكن، لا إلى رهبانيَّتَين فحسب، بل إلى مقاطعات خمس. واستمرّت هذه القسمةُ جاريةً حتّى اليوم. بالرّغم من أنّ الظروف التي أوجبتها قد زالت. إلاّ أنّ الخوفَ من انقسام الرّهبانيّة، إنْ زالت المقاطعات، قد يعود يهدّد الوحدة. لهذا ترسّخت المقاطعات. وطالت عمقَ أعماق السلطة العامّة التي بها وفيها يبتدئ الانقسام والخلاف. وبها وفيها تعيشُ المقاطعات. هذا وبالرّغم من أنّ القوانين والفرائض كلّها ترفض المقاطعات رفضاً قاطعاً، إلاّ أن الواقع لا يزال

يثبّتها. وحتّى روما، حامية القوانين والفرائض، ترعى هذا الواقع وتراعيه[152].

هذه اللمحة التقسيميّة هي من مميّزات الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. وهي، كما قلنا، نتيجة إثبات الذات، ورسوخ الشخصيّة، ونشدان الحرّيّة والاستقلال. وفي هذه الأجواء، وبالرّغم من كلّ شيء، الروح يعمل. ولا يزال يعمل. والقداسة تنمو. والقدّيسون في الرّهبانيّة تجدهم في كلّ دير.

لقد تلوّنت القداسة في الرّهبانيّة بهذه الميزة، واعتمدت عليها. ولكن، لا بانقسام الرّهبانيّة على ذاتها، هذه المرّة، بل بافتراق طالبِ القداسة عن إخوته، وانفصاله إلى محبسة بعيدة عن الدير، عالية فوق قِمّة، أو عالقة في سفح جبل، أو نائمة في قعر وادٍ. هناكَ، في بُعدِه عن الدير وانفصاله عن إخوته، يجدُ الحبيسُ ذاتَه، ويُثبتُ نفسَه، ويحارب الشرّ الذي فيه، فيتقدّس. وتعود قداستُه خيراً على ديره وإخوته ورهبانيّته والكنيسة والعالم.

محاربة الشرّ في النفس ميزة أخرى من مميّزات القداسة في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. وهي من مقوّمات الاستحباس. وهو يعني بأنّ الحبيسَ يترك ديرَه وإخوتَه، ويرحل صوب المحبسة ليواقع الشرّ بسلاح الزهد والتقشّف، ولبسِ المسح، وأكلِ الخضار والبقول، وشربِ الماء الصرف، والنّوم على الحضيض، وتعذيب الجسد والنّفس،

152 أنظر "قصّة المقاطعة" في هذا البحث.

والامتناع عن كلّ كلمة غيرِ مجدية، والانقطاع عن مخالطة النّاس، والابتعاد عن العالم...

كلّ هذا في سبيل محاربة الشرّ في النّفس أوّلاً قبل محاربته في الآخَرِين بواسطة الوعظ الذي يَطالُه المجدُ الباطل. هذا الشرّ الذي يقصدُ الحبيسُ أن يحاربَه في نفسه يتأكّد من وجوده في نفسه فيحاربه حيث يتأكّد وجودُه. يحاصره في قلاّيته. ينازله في لياليه البيضاء. ويقضي عليه بصلاته المستمرّة وصلته الدائمة بربّه.

وثمّة سببٌ آخر للنزوح صوب المحبسة، وللمزيد من نشدان القداسة. وهو يكمن في أنّ الراهب يشعر، وهو في ديره، بأنّ ممارساته التقويّة الرّوحيّة ربما تُصبح عبئاً ثقيلاً على إخوته. فهو يقلقهم. يُربك ضمائرَهم. وهم يهربون من أمام وجهه. ويتجنّبونه. وكأنّهم يرفضونه... فمحبّةً بهم، ينسحب منهم. يعزل نفسَه عنهم. ويتحصّن بين جدران محبسته... وهو نوع آخر من محبته لهم ولأهل العالم. هذا النوع من القداسة يكاد يزول من الكنيسة، لولا بعض من أبقاهم الرّبّ يشهدون لهذه القداسة البهيّة في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. وقد حمل هذا المشعل ما لا يقلّ عن ستين راهباً فيها، بحسب ما حدّثنا عنهم كتاب رائع للأب ليباوس داغر[153].

153 الأب ليباوس داغر،، كاتب أسرار الرّئاسة العامّة اللّبناني، **كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء**، طبعة أولى سنة ١٩٢٣. أمّا الطبعة الثانية فكانت بتقديم وتحقيق الأب جوزف قزّي، سلسلة "التراث الماروني"، قسم "رهبانيّات"، رقم ٤، مركز النشر والتوزيع الكسليك، ١٥٢ ص.

وثمّة ميزة أخرى للقداسة في الرّهبانيّة وهي أنّها لا تنحصرُ في المحبسة فحسب. فالدير أيضاً، والحياة المشتركة، والعيش مع الإخوة، وتحمّل المسؤوليّات، ومزاولة الأعمال الإداريّة، وممارسة التعليم والتدريس، وخدمة الرعايا، والتبشير والكرازة... هي أيضاً مجالات جدّيّة للقداسة. وهذا النّوع من القداسة عاشه رهبانٌ عديدون ومعروفون. منهم الأب نعمة الله كسّاب الحرديني الذي أوحتْ لنا سيرتُه في التعليم والإدارة وخدمة الرعيّة هذا البحث.

وكم كانوا عديدين أولئك الرّهبان الذين ناضلوا في المجتمع، وتحمّلوا مسؤوليّات الإدارة! فكان منهم رؤساء عامّون، ومدبّرون، ورؤساء أديار، ومدراء، وخَدَمَة رعايا، وأساتذة تعليم، ومهنيّون وحرفيّون في شتّى ميادين العمل، كالنجارة والحدادة والبناء وتجليد الكتب والخياطة، وفي خدمات وضيعة، كالكناسة وتنظيف غرف الدير ومماشيه، والاهتمام بزوّار الدير وضيوفه، والسهر على العمّال والأجراء، والعمل في الحقول والمزارع... وكان للرّهبانيّة من هؤلاء عددٌ وافرٌ في كلّ دير ومنطقة. ذاك لأنّ القداسةَ عملٌ شخصيّ يحصّلها الرّاهب أينما كان وفي أيّ خدمة كُلِّف بها شرط أن يضع نصب عينيه ربَّه ومخلّصه الذي به يتّحد وفيه يحيا.

هذا العمل الشخصي هو ميزة أخرى للقداسة في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. يتميّز به رهبانٌ لم يقيّدوا نفوسَهم بقوانين وفرائض، ولم يخضعوا لإرادةٍ غير إرادة نفوسهم. بهذا العمل الحرّ يمارسُ هؤلاء الرهبان، بحسب قناعاتهم وتوجّهاتهم الذاتيّة المستقلّة، طرائقهم

إلى القداسة. لهذا فهم يتخطَّون عادةً الواجبات المرسومة للجميع. ويقومون بما يرونه مناسباً لهم. وسيرة بعض هؤلاء تكاد تكون مشكّكة للعامّة لما تتميّز به من فرادة. لهذا، بات صعباً علينا أن نلج إلى عمق قناعات الرّاهب الذي سار في طريق القداسة. والحبساء في الرهبانيّة خير دليل على علاقتهم الخاصّة بالربّ. فهم يتخطَّون قوانينَ الرهبانيّة وقوانين النسك؛ فيقومون بما لم يؤمروا به، ولا بما هو مألوف.

من هنا، وبسبب هذه الميزة الشخصيّة للقداسة في الرّهبانيّة، نرى بعض الرّهبان، في ممارساتهم التقويّة، لا يقفون عند حدّ، ولا يكتفون بأعمال تحدّدها لهم القوانين والفرائض. فكلمة "يكفي" لا وجود لها في قاموس الرّهبان القدّيسين. وكذلك، لا تعرفُ تقاليدُ الرّهبانيّة ما يُسمّى اليوم بـ فرصة، أو عطلة، أو بطالة، أو "ويك-أند"، أو حتّى عيد... عملُ الرّاهب، طالبِ القداسة، مستمرّ، ليل نهار. لا هدنة فيه ولا استرخاء ولا رخاء. تعب دائم. جوع. عمل. شغل في كلّ مجال وفي كلّ وقت.

لهذا، وبسبب هذه المميّزات المتنوعة للقداسة في الرّهبانيّة، وبالرّغم من وحدة هدفها وتحديد غايتها، لا نجد لها تعريفاً واحداً موحّداً. لأنّ القداسة، في جوهرها، قناعة شخصيّة، خبرة باطنيّة، حرّيّة مطلقة. نابعة من عمق أعماق كلّ شخص. ولكلّ شخص، بحسب ما شاء الله له أن يكون، يتميّز بفرادة لا يشاركه فيها أحد. وبما أنّ القداسة حرّيّة مطلقة فهي تتوجّه دائماً إلى المطلق لتتّحد به. وهي بتوجّهها هذا تنسف الحواجزَ كلَّها بينها وبين الله.

٥٠

قداسة شربل

١ . لا تقوم قداسةُ إنسانٍ على البعد عن العالم والزهد فيه؛ ولا على التبحّر في العلوم الإلهيّة؛ ولا على العمل بأوامر الله وتحاشي نواهيه؛ ولا على ممارسة أعمالِ البرّ؛ ولا على القيام ببطولاتٍ ومعجزات؛ ولا على الصوم والصلاة والسهر وصنع الصالحات... إنّما القداسة تقوم أساساً، وفي الحقيقة، على الإيمان بالمسيح، وعمل الروح القدس، والانتماء إلى الكنيسة والخضوع لها. بهذه، لا بتلك، يكون المسيحيُّ مسيحيًّا، ويصبح، بالتالي، قدِّيساً.

٢ . لهذا نقول : لو انَّ القدّيس شربل، مثلاً، صام وصلّى وتقشّف وانسلخ عن الأهل والأحباء، واعتزل العالم وما فيه، وعرف الله واقتنع به بعقله وعلمه، وتمّم أوامرَ الناموس ونواهيه... ولم يكن مؤيَّداً بالروح القدس، ومنتمياً إلى الكنيسة، وعاملاً بموجب هذا الإيمان والتأييد والانتماء، في حياته وأعماله كلِّها... لما رأى من القداسةِ أيَّ بصيصِ نور.

٣ . ونقول أيضاً : لو أنّ القدّيس شربل تركَ إخوتَه الرهبانَ في الدير، ورحل عنهم صوب المحبسة هرباً منهم، لكونهم يُعيقونه عن

تقديس نفسه؛ وعزم على عيش القوانين والتقاليد الرهبانيّة وحدَه بكلِّ دقّة وصرامة؛ وظنَّ أنَّ الحياة الدَّيريَّة الجماعيَّة العائليَّة المشتركة مع الإخوة تعرقل مسيرتَه نحو الله، واعتقد أنّه، وحده، يستطيع أن يكتشف سرَّ الله... لما سار باتّجاهِ القداسة خطوةً واحدةً.

***

٤ . ترك شربل الحياةَ في الدَّير، ورحل صاعداً نحو المحبسة المرتفعة فوق قمّة عنّايا، حبّاً بإخوتِه حبًّا أكبر ممّا لو بقي بينهم. فهو، بينهم، يُتعب ضمائرَهم بتميّزه عنهم. لقد ذهب بعيداً في تقديس نفسه؛ فيما هم لا يزالون يدبدون قاصرين. لهذا، فهو يريد أن يبتعد عنهم، حبًّا بهم. لا يريد أن يسبِّب لهم توبيخاً لضمائرهم، إذا ما وجدوا أنفسَهم مقصِّرين عنه في السباق في محبّة الله..

٥ . لقد ترك شربل الديرَ إلى المحبسة، لا لأنّ إخوتَه الرهبان يصدّونه في مسيرته، أو يهزأون منه، أو لا يقدِّرون جهادَه، أو لا يحبّونه... إنّما صنع شربل ذلك، لأنَّ المسافات أصبحتْ شاسعة بينه وبينهم في طريقِ القداسة. لهذا، كان لا بدّ للمتأخِّرين من أن يسيروا بقدر استطاعتهم؛ وللمتفوِّقين أن يسعوا قُدماً ما دام باستطاعتهم ذلك. ولا بدّ من الانفصال بين هؤلاء وأولئك. إنّها سنّة الحياة.

٦ . ترك شربل الدَّيرَ إلى المحبسة، ليلتحقَ بمن تقدَّموه في ميادين السبَق : في المحبسة حبساء، لا يقلّ عددهم عن اثنَين، ولا يزيد على ثلاثة، كما تقول القوانين الأولى للحبساء. إنّهم يؤلّفون جمهوراً لا

يزال تابعاً للدّير الأمّ، خاضعين لرئيسه، ولقوانين الرهبانيّة. إنّهم يعيشون الحياةَ الجماعيَّة المشتركة في أحسن حالاتها. لهذا، فهو لا يزال راهباً من رهبان دير مار مارون، يعمل من أجلهم، إنّما من خلال حياته الحميمة مع الربِّ.

٧ . يريدُ شربل مساعدةَ إخوته في مسيرتهم الروحيّة أكثر ممّا لو كان بينهم : مَن يريد أن يرى جيِّداً، عليه أن يبتعد قليلاً عن موضوع رؤيته. هكذا، بعضُ البُعد يَخلق شوقاً ومحبّةً أعظم. وكذلك أيضاً، بعضُ البُعد يُخفي نواقص الطبيعة البشريّة التي يعمل الحبيس، أكثر من سواه، على التغلّب عليها.

٨ . ثمّ كيف يتخلّى شربل، في مسيرة القداسة، عن شراكته مع إخوته، وهو لا ينفكّ يسعى، لتقديس نفسه، إلى قمّة هذه الشراكة، وهي الشراكة مع الله، والاشتراك في الحياة الإلهيّة نفسِها؟ وهل تكون قداسةٌ، في قاموس القدِّيسين، وفي تعاليم الإنجيل، بغير هذه الشراكة المزدوجة مع الله ومع الإخوة؟

٩ . فيجب ألاّ يكون في بال أحدٍ، إلاّ إذا كان جاهلاً جهلاً مطبقاً بأمور الحياة الروحيّة، إنّ الابتعاد عن العالم وعن الإخوة طريقٌ سهل إلى القداسة. هذا عين الضلال : إنّ الانتصار على العالم وشهواته، وعلى صعوبات الحياة مع الإخوة، لأسهلُ ألف ألف مرّة من الانتصار على ميول النفس والجسد. فلكأنَّ الجسد، إذا ما ضُبطتْ رغائبه وميوله،

ينتقم لذاته، ويُضاعف مطاليبه، ويلحّ فيها في الليل وفي النّهار، بل وفي كلّ ساعة.

١٠ . "إنّ الدعوة إلى ملء الحياة المسيحيّة وكمال المحبّة موجّهةٌ إلى جميع المؤمنين بالمسيح أيًّا كانت رتبتُهم وحالتُهم"[154]. كلّ المسيحيّين مدعوّون إلى القداسة: "كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماوي هو كامل" (متى ٥ /٤٨)"[155]؛ إلاّ أنّ طرق القداسة تختلف من واحدٍ إلى آخر؛ وكلّ واحد يختار طريقَه حرّاً؛ والله يُعينه في خياره وفي مسيرته. كلّ الطرق توصل إلى ا لله، ولكنّ بعضها أسرع، وطريقُ شربل، تتميّز عن طرق إخوته، بكونها أسرع.

١١ . "يمرّ طريق القداسة عَبر الصليب. وليس من قداسة تخلو من التجرّد ومن الجهاد الروحي (رَ: ٢ طيم ٤). والتقدّم الروحي يتضمّن الجهاد والإماتة"[156]. هذه هي طريق الربِّ إلى فداء العالم وخلاصه. وهي عينها طريق القدّيسين إلى قداسة نفوسهم والمساهمة مع الربِّ في تقديس العالم وخلاصه. هذه طريق قد سلكها شربل بوعيٍ وعزمٍ صارمَين.

***

١٢ . إستناداً إلى ما سبق نقول : إنّ علامات القداسة بدأت

---

154 دستور في الكنيسة، عدد ٤٠.

155 التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيّة، عدد ٢٠١٣؛ رَ: ٢٠٢٨.

156 المرجع السابق نفسه، ٢٠١٥.

تظهر في حياة شربل وهو في الدَّير مع إخوته : في الدَّير أشعل السراجَ بالماء بدل الزيت. وفي الدَّير كانت محبّتُه للربِّ تنعكس محبّةً لإخوته. وقد سُمح له، بموجب القوانين والفرائض، ليصعد إلى المحبسة العالية، لكونه كذلك. ولو لم يختبر المسؤولون جدِّيَّةَ شربل، لما حقَّ لهم أن يلبّوا طلبه.

١٣ . وأكثر الأوامر جدّيّةً في قوانين الرهبانيّة وفرائضها هي تلك التي تجيز للرؤساء السماحَ لراهبٍ سلوكَ طريقِ المحبسة. فهم يعرفون تمامَ المعرفة صعوبة تلك المغامرة في قهر الذات من دون هوادة. لهذا، فهم، قبل سماحهم بذلك، يستشيرون جمهور الإخوة، ويطلبون من مجلس الرئاسة العامّة، الموافقة على ذلك.. ولا يُسمح الاستحباسُ، بحالٍ من الأحوال إلاّ لمن عاشَ الحياةَ الديريّة المشتركة، حبّاً بالإخوة، وإسهاماً منه في تقديسهم.

١٤ . لقد كان قرارُ السماح للأب شربل بالاستحباس صعباً على المسؤولين؛ لأنّ خطر الانفراد جسيم، والتجارب في المحبسة متتالية، والصعوبات مستمرّة، والعزلة قاتلة، وإماتة الحواس وأميال الجسد محطِّمة، والشياطين تتلوّن في المحبسة بألف ألف لون...

ثمّ لماذا المحبسة، وشربل يستطيع أن يقدِّسَ نفسَه في الدّير، بين إخوته! ولقد بدتْ عليه، وهو في الدير، ملامحُ القداسة، كما مرّ معنا.

١٥ . القداسةُ، على وجهِ إنسانٍ يعيش في جماعة، هي ارتباكٌ لضمائر النّاس كلّهم. وعلى القدّيس أن يُريحَ النّاس من حضوره بينهم.

ظلُّ القدّيس ثقيل على العاديّين من البشر. القدّيس يكشف الحقيقة. يبلبل الجماعة. وعليه أن ينسحب منها. أما قال الكافرون في سفر الحكمة: "لنَكمُنْ للبارِّ فإنّه يُضايقُنا، يقاومُ أعمالَنا، ويَلومُنا على مخالَفَتِنا للشريعة. صارَ لَوماً على أفكارِنا. وحتّى منظرُه ثَقُلَ علَينا.. أمسينا في عينَيه شيئاً مزيّفاً"[157].

١٦ . الرّاهب، في تشوّقه إلى المحبسة، لا يريد إلاّ محاربة الشرّ الذي في نفسه. لقد تخلّى عن إصلاح الآخرين مباشرةً. إنّه يعرف تماماً أنّه متى حارب الشرّ الذي فيه، يتأكّد من أنّه ينتصر ويتقدّم في طريق القداسة. فيما لو عزم على محاربة الشرّ في الآخرين فهو لا يتأكّد من الفوز أبداً. وحتّى لو تأكّد من فوزه على الشرّ في غير نفسه، يبقى خطر الادّعاء بأنّه أصبح كالله؛ وهو شرّ أعظم. وكلام يسوع لتلاميذه فيه عبرة. قالوا: "ربَّنا! ربَّنا! أمَا باسمكَ نطقنا بالنبوءات؟ وباسمكَ طردْنا الشياطين؟ وباسمكَ أتينا المعجزات؟ فأجابهم الرّبُّ علانية: ما عَرَفتُكم قط. إليكم عنّي أيّها الفاسقون" (متى ٧ /٢٢).

لقد كان يعرف شربل أنّه في تقديس نفسه يقدّس إخوتَه والعالَم أجمع. والعكس غير صحيح. أي لا يمكن لشربل أن يعمل على تقديس العالَم قبل أن يُقدِّس نفسَه. أما قال يسوع لأبيه في ساعاته الأخيرة : "أُقدِّسُ نفسِي مِن أجْلِهم، ليكونوا هُم أيضاً مُقَدَّسِين فِي الحقِّ" (يو ١٧ / ١٩). والرّبُّ نفسُه لم يَعِدْ تلاميذَه بالقداسة إلاّ بعد ما تحقّق أنّه سيموت

157 سفر الحكمة ٢ /١٢-١٦؛ أنظر أيضاً: ٤ /١٦؛ ٥ /١-٢؛ إرميا ١١ /٩؛ ٢٠ / ١٠-١٣؛ يو ٥ /١٦ و١٨؛ متى ٢٦ /٣-٤.

من أجلهم ويفتديهم، ويرحل عنهم، ويُرسل إليهم الرّوح القدس... شربل كان يعرف ذلك. ولذلك نشد المحبسةَ حيثُ الصليب أكبر والتجارب أعنف، والشياطين كلّها رابضة تريد رجوعَه إلى حيث أتى.

١٧ . مع القداسة لا يستطيع أحدٌ التحايل. الخداع والكذب ينكشفان للتّوّ في عالم القداسة. مع القدّيسين كلّ شيء مكشوف واضح. إنّهم نور. معهم تدخلُ في عمق ضميرك. وتتوجّه، حتماً، إلى منبر التوبة، وإلى الإقرار بكلّ ما خفي في عمق أعماقك. إيّاكَ والكذب مع القدّيسين. إنّهم يَعرفون. وقد لا يُنبِّهونَك عليه لئلاّ يمسّوا شعورَك. ولكنْ عليك أن تفهم. راهب المحبسة كشّاف لكلِّ ما في العالم من بطل وكذب. فاحسبوا له ألفَ حساب.

٥١
مَا كُتبَ في وَفَاة شَربل

جاء في روزنامة دير مار مارون عنّايا، باب الرّهبان المتوفَّين، عن وفاة الرّاهب الحبيس، الأب شربل مخلوف، ما يلي :

" إنّه في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون الأوّل، سنة ١٨٩٨، توفّي لرحمته تعالى الأب شربل بقاعكفرا الحبيس، بداء الفالج. وتزوّد بواجبات الموتى، ودُفن في مقبرة الدّير، وله من العمر ٧٠ سنة، بزمان رئاسة القسّ أنطونيوس مشمشاني.

وما سيجريه (الله)، بعد موته، يكفي عن الأسهاب بحسن سيرته، وبالأخصّ حفظ نذوره (الطاعة والعفّة والفقر)، حتّى (إنّنا نستطيع أن) نقول "إنّ طاعته (كانت) ملائكيّة لا بشريّة"".

١

يبدو أنّ كاتب هذه النبذة ليس الأب أنطونيوس مشمشاني، رئيس دير مار مارون-عنّايا، عند وفاة الرّاهب الحبيس الأب شربل مخلوف؛ ولا الكلام يُنسب إليه؛ بمقدار ما يُنسَب لكاتب، أو ناسخ، الروزنامة.

غير أنّ هذا الكلام واضحٌ، وصادقٌ في ما كان عليه الرّاهبُ الحبيس الأب شربل في حياته : كلامٌ يشير إلى أنَّ شربل كانَ، في

حياته، راهباً قدِّيساً، أجرى الله على يده عجائب، وسيجري أيضاً عجائب أخرى، بعد موته. وهو ما يفيد ما كانت عليه نظرة الرهبان والنّاس إلى قداسة شربل و"حسن سيرته".

ويشير هذا الكلام أيضاً إلى ما كانت عليه حياة شربل من ممارسة الفضائل الرهبانيّة، أخصّها حفظه الكامل لنذوره الرهبانيّة، ألطاعة والعفّة والفقر؛ وبنوع خاصّ طاعة رؤسائه وإخوته، التي كانتْ باديةً، اتّصفتْ بـ "الملائكيّة لا البشريّة"، أي مجرّدة عن كلِّ هوى طبيعيّ، أو منفعة شخصيّة، أو اتكّالٍ خمول.

هذه الإشارة السريعة إلى ما كانت عليه حياة الراهب الحبيس شربل، تفيدنا في معرفة قداسة سيرته؛ ولكنّها قد لا تكفي حتّى نعرف مدى غنى إنسانٍ حاولَ أن يغوصَ عميقاً في سرِّ الله؛ ذاك لأنّ كلّ كلامٍ على القداسةِ يبقى دون الحقيقة؛ إذ من المؤكّد أنّ القدِّيسين، في أعماقهم، أغنى ممّا يظهر لنا منهم.

٢

غير أنّنا، مع هذه الإشارة الموجزة، نخشى ثلاثة :

أوّلاً - نخشى القول بأنّ رئيس دير مار مارون-عنّايا، القسّ أنطونيوس مشمشاني، عندما قال ما قال عن قداسة سيرة الحبيس شربل، كان يتنبَّأ؛ أو كان عارفاً بما سيكون عليه شربل، أو بما ستقوم به الكنيسة، بعد ذاك، من إعلان قداسته. فحياة شربل كانتْ ظاهرةً لكلِّ إنسان، معروفة بقداستها.

ثانياً - ونخشى القول أيضاً بأنّ رئيس الدّير، وحدَه، دون سائر الرّهبان والنّاس الذين عرفوا شربل، كان يعرف ما سيكون عليه شربل بعد موته، وما سيجري الله على يده من عجائب ملأتْ، فيما بعد، الدنيا شرقاً وغرباً... في حين أنّ شربلَ صنعَ مثلَها في حياتِه، في الدير وفي المحبسة، ومن كلّ نوع.

ثالثاً - ونخشى القولَ أخيراً بأنّ الرؤساء، الذين لم يكتبوا في روزنامة أديارهم عن الرهبان المتوفَّين، لم يشتلقوا على قداسةِ هؤلاء الرهبان، أو لم تكن لهم الهمّة في كتابة شيءٍ. فإهمالهم هذا لا يعني أنّ رهباناً عديدين لم يكونوا قدِّيسين، مشتهرين بحفظ نذورهم، وبدقّة ممارساتهم الرّوحيّة. إنّ نقصاً كبيراً في المسؤولين في قلّة اكتراثهم لتدوين كلّ شيء عن المتوفّين في أديارهم.

٣

فالرئيس المشمشاني حسناً صنع في ما قال عن شربل؛ ولكن، ممّا يؤسف له حقًّا، أنّه لم يوفِ شربلَ حقَّه : فحياة شربل الصارمة، وطاعته المقدَّسة، وعفّته الكاملة، وفقره المجرَّد، وصلاته الدائمة، وسهره المتواصل، ومحبّته الأخويّة... هذه كانت معروفة لدى إخوته، غير أنّه لم يكتب لنا المشمشاني عنها شيئاً.

إنّ ما جاء على لسان المشمشاني في روزنامة الدَّير عن شربل لم يُفِدْنا في معرفة قداسة شربل، بمقدار ما أفاد المشمشاني : لقد كانتْ قداسة شربل في حياته أشهر ممّا قال المشمشاني عنه؛ والمشمشاني لم

يشتهر إلاّ بما قال عن شربل. وليتَه قال أكثر لكنّا عرفنا أكثر عن شربل وعن المشمشاني معاً.

ثمّ إنّ ما يُلفت النظر أكثر، لا تنبّؤ المشمشاني عمّا سيكون عليه شربل. إنّه قول عاديّ. وقد قصّر المشمشاني وسواه من رؤساء شربل عمّا كان يقوله ويعرفه الرهبان العاديّون والناس جيرانُ الدّير. وكان بوسع الرؤساء، بل على ضميرهم، أن يوفوا القدّيسين حقَّهم. ولو صنعوا لأعلَنتِ الكنيسةُ قداسةَ العديد منهم.

٤

نقول هذا لننتقل توًّا من رئيس دير مار شربل إلى رؤساء أديار الرهبانيّة الذين لم يكتبوا، اليومَ، شيئاً عن راهبٍ أنهى سعيَه وأتمّ حياته في عهدهم. قد لا يجرؤون على أن يدوِّنوا كلمةً عن راهبٍ قضى عمرَه في الرهبانيّة؛ أو قد لا يعرفون، ولا يحبّون أن يعرفوا شيئاً عنه؛ وكأنّهم يجهلون مع مَن يعيشون؛ وغير مقتنعين بفضيلةٍ يميّزونها فيه؛ وغير أكفاء بكتابة كلمةٍ تفيد تاريخَ الرهبانيّة وسِيَر أبنائها... إنّها حقًّا مسؤوليّة الرؤساء تجاه الرهبانيّة.

ومع هذا، يبقى المشمشاني، بالنسبة إلى ما نقرأ اليوم في روزنامات الأديار، رائدَ الرؤساء الجريئين؛ فدوّن عن شربل ما دوّن؛ بسبب ما كانت عليه العادات والتقاليد في الرهبانيّة؛ وهي عاداتٌ وتقاليد وصلتْ إلى زمن وفاة شربل في حال نزاع... ولكنْ وصلتْ وإنْ لم يبقَ منها شيء اليوم.

ولولا ما ابتدأ يكتبه الرؤساء العامّون، في عهدٍ قريبٍ، من كلماتٍ تأبينيّة يسردون فيها سيرة الرّاهب المتوفَّى، لما كتب رئيسٌ ما على ضميره من واجب. وحتّى ما يكتبه الآباء العامّون في سيرة الرهبان المتوفَّين، لا يكلِّف رؤساء الأديار أنفسَهم في تدوينه وحفظه في روزنامات أديارهم... وكم على ضمائر الأحياء من أثقالٍ في حقٍّ إخوتهم الرّاحلين.

٥

١ . نعود إلى ما قاله المشمشاني في وفاة شربل. يقول : **"وما سيُجريه (الله)، بعد موته"**، من عجائب وآيات، يدلّ على حسن سيرته وقداسة حياته.

قلنا آنفاً بأنّ هذا الكلام لم يكن نبوّة من المشمشاني؛ لأنَّ شربل، قبل أن يصعد إلى المحبسة قد صنع آياتٍ وعجائب، فأضاء سراجَ الزيت المملوء ماء. هذه عرفها الرهبانُ في الرهبانيّة، وعرفها جيران الدّير، وشربل لم يزل حيًّا. فالمشمشاني يدوّن ما يرى ويسمع، ولا يتنبَّأ عمّا سيكون.

٢ . ثمّ يقول المشمشاني: إنّ **"ما سيجريه (الله)، بعد موته، يكفي عن الأسباب"** : أي يكفي عن ذكر الأسباب التي أدّتْ إلى قداسة شربل. والأسباب تعني أيضاً: السبل التي سلكها شربل، وأنواع الفضائل التي اكتسبها، والممارسات الرّوحيّة التي قام بها، ومحبّته لإخوته، وحياته المثاليّة في الدّير..

٣ . إلاّ أنّ تعبير **"حسن سيرته"**، لا يكفي للدلالة على ما كانت عليه حياة شربل، وعلى ما عرفناه عنه، بعد موته. إنّه تعبير قد ينطبق على كثيرين ممّن هم دون شربل فضيلةً وقداسة؛ بل ينطبق على معظم الذين يقومون بواجباتهم اليوميّة، ويؤدّون ما يُطلب منهم؛ ولكنّهم لن يكونوا قدّيسين كشربل ذاك الراهب السكران بالله... لقد أقلَّ المشمشاني بما قال، وقصّر بما أقلّ.

٤ . لقد ركّز المشمشاني في قوله على ما تميّزتْ به قداسة شربل من فضائل، **"وبالأخصّ حفْظ نذوره حتّى نقول "إنّ طاعته ملائكيّة لا بشريّة""**. لقد كان وقتٌ، كانت طاعةُ الرّاهب لرؤسائه في قمّة الفضائل الرّهبانيّة؛ لهذا خصّص المشمشاني هذه الفضيلة عند القديس شربل. وكان الرؤساء يشدّدون على نذر الطاعة بنوع خاصّ، للأسباب التالية :

لم يكن مجالٌ كبير، في عهد القديس شربل، لأن يخالف الرّاهبُ نذرَي العفّة والفقر مخالفة بيّنة: لقد كان معظم النّاس يعيش الفقر؛ فكان الرهبان يعملون من دون أجرٍ، أو بدلٍ، أو مكافأة. كما لم تكن عندهم مصاريف غير عاديّة...

وكذلك لم يكن مجالٌ كبير، لأن يخالف الرّاهبُ نذرَ العفّة مخالفةً ظاهرة. فالأسبابُ الظاهرة تكاد تكون غير موجودة : لا تلفزيون، ولا مجلاّت، ولا أنترنت، ولا فيديو، ولا سهرات خارج الجماعة، ولا

موائد دسمة، ولا زيارات منفردة، ولا وسائل نقل متوفّرة، ولا قراءات في مجلاّت الهوى بحجّة المعرفة...

لا شيء من هذه كلِّها كان زمن القديس شربل، حتّى يركّز الرئيس المشمشاني عليه في قوله عن قداسة شربل و"حسن سيرته".

لهذا، كان يهمّ الرؤساء أن يركّزوا على العلاقة بينهم وبين رهبانهم، علاقة متمثّلة بنذر الطاعة. هذه العلاقة يعرفون أن يقولوا عنها شيئاً؛ أمّا سواها من فضائل فربّما لا تعنيهم، أو لا يقدرونها حقَّ قدرها، أو لا يعرفون الكلام عليها. ولم يكن المشمشاني وحدَه يركّز على هذه الطاعة، فالقوانين شدّدتْ عليها أكثر من أيِّ نذرٍ آخر؛ حتّى كادت تختصر الفضائلَ الرهبانيّة كلّها بها؛ وكاد الرئيس يكون، بسبب مفهومها، "بمنزلة المسيح مع قطع النّظر".

هذا، مع أنّ القديس شربل قد اشتهر، وهو لا يزال في الدّير، بصلواته المستمرّة، وسهره المتواصل، وعمله الدائم، ومحبّته لإخوته، وشفافيّة حياته، أكثر ممّا اشتهر بطاعته؛ ذاك لأنّ الطاعةَ، في سلّم القداسة، ليستْ من الممارسات الإيجابيّة التي يتدرّج بها الإنسانُ نحو الغوص في سرّ الله؛ وخاصّة قد يمارسها الإنسانُ لأجل حسن سير الجماعة، ولتخفيف المسؤوليّة عنه.

لقد كان على المشمشاني، إذاً، أن يدخل في عمق الراهب شربل أكثر فأكثر؛ وكان عليه أن يكتب لنا عن قرار شربل الجريء في ترك الدَّير وصعوده إلى المحبسة، وعن موقف الإخوة من هذا القرار، وعن

سماح الرئيس العام له بذلك، وعن حالة شربل النفسيَّة عندما سُمح له، وعن وجدِه وفنائه في الله، وعن مدى تعمّقه في معرفة سرّ الله وأسرار الخلاص وسجوده الدائم أمام القربان، ومحبّته الفائقة لأمّ الله... ولكنّ أحداً لم يكتب عن هذه كلّها، مع أنّ كثيرين، قبل المشمشاني وقبل زمن شربل، كانوا يكتبون ويدوّنون ويكشفون أسراراً كثيرة.

٥٢

قداســـــة رفقا

أوّلاً - رفقا دليلنا إلى الإيمان

١ . في ١٠ /٥ /٢٠٠١، أعلنَ البابا يوحنّا بولس الثاني قداسة الطوباويّة رفقا، الرّاهبةَ اللّبنانيّة المارونيّة. وسوف يلتمس المؤمنون شفاعتَها في أنحاء العالم، ويطلبون منها الشفاء للمرضى، والصبر للمتألّمين، والتعزية للمحزونين، والبصر للمكفوفين، والقداسة لمن يطلب منها نعمَ السماء...

٢ . نحن مسيحيّو هذا الشرق، نحتاج، في تجاريبنا الكثيرة، وسوء سلوكنا، وفشلنا في أداء رسالتنا وعيش إيماننا، وتكاثر الاضطهادات علينا، ورزوحنا تحت آلامٍ مستمرّة، ومتاعب دائمة، ومكوثنا أبداً على جبل الجلجلة... نحتاج إلى دليل على أنّ إيمانَنا المسيحيّ لا يزال حقيقيّاً، صحيحاً. ومَن مثل رفقا، وقبلَها شربل ونعمة الله الحرديني، يستطيع أن يكون دليلناَ؟!

٣ . لولا رفقا ورفاقها، وأمثالها من المؤمنين الصامتين، المنزوين في زوايا البيوت والأديار، لكنّا نشكِّكُ في سلامة إيماننا، وصحّة مسلكنا، بسبب ما نحن فيه من يأسٍ وكآبة، وما يبدو عندنا من

سلوكٍ سيّئ، وما نتعرّض له من فشل وإحباط، وما فينا من عاداتٍ وتعاليم وأوهام وأساطير تلامس الكفر، وما نتخبّط فيه من خطايا ورزايا وانحلال خلقيّ، وما ينقصنا من رؤية ورؤيا.. وما عندنا من رؤساء وقادةٍ هم قمّة الغباء.

٤ . نحن نحمد الله كثيراً، حمْداً متواصلاً، على أنّنا، مع قدّيسينا هؤلا، نملك الدليل الساطع على أنّ المسيحَ لا يزال يحيا معنا، والروحَ لا يزال يعمل فينا، والكنيسةَ لا تزال تحتضِنُنا، والأسرارَ لا تزال تُولِينا نعمَ السماء، والقدّيسينَ يتشفّعون بنا لدى الله باستمرار، ومن دون أيِّ استحقاقٍ منّا.

٥ . يكاد يكون لبنان عنواناً للجريمة، واللّبنانيون أشراراً بالجملة، لرداءة الصورة التي أخذها العالم عنّا في سِنيِ الحرب الكارثة، على مدى سبعَ عشَرَةَ سنة وأكثر. ونكاد نَيأس ممّا نحن فيه من مآسٍ، ومن أبوابٍ مسدودة، وسياساتٍ غبيّة، وحياةٍ إقتصاديّة مشلولة، وفقرٍ مدقعٍ شامل، وهجرةٍ من الوطن بالجملة، وعلائقَ سيِّئةٍ مع معظم دول العالم...

٦ . نكاد نتساءل عن صحّة التعاليم التي أَعطَيناها لأولادنا في مدارسنا، وعن الإفادة من المواعظِ التي قمنا بها في كنائسنا، وعن جدوى التوجيهات التي لم تُوصل شبابَنا إلاّ إلى ما هم عليه من كفرٍ واسترخاء. ونتساءل أيضاً عن فاعليّة التربية كلّها، الدِّينيّة والمدنيّة والاجتماعيّة والعلميّة التي لم تنفع ربيباً ولم تؤدِّ إلى نتيجة سليمة.

٧ . ونتساءل عن التنشئة في مراحلها كلّها: البيتيّة والمدرسيّة والجامعيّة التي أصبحت، في الحياة العامّة، رشوةً، وفساداً، واستغلالاً، وسوءَ معاملة، وسرقةً من المال العام، وهدْراً في غير محلّه، وكذبًا على النّاس، وانتهاكاً لحرمةِ الكرامات، وعدالةً لا تحمل من العدل إلاّ اسمه، وقضاءً مسيَّساً في كلّ شيء، واتّهاماتٍ من دون سند أو أصول...

٨ . وأفسد ما نحن فيه أنّنا، في فشلِنا العظيم هذا، لم نُعِدِ النّظرَ في شيء : لم يتركْ أحدٌ مهمَّتَه. لم يستقلْ موظَّفٌ من وظيفته. لم يتخلَّ مفسِدٌ عمّا فعل. لم يتنحَّ إنسانٌ عن دورٍ لم يلعبْه. لم يغيّرْ مربٍّ منهجيّة تربيته. لم يُؤدّبْ وزيرُ تربيةٍ مديراً ولا معلّماً. لم نَلُمْ مطراناً أو كاهناً أهملَ تقديسَ رعيّته. لم نستشفع قدّيساً من قدّيسي السماء ليقضي على شرّير متعنّتٍ في شرّه. والأخطر من كلّ هذا، أنّه لم يكنْ في نصبِ أعيننا أنّنا سنحاسَب يوماً على إهمالنا وسوء أعمالنا...

٩ . هذه حالتنا. ولولا رفقا، قدّيسة الألف الثالث، ورفيقاها شربل ونعمة الله والأخ المكرّم إسطفان نعمه، الذين أعلنت الكنيسةُ قداستهم وتكريمهم على العالم أجمع، على أنّهم من تربة هذا الوطن، ومن كنيسته، ومجتمعاته، ورهبانيّاته، لكان يتحتّم علينا أن نستقيلَ من هذا العالم ومن الحياة المسيحيّة التي، لولاهم، كدنا لا نستحقّها.

١٠ . رفقا، وفيّةٌ لنا ولوطنها، أمينةٌ لكنيستها، جعلتْنا نستحقّ الحياةَ من جديد. وعلى الذين استجابت لهم رفقا طلباتهم أن يكونوا، هم

أيضاً، الدليلَ الساطع، على صحّة إيماننا، وعلى أنّ الروح لا يزال يجد عندنا أرضاً صالحةً لنعمه ومواهبه.

ثانياً - سرّ قداسة رفقا حياة بسيطة

١١ . في الدير، وليس في غير الدير، بين الأخوات الرّاهبات، في حياة عاديّة بسيطة للغاية، بوعيٍ كبيرٍ، وصلاة مستمرّة، وحضورٍ أمام الربّ دائم، وحياةِ توبةٍ صادقة، وشفافيّة في التعاطي مع النّاس، ومحبّةٍ شاملة لكلِّ إنسان، وانكسارٍ للإرادة، وتحمّلِ كلِّ ألمٍ ومرضٍ وتجربة، ومصارعةِ الشرّ الذي في الدَّاخل، واعترافٍ بكلِّ هفوة، وتنقية للضمير من كلّ شائبة... هذه كلّها سرّ قداسة رفقا.

١٢ . إذا تفحَّصنا جيّداً أسبابَ قداسة رفقا، والعواملَ التي دفعتْ بها لتقديس نفسِها، وتمجيدِ ربّها، نجدها عواملَ يعيشُها كلُّ إنسانٍ مسيحيٍّ عاديّ. لا شيء يدلُّ على أنّ رفقا أتتْ بأعمالٍ بطوليّةٍ في حياتها، وبمشاريعَ خيريّةٍ عالميّة، وأفكارٍ رائدةٍ في بناء المجتمع، ولم تؤلّف كتاباً، ولا كتبت مقالاً... كلّ ما أتتْ به رفقا كانت أعمالاً بسيطةً، عاديّة، يقوم بها كلّ إنسانٍ مسيحيٍّ عاديّ ملتزم، أكان في الدّير أم في العيلةِ، أم في أيّ مجتمعٍ كان. هنا يكمن سرّ قداسة رفقا.

١٣ . سرّ رفقا أنّها أحبّتْ، أحبّتِ الرّبَّ؛ ولم تتركْ لغيره في قلبها وعقلِها مَكاناً . سرُّها أنّها استماتتْ في خدمةِ أخواتها؛ والتزمتِ الحياةَ الرّهبانيّة في أحد أديارِ الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة للرّاهبات، بين ديرِ مار سمعان، قرن-أيْطو ودير مار يوسف جربتا؛ وعاشت مع

أخواتها، وبينهنّ، ومثلهنّ؛ وتوسّلتِ الحياةَ البسيطةَ طريقاً قويماً إلى القداسة؛ كما تحمّلتِ الآلام وسيلةً سريعةً وأكيدةً إليها، إقتداءً بربّها..

١٤ . فبادلها الربُّ نعمةً، ليست ممّا يُعطيها للنّاس عامَّة؛ ورفعتْها الكنيسة وقدّستْها، وحمتْها الحياة الرهبانيّة وسدّدتْ خطاها، وطهّرها الألم وصفّاها، وأسرع في تقديسها، إقتداءً بالربّ الذي حمل الصليبَ من أجلها...

١٥ . وها هو الدير الذي اهتزّت جدرانُه لآلامها، صار ملجأً للمتألّمين، ومشفىً للمرضى، وملاذاً للخاطئين. وها هنّ الأخوات اللّواتي اهتممنَ برفقا، وأحطْنَها بالمحبّة، أصبحتِ اليومَ لهنّ، ولغيرهنّ، شفيعةً في السماء حيث لا يَردّ لها الرّبُّ طَلَباً من أجلهنّ، ومن أجل كلِّ متألِّمٍ في العالم.

١٦ . مَن كان يصدّق، قبل رفقا، أنّ الحياةَ الديريّة العاديّة البسيطة، تستطيع أن تقدِّسَ أحداً! لقد كان يُقال دائماً بأنّ القداسة عملٌ بطوليّ، ودعوة خاصّة، يقتضي لها جهدٌ وإماتات وتضحيّات وسهرٌ وبكاء ولبسُ مسوحٍ وتوبةٌ مستمرّة، وتنسّكٌ وزهدٌ، وصومٌ وجوع، وقهرُ ذات بما يفوقُ المألوف... مع رفقا، بدا لنا أنّ الحياةَ الديريّة العاديّة البسيطة تكفي لتمجيد الربّ، وتقديسِ الذات، والعمل من أجل مجيء ملكوت السماء.

١٧ . مَن كان يعي، قبل رفقا، بأنّ الله يُعلن عن نفسِه لأحبَّائه بغير عواصف ورعود، وتصدّعِ جبال، ونزولِ وصعود ملائكة،

وزلازلَ واضطرابات، وأعمدةِ دخان، وتيهٍ في الصحراء، وسبيٍ وجلاء، ومعجزاتٍ مذهلات، وضرباتٍ من الأرض والسماء، وحروبٍ دينيّة مستعرة، وتشييدِ هياكلَ ومعابدَ قد لا يُعبَد الله إلاّ فيها!!

١٨ . مع رفقا، في حياتها الرهبانيّة الديريّة العاديّة البسيطة المألوفة، حيث لم يكن لها بطولاتٌ خارقة، ولا إنجازاتٌ مذهلة، ولا خوارقُ فوق العادة، ولا ظهوراتٌ سماويّة، ولا عجائبُ من أيِّ قدّيسٍ استشفعتْه، ولا إيحاءاتٌ ملائكيّة نزلتْ عليها.. بتنا نعرف أن الربَّ أحبّها فأحبّتْه. فقدّسَها وتقدّستْ.

١٩ . رفقا، بحياةٍ عاديّة بسيطة طبيعيّة، حيث لم تشتهر بفضائلَ مسيحيّة فائقة، ولم تأتِ بأعمالٍ إنسانيّة عظيمة، ولم تقم بمشاريعَ خيريّة عالميّة، ولم تؤدِ إنجازاتٍ إجتماعيّة، ولم تتعرّض لاستشهادٍ حتّى الدم، ولم تدبّج كتاباً لتقارعَ مُلحدين، ولم تخرجْ لكرازةٍ لتردّ كافرِين، ولم تتعمّقْ في أبحاثٍ لاهوتيّة غاصتْ بها لاكتشافِ سرّ الله...

كلّ هذه لم تكن في بال رفقا، ولا في ممارساتها. حياة عاديّة بسيطة، في الدير، بين الأخوات، في تقديم كلّ ما لها، وما معها، وما هي عليه، وما تتمنّاه من صحّة ووعيٍ ومشاعر وأميال وخلجات قلب... كان رصيد رفقا في مسيرتها نحو القداسة.

٢٠ . رفقا أعجوبةُ الدنيا. وليست أعجوبةٌ من السماء صنعتْ برفقا ما صنعتْ. الحياة الرهبانيّةُ الديريّةُ اليوميّةُ العاديّة البسيطة، التي

عاشتْها رفقا بين أخواتٍ يشاركْنَها الأفراحَ والأحزان، ويتحمّلْن معاً الأتعابَ والمشقّات، ويُصلِّينَ معاً إلى العذراء أمّ الله، ويَحضرنَ القدّاسَ اليوميّ بانسحاق؛ ويشتركنَ في جسدِ الربِّ ودمِه عربوناً لاشتراكهنّ الأبديّ معه، والاتّحاد الدائم به.. ثمّ تخضّهنَّ آلام وأمراض، لا توفّر إنساناً، كبيراً أو صغيراً، مؤمناً أو غير مؤمن... هي التي صنعتْ ما صنعتْ بها.

٢١ . هذه الحياة العاديّة البسيطة، إنْ عاشها إنسانٌ بوعيٍ ومحبّة، وتحمّل ما فيها من مصاعبَ ومتاعب، وعمل أعماله بإتقان، وتابَ عن كلّ هفوة، واستمرّ على استقامةِ سيرته، وشهد لإيمانه، وشارك الكنيسةَ رسالتَها، وتفانى في الخدمة، والتمسَ من الرّوح القدس أن يروحنَ حياتَه وأعماله، ويقدّسها... هذا الإنسان ليس إلاّ رفقا، أو مثل رفقا، صانعة المعجزات.

ثالثاً - سرّ النّعمة

٢٢ . في بعض الناس، ورفقا منهم، يعمل الله بهدوء، يمسّهم بنسيماتٍ من نعمته، يكاد لا يشعر بها حتّى القلب الذي تسكنه. وهل غير الله يدخل قلبَ الإنسان بدون ضجيج وقرقعة؟! مع الله الذي يعمل في النّفوس، يكاد الأنسان لا يميّز بين ما هو مِن عملِ الطبيعة، وبين ما هو من عملِ النعمة. وحدَها النفس الشفّافة المستنيرة المروحَنة تتحسّس النّعمة، تميّز بين ما هو مِن عملِ الطبيعة وبين ما هو مِن عمل النّعمة. وحدَه الإنسان الذي يتنصّتُ إلى داخلِهِ، يسمَع ويشعر ويتحسّس

ما يصنعه الله في كيانه؛ ويعرف التمييز بين ما هو من عمل الله في الطبيعة، وبين ما هو من نعمه ومواهبه. هذه هي رفقا المدهشة.

٢٣ . قداسة رفقا هي من هذا القبيل، هي من تلك النّعمة التي شعرتْ بها، وعرفتْ بأنّها من الله، لا من الطبيعة. ولئنْ كان ما هو من الطبيعة هو أيضاً نعمة من الله، إلاّ أنّ قلّةً من البشر يشعر بأنّ ثمّة نعمةً تخصّ كلّ إنسان، وتميّزه عن غيره، وتجعله يتعاطى مع الله مباشرة، ويتفانى في محبّته، ويودّ الموتَ من أجله. هذه الحال، التي يشعر بها إنسانٌ ما، ويطلبها، وينمّيها، ويعمل على تفعيلها، هي التي تقدّسه وتضعه في قلب الله.

٢٤ . قداسة رفقا نعمةٌ طلبتْها من الربّ، وأسبغها الربُّ عليها. أمّا نحن فلا نزال نكتفي بنعمةٍ، وضعها الله في طبيعتِنا، من دون أن نطلبها منه، لأنّنا لم ننلْها بجهدنا. إنّها نعمة في طبيعتنا الخيّرة حيث وضعها الله فينا مجّاناً. هذه النّعمة التي من الطبيعة، إذا وعينا خيريَّتَها، كفيلةٌ بأن تدفعنا إلى طلب النّعمة التي فوق الطبيعة. **تلك** ليست كافيةً لطلب ملكوت الله. إنّها من غير استحقاقٍ منّا. أمّا **هذه**، فعلينا أن نطلبها، بحسب قول الرب: "أطلبوا أوّلا ملكوت الله. والباقي يُعطى مجّاناً".

٢٥ . رفقا التي نالت **تلك** النّعمة، عرفتْ كيف تعمل **لهذه** لتستحقّها. ويبدو أنّها، بعدما نالتْ **تلك**، استحقّت **هذه**. وعندما أصبحت بمستوى هذا التمييز بين **هذه** و**تلك**، راحتْ تفتح قلبها، وتتنصّتْ لهفّةِ النعمة تنساب في الخفايا والزوايا.

٢٦ . بهذه الهفّة الناعمة، راحتْ رفقا تهتمّ بتنظيفِ داخلها، لتفتّش عن الربّ فيه، وتجدَه ساكناً في عمق أعماقها. وجدتْه هناك. ورامتْ أن تتعمّق أكثر، فطلبتْ منه الوسيلةَ الفعّالة إلى ذلك. استجابَ لها، وراح يمتحنُها، يختبرُ محبّتَها، وهو عارف بما ستؤول إليه. ورفقا بدأتْ تعرف، هي أيضاً، أنَّ الطريقَ إلى أحسن ما تبغي هي أن تسلّم إرادتها كاملةً له. وتذكّرتْ أنّ أقصى ما يبرهن الإنسان عن محبّته للربّ، هو أن يصلّي باستمرار: "لِتَكُنْ مَشيئَتُكَ"[158].

٢٧ . هذا ليس استسلاماً لمشيئة الله القادرة على كلِّ شيء. مشيئة الله هذه لا تحتاج إلى اعترافِ أيِّ إنسانٍ لتكون قادرةً على كلِّ شيء. ولكنّ كلَّ إنسان يحتاج إلى أنْ يعترفَ بأنّ طريقه القويم إلى الله، ليس بصنع مشيئتِه هو، بل بصنع مشيئة الله القادرة على كلِّ شيء. عرفتْ ذلك رفقا في أحَد تأمّلاتها العميقة. وراحتْ تهتفُ بأنّها عرفتِ الطريقَ إلى الربّ. والطريق إلى الربّ أن تعرف أبعاد تلك الصلاة الربّيّة: "لِتَكُنْ مَشِيْئَتُكَ".

٢٨ . وفيما كانت رفقا تبحث عن تلك النعمة الخفيّة الهادئة الناعمة، عرفت أنّ ذلك لن يكون بحثاً في السماء ولا في الأرض، لا مع الملائكة ولا عند البشر. هذه النّعمة لن تستكشفَها إلاّ في خلجاتِ قلبها، وحنايا صدرها، وخبايا الضمير. لهذا، عزمت على العمل، بدءاً من الداخل، من الذّات، من قعر الضمير.

158 لقد دخلَ مخرِجُ فيلم حياة رفقا، الفنّان شارل صوايا، في سرِّ قداسة رفقا، فوضع عنواناً لعمله "لتكن مشيئتك". فكان بذلك رائداً في معرفة سرّ قداستها

رابعاً - طريق القداسة من الدّاخل

٢٩ . بدأتْ رفقا تتلمّس "مشيئةَ الربّ"؛ فعرفتْ أنّ الشرَّ كلَّ الشرّ الذي يجب أن تحاربَه، موجودٌ فيها هي، لا في غيرها. وعليها، بالتالي، أن تحاربَه في نفسها وعقلها، لا في نفوس الآخرين وعقولهم. والإنسان العاقل هو الذي يحارب الشرَّ حيث يتأكّد أنّه موجود. وهل يتأكّد عاقلٌ بأنّ الشرّ موجودٌ في غير نفسه؟ مَن يقول غير ذلك فهو إنسان مدَّعٍ. وهل سقط آدم وذرّيّتُه من قلب الله إلاّ بسبب هذا الادّعاء؟!

٣٠ . رفقا استطاعتْ محاربةَ الشرّ في نفسها. وهي تقدّست بسبب ذلك ومن أجل ذلك. واستطاعتْ، بذلك، زيادةَ القداسة في العالم. من هنا يسعنا القول بأنَّ أعظم النّاس قرباً من قلب الله هم أولئك الذين يقبعون في زاويةٍ من زوايا بيوتهم، أو في قلاّيةٍ من قلالي دِياراتهم، أو في محبسةٍ نائيةٍ من محابس الجبال والوديان، يجاهدون ويناضلون لتقديس أنفسِهم فيها. وبذلك يتقدّس العالم كلُّه.

٣١ . هذا الكنز، الذي وجدتْه رفقا في حناياها، موجود عند كثيرين، ولكن، مَن غير رفقا، استطاع أن ينظّف ويفتّش ليحظى به؟! الكنز هو هذه النْعمة العاملة في الداخل؛ هو الربّ يسوع نفسه، الذي وجدتْه داخلَ قلبها، في وجوه أخواتها، في أعمالها الوضيعة، في حياتها البسيطة، في إماتاتها المتواصلة، في صليبها الذي تحمله كلَّ ساعة؛ وكلُّ ساعة هو بشكل.

٣٢ . يسوع ربُّها أصبح لها كلَّ شيء. إنّه سميرها في الليالي

الظلماء، رفيق عمرها الذي لن تتخلَّى عنه لحظة، صديقها الوفيّ الذي لم تعرف معنىً للوفاء إلاّ له. إنّه المحبّ الذي يجسّد لها كلّ حبّ حقيقيّ، حبّ مجرّد لا مصلحة فيه، حبّ كبير جدّاً حتّى أمسى عشقاً، لامستْ به الفناء عن نفسها.

٣٣ . عرفتْ رفقا، في النّهاية، أنّ يسوع نفسه هو المخلِّص، الذي لا خلاص من دونه، ولا نعمة إلاّ منه، ولا كنز سواه. ومَن كان يسوع خلاصه يتساءل كيف يبحث عن طريقٍ سواه، ومَن يكون الحقّ والحياة إلاّه. وهل مِن حياة إلاّ به، وله، ومنه، ومعه، ومن أجله؟

٣٤ . لقد بات همّ رفقا، بين أخواتها، أن توصل إليهنّ ما وصلتْ هي إليه. وها قد أصبح ديرُها كلُّه يرقص فرحاً بما توصّلتْ إليه رفقا في اكتشافه في أعماق نفسها. وما في أعماق نفسها أصبح، بها، طافِحاً على الوجوه، معلَناً في مماشي الدير وقلاّياته، مُعاشاً في السرّ والعلَن. والقداسة، متى سطعتْ، لن تبقى تحت مكيال، بل تصبح منارةً ونوراً يشعّ. وهكذا صار.

٣٥ . رفقا، الآن، تريد أن تموتَ من أجل يسوع ربِّها. وفيما هي تروم ذلك تراه يموتُ قبلَها ومن أجلها، بدل أن تموت هي قبلَه ومن أجله. تودّ الحياةَ له ومعه، فتراه يقدّم حياتَه لها وللعالم بسببها وبسبب مثيلاتها. لقد مات يسوع حقّاً من أجل رفقا، ومن أجل العالم كلّه. لكنّه ماتَ ويموتُ لكي يقومَ، ليعطي الحياةَ لمستحقّيها كاملةً، والقيامة ناجزةً، والسعادةَ في أقصاها. لقد قام حقّاً قام، ليكون لرفقا بقيامتِه قيامةٌ

وحياةٌ وسعادة. ومن دون قيامته هو لا قيامة لها هي، ولا لنا نحن أيضاً...

٣٦ . هذه النعمة، نعمة الحياة مع يسوع، لم تكن خاصّةً برفقا؛ غيرأنّ رفقا دخلتْ قلبها، ونظّفتْ نفسَها، وفتّشتْ ضميرَها، وتنصّتتْ إلى هفيف الرّوح؛ ثمّ صلّتْ، فإذا بها تشعر أنّ يسوع لا يزال ساكناً فيها كلِّها، يقود حياتَها وأفكارَها وعواطفَها ومصيرَها كلّه.

٣٧ . وهكذا استطاعتْ رفقا، ببساطةِ حياتها، بأعمالها الوضيعة، وخدماتها، ومَحبّةِ أخواتها، وصلاةِ المسبحة وكَرّ حبّاتها ولو بضجر، وحضورِها القدّاس اليومي ولو بتشتّت، وتقدّمِها من سرّ التوبة ولو بخجل، واعترافِها بأصغر هفواتها، وفحصِ خبايا ضميرِها، وتحمّلِ الآلام من قمّة الرأس حتى القدمَين، وتقبّلِ مصاعب الحياة... استطاعتْ رفقا أن تتعامل مع النّعمة، وتستسلم لمشيئة الربّ، وتفوز بالقداسة فوزاً عظيماً.

٣٨ . هذه الحالات في حياة رفقا هي حالات عاديّة، ليس من شأنها أن توصل النفوسَ العاديّة إلي شيءٍ ذي أهمّيّة. غير أنّها توصل النفوسَ الشفّافة الرقيقة إلى ما لا يتوقّعه أحد.

٣٩ . مرّةً أخرى تقول لنا حياةُ رفقا: يجب ألاّ نبحثَ عن الربّ خارجَ نفوسنا؛ ويجب ألاّ نطلب ملكوت الله في غير داخلنا. إنّ السماء والأرض هنا، والقيامة هنا، والسعادة هنا، والتجديد الشامل هنا، لأنّ ربّ السموات والأرض هو هنا.

خامساً - طرائق ثلاث إلى القداسة

رفقا، كشربل مخلوف ونعمة الله الحرديني، كلّهم وصلوا إلى قمّة القداسة بأعمالٍ عاديّةٍ بسيطةٍ ووضيعة :

٤٠ . إلاّ أنّ شربل، لمّا كان قد شارف على القداسة وهو في الدير بين إخوته، رأى أن يُريحَ إخوتَه منه، فتركهم، وصعد صعوداً متواصلاً نحو المحبسة ومنها نحو الملكوت؛ وذلك لئلاّ يكون لهم، وهو بينهم، سبباً لإرباك ضمائرهم، وهم، بعدُ، مقصِّرون عن اللّحاق به. فمحبّةً بهم، ومن أجلهم، ولكي يبقوا أحراراً، خرج من بينهم، ليواجه الحياةَ وحده، ويتحمّل وحدَه أعباءَها، ويبتعد عن العالم، وذلك من أجل خلاص العالم.

٤١ . ونعمة الله الحرديني، الذي عاش أصعبَ حياةٍ في أصعب مرحلةٍ من حياة الرّهبانيّة، وتحمّل مسؤوليّاتها، وعاش خضّاتها، وخضّات الرهبان بعضهم مع بعض، الناجمة عن خضّات الرؤساء المتنافسين على السلطان، وخضّات المراجع الدينيّة المحليّة والرومانيّة، التي لا تعرف شيئاً عن الحياة الرّهبانيّة. إنّها أزمة، أقلّ ما فيها، أنّها تُميتُ مَن يتحمّلها، أو تدفعه، إنْ تحمّلها، إلى القداسة دَفعاً. وكم إذا كانت النتيجة الإثنتَين معاً: لقد مات نعمةُ الله وهو دون الخمسين؛ وشعّت قداسته وهو تحت عبء المسؤوليّات.

٤٢ . رفقا، من نوع آخر، بقيت بين أخواتها، لا لتُربِكَ ضمائِرَهنّ، بل لتساعدهنّ على البحث عن يسوع في حياتهنّ العاديّة

البسيطة، ولتكتشف معهنّ طرقَ القداسة من خلال الأعمال الوضيعة. من هنا، نريد أن نقول لأصدقاء رفقا ومحبّيها، ولمن يتأمّل بحياتها البسيطة : إنّ القداسة، مع رفقا، ليست دعوةً خاصّة لبعض الناس؛ بل هي شأن كلّ إنسانٍ يعيشُ بوعيٍ النّعمةَ التى تكمن في خفايا نفسه.

خاتمة

٤٣ . لقد كان في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، منذ نشأتها عام ١٦٩٥ حتى اليوم، طرقٌ عديدةٌ ومتنوّعة للقداسة. بعضُ أبنائها سلك طريق الأسقفيّة، أمثال قراعلي، فتقدّس؛ وبعضهم سلك طريقَ المحبسة، فاق عددُهم الثلاثين، وعلى رأسهم كان شربل؛ وبعضُهم سلك طريقَ المسؤوليّة، فكان منهم أب عام، هو مبارك حليحل، ومدبّر عام هو الحرديني؛ وبعضُهم عاش حياة ديريّة عاديّة بسيطة، ومنهم رفقا الريّس ويوسف الجبيلي ودانيال الحدثي واسطفان نعمه وغيرهم؛ وبعضُهم كان معلِّماً في الابتداء، ومعلِّماً في اللاّهوت والفلسفة؛ وبعضُهم كان عامِلاً في الزراعة أو في إحدى المهن اليدويّة... هؤلاء، في طرقهم هذه، برهانٌ على غنى نِعم الله على هذه الرّهبانيّة.

٤٤ . وليس لقائلٍ، والحال هذه، أن يجد لنفسه، أمام ضميره، عذراً في التخلّف عن ركب القدّيسين. إنّها نعمة للجميع، لا دعوة خاصّة لمدعوّين. هذا ما علّمتناه الحياة الرائعة لرفقا المدهشة.

٥٣

قداسة نعمة الله الحرديني

في هذا العالم، مؤسّسةُ مميّزة، وقد تكون وحيدة، تشهد للقِيم شهادة حقّ. تدلّ عليها. تكرّمها. تطوّبها. تقدّسها. وتعلنها على الملأ. هذه المؤسّسة هي الكنيسة. تلاحقُ القيمَ أينما وُجدتْ : في أشخاصٍ عاديّين كما في أشخاصٍ مكرّسين؛ في معمعة المدن والمجتمعات كما في كهوف الأرض والمحابس ورؤوس الجبال.

لقد لاحقتِ الكنيسةُ شربلَ في خَلوةِ محبسته، ورفقا في ديرها، ونعمةَ الله الحرديني في مهمّاته الإداريّة والتّعليميّة. وشهدت، بعد التنقيب والتحقيق والتدقيق على فضائل كلٍّ منهم. وأعلنتْ استحقاقاتهم. ورفعتْ اسمَهم.

هؤلاء الذين اتّضعوا حتّى الامّحاء والنسيان، جاءت الكنيسةُ وأخرجتهم من الخفاء إلى النّور، ومن عالمهم الصغير إلى العالم الأوسع. وطلبت من العالم أجمع، بما لها من سلطان، أن يكرّمهم، ويمجّد الله بهم، ويلتمسَ شفاعتَهم...

فما صنعتْه الكنيسةُ معهم ومع غيرهم من القدّيسين ليس إضفاءَ القداسة عليهم، بل إعلان قداستهم، والاعتراف باستحقاقاتهم، وحثّ

العالم على الاقتداء بهم، والتماس بركاتهم، والسّير على خطاهم. وليس الحرديني آخر من عاشَ القيم المسيحيّة، في لبنان، لتكفّ الكنيسةُ عن ملاحقة كلِّ مخفيٍّ لتعلنه وتشهره.

***

ماذا يقول القدّيس نعمة الله الحرديني لنا اليوم؟ هل بوسعنا التمثّل به والسير على خطاه؟ مَن الأقربُ إلينا من بين قدِّيسينا الثلاثة؟ شربل؟ أم رفقا؟ أم نعمة الله الحرديني؟

أسئلة تخطر في البال : أيَّ طريقٍ نسلك إلى القداسة؟ بمن نقتدي؟ إلى أيّ نوعٍ من الحياة دعانا الله؟ أإلى سلوك طرقٍ عاديّة مألوفة، أم إلى حياة بطولة واستشهاد؟ أإلى النسك والزهد والتقشّف وجهد الجسد؟ أم إلى جهد العقل ووعي الضمير وتحمّل أعباء الحياة؟

لقد وَضَعنا القدّيس شربل في خطٍّ نسكيٍّ يعجز معظمُنا عن اللّحاق به. إنّه خطّ زهديّ تقشّفيّ استحباسيّ، بعيدٍ عن العالم، وعن الحياة العاديّة المألوفة في الكنيسة وفي العالم. لقد ركّز على محاربة الشرّ الذي فيه من أجل أن يقضي عليه حيث يتأكّد له وجوده. وبهذا زاد الخير والقداسة في العالم.

وكذلك وَضَعتْنا القدّيسة رفقا في خطّ صليب الألم والعذاب، يعجز معظمُنا عن اللّحاق بها. إنّه خطّ الموت الحاضر أمامها، من دون هوادة : آلام في العينَين وفي الجنبَين، وفي الظهر، حتّى تفكّكتْ

أعضاؤها وهي بعدُ حيّة. واستمرّت صابرةً شاكرةً الربَّ، حتّى استحقّتْ نعمةَ القداسة.

وجاء القدّيس نعمة الله ليَضعنا في خطٍّ آخر، خطّ الحياة العاديّة المألوفة. فيها تحمّل مسؤوليّة الإدارة العامّة، ومسؤوليّة التعليم، وخدمة الرعيّة، والخدمات الاجتماعيّة، والأعمال اليدويّة الوضيعة، وممارسة الحياة الديريّة العائليّة المشتركة بسلام مع الجميع. فاستحقّ قداسةً وهو دون الخمسين.

***

ثلاثة نماذج من القداسة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة : نموذج حياة النسك في محبسة نائية، بعيدة عن صخب المجتمع وهموم العالم؛ ونموذج العيش في الدير مع جماعةٍ رهبانيّة، تساهم في إحيائها وإنماء حياة المحبّة فيها؛ ونموذج تحمّل مسؤوليّات الإدارة والخدمة في الرهبانيّة.

لقد بلغت الرهبانيّة مجدَها مع قدّيسيها هؤلاء الثلاثة، ومع أشكال القداسة المختلفة فيها. فهي، بهذا، أمام أحد احتمالَين : إمّا أن تكتفي بما وصلتْ إليه، فتحوّل فخرَها بالقداسة إلى فخرٍ وتشوّفٍ على سواها من رهبانيّات لم تبلغْ إلى ما بلغتْه هي؛ وإمّا أن تستمرّ في حثّ أبنائها على أن يقتدوا بإخوتهم، ويسيروا باضطرادٍ في طريقهم.

وعلى أبناء الرهبانيّة أن يختاروا قدوتَهم من بين هؤلاء الثلاثة، أو أن يجدوا طريقاً آخر. فالطرق إلى الربِّ عديدة، ولكلِّ طريق دليله.

ولكنّ طريق القدّيس نعمة الله هو الأقرب إلينا من طريقَي شربل ورفقا؛ لأنّه في متناول الجميع وفي مجال الأعمال اليوميّة العاديّة، وتحمّل المسؤوليّة :

فكلّنا اليوم، مثل نعمة الله، يتعلّم ويمارس التعليم، ومعظمنا يتخصّص في مادّة من موادّ التخصّص. أكثرنا يسعى وراء المسؤوليّة، أو نُلزَم بها، ويسعى إلى العمل في الحياة الاجتماعيّة، ويقوم بالرسالة والرعاية والإدارة على تنوّعها.

وبات من المؤكّد لدينا، أنّ مَن يريد القداسة يستطيع الحصول عليها في أيِّ مجالٍ يعمل. فالقدوة أمامه ناطقة وصارخة في نعمة الله الحرديني.

ومع هذا، قلّة منّا هم الذين يصلون إلى ما وصل إليه نعمة الله، والسبب هو هذا : إنّنا لا نلتزم بما نؤمن، ولا نعي حقيقةَ إيماننا. والجدّيّة في ما نعمل ناقصة، ومحبّة الله والقريب لا نتلمّسها في حياتنا، وما نعمله لا نعمله بمحبّة ومجّانيّة، والتضحية من أجل الآخَرين تكاد تكون مفقودة.

إنّ سيرة نعمة الله تكاد تكون كلُّها توبيخاً وتأنيباً لضميرنا. نحن نسلك طريقَ الرهبانيّة نفسَها، ونعمل الأعمالَ نفسَها. إلاّ أنّ الوعي لما نعيش ولما نعمل ليس هو نفسه. والإفادة، بالتالي، ليست نفسها: نعمة الله قصد الجوهرَ فحصل على القداسة؛ ونحن ما زلنا نتلهّى عن

الجوهر بالأعراض. هدف نعمة الله كان واضحاً، وضعه نصب عينَيه؛ أمّا نحن فلا تزال عيوننا تتطلّع إلى مفاتن الحياة ومغرياتها.

نودّ أن نوضح علاقتنا، رهباناً وعلمانيّين مؤمنين، بهذا الراهب القدّيس. فمسيرته لا تختلف عن مسيرتنا، فلماذا لا نبلغ الغاية التي بلغها؟ كلّنا نعمل ما عمل، فلماذا لا نصل إلى الهدف؟ إنّها أسئلة بسيطة؛ ولكنّها تؤنّب ضميرَنا.

لقد قرأ شربل علامات السماء في جهاد نفسه التي نحَتَها نحتاً من الداخل، فحارب الشرَّ الذي فيها ليزيد الخير في العالم؛ ورفقا قرأت علامات الربّ في تحمّل آلامها، والإيمان بأنّ الصليب هو أضمن طرق القداسة والخلاص؛ أمّا نعمة الله الحرديني فقد قرأ علامات السماء في الحياة العادية وأعماله اليوميّة، وممارسة العيش بسلام مع إخوته.

نحن أمام ثلاثة نماذج للقداسة في الرهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. ونستطيع أن نكتشف طرقاً أخرى، مع رهبان آخرين ننتظر مشيئة الربّ فيهم. ونترقّب نحن بدورنا، ما عسى تكون طريقنا إليه؟

***

في السابع من أيلول سنة ١٩٨٩ أعلن الحبرُ الأعظم البابا يوحنّا بولس الثاني الأبَ نعمة الله الحرديني مكرّماً. وشهد له، من خلال حياته الفاضلة وروحانيّته المميزة، وقداسة سيرته، وأعماله البطوليّة

والعجائبيّة، بأنّه يستحقّ أن ينالَ تطويبَ الكنيسة الجامعة. ويُتوقّعُ إعلانُ ذلك في ١٠ أيّار من سنة ١٩٩٨.

سبقَ الحرديني إلى هذا المجد تلميذُه شربل مخلوف (+٢٤ / ١٢ /١٨٩٨)، الذي قطع مراحلَ هذا المجد بسرعةٍ فائقة. فنال درجات التكريم والتطويب والتقديس بأقلّ وقت ممكن. فالمعلّم والتلميذ أخذا القداسةَ بعضُهما عن بعض، ففعلت فيهما فعلَها. ولا يمكن إلاّ أن يكون ذلك كذلك، لأنّ للقداسة أيضاً عدواها. والقديسون عادةً رهيفو الحسّ، سريعو التأثّر والتأثير.

التتلمذ واقع معروف منذ القدم. ومعظم الأنبياء والرّسل والقديسين والقادة العباقرة والفلاسفة والمفكّرون كان لهم أصحاب، وللأصحاب أتباع، وللأتباع تلاميذ. والرّبُّ نفسُه اختار له تلاميذ، ومن التلاميذ رسلاً.

وسببُ التتلمذ معروف : إنّ ما يطمح إليه القدّيسون قد لا يسعهم تحقيقُه وإنجازُه في حياتهم القصيرة. وحياة القدّيسين والعباقرة عادة ما تكون قصيرة. قد يُقلقُ القدّيسون الناسَ العاديّين، فينتقمون منهم. فيقضون عليهم. والتلاميذ، في هذه الحال، ضروريّون. ألم يكن ذلك مع الرّب نفسه؟ لقد كان شربل تلميذاً للحرديني. وكلاهما تلميذان، في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة، لرعيل من القدّيسين، منذ التأسيس حتّى أيامهما، وإلى آخر الدهر إن شاء الله.

كلا المعلّم والتلميذ كان يميل إلى النّهج النسكي. إلاّ أنّ الأوّل

عاشه في الحياة الرّهبانيّة العادية وفي المسؤوليّات الإداريّة؛ والثاني عاشه حبيساً زاهداً بكلّ ما في العالم من رغبات ومغريات.

١ . عاش المعلّم نسكَه منذ صغره. وكان لا يزال في قريته حردين مسقط رأسه وبين أهله وذويه، عندما كان يختلي في مغارة مار يوحنّا في محلّة "الشقف"، حيث "كان يجثو راكعاً يصلّي ساعات طوال".

٢ . قد يكون هذا الميل إلى الخلوة من صغره في أساس دعوته الى الحياة الرّهبانيّة الّتي، بدورها، زادتْه عمقاً وتجذّراً وقناعة؛ لما في هذه الرّهبانيّة من نسّاك وحبساء متجرّدين عن الدنيا وما فيها، ولما في قوانينها وممارسات رهبانها العاديّين من حياة تقشّف وزهد.

ونتأكّد من هذه التربية النسكّية التي اعتصم بها الحرديني، والتي وجدها في الرّهبانيّة، من سيرة شقيقه الحبيس الأب أليشاع الذي كان "دخل أوّلاً محبسةَ دير قزحيّا ومكث فيها نحو سنة ونصف، متفرّغاً لأعمال النّسك والعبادة... ثمّ انتقل، بأمر الرؤساء، إلى محبسة مار مارون عنّايا، وأقام فيها أربعاً وأربعين سنة ونصفاً. وكان أوّل من دخل هذه المحبسة من أبناء رهبانيّتنا". وأليشاع "كثيراً ما كان يحرّض أخاه على الانضواء إلى المحبسة، لاعتقاده أنّ الحياةَ في المحبسة أفضل منها في الدّير. غير أنّ أخاه فضّل البقاء في الدير مرتضياً بحظ مرتنا".[159]

159 رَ: كتاب كشف الخفاء عن محابس لبنان..، المذكور آنفاً، ص ١٠٤-١٠٨.

٣ . وظهرت علامات النّسك والتجرّد أيضاً في ما مارسه الحرديني من الإماتات وقمع أهواء الجسد والنّفس من دون انقطاع. لقد عَرف عنه معاصروه لبسَ المسح، والنّومَ على "بلاس من الشعر"، ووسادة من خشب. ولاحظوا سهرَه الدائم والطويل أمام القربان، وصومَه وصلاتَه غير المنقطعَين، وركوعَه المستمرّ في الكنيسة، غائصاً في التأمل والهذيذ، ناصباً يديه من منتصف الليل حتى بدء النّهار.

هذه علامات مَن أُخذ بربّه وافتُتن به، وعشق الوصال معه. إنّه الوَجْد والفناء في مَن لم يبقَ إلاّه في حياته. كلّ ما في الدنيا بات لا يعني له شيئاً، ولا يُغريه. لذّة جسديّة واحدة لم تعد تلهيه عن أن يسبح في بحار المطلق، وينجذب إليه، ويذوب فيه.

كلا المعلّم والتلميذ برع في ذلك وأبدع. والذين عايشوا الاثنين صوّروا لنا المعلّمَ راكعاً رافعاً يديه وعينيه نحو السماء، وصوّروا لنا التلميذَ راكعاً على طبق من خشب صلب، مطأطئَ الرأس، عاقدَ الجبين، مغمضاً العينين، غائراً في الوجْد. وكم كان التلميذ يُخطفُ بمن كرّس له كيانه إلى درجة أنّه لم ينتبه لصاعقةٍ هزّت محبسته ودخلت الكنيسة فأحرقت ما أحرقت، وهو لا يزال مجذوباً إلى ربّه.

هكذا هم القدّيسون في علائقهم مع ربّهم. إنّهم كلّهم لمن هم إليه ساعون.

٤ . وثمّة علامات أخرى للمنحى النّسكي عند الحرديني يقوم

على حفظ القوانين والفرائض الرّهبانيّة بدقّة وإتقان. حتّى أمسى لكثيرٍ من إخوته مثالاً قانونيّاً يُقتدَى به. حفظُ القوانين والفرائض ضمانةٌ لشطحات القدّيسين الذين، لانخطافهم بمن يعشقون، تضيع عندهم المعايير والمقاييس. وهي أيضاً ضمانة للعاديّين الذين يسترسلون في الرّاحة والبطالة.

لقد عُرف عن الحرديني، عندما أُرسل إلى دير مار ميخائيل بحرصاف، إنزعاجه من هذا الدّير الذي لا حصن له يحميه، ولا قوانينَ تُحفظ، ولا حرمة لأيِّ مكانٍ فيه. والعلمانيّون، رجال ونساء وأولاد يمرحون فيه ويسرحون... فتركه راجعاً إلى دير تُرعى فيه القوانين، وتُصان الفرائض، ويحميه الحصن.

هذا، ولا يظنّنّ أحد بأنّ القداسةَ لا ضوابط لها، أو لا طرق معيّنة تسلكها. للقداسة أيضاً ضوابطها وطرقها، بالرّغم من أنّها اختبار شخصيّ عميق. للحبساء أيضاً قوانينهم وأنظمتهم. وقد سار حبساء الرّهبانيّة بموجبها. وهي معروفة في الرّهبانيّة منذ تأسيسها.

٥ . هذه الناحية النسكيّة ذهب فيها التلميذُ بعيداً عن معلّمه، إذ وجد نهجَه في تقديس نفسه بين إخوته. ومع هذا، لم يكن، في حياته العامّة هذه، بعيداً عن النهج النّسكي. فممارساته التقويّة، كالتقشّف في المأكل والملبس والسهر، والانقطاع عن كلّ ميل ورغبة، والصلوات الدائمة، والصبر وتحمّل أعباء المسؤوليّة والمواظبة على العلم والتعليم... كلّها كانت ذا طابع نسكي في قلبِ الجماعة.

والذين يمارسون الحياة الديريّة يمارسون في الوقت نفسه فضائل نسكيّة عديدة، كـ " الاحتمال والصبر وكسر الإرادة واحتمال ضعف الضعفاء. وإنّ العيشة الدّيريّة المشتركة تعدّ، عند آباء الرّوح، مثل استشهاد دائم. إذ لا يسوغ للراهب أن يعمل ما يلائم ذوقَه وطبعَه وأخلاقَه. بل عليه أن يسهر دائماً، وينتبه دائماً لئلاّ يمسّ أو يكدّر إخوتَه. وعليه أن ينتبه أيضاً كلَّ الانتباه إلى سيرته ومسلكه لئلاّ يشكّك الغير"[160].

ولا يخطرنّ في البال بأنّ شربل، تلميذ الحرديني، هرب من هذه العيشة الديريّة المشتركة. للحقّ نقول بأنّه مارسها في ديره مع إخوته وبرع فيها وحلّق. وقصد المحبسة بعد أن تقدّس بممارسته لها. وذلك لكي يختبر الله، مع إخوةٍ جدد، حبساء نسّاك منقطعين لله، ولكن بطريقة جديدة، قد لا تكون أسمى بل أسرع.

٦ . ومن علامات دعوة الحرديني إلى الحياة الديريّة المشتركة محبّته للعلم والتعليم. هذه النّاحية الرّاقية هي الأفضل في التعامل مع الإخوة، وفي المجتمع، وفي تفهّم الآخرين والعيش معهم بسلام وأمان. هذه تؤهّله إلى الانفتاح على الغير، وتبادل الآراء معهم، والدخول في سرّهم، ومساعدتهم، والحوار المجدي، والمحبّة المتبادلة. ومَن ليس له، في حياته الاجتماعية، علم وثقافة، قد لا يُحسن العيش أبداً. راهبٌ في جماعة ناقصُ العلم والثقافة، هو داعية فتنةٍ وإزعاجٍ دائمَين.

160 رَ: الأب توما مهنا، مقال: مع الحرديني وشربل، مجلة شربل،ص ٩-١٠.

ويبدو أنّ الحرديني كان يجيد علوم اللاّهوت والفلسفة، حتّى غدا إستاذاً، طوال حياته، لمادّة هي الأصعب فيهما، هي مادّة اللاّهوت الأدبي، التي تقتضي، في ما تقتضي، ثقافةً عامّة، ومنطقاً سديداً، ومقدرةً على إيجاد حلول لمشاكل ضميريّة عويصة، وإبداء رأي واضح وصريح يتحمّل صاحبُه مسؤوليّة ما يقول،

هذا، والتدريس عند الحرديني كان مهمّتَه الأساسيّة، التي بها أحبّ أن يخدم الرهبانيّة في نشئها. ويشير كاتبُ سيرته، خَلَفُهُ بالمدبريّة، الأب نعمة الله الكفري (ت ١٨ /٩ /١٩٠٨) إلى أنّه "كان معتنياً بهذه الوظيفة، حريصاً على التعليم والتهذيب جدّاً، ممّا ساهم، بما أتقن، في تقديس نفسه، وإفادة الآخرين بعلمه وجدّيته ومواظبته ومَثَلِه الطّيّب"[161].

٧ . ولا بدّ لمن يجاهد في الحياة العامّة من أن يتحمّل مسؤوليّات إداريّة. وكان الحرديني المثقّف الذي علّم وواظب على العلم والتعليم، ونهل المعارف والثقافة من مطالعات الآباء واللاّهوتيّين، وعرك المنطق وأجاد، أن تنظر إليه الرّهبانيّة بعين الاعتبار والاحترام. فسلّمته إدارةَ الإخوة الدارسين ستَّ سنوات، واختاره المجمع الشرقي مدبِّراً عامّاً ثلاثَ دورات، كلّ دورة ثلاث سنوات، وجعلته الرّهبانيّة إستاذاً للاّهوت طوال حياته.

هذه المسؤوليّات تستوجب من حاملها مزايا كثيرة وفضائل ثابتة.

161 راجع القول في مقال الأب توما مهنّا، مجلة شربل، ص ١١.

ولا يسعُ أحداً أن يقوم بها إنْ لمْ يكنْ له الغيرة والنشاط والأمانة والنزاهة والحكمة والصراحة والجرأة واللّطف والهدوء، وأعظمهنّ المحبّة... كما لا يسع مسؤولاً ألاّ يتعرّض، في مسؤوليّاته، إلى تأديب بعض المخالفين، وتأنيبهم، واتخاذ مواقف صارمة أحياناً، وإبداء رأي جريء قد لا يُلائم الجميع، وإغاظة بعض الذين ماتتْ ضمائرُهم أو تحجّرتْ قلوبُهم.

لدى المسؤول في الرّهبانيّة امتحان عسير. فهو بين أحد احتمالين : إمّا النّجاح وإمّا الفشل. والحرديني الذي سطعت قداستُه للجميع كان، على ما يبدو، ناجحاً في مسؤوليّاته. بل يسعنا القول بأنّ الحرديني تقدّس بسبب نجاحه في مسؤوليّاته. والنّجاح يقتضي له الأمانة والجرأة والصراحة. فلا محاباة للوجوه مع القدّيسين. وليس من قدّيس في السماء عمل من أجل مصلحة ذاتيّة. بل التضحية والخدمة ومحبّة الآخرين هي طريقهم الى السماء.

٨ . والأطرف في حياة القدّيسين أن يجدوا لهم تسليةً في حياتهم الجدّيّة هذه. وتسليتهم ليست راحةً ولا بطالة؛ بل هي أعمال من نوع آخر... هذه الأعمال أتقنها أبناء الرّهبانيّة، فهندسوا الأديار وشيّدوها بأيديهم. ودرّجوا الجلالي وبنوا الحفافي. وألّفوا الكتب وطبعوها وجلّدوها. وأنشأوا أفران الخبز، وأفران الحدادة. وأتقنوا نجارة الأبواب والنوافذ والطاولات والمقاعد من خشب الأرز والجوز. وخيّطوا. وسكّفوا. وحدّدوا.. حتّى باتت الأديار ورش عمل.

أهمّيّة الأعمال اليدويّة ليست في كمّيّة ما تُنتج، بقدر ما هي في تغيير نمط العلاقة مع الرّب. القديسون لا يقفون عن العمل. وإنْ تعبوا، والإنسان ضعيف يتعب وتثقلُ الأيامُ همّتَه، فيغيّر عمله. القدّيسون لا يرتاحون، والإنسان يحتاج إلى بعض الرّاحة، وراحة القدّيسين في تغيير عملهم. هكذا هم أبناء الرّهبانيّة اللّبنانية القدامى الذين لم يعرفوا الملل ولا الكلل. ولم تدخلهم حضارة الـ"ويك أند"وشاشات التلفاز في ليالي السهر الطويلة.

عمل الحرديني اليدوي، في الخياطة وتجليد الكتب، عرفه عنه معاصروه، فكتبوا وسجّلوا مداخيلَه في دفاتر الدخل. والعمل الجدّي، في أياد نظيفة، له مداخيله. وهو يعود بالخير على الرّهبانيّة. وكم اغتنت أديارٌ ورهبانيّاتٌ من أعمال قدّيسيها. وكم تحتاج اليوم إلى أمثالهم لتعود القداسةُ خيراً على الرّهبانيّة.

شربل، تلميذ الحرديني، اكتسب عادةَ العمل من معلّمه. برع فيه وأغنى ديرَه ورهبانيّته. وما تزال الكروم شاهدة على ما قام به قدّيس عظيم.

٩ . ومن الخدمات الجليلة في الرّهبانيّة خدمة النفوس، إنطلاقاً من الدير وعوداً إليه. وهي تتضمّن إقامة القداديس في الرّعايا، ومنح سرّ العماد للأطفال، وتعليم الأولاد أصولَ الإيمان المسيحيّ، والاحتفال بالأكاليل، وحضور الجنّازات، وإقامة الرياضات الرّوحيّة والإرشادات وسماع الاعترافات...

هذه وغيرها أيضاً من خدمات اجتماعيّة، كفتح المدارس للتعليم والتربية، والعناية بالأيتام والعجزة، وتوفير المساعدات العينيّة للمحتاجين، وتشييد بيوت للسكن لمن لا سكن لهم... هذه قد رعتْها الرّهبانيّة منذ نشأتها.

والحرديني، كما كتب عنه معاصروه، "لم يكن يهمل أعمال الغيرة على خلاص النّفوس.. (بل) كان يسعى في تنشيط الجميع إلى عبادة الله... وكلّما سنحت له فرصة ومكّنته الظروف كان يجمع السذّج والأولاد، ويشرّبهم روحَ الفضيلة، ويلقّنهم قواعدَ الدين بالتعليم المسيحيّ، ويهديهم طريق الخلاص"[162].

١٠ . هذه الخدمات الرعائيّة والاجتماعيّة لم تكن غائبةً حتّى على مَن اختار النسك والاستحباس. فإطلالة القدّيسين على المجتمع البشري هي سبيل هداية وخلاص. وشربل أيضاً لبّى أمراً في زيارة مريض والصلاة عليه. وكان يحتفل بالقدّاس أيّام الآحاد والأعياد لمن يقصد محبستَه. هذه الإطلالة على شعب الله من خلال المحبسة هي مناسبة عظيمة ليعرف عامّة النّاس بأن القداسة ممكنة ونور الله لا يزال يسطع على الأرض.

هذا النّهج الرّسولي مارسه نسّاك الرّهبانيّة اللّبنانيّة، ويمارسونه حتّى اليوم. وهو ما يقوم به حبيس دير قزحيا الأب أنطونيوس شينا، ومَن يسير على غراره مثل الأب يوحنا الخوند، بنظم الشعر

162 الأب بطرس ساره، ترجمة خادم الله الأب نعمة الله كسّاب الحرديني لمناسبة الذكرى المئويّة الأولى لوفاته، (١٨٥٨-١٩٥٩)، ص ١٧-١٨.

الليتورجيّ، وتأليف الكتب والصلوات، وإقامة الرياضات والإرشادات الرّوحيّة، وشرح الكتاب المقدّس.. كلّها، لولاه والأب روفايل مطر، لتأخّرت النهضة الليتورجيّة في الكنيسة المارونيّة، بل، والحقّ يُقال، لما وُجدت.. إنّها رسالة المحبسة إلى العالم، ليشعر العالم بأنّ القديسين هم منه وليسوا غرباء عنه، وأنّه بوسع كلّ إنسانٍ اختيار طريقه إلى تقديس نفسه، مع خدمة المجتمع والكنيسة.

في محبسة الرّهبانيّة اللّبنانيّة تختلط الأوراق بين منهجَين مختلفَين في الوصول إلى الرّب. وهو يقوم على عمليّة توفيق فريدة وناجحة. وبسبب هذا "التوفيق بين النهج النسكي والالتزام الاجتماعي... اعتُبر الحرديني، بحسب الأب توما مهنّا، رائداً لنا جميعاً نحن أبناء هذه الرّهبانيّة"[163]. ولكنّه رائد يسير على خطى المؤسّس عبدالله قراعلي الذي رسم النّهج والطريق، وسنّ القوانين.

هذه الناحية التوفيقيّة بين النسك والرّسالة هي حال الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة من بدء تأسيسها حتّى اليوم، وهي ميزتها ومبرّر وجودها بين رهبانيّات الكنيسة الجامعة.

وأديار الرّهبانيّة التي ضُربت عليها الحصون، ومورست فيها الصلوات، وقام رهبانها بالصلوات ليلاً ونهاراً، وقضوا أوقاتهم إمّا في القلاّية وإمّا في الكنيسة وإماّ في حقول العمل... هذه الأديار هي نفسُها تفتح حصونَها، وتشرّع أبوابَها، لتستقبل مَن عندهم حاجة روحيّة أو

---

163 مع الحرديني وشربل، مجلة شربل، عدد ٢٦٦، ١٩٩٠،ص ١٣.

اجتماعيّة، أو من يؤمّها للصلاة مع رهبانها، أو لإتمام فريضة دينيّة، أو لمساعدة ماليّة، أو لتعليم وتوجيه واستشفاء.

هكذا كانت الرّهبانيّة منذ بدايتها. وهكذا استمرّت مسيرتها. وهكذا هي الآن. وستبقى كذلك مع ما انتابها من محاولات إصلاح للخروج بها من هذا المنحى التوفيقي الناجح إلى خيار طريق من الطريقَين : حياة التأمّل أم الرّسالة. وكانت الرهبانيّة تخرج منتصرة من هذا التّحدّي الإصلاحي الغربي الذي لا يتلاءم مع روحانيّة شعبنا الذي تكوّن حولَ الدير. وكان الدير ملجأه والرهبان مرجعه.

الأب نعمة الله الحرديني، الذي وافق بين النّهجين وأبدع فتقدّس، شاء الرّب فرفعَه على منائر الكنيسة الجامعة كعلامة ساطعة لنهج الرّهبانيّة الفريد والناجح في كنيستنا. هذا النّهج هو النهج الديري الذي يحاول المصلحون القضاء عليه.

الحرديني، ونردّدها بلا ملل، وجه ساطع من وجوه القداسة في الرّهبانيّة. هو ورفقا، راهبة رائعة في قداستها ضمن ديرها بين أخواتها مع آلامها، استطاعا أن يعيدا للدير مكانتَه الفريدة والناجحة. كلاهما، وشربل الذي بدأت معالم قداسته تظهر وهو في الدير بين إخوته، هم لنا دليل على أنّ القداسةَ في الرّهبانيّة تكون في الدير، وتنطلق منه، وتتعمّق فيه. وليست المحابس، في حقيقة الأمر، إلاّ امتداداً للدير لا اعتراضاً عليه.

هذه هي الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. يختصرها ديرٌ يعيش فيه

جمهور من الإخوة في حياة مشتركة، وتحفظ فيه القوانين والفرائض. هذه الحياة الديريّة المشتركة يختصرها "قدّيس دير كفيفان". ويختصر الكفري سيرةَ سلفه بقوله عنه: "كان متّحداً اتّحاداً دائماً مع الله تعالى حتّى في الأشغال الزمنيّة ذاتها التي لم تكن تصدّه عن استحضار الله والتأمل به"[164].

فالدّير، حيث "الأشغال الزمنيّة" و"التأمّل الدائم بالله" هو مختصر الحياة الرهبانيّة في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة. هو محلّ قداسة الرّاهب. فيه عمله. ومنه ينطلق وإليه يعود. فيه يمارس الخلوةَ والحياة النسكيّة في أعمق ما يشاء. وفيه أيضاً يمارس الأعمال الرّسوليّة والتبشيريّة والاجتماعيّة في مختلف أنواعها. راهب خارج ديره، امرؤ منقوص الهويّة. ودير بدون جماعة رهبانيّة تحييه، بيتٌ بدون حياة. لم يلبّ إنسانٌ دعوة ربّه للحياة الرّهبانيّة ليعيشَ معزولاً عن البشر.

164 راجع كتاب بركة عن قبر القديس شربل، للخوري منصور عوّاد، ص ٣٧٣.

٥٤

الحرديني في الزّمن الصعب

(١٨٠٨-١٨٥٨)

كانت الرّهبانيّة، عندما ترهّب الشاب يوسف جرجس كسّاب الحرديني، في دير مار أنطونيوس قزحيّا، في أوائل تشرين الثاني سنة ١٨٢٨، تمرّ في حالتَين متناقضتَين : حالة نموّ وقداسة وازدهار، وحالة خضّات وتحزّبات وقلاقل. وهاكم تفاصيلها، بحسب عهود الرؤساء العامّين، الذين عايشهم الحرديني، منذ ترهّبه حتّى وفاته.

أوّلاً - عهد الأب العام اغناطيوس بليبل (١٨١٠-١٨٣٢)

١ . ترهّب الحرديني أواخر عهد الأب بليبل الذي حكم الرّهبانيّة ٢٢ سنة. وهي أطول مدّةٍ لرئيسٍ عامّ في الرّهبانيّة، منذ نشأتها. ومن الطبيعي، نتيجةً لهذا الاستقرار، ولشخصِيّة بليبل، وعلاقته الخاصّة مع حاكم البلاد الأمير بشير الكبير، أن يكون عهدُه الطويلُ غنيًّا بكلّ شيء : بالرّوحيّات والزمنيّات، برهبانٍ برعوا في العلوم والمهن والإدارة والقداسة، كما بأديارٍ بُنِيَتْ، وممتلكاتٍ اقتُنيتْ، وحياةٍ نسكيّة روحيّة مزدهرة، وعلاقاتٍ سياسيّة بمستوى رأس الإمارة آنذاك.

٢ . في أيّامه توجّهتِ الرّهبانيّة نحو البقاع، وتسلّمتْ محبسة مار بطرس وبولس في عنّايا، وأنشأت ديرَي قرطبا[165] وعنّايا. واشترتْ مزرعةَ كفربعال من المتاولة، وأتبعتْها بدير عنّايا. ثمّ تملّكتْ حِمى اللقلوق. وأنشأتْ مدرسةً في رأس المتن للعمل في ارتداد الدروز. واهتمّت بطباعة كتابَي القدّاس والشحيمة، على نفقتها الخاصّة[166].

٣ . في ١٦ /١ /١٨١٦ لبس الإسكيم الرّهباني أليشاع، شقيق الحرديني. وله من العمر ١٧ سنة.

٤ . وفي ١٤ /١١ /١٨٣٠، لبس الإسكيم الرهباني الأخ نعمة الله كسّاب الحرديني، وله من العمر ٢٠ سنة.

٥ . ولكن، وقبل ستة أشهر من نهاية عهد بليبل، ظهرت حركة في الرّهبانيّة، كان هدفها تنزيل الأب العام عن وظيفتِه. وكان القائم بتلك الحركة الأمير أمين بن الأمير بشير الكبير، والمعلّم بطرس كرامه، وبعض رجالِهما من رهبانٍ وعالميّين؛ وذلك لمسألة ماليّة نَقم

---

165 "وكان الأب بليبل، كما جاء على لسان البطريرك يوحنّا الحاج، كلّ مرّة ينظر من دير قرطبا إلى قرية لاسا وجوارها، كان يتأوّه ويقول: يا ليت الله يفسح في أجلي ويوفّقني ويسهّل أمري حتّى أشتري أملاك مزرعة لاسا، كما وفّقني في مشترى أملاك المعتدين في جوار قرطبا!"؛ رَ: بليبل، تاريخ الرهبانيّة، ٣ /٢٢٨-٢٢٩.

166 المرجع نفسه، ٣ /٢٦١.

بسببِها الأمير أمين على الأب العام[167]. ووافقَ البطريركُ يوسف حبيش على ذلك أيضاً.

٦ . وبعد شهرين من هذه الحركة، رفع رهبانٌ عريضةً موالية إلى كرادلة المجمع المقدّس، تدافعُ عن الأب بليبل، وتتّهم المدبّر ارسانيوس النيحاوي، والأب طوبيّا عون كاتم أسرار البطريركيّة، والقسّ عمانوئيل سلامه المتيني، والمطران بطرس كرم مطران بيروت بعملِ الفتن والقلاقل في الرّهبانيّة.

٧ . وعند معرفة الأمير بشير الشهابي بخلاف الرّهبان بعضهم مع بعض، وبتدخّل البطريرك وبعض المطارنة، وجّه مرسوماً يدعو فيه الرهبانَ إلى تأخير مجمعهم إلى حين يتّفقون.

ثانياً ـ عهد الأب مبارك حليحل البسكنتاوي (١٨٣٢-١٨٣٥)

٨ . إلاّ أنّ المجمع انعقد في موعده، و" انقسم أصحاب الأصوات قسمَين : قسم بقي في دير طاميش، وقسم **قاطَعَ** دوراتِ المجمع، فخرج من الدير، واعتصم في دير مار يوسف البرج، ورفع شكواه إلى القاصد الرّسولي وإلى البطريرك ". (وما كان البطريرك والقاصد يريدان غير ذلك). واستمرّ الاختلاف قائماً أربعة عشر يوماً. عندئذٍ، تدخّل البطريرك وعيّن القس مبارك حليحل البسكنتاوي

167 المرجع نفسه، ٣ /٢٧٦-٢٧٧. المسألة الماليّة هي أن "الأب العام لم يمدّ الأمير أمين بالمال ليشتري مزرعة مجدل العاقورة".

رئيسا ً عامًّا، والآباء اغناطيوس بليبل، وارسانيوس النيحاوي، وعمانوئيل المتيني، ومرقس الشننعيري مدبّرِين...

٩ . وبعد مدّة وجيزة من عهد حليحل، رفع المدبّران بليبل والشننعيري رسالةً إلى المجمع المقدّس، يشتكيان فيها من تصرّفات الأب العام الجديد وتغيّره بعد انتخابه، ويعلمانه عن الحالة التعيسة التي وصلتْ إليها الرّهبانيّة بسبب تدخّل البطريرك، والقاصد الرّسولي، والمطران بطرس كرم، والمدبّر ارسانيوس النيحاوي، والقسّ طوبيّا عون. ويلتمسان منه التدخّل لوقف التدهور، ويرحم عبيدَه الرّهبان المظلومين.

١٠ . وأخطر ما في الأمر أنْ يرفعَ الأبُ العام حليحل نفسُه تقريراً إلى المجمع المقدّس، يُعلمه فيه عن "الخراب اللاّحق بالرهبانيّة والطائفة عامّة"، يقول : "لقد أخذتْ نيرانُ الاختباط تتعاظم حتّى توضّحتْ علاماتُ الخراب... وصرنا خائفين جدًّا من أن يصل هذا الاختباط إلى المشاجرات والقتال". إنّه كلامٌ خطيرٌ يصدر عن المسؤول الأوّل؛ كلامٌ ينبئ عن شرّ.

١١ . وكتب أيضاً إلى رئيس المجمع المقدّس، عن تصرّف المدبّرَين بليبل والشننعيري مع رهبانِ دير كفيفان، وجبيل، وعنّايا، ومعاد، وتعصيب حوالَي ٦٠ راهباً ضد الرّئيس العام. وقد اقتحموا دير معاد، وعزلوا رئيسَه. ثمّ تسلّلوا ليلاً إلى دير حوب، ودهموا رئيسَه، ونزعوا منه الختم، وطردوه من الدير.

١٢ . ثمّ كتب رسالةً أخرى إلى المجمع المقدّس ضمّنها شكوى مريرة عمّا يحدث في الرّهبانيّة. ويتمنّى أن يموت ولا يرى ما يرى. يقول : " إنْ سكتُّ لم يسكتْ وجعي. قد صغرتْ نفسي، وعفَتْ روحي. وصرتُ راغباً، ليس فقط بتركِ وظيفتي، بل أن أقطن البراري حيثُ لا أنظر ولا أسمع ما نظرتُ وسمعت... وعلى ما أظنّ، لا يوجد مرض عضال وضرورة باهظة (أي ضرر) نظير مرضنا وضرورتنا ".

١٣ . وكان للحرديني في الرّهبانيّة، عند انتهاء عهد حليحل، ٥ سنوات، ومن العمر ٢٥ سنة. وكان يَعي تماماً ما يحصل في الرّهبانيّة مِن سجسٍ وقلق. كما كان يعرف أيضاً أنّ في الرهبانيّة تتساكن الروحانيّاتُ والدنيويّات، وتعيش القداسة مع الخطيئة، وتظهر المطامعُ البشريّة كما تزدهر حياة النسك، ويكثر الفوضويّون كما يكثر القانونيّون. وعلى الحرديني الشابّ المثقَّف أن يختارَ حياتَه، إمّا مع هؤلاء، أو مع أولئك. وكان شقيقه الحبيس أليشاع يدعوه إلى أن يخلّص نفسَه ويلتحق بحياة النسك والاستحباس، في أحدى محابس الرّهبانيّة. وكان هو يجيبه باستمرار: "الشاطر بيخلّص نفسو" حيث هو.

ثالثاً - عهود ع. المتيني وع. الشبابي (١٨٣٥-١٨٤٥)

١٤ . انتهى عهد حليحل، والقلاقل لا تزال قائمة. وقد بقيت واستمرّت عشر سنين، من سنة ١٨٣٥ حتى ١٨٤٥. فيها تبادل السلطة، تارة عمانوئيل سلامه المتيني، وطوراً عمانوئيل الأشقر الشبابي، وظهر اتّفاقهما واضحاً.

١٥ . في هذه الفترة، **سيم الأب نعمة الله الحرديني كاهناً مع ٢٢ راهباً. وبقي في دير كفيفان، يدرّس الإخوةَ الفلسفةَ واللاّهوت. ويقوم بخدمات رعائيّة في القرى المجاورة للدّير. كما كان أيضاً، بين ١٨٣٨ و١٨٤٥، مديراً على الرّهبان الدارسين.**

١٦ . في هذه الفترة أيضاً، وقعت حوادث ١٨٤٠، فأحرقتِ العساكر المصريّة ديرَ بيت شباب، وقتلتْ فيه راهبَين. كما نهبتْ، سنة ١٨٤١، ديرَ سِيْر وأحرقتْه. وفي السنة التالية، ثار الدروز ثورتَهم الأولى، وأحرقوا ديرَ سيّدة مشموشة، وقتلوا فيه ستة رهبان... وكذلك كانت السياسة الخارجيّة تتأرجح بين تأييدٍ للأتراك وتأييد للمصريّين. والنتيجة كانت على لبنان سيّئة جدّاً.

١٧ . والشكاوى، منذ آخر عهد بليبل حتى أواخر عهد العمّانوئيلَين، لم تنقطع. قد تختصرها استغاثةُ رهبان دير قزحيا الـ ١٤٦ راهباً، إلى رئيس المجمع المقدّس. جاء فيها : " نعرض لديكم، بقلبٍ منكسر حزين، وعيون تُهطل العبرات بالتنهدات الجارحة على الحال السيّئ الذي اتّصلتْ إليه رهبنتُنا اللّبنانيّة، هذه التي كانتْ، فيما مضى، شريفةً وعزيزةً، والآن أضحتْ مرعى الذلّ ".

١٨ . واستغاثة أخرى وجّهها حوالَي٢٠٠ راهب آخَرِين من مختلف الأديار، إلى قداسة البابا غريغوريوس السادس عشر. يقولون فيها: " إننا، منذ ثلاث عشرة سنة لم تزل تعصف بنا رياحُ السجس.. ولم تزل تتعاظم إلى الآن الذي به اكتمل الخراب.. بتدبيرِ السيِّدِ

البطريرك والرئيسِ العام والمدبِّرَين الشبابي والنيحاوي الذين زرعوا روح المحبّةِ الخصوصيّة ".

١٩ . بعد شهرٍ وَرَدَهم جوابُ رئيسِ المجمع المقدّس إلى القاصد الرسولي يعبّر له عن "الاشمئزاز والازدراء". يقول : " سمعنا بأنّ شكوكاً فظيعة وقلاقل جسيمة سبّبها بعض الرهبان، وقد أعدّوا وقادوا مشروعاً بغيضاً مقيتاً للغاية! لذلك كان استياءُ المجمع المقدّس كبيراً جدّاً ".

٢٠ . وفي رسالة ثانية يُشير فيها رئيس المجمع المقدّس إلى البطريرك ليؤخِّر المجمع العام. فاستجابَ البطريرك وأمرَ بتأخير المجمع. (وكان البطريرك لا يريد غير ذلك).

٢١ . وجاوب حوالي ٣٠٠ راهب من مختلف أديار الرّهبانيّة، برسالةٍ موجّهةٍ إلى قداسة البابا غريغوريوس السادس عشر. فيها شكوى على البطريرك حبيش وعلى القاصد الرّسولي اللّذين يتدخّلان في شؤون الرّهبانيّة، وعلى طوبيّا عون الذي صار مطراناً فيما بعد.

رابعاً - ألحرديني في المعمعة (١٨٤٥-١٨٤٧)

٢٢ . هذه المشاكل المتفاقمة، من الداخل والخارج، دعَتِ الكرسي الرّسولي، في مجمعٍ عامّ متأخِّرٍ ثلاثة أشهر عن موعده، إلى أن يتدخّلَ ، و**يعيّن الأب سابا كرَيدي العاقوري رئيساً عامّاً، والآباء: نعمة الله الحرديني، وحنانيّا العرموني، وبولس المتيني، وكاروبيم بكاسيني** مدبّرين. وكان هذا التعيينُ الأوّلَ من نوعه في الرّهبانيّة. وقد

عدّ الرهبانُ ذلك خَرقاً للقانون. ممّا حمل بعضَهم على اقتحام دير طاميش ليلاً، واغتصابِ اختام الأب العام والمدبِّرين وأوراق الرئاسة العامّة وسجلاّتها.

٢٣ . بالرّغم من ذلك، بقيت القافلةُ تسير. ففي عهد العاقوري، أنشأتِ الرّهبانيّة ديرَ مار روكز القليعات، وحوّلتِ القطّاره، والجديده، وعشاش، ومار يعقوب الحصن، ومار يوحنّا قبّيع، ومارت تقلا في ريمات إلى أديار قانونيّة. وفي عهده أيضاً، دخلَ العلمُ العالي واللّغاتُ الأجنبيّة على الرّهبانيّة، وذهبَ إلى مدرسة الآباء اليسوعيّين في غزير رهبانٌ من أجل هذا الغرض...

٢٤ . في رسالةٍ أولى، بُعيد تعيين الأب سابا العاقوري رئيساً عامّاً، اشتكى رهبانٌ إلى الأب الأقدس من تدخّل بعض الإكليروس بأمورِ الرّهبانيّة، ومن تدخّل الخواجا مخايل طوبيا العمشيتي، المتنفِّذ لدى الحكّام، الذي حرّك بعض الرّهبان ضد رؤسائهم، وعصّب رهبانَ جبيل على إخوتهم، وأعطى بعضَهم أموالاً ليتجنّدوا لمحاربةِ الرؤساء الذين كانوا من غير جهاتهم.

٢٥ . وفي رسالة ثانية أيضاً، بعثها رهبانٌ إلى الأب الأقدس، يشتكون فيها بأنّ " سبب البلايا في الرّهبانيّة هم اليسوعيّون، الذين ظهر منهم كلّ أنواع الخلاف، لأنهم، عوضاً عن أن يساعدوا برفع كلّ بلبلة ومنْع كلّ ما يقلق ويشين ظهروا هم بأنفسهم علّة كلّ البلبلات في طائفتنا ورهبانيّتنا، وفي طائفة إخوتنا الروم الكاثوليك ورهبناتهم.

وأوقعوا اختلافات وخصومات كليّة ما بين بطاركة ومطارين، وما بين حكّام عالميين ورعاياهم... ناهيكم عن الأضرار العظيمة التي أحدثوها في الرهبنة اللّبنانيّة والأنطونيانيّة المارونيّتَين، حتى إنّ ما يحصل من الانهدام وضعف الفرائض والقوانين محصورة علّته بهم... وكان لهم ذلك بدعمٍ من القاصد الرّسولي الذي يريد القضاء على كلّ ما هو من تقاليدنا وقوانيننا... إرحمونا وخلّصونا وارفعوا عنّا هذه الأثقال. ولا تدعونا نتورّط بالخروج عن الصواب، لأنّ تحمّلَ مَا لا يُطاق رميٌ بأعماقِ الخطأ... وبالإجمال، نقول: إنّنا في الموقف العظيم نطلب حقوقَنا من قداستكم إذا ما عاملتمونا بالإنصاف والحقّ، وأنقذتمونا من هؤلاء الذئاب ".

٢٦ . أمّا التقرير الشهير الذي رفعه المدبّر الأب حنانيّا العرموني إلى الأب الأقدس والكرادلة، في ٥ /٨ /١٨٤٥، فهو خير شهادة على ما كانت عليه الرّهبانيّة آنذاك. فيقول، مثلاً، في نذر الفقر، " الذي هو الأساس الذي بنيتْ عليه الرهبنة، قد عُدم وتلاشى حفظه... وقد صار بعضُ المدّبرين والرؤساء يَقتنون أرزاقاً ثابتة وغير ثابتة، يختصّونها لذواتهم، ويتصرّفون بها وبغلالها السنويّة كما يشاء خاطرُهم... هذا فضلاً عن الأثاث والمواشي والأغلال مونة الأديرة التي يبيعونها في آخر سنة من رئاستهم عليها. ويَأخذون ثمنَها ويختصّونه لذواتهم... بل إنّ البعض يأخذون من التجّار مبلَغاً وافراً من الدراهم ويكتبونه دَيناً على الأديرة قبل خروجهم منها... ثمّ لكي يسلب هؤلاء الرؤساء مال الأديرة بحريّة لا يدعون يسكن عندهم

بالأديرة المترئسين عليها إلاّ رهبان ضيعتهم وأقاربهم فقط... وإن استقام الحال على هذا المنوال لا يبقى في الأديرة إلاّ حجارتُها فقط...

والأمر الثاني اللازم لإصطلاح هذه الرهبنات هو إبطال الأصوات الدائمة".

خامساً - عمانوئيل الأشقر مجدّداً (١٨٤٧-١٨٥٠)

٢٧ . عند انتهاء عهد العاقوري، عُقد مجمعٌ عام في دير طاميش، في ١٠ /١١ /١٨٤٧، وانتُخب رئيساً عامّاً الأب **عمانوئيل الأشقر**، للمرّة الثانية، مع مدبِّرِين أربعة، هم: عمانوئيل سلامه المتيني، وارسانيوس النيحاوي، وسابا العاقوري، ومرقس الشننعيري.

٢٨ . هؤلاء عقدوا مجمعَ مدبِّرين في دير قزحيّا، استمرّ شهراً وأكثر، من ٢٥ /٧ /١٨٤٨ حتّى ٣١ /٨ /١٨٤٨. فيه تقرير عن حالة الرّهبانيّة، إبتداءً من زلاّتِ رهبان قزحيّا الذين طَردوا رئيسَهم بكلِّ قساوة ووحشيّة[168]، مروراً بطرد ستّة مبتدئين تجاسروا على ضرب أتباع القيمقام الذين حضروا إلى دير ميفوق، لإلزام قسوس أربعة عاصِين على القوانين الكنسيّة والمدنيّة... في هذه الجلسة، **عُيِّن الأب نعمة الله الحرديني وَكيلاً بدير مَار مارون عنّايا**...

٢٩ . في هذه الفترة، بعثَ رهبانٌ من دير مشموشه، سنة ١٨٤٩، إلى رئيس المجمع المقدّس، في موضوع " الظلم والقهر

168 "وروس المحرّكين : نستير الطرابلسي، ونعمة الله التولاوي، ويوسف القرطباوي، وروكس المشمشاني".

اللاّحقَين بهم من جرّاء تصرّف المدبّر ارسانيوس النيحاوي والرئيس العام والمدبِّرين ورئيس دير مشموشه الذي ضيّق على رهبانه معاشهم. هو وأصحابه يأكلون اللّحم، وباقي الرهبان لم يلحقوا إلاّ مخلوطة الماء. وأعظم من ذلك: جاء المدبّر وطرح الصوت على أهالي جزّين يقول لهم أن يَحضروا إلى الدّير بالسلاح، لأنْ قد حضر رهبانٌ غربٌ لأجل نهبِ الدّير. وابتدأ القتال والضرب... جميع أديار الرهبنة على هذا النمط. والرئيس العام والمدبرين ملتهيين في كيفيّتهم ".

٣٠ . وفي أواخر ١٨٤٩، رفع أكثر من ٢٠٠ راهب عريضةً إلى القاصد الرسولي بيلارديل يشتكون فيها على الرئيس العام والمدبِّرِين (عدا الشننعيري)، بأنّهم يزوّروا أسامي الرهبان لتبرير ذواتهم "من شيء لا يتبرّرون به أمام الله".

٣١ . وفي استغاثة بعض الرهبان إلى المجمع المقدس، "لينظر في سلوك الرئيس العام والمدبّرَين، النيحاوي والمتيني، الذين احتالوا وجمعوا ختوم رؤساء الأديرة. وأرسلوا اثنين من حزبهم ليطوفوا في الأديار، وبحيلةٍ وضعوا أسامي الرؤساء وأسامي جمهورنا بدون علمِنا ورضانا. ثمّ يعطون أصوات شمسيّة على مرادهم".

٣٢ . وقبيل موعد المجمع المرتقب بشهر، رُفعتْ عريضة موقّعة من٢٥٤ راهباً، إلى رئيس المجمع المقدّس، فيها شكوى مريرة من الرئيس العام والمدبرَين النيحاوي والمتيني وبعض الرؤساء. فيها: "ليكن محقَّقاً لدى نيافتكم أنّ رهبنتنا تتلاشى إنْ لمْ ينعطفْ خاطرُكم

بإصلاحها وإنزال هؤلاء عن الوظائف، لأنّه أمرٌ مؤكّد أنّ هؤلاء الآباء هم علّة البلابل والقلاقل منذ القديم حتّى الآن".

سادساً - الحرديني مدبِّراً للمرّة الثانية (١٨٥٠-١٨٥٣)

٣٣ . في نهايةِ عهد الأب ع. الشبابي، تدخّل الكرسي الرّسولي مرّة ثانية، وعيّنَ رئيساً عامّاً الأب **لورنسيوس الشبابي مع** مدبِّرِين، هم: **نعمة الله الحرديني**، وجبرايل من حريصا، ويوسف الدحداح، ويوسف رحمه من بشرّاي.

٣٤ . ليس لدينا عن هذه المرحلة أيّة شكاوى تُذكر. إلاّ أنّ رئاسة الأب الشبابي العامّة تميّزتْ بإنشاءاتٍ عديدة: فقد شيّد ديرَ القطّاره، ومدرسة العزرا، ومدرسة كفرحيال، وزاد في دير مار روكز القليعات، وأنشأ مدرسة عين زبده، ودير مار جرجس جنّين. وكان يُشرف بنفسه على العمل والبناء. بل كان يعمل بيديه كعامل من العمّال.

سابعاً - عمانوئيل سلامه مجدّداً (١٨٥٣-١٨٥٦)

٣٥ . في انتهاء عهد الأب لورنسيوس، عاد الأب **عمانوئيل سلامه**، للمرّة الثالثة. في عهده اشترتِ الرّهبانيّة مطبعة طاميش. وكان من مطبوعاتها: كتاب اللاّهوت الأدبي للقديس ليكوري، وكتاب دحض الأرطقات، وكتاب الدرّ المنظوم للبطريرك بولس مسعد، والشحيمة.

٣٦ . وفي آخرعهده، رفع رهبانٌ استغاثةً إلى الأب الأقدس

ضمّنوها شكواهم على الرئيس العام "محبّ الوظايف. رئاستُه مضرّة لهذه الرهبنة، ومسبِّبة الانقسام والخصام. يُحابي الأردياء واصحابَ الأصوات، ويحامي عنهم. واسعٌ جدًّا معهم. ضيّقٌ جدًّا على الأتقياء. لا يهتمّ بالمرضى. يَسمح بالمقتنى لأصحابه. إفراطُ رغبته في التسلّط. لذا نطلب بتدخّلكم وتعيِّنوا للرهبنة رئيس عام ومدبّرين. فبعد بليبل لم تعد الرهبنة تَعرف الاستقرار والعدل إلاّ بمجمعَين عيّنهما الكرسي الرسولي". وصادق على هذه الشكوى مطران دمشق اسطفان الخازن.

ثامناً - الحرديني مدبّراً للمرّة الثالثة (١٨٥٦-+١٨٥٨)

٣٧ . في نهاية عهد المتيني، وبسبب ما تقدّم من شكاوى، أرسَلَ الكرسي الرسولي المطرانَ بولس برونوني القاصد الرّسولي، زائِراً على الرهبانيّة، لكي يترأسَ المجمع العام الذي عُقد في حينه، **وانتخَبَ** (المجمعُ) **الأبَ حرديني كاتباً للقرعة**. وانتخبَ الأبَ **ارسانيوس النيحاوي**، رئيساً عامًّا. إلاّ أنّ ذلك لم يُرضِ سيادةَ الزائر، ألذي ألغى الانتخاب، وسمّى الأب **لورنسيوس يمين الشبابي** رئيساً عامّاً مع المدبرين الأربعة: يوسف رحمه من بشرّاي، جبرايل من حريصا، **نعمة الله كسّاب الحرديني**، وكاروبيم من بكاسين. وذلك بناءً على طلب جمهورٍ من الرّهبان، أكثرُهم من المرؤوسين. ثم أمرَ بحرمِ السلطة المنتخَبة التي توجّهتْ إلى دير مار موسى، وابتدأتْ بتعيين الرؤساء، حتى حدثتْ بلبلة عظيمة...

٣٨ . وهكذا أصبح على الرّهبانيّة رئيسان عامّان: النيحاوي

الذي انتخبَه رؤساءُ أديرة الشوف والمتن. والشبابي الذي عيّنه الكرسي الرّسولي، واعترف به رهبان جبيل والشمال. وظلّت الإدارةُ العامّة منقسمَةً حتى أوائل سنة ١٨٥٩، أي إلى قبيل وفاة الأب ارسانيوس الذي استدعى الأبَ لورنسيوس، وقدّم له الخضوع، وعمل واجباته الأخيرة على يده، وتوفّي في ٩ /٢ /١٨٥٩، في دير النّاعمة. وحضر جنازَتَه رهبانُ أديرة الشوف، وقدّموا الخضوع للأب العام لورنسيوس. أمّا رهبان أديرة المتن فمكثوا رافضين الخضوع حتّى نهايةِ المجمع.

٣٩ . في هذه الفترة بعث المطران جعجع الزائرُ الرسولي على الرّهبانيّة رسالةً إلى رئيس المجمع المقدّس، يعلمه فيها عن صعوبةِ مهمّته في أديرةِ المتن والشوف، بسبب مداخلات الأمراء، وبعض المطارين الموارنة في رومه الذين يشدّدون الرهبان العصاة قائلين لهم إنّ النيحاوي هو الرئيس الشرعي.

٤٠ . وهناك أيضاً إستغاثة من ٤١٥ راهباً إلى الأب الأقدس، يرفضون فيها السلطة التي عيّنَها القاصد الرسولي والزائر الرسولي بموافقة رئيس المجمع المقدّس. ويلتمسون من الأب الأقدس إعادة النظر بأحوال الرّهبانيّة لما وصلتْ إليه، وأن يعيّن سلطةً جديدة غيرَ التي سمّاها القاصد.

٤١ . في هذا العهد، وبالرّغم من الخضّات والتحزّبات، استمرّتِ الرّهبانيّة تنمو وتزدهر. فأنشأتْ، سنة ١٨٥٦، أنطش يافا. وفي السنة التالية، أنشأتْ أنطش بعلبك، وطاحونَ دير مار الياس في

نهر الكلب. وسنة ١٨٥٨، أنشأتْ مدرسةَ وادي جزّين. وفي السنة التالية، زادت في ديرَي الجديدة ومار يعقوب الحصن.

٤٢ . في ١٤ /١٢ / ١٨٥٨، "توفّي بنسمة القداسة في دير مار قبريانوس كفيفان، المدبّر الشهير بتقواه الأب نعمة الله كسّاب الحرديني، ودُفن في مقابر الدير المذكور. وتعيّن مكانه مدبّراً رابعاً، الأب نعمة الله القدوم الكفري، كاتب سيرته الطاهرة. وبعد سنة من دفنه أُخرج جسده من المدفن، بإذن الرؤساء، ولم يلامسْه فساد. وقد منح الربُّ بشفاعته أشفيةً عديدة"[169].

خاتمة

٤٣ . في الختام نقول: لقد تميّزتِ الفترة التي عاش فيها الأب نعمة الله الحرديني في الرّهبانيّة بنموٍّ وازدهارٍ في كلّ شيء، وباضطراباتٍ داخليّة وخارجيّة في كلّ مكان. والرّاهبُ، مِثلُ كلّ لبناني، "من طبيعته حبّ الاستقلال والانتفاض على كلّ سلطة تحدُّ من استقلاله، وتنال من كرامته"... وقد يدفعه عشقُه للحريّة الى الانقسام، مرّة ومرّتَين وثلاثاً وأربعاً، إلى إن ينالَ حرّيّته.

٤٤ . وبالفعل، حدثت انقساماتٌ في الرّهبانيّة، منذ نشأتها: بين المؤسِّسين أنفسهم، سنة ١٦٩٨؛ وبين الرؤساء والمرؤوسين، سنة ١٧٤٢؛ وبين حلبيّين ولبنانيّين، سنة ١٧٧٠؛ وبين موالين ومقاطعين، سنة ١٨٣٢؛ وبين سلطتَين عامّتين، سنة ١٨٥٦؛ وبين مقاطعات خمسٍ

169 نقلاً عن روزنامة دير كفيفان، بيد "كاتب سيرته" الأب نعمة الله قدّوم .

يتولّى شؤونَ كلِّ واحدةٍ منها أحد أعضاء السلطة العامّة. وبهذا وجدتْ راحتَها بعضَ الشيء إذ أولتْ لكلِّ مدبِّرٍ سلطةً على أديار "مقاطعته" وإدارتها تكاد تكون مستقلّةً عن سلطة الأب العام.

٤٥ . هذا في الدّاخل. أمّا ما حدث في الخارج من ثوراتٍ دمويّة، ونهبِ أديار وإحراقها، وقتلِ رهبان، وجوعٍ وبؤس، وضيقٍ واضطهاد على المسيحيّين كافّة... فقد دفع المسؤولين في الرّهبانيّة على أن يعالجوا شرَّه بفطنة بالغة. فهم، إن لم يعالجوا الأمور، بحكمة ودراية، فإنّ انعكاسها عليهم وعلى الرّهبانيّة سيكون وخيماً. وإنْ تدخّلوا في كلّ ما عليهم أن يصنعوه للنّاس، فإنّ خطر فقدان مميّزات الحياة الرّهبانيّة سيكون أعظم. والإثنان حصلا.

٤٦ . زد على ذلك مآرب أصحاب السلطة الكنسيّة، من بطاركة ومطارنة، وقصّاد رسوليّين، ورهبان غربيّين، إذ كان لهم رغبةٌ شديدة في بلبلة الرّهبانيّة ليضعوا يدَهم عليها. وهو ما حدث منذ نشأتها. وعظم جدًّا في عصر الحرديني الذي شاهد تدخّلاتٍ سافرة، وتعيين سلطات عامّة، ومداخلاتٍ في كلّ شاردة وواردة. حتى بات لجوء الرّهبان إلى الشكاوى والاستغاثة بالكرسي الرسولي شيئاً مألوفاً، فيما لم يكن يُعرف ذلك في العهود السابقة.

٤٧ . ولا يخفى على أحد ما لمحبّي الرئاسات والتسلّط من شرٍّ في المجتمعات البشريّة، روحيّةً كانت أو زمنيّة. وللحدّ من هذه السيّئة، كانت الرّهبانيّات، ودساتير كثيرة في دول العالم، تحرّم التجديدَ

للرؤساء الأعلَين. وقد نقول بأنّه لولا هذه السيّئة لما استطاع أحدٌ من خارج الرّهبانيّة أن يؤثّر على مسيرة الحياة الرّوحيّة فيها.

٤٨ . ومع هذه المتاعب كلّها، الداخليّة والخارجيّة، لم يبخلِ الرّوحُ على الرّهبانيّة برهبانٍ اشتهروا بقيادتهم، وبآخرين برعوا في حقول العلم والأدب، وبآخرين سطعوا بقداسةِ سيرتهم، وبآخرين تركوا العالم ودخلوا المحابس وانقطعوا إلى الله. من هؤلاء الحبساء يذكر الأب ليباوس داغر التنّوري، مع ما أضفناه إلى كتابه القيّم[170] حوالي الستين حبيساً. أكثرهم كان في زمن الحرديني، في محابس أديرة قزحيّا، وحوب، وعنّايا، وميفوق، والقطّاره، وطاميش، ومشموشه.

٤٩ . بيد أنّ مدرسة الحرديني لم تكن استحباساً ولا انقطاعاً عن العالم. لقد عزم على أن يتقدّس في الدير. وشاء أن يقولَ لنا بأنّ العيشَ في الدّير، مع إخوته، في خدمتِهم، ومحبّتِهم، والتفاني من أجلهم، وكسرِ إرادتِه، وتلبيةِ رغباتهم، وأوامرِ رؤسائه، و التجرّد عمّا يظنّه له تجرّداً كاملاً، وإتقانِ أعماله اليوميّة العاديّة، وحفظِ القوانين والفرائضِ، وإماتةِ رغبات النّفس، والمشاركةِ في الإدارة، وتحمّلِ المسؤوليّات، والتفتيشِ عن الله في كلّ دقائق الحياة، وعيش التّوبة الصادقة، وممارسة فضيلتَي الصبر والاحتمال... هذا، بالإضافة إلى ممارسة التأمل والصلوات والمشاركة الفعليّة في مائدة الشكران... كلّ هذه،

---

170 الأب ليباوس داغر، كاتب أسرار الرئاسة العامّة اللّبناني، **كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء**، طبعة أولى ١٩٢٣، طبعة ثانية، تقديم وتحقيق ا.جوزف قزّي، سلسلة التراث الماروني، ٤، الكسليك ١٩٨٨، ١٥٠ صفحة.

عاشها الأب نعمة الله كسّاب الحرديني بوعي ودقّة وشفافيّة، فكانت وسيلةً فعّالةً لقداسته. وهي نفسها تكون أيضاً وسيلة لكلّ مسيحيٍّ مؤمنٍ ملتزمٍ يعيش في العالم.

٥٥

قداسة الحبيس أثناسيوس الصغبيني

(ت ٣٠ /١١ /١٨٨١)

١

إنْ كنّا لا نعرف عن بشاره جرجس بو مارون الصغبيني سوى القليل القليل من محطّات حياته، فإنّنا، من دون شكّ، نعرف عنه الآن، بعد بلوغه ما بلغ من القداسة، ومحبّة الله والناس، ما لا يُعرَف إلاّ عن القلّة القليلة من النّاس.

مع القدّيسين، ومعهم فقط، نستطيع العودة إلى الوراء، إلى البدايات، لنعرف ما يجب أن يُعرَف من حياة غنيّة بالأسرار والمعجزات والفضائل الكثيرة.

عن القدّيسين عادةً نجهلُ الكثير من حياتهم. نجهل أعمالَهم وموضوعات تأمّلاتهم. نجهل كيفَ غاصوا في سرِّ الله ومخلوقاته في هذا الكون العظيم. كثيرون منهم لم يصنعوا شيئاً في الأرض يُذكر: لا مشاريع عمرانيّة قاموا بها، ولا وظائف عالية خدموا فيها، ولا رئاسات أو سلطات استفادوا منها.

القديسون أناسٌ عَبروا. كانوا وكأنّهم لم يكونوا. قد يُلامون على تركهم العالم، وقضاء عمرهم في الزّهد، والنسك، والسهر، والإماتات

المتواصلة، وقهر النفس والجسد، وضبط الأميال والرّغبات، والتأمّل بأمورٍ ماورائيّة لا تفيد أهلَ الأرض.

هؤلاء، في نظر أهل هذا الدهر، أنانيّون، ما اهتمّوا إلاّ بنفوسهم. تركوا الأهلَ والأصحابَ والأحباب. هربوا من تحمّل المسؤوليّات. رفضوا خدمة المجتمع. لم يجاهدوا في شيء ولا من أجل أيٍّ شيء. وحتّى لم يتنعّموا بشيء خلقه الله لهم.

ولكن، مع جهلنا الكبير لحياة القدّيسين وأعمالهم، يحقّ لنا، بعد الذي وصلوا إليه، أن نذهب بعيداً في اكتشاف سرّهم. ويحقّ لنا أن ندخل زوايا عقلهم، ونتجسّس على نبضات قلبهم، وخفايا ضميرهم، وحياتهم الشخصيّة الحميمة.

أمّا مع غير القدِّيسين فأشياء كثيرة لا يحقّ لنا معرفتها، أو البحث فيها. لا يجوز لنا نبشَ زوايا حياتهم الخاصّة، ولا النظر إلاّ في الأمور التي اعتلنوا فيها وقدّموها لنا. فكم من أمورٍ، إذا شئنا كشفَها عند غير القدِّيسين ما يُشكِّك. وكم علينا أن نعبر عنها سريعاً.

مع القدّيسين يحقّ لنا، إنْ لمْ نعرفْ شيئاً عن حياتهم العاديّة، أن نعرف سرّ ما وصلوا إليه.. وأن نعرف سرّ هذا الجسد الذي لم يُترك له مجال ليتنعّم بما أنعم الله به عليه.

نريد أن نتجوّل في غرف القدّيسين، لنعرف ما كانوا يأكلون؟ وعلى ما كانوا يرقدون، وكيف كانوا يصلّون، وفي أي كتاب كانوا

يقرأون، وبأيّة موضوعات كانوا يتأمّلون، وما هي أدوات عملهم التي بها كانوا يشتغلون.

الحياة العاديّة التي عاشها القدّيسون ليست بسيطةً إطلاقاً في ما أدّتْ إليه من روحانيّة تتحدّى ملائكيّة الملائكة. هذه الحياة اليوميّة العاديّة ليست عاديّةً في ظاهرها؛ إنّما هي بطولات خارقة في ما آلتْ إليه من حصر الشرّ الموجود في العالم، ليسهل عليهم الانتصار عليه.

مع حصْر الشرّ هذا، نصل، مع القدّيسين، إلى عمق أعماق حياتهم، وغاية غايات مبتغاهم : القدّيسون، في الحقيقة، لا يريدون سوى محاربة الشرّ وحصر امتداده. هذا يعني أنّهم لا يريدون إلاّ نشر الخير والقداسة في هذا العالم.

هذه هي المسألة كلّها.

إذا شئتَ أن تكتبَ سيرةَ أحد القدّيسين النسّاك، فإنّك تعجز أن تكتب ما تملأ به صفحة واحدةً من كتاب. حياة النسّاك ولو بلغت خمسين عاماً هي هي كأنّها حياة يوم واحد :

يقوم الحبيس في الصباح الباكر، بعد نومٍ لم يخطف منه أكثر من أربع ساعات، ويبتدئ بالتأمّل بمآتي الله، ويُقيم الصلوات الطويلة ساجداً، باكياً ملء عينيه على هفواتٍ صغيرةٍ سقط فيها. ثمّ يحتفل بالقدّاس بانخطاف كلّيّ وكأنّه يناجي الله مناجاة حبيبٍ لحبيبه. وتمتدّ مرحلة الشكران ساعات وساعات. ثمّ يبتدئ بعمل يدويّ أو فكري، مفكّراً بعظمة الله ومحبّته الفائقة للعالم تفكيراً مستديماً.

وإذا ما بلغ به الوقت الساعة الثانية ظهراً، يتناول قليلاً من المآكل العشبيّة التي لا طعم لها ولا لذّة فيها. ثمّ يعود إلى العمل ما دام ضوء النّهار يسمح له بذلك. ثمّ يعود إلى قلاّيته ساجداً خاشعاً مصلّياً حتّى يحين وقت رقاده. عندئذٍ يخلد إلى النوم، ولكن على فراشٍ من خشب، وعلى وسادة من حجر، تفيد نوماً ولا تفيد راحةً.

أمّا ما يتعرّض له النسّاك القدّيسون في حياتهم العاديّة البسيطة من تجارب شيطانيّة فهي لا تُعدّ ولا تُحَدّ. ولكأنّ الشياطين لا تجد لها عملاً جدِّيًّا متواصلاً إلاّ هنا، في مناسك الحبساء. هنا تنشط بكلّ قواها.. وعلى الحبيس ألاّ يتراخى لحظة. وكلّما شدّد على نفسه، كلّما اشتدّت التجارب وكثرت.

وأقولها بصراحة: تعود تجارب الحبساء إلى انتقام الجسد الذي يريد استعادةَ ما حُرِم منه: شهوات في شهوات تلي شهوات.. تجول في خاطر الحبيس صورٌ لو أظهرها لرسّام بارع لفتنَ الدنيا بألوانها وأشكالها.. ولكنّ الحبيس يجالد ويقاتل حتّى الرمق الأخير. وكلّ تجربة في كلّ يوم بكلّ لون.

هذا ناهيك عن تجارب الإيمان التي لا تقف عند حدّ. حتّى الله نفسه يُصبح في المحبسة معرَّضاً للنكران والجحود. ومَن يستطيع أن يوقف عقل الناسك عن طرح مسائل لا تخطر ببال، وعن شكوكٍ تحيّر العقل، وعن تجاريب تخضّ الكيان!

وحدَهم البلهاء لا يتساءلون ولا يشكّون. وحدهم المطمئنّون

يقبضون على الله ويعرفونه وكأنّه بحجم عقولهم... أمّا القدّيسون فيشكّون ويحتارون ويتساءلون. وهم، إلى آخر حياتهم، في عمليّة بحثٍ عن الله والحقيقة بلا هوادة.

و تجربة التجارب هي الكبرياء. كم من حبيسٍ جاهد وقاتل وتقشّف وصلّى وصام وسهر، فوجدَ نفسَه أهلاً لأن يصيّر الله طوعَ إرادته. فكان، لفرط اعتداده بنفسه، هو الذي يجرِّبُ الله ويطلب منه ما لا يُطلب. ويريد منه أن يجري العجائب على يده... إلاّ أنّ المسكين كان يسقط سقوطاً مريعاً. الكبرياء تجربة النسّاك الكبرى. وعليهم أن يعالجوها بتؤدة، ويضبطوا حدودَ طموحهم.

***

الحبيس النّاسك الزّاهد، أثناسيوس الصغبيني، الرّاهب اللّبناني الماروني، الذي نبش الإستاذ اسكندر شديد الصغبيني، بعضاً من حياته، هو من هؤلاء الذين جمعوا سني حياتهم في يوم واحدٍ، يومٍ عنوانُه : انقطاعٌ عن العالم من أجل العالم.

لا نطلب من الصغبيني الأوّل غيرَ ما هدف إليه من انقطاعِه هذا؛ كما لا نطالب الصغبينيَّ الثاني بما لم يتوفّر له من حياةِ مَن يريد أن يعرّفنا عليه.

ومع هذا، نستطيع أن نعرف جيّداً، بعدما وجدْنا الحبيسَ الصغبيني يصلُ إلى حيث شاء أن يصل، ما معنى الانقطاع عن العالم

من أجل العالم، وما كان يجول في أعماقِ أعماقه من أفكارٍ وقِيمٍ وفضائل يمارسها على أكمل ما يكون.

لقد سار الصغبينيُّ الحبيس على طريق القداسة، وأبدع، يعني أن الصغبينيَّ الكاتب يستطيع أن يكتبَ عنه كتباً ومجلّدات ويُبدع. فالقداسة بحرٌ غنيٌّ لمن شاء أن يعرف عنها وعن أصحابها شيئاً. ويلوم الصغبينيُّ الكاتبُ نفسَه إنْ لم يُحسن الغوصَ والسباحة وصيد اللؤلؤ والمرجان في بحرِ القدّيسين.

بعضُ معلوماتٍ عن الحبيس الصغبيني، وعن يومٍ واحدٍ من انقطاعه وقداسته، تكفي لكاتبٍ، كشديد، أن يستلهمَ من حياة أهلِ بلدته، ومن سِيَر الرّهبان وقوانين الحبساء، ويستنطق محبسةَ مار جريس، في دير حوب-تنّورين، ليعرف ويكتب ويستفيض ويبدع.

في ديرِ مار أنطونيوس حوب، البعيد عن الناس؛ وفي محبسة مار جريس البعيدة عن الدّير، والمغمورة بأشجار الصنوبر والسنديان والحَور والجَوز، والرابضة في وادٍ منحدرٍ تحت قمم جبل غَيمون الشاهقة، عاش الصغبيني خمسين سنة من النسك والزهد والتقشّف والانقطاع عن العالم، منسيًّا حتّى من أهله. ومات عن عمر يفوق التسعين.

ولكنّه، ما أن مات حتّى خرج من عالم النسيان. فراحتْ قداستُه تُضيء، وأنوار قبره تشعّ، وتتكاثر المعجزات، وتعمّ الخيرات. النّاس عليه يتوافدون. لكأنّ توافدهم عليه كان انتقاماً من ذلك النسيان. لذلك

طلبوا وطالبوا بأن يستمرّ جثمانُه تحت أنظارهم ليقبّلوا يدَيه ويتباركوا منه، ويطلبوا ما يشاؤون. وكان يلبّي. ورهبان الدِّير أيضاً استجابوا للناس في إبقاء الجثمان معروضاً من حين وفاته في ٣٠ /١١ /١٨٨١ حتّى ٢٤ /١١ /١٩٢٦، أي حوالي خمسٍ وأربعين سنة. هي، تقريباً، مدّة نسيانه في انقطاعه عنهم.

وكانت العجائبُ تتكاثر، والنّاس يقصدونه. ولكنّه لم يحظَ بما حظي به إخوته ورفقاؤه شربل ونعمة الله ورفقا؛ شأنّه شأن قراعلي والبتن وحليحل والجميّل وأبي غصن والحدَثي ونعمه ومئات من أبناء الرهبانيّة اللبنانيّة غيرهم.

وكأنّ هذه المآثر أمورٌ مألوفة في رهبانيّة القدِّيسين، فلم يبالِ رهبانُ الصغبيني كثيراً لأعماله المذهلة. فلم يتحرّكوا باتّجاه روما، ولا باتّجاه بكركي، لكي ينظروا في سيرته العطرة وفي أعماله العجائبيّة..

وكاد الصغبيني يُنسَى حقًّا، لولا "كشْفُ الخفاء عن محابس لبنان والحبساء"؛ لكاتب أسرار الرّهبانيّة الأب ليباوس داغر[171]، ولولا بعض المسنّين من القرى المجاورة لدير حوب؛ ولولا الاستاذ شديد، إبن بلدته، الذي بحث، ونقّب، ورحل، واستنطق المعالم الباقية، واستنبش خرائب المحبسة، واستخرج بعض المعلومات الضئيلة من بعض الوثائق البالية التي قد تشير من قريب أو بعيد إلى شيء عن الصغبيني.

---

171 الأب ليباوس داغر، **كشف الخفاء عن محابس لبنان والحبساء**، تقديم الأب جوزف قزّي، التراث الماروني، سلسلة رهبانيّات، رقم٤، الكسليك، ١٩٨٨.

شاركتُ الاستاذ شديد في القليل القليل من همّه، وقصّرتُ عنه في الكثير الكثير من البحث والتنقيب. وها هو يُخرج الحبيسَ من محبسته، ويقدّمه لنا شفيعاً للرّعاة والفلاّحين، كما كان عليه في بلدته قبل اعتناق الحياة الرّهبانيّة. عسانا نوفيه حقَّه وهمَّه، فنوفّر له معلومات جديدة، ليقدم على خطفة أخرى؛ ونقدّم نحن له كلَّ تقديرٍ واحترام.

٢

أخال الحبيسَ أثناسيوس الصَّغبيني غيرَ راضٍ اليومَ عن اسكندر شديد ابنِ بلدتِه، الذي اهتمّ بنشر حياته، ولا عليَّ أنا أيضاً، ولا عليكم أنتم المحتفون به كذلك. ولا أيضاً وأيضاً على وسائل الإعلام.

فالحبيسُ الذي تركَ الأهلَ والعيال، وزهد بالجاه والمال، واعتزل العالمَ وما فيه، وآثرَ النسيانَ والصمتَ والزهدَ والعيشَ في السرِّ والخَفاء، وقبضَ على زمامِ نفسِه وأميال جسدِه ما يقاربُ خمسين سنة، في محبسةٍ نائيةٍ، باردةٍ، منسيّةٍ، كان يَهمُّه أن يكون منسيًّا من العالَم، ومنقطعاً إلى الله انقطاعاً كلّيًّا.

كيف بنا اليومَ، والحالُ هذه، نَحتفي بذكرِ مَن آثر النسيان، ونتكلّم على مَن لاذ بالصمت، ونحتفل بمن عاشَ حياتَه كلَّها في الاختفاءَ، ونُظهرُ فضائلَ مَن كان يَعتبرُ نفسَه آخرَ الناس، ونُكرّم ذاك الذي ابتعدَ عن كلّ تكريمٍ وعزٍّ وجاه، ونُخرجُ مِن القبرِ مَن مَضى عليه أكثرُ من مَائة وعشرين سنة!!.

أيحقّ لنا أن نُخرجَ من النسيان مَنْ لمْ يشأْ في حياته إلاّ النسيان؟!

ألا يقول لنا الصَّغبينيُّ الحبيس : إنّني حرمْتُ نفسي من كرامات الدنيا كلِّها؛ فلماذا أنتم تُعيدونَ لي اليومَ ما حَرمتُ منه نفسي؟! لماذا تلاحقونني إلى ما بعد موتي؟! لقد كان في وَكدي أن أريحَكم منّي، فلماذا لا ترتاحون منّي؟! لو كنتُ أرغبُ بشيءٍ من الدنيا لبقيتُ معكم، ونِلتُ منها ما تَنالون من ذِكرٍ، وأهلٍ، وعيالٍ، وأموالٍ، وأمجاد!! لكنّني انقطعتُ عنها كلِّها، وآثرتُ حَبْسَ نفسي لكي لا يكون لي وجودٌ إلاّ في الله.

***

ولكن، مَهلَكَ يا أبانا الحبيس! فأنتَ، بعد موتك، لستَ بعدُ مُلكَ نفسِكَ؛ بل أصبحتَ مُلكَ الجميع. لستَ مُلكَ أهلِك، ولا بلدتِك، ولا رهبانيّتِك، ولا ديرِك أو محبستِك. بل أنتَ، بتجرّدِك عن نفسِك، تجرّدتَ أيضاً عن أن تكون مُلكَ نفسِكَ. كنتَ في حياتِكَ لا تعملُ إلاّ لله؛ ولكن، بعد سكناكَ في جِوارِ الله، أصبحتَ، كالله، مُلكَ الجميع. لهذا، يحقّ لنا، بعدَ أن أصبحتَ ملكَ ربِّكَ، أنْ نتكلّمَ عنكَ، ونقولَ للناس مَن أنتَ! فلا لومَ علينا بما نعمل، ولا خوفَ عليكَ حيثُ أنتَ.

يحقّ لاسكندر شديد، الصديق الحبيب الكبير، الوفيّ، لصَغبين وللرَّهبانيّة، دخولُ حبْسِكَ، وكشفُ الخفاء عنك، والاحتفاءُ بكَ؛ لأنّ بمثل هذا الذي كتبَه ويكتبُه، يُعرِّفُ النَّاسَ إلى الله أكثر؛ وبمثلِ هذا يمجِّدُ الناسُ الله تمجيداً متَّصِلاً..

يحقّ له أن يُقيمَكَ اليومَ من بين الموتى، ويَنفُضَ عنكَ غبارَ

النسيان، ويُعلِنَ ما أخفتِ المحبسةُ من سرِّكَ، ويَستنطقَ الكتبَ وروزناماتِ الأديار وتواريخَ الرهبانيّة، وينقِّبَ في خرائبِ المحبسة المهدّمة، ويتسلّقَ الشيرَ حيث قبرُك محفورٌ في الصخرِ، قبالةَ مدخل الدير، بين أشجار الجَوز والحَور والسنديان والصنوبر، ويُطارِدَكَ حتّى في دير النبطيّة، ودير سيّدة الشوف في مشموشة، ومزرعة جبل طورا التابعة له، ويسألَ كلَّ راهبٍ يمكن أن يَفيدَه عنكَ أمراً.

٥٦

قداسة الأخ أسطفان نعمه

(١٨٨٩-١٩٣٨)

١ . هو يوسف بن إسطفان نعمة وكريستينا البدوي من قرية لحفد في جبال بلاد جبيل.. هو صغير العائلة المؤلّفة من أربعة شبّان: نعمة الله، سركيس، هيكل، ويوسف؛ ومن شقيقتَين: توفيقة وفروسينا.

٢ . ولد يوسف في ٨ أذار سنة ١٨٨٩.

٣ . اقتبل سرّ العماد بعد أسبوع من ولادته، في كنيسة السيّدة في لحفد، على يد الخوري جرجس فاضل. وكان عرّابه طنّوس البدوي يوحنا، وعرّابته حرمة طنّوس بو شبلي.

٤ . تعلّم مبادئ القراءة، فكان يُرى يقرأ في كتاب صلاته الصغير (الشبيّة)، الذي لا يفارق جيبه.

٥ . وكان يرعى البقر في الحقول المتاخمة لبيته الوالدي.

٦ . وكان يتردّد دائماً على معبد مار سابا ويصلّي.

٧ . مرّةً، بينما كان يوسف في الحقل، رأى حيواناً برّياً صغيراً، يُسمّى "غرَير"، فتبعه. دخل الغرير مغارةً محفورةً في

الأرض، ولاحظ يوسف أنّ هناك آثار مياه في هذه المغارة، فعمل على نبشها، وأخرجها من جوف الأرض؛ وأصبحت نبعة تُعرف إلى اليوم بـ "نبع الغرير".

٨ . فقد والدَه سنة ١٩٠٣، ووالدتَه سنة ١٩١٤.

٩ . بعد سنتين من وفاة والده، وكان له من العمر ١٦ سنة، دخل يوسف دير مار قبريانوس ويوستينا كفيفان لينخرط في سلك المبتدئين في الرّهبانيّة اللّبنانيّة المارونيّة.

١٠ . وبعد أسبوع لبس ثوب الابتداء، واتّخذ له اسم إسطفان، تيمّناً باسم والده، وتشفّعاً بشفيع قريته لحفد. وكان معلّم المبتدئين آنذاك الأب اغناطيوس داغر التنّوري -الذي أصبح رئيساً عامّاً فيما بعد-، ورئيس الدّير الأب يواصاف الكفوني، والرئيس العام الأب يوسف رفّول الإجبعي.

١١ . وكان جمهور دير كفيفان يتألّف، في بداية سنة ١٩٠٥، من ١٦ راهباً : ستة كهنة، منهم الأب نعمة الله الكفريّ، الذي عايش القدّيسَين : نعمة الله الحرديني وشربل مخلوف، وكان مشهوراً بعلمه وتقواه، كما أصبح رئيساً عامّاً على الرهبانيّة بعد ذاك (١٩٠٢-١٩٠٤)؛ وعشرة إخوة عاملين؛ بالإضافة إلى ١٧ مبتدئاً.

١٢ . أبرز الأخ أسطفان نذورَه الرهبانيّة في ٢٣ آب سنة ١٩٠٧، وكان له من العمر ١٨ سنة. وكان رفاقه في النذر خمسة إخوة، منهم: الأخ يوسف أبي غصن الجبيلي، الذي تميّز بقداسته،

والإخوة: بولس البلوزاني، وابراهيم اللحفدي، وأنطونيوس البلوزاني، واغناطيوس البزعوني.

١٣ . أتقن الأخ أسطفان، بعد مرحلة الابتداء، مهنة النجارة، حتّى كان يُقال عنه: "الأخ أسطفان ما في يدشِّر المنشار، بتبرد مسكتو".

١٤ . ثمّ، مع النجارة، أمضى الأخ أسطفان حياتَه في الرهبانيّة عاملاً في الجنائن والكروم. وكان معروفاً ببنيته الجسديّة القويّة.

١٥ . بعد نذره في دير كفيفان، نُقل الأخ أسطفان إلى دير ميفوق، حيث أمضى فترة طويلة، قد تفوق ٩ سنوات.

١٦ . بعدها نُقل إلى دير مار شلّيطا القطّارة، وأقام فيه حتّى سنة ١٩٣٠.

١٧ . ثمّ نُقل إلى دير سيّدة المعونات- مركز الرئاسة العامّة، والإخوة الدارسين- حيث مكث حتّى بداية سنة ١٩٣٨.

١٨ . وعندما تعيّن الأب أنطونيوس نعمة اللحفدي رئيساً على دير كفيفان، أخذ معه الأخ أسطفان. وكان ذلك في شباط ١٩٣٨. واستمرّ الأخ أسطفان يعمل في أرزاق دير كفيفان حتّى تاريخ وفاته في ٣٠ آب سنة ١٩٣٨، عن عمر ٤٩ سنة.

١٩ . كتب عنه رئيس الدير، الأب أنطونيوس نعمة اللحفدي، في روزنامة الدير، باب الوفيّات، ما يلي :

رقم ٢٢- الأخ أسطفان نعمة اللحفدي. عمره ٤٩ سنة.

" غادر هذه الفانية، نهار الثلاثاء، الساعة السابعة مساءً، في الثلاثين من آب، سنة ألف وتسعماية وثمانية وثلاثين، سنة ١٩٣٨، وكان أخاً عاملاً نشيطاً غيوراً على مصلحة الدير، قويَّ البنية، صحيح الجسم، مسالماً، بعيداً عن الخصومات، قنوعاً.

" وكان يتعاطى الأشغال الخارجيّة في الحقل، فطناً بالأعمال اليدويّة، محافظاً على واجباته ونذوراته، قائماً بما عُهد إليه أحسن قيام.

" وقبل وفاته ببضعة أيّام، ذهب إلى دير ميفوق بخصوص تحديد الأراضي، لأنّ الرهبنة كانت اشترت من بعض شركاء دير ميفوق بعضَ أملاك الحرب. وكان رحمه الله أن ذاك (آنذاك) في دير ميفوق، كانت (الأملاك) تخصّهم (أي الشركاء). وفي الخريف الماضي، ثار الشركاء المذكورون على الرهبنة، وادّعوا ملكيّة كلّ أراضي الدّير. فاضطرّت الرهبنة إلى إثبات ملكيّتها وتقريرها، فاستدعتْ لجنة المساحة لمسح أراضي الدير، ولأنّ البائعين كانوا قد أخفوا التخوم، ليختلسوا ما باعوا. فدُعي، رحمه الله، إلى هناك ليدلّهم على التخوم. وكان لم يزل يعرفها تماماً. فرُفع التراب عنها، فبانتْ كما كان وقع الاتّفاق عليها حين البيع. فأثّر فيه الشوب، فأصابتْه وعكةٌ صحّيّة بسيطة، تلاها دورُ حمّى، ثمّ سكتة دماغيّة، كانت فيها نهاية حياته. رحمه الله".

٢٠ . دفن الأخ أسطفان في مدفن دير مار قبريانوس ويوستينا،

كفيفان. وبقي جثمانه، سنة ١٩٥١، لا يزال سالماً، محفوظاً في مدافن الرهبان. وكتب رئيس الدير آنذاك، الأب طوبيّا زيادة في روزنامة الدير، باب الوفيّات، واصفاً جثمان الأخ أسطفان وكيفيّة نقله من المدفن إلى مكان خصوصيّ. قال :

" بمناسبة فتح المقابر لدفن المرحوم الأب يوسف الصوراتي، وجدنا جثّةً كاملة، لها هيئة الإجلال والإكرام، تدلّ على جسم إنسان راهب، مات في ربيع الحياة. له ذقن مائلة إلى السواد أكثر منها إلى البياض، إلاّ بعض شعرات في مقدّمة الشفة السفلى. يدان تتحرّكان، وعينان مغمضتان، وثيابه لم يدخلها السوس، ولم يتآكلها الهري. وقد عرضناها إلى الهواء لعلّها تفسد من الجوّ الخارجيّ، لم يصبها شيء، بل زادت إجلالاً وبياضاً في الوجه. فعرف الجوارُ بهذه البادرة، فأسرعوا للتبرّك منها، فمنعها حضرة رئيس الدير من الظهور إلى الخارج، ومنع كلَّ مَن يأتي لينظر إليها من داخل المقبرة، بل أحكم تسكير المقبرة، ووضع المفتاح في غرفته. وهذه الجثّة هي الأخ أسطفان نعمة اللحفدي، المتوفّي في ٣٠ آب سنة١٩٣٨. وكان وقت نبشها في العاشر من آذار سنة ١٩٥١.

تحريراً في ١١ آب سنة ١٩٥١.

كاتبه الأب طوبيّا زيادة اللبناني، رئيس الدير ".

***

٢١ . مع إسطفان نعمة (الأخ العَمَليّ) نجد وجهاً آخر من وجوه

القداسة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة. لم يكن متعلّما ً مثقّفاً كالحرديني، ولا ناسكاً حبيساً كشربل، ولا مصلوباً على جلجلة الآلام كرفقا. إنّه نهج جديد : أخ عامل، نشيط، يتّكل على جهده وتعبه وعملِ يدَيه ليقدّس نفسه.

عُرِف عن الأخ إسطفان العامل أنّه، بعمله المتواصل، مارس التوبةَ والمحبّة والخدمة المجّانيّة، فراح يُصلّي في عمله، ويشغل وقتَه، ويقدّم التضحيّات من أجل خدمة رهبانيّته.

ولم يُعرَف عنه إطلاقاً أنّه كان يتذمّر من عمل، أو يشتكي من تعب، أو يرفض خدمة، أو يسعى، من خلال عمله، إلى أيّ مجدٍ عالميّ، أو ربح مادّي، أو يتصرّف حرّاً بما ينتجه من عمله.

لقد كان الأخ إسطفان مثالَ الإخوة العمَلة في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، الذين قامت أرزاق الرهبانيّة على سواعدهم، واتّسعت أملاكها بفضلهم، ونمت محاصيلها من جهدهم، وازدهرت الأديار بوجودهم وحضورهم الدائمَين فيها. إنّهم الوجه الحقيقي الصافي للحياة الرهبانيّة.

٢٢ . لقد انتهى عهد الإخوة العملة في الرهبانيّة، أمثال الأخ إسطفان، فحصل تراجع وتأخّر في مسيرة النموّ والازدهار والتوسّع. فأثّر ذلك كثيراً على الوجود المسيحيّ في لبنان، وعلى فاعليّة الرهبانيّة في المجتمع، وعلى رسالتها أيضاً.

يسير الأخ إسطفان، وأمثاله من العملة في الرهبانيّة، أكانوا اليوم

عملة في الأملاك والأرزاق، أم كانوا حملة أقلام ورسالة علم وتعليم، أم كانوا نسّاكاً زهّاداً متقشّفين... كلّهم يسيرون في محبّة الله والرهبانيّة على طريق القداسة. والمتخلّفون عن هذا الركب ينالون أيضاً عطفَ الله بفضل إخوتهم القدّيسين، أمثال إسطفان ومَن سبقه.

الفصل الثامن

الحياة الرهبانيّة في الإسلام

٥٧ . الحياة الرهبانيّة في القرآن وتفاسيره

٥٨ . دور الرهبان في سيرة النبيّ محمّد

٥٧

الحياة الرهبانيّة في القرآن وتفاسيره

مقدّمة

عرف محمّد والقرآن والمسلمون الحياةَ الرهبانيّة والرهبان والأديار معرفةً مباشرة. وكان لهم معهم علاقات كثيرة ومواقف واضحة. لقد عرفوا مقوّمات الحياة الرهبانيّة، بأنّها تقوم، بنوع خاصّ، على التبتّل والزهد والعيش المنفرد والصلوات المستمرّة في الصوامع والأديار. كما عرفوا أسماء العديد من الرهبان، وكان لهم معهم صداقات وحوارات في شؤون كثيرة. وكذلك عرفوا جيّداً الأديار، فدخلوا حرَمها، ووصفوا ما فيها، وشربوا نبيذها، واستظلّوا جنائنها..

هذه المعرفة أشار إليها القرآن مراراً؛ وقد كان محمّد نفسه، ومنذ طفولته، على علاقة جيّدة ومعرفة واسعة بالرهبان. هذه المعرفة توسّع فيها المسلمون، المفسِّرون والمؤرِّخون والصوفيّون وغيرهم. فجاءت ذات تأثيرٍ مهمٍّ على الحياة الروحيّة والدينيّة والفكريّة في الإسلام؛ إلى درجةٍ أنّ أموراً كثيرة في الحياة الفكريّة الإسلاميّة لا تُفهم إن لم نعطِ لهذا المصدر الرهباني بعدَه وأهمّيّتَه.

على هذا، لا بدّ أوّلاً من نظرة إلى الرهبانيّة في القرآن وتفاسيره:

ذكر القرآن "الرهبانيّة" و"الرهبان" أربع مرّات في ثلاث سور، هي: سورة المائدة (٥ /٨٢)، وسورة التوبة (٩ /٣١) و (٩ / ٣٤)، وسورة الحديد (٥٧ /٢٧)، حيث مدحهم ورفعهم مرّةً؛ وذمّهم وأنّبهم مرّةً أخرى.

قال في مدحهم: "وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إنّا نَصَارَى، ذلكَ بأنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكبِرُونَ" (٥ / ٨٢). ثمّ قال بأنّ الرّهبانيّة، التي التزمها النصارى ورعوا حقَّها آتاهم الله عليها أجراً عظيماً (٥٧ /٢٧).

أمّا الآيات الطاعنة بالرهّبان فهي لا تطعن بالحياة الرهبانيّة نفسها، بل بالرهبان الذين يتَّخذهم النصارى "أرْبَاباً مِنْ دونِ الله" (٩ / ٣١)، وبالرهبان الذين يأكلون أموال الناس، ويصدّونهم عن كلّ عمل صالح، ويكنزون الأموال، ولا يصرفونها في سبيل الله واليتامى (٩ / ٣٤).

فالقرآن، إذاً، لم يحرّم الحياةَ الرّهبانيّة بالمطلق، ولم يقف من الرهبان موقفاً واحداً من دون تمييز بين مَن "لا يَسْتَكْبِرون" وبين الذين "يأكُلُونَ أمْوَالَ النَّاس". وحديث: "لا رهبانيّة في الإسلام" حديث موضوع، لا سند له، باتّفاق معظم المستشرقين والمسلمين. أمّا الحثّ على النكاح فمن أولويّات القرآن.

هذا وقد ركّز القرآن أيضاً على ما له تأثيرٌ بالغٌ على الحياة الدينيّة في الإسلام إلى درجة أنّ أموراً كثيرة قد لا تُفهم في تعاليمه إن لم نعطِ لهذا الدور الرهباني بعدَه وأهمّيّتَه.

ولنفصّل أقوال القرآن وتفاسير أهمّ المفسّرين في هذه المواضع الأربعة التي تذكر الرهبانَ والحياةَ الرهبانيّة:

١ . سورة الحديد (٥٧ /٢٧-٢٩)

٢٧ . ثمّ قَفَّينا على آثارِهم برُسُلِنا، وَقَفَّينا بعيسَى ابنِ مريمَ، وآتَيناهُ الإنجيلَ، وَجَعَلْنا في قُلوبِ الذينَ اتَّبَعوه رأفةً ورحمةً **ورَهْبَانِيَّةً** ابتدَعوها. مَا كَتَبْنَاها عليهِم. إلاّ ابْتِغاءَ رَضْوَانِ الله. فَما رَعَوها حقَّ رِعَايَتِها فَآتَينا الذينَ آمَنوا منهم أجْرَهم. وَكثيرٌ منهم فاسِقون. **٢٨ .** يا أيُّها الذينَ آمَنوا! اتَّقُوا الله وآمِنُوا برسولِهِ يُؤتِكُمْ كِفْلَينِ من رحمتِه. وَيَجْعَلْ لكمْ نوراً تَمشُونَ به، ويَغفرْ لكمْ. والله غفورٌ رحيم. **٢٩ .** لئلاّ يَعلَمَ أهلُ الكتاب ألاّ يَقدِرونَ على شيءٍ مِن فضْلِ الله، وأنَّ الفضْلَ بيدِ الله يُؤتِيهِ مَن يشاءُ. والله ذو الفضْلِ العظيم".

* قال **الطبري** (ت٣١٠هـ /٩٢٣م) في **جامع البيان في تفسير القرآن :** يقول تعالى ذكرُه : **ثُمَّ قَفَّيْنَا** أي أتبَعنا **عَلَى آثَارِهِمْ** أي على آثار نوح وإبراهيم **بِرُسُلِنَا. وَقَفَّيْنَا** أتبعنا **بعيسَى ابْنِ مَريَمَ. وَآتَيْنَاهُ الإنْجيلَ. وَجَعَلْنا في قُلوبِ الّذينَ اتَّبَعُوهُ** أي الذين اتّبعوا عيسى على

منهاجه وشريعته، **رَأْفَةً** وهو أشدّ الرحمة، **وَرَحْمَةً، وَرَهْبَانِيَّةً** هي رفض النساء والزهد واتّخاذ الصوامع **ابْتَدَعُوهَا** أي: أحدثوها من قِبَلِ أنفسهم. **مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ** أي: ما افترضنا تلك الرهبانيّة عليهم، **إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله** أي أنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا** أي: لم يقوموا بها، ولكنّهم بدّلوا وخالفوا دينَ الله الذي بعث به عيسى، فتنصّروا وتهوّدوا...

فلمّا بُعث النّبيّ ولم يبق إلاّ قليل... آمنوا به وصدّقوه. **فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ.** وهم الذين آمنوا بي، وصدّقوني. **وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ** فهم الذين جحدوني وكذّبوني.

وبالجملة يقول الطبري: وأَولى الأقوال في ذلك بالصحّة أن يقال: إنّ الذين وصفهم الله بأنّهم لم يرعوا الرهبانيّة حقّ رعايتها، بعض الطوائف التي ابتدعتْها، وذلك أنّ الله جلّ ثناؤه أخبر أنّه آتى الذين آمنوا منهم أجرَهم. فدلّ بذلك على أنّ منهم مَن قد رعاها حقّ رعايتها. فلو لم يكن منهم من كان كذلك لم يكن مستحقَّ الأجر الذي قال جلّ ثناؤه: **فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ.** إلاّ أنّ الذين لم يرعوها حقّ رعايتها ممكن أن يكونوا كانوا على عهد الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم. **وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ.**

* وقال **الزمخشري** (ت ٥٣٨هـ/١١٤٤م) في تفسيره **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :** والرهبانيّة ترهّبهم في الجبال، فارّين من الفتنة في الدين، مخلصين

أنفسهم للعبادة. وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى، فقاتلوهم ثلاث مرّات، فقُتِلوا حتّى لم يبقَ منهم الاّ القليل. فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرّهبانيّة.. أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولم نفرضها نحن عليهم..

* وقال **الرازي** (ت٦٠٦هـ /١٢٠٩م) في **التفسير الكبير** : ... المراد من الرهبانيّة ترهّبهم في الجبال، فارّين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة، ومتحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد في الغِيران والكهوف...

روى ابن مسعود أنّه عليه السلام قال: "يا ابن مسعود! أما علمتَ أنّ بني إسرائيل تفرّقوا سبعين فرقة. كلّها في النار إلاّ ثلاث فرق: فرقة آمنت بعيسى وقاتلوا أعداء الله في نصرته حتّى قُتلوا؛ وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال، فأُمروا بالمعروف ونُهوا عن المنكَر؛ وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرَين، فلبسوا العباء، وخرجوا إلى القفار والفيافي؟!".

لم يعنِ الله بـ **ابْتَدَعُوهَا** طريقةَ الذمّ، بل المراد أنّهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال: **مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ**.

أمّا قوله : **إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله**، ففيه قولان :

أحدهما : إنّه استثناء منقطع، أي: ولكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله.

والثاني : إنّه استثناء متّصل، أي: إنّا ما تعبّدناهم بها إلاّ على وجه ابتغاء مرضاة الله.

والمراد أنّها ليست واجبة. فإنّ المقصود من فعل الواجب دفعُ العقاب وتحصيل رضا الله؛ أمّا المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب، بل المقصود منه ليس إلاّ تحصيل مرضاة الله.

أمّا قوله : **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**، ففيه أقوال :

أحدها : إنّ هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانيّة ما رعوها حقّ رعايتها، بل ضمّوا إليها التثليث والاتّحاد، وأقام أناسٌ منهم على دين عيسى حتّى أدركوا محمّداً، فآمنوا به، فهو قوله: **فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ. وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ**

وثانيها : إنّا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانيّة إلاّ ليتوسّلوا بها إلى مرضاة الله؛ ثمّ إنّهم أتَوا بتلك الأفعال، لكن لا لهذا الوجه، بل لوجه آخر، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة.

وثالثها : إنّا لمّا كتبناها عليهم تركوها؛ فيكون ذلك ذمّاً لهم من حيث أنّهم تركوا الواجب.

ورابعها : إنّ الذين لم يرعوها حقّ رعايتها هم الذين أدركوا محمّداً ولم يؤمنوا به..

* وقال **القرطبي** (ت٦٧١هـ /١٢٧٢م) في **الجامع لأحكام القرآن : وَجَعَلْنا في قُلوبِ الّذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً، ورَحْمَةً، ورَهْبَانيَّةً** من

قِبَلِ أنفسهم.. وقيل : **وَرَهْبَانيّةً** معطوفة على الرأفة والرحمة. والمعنى على هذا أنّ الله تعالى أعطاهم إيّاها فغيّروا و**ابْتَدَعُوهَا**، أي: ابتدعها هؤلاء الصالحون، **فَمَا رَعَوْهَا** أي المتأخّرون **حَقّ رِعَايَتِهَا. فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ**، يعني الذين ابتدعوها أوّلاً ورعوها. **وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُون**، يعني المتأخّرين. فلمّا بعث الله محمّداً ولم يبقَ منهم إلاّ قليل، جاءوا من الكهوف والصوامع والغيران فآمنوا بمحمّد.

عن أبي أمامة الباهلي قال: خرجنا مع رسول الله في سَرِيّةٍ من سراياه، فقال: مَرَّ رجلٌ بغارٍ فيه شيء من ماء، فحدّث نفسَه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلّى عن الدنيا. قال: لو أنّي أتيتُ النّبيَّ فذكرتُ ذلك له! فإنْ أذِنَ لي فعلتُ. وإلاّ لم أَفعلْ. فأتاه فقال: يا نبيَّ الله! إنّي مررتُ بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل. فحدثتني نفسي بأنْ أقيم فيه، وأتخلّى من الدنيا. قال: فقال النّبي: إنّي لم أُبْعَثْ باليهوديّة ولا بالنصرانيّة. ولكنّي بُعثتُ بالحنيفيّة السمحة. والذي نفس محمّد بيده لَغَدْوَةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، وَلَمُقامُ أحدِكُم في الصفّ الأوّل خيرٌ من صلاته ستّين سنة".

* وقال **الخازن** (ت ٧٤١هـ /١٣٤٠م) في **اللّباب في معاني التنزيل : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا**، أي: بعثنا رسولاً بعد رسول إلى أن انتهتِ الرسالة إلى عيسى، وهو قوله: **وَقَفَّيْنَا بعيسَى ابنِ مريَمَ. وآتَيْنَاهُ الإنْجيلَ. وَجَعَلْنا في قُلوبِ الّذينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ورَحْمَةً**، أي: أنّهم كانوا مودّين بعضهم لبعض.

ورَهْبَانيَّةً ابتَدَعُوهَا: ليس هذا عطفاً على ما قبله. عن ابن عبّاس قال: قال قومٌ: انقطع الكلام عند قوله **وَرَحْمَةً**. ثمّ قال: **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا**، وذلك أنّهم تركوا الحقّ، فأكلوا الخنزير، وشربوا الخمر، وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة، والختانَ... والمعنى أنّهم جاءوا بها من قِبَلِ أنفسهم، وهي ترهّبهم في الجبال والكهوف والغِيران والديرة، وفرّوا من الفتنة، وحمّلوا أنفسَهم المشاق في العبادة الزائدة، وترك النكاح، واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس، مع التقلّل من ذلك. **مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ**، أي: ما فرضناها نحن عليهم... فذلك قوله: **فَآتَيْنَا الّذينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ**، وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح؛ **وَكَثِيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ**، وهم الذين تركوا الرهبانيّة، وكفروا بدين عيسى..

عن ابن مسعود قال: كنتُ رديفَ رسول الله على حمار، فقال لي: "يا ابنَ أمّ عبد! أتدري ما رهبانيّة أمّتي؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلم. قال: الهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحجّ والعمرة والتكبير على القلاع". وروي عن أنَس عن النّبي قال: "إنّ لكلّ أمّةٍ رهبانيّة، ورهبانيّة هذه الأمّة الجهاد في سبيل الله".

وقال الله: **يَا أيُّها الّذينَ آمَنوا! اتَّقُوا الله، وآمِنُوا برَسولِه، يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**، أي: أجرَين: بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمّد وتصديقهم له. وقال: **ويَجْعَل لكُمْ نُوراً تَمْشُونَ به**، أي: القرآن واتّباع النّبيّ. وقال: **لئَلاَّ يَعلَمَ أهلُ الكِتابِ**، أي: الذين لم يؤمنوا بمحمّد **ألاّ يَقْدِرُونَ على شيءٍ مِنْ فَضْلِ الله**، أي: خلاف ما في زعمهم

أنّهم أحبّاء الله وأهل رضوانه. **وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يشَاءُ**، أي: فآتى المؤمنين منهم أجرَهم مرّتَين كما تقدم. **واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم**.

* وقال **أبو حيّان الأندلسي** (ت ٧٤٥هـ /١٣٤٤م) في **البحر المحيط : ورَهْبَانيَّةً** معطوف على ما قبله. فهي داخلة في الجملة. **ابْتَدَعُوهَا**، جملة في موضع الصفة لرهبانيّة. وخصّت الرّهبانيّة بالابتداع، لأنّ الرأفة والرحمة في القلب لا تكسّب للإنسان فيها بخلاف الرهبانيّة، فإنّها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسّب. قال قتادة: الرأفة والرحمة من الله، والرهبانيّة هم ابتدعوها.

* وقال **محمّد حسين فضل الله** في تفسيره **من وحي القرآن: وَرَهْبَانيَّةً ابْتَدَعُوهَا. مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيهِمْ إلاّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله**، فقد عاشوا معاني التأمّل والتفكير في الله، واندمجوا بالعبادة الخاشعة الخاضعة المستسلمة لعبوديّتهم له، واستغرقوا في ذلك كلّه حتّى تحوّلت لديهم إلى حالةٍ من العزلة والانقطاع عن الناس، ليتفرّغوا إلى الغاية العظيمة، وهي الحصول على رضا الله والوصول إلى أعلى مراتب القرب لديه، فكانت الرهبانيّة نتيجةً لذلك.

وهكذا ابتدعوها كقاعدة للسلوك العملي العبادي، وكمنطلق للسموّ الروحي، فلم تكن فرضاً من الله عليهم، ولم تنزل كشريعةٍ عباديّة في التشريع العبادي الذي يحدّد للعبادة فروضها وطقوسها؛ ولكنّها كانت استيحاءً فكريًّا وروحيًّا من القيم الكبيرة التي أكّدتْها مفاهيم الإنجيل، في ما لم يرد فيه منعٌ خاصٌّ، فانطلقوا فيه من خلال رغبتهم في رضا الله.

ولكن المشكلة.. أن تبقى لها (الرهبانيّة) روحيّتُها.. فما الذي حدث بعد ذلك؟ لقد تحوّلت إلى طقوسٍ وعاداتٍ وشعائرَ خاليةٍ من الروح، وابتعدتْ عن التوازن في الجانب الواقعي العملي في حاجات الإنسان الخاصّة، **فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**، لأنّ الإنسان الذي يريد رضا الله لا بدّ له من أن يعرف الطريق إليه، فلا يبتدعه من نفسه..

٢ . سورة المائدة (٥ /٨٢-٨٨)

٨٢ . لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً للَّذينَ آمَنوا اليهودَ والذينَ أشركوا. وَلتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للَّذينَ آمَنوا الذينَ قالوا إنَّا نَصارى ذَلكَ بأنَّ منْهُمْ قِسِّيسِينَ **ورُهْبَاناً**، وأنَّهم لا يَسْتَكْبِرون. **٨٣ .** وَإذ سَمِعوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ تَرى أعْيُنَهم تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفوا مِنَ الحَقِّ. يقولون: رَبَّنا آمَنَّا فاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِين. **٨٤ .** وَمَا لَنا لا نُؤْمِنُ بالله وما جاءَنا من الحَقِّ، ونَطْمَعُ أن يُدخِلَنا ربُّنا مَع القومِ الصَّالِحِينَ. **٨٥ .** فأثابَهُمُ الله بما قَالوا جَنّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها. وذلكَ جَزاءُ المحُسنِين. **٨٦ .** والذينَ كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ الجحيم.

* قال **الطبري : لَتَجِدَنَّ** (يا محمّد)، **أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنوا** (بكَ واتّبعوك)، **اليَهُودَ وَالذِينَ أشْرَكُوا** (أي: عَبَدة الأوثان). **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للذِينَ آمَنُوا** (أي: صدّقوا الله ورسولَه محمّداً)

الذِينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى. ذَلِكَ بِأَنَّ (أي: بسبب أنّ) **مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ** (علماء) **وَرُهْبَاناً** (عبّاداً). **وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** (عن قبول الحقّ واتّباعه كاليهود).

قيل: نزلتْ هذه الآية في نَفرٍ قدموا على رسول الله من نصارى الحبشة، فلمّا سمعوا القرآن أسلموا واتّبعوا رسول الله. وقيل: إنّها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابٍ له أسلموا معه.

وَ(هؤلاء القوم من النصارى)، **إذ سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ** (من القرآن)، **تَرَى أعْيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقِّ** (أي: لمعرفتهم بأنّ الذي يُتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقّ). **يَقُولُونَ: رَبَّنا! آمَنّا،** (أي: صدقنا لما سمعنا ما أنزلتَه إلى نبيّك محمّد من كتابك، وأقررنا به أنّه من عندك، وأنّه الحق لا شكّ فيه)؛ **فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين** (أي: مع أمّة محمّد، لقوله: "وَكَذَلكَ جَعَلنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاس وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُمْ شَهِيداً"[172]، أو مع الذين يَشهدون لأنبيائك يوم القيامة أنّهم قد بلّغوا أممهم رسالاتك).

وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بالله (أي: لا نقرّ بوحدانيّة الله)، **وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحقِّ** (أي: من كتابه وآيِ تنزيله)، **وَ** (نحن) **نَطْمَعُ** (بإيماننا بذلك) **أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِين** (أي: المؤمنين بالله، المطيعين له، الذين استحقّوا من الله الجنّة بطاعتهم إيّاه). ومعنى ذلك كلّه: ونحن

---

172 سورة البقرة ٢ /١٤٣.

نطمع أن يُدخلَنا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلَهم من جنّته يوم القيامة، ويُلحق منازلنا بمنازلهم، ودرجاتِنا بدرجاتهم مع جنّاته.

فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ (أي: بساتين)، **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا** (أي: من تحت أشجارها) **الأنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا** (أي: دائماً فيها مكْثُهم، لا يخرجون منها ولا يحولون عنها). **وَذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنين** (وإحسان المحسن في ذلك أنْ يُوحِّدَ الله توحيداً خالصاً مَحضاً لا شِرْك فيه، ويقرَّ بأنبياء الله وما جاءتْ به من عند الله من الكتب، ويؤدّي فرائضه، ويجتنب معاصيه).

* وقال **الرازي : لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنوا اليَهُودَ والّذينَ أشْرَكُوا،** لأنّ اليهود في غاية العداوة مع المسلمين، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدّة العداوة؛ بل نبّه على أنّهم أشدّ في العداوة من المشركين من جهة أنّه قدّم ذكرَهم على ذكر المشركين.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للّذينَ آمَنوا الّذين قالوا إنّا نَصَارَى. قيل: المراد بهؤلاء النصارى: النجاشي وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول، وآمنوا به. ولم يُردْ جميعَ النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين. وقال آخرون: مذهب اليهود أنّه يجب عليهم إيصال الشرّ إلى مَن يخالفهم في الدين بأيّ طريق كان، فإنْ قدروا على القتل فذاك، وإلاّ فبغصب المال، أو بالسرقة، أو بنوعٍ من المكر والكيد والحيلة؛ وأمّا النصارى فليس مذهبهم ذاك، بل الإيذاء في دينهم حرام. فهذا هو وجه التفاوت بين اليهود والنصارى.

وسبب هذا التفاوت بين اليهود والنصارى، **ذلك بأنَّ منهمْ قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنّهم لا يَسْتَكبِرون**. يعني: أنّ اليهود مخصَّصون بالحرص الشديد على الدنيا؛ وأمّا النصارى فإنّهم، في أكثر الأمر، مُعرِضون عن الدنيا مُقبِلون على العبادة وترك طلب الرياسة والتكبّر والترفّع. وكلّ مَن كان كذلك فإنّه لا يحسد الناس، ولا يؤذيهم، ولا يخاصمهم، بل يكون ليّن العريكة في طلب الحقّ، سهل الانقياد له.

وههنا دقيقة نافعة في طلب الدين وهو أنّ كفر النصارى أغلظ من كفر اليهود، لأنّ النصارى ينازعون في الإلهيّات وفي النبوّات، واليهود لا ينازعون إلاّ في النبوّات. ولا شكّ في أنّ الأوّل أغلظ. ثمّ إنّ النّصارى، مع غلظ كفرهم، لمّا لم يشتدّ حرصهم على طلب الدنيا، بل كان في قلبهم شيء من الميل إلى الآخرة، شرّفهم الله **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للّذينَ آمَنوا الّذين قالوا إنّا نَصَارَى**. وأمّا اليهود، مع أنّ كفرهم أخفّ في جنب كفر النصارى، طردهم، وخصّهم الله بمزيد اللّعن. وما ذاك إلاّ بسبب حرصهم على الدنيا، وذلك ينبّهك على صحّة قول رسول الله: "حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة".

ثمّ إنْ قيل : كيف مدح الله القسّيسين والرّهبان مع قوله : "**وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوها**"[173]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا رهبانيّة في الإسلام"؟ قلنا: إنّ ذلك صار ممدوحاً في مقابلة طريقة اليهود في القساوة والغلظة. ولا يلزم من هذا القدر كونه ممدوحاً على الإطلاق.

---

173 سورة الحديد٥٧ /٢٧.

ثمّ قال تعالى: **وإذَا سَمِعُوا**، أي: القسّيسون والرهبان الذين آمنوا، **ما أُنْزِلَ**، يعني: القرآن **إلى الرَّسولِ**، يعني: محمّداً، **تَرَى أعْيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا منَ الحقِّ**، أي: ممّا نزل على محمّد وهو الحقّ. **يقولونَ: رَبَّنا! آمَنّا**، أي: سمعنا وشَهِدْنا أنّه حقّ، **فاكْتُبْنا معَ الشاهِدين**، أي: مع أمّة محمّد، أو مع كلّ من شهد من أنبيائك ومؤمني عبادك بأنّك لا إله غيرك.

وما لنا لا نُؤْمِنُ باللهِ ومَا جاءَنا منَ الحقِّ. ونَطمَعُ أن يُدْخِلَنا رَبُّنا مع القومِ الصّالِحينَ. فأَثَابَهُمُ اللهُ بمَا قَالوا جَنّاتٍ تَجرِي من تَحتِها الأنْهارُ، خالِدينَ فيها. وذلك جَزَاءُ المُحْسِنينَ. الآية دالّةٌ على أنّ المؤمن الفاسق لا يبقى مخلداً في النار. وبيانه أنّه قال : **وذلك جَزَاءُ المُحْسِنينَ** وهذا الإحسان لا بدّ وأن يكون هو الذي تقدّم ذكرُه من المعرفة، وهو قوله : **ممَّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ**، ومن الإقرار به، وهو قوله: **فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِما قَالُوا**. وإذا كان كذلك، فهذه الآية دالّة على أنّ هذه المعرفة وهذا الإقرار يوجب أن يحصل له هذا الثواب. وصاحب الكبيرة الذي له هذه المعرفة وهذا الإقرار، وجب أن يحصل له هذا الثواب. ويُقال: يُعاقَب على ذنبه ثمّ يُنقَل إلى الجنّة.

* وقال **القرطبي :** هذه الآيات نزلت في النجاشي وأصحابه لمّا قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى، خوفاً من المشركين وفتنتِهم.

وقيل: نزلت بعد وقعة بَدْر، لمّا بعَث كفّارُ قريش رجلَين، هما عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، إلى الحبشة ليثأروا من قتلَى

بدر. فسمع النّبيّ بذلك فبعث عمرو بن أمّيّة الضّمْريّ، وكتب معه إلى النجاشيّ، فقدم على النجاشي، فقرأ كتابَ رسول الله. ثمّ دعا النجاشيّ جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرّهبان والقسّيسين فجمعهم. ثمّ أمر جعفرَ أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورةَ مريم، وقاموا تفيضُ أعينُهم من الدمع. فهم الذين أنزل فيهم الآية..

وقيل: نزلتْ لمّا قدم على النّبي عشرون رجلاً من النصارى حين ظهر خبرُه من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فكلّموه وسألوه، ورجالُ قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلمّا فرغوا من مسئلتهم رسولَ الله عمّا أرادوا، دعاهم رسولُ الله إلى الله، وتلا عليهم القرآن. فلمّا سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثمّ استجابوا له وآمنوا به وصدّقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

وقيل: إنّ النفر النصارى من أهل نجران، الذين فيهم نزلت هذه الآيات: "**الّذين آتَينَاهمُ الكتَابَ مِنْ قَبْلِه، هُمْ بِهِ يُؤمِنُونَ..** (إلى قوله): **وإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَقَالُوا: لَنَا أعْمَالُنا وَلَكُمْ أعْمَالُكُمْ. سَلامٌ عَلَيكُمْ لا نَبْتَغِي الجَّاهِلِينَ**"[174].

وقيل: إنّ جعفراً وأصحابه قدم على النّبيّ في سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، فيهم إثنان وستّون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وهم: بَحِيرا الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثمامة، وقثم، ودريد، وأيمن؛ فقرأ عليهم رسولُ الله سورة "**يس**" إلى آخرها،

174 سورة القصص ٢٨ /٥٢-٥٥.

فبَكَوا حين سمعوا القرآن وآمَنوا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان يَنزل على عيسى، فنزلتْ فيهم: **لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنوا أليهودَ والّذينَ أشْرَكوا. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للّذينَ آمَنوا الّذين قالوا إنّا نصارى**. يعني: وفد النجاشي، وكانوا أصحاب الصوامع.

وقال مقاتل والكلبي : كانوا أربعين رجلاً من أهل نجران من بني الحارث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية وستين من أهل الشام. وقال قتادة : نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة عيسى. فلما بعث الله محمّداً آمنوا به فأثنى الله عليهم.

وقوله تعالى : **ذَلكَ بأَنّ مِنهمْ قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنَّهم لا يَسْتَكبِرون** (عن الانقياد إلى الحق)**. وإذا سَمِعوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ تَرَى أعْيُنَهمْ تَفيضُ من الدَّمْع** (أي بالدمع). وهذا حال العلماء يَبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، كما قال تعالى : **"الله نزَّلَ أحسَنَ الحديث كتاباً متَشابِهاً مَثانيَ تَقشَعِرُّ منه جُلودُ الذينَ يَخشَونَ ربَّهم. ثمّ تَلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكرِ الله. ذلك هُدى الله يَهدي به مَن يشاءُ. ومَن يُضْلِلِ الله فما له من هادٍ"**[175]؛ وقال: **"إنّما المُؤمِنونَ الذينَ، إذا ذُكِرَ الله، وَجِلَتْ قلُوبُهم. وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً. وعلى ربِّهم يتوكّلُون"**[176]. وبيّن الله سبحانه في هذه الآيات أنّ أشدّ الكفّار تمرّداً وعتوّاً وعداوة للمسلمين، اليهود؛ ويضاهيهم المشركون. وبيّن أنّ أقربهم مودّةً، النصارى. والله أعلم.

---

175 سورة الزمر ٣٩ /٢٣.

176 سورة الأنفال ٨ /٢.

وقوله تعالى : **فَاكْتُبْنا معَ الشاهِدِين** (أي مع أمّة محمّد الذين يشهدون بالحقّ) من قوله عزّ وجلّ: **"وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ"**[177]. وقال الحسن: الذين يشهدون بالإيمان. وقال أبو علي: الذين يشهدون بتصديق نبيّك وكتابه...

* وقال **أبو حيّان الأندلسي : اليَهُودُ** هنا هم يهود المدينة لأنّهم الذين مالؤوا المشركين على المسلمين؛ وعطْفُ **الّذينَ أشْرَكوا** على اليهود جَعَلَهم تُبَّعاً لهم في ذلك، إذ كان اليهود أشدّ في العداوة، إذ تباينوا هم والمسلمون في الشريعة لا في الجنس، إذ بينهم وشائج متّصلة من القرابات والأنساب القريبة.. ولأنّهم ليسوا على شريعة من عند الله فهم أسرع للإيمان من كلِّ أحدٍ من اليهود والنصارى.. **والنَّاس** هنا الكفّار.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهم مَوَدَّةً للّذينَ آمَنوا الّذين قالوا إنّا نصارى، أي : هم ألين عريكة، وأقرب ودّاً؛ ولم يصفهم بالودّ، إنّما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين. وهي أمّة لهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكرها عمرو بن العاص في صحيح مسلم: يعظّمون من أهل الإسلام مَن استشعروا منه ديناً وإيماناً؛ ويبغضون أهلَ الفسق؛ فإذا سَالَمُوا فسِلْمُهم صافٍ؛ وإذا حاربوا فحربُهم مدافعة. لأنّ شرعهم لا يأمرهم بذلك. وحين غلب الرومُ فارس، سُرَّ رسولُ الله لغلبة أهل الكتاب لأهل عبادة النار، ولإهلاك العدوّ الأكبر بالعدوّ الأصغر..

واليهود ليسوا على شيء من أخلاق النصارى؛ بل شأنهم

177 سورة البقرة ٢ /١٤٣.

الخبث، واللَّيُّ بالألسنة. وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقّب ما يغتالك به. ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم، ذلك بأنّهم قالوا: **"لَيسَ عَلَينَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ"**؟[178].

وفي قوله: **الذِينَ قَالوا إنَّا نَصَارَى** إشارة إلى أنّهم ليسوا متمسّكين بحقيقة النّصرانيّة؛ بل ذلك قولٌ منهم وزعْم... ثمّ أخبر أنّ من هذه الطائفة علماء، وزهّاداً، ومتواضعين، وسريعي استجابة للإسلام، وكثيري بكاء عند سماع القرآن؛ واليهود بخلاف ذلك. والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبُعد اليهود، **ذلك بأنَّ منهمْ قِسِّيسِينَ ورُهْبَاناً وأنَّهم لا يَسْتَكبِرون**، أي: منهم علماء وعبّاد، وأنّهم قوم فيهم تواضع واستكانة، وليسوا مستكبرين. واليهود، على خلاف ذلك، لم يكن فيهم قط أهل ديارات ولا صوامع وانقطاع عن الدنيا. بل هم معظمون متطاولون لتحصيلها، حتّى كأنّهم لا يؤمنون بالآخرة. ولذلك لا يُرى فيهم زاهد..

وَإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقِّ. هذا وصف برِقَّةِ القلوب والتأثّر بسماع القرآن. والظاهر أنّ الضمير يعودُ على "قسّيسين ورهباناً"، فيكون عامّاً. ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم، كما جرى للنجاشي حيث تلا عليه جعفرٌ سورةَ **مريم**، وسورةَ **طه**، فبكى، وكذلك قومه الذين وفدوا على الرسول حين قرأ عليهم سورةَ **يس**، فبكَوا.

178 سورة آل عمران ٣ /٧٥.

* وقال **القاسمي** (ت ١٣٣٣هـ /١٩١٤م) في **محاسن التنزيل : لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّاسِ عَدَاوَةً للّذينَ آمَنوا اليَهودَ والّذينَ أشْرَكوا،** وإنّما عاداهم اليهود لإيمانهم بعيسى ومحمّد، وعاداهم المشركون لتوحيدهم وإقرارهم بنبوّة الأنبياء. وقيل: لشدّة إبائهم، وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتّباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرّنهم على التمرّد والاستعصاء على الأنبياء، والاجتراء على تكذيبهم، ومناصبتهم لهم. لهذا قتلوا كثيراً منهم حتّى همّوا بقتل رسول الله غير مرّة، وسمّوه، وسحروه، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً للّذينَ آمَنُوا الّذينَ قَالُوا إنّا نَصَارَى، للِين جانبهم، وقلّة غلّة قلوبهم. وما فيها من الرقّة والرأفة، كما قال: **"وجَعَلْنا في قلوبِ الذينَ اتّبعوه** (أي عيسى) **رَأفةً ورَحمَةً"**[179]. وليس القتال مشروعاً في ملّتهم.. ولأنّ من مذهب اليهود أنّه يجب إيصال الشرّ إلى مَن خالف دينهم بأيّ طريق كان، من القتل ونهب المال ونحوهما. وهو عند النصارى حرام. فحصل الفرق. عن ابن هُريرة قال: قال رسول الله: "ما خلا يهوديٌّ بمسلمٍ إلاّ هَمَّ بقتلِه".

ولكثرة اهتمام النصارى بالعمل والترهب، ممّا يدعو إلى قلّة البغضاء والحسد، ولين العريكة، ذلك كونهم أقرب مودّة للمؤمنين، وبسبب **أنَّ منهمْ قِسِّيسِينَ**، أي علماء، **ورُهبَاناً**، أي عبّاداً متجرّدين، **وأنّهم لا يَسْتَكبِرون**، أي لا يتكبّرون كاليهود.

---

179 سورة الحديد ٥٧ /٢٧

* وقال **محمّد حسين فضل الله :** ... قد أشارت الآيات إلى هذه الناحية (الروحيّة عند النصارى)، واعتبرت وجود القسّيسين والرُّهبان ظاهرةً إيجابيّةً، في ما يُمثِّله هذا اللّون من الناس من انقطاعٍ للعبادة، وابتهالٍ لله، وتواضعٍ للنَّاس، وابتعادٍ عن الاستكبار. وتحدّثت عن التجربة الأولى للّقاء، في الوقت الذي لم يكن فيه المجتمع النصراني قد عاش عقدة الصراع ضدّ الإسلام والمسلمين، نظراً إلى أنّ الدعوة كانت في بداياتها الأولى.

وإذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ. لقد تلقّى الذين استمعوا إلى آيات الله، آيات الله، بروحٍ منفتحة على الخير من كلمات البرّ، واعيةٍ لعمق الروح الإيماني، عائشةٍ للفرح الروحي المتدفّق من روحيّة الوحي الإلهي، منفعلين بالحقيقة الصافية المشرقة القائمة على التأمّل والإلهام، مرسلة نفوسهم دموع الخشوع فيّاضة، وامضة بإشارات المحبّة والسلام.

ويرتعد كيانهم ويقشعرّ لبرودة الإيمان وهيبة الموقف أمام عظمة الله، وتكرع أرواحُهم كأسَ الملاطفة من معين الذات الإيماني حتّى الثمالة. فإذا بهم أمام الحقّ الذي عرفوه، يبكون من الفرح **مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقِّ**، تماماً كما هو فرح الأطفال بالهديّة الحلوة، في براءة الطفولة، فيبتهلون إلى الله في صلاة خاشعة، لأنّ الإيمان ليس مجرّد فكر يخضع للمعادلات العقليّة، ولكنّه فكرٌ وروحٌ وشعورٌ عامرٌ بحركة الحياة، فإذا به يقظة إحساس، ومنطلق روح، وصفاء قلب، وهزّة كيان، **يَقُولُونَ: رَبَّنا! آمَنّا. فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**، الذين يعيشون الحضور

الدائم مع الله، فيعيشون، من خلال ذلك، الحضور الواعي لمسؤوليّة الحياة مع الآخرين.

٣ . سورة التوبة (٩ /٣١)

"اتَّخَذُوا أحبَارَهم **ورُهْبَانَهم** أرباباً من دونِ الله، والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدوا إلهاً واحداً. لا إلَهَ إلاّ هُوَ سُبحانَهُ عمّا يُشْرِكونَ".

* قال **الطبري : اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً مِنْ دُونِ الله،** أي: سادةً لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلّون ما أحلّوه لهم ممّا قد حرّمه الله عليهم، ويحرّمون ما يحرّمونه عليهم ممّا قد أحلّه الله لهم، **"والمَسيحَ ابنَ مريمَ"**، أي: اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيحَ ابنَ مريمَ أرباباً من دون الله.

ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً أي : وما أُمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتّخذوا الأحبار والرهبان والمسيح أرباباً إلاّ أن يعبدوا معبوداً واحداً، وأن يُطيعوا إلاّ ربّاً واحداً دون أرباب شتّى، وهو الله الذي له عبادة كلّ شيء وطاعة كلّ خلْق. **لا إلهَ إلاّ هُوَ.** أي: لا تنبغي الألوهة إلاّ لواحد، الذي أمر الخلق بعبادته، ولزمتْ جميعَ العباد طاعتُه. **سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ**، أي: تنزيهاً وتطهيراً لله عمّا يشرك في

طاعته وربوبيّته القائلون عُزَير ابن الله والقائلون المسيح ابن الله، المتّخذون أحبارهم أرباباً من دون الله.

* وقال **الرازي : اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ.** الحَبْر، أو الحِبْر، أحبار: الفقهاء. قال أهل المعاني: الحبر العالم الذي بصناعته يحبر المعاني، ويحسن البيان عنها. والراهب الذي تمكّنت الرهبةُ والخشية في قلبه، وظهرت آثار الرهبة على وجهه ولباسه. وفي عرف الاستعمال، صار الأحبار مختصّاً بعلماء اليهود من ولد هرون، والرهبان بعلماء النصارى أصحاب الصوامع.

أرباباً مِنْ دُونِ الله. أي : ليس المراد من الأرباب أنّ اليهود والنصارى اعتقدوا فيهم أنّهم آلهةُ العالَم؛ بل المراد أنّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم. نقل أنّ عدي بن حاتم كان نصرانيّاً فانتهى إلى رسول الله وهو يقرأ سورة براءة، فوصل إلى هذه الآية، قال : فقلتُ لسنا نعبدهم. فقال : "أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه!" فقلت : بلى. قال : "فتلك عبادتهم".

ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً. لا إلهَ إلاّ هُوَ. سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُون. أي: سبحانه من أن يكون له شريك في الأمر والتكليف، وأن يكون له شريك في كونه مسجوداً ومعبوداً، وأن يكون له شريك في وجوب نهاية التعظيم والإجلال.

* وقال **القرطبي : اتَّخَذُوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهمْ أرباباً مِنْ دُونِ الله، والمَسيحَ ابنَ مريمَ.** ألأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول

وينظِّمه ويُتقنه بحسن البيان عنه. ومنه ثوب محبّر أي جمع الزينة.. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرّهبة، وهو الذي حمله خوف الله على أنْ يُخلِص له النّيّة، ويجعل زمانه له، وعملَه معه، وأنسَه به.

* وقال **أبو حيّان الأندلسي : اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً مِنْ دُونِ الله، والمَسيحَ ابنَ مريمَ**، أي: كان اليهود والنصارى يسجدون للأحبار والرهبان، كما يسجدون لله. وقيل: إنّهم يعتقدون الحلول، وأنّه سبحانه تجلّى في بواطنهم، فيسجدون له، معتقدين أنّه لله الذي حلّ فيهم، وتجلّى في سرائرهم. فهؤلاء اتّخذوهم أرباباً حقيقيّة. ومذهبُ الحلول فشا في هذه الأمّة كثيراً. وقالوا بالاتّحاد، أكثر ممّا فشا في مشايخ الصوفيّة والفقراء في وقتنا هذا. وقد رأيتُ منهم جماعة يزعمون أنّهم أكابر. وحكى الرازي أنّه كان فاشياً في زمانه، حكاه في تفسيره عن بعض المروزيين كان يقول لأصحابه: أنتم عبيدي. وإذا خلا ببعض الحمقا من أتباعه ادّعى الإلهيّة.

* وقال **إبن كثير** (ت ٧٧٤هـ /١٣٧٢م) في **تفسير القرآن العظيم : اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهمْ أرباباً مِنْ دُونِ الله**، أي: اتّبعوهم فيما حلّلوا وحرّموا. وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: **ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحِداً. لا إلهَ إلاّ هُوَ. سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ** أي: تعالى وتقدّس وتنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد.

روي عن عدي بن حاتم أنّه، لمّا بلغتْه دعوة رسول الله، فرّ إلى

الشام، وكان قد تنصّر في الجاهليّة. فأُسِرتْ أختُه. ثمّ منّ رسولُ الله على أخته وأعطاها. فرجعتْ إلى أخيها فرغّبتْه في الإسلام وفي القدوم على رسول الله. فقَدِم عديّ إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم. فتحدّث الناس بقدومه. فدخل على رسول الله، وفي عنق عديّ صليب من فضّة، وهو يقرأ هذه الآية: **اتَّخَذُوا أحْبارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ.** قال: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم. فقال: "بلى. إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام. فاتَّبَعوهم. فذلك عبادتهم إيّاهم". وقال رسول الله: "يا عديّ! ما تقول؟ أيضرّكَ أن يُقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرّك؟ أيضرّك أن يقال: لا إله إلاّ الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟". ثمّ دعاه إلى الإسلام. فأسلم. وشهد شهادة الحقّ. قال: فلقد رأيتُ وجهه استبشر. ثم قال: "إنّ اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالّون".

* وقال **الشوكاني** (ت ١٢٥٠هـ /١٨٤٣م) في تفسيره **فتح القدير : اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً مِنْ دُونِ الله،** أي: أنّهم، لمّا أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه، كانوا بمنزلة المتّخِذين لهم أرباباً، لأنّهم أطاعوهم كما تُطاع الأرباب. وقوله: **والمَسيحَ ابنَ مريمَ،** أي: اتّخذه النصارى معبوداً.

* وقال **محمّد عبده** (ت ١٣٢٣هـ /١٩٠٥م) في **تفسير جزء عمّ : اتَّخَذوا أحْبَارَهمْ ورُهْبَانَهم أرباباً**: الرهبان جمْع راهب، ومعناه الخائف. وهو عند النصارى المتبتّل المنقطع للعبادة. والرهبانيّة، في النصرانيّة، بدْعةٌ، كما قال تعالى: "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا

عَلَيهم"[180]. وكانتْ نيّتُهم صالحة، كما قال تعالى: **إلاّ ابتِغاءَ رِضْوَانِ اللهِ**؛ ذلك لأنّ الأصل فيها تأثير مواعظ المسيح في الزهد والإعراض عن لذّات الدنيا. ثمّ صار أكثر منتحليها من الجاهلين والكسالى، فكانت عبادتُهم صوريّةً، أعقبتهم رياء وعجباً وغروراً بأنفسهم، وبتعظيم العامّة لهم. ولذلك قال تعالى: **فمَا رَعَوها حقَّ رِعايَتِها**.

ولمّا صارت النصرانيّة ذات تقاليد منظّمة في القرن الرابع، وضع رؤساؤهم نظماً وقوانين للرهبانيّة ولمعيشتهم في الأديار. وصار لهم عندهم فِرَقٌ كثيرة يشكو بعض أحرارهم من مفاسدهم فيها. فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى في سلفهم المخلصين: **فَآتَينَا الّذين آمَنُوا أجْرَهُمْ**، وفي خلفهم المرائين: **وَكَثِيرٌ منْهُمْ فاسِقون**.. وقد نهى النّبيّ عن الرّهبانيّة في الإسلام...

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين. فاتّخاذُهم أرباباً يستلزم اتّخاذ مَن فوقهم مِن الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولى. فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوَّناً كان أو غير مدوَّن. والعوام يخضعون لتشريع الرهبان، ولو غير مدوَّن، سواء قالوه بالتبع لمن فوقهم، أو من تلقاء أنفسهم، لثقتهم بدينهم. وكذلك اتّخذوا المسيح بن مريم ربّاً وإلهاً...

وانفرد النصارى، دون اليهود، من اتّخاذهم المسيح ربّاً وإلهاً يعبدونه. ومنهم مَن يعبد أمّه ويصرّحون بذلك. وجميع الكاثوليك

---

180 سورة الحديد ٥٧ /٢٧.

والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القدّيسين: يتوسّلون بهم، ويتّخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم. ولكنّهم لا يسمّون هذا عبادة في الغالب...

واليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل لم يلتزموها، بل أضافوا إليها من الشرائع اللّسانيّة عن رؤسائهم ما كان خاصّاً ببعض الأحوال من قبل أن يدوّنوه في المشنة والتلمود..

أمّا النصارى فقد نسخ رؤساؤهم جميعَ أحكام التوراة الدينيّة والدنيويّة على إقرار المسيح لها. واستبدلوا بها شرائع كثيرة في العقائد والعبادات والمعاملات جميعاً. وزادوا على ذلك انتحالهم حقّ مغفرة الذنوب لمن شاءوا حرمان مَن شاءوا من رحمة الله وملكوته. وهذه حقّ الله وحده: **وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ الله** (٣ /١٣٥)، أي لا أحد. والقول بعصمة البابا رئيس الكنيسة في تفسير الكتب الإلهيّة ووجوب طاعته في كلّ ما يأمر به من العبادات وتحريم المحرّمات..

* وقال **محمّد حسين فضل الله : اتَّخَذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِنْ دُونِ الله**، فيستسلمون لهم بكلّ شيء.. وهم يرون فيهم الأنانيّة والتعصّب والانحراف والعناد، فيخضعون لهم، ويطيعونهم في كلّ أمرٍ أو نهيٍّ صادرٍ منهم.

والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، الذي اعتبروه التجسيد الحيّ لله في العقيدة العامّة للنصارى. **ومَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلَهاً وَاحِداً**، لا شبيه له في عظمته ولا شريك له في خلقه. **لا إلَهَ إلاّ هُوَ**، لأنّ كلّ ما عداه هو

مخلوق له، فكيف يكون شريكاً له، وهو الخالق للوجود كلّه، فلا يستحقّ العبادة أحدٌ سواه. **سُبحَانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ** من هذه المخلوقات.

٤ . وجاء في سورة التوبة (٩ /٣٤-٣٥)

٣٤ . يا أيُّها الذينَ آمَنوا! إنَّ كَثيراً مِنَ الأحبارِ **والرُّهْبَانِ** لَيأكُلُونَ أموالَ النَّاسِ بالباطِلِ، ويَصُدُّونَ عَن سَبيلِ الله. والذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها في سَبيلِ الله فَبَشِّرْهم بعَذَابٍ أليم. **٣٥ .** يومَ يُحْمَى عَلَيها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بها جباهُهُمْ وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم. هَذا مَا كنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ. فَذُوقوا ما كنتم تَكنِزون.

* قال **الطبري : يا أيّها الّذينَ آمَنوا**، أي: صدَّقوا الله ورسولَه، وأقرّوا بوحدانيّة ربّهم، **إنّ كَثيراً مِنَ الأحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ**، من اليهود والنصارى، **لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالبَاطِلِ**، أي: يأخذون الرّشى في أحكامهم، ويحرّفون كتابَ الله، ويكتبون بأيديهم، ثم يقولون: "هذه من عند الله"، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سَفَلتِهم، **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله**، أي: يمنعون من أرادوا الدخول في الإسلام بنهيهم إيّاهم عنه.

وَالّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ الله، أي: لا يؤدّون منها حقَّه من الزكاة وعمل الخير، **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ**، أي: بشّر الكثيرَ من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموالَ النّاس

بالباطل، والذين يكنزون الذهب والفضّةَ، ولا ينفقونها في سبيل الله، بعذاب أليم لهم يوم القيامة، مُوجع من الله.

* وقال **الرازي : ...** إعلم أنّه تعالى، لمّا وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبّر والتجبّر، وادّعاء الربوبيّة، والترفّع عن الخلق؛ وصفهم، في هذه الآية، بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس، تنبيهاً على أنّ المقصود، من إظهار تلك الربوبيّة والتجبّر والفخر، أخذ أموال الناس بالباطل. ولَعَمري! مَن تأمّل أحوال أهل الناموس والتزوير في زماننا، وجد هذه الآيات كأنّها ما أُنزلتْ إلاّ في شأنهم، وفي شرح أحوالهم. فترى الواحدَ منهم يدّعي أنّه لا يلتفت إلى الدنيا، ولا يتعلّق خاطره بجميع المخلوقات، وأنّه، في الطهارة والعصمة، مثل الملائكة المقرّبين، حتّى إذا آل الأمر إلى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه، ويتحمّل نهايةَ الذلّ والدناءة في تحصيله.

إِنَّ كَثِيراً، أي: معظمهم وليس كلّهم، **مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ**، سمّى الأخذ بالأكل، لأنّ مَن أخذ أموال الناس، إذا طولب بردّها، قال: أكلتُها، وما بقيتْ، فلا أقدر على ردِّها.

واختلفوا في تفسير **بالبَاطِلِ** على وجوه :

الأوّل : أنّهم كانوا يأخذون الرشا في تخفيف الأحكام والمسامحة في الشرائع.

والثاني : أنّهم كانوا يدعون عند الحشرات، العوام منهم، أنّه لا

سبيل لأحد إلى الفوز بمرضاة الله إلاّ بخدمتهم وطاعتهم، وبَذْل الأموال في طلب مرضاتهم. والعوام كانوا يغترّون بتلك الأكاذيب.

والثالث : التوراة كانت مشتملة على آيات دالّة على مبعث محمّد، فأولئك الأحبار والرهبان كانوا يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة، ويحملونها على محامل باطلة، وكانوا يطيّبون قلوب عوامهم بهذا السبب، ويأخذون الرشوة.

والرابع : أنّهم كانوا يقرّرون عند عوامهم أنّ الدين الحقّ هو الذي هم عليه، فإذا قرّروا ذلك قالوا، وتقوية الدين الحقّ واجب. ثم قالوا: ولا طريق إلى تقويته إلاّ إذا كان أولئك الفقهاء أقواماً عظماء أصحاب الأموال الكثيرة والجمع العظيم. فبهذا الطريق يحملون العوام على أن يبذلوا في خدمتهم نفوسَهم وأموالَهم.

فهذا هو **البَاطِل** الذي كانوا به يأكلون أموال الناس. وهي بأسرها حاضرة في زماننا، وهو الطريق لأكثر الجهّال والمزوِّرِين إلى أَخْذ أموال العوام والحمقى.

ثمّ قال: **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله**، لأنّهم كانوا يبالغون في المنع عن متابعة محمّد بجميع وجوه المكر والخداع. إنّ غاية مطلوب الخلق في الدنيا : المال والجاه. فبيّنَ تعالى، في صفة الأحبار والرهبان، كونهم مشغوفين بهذين الأمرين. فالمال هو المراد بقوله: **لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ**؛ وأمّا الجاه فهو المراد بقوله: **وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**، فإنّهم، لو أقرّوا بأنّ محمّداً على الحقّ لزمهم متابعته؛ وحينئذ فكان

يبطل حكمُهم. فلأجل الخوف من هذا المحذور، كانوا يبالغون في المنع من متابعة محمّد، ويبالغون في إلقاء الشبهات، وفي استخراج وجوه المكر والخديعة، وفي منع الخلق من قبول دينه الحقّ، والاتباع لمنهجه الصحيح.

وَالّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ. في قوله: **والّذين** احتمالات ثلاثة: يحتمل أن يكون المراد أولئك الأحبار والرهبان؛ ويحتمل أن يكون المراد منه مانعو الزّكاة من المسلمين؛ ويحتمل أن يكون المراد منه كلّ مَن كَنَزَ المال، ولم يُخرج منه الحقوق الواجبة، سواء كان من الأحبار والرهبان، أو كان من المسلمين. فلا شكّ أنّ اللّفظ محتمل لكلّ واحد.

* وقال **القرطبي : بِالبَاطِل،** قيل : إنّ الأحبار والرهبان كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك، ممّا يوهمونهم أنّ النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله. وهُم، خلال ذلك، يحجبون تلك الأموال... وقيل: كانوا يأخذون من غلاّتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع. وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، كما يفعله اليوم كثيرٌ من الولاة والحكّام. وقوله **بِالبَاطِلِ** يجمع ذلك كلّه.

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله، أي: يمنعون أهلَ دينهم عن الدخول في دين الإسلام، واتّباع محمّد.

* وقال **أبو حيّان الأندلسي :** لمّا ذكر أنّهم اتّخذوا أحبارَهم

ورهبانَهم أرباباً، ذَكرَ ما هو كثيرٌ منهم، تنقيصاً من شأنهم وتحقيراً لهم، وإنّ مثل هؤلاء لا ينبغي تعظيمهم، فضلاً عن اتّخاذهم أرباباً، لما اشتملوا عليه من أكل المال بالباطل، وصدّهم عن سبيل الله، واندرجوا في عموم الذين يكنزون الذهب والفضة، فجمعوا بين الخصلتَين المذمومتَين: أكل المال بالباطل وكنز المال، إنْ ضنّوا أن ينفقوها في سبيل الله.

* وقال **ابن كثِير :** الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى والقسّيسون علماؤهم.. والمقصود التحذير من علماء السوء، وعبّاد الضلال، كما قال سفيان: مَن فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود؛ ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.

لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطِل، وذلك أنّهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس. يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهليّة شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم. فلمّا بُعث رسول الله استمرّوا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات. فأطفأها الله بنور النبوّة، وسلبهم إيّاها، وعوّضهم الذلّ والصِغار، وباءوا بغضب من الله.

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله، أي: يصدّون الناس عن اتّباع الحقّ، ويُلبسون الحقّ بالباطل، ويَظهرون، لمن اتبعهم من الجهلة، أنّهم يدْعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون؛ بل هم دعاةٌ إلى النار.

والّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ، ولا يُنْفِقُونَها في سبيلِ الله،

هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس. فإنّ الناس عالة على العلماء وعلى العِباد وعلى أرباب الأموال. فإذا فسدتْ أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك :

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إلاّ المُلُوكُ وَأحْبَارُ سوءٍ ورُهْبَانُها؟!

* وقال **محمّد عبده : يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنّ كثيراً من الأحبارِ والرُّهبانِ لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله**: استعمل "أكْل الأموال" بمعنى أخذها، والتصرّف فيها بوجوه الانتفاع التي يُعدّ ما يُبتاع بها للأكل أعم أنواع الاستعمال والتصرّفات. وقد تقدّم مثل هذا التعبير في قوله تعالى: **وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ، وَتُدْلُوا بِهَا إلَى الحُكّامِ لِتَأْكُلُوا فَريقاً مِنْ أمْوَالِ النّاسِ بالإثْمِ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ**[181]؛ وقوله تعالى: **يا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا! لا تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَينَكُمْ بالبَاطِلِ**"[182].

* وقال **محمّد حسين فضل الله : يا أيّها الّذينَ آمَنوا! إنّ كثيراً من الأحبارِ والرُّهبانِ لَيَأْكُلُونَ أمْوَالَ النّاسِ بالباطِلِ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ الله**: يقدّم لنا القرآن هؤلاء الذين يملكون الصفة الرسميّة للدين، ويجعلون من أنفسهم هُداةً للناس، في ما يحملونه من علم الكتاب، أو في ما يمارسونه من تدرّبٍ على الجهاد الداخلي، بالعزلة الروحيّة التي يفرضونها على حياتهم، أو بالتقشّف القاسي الذي يُخضعون له

---

181 سورة البقرة ٢ /١٨٨.

182 سورة النساء ٤ /٢٩.

أجسادَهم، أو بالبعد عن شهوات الحياة وزخارفها، وما إلى ذلك من أوضاعٍ وممارساتٍ تجعل منهم القدوة المثلى في نظر الناس، بحيث يخيّل إليهم أنّهم وكلاء الله على الأرض. فهم الذين يتقرّب الناسُ بهم إلى الله، وهم الذين يملكون توزيع حصص الجنّة عليهم، كما يملكون توزيع حصص النار لمن لا يرضون عنهم.

وهكذا يستطيع هذا الانطباع الذي يحمله الناس عنهم، أن يؤكّد تأثيرهم في المجتمع وسيطرتهم عليه. وبذلك استطاعوا أن يطوّروا الأساليب من أجل استغلال مراكزهم، للاستيلاء على أموال الناس بطرقٍ غير شرعيّة، تتنوّع حسب تنوّع المراحل والأجيال. فقد كان البعض منهم يبيع أراضي الجنّة، وبعضهم يبيع صكوك الغفران، وبعضهم يمهّد للظَلَمَة أن يبسطوا سلطانهم على المستضعفين..

وذلك من خلال ما يتيحه لهم مركزهم الديني المتّصل بالغيب الذي يخيّل للناس من خلاله أنّهم يملكون عالم الغيب كلّه، فيفرضون عليهم باسم الغيب ما يريدون أن يحصلوا عليه منهم من أموالٍ وشهواتٍ، مستغلّين سذاجة الناس وطيبتهم وجهلهم.

***

خلاصة الكلام

نطرح هذا الموضوع كمقدِّمة ضروريّة لعلاقة النبيّ محمّد بعدد كبير من الرهبان، الذين التقى بهم، وحاورهم في الشؤون الدينيّة، في مناسبات عديدة، وفي أمكنةٍ كثيرة وُجد فيها النبيّ: في مكّة، وبنوع

خاصّ في سوق عكاظ، وفي الطواف حول الكعبة، وفي غار حِراء حيث كان يعتكف الحُمْسُ من قريش، وفي الطائف، والمدينة، وعلى الطريق التجاريّة الرومانيّة بين آسيا الصغرى وبلاد الشام واليمن، وفي صحراء العرب؛ وربّما في الحبشة أيضاً.. لقاءات عديدة أسفرت عن تأثيرٍ واضحٍ ومهمّ في تعاليم محمّد والقرآن.

كلامُ القرآن يؤكّد لنا، في المرّات الأربع، اعتبارَ محمّد للحالة الرهبانيّة. ولئن كان من انتقادٍ ما فلأنّ بعض الرهبان أساءوا العملَ في ما فرضوه على أنفسهم من واجبات، وفي ما أحلّوه أو حرّموه على الناس. هؤلاء الرهبان يحدّد القرآنُ مفاسدَهم التي كانوا عليها في زمن محمّد، وهي، بنوع خاصّ: حبّهم للمال، والجاه، واكتناز الذهب والفضّة، من دون أن يُحسنوا بها لأحدٍ من المحتاجين، أو أن يُؤدّوا منها ما يجب من زكاة، أو ما يجب عليهم من عمل الخير؛ بل كانوا ينفقونها في مصالحهم، لا في سبيل الله.

لقد كان هؤلاء الرهبان، على ما يبدو، عدداً كبيراً، ذوي نشاط واسع في المجتمع العربي والمكّي خاصّة. وربّما كان بعضُهم أيضاً أوصياء على اليتامى، الذين كانوا هم أيضاً كثراً، وذلك لشدّة البؤس والفقر، وانتشار الأوبئة، وموت الرجال في الغزوات، فاستحلّوا لأنفسهم ما ائتمنوا عليه، وبدّلوا مقتنيات اليتامى بمقتنياتهم، وأخذوا أجرتَهم في حين كان يجب عليهم العمل مجّاناً. ولهذا قال: "إنّ كَثِيراً مِنَ الأحْبارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأكُلُونَ أمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ".

وكذلك كان ثمّة رهبان يحبّون الجاه ويؤثرون المراكز العليا، وأن يدعوهم الناسُ عظماء، كما يقول الإنجيل عن رؤساء الكهنة والفرّيسيّين. هؤلاء الرهبان يصفهم القرآن بأنّهم نَصَّبوا أنفسَهم "أَرْبَاباً مِن دُونِ الله"، وبأنّ النّاس اتّخذوهم لهم سادةً، يطيعونهم في كلّ شيء، حتّى أنّهم يحلّلون لهم ما حرّمه الله عليهم؛ ويحرّمون عليهم ما حلّله الله لهم. والأغرب من هذا كلّه أنّهم كانوا "يَصُدُّونَ (الناس) عَن سَبيلِ اللَّهِ"، وعن معرفة الحقّ.

هؤلاء الرهبان كانوا موجودين في مكّة والمدينة، وقد عرفهم محمّد جيّداً، وهو الذي كان يتيماً، مثله مثل سائر اليتامى. وربّما اعتدوا على مكاسبه التجاريّة وظلموه. لهذا كان عنيفاً ضدّهم، وبحقّ. ولهذا وصفهم بأنّهم لم يرعوا الرهبانيّة حقَّ رعايتها، وهم الذين أنشأوها وفرضوها على الناس، في حين أنّها لم تكن موجودةً لا الإنجيل ولا في الكنيسة في عهودها الأولى. وهذا أيضاً صحيح.

***

ولكن ثمّة رهبان آخرون، وصفهم القرآن بأحسن الصفات: بسببهم وصف النصارى بما لم يصف به أحداً من العالَمين. واعتبرهم بأنّهم أقرب الناس إلى الذين آمنوا برسالة محمّد، وأكثرهم مودَّةً لهم، لا لشيء آخر سوى أنّ فيهم رهباناً؛ وبسبب هؤلاء الرهبان هم "لا يَسْتَكْبِرُون"، ولا يتشوّفون على عامّة الناس، ولا يستقوون على الضعفاء منهم.

هؤلاء الرهبان، إذا سمعوا آيات القرآن تتلى وتُرنّم تفيض أعينهم من الدمع، بسبب أنّ ما يسمعون يؤكّد ما هم عليه من عبادات، وما يعرفون من حقائق. لهذا فهم يودّون أن تُكتب أسماؤهم مع القوم الصالحين. ولهذا أيضاً يكافئهم الله بجنّات خالدين فيها. ذلك لأنّهم أحسنوا إلى اليتامى والمساكين. فيما الذين لم يعملوا الحسنات، هم من أصحاب الجحيم.

والذين آمنوا برسالة محمّد، عليهم، إذا ما لم يكونوا كهؤلاء الرهبان "المُحْسِنِين"، ألاّ يسلكوا طريقَ الرهبانيّة، ولا يحرّموا على أنفسهم ما حرّمه الرهبان. هذه الحياة يعتنقها مَن هو أهل لها، ومن يستطيعها. ومن يسلكها من غير استحقاق فهو يظلم نفسه، ويعتدي على الناس، ويأكل أرزاقهم حراماً.

وثمّة سبب آخر لتعظيم النصارى، وتفضيلهم على اليهود، بالرغم من أنّ كفر النصارى أعظم من كفر اليهود، لأنّ النصارى مشركون بالله منكرون لنبوّة محمّد؛ فيما اليهود كافرون بنبوّة محمّد فقط. ومع هذا، فإنّ النصارى أقرب إلى المسلمين من اليهود، وذاك لبعدهم عن طلب الدنيا وملذّاتها، وميلهم إلى الآخرة ورضى الله؛ فيما اليهود يحرصون على طلب أمور الدنيا، وانهماكهم بها. من هنا قال النبيّ: "حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة".

يبقى أن نشير إلى ما جاء في سورة المائدة، تتمّة لما جاء في الآيات السابقة، وهو: "**يَا أيُّها الذينَ آمَنُوا! لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أحلَّ**

الله لكم. ولا تَعْتَدُوا. إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ. وكُلُوا ممّا رَزَقَكُمُ الله حلالاً طَيِّباً. وَاتَّقُوا الله الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُون" (٥ /٨٧-٨٨).

يبدو أنّ هاتين الآيتين نزلتا في غير مناسبة، ولأجل هدفٍ آخر. إذ هي تتناقض مع ما سبق من آيات: فهذه تشيد بالرهبان الذين تركوا شهوات الدنيا، ولا يتكابرون على الناس.. أمّا هاتان الآيتان فتدعوان المسلمين إلى الأخذ بطيّبات الدنيا وملذّاتها.. وهذا "التناقض" إنّما هو من أجل أن يتحقّق مبدأ الوسطيّة بين التفريط والإفراط، كما في قوله: **"وجَعَلْنَاكُمْ أمّةً وَسَطاً"** (٢ /١٤٣)، وقوله: **"أمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ"** (٥ /٦٦) في عقيدتها ومسلكها، وقول الشيخ محمّد فضل الله بـ"التوازن بين الدنيا والآخرة"[183].

---

183 الشيخ محمّد حسين فضل الله، من وحي القرآن، ج ٨؛ ص ٣١١.

٥٨

دور الرهبان في حياة النبيّ محمّد

ذكرت كتب السِّيرة النبوبّة محمّداً، منذ طفولته، مع كثيرٍ من الرهبان، بأسمائهم. وذكرت علاقته بهم، واهتمامهم به وبشفائهم له من أمراضه، ومجالستهم إيّاه، وتحاورهم معه في شؤونٍ دينيّة واجتماعيّة. وأوّل مَن كتب ذلك كان ابن إسحق (ت ١٥١هـ /٧٦٨م) الذي عنه أخذ ابن هشام (ت ٢١٣هـ /٨٢٨ م)، صاحب كتاب "**السيرة النبويّة**". ثمّ تبعهما آخرون.

لقد ذكر ابن هشام حياة النبيّ محمّد بالتفصيل، سنةً فسنة، منذ نبوّات المتنبّئين عليه، قبل مولده، من أحبار اليهود، وأساقفة النّصارى ورهبانهم، وملوك العرب والعجم، والعرّافين؛ وأيضاً شهادة الأحجار والأشجار والحيوانات.. هذه عرفتْه نبيّاً، وقدّمت له التحيّة والخضوع.

الذين كتبوا في سيرة النبي محمّد هم عيال على ابن هشام. الذي يبقى المرجع الأساس والمصدر الأوّل لكلّ بحث عن النبيّ. لهذا سنعتمد عليه في معالجة موضوعنا، أي في معرفة علاقة محمّد برهبان النصارى، وأخذه عنهم. ونذكر أهمّهم :

أوّلاً - محمّد والراهب بَحِيْرَا

كان أهمّ هؤلاء الرهبان وأوّلهم الراهب بَحِيْرَى. جاء عند ابن هشام " أنّ أبا طالب خرج في ركْبٍ تاجراً إلى الشام. فلمّا تهيّأ للرحيل، وأجمع المسير، صَبَّ به رسول الله[184]، فرقّ له أبو طالب. وقال: والله! لأَخرجنَّ به معي. ولا يفارقني. ولا أفارقه أبداً. فخرج به معه..".

فلمّا نزل الركبُ بُصرَى من أرض الشام، وبها راهبٌ، يقال له بَحِيْرَى في صومعة له. وكان إليه عِلْم النصرانيّة. ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهبٌ، إليه يصير علمُهم عن كتابٍ فيها، فيما يزعمون، يتوارثونه كابراً عن كابر.

فلمّا نزلوا ذلك العام ببَحِيْرَى، وكانوا كثيراً ما يمرّون به قبل ذلك، فلا يكلّمهم، ولا يعرض لهم، حتّى كان ذلك العام. فلمّا نزلوا به قريباً من صومعته، صنع لهم طعاماً كثيراً. وذلك، فيما يزعمون، عن شيء رآه وهو في صومعته. يزعمون أنّه رأى رسولَ الله وهو في صومعته في الرّكب حين أقبلوا، وغمامةً تظلّله من بين القوم. قال: ثمّ أقبلوا فنزلوا في ظلّ شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حيث أظلّت الشجرة، وتهصّرتْ أغصان الشجرة على رسول الله، حتّى استظلّ تحتها. فلمّا رأى ذلك بَحِيْرَى نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام، فصُنع.

ثمّ أرسل إليهم. فقال: قد صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا

184 وكان رسول الله، إذ ذاك، ابن ٩ سنين. وقال الطبري ابن ١٢ سنة.

أُحبّ أن تحضروا كلّكم، صغيركم وكبيركم، عبدكم وحرّكم. فقال له رجل منهم: والله، يا بَحِيْرَى، إنّ لك لشأناً اليوم! ما كنتَ تصنع هذا بنا، وقد كنّا نمرّ بك كثيراً. فما شأنك اليوم؟!

قال له بَحِيْرَى: صدقتَ. قد كان ما تقول. ولكنّكم ضيف. وقد أحببتُ أن أُكرمكم، وأصنع لكم طعاماً، فتأكلوا منه كلّكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسولُ الله من بين القوم، لحداثة سنّه، في رحال القوم تحت الشجرة. فلمّا نظر بَحِيْرَى في القوم لم يرَ الصفة التي يَعرف. فقال: يا معشر قريش! لا يتخلَّفن أحدٌ منكم عن طعامي.

قالوا له: يا بَحِيْرَى! ما تخلّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام. وهو أحدثُ القوم سنّاً، فتخلّف في رحالهم.

فقال: لا تفعلوا. أُدعوه. فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجلٌ من قريش مع القوم: واللاَّتِ والعُزَّى! إنْ كان لَلُؤمٌ بنا أنْ يتخلّفَ ابنُ عبد الله بن عبد المطلب عن طعامٍ مِن بيننا.

ثمّ قام إليه (بَحِيْرَى)، فاحتضنه، وأجلسه مع القوم.

فلمّا رآه بَحِيْرَى، جعل يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته. حتّى إذا فرغ القوم من طعامهم، وتفرّقوا، قام إليه بَحِيْرَى، فقال: يا غلام! أسألكُ، بحقِّ اللاَّتِ والعُزَّى، ألا ما أخبرتَني عمّا أسألُك عنه؟

وإنّما قال له بَحِيْرَى ذلك، لأنّه سمع قومَه يحلفون بهما. فزعموا

أنّ رسول الله قال: لا تسألْني باللاَّتِ والعُزَّى شيئاً. فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضَهما.

فقال له (محمّد): سلْني عمّا بدا لك.

فجعل (بَحِيْرَى) يسأله عن أشياء من حاله: من نومه، وهيئته، وأموره.

فجعل رسول الله يخبره. فيوافق ذلك ما عند بَحِيْرَى من صفته.

ثمّ نظر (بَحِيْرَى) إلى ظهره. فرأى خاتم النبوّة بين كتفَيه على موضعه من صفته التي عنده.

قال ابن اسحق: فلمّا فرغ (بَحِيْرَى)، أقبل على عمّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟

قال : إبني.

قال له بَحِيْرَى : ما هو بابنكَ. وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً.

قال : فإنّه ابن أخي.

قال : فما فعَلَ أبوه؟

قال : مات، وأمّه حبلى به.

قال : صدقتَ. فارجع بابن أخيك إلى بلده. واحذرْ عليه يهود.

فوالله، لئن رأَوه، وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّه شرّاً. فإنّه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم. فأسرعْ به إلى بلاده.

فخرج به عمّه أبو طالب سريعاً، حتّى أقدمَه مكّةَ حين فرغ من تجارته بالشام، فزعموا فيما روى الناس، أنّ زُرَيراً وتَمَّاماً ودَرْيا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله مثلَ ما رآه بَحِيْرَى في ذلك السَّفَر الذي كان فيه مع عمّه إبي طالب، فأرادوه. فردّهم عنه بَحِيْرَى، وذكّرهم ما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته... فصدّقوه بما قال. فتركوه وانصرفوا عنه.

ويضيف ابن سعد : ورجع أبو طالب بابن أخيه إلى مكّة؛ و" ما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه.

.. (ثمّ) قال الراهب لأبي طالب: لا تخرجنّ بابن أخيك إلى ههنا؛ فإنَّ اليهود أهلُ عداوة؛ وهذا نبيّ هذه الأمّة. وهو من العرب. واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل. فاحذَرْ على ابن أخيك"[185].

ثانياً - محمّد ونَسْطُورَا الراهب

قال ابن هشام: فلمّا بلغ رسول الله خمساً وعشرين سنة، تزوّج

185 طبقات ابن سعد، ١ /١٥٥.

مِن خديجة[186] بنت خُوَيلد بن أَسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ.. قال ابن إسحاق: بعثتْ إليه، فعرضتْ عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تُعطي غيرَه من التجّار، مع غلامٍ يقال له: مَيْسَرَة. قبلَه رسول الله منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامُها مَيسرة، حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله في ظلِّ شجرةٍ قريباً من صومعة راهبٍ من الرّهبان، فاطّلع الراهبُ إلى مَيسرة، فقال له: مَن هذا الرّجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له مَيسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحَرَم. فقال له الرّاهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلاّ نبيّ[187].

ثمّ باع رسول الله سلعتَه التي خرج بها. واشترى ما أراد أن يشتري. ثمّ أقبل قافلاً إلى مكّة. ومعه مَيسرة. فكان مَيسرة، فيما يزعمون، إذا كانت الهاجرة، واشتدّ الحرُّ، يرى مَلَكَين يُظِلاّنِه من الشمس، وهو يسير على بعيره. فلمّا قدم مكّة على خديجة، وكان قد

186 خديجة بنت خويلد كانت امرأةً تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجالَ في مالها، وتضاربهم إيّاه، بشيء تجعله لهم... فلمّا بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه، وعِظم أمانته، وكرم أخلاقه، رغبت فيه، فتزوّجته، وكانت قد بلغتِ الأربعين سنة، وأنجبتْ منه ثلاثة أو أربعة ذكور ماتوا أطفالاً، وأربعة بنات، هنّ: زينب، وأمّ كلثوم، ورُقَيّة، ثمّ فاطمة، مُتن في حياة أبيهنّ، ما عدا فاطمة، التي ماتت بعده بثلاثة أشهر.

187 وهذا الراهب ذكروا انّ اسمه نسطورا، وليس هو بحيرا المتقدّم ذكره. ١ /١٧٢، حاشية ١.

باع مالَها أضعافَ ما كان سابقاً. ثمّ حدّثها ميسرة عن قول الرّاهب، وعمّا كان يرى من إظلال المَلَكَين إيّاه.

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة قد ذكرتْ لوَرَقَة بن نوفل[188] - وكان ابنَ عمِّها، وكان نصرانيّاً قد تتبَّع الكتبَ، وعلِمَ مِن عِلْم النّاس - ما ذَكَرَ لها غلامُها ميسرة من قول الرّاهب، وما كان يَرى منه إذ كان المَلَكان يُظلاّنِه. فقال وَرَقَة: "لئنْ كان هذا حقّاً يا خديجة! إنّ محمّداً لَنبيُّ هذه الأمّة. وقد عرفتُ أنّه كائنٌ لهذه الأمّة نبيٌّ يُنتَظَر. هذا زمانُه". ثمّ قال في ذلك شعراً :

لَجِجْتُ وكنتُ في الذِّكرى لَجوجاً   لِهَمٍّ طالما بعثَ النشيـــجا

ووصفٍ مِن خديجةَ بعدَ وصفٍ   فقد طالَ انتظاريَ يا خَديجا.

أمّا ابن سعد فيروي الخبرَ نفسَه. قال: " فخرج (محمّد) مع مَيسَرة غلامِ خديجة، حتّى قدِمَا بُصرى من الشام. فنزلا في سوقِ بُصرى في ظلِّ شجرة، قريباً من صومعة راهب من الرهبان، يُقال له **نسطور**. فاطّلع الراهبُ إلى ميسرة. وكان يعرفه قبل ذلك. فقال: يا مَيسرة! مَن هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟

فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرَم.

---

188 وَرَقَة بن نَوفل بن أسد بن عبد العزّى بن قُصَي، إبن عمّ السيّدة خديجة بنت خُويلد، كان قسَّ مكّة، نديم عبد المطّلب، جدِّ محمّد، يعرف محمّداً جيّداً، منذ طفولته، وكان هو الذي زوّجه من خديجة، ودرّبه على الخلوة شهرَ رمضان، وعلى قراءة الكتب المقدّسة، والصوم والصلاة ومختلف العبادات.

فقال له الرّاهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلاّ نبيّ. ثمّ قال: في عَينَيه حُمرَة؟

قال ميسرة: نعم. لا تفارقه.

قال الرّاهب: هو هو آخر الأنبياء. يا ليتَ أنّي أدركُه حين يُؤمَر بالخروج!"[189].

ثالثاً - ذكر زيد وراهب من البلقاء

هو زيد بن عَمرو بن نَفيل بن عبد العزّى، إبن عمّ عمر بن الخطّاب. خرج إلى الشام يطلبُ دينَ إبراهيم. ويسأل الرهبانَ والأحبارَ، حتّى بلغ الموصل والجزيرةَ كلَّها. ثمّ أقبل فجال الشام كلَّه، حتّى انتهى إلى راهبٍ بمَيفعة من أرض البلقاء. كان ينتهي إليه علمُ أهلِ النّصرانيّة، فيما يزعمون. فسأله عن الحنيفيّة دين إبراهيم. فقال: إنّك لَتطلب ديناً ما أنتَ بواجدٍ مَن يحملُك عليه اليوم. ولكن، قد أظلّ زمانُ نبيٍّ يخرج من بلادك التي خرجتَ منها. يُبعَث بدين إبراهيم الحنيفيّة، فالحقْ بها. فإنّه مبعوث الآن. هذا زمانه. وقد كان شامَّ اليهوديّة والنصرانيّة. فلم يرضَ شيئاً منهما.

فخرج سريعاً، حين قال له ذلك الرّاهب ما قال، يريد مكّة. حتّى إذا توسّط بلاد لخم، عَدَوا عليه فقتلوه..

189 طبقات ابن سعد، ١ /١٥٦.

رابعاً - دور القسّ وَرَقَة عند مبعث رسول الله

لمّا جاء جبريلُ محمّداً بالوحي، اضطرب محمّد وراح يخبر خديجة بنزول جبريل عليه. ثمّ حدَّثَها بما رأى وسمع. فقالت: أبشرْ يا ابنَ عمّ! واثبُتْ. فوالذي نفسُ خديجة بيده، إنّي لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمّة.

ثمّ قامتْ فجمعتْ عليها ثيابَها. ثمّ انطلقتْ إلى وَرَقَة بن نوفل..، وهو ابن عمّها. وكان وَرَقَة قد تنصّر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل. فأخبرتْه بما أخبرَها به رسولُ الله أنّه رأى وسمع. فقال وَرَقَة بن نوفل: "قدّوسٌ قدّوسٌ. والذي نفسُ وَرَقَة بيده، لئن كنتِ صدقتيني يا خديجة، لقد جاءه النّاموسُ الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنّه لَنبيُّ هذه الأُمّة. فقولي له: فَلْيَثْبُتْ".

فرجعتْ خديجةُ إلى رسول الله، فأخبرتْه بقول وَرَقَة.

ولمّا قضى رسولُ الله جوارَه وانصرف، صنع كما كان يصنع : بدأ بالكعبة، فطاف بها، فلقيَه وَرَقَة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة. فقال: "يا ابنَ أخي! أخبرْني بما رأيتَ وسمعتَ". فأخبره رسولُ الله. فقال له وَرَقَة : "والذي نفسي بيده! إنّك لَنبيُّ هذه الأمّة. ولقد جاءك النّاموس الأكبر الذي جاء موسى. وَلتُكَذِّبَنَّهْ. وَلتُؤْذَيَنَّهْ. وَلتُخْرِجَنَّهْ. وَلتُقَاتِلَنَّهْ. ولئن أنا أدركتُ ذلك اليومَ لأنْصرنَّ الله نَصراً يعلمُه". ثمّ أدنى رأسَه منه. فقَبَّل يافوخَه. ثمّ انصرف رسول الله إلى منزله.

خامساً - رسول الله وعدّاس في الطائف

قال ابن اسحاق: ولمّا هلك أبو طالب، نالتْ قريش من رسول الله من الأذَى ما لم تكنْ تنال منه في حياة عمّه أبي طالب. فخرج رسول الله إلى الطائف، يلتمس النصرةَ من ثقيف، والمنعةَ بهم من قومه، ورجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله. فخرج إليهم وحده... ولكنّهم لم يسمعوا له. بل لاحقه سفهاؤهم إلى حائط بستان..

قال: فلمّا رآه ابنا ربيعة، عتبة وشيبة، وما لقيَ، تحرّكتْ له رحمُهما، فدعَوا غلاماً لهما نصرانيّاً، يُقال له **عَدَّاس**. فقالا له: خذْ قطفاً من هذا العنب، فضعْه في هذا الطبق. ثمّ اذهبْ به إلى ذلك الرّجل. فقل له يأكل منه. ففعلَ عَدَّاس. ثمّ أقبل به حتّى وضعه بين يديه. ثمّ قال له: كُلْ.

فلمّا وضع رسولُ الله فيه يدَه، قال: باسمِ الله. ثمّ أكلَ. فنظر عَدَّاسُ في وجهه. ثمّ قال: والله! إنّ هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذه البلاد. فقال له رسول الله: ومِن أهلِ أيِّ البلادِ أنتَ، يا عَدَّاس! وما دينُك؟ قال: نصراني. وأنا رجلٌ من أهلِ نينوى. فقالَ رسولُ الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى. فقال له عَدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متّى؟ فقال رسول الله: ذاك أخي. كان نبيّاً وأنا نبيّ.

فأكبَّ عَدَّاسُ على رسول الله يقبّل رأسَه ويدَيه وقدمَيه.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسدَه عليك. فلمّا جاءهما عَدَّاس، قالا له: ويلكَ يا عَدَّاس! ما لك تقبِّلُ رأسَ

هذا الرّجل ويدَيه وقدمَيه؟ قال: يا سيّدي! ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا. لقد أخبرني بأمرٍ لا يعلمُه إلاّ نبيّ. قالا له: ويحَكَ يا عَدَّاس! لا يصرفنّكَ عن دينك. فإنّ دينك خيرٌ من دينه.

سادساً - الراهب أبو قَيْس، صِرْمَة بن أبي أنَس

قال ابن إسحاق: فلمّا اطمأنّتْ برسول الله دارُه، وأظهر الله بها دينَه، وسُرَّه بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار، قال أبو قَيس، صرمة بن أبي أنَس، أخو بني عدي بن النّجّار... **وكان رجلاً قد ترهّبَ في الجاهليّة، ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وتطهّر من الحائض من النساء،** وهمّ بالنصرانيّة. ثمّ أمسك عنها، ودخل بيتاً له، فاتّخذه مسجداً، لا تدخلُه عليه فيه طامثٌ ولا جُنب. وقال : أعبد ربَّ إبراهيم، حين فارق الأوثان وكرهها، حتّى قدم رسول الله المدينة، فأسلم. وحسنَ إسلامُه. وهو شيخٌ كبير، قوّالاً للحقّ.

سابعاً - ذكر نصارى نجران وما نزّل الله فيهم

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله وفدُ نصارى نجران، ستّون راكباً. فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر، إليهم يؤول أمرهم : العاقب، أمير القوم، واسمه عبد المسيح؛ والسيّد، صاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم؛ و**أبو حارثة بن علقمة،** أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم.

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتّى حسن علمه في دينهم. فكانت ملوك الروم من النّصرانيّة قد شرّفوه، وموّلوه،

وأخدموه، وبنَوا له الكنائس، وبسَطوا عليه الكرامات، لِما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

لمّا رجعوا إلى رسول الله من نجران، جلس أبو حارثة على بغلةٍ له موجِّهاً إلى رسول الله، وإلى جنبه أخ له، يقال له: كوز بن علقمة[190]، فعثرتْ بغلة أبي حارثة. فقال كوز: تعس الأبعد. -يريد رسول الله-. فقال له أبو حارثة: بل وأنتَ تعست! فقال: ولِمَ يا أخي؟ قال : والله إنّه النّبيّ الذي كنّا ننتظر. فقال له كوز: ما يمنعك منه وأنتَ تعلم هذا؟ قال ما صنع بنا هؤلاء القوم[191] شرّفونا، وموّلونا، وأكرمونا. فلو فعلتُ نزعوا منّا كلَّ ما ترى.

ثامناً - محمّد وصاحبُ دَير

جاء في الطبقات الكبرى لـ **ابن سعد** (ت ٢٣٠هـ /٨٤٤)[192]:

عن عبدالله بن محمّد بن عقيل، قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام. فقال له النّبيّ: إيْ عَمْ! إلى مَن تُخَلِّفُني ههنا؟ فما لي أمٌّ تَكفُلُني ولا أحدٌ يُؤْويني؟ قال: فرَقَّ له. ثمّ أردفه خلفه. فخرج به، فنزلوا على صاحب ديرٍ.

190 قال ابن هشام: ويُقال له : كرز.

191 أي: الروم.

192 إبن سعد، **ألطبقات الكبرى**، دار صادر بيروت، تسعة أجزاء بما فيها جزء الفهارس العامّة.

فقال صاحبُ الدير: ما هذا الغلام منك؟

قال: إبني.

قال: : ما هو بابنك. ولا ينبغي أن يكون له أبٌ حيٌّ.

قال: وَلِمَ؟

قال: لأنّ وجهَه وجهُ نبيّ، وعينَه عينُ نبيّ.

قال: وما النّبيّ؟

قال: الذي يُوحَى إليه من السماء فَيُنَبِّئُ به أهلَ الأرضِ.

قال: الله أَجَلُّ ممّا تقول.

قال: فاتَّقِ عليه اليهودَ.

تاسعاً - محمّد وصاحبُ ديرٍ آخر

قال: ثمّ خرج حتّى نزل براهبٍ أيضاً صاحبِ ديرٍ.

فقال: ما هذا الغلامُ منك؟

قال: إبني.

قال: ما هو بابنك. وما ينبغي أن يكون له أبٌ حيّ.

قال: ولِمَ ذلك؟

قال: لأنّ وجهه وجه نبيّ وعينه عين نبيّ.

قال: سبحانَ الله! الله أجلّ ممّا تقول.

وقال: يا ابنَ أخي! ألا تسمع ما يقولون؟

قال: إيْ عمّ! لا تُنْكِرْ لله قُدرَةً"[193].

عاشراً - أخبار محمّد مع رهبان

"ذكرَ النبيُّ يوماً، ووصفَ القيامةَ، وبالغَ في الإنذار. فرقَّ له الناس وبكَوا. فاجتمع عشرةٌ من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجُمْحي، وتشاوروا **واتّفقوا على أن يترهّبوا، ويلبسوا المسوحَ، ويُجِبُّوا مَذاكِيرَهم، ويصوموا الدهرَ، ويقوموا الليلَ، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحمَ والوَدَك، ولا يقربوا النساء والطِّيبَ، ويسيحوا في الأرض**.

فقال (النبي) لامرأته (عثمان) أمِّ حكيم بنت أميّة، واسمها خولة، وكانت عَطّارة : أحَقٌّ ما بلَغَني عن زوجِكِ وأصحابِه؟.

فكرهتْ أن تكذب على رسول الله، وكرهتْ أن تبدي أمرَ زوجِها، فقالت: "يا رسولَ الله! إن كان قد أخبركَ عثمان فقد صدق.

فرجع رسول الله. فلمّا جاء عثمان أخبرتْه زوجتُه بذلك. فمضى إلى رسول الله. فسأله النبيّ عن ذلك.

فقال (عثمان) : نعم.

فقال عليه السلام : أما إنّي لم آمرْ بذلك. إنّ لأنفُسِكمْ عليكم حقًّا: فصوموا وافطروا. وقوموا وناموا. فإنّي أقومُ وأنام. وأصومُ أفطر.

---

193 المرجع السابق نفسه، ١ /١٥٣.

وآكلُ اللحمَ والدَّسَم. وآتي النساءَ. فمن رغب عن سنّتي فليس منّي.

ثمّ جمع الناسَ وخطبهم، وقال : ما بالُ قوم حرَّموا النساءَ والطعامَ والطيبَ والنومَ وشهواتِ الدنيا! أما إنّي لا آمركم أن تكونوا قسّيسين ولا رهباناً. فليس من ديني تركُ اللّحم والنساء، ولا اتّخاذُ الصوامع. وأنّ سياحةَ أمّتي ورهبانيّتَهم الجهاد. فاعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً، وحجُّوا واعتمروا، وأَقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ، وصوموا رمضان، واستقيموا يستقمْ لكم. فإنّما هَلِكَ مَن هلك من قبلكم بالتشديد، شَّددوا على أنفسهم، فشدَّدَ الله عليهم. فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع. فأنزل الله هذه الآية"[194].

* وفي رواية ثانية عن عائشة قالت : إنّ رسولَ الله لقي عثمان بن مظعون يوماً، فقال له: يا عثمان! إنّ الرهبانيّة لم تُكتب علينا. أفما لكَ فيَّ أسوة؟ فوالله! إنّي أخشاكم لله وأحفظُكم لحدوده.

* عن عبد الله بن مسعود قال : "كنتُ رديفَ رسولِ الله على حمار، فقال لي: يا ابنَ أمّ عبد! أتدري ما رهبانيّة أمّتي؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم. قال : الهجرة، والصلاة، والجهاد، والصوم، والعمرة، والتكبير على القلاع.

* ورُوِي عن أنَس بن مالك عن النبيّ قال: إنّ لكلِّ أمّةٍ رهبانيّةً، ورهبانيّةُ هذه الأمّة الجهاد في سبيل الله.

---

194 راجع هذا الخبر في **حكاية الصوفيّة**، للطبيب الشيخ محمّد أبي اليُسر عابدين، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٣، ص ٨٧-٨٨.

* وعن ابن عبّاس في تفسيره لآية "ورهبانيّةً ابتدَعُوهَا..." (٥٧ /٢٧) قال : "وقالت طائفة منهم : "دعونا نسيحُ في الأرضِ، ونهيمُ، ونشربُ كما تشرب الوحوش. فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا".

* وعن ابن عبّاس أيضاً: "وقالت طائفة منهم: "إبنوا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفرُ الآبار، ونحترثُ البقول، فلا نردَّ عليكم، ولا نمرَّ بكم".

خلاصة القول :

لقد تعرّف النبيّ محمّد، منذ طفولته، على رهبانٍ وأحبارٍ وقسّيسين كثيرين. تعرّف عليهم في موطنه مكّة، وفي الكعبة نفسها، كما تعرّف عليهم في رحلاته التجاريّة، وفي أسفاره الرسوليّة. وتذكر كتب السيرة النبويّة أسماءَ الكثيرين منهم، وتذكر دورَهم مع محمّد، ومحادثاته العديدة معه.

وما ذكرنا، في بحثنا، سوى نموذج عن ما قام بها بعضهم مع محمّد، من تنبّوءات، وشفاءات لأمراضه، ونصائح أسدوها له، وإرشادات في كيفيّة تصرّفه وعباداته، وتعليم في ممارساته التقويّة...

وهو، ولو بعد أربعين سنة، يذكر خطب القسّ بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ. ويذكر ذلك لوفد من قبيلة القسّ وَفد على محمّد، فأخبرهم بما بقي يتذكّر منه، وقد كان متأثّراً به.

ويجب ألاّ يذهب من بال أحد ما ترك الرهبان في الأدب

الإسلامي من ذكرٍ وأثر. ولا يغيب عن بال أحد ما للديارات النصرانيّة، وكان تُعَدّ بالمئات، في بلاد المسلمين، وقد دخلها المسلمون، زمن الفتح، واستمتعوا بخيراتها، وشربوا نبيذَها، وامتدحوها بأشعارهم.

كما لا يخفى على باحثٍ ما للحياة الرهبانيّة من أثرٍ في حياة الصوفيّين المسلمين، الذين أخذوا عن الرهبان الكثير من الطرق والعادات والصلوات والزيّ وحياة الزهد والتقشّف، وطرق الدخول في حياة التصوّف.

هذه الأمور هي مادّة لبحثٍ جديد غزير المعطيات كثير الفائدة في معرفة ما للرهبان من أثرٍ في الإسلام كلّه، كما في القرآن وسيرة محمّد وأحاديثه.

خاتمة الكتاب

٥٩ . الراهب عاقل... جنّ جنونُه

٥٩

الراهبُ عاقلٌ... جُنَّ جنونُه

الحياة الرهبانيّة مسيرة مسيحيّة مثاليّة. غريبة عن هذا العالم : هي روحيّة، وهو مادّي. هي نسكيّة تقشّفيّة زاهدة، وهو يسعى إلى المال والشهوة والشهرة وتحقيق الرغبات. هي تعيش من أجل الملكوت، وهو يعيش من أجل هذه الدنيا.

تحدّد الحياةَ الرهبانيّة ميزتان : اتّباع المسيح والاقتداء به. في هاتين الميزتَين كلُّ القوانين والفرائض، وخلاصة الناموس والإنجيل، وسلوك الإنسان الملتزم. وعلى الراهب أن يرتّب حياته من أجل أن يسير وراء المسيح حتّى جنون الصليب. هذا الجنون يلاحق الراهبَ كلَّ حياته، وفي كلّ شيء في حياته، وبلا هوادة :

١ . جنون راهب يترك العالم الذي يراه ويلمسه ليتعلّق بالله الذي لا يراه ولا يلمسه. وهو، بتعلّقه بهذا وبتركه ذاك، متطرّف متهوّر : فلا الله الذي ينشده يستطيع أن يمتلكه، ولا العالم الذي يتركه يتمكّن من الخلاص منه. وإن كان الله يستهويه بعض الشيء، فالعالم الذي يهرب منه يُغريه في كلّ شيء. وهو، في هذا الاضطراب، ممزّق قلق : يسعى إلى المطلق كلّ حياته، فيما يرى نفسَه مغمورا ً بعالم النسبيّات والمغريات حتّى الرأس.

٢ . جنون راهب يريد الكمال، ولا يرى نفسَه إلاّ ساقطاً في مهاوي النقص والفشل : يريد أن يصير في مصافّ القدّيسين، ولكنّ الخطيئة تترصّده في كلّ لحظة. وأعجب العجب أن يرى كمالَه في شعوره بنقصه. بل يوم يكون أكثر شعوراً بنقصه يكون أكثر قرباً من الكمال. وبمقدار ما يتأكّد من نقصه يتأكّد من سعيه نحو الكمال.

٣ . جنون راهبٍ لا يرى نفسَه إلاّ معلَّقاً على الصليب. يريد التخلّص منه، وهو ينتصب أمامه. يدير وجهه عنه، فإذا به مرسوم بين عينَيه. الراهب والصليب توأمان متلازمان. أراد الراهبُ صليبَه أم لم يرد، يبقى الصليب فوق منكبَيه، إلى أن يرتاح جسدُه الترابي في الأرض. يشهد الراهب على "يوم الجمعة" باستمرار، ويترقّب "يوم الأحد" برجاء. ولكنّه باقٍ في يوم ذاك "السبت العظيم"، واقف بين الموت والحياة، بين الفشل والنصر، ومشدود إليهما معاً.

٤ . جنون راهب لا شيء عنده يتّصف بالصغر أو الكبر، بالهامّ أو الأهمّ، بالصحّ أو الأصحّ، بالوضيع أو الرفيع، بالمؤجّل أو المستعجل... كلّ شيء عنده سواء. ولكلّ شيء قيمته، لا لأن الراهب لا يعرف أن يميّز الأشياء، بل لأنّ قيمة الأشياء عنده تُقاس بما يضفي عليها من نِعَمِ التجسّد الإلهيّ وبركاته. كلّ شيء، مهما كان هزيلاً أو حقيراً، هو للراهب وسيلة من وسائل الخلاص. وطريق المجد، عنده، إماتات متواصلة، وتضحيات، وقرابين لتمجيد الربّ وخلاص العالم.

٥ . جنون راهب يعمل لغيره، لغيرٍ يجهله، أو لغير قد لا

يستحقّ. ومع هذا، فهو يعمل من دون أجرٍ، يعطي من دون منّة، يقدّم من دون مبادلة، يُحبّ بلا هوىً. يزرع وسواه يحصد. يجهد من أجل أن يرتاح غيره وينعم. يغرس كرمةً ولا يترنّح بخمرتها. يبني صروحاً فخمة ويسكن كوخاً حقيراً. يحقّق معجزات وسواه يتباهى بما يحقّق. مجّانيّة الراهب بُعدٌ لشخصيّته الرهبانيّة الغريبة عن منطق أهل هذا الدهر.

٦ . جنون راهب يتخلّى عن كلّ مغريات الدنيا، في سبيل المطلق : يتمّم إرادة سواه لا إرادته. يسير باتّجاه معاكس لتيّار الحياة. طاعته قهرٌ لحرّيتّه، وانفتاح على الآخرين. عفّته من أجل حصر الموت في العالم في منبعه. كماله في الإقرار بنقائصه وكشفه لها. كِبرُه في لجّة تواضعه. كرامتُه في توفير الحرّيّة للآخرين. نجاحه في أن تتحوّل انتصاراته إلى مجهول. وسامه يُعلَّق على صدر رئيسٍ قد لا يستحقّه. قداسته في التكفير عن خطايا غيره.. أليس هذا جنون في منطق العالم؟!

٧ . جنون راهب مرهَف الإحساس، مسحورٌ، مفتون بكلّ ما في الأرض من مباهج، حريصٌ على الجمال أينما وُجد : في عبير زهرة يتضوّع، وفي حفيف وُرَيقة على غصن ميّال، وخرير جدول تنساب مياهُه معرورجةً بين الحصى، وموجة تطوي مياهَ البحر لتنتحر على الشاطئ، ولمعان نجمة تبدو درّة يتراقص ضوؤها في بهو الفضاء، وفي صوت طيرٍ صدّاح يزغرد قبل طلوع الشمس، وفي أرضٍ ربيعيّة تشتعل زهراً، وفي بسمةٍ ناعمة على شفةٍ نديّة، وفي عينٍ خجولة بألحاظها، وفي نظرة تنفذ إلى القلب فتصرعه، وفي صوت نغشٍ يرنّ

في الصدر صداه، وفي خصلة شعر تلاعبها هبّات النسيم، وفي قدٍّ ممشوق يتمايل غنجاً ودلالاً... كلّ هذه المفاتن تُغري الراهب، وتكون له صليباً حتّى الجنون.

٨ . جنون راهب يتنازعه ميلان متناقضان : ميلٌ إلى البرّيّة، وميل إلى المجتمع. ومع هذا، إن عاش في البرّيّة فهو رسول، وإن عاش في المجتمع فهو متوحّد. أفي البرّيّة كان أم في المدينة، فهو يعمل من أجل خلاص الجميع. هو يعمل في تقديس نفسه من أجل تقديس الآخرين. يعمل باستمرار، ليلَ نهار، وأينما كان، لحصْر دائرة الشرّ في العالم. وهو يعمل من أجل خلاص العالم أكثر من الذين هم في العالم. ويوم ينتصر الراهب في زوايا صومعته على نزوات نفسه، يكون انتصاره انتصاراً للبشريّة جمعاء. وحده الراهب يستطيع، بسعيه الدائم نحو الكمال والقداسة، أن يعطي للأشياء الصغيرة والعابرة قيمتَها الحقّ.

٩ . جنون راهب لا يكون راهباً حقّاً إلاّ في أقصى حدود العنف : الراهب هو الرافض مطلقاً. المعترض الدائم على وضعٍ قائم. المنتفض الغيور الذي لا يُعجبه العجب. الثائر المتوثّب على كلّ أمرٍ عاديٍّ مبتذل. المستعدّ المتأهّب "لاعتقال كلّ ذهنٍ من أجل المسيح". الجريء القويّ الذي يفضح سخافات العالم. المترقّب المتبصّر في الزمن العابر لعلامات الزمن الآتي. النذير الخطير لكلّ ظالم متعدٍّ على حقوق الناس. الطامح إلى كلّ جديد ولو في تقاليدَ بالية. السارق لقيم الأشياء في وضح النهار. النبيّ الذي يستنطق الغيب. الرائي في ليلٍ لا

يملك أحدٌ فيه رؤية... فضيلة الراهب لا تُبنَى على قاعدة "خير الأمور الوسط"، فهي متوتّرة حتّى الجنون.

١٠ . جنون راهب يعمل ليلَ نهار من دون توقّف، أو اكتفاء. ومع هذا فهو يكفيه من العالم أبسطُ الأمور المعيشيّة. يعمل من شفقة على صحّته. يجهد دائماً في سبيل بناء الأديار والمدارس والمياتم وامتلاك الأرزاق الشاسعة... غير أنّه، وهو الساعي في طريق الكمال، لا يعرف في قاموسه كلمة "يكفي". يكفيه من خيرات الأرض القليل القليل؛ ومن خيرات السماء يريد كلّ شيء... من الأملاك والأرزاق عنده الكثير الكثير، ولكنّه لا يملك منها قدر كفّ يده، ومحروم من التمتّع بها.

١١ . جنون راهب شهيد حيّ، ولكن من دون مجد. شهيد لم تمزّقه أنياب السباع، ولكنّ كلّ ما في الأرض من شرور تتربّص به. شهيد الساعة الأخيرة من العمر، فيما الناس يعيشون ساعات العمر مليئة بالملذّات والطيّبات. شهيد عشقٍ إلهيّ عميق، لا يتذوّق فيه طعم الهوى. شهيد صلاة يريدها فعّالة مُستجابَة، فإذا هي مملّة متعبة. شهيد السهر والأرق والسأم والضجر والملل ومناجاة حبّ روحانيّ، فيما الناس في طربٍ وزهوٍ وسعيٍ نحو الامتلاء حتّى التخمة.

١٢ . جنون راهب له مع الحقيقة تاريخ. وحدَه يتجرّأ على قول الحقيقة مهما كانت صعبة. يقولها من دون مواربة. يعلنها من دون خوف. يكشفها للملأ. يكتب فيها الكتب. يبشّر بها بأيّ وسيلة. يكرّس

حياته لها لا لأي شيء آخر.. همّه الأكبر أن يكشف كلَّ مستور، ويُعلن كلّ خفيّ، ويُظهر خبث الخبثاء. ويبيّن أسبابَ كلِّ علّة. ويؤنّب على كلّ ما يراه شاذّاً. ويُربك ضمائر المسترخين.. مكانه على القِمم العالية. يقف في وضح النهار. وعلى السطوح يضيء الشموع والمصابيح.

الراهبُ صاحب الكلمة التي تعني ما يجب أن تعني. الشيء عنده هو الشيء. كلماته هي الأشياء عينها. لا يخلط بينها، ولا ينقل معنى شيء إلى شيء آخر، ولا يشير إلى شيء وهو يقصد آخر.. الفكر والفعل عنده واحد. كلُّ جهده في سعيه لتضييق المسافة بين معنى الكلمة وحقيقة الشيء. يقول كلمتَه ويدلّ بإصبعه على ما يقصد. وما يتصوّره في ذهنه هو نفسه يراه بعينيه، ويلمسه بيديه. حقيقته كلّها تقوم على "تجسّد الكلمة" بأيّ معنى كان هذا "التجسّد". غير هذا هو مسلك العالم.

العالم يغيّر الأزياء. يتلاعب بالألوان. يستعمل المساحيق والعطور. أهل هذا الدهر يحملون أكثر من جنسيّة. يبدّلون مساكنهم. يتركون تقاليدهم. تكلّمهم مراراً. وتزورهم تكراراً، في بيوتهم ومراكز عملهم، في راحتهم وانشغالهم، حتّى تعرف عنهم شيئاً... أمّا الراهب فلا مساحيق عنده، ولا أزياء، ولا مواربة. إنّه هو هو. إن رأيتَه، ولو للمرّة الأولى، عرفتَه، وعرفتَ عنه كلَّ شيء. عرفتَه قبل أن تكلّمَه. عرفته من ثوبه ورموزه، من تقاليده وتاريخه وانتمائه وكيفيّة تصرّفه.. إنّه لا يخدعك. هو واضح صريح صادق...

هذه هي حقيقة الراهب المعلنة والمكشوفة. فمَن مثله يعلنها ويكشفها من دون تزوير أو تلوين! مَن مثله يلاحق الكذبة ولو على حساب حياته! ومَن مثله يطارد الأشرار ولو إلى آخر طرقهم! وحده الراهب يتجرّأ على كشف الحقيقة عند شعوب بدائيّة تُساير وتستعمل الرموز والإشارات والألغاز والتقيّة... حذارِ أن تطعن بالحقيقة أمام راهبٍ! عندئذ تراه يطير صوابه. يجنّ جنونه. ويتعقّبك إلى آخر حدود هذا الكون! حذارِ أن تكون باطنيّاً معه، أو أن تماري وتساير! حذارِ من ذلك كلّه. فإنّ له في ربّه قدوةً في كشف الحقيقة، ولو أدّى به ذلك إلى الجلجلة.

١٣ . الراهب، في حقيقته، هو عامل الاتّزان في هذا العالم. إنْ سقط من حساب الناس سقطت المدينة على رؤوس أهلِها. هو المحافظ على المعادلة الصادقة بين الخير والشرّ في المجتمعات البشريّة. إن انتفى وجودُه اضطربت المعادلة، وطغى الفساد. ألم يقل الله قديماً : لئن وجدتُ في هذه المدينة عشرةَ أبرار، رفعتُ عنها غضبي! واليوم يقول أيضاً : مجتمع من دون راهب هو مجتمع يتحكّم الشرّ بأهله، ويملأ الفسادُ شوارعَ مدينته، ويسرح الأشرار فيها ويمرحون. وحدَه الراهب يبقى علامةً للخير، ومنارةً للقداسة.

إنْ أُلغيت الحياة الرهبانيّة من مجتمعٍ ما، تتفاقم على العالم الشرور، ويفسد التوازن بين الشرّ والخير. وتنتفي المجّانيّة من تعامل الناس بعضهم مع بعض. وتزول دوافع الرحمة من قلوبهم، ويمتنع كلُّ

اهتمام بالفقراء والمساكين والمرضى والمحتاجين. ويستبدّ كلُّ إنسانٍ بكلِّ إنسان.

إن انتفت الحياة الرهبانيّة من المجتمع البشري يذهب عن الأرض مثالُ الإنسان الكامل، ويسقط المقياس الذي على أساسه يُدان البشر، وتتباطأ نِعَمُ "التجسّد الإلهيّ" وبركاتُه في عملها، ويفتقر علمُ اللاهوت إلى الإيمان، ويذهب عن الكنيسة رونق القداسة، وتضيع منها فرص الاستشهاد، ويقلّ القدّيسون والأخيار، وتخبو نيران الاضطهاد، ويموت المسيح من دون صليب، ويقوم بغير مجد، ويُلغى من أيّام الخلاص "يومُ السبت العظيم"... فتغدو الكنيسة فاترة باهتة، لا شهادة فيها ولا استشهاد. وتخبو حرارةُ الإيمان والقداسة...

هذه هي الحياة الرهبانيّة في أساسها وجوهرها. إنّها جنون من أجل المسيح. جنون ليس هو من منطق هذا الدهر.

وفي تحذير الرسول بولس وتمييزه بين الحكماء والمجانين نجد الأساسَ الواضح للسيرة الرهبانيّة هذه. قال: " لا يَغُرَّنَّ أحدٌ نفسَه، فإنْ عَدّ أحدٌ منكم نفسَه حكيماً من حكماء هذه الدنيا، فليكنْ مجنوناً ليصيرَ حكيماً، لأنّ حكمةَ هذه الدنيا جُنُونٌ عنْدَ الله" (١ قور ٣ /١٨-٢٠).

***

الحياة الرهبانيّة، بما فيها من جنون، ومنذ تنظيمها في لبنان، في ١٠ /١١ /١٦٩٥، وبما أدّت من خدمات، وبما خطّطت له ورتّبت ودبرّت ونظّمت، كادت تشكّل انقلاباً حقيقيّاً في بنية المجتمع اللبناني.

وهي، في "فتحها" المناطق اللبنانيّة، الشماليّة والجنوبيّة، الجبليّة والساحليّة، و"سقوط" عشرات الأديار بين يدَيها، في مدّة لا تتجاوز السنين العشر من نشأتها، شكّلتْ ثورةً حقيقيّة في المعادلة بين الطوائف اللبنانيّة، وقامت بانتفاضة كبيرة شاملة على التقاليد الدينيّة والكنسيّة.

وأخطر ما جاءت به الحياة الرهبانيّة المنظمة في لبنان يعود إلى تلك الخطّة السلميّة وأسلوب تعاملها البسيط الواضح مع الناس. ومسلكها في ما قصدتْ هو هذا : نسك وزهد وصلاة وعمل وشهادة حقّ. وانطلاقاً من هذه القواعد تنظّمت الكنيسة، ووعتْ دورَها، ووقف كلّ بطرك فيها أو مطران عند صلاحيّاته، ووُضعت الرتب والطقوس، وتطأطأت الرؤوس المستبدّة.. وكاد الانتصار يكون كاملاً لولا "غربلة" إبليسيّة هزّتها مراراً ، من الداخل ومن الخارج.

ومع هذا، كانت مسيرتها طويلة من وادي القدّيسين وجبال الأرز إلى معظم المناطق اللبنانيّة، مسيرةً مستمرّةً ناشطة وقويّة. ابتدأت بزخم الإيمان، فانضوى في صفوفها عبّاد متنسّكون، وشبّان شديدو المراس، وأشخاص ينتمون إلى مختلف الطوائف المسيحيّة، من أرمن وأقباط وأروام وملكانيّين، وحتّى من اليهود. ومعظمهم كان، في البداية، من حلب ودمشق وجبال لبنان. كلّهم يودّ التنظيم والإصلاح والحياة الرهبانيّة والشهادة الحقّ.

لم يمضِ على البداية عشرون سنة حتّى كانت الرهبانيّة تملك

أديارا ً عديدة، وتمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعيّة والحرشيّة، في كلّ بقاع وتحت أي مناخ. كلّ مكان كان له عند الرهبان حساب. وحسابهم، بعد الأرض والممتلكات، النفوس، ليعتقلوها للمسيح. وقد أعدّوا لهذا الاعتقال كلّ وسيلة ممكنة في ذاك العصر، من فتح مدارس، ومياتم، ومأو للعجزة، ومستشفيات، ومستوصفات، ورعايا، ووعظ، وإرشاد، وتعليم، وشهادة حياة...

وفي سبيل هذا الاعتقال اتّخذوا المواقف الوطنيّة الصريحة. وحرّكوا الأدمغة، ولولبوا الحركة، وخدموا مجّاناً، واستضافوا من دون حساب، ورهنوا الممتلكات، وضحّوا بالغالي والنفيس، في سبيل شعبهم والحياة الحرّة الكريمة، في الحرب كما في السلم. لقد كانوا ميزان المواقف الصحيحة، ومعيار َ الصراحة. في قمّة الحياة الروحيّة والقداسة، كان منهم قدّيسون. في الأعمال والمشاريع العمرانيّة، كان بعضهم روّاداً وسبّاقين.

تاريخ حافل بالحركة والحياة. قد لا تجد له، بين مؤسّسات العالم، مثيلاً. المؤسّسة الرهبانيّة، منذ نشأتها، كانت مثال الحياة المنتظمة، الثائرة، القائمة ضدّ كلّ فساد أو جمود. لولاها لتأخّرت مسيرة الكنيسة في الشرق. ولولا مناخس الرهبان الحادّة لنام السلاطين والامراء والأعيان والرؤساء عن مصالح الرعيّة. هم الرهبان الذين أقاموا الأرض وأقعدوها، وأقلقوا كلّ عقل مطمئنٍّ مغبوط. ولا يزالون يكمّلون ما به ابتدأوا.

فأمام هذا التاريخ الحافل، لنا أن نقف، بعد ثلاثمائة سنة ونيّف من الجهاد والعناء والشهادة، وقفة فخر واعتزاز. وللرهبانيّة وقدّيسيها نحني الرؤوس إجلالاً. وللرهبان، في مختلف مجالات الحياة والعمل، كلّ تقدير واحترام. للقدّيسين منهم، للنسّاك والمرسلين، للمعلّمين والعاملين، للرعاة والعبّاد، لروّاد الفكر والمناضليين في حقول شتّى، لفاتحي القارّات الخمس، للقابعين في زوايا الأديار والمحابس، لحاملي رايات الوطنيّة الصحيحة.. لهم جميعاً تحيّة ٣٠٠ سنّة ماضية، و٣٠٠ سنة قادمة.

فهرس كتاب الحياة الرهبانيّة

فهرس الجزء الثاني